رينوار.. أبي

28.2.2015

جان رينوار

ترجمة:
عباس المفرجي

جان رينوار

رينوار ... أبي

ترجمة

عباس المفرجي

Twitter: @ketab_n

رينـــوار... أبي

Twitter: @ketab_n

مذكرات

Author: Jean Renoir
Title: Renoir My Father
Translator: Abbas Al-Mafrajy
P.C.: Al Mada
First Edition: 2013

المؤلف: جان رينوار
عنوان الكتاب: رينوار أبي
المترجم: عباس المفرجي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٣

Copyright © Al-Mada

جميع الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول -
تلفاكس: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٦ - ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٧
www.daralmada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box : 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أيّ جزء من هذا الكتاب أو تخزين أيّ مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أيّ نحو، أو بأيّ طريقة سواء كانت الكترونيّة أو ميكانيكيّة، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلّا بموافقة كتابيّة من الناشر ومُقدماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reprocuced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means: electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

ISBN: 978-2-8430-618-1

Twitter: @ketab_n

جان رينوار، ولد في باريس عام ١٨٩٤ ، وهو الإبن الثاني للرسام بيير- أوغست رينوار. بعد أن أكمل تعليمه في معهد سانت- كروا دو نويي، وفي جامعة ايكس- ان- بروفانس، أصبح على التوالي خزّافاً، ضابطاً في سلاح الفرسان، مؤلف أفلام منذ العام ١٩٢٤ ، ومؤلف مسرحيات منذ العام ١٩٥٥ (اورفيه - ١٩٥٥، كارولا - ١٩٦٠، اقتباس عن مسرحية كليفورد اوديتس «السكين الكبيرة» — ١٩٦٧). أخرج للسينما أكثر من خمسة وثلاثين فيلما، أشهرها «الكلبة» (١٩٣١)، «بودو أنقذ من الغرق» (١٩٣٢)، «مدام بوفاري» (١٩٣٤)، «ليه با- فوند» (١٩٣٦)، «لابارتي دو كومباني» (١٩٣٦)، «الوهم الكبير» (١٩٣٧)، «قواعد اللعبة» (١٩٣٩)، «رجل من الحنوب» (١٩٤٥)، «النهر» (١٩٥٠)، «العربة الذهبية» (١٩٥٣)، «فرنش كانكان» (١٩٥٤)، «لو كابورال ايينغلي» (١٩٦٢)، «مسرح جان رينوار الصغير» (١٩٦٩).

حاز جان رينوار على: جائزة لوي- ديلوك عام ١٩٣٦، جائزة بينالة فينيسيا العالمي (للأعوام ١٩٣٧، ١٨٤٦، ١٩٥١)، الجائزة الكبرى لأكاديمية السينما في عام ١٩٥٦، وجائزة شارل- بلان في عام ١٩٦٣ عن كتابه بيير- أوغست رينوار، أبي. توفي في منزله في بيفرلي هيلز (كاليفورنيا) عام ١٩٧٩.

Twitter: @ketab_n

القارئ : هذا ليس رينوار الذي تقدمه لنا، إنّه تصوّرك الخاص عنه.

المؤلف : بالطبع، فالتاريخ هو جوهري ذاتيّ.

Twitter: @ketab_n

تقديم
روبرت أل هربرت[1]

في ربيع عام ١٩٦٣، كتب جان رينوار، من منزله في هوليوود، إلى ناشر كتبه بنيت سيرف:

«بودّي أن أحاول إعطاء شكل لما أتذكره من أحاديث أجريتها مع والدي، على الأخص في السنين الأخيرة من حياته. سوف لن أنقل الحوارات بالضبط، إذ إنني لا أتذكرها، بل سأحاول أن أقدم فكرة عن انطباعي الماضي بشأن هذه اللقاءات، والطريقة التي تركت بها تأثيرا عليّ اليوم. دارت هذه الأحاديث حول أمور شتى: تجربته في الماضي، طفولته، عائلتنا، أصدقاؤه، الأشخاص الذين كانوا موضع إعجابه، وفي جزء كبير منها، أيضاً، وجهة نظره المرتابة عن التغيرات السريعة لعالمنا الحديث».

كان المخرج السينمائي، وقتذاك، يبلغ التاسعة والخمسين من العمر، وعند صدور الكتاب في عام ١٩٦٢، كان قد بلغ الثامنة والستين. عندما بدأ هو وأبوه أحاديثهما المطوّلة في عام ١٩١٥، أثناء فترة نقاهة جان الطويلة من

---

(١) ناقد فني، بروفيسور في جامعة ييل، وماونت هوليوك، عضو في الأكاديمية الأمريكية للعلوم والفنون، له مؤلفات عن الانطباعية والرسامين الانطباعيين بينهم رينوار.

Twitter: @ketab_n

جراح متعاقبة أصيب بها في الحرب، كان جان في الواحدة والعشرين من العمر، وأوغست في الرابعة والسبعين. فالكتاب، إذاً، هو ذكريات ابن، ملأى بالحنين، عن أبيه في خريف عمره، دوّنها عندما بلغ هو نفسه هذه المرحلة من العمر. عمراهما المتقدمان أنتجا، بشكل مؤثر، مزيجاً مؤثراً من الحنين للماضي.

في محاولته لإضفاء، ربما، نوعٍ من الحياة على ذكرياته، وضع جان كلمات أبيه بين قوسين، بالرغم مما قاله لسيرف بأنه لن يقوم بنقلها حرفياً. فهو لا يملك كتابات مسجلة لأحاديثه بين عامي ١٩١٥ و ١٩١٩، لذا استل هذه الأحاديث من الذاكرة، ومن اللقاءات التي أجراها مع العديد ممن عرفوا الرسام، وبشكل رئيسي غابريال رينار سليد (١٨٧٩- ١٩٥٩)، التي كانت مربيته في الطفولة، وواحدة من موديلات الرسام المفضلات، والتي كانت تعيش وقتئذٍ في الجوار، في هوليوود. استخدم في أحاديثه جهاز تسجيل، وربما ملاحظات مكتوبة، عندما كان الإثنان (يلعبان لعبة صغيرة في الغوص في الماضي). كانت غابريال مصدره في الفترة التي سبقت ولادته وفي طفولته المبكرة. (من الصعب معرفة أي من الذكريات الخاصة بي وأي الخاصة بها). طلب جان، أيضاً، من أصدقاء وباحثين أن يزودوه باقتباسات مطوّلة من الكتابات المبكرة عن رينوار، والنصف الأول من الكتاب يتألف في معظمه من مزيج من هذه الكتابات وسير حياة وتواريخ متيسرة. بالإضافة إلى ذلك فإنه استخدم كتابات شاملة بقلم والده (كانت قد نشرت لتوها)[٢]، إستشهد منها بثلاث صفحات من أقوال مأثورة، وأعاد صياغتها ونظمها من جديد على شكل حوار.

---

(٢) «ورشة الطبيعة»، كتاب رينوار عن فن الزخرفة، تحرير روبرت أل هربرت، مطبعة جامعة ييل، ٢٠٠٠.

Twitter: @ketab_n

غلب على كتاب «أبي رينوار» طابع المرح واتسم أحياناً باللهجة الفظة، التي ميّزت أفلام ما بعد الحرب لجان رينوار، مثل «فرنش كانكان» (١٩٥٥)، أو «مسرح جان رينوار الصغير» (١٩٦٩)، أكثر مما اتسم بالجدّة النقدية لأفلامه العظيمة، مثل «الوهم الكبير» و«قواعد اللعبة» (الإثنان أنتجا في السنوات الأخيرة من الثلاثينات). لكن حين يبلغ الكتاب زمن أحداث الحرب الأولى، يأخذ طابعاً أكثر مباشرة. ربما لأن جراح جان التي أصيب بها في رجله، جعلته يتعاطف أكثر مع حالة أبيه الصحية. لا يمكن للمرء أبداً أن ينظر ثانية بلامبالاة إلى رسوم وبورتريهات رينوار، بعد أن يقرأ ذكريات جان عن معاناة أبيه الكارثية من مرض الروماتزم. بالرغم من عجزه، فإن رينوار نادرا ما توقف عن الرسم، ومن ثم ـ هذا ما يكتبه مخرج الأفلام: «يجتاح الظلام مرسمه في بولفار روشيشو، فيحمله إلى الانسياق وراء الماضي. فآخذ أنا عوناً من هذه الفسحة كي أرفعه من كرسيه، ماسكاً به بإحكام، بينما تقوم غران لويز بملء وسادته المطاطية بالهواء، ثم، وبأكبر قدر ممكن من الحيطة، نضعه على كرسيه، ونجعله يستقر بأفضل وضع. (كم هو شيء قذر هذا المطاط!... هل لك أن تعطيني سيجارة؟) يسحب من سيجارته أنفاساً قليلة، ثم يطفؤها».

إنه وصف مثير للمشاعر، ذاك الذي يصف فيه جان محاولات أبيه المبكرة في تفادي مرض الروماتزم، الذي شلّ في النهاية يديه، عندما كان يلعب البيلبوكيه (لعبة كرة القَرْن)[٣]، وحين لم يعد هذا ممكناً صار يستخدم جذعاً خشبياً ناعماً.

لم يعطِ جان الكثير من التفاصيل عن حرفة أبيه، لكنه قدم وصفاً مفعماً

---

(٣) لعبة مؤلفة من كرة مثقوبة يصلها حبل بعصا دقيقة الرأس على شكل قرن ويطلب من لاعبها أن يشد بالحبل لينطبق ثقب الكرة على رأس العصا.

Twitter: @ketab_n

بالحيوية عن الرسام أثناء عمله، وهو يتمايل في كرسيه جيئة وذهاباً نحو اللوحة بحركات سريعة متيبسة، وفرشاة الرسم مشدودة إلى معصمه.

يكتب جان:

«كان يرهق موضوعه على نحو متواصل مثل عاشق يضايق فتاة هيأت نفسها للصراع قبل الاستسلام. كان يبدو، أيضاً، وكأنه مشغول بمطاردة صيد. العنف المصحوب بالقلق لضربات فرشاته، اللجوجة والدقيقة، والتي تضيء مديات رؤيته الثاقبة، تذكرني بالطيران المتعرّج لطائر السنونو وهو يلاحق حشرة. استعرت هذه المقارنة من عالم الطيور عمداً. فرشاة رينوار المربوطة بإدراكه البصري، تشبه منقار السنونو المربوط بعينيه».

يقدم جان وصفاً مباشراً لبعض من مواضيع بورتريهات رينوار، ومنها اللوحة الشهيرة لتاجر اللوحات امبريوس فولار. نحن نعرف أن رينوار اختار لموديله زي مصارع الثيران في اللوحة التي صوّر بها فولار عام ١٩١٧، كي يتلاءم مع ما كان يراه من غرابة في هذا الرجل الداكن البشرة. (كان في ما مضى «عطيل») ها هو ينقل كلام أبيه، (وحين تقدم به العمر صار ماسينيسا ملك نوميديا).

الجمال الخاص لكتاب «أبي رينوار» يكمن في تدفق لاوعي جان، الذي يجري في كلا الاتجاهين بينه وبين أبيه. كتب أن والده (كان سيبتهج لو عرف أن الذرة يمكن أن تفلق) ومن ثم فإن الرسام (سيتخيل أن المكروبات التي تسبب الزكام، على سبيل المثال، تعتبر نظامها الشمسي، داخل أنفه، مركز العالم). هذه العبارات تبدو ملائمة لأن تكون ما تخيل جان أن والده سيقوله، أكثر مما قاله فعلاً. إذا أردنا برهاناً آخر على هذا الدمج بين الشخصيتين، سنجده في القائمة التي أعدّها جان عن الأشياء التي يحبها أبيه وعن الأشياء التي يكره، والتي من العسير تمييزها عن تلك الخاصة به هو. كان أوغست

Twitter: @ketab_n

يحب (سقوف القرميد البورغونية أو المتوسطية المكسوة بالأشنات؛ جلد امرأة متعافية أو جلد طفل؛ الخبز الأسمر؛ اللحم المشوي على نار خشب أو فحم،... سراويل الجينز التي يرتديها العمال، المغسولة والمرممة مرّات كثيرة).

بين مشاهد الحياة التي يتشارك بها جان مع أوغست، هي كره (التغيرات السريعة في عالمنا المعاصر) التي أشار إليها في رسالته إلى سيرف. حسب رأي الرجلين، إن المادية والآلات والإنتاج الكبير تخمد الفردية وتفسد الطبيعة وقيم الفن. فهي (جذام الصناعة الحديثة)، التي كتب عنها جان عندما عاد إلى زيارة أماكن أبيه في شاتو. تقريباً كل لقاء غير متوقع في الكتاب مع مواقع أبيه المرسومة ومنازل عائلته القديمة يجعله يتفجع على حياتهم الغابرة. ففي الأقاليم اليوم (استبدلت بيوت المزارعين الصغيرة، وسقوفها القرميدية المتوسطية، بشقق من بنايات الإسمنت المسلح. والطاحونة القديمة في الوادي تحولت إلى نادٍ ليلي). في مونمارتر، يأسف جان على اختفاء الجنينة الصغيرة قرب مرسم أبيه القديم، التي صار مكانها بناء من ثمانية طوابق.

في رسالته إلى سيرف قال جان: (سأحاول تقديم فكرة عن إنطباعي الماضي) في لقاءاته مع والده (وعن الطريقة التي تركت بها أثراً في نفسي اليوم) فيلم «فرنش كانكان» الذي أخرجه بعد سنتين من بدء العمل في الكتاب، يدور حول هذا الأثر، لأنه عودة مليئة بالشجن إلى مونمارتر في نهاية شبابه، حيث تمتزج الذاكرة برسوم أبيه. في هوليوود، حيث أقام بعد العام ١٩٤٠، كانت حديقة زوجته ديدو، تذكره بـ «بارادو»، الحديقة الجنوبية في رواية زولا «غلطة القس موريه». أحاط نفسه بأثاث وأشياء من البيت العائلي لأبيه (بساط سحري يأخذني بعيداً إلى حياة ماضية أتمنى أن أعيشها ثانية). استعان بسجادته السحرية كي يقدم وصفاً رائعاً عن أناس (العهد الجميل)، مثل الممثلة جين ساماري، التي رسمها رينوار قبل ولادة جان بزمن طويل.

Twitter: @ketab_n

الحوار بينه وبين القارئ في مدخل الكتاب، يُظهر جان كأنه كتب كتابه بوصفه فيلماً. إنه يتذكر زمن إقامته، بعد وفاة أبيه، في شارع فروشو في بناية، تقول الأسطورة إن ديما الأب شيدها، وهذا يدعوه إلى إقحام آراء أبيه عن ديما. من الشقة نفسها، في رو فروشو، كان بوسعه أن يرى المبنى الذي عاشت فيه جين ساماري. يتخيلها متكئة على النافذة تتطلع إلى الخارج، أو هي تتسوّق في الصباح في شارع لوبيك (تتخير بعناية البطيخ، تتلمسه لترى إن كان ناضجاً، وبنظرة فاحصة تنظر إلى البيض لتتأكد أنّه طازج).

من الحماقة الاعتراض على هذه الاسترجاعات السينمائية، لأن قيمة وجاذبية كتاب جان رينوار تكمنان في بنائه التخيلي لزمن وشخصيات رسوم والده. فنحن لم نعترض على النوع نفسه من الماضي المستعاد في «حصان العروس»، الوصف الجدير بالذاكرة لمقاطعة بريتاني، الذي يعتمد فيه بيير-جاكي الياس على المقابلات التي أجراها مع أبيه وجده، ليصيغ استعادة نوستالجية لعهد ماضٍ، قبل أن يولد. إن كلا الكتابين ينتميان إلى رفوف مكتبة كل من يسعى إلى فهم الثقافة الفرنسية في العهود الغابرة.

«أبي رينوار» من الوثائق الأكثر ندرة، كتاب يقدم متعة هائلة، حين يستكشف أفكار إثنين من أعظم الفنانين.

Twitter: @ketab_n

١

في نيسان عام ١٩١٥، أسدى لي رام بافاري ماهر فضلاً حين أصاب رجلي بطلق ناري. وبسبب هذه الإصابة نُقلت أخيراً إلى المستشفى في باريس، حيث حضر والدي ليكون بقربي. كانت وفاة والدتي سحقته، وحالته الصحية كانت أسوأ ما تكون عليه. الرحلة من نيس إلى باريس أنهكته كثيراً، فلم يعد قادراً على زيارتي في المستشفى. لكني حالما تعافيت، بما يكفي لأمشي بساق مضمدة، أمكنني بسهولة الحصول على إذنٍ بالمغادرة إلى البيت.

حين وصلت، فتحت لي الباب واحدة من موديلاته، لابولانجيير، كما ندعوها. حالما رأت عكازيّ أطلقت صرخة، فخرجت غران لويز، طباختنا، من مرسم أبي، الذي كان في طابق شقتنا نفسه. أخذت كلتاهما تقبلاني وسط الدموع، وقالا لي بأن "المعلم" مشغول برسم بعض الزهور التي اشترتها لابولانجير من بولفار روشيشور. كنت لاحظت، عند نزولي من عربة الأجرة، بائعة الزهور وهي تتكئ على عجلة عربة اليد الصغيرة. هي المرأة نفسها التي كانت قبل الحرب. ظاهرياً، لم يتغير شيء، عدا دمدمة موقد النار التي تُسمع عندما تهب ريح الشمال.

كان أبي ينتظرني جالساً على كرسه المتحرك. لم يعد يقوى على المشي منذ سنوات عدة. وجدته أكثر هزالاً من المرة الأخيرة التي رأيته فيها قبل أن أغادر إلى الجبهة. مع هذا فإن الانطباع الذي على وجهه ما زال يطفح

Twitter: @ketab_n

بالحياة. سمع صوتي، وأنا في الردهة، وكان يبتسم من السعادة، برغم ان التعبير الذي على وجهه يفصح عن سخرية، وكأنه يريد القول، (لقد أخفقوا في إصابتك هذه المرة، أليس كذلك؟) ناول الملون إلى غران لويز بحركة عرضية تقريبا، وقال لي محذراً، (انتبه لئلا تنزلق. لقد دهن البواب الأرضية تكريماً لقدومك، وهي خطرة جداً!) ثم التفت إلى المرأتين قائلاً، (اغسلاها بالكثير من الماء جيداً. كي لا ينزلق جان ويسقط).

قبلت أبي، وكانت لحيته مبللة بالدموع. طلب سيجارة، فأشعلتها له. في البدء لم نجد ما نقوله واحدنا للآخر. جلست في مقعد أمي المفضل، وهو كرسي صغير بمسندين، مغطى بقطيفة وردية اللون. قطع نشيج غران لويز الصمت بيننا، كانت غالباً ما تتنشق حين تبكي، على طريقة نساء إيسوي، قرية أمي، التي جاءت منها غران لويز. أخذنا نضحك، ففادرت الغرفة غاضبة. كانت دموعها دائماً موضوعاً للتندر بيننا. كنا نقول بأنها هي السبب وراء الملح الكثير في الحساء. عاد رينوار إلى تأمل الزهور التي كان يشتغل عليها، (لتمضية الوقت فقط)، وقمت أنا بجولة في أنحاء البيت، الذي كان يبدو مهجوراً تقريباً. لم تعد هناك الآن أصوات الموديلات والخدم وضحكاتهم. اللوحات أرسلت إلى كانيي[٤]، والجدران عارية، والرفوف فارغة، وكانت تفوح من غرفة أمي رائحة الكافور.

بعد أيام قليلة، صارت حياتنا منظمة أكثر. كنت أقضي معظم وقتي وأنا أراقب رينوار يرسم. حين يتوقف للاستراحة قليلاً، كنا نتحدث عن حماقة الحرب، التي كان يكرهها. أثناء وجبات الطعام، كان ينتقل بكرسيه إلى صالة الطعام. لم تكن له شهية للأكل، لكنه كان يؤمن بطقوس المائدة. أخي بيير، الذي تزوج من الممثلة فيرا سيرجن، والذي هشمت رصاصة ذراعه وخرج من الجيش

---

(٤) قرية تقع قرب نيس، حيث امتلك رينوار منزلاً.

Twitter: @ketab_n

معوّقاً، كان يأتي أحياناً للغداء هو وزوجته وولدهما كلود الذي يبلغ العامين من العمر. برغم إصابته، كان يحاول الرجوع إلى مهنته كممثل من جديد.

ما أن يحل الظلام، حتى يتوقف رينوار عن الرسم. لم يكن يحب الضوء الاصطناعي. كنا ندفعه بكرسيه إلى داخل الشقة، وكنت أبقى عادة وحدي لساعات قبل العشاء وما بعده. غيرتْ الحرب عادات الكثير من الباريسيين، وقليل من الناس كانوا يتزاورون. للمرة الأولى، أحسست، بحضور أبي، أن طفولتي انتهت وغدوت رجلا. جرحي منحني شعوراً إضافيا بكوني أصبحت على قدم المساواة معه. لم يكن بوسعي التحرك من من دون عكاز. كنا الإثنين مقعدين، مقيدين، تقريبا، إلى كرسيينا.

لم يكن رينوار يحب لعبة الداما، ولعبة الورق كانت تضجره. كان مغرما بالشطرنج، لكني كنت قليل البراعة فيه، وكان يغلبني بسهولة كبيرة، ما يجعله يفقد رغبته باللعبة سريعا. كان يقرأ قليلاً، لأنه كان يريد أن يوفر بصره لعمله، مع أن عينيه ظلتا سليمتين، كما كانتا وهو في العشرين من العمر. لم يبقَ إذاً سوى تبادل الحديث. كان يحب سماع قصصي عن الحرب، على الأقل تلك التي تبرز الجانب السخيف منها. واحدة من هذه القصص، والتي سرّ بها بشكل خاص، كانت عن حادث وقع أثناء الانسحاب قرب آراس، عندما أرسلت في دورية مع نصف دزينة من سلاح الفرسان. وقع نظرنا عند قمة التل على نصف دزينة أو ما يقارب ذلك من الأولن (الفرسان البروسيون)، كانوا في مهمة استطلاع أيضاً. انتشرنا في تشكيل قتالي، وأخذ كل منا موقعه، يبعد الواحد منا عشرين متراً عن الآخر، وكلٌ ثبّت حربته، بينما كان الأولن يفعلون الشيء نفسه. بدأنا بالتحرك، سائرين في خط واحد، ثم أسرعنا بخبب، ومن ثم بعدو أسرع، وعندما أصبحنا على بعد مئة متر عن العدو، أشهرنا أسلحتنا وحدد كل منا الفارس الذي أمامه كي يطعنه. شعرنا كما لو اننا نعود بالزمن إلى عصر فرانسوا الأول، في معركة مارينيان. أخذت المسافة تضيق. صار

Twitter: @ketab_n

بإمكاننا أن نميّز التعابير المرسومة على وجوههم تحت الخوذ، مثلما كانوا هم يميزون وجوهنا. في بضع ثوانٍ كان الأمر كله انتهى. بالرغم من نخسّنا لها، وهزّنا لجامها، لم تبدِ الخيل رغبة كبيرة في اختراق الصفوف، وغيرت اتجاهها بعيداً، لتحملنا خارج صف الرماح المضادة. عبر التشكيلان بعضهما بسرعة وبعدو صاخب، مقدمين، لبضعة خراف كانت ترعى في المكان، عرضا رائعا لكنه وديع عن الفروسية. بخيبة أمل عدنا إلى موقعنا، كما عاد الألمان.

في مقايضة عادلة لي عن قصصي الحربية، أمتعني رينوار بذكريات شبابه. أفاد من هذه الفرصة للتقرّب من ولده، والرجل الذي شعرت حينها بأني أصبحت عليه. بدأ رينوار يكتشف المجهول. أعتقد انه حاول، في ذلك الوقت، أن يوضح الأشياء كي يعينني على فهمها على نحو أفضل، ونجح إلى حد بعيد. ففي أثناء أحاديثنا، أضحى الطفل، والشاب، والرجل الناضج الذي كان، أكثر وضوحاً لي. امتلك، كما ترون، سبباً جيداً لكي أكون ممتنا لذلك الجندي البافاري الذي جمعنا أنا وأبي ثانية.

غالباً ما كنت ألوم نفسي لأني لم أنشر في الحال، بعد موت رينوار، مختارات من أحاديث عدة كانت لي معه. لكني الآن لم أعد نادماً، فإنقضاء السنون، والتجارب التي خبرتها بعد تقدم العمر، منحتني رؤية أوضح عنه. وثمة جانب واحد من شخصيته، لم ألمحه فيه حتى في تلك الفترة، هو عبقريته. كنت معجباً برسومه بشدة، لكنه إعجاب أعمى، إذ كنت أعي بصعوبة عما كان يدور حوله الفن بوجه عام. كل ما كنت أفهمه منه هو المظهر الخارجي، لأن مرحلة الشباب مادية، والآن بت أعرف أن الناس العظام ليس لديهم من مهمة أخرى في الحياة سوى مساعدتنا على رؤية ما وراء المظاهر: أن يخلصونا من بعض أعباء الماديات ـ أن (يحرروا أنفسنا من العبء)، كما يقول الهندوس.

Twitter: @ketab_n

أتمنى أن أقدم للقارئ هذه المجموعة من الذكريات، والانطباعات الشخصية، كجواب جزئي عن سؤال طالما واجهته: (أي نوع من الناس كان والدك؟)

Twitter: @ketab_n

٢

كان لأبي ذكريات سعيدة عن طفولته، برغم أن ابويه كانا فقيرين. كنت مقتنعا ان رينوار لم يحاول أبداً أن يجمّل فيها أي شيء. كان يكره هذا النوع من الهذيان الذي ينغمس فيه الناس في الحديث عن الماضي، والعجائز منهم بوجه خاص. كان مولعا بما تبقى من أسلوب العيش للقرن الثامن عشر في فرنسا، مع انه كان يدرك كم كانت هذه البقايا هشة. كان يأسى كثيراً للإصرار الأحمق لدى مواطني قرنه التاسع عشر على تبديد إرثهم. كان يبدو له سلوكهم هذا شبيهاً بسلوك شخص ممتلئ صحة وخالٍ من الهم، لكنك تراه يتجه ببطء وعزم نحو الانتحار.

إراقة الدماء في العام ١٩١٤ كانت بالنسبة إليه المشهد الختامي في تاريخ بلادنا. وبالنظر لندرة الممثلين فإن الأداء قارب على النهاية. ولأنه لا يسعه مقاومة إغراء المفارقة، فكان يضيف إلى قوله، أنه لا اعتراض لديه على الحرب، لأنها تسهم في إنقاص عدد السكان. (نحن من الكثرة بحيث أننا لسنا مجرد حشد. في أثينا كان هناك بضعة آلاف من الأفراد). وغمز بعينه حين نطق كلمة "أفراد". حفيظته الأساسية ضد الحرب كانت ما نتج عنها من بقاء الناس غير الصالحين على قيد الحياة: هذا هو الأمر، إنها تقتل "أصحاب الشهامة" وتدع "الأوغاد" أحياءً. أصحاب الشهامة مولعون بتقديم

Twitter: @ketab_n

أنفسهم ضحايا، ليس بدافع من الوطنية أو الشجاعة، بل لأنهم ببساطة لا يحبون أن يدينوا بحياتهم لبديل مجهول. (النتيجة ستكون أن الأوغاد هم الذين يصنعون التاريخ. وأي تاريخ!).

في ذهن رينوار، الشهامة لا علاقة لها بمولد الإنسان. سأبحث هذه النقطة في ما بعد عند الحديث عن أصوله. لكن عليّ أولا أن أشير إلى أنّه في حديثه عن الدمار في الحرب العالمية الأولى لم يكن يدّعي إطلاقاً بأنه يمثل دور النبي. كان يعبر عن مخاوفه دائماً بشكل عرضي. شكلت هذه الطريقة جزءاً من حبه للحياة. كان أي نوع من الدمار، سواء للبشر أو للحيوانات أو للأشجار أو للأشياء، يروّعه. إنّه لم يغفر أبداً لنابوليون تعليقه، طبقاً لمؤرخ ما بعد محرقة ايلاو: (ليلة في باريس ستعوّض عن كل هذا).

ولد بيير- أوغست رينوار في ليموج عام ١٨٤١. جده فرانسوا رينوار، الذي توفي عام ١٨٤٥، كان يزعم أنه نبيل المحتد، وكان يشرح ذلك، بأنه مُنح اسم رينوار من صانع أحذية آواه حين كان طفلاً رضيعاً. كان يبدو انه حين عاد لويس الثامن عشر للحكم في ١٨١٥، بعد سقوط نابوليون، ذهب فرانسوا إلى باريس ليقدم قضيته أمام لجنة شكلت لدراسة طلبات الأرستقراطيين الذين تم سلبهم في الثورة. وبإخفاقه مع اللجنة، حاول أن يرفع استئنافا إلى الملك، لكن حرّاس جلالته وضعوه برفق خارج الأبواب. هذه القصة تم تأويلها في العائلة بطرق مختلفة. حموا جدّي ليونار، في مدينة سنت، كانوا يصدقونها، لكنه هو نفسه لم يكن يأبه كثيراً بألقاب النبالة. كان مهتما أكثر بالأمل في استعادة أرض قيّمة. جدّي كان مقتنعاً بأن المالك الحالي لا يمكن أن يتخلى عن أي شيء من دون صراع، ولكي تهيئ نفسك للقتال فأنت تحتاج إلى النقود. بعد ولادتي، كنا نذهب إلى لوفيسيان لزيارة جديّ اللذين كانا يعيشان منعزلين في بيتهما الصغير، فكان يعاد طرح القضية أحياناً. زوج عمتي ليزا، شارل ليراي، كان يعتقد أنه يناكد أبي حين يدعوه بـ"مسيو لو

Twitter: @ketab_n

ماركيز"، لكن رينوار لم يكن حتى يسمعه. كان مشغولا بالضوء والأشجار في إيل- دو- فرانس أكثر من المزحات العائلية. كانت له ملكة عجيبة في أن يغدو أصما متى وافقه ذلك. كان الكثير من الناس يعزون هذا إلى شرود الذهن، لكنه بالأحرى كانت مقدرة على التركيز على ما يناسبه، والبقاء منيعا لما يبدو غير ملائم وغير ذي جدوى. لم يكن بأي حال من الأحوال من النوع الذي يغرق في أحلام اليقظة، كانت أحلامه مبنية على الملاحظة الحادة للحياة، ومن أجل أن يفهم الواقع أفضل كان يحصر إدراكاته الحسية في بضعة أشياء واضحة.

كاتب من ليموج يدعى هنري هيغون، نشر في لايف ليموزين، في ٢٥ شباط (ذكرى مولد رينوار) في عام ١٩٣٥، حكاية مثيرة للاهتمام عن علاقة الرسام بالمدينة التي ولد فيها. أقتطف هنا بعض مقاطع من دراسة هيغون هذه، قد تسهم في إلقاء الضوء على سلسلة نسب أسرتي. بذل هيغون، الذي يعرف ليموج وليموزين بشكل جيد، عناءً كبيراً في البحث في الموضوع. يكتب:

"نحن نصل الآن إلى الجزء قبل الأخير من أبحاثي: هذا يعني الزواج الذي جمع، بتاريخ الرابع والعشرين من فريمار[٥] من السنة الرابعة (١٧٩٦) في ليموج، المواطن فرانسوا رينوار، بالغ سن الرشد، مهنته صانع أحذية، من سكنة ليموج في محل دو كولومبييه، قسم دو لوغاليتي، والمواطنة آن رينييه، القاصر، والابنة الشرعية لجوزيف رينيه، مهنته نجار... الشاهد الرئيسي واحد من الأصدقاء، والشهود الثلاثة الآخرون من أقارب العروس".

عثر هيغون بسهولة على شهادة المعمودية لآن رينييه في أبرشية سان

---

(٥) الشهر الثالث من رزنامة الثورة الفرنسية (١٧٩٢- ١٨٠٥). يبدأ في الأصل من ٢١ تشرين الثاني حتى ٢٠ كانون الأول.

Twitter: @ketab_n

ميشيل ديه ليون، بالإضافة إلى معلومات أخرى عن العائلة. لكنه لاقى صعوبة في التحقق من أصل فرانسوا رينوار، إذ لم يتم في سجل الزواج الإشارة إلى والدي العريس. راجع هيغون، من غير طائل، جميع السجلات في كل الأبرشيات في ليموج وضواحيها، حتى استوقف انتباهه اسم القس الذي التحق قبل الثورة بالمستشفى العام. كان اسمه لينوار. يمكنني أن أفهم كيف أن التشابه بين اسمي لينوار ورينوار أثار فضول هيغون، خصوصاً أنه سبق أن وقع بالمصادفة على لينوار آخر، قاضٍ تولى مهمة إتمام زواج العروسين رينوار عام ١٧٩٦. يتاح للمرء أحياناً تخيل الطرق المختلفة في تصنيف العناصر التي يتألف منها كوننا، وإلى التساؤل عن السبب في أن طرقاً معينة لا يمكنها أن تكون مبنية على أصوات بدلاً من أفكار. أبي، الذي طالما ارتاب بالعقل، كان سيحبذ هذا. مسيو هيغون كوفئ على إندفاعه اللاديكارتي، إذ اكتشف في السجل الكاثوليكي للمستشفى، حيث خدم القس لينوار المدخل التالي: (في سنة الرحمة، ١٧٧٣، في الثامن من كانون الثاني، قمت بتعميد مولود جديد، ولد لقيطاً، ومنح اسم فرانسوا...) ويختتم مؤلفنا قوله: (وفقاً للتقاليد، أي طفل مهجور، بدون أوراق تثبت هويته، يأخذ اسماً أولاً فقط، حيث يضاف في ما بعد اسم العائلة، الذي يؤخذ غالباً من الأب بالتنشئة). وكانت هناك عائلة في ليموج تدعى رينور، ويفترض هيغون بأن اللقيط تبناه صانع أحذية يدعى رينور.

نحن نعلم أنه بعد ثلاثة وعشرين سنة، في عام ١٧٩٦، تزوج فرانسوا من آن رينييه. وكاتب سجلات الزواج كتب اسم العريس مثلما أعطي له شفاهاً وتهجّاه "رينوار"، وفات الأمر على الزوجين الشابين لأنهما كانا أميين. بهذا الحدث اكتسبت أسرتنا اسمها القانوني، بسبب نزوة كاتب الزواج.

هنا، ما قاله امبريوس فولار في مطلع الفصل الثاني من كتابه " حياة وعمل بيير- اوغست رينوار".

Twitter: @ketab_n

(يُفترض أن الكلام هنا لرينوار): (كانت أمي غالبا ما تحدثني كيف أن جدي، ذو الأصل النبيل الذي أبيدت عائلته أثناء عهد الإرهاب (الثورة)، تبناه حين كان طفلاً، صانع أحذية اسمه رينوار). أنا أكن إعجاباً عظيماً لسيرة الحياة التي كتبها فولار، لكن سيكون من الإجحاف أن نأخذ كلامه كحقيقة منزلة، بسبب ان رينوار، من جهة، كان يحب أن (يضلل) تجار اللوحات، ومن جهة أخرى لأن فولار، التاجر الحالم العظيم، كان يعيش حبيسا في حلم. قال أبي عن كتابه: (جيد جدّاً هذا الكتاب عن فولار بقلم فولار). كتاب عنه كان يبدو له، من جهة أخرى، لعبة صبيانية، (لو كان هذا يسليه فأنا لا أرى فيه ضررا لأحد). ثم أضاف (كذلك ما من شخص سيقرأه أبدا). وهنا لم يكن مصيباً.

تعود بي الذاكرة إلى بعض من أقوال رينوار حول الوراثة: (انهما الوالدان اللذان يكوّنان الأطفال، لكن بعد ولادتهم. قبل ذلك، هناك المئات من التأثيرات، لا نستطيع أن نحدد آثارها. عبقرية موزارت نشأت ربما من راعٍ اغريقي، كان وقبل زمن طويل من عهد المسيح، متأثرا بصوت الريح في القصب. أنا أشير، بالطبع، إلى السمات الوراثية المهمة. وكما في الروماتزم أو الآذان التي تشبه القنبيط، يمكنك دائماً أن تلقي اللوم على بعض الأجداد). قول آخر: (في بضعة أجيال يمكنك أن تولّد حصان سباق. لكن الوصفة التي يُصنع بها رجل مثل دولاكروا هي أقل وضوحا). قول آخر أيضاً: (وظيفة الوالدين أن يؤالفا بين قوى عدة غامضة، ليس فقط قوة الحياة في الكائن البشري، بل أيضاً القوى المتأصلة في الغابات، في البحر، في كل الحياة، سواء كانت شاقة أو يسيرة). ثم أخيراً: (نواة الخوخ لا تعطي ثمرة تفاح). هذا الإثبات يتوازن في الحال مع هذا الإثبات الآخر: (أكثر عيوب ومزايا الأطفال تنتج عن أولئك الذين عنوا بتربيتهم. أمير يخطفه الغجر، سيتعلم سرقة الدجاج مثل بقية الغجر، لكن ربما سيسرقه بطريقة أميرية).

Twitter: @ketab_n

لو كان رينوار يهتم قليلاً بمزاعم جده حول اللقب، لكان من المؤكد سيسّر بأنه تم تبنيه على يد صانع أحذية. (عند التفكير بأني ربما أكون ولدت في عائلة مفكرين، كان سيأخذ مني الأمر طويلاً كي أتخلص من كل أفكارهم وأبدأ برؤية الأشياء كما هي. وقد أكون أخرق اليدين). كان يتكلم باستمرار عن الأيدي. وكان دائماً يحكم على الناس الذين يلتقيهم أول مرة من خلال أيديهم. (هل رأيت هذا الرجل كيف يفتح علبة سجائره؟ انه وغد. وهذه المرأة، هل لاحظت الطريقة التي تصفف بها شعرها بإصبع السبابة؟... فتاة رائعة). أحياناً كان يقوم بتصنيف الأيدي: (يدان حمقاوان... يدان رطبتان... يدان مبتذلتان... يدا عاهرة...)

سنرى، شيئاً فشيئاً، كم كان من العسير عليه أن يقبل بالقيم السائدة. فكرة أن العقل أسمى من الإحساس لم تكن حكماً من أحكام الدين عنده. لو طلب منه أن يعد قائمة بأعضاء الجسم البشري طبقا لقيمتها، فسيبدأ بالتأكيد باليدين. في جارور مكتب قديم في البيت، لدي زوج من القفازات كان يرتديهما. قفازان رماديان بهت لونهما، صنعا من جلد فاخر، حجمهما يبعث على الدهشة. (كانت له يدان صغيرتان، لا يُصدق أن تكونا يدي رجل) كما قالت غابريال[٦]. إذا كان أي من أسلافه مسؤولا عن يدي رينوار، فأني بدلاً من التفكير بالقبضة العريضة لجده صانع الأحذية، سوف لا أملك غير أن أستحضر أصابع رقيقة لسيدة عظيمة، اعتادت العزف على الهارب أكثر من الغسيل. لكن دعونا نعود إلى بحث هيغون.

بعد زواجه، أقام فرانسوا في ليموج دكانا لصنع الأحذية. كان للزوجين الشابين تسعة أبناء. ليونار، الابن البكر، ولد في الثامن والعشرين من شهر

---

(٦) ابنة عم مدام أوغست رينوار، وواحدة من موديلات الرسام.

Twitter: @ketab_n

ميسيدور[٧] من السنة السابعة (١٧٩٩)، وأصبح خياطا وسافر في أرجاء البلد. في ١٧ تشرين الثاني، ١٨٢٨، تزوج من مارغريت ميرليه، خياطة من مدينة سنت، وعاد ليستقر في ليموج، حيث صار لديه سبعة أطفال. الطفلان الأولان ماتا في عمر مبكر، ثم جاء هنري، ليزا، فكتور، بيير- أوغست (أبي)، ادمون، الذي ولد في باريس. وهنا سجل ولادة رينوار:

"في هذا اليوم، الخامس والعشرون من شباط ١٨٤١، في الساعة الثالثة بعد الظهر، حضر أمامنا، وكيل السيد عمدة ليموج، ليونار رينوار، مهنته خياط، عمره ٤١ عاما، يسكن في بولفار سانت كاترين، وقدم لنا طفلاً جنسه ذكر، ولد له ولزوجته مارغريت ميرليه، عمرها ٣٣ عاما، في البيت، في الساعة السادسة من صباح اليوم. ومنح الطفل اسم بيير- أوغست".

(٧) شهر الحصاد، الشهر العاشر من رزنامة الثورة.

Twitter: @ketab_n

٣

توفي والد جدّي، فرانسوا في عام ١٨٤٥، بعد مجيء جدّي ليونار واستقراره في باريس. كان أبي حينها في الرابعة من العمر، وفي العاصمة إنما نشأت وتكونت شخصيته. ذكرياته عن بلدته ليموج سرعان ما تلاشت. كان رينوار يعد نفسه باريسياً. في تلك الفترة، كانت الأرض المستوية لمنطقة اللوفر، بدلاً من أن تكون مفتوحة على حدائق التويلّري، تنتهي عند حد قصر التويلّري، الذي دمرته النيران أثناء الكومونة. اليوم، هذا الفضاء مزروع بالورود التي تتغير مع كل موسم، لكنه في العام ١٨٤٥، كانت تحده البيوت، وكان شارع دارجنتوي يمتد عبرها حتى رصيف نهر السين. بنيت هذه البيوت في القرن السادس عشر على يد سلالة الفالوا الملكية لإيواء عوائل النبلاء من الحرس الملكي. الأفاريز المكسورة، والأعمدة المهشمة، والبقايا من شعارات النبالة، كانت شاهدا على ترفهم السابق. الساكنون الأصليون كانوا استبدلوا، منذ وقت طويل، بناس أقل غنى. في واحدة من هذه البيوت إنما عثر جدّي على شقة للإيجار، وانتقل إليها مع أسرته.

يستغرب المرء كيف سمح الملوك المتعددون لهذه الجيرة الفقيرة أن تكون قريبة منهم إلى هذه الحد. كان الحي عبارة عن شبكة متقنة من المجازات والأزقة، تتشابك بأكثر الأشكال نزوية. الفسيل يتدلى من الشرفات، والروائح

Twitter: @ketab_n

تتصاعد من المطابخ التي بإمكانك أن تستدل منها على الأقاليم التي انحدر منها سكان المبنى. من اليسير أن نتخيل كم تحرز مسيرة التقدم من نجاح في معايير المطبخ الفرنسي. في باريس، بخار قدور الطبخ ما زال يجعل عابر السبيل يحزر إن كان الطباخ بورغونيا يطهو لوبياء مع لحم الخنزير المقدد، أو بروفانسيا يعّد طبقا يعبق برائحة ثوم قوية.

كان أبي يرى في هذه اللامبالاة التي أبدتها العائلة الملكية نحو ضوضاء وروائح عامة الشعب، دليلا على بقاء الأعراف السائدة حية، (قبل بزوغ البورجوازية...). (الديمقراطية، ألغت الألقاب واستبدلتها بألقاب تشريف صبيانية تماماً). كان يكره أن تقسم المدن الحديثة إلى أحياء فقراء، وأحياء بورجوازيين، وأحياء عمال، وهلم جرّا. (إنهم أفسدوا الجزء الأفضل من المدينة) ثم قال غاضبا: (أنا أفضل الموت على العيش في باسي). كانت باسي ـ المنطقة الأنيقة ـ بالنسبة له نوعا من كبش الفداء الذي يصب عليه إحتقاره. (قبل كل شيء إنها ليست باريس، بل هي ليست غير مقبرة كبيرة على أبواب باريس). ذات مرّة أتت إليه امرأة تطلب منه أن يرسم لها بورتريها، لكنه طردها، لأنها كانت تبدو دعيّة، مشيراً في ما بعد، (أنها على الأرجح من باسي).

لويس فيليب "الملك البورجوازي" لم يكن برجوازياً في الصميم إلى الحد الذي يتضايق فيه من أن يكون قرب الناس الذين يسكنون بيوتاً قديمة. في ما يخص آل رينوار كانو يجدون من الطبيعي أن يكونوا جيرانا لسلالة الملك هنري. الصبيان الأفاقين في الحي تبنوا في الحال الفتى الليموجي وأشركوه في ألعابهم، وكان أشهرها لعبة "عسكر وحرامية". الألعاب التي كانوا يلعبونها في باحة اللوفر، يرافقها بالطبع، كثير من الصراخ والعراك. كان يتجمع سرب الأولاد الأشرار ليضايق الحرس الملكي، فيذهب هؤلاء إلى آبائهم طالبين منهم لجم ذريتهم. فتظهر أمهات المجرمين في المشهد ليضعن

Twitter: @ketab_n

حدّاً للشجار، فيوجهن صفعات عدة إلى أولادهن، الأمر الذي يثير موجة جديدة من الصراخ. عندئذٍ، كانت تفتح نافذة في قصر التويلّري، وتطل منها سيدة وقورة جدّاً تومئ للشياطين الصغار بأن يهدأوا. فيتجمعون في الحال تحت النافذة مثل طيور سنونو جشعة، ثم تظهر سيدة أخرى توزع عليهم الحلوى. كانت هذه ملكة فرنسا، التي تحاول أن تحظى بلحظة سلام. بعد أن تفرغ من التوزيع، تغلق السيدة الجليلة النافذة، وتعود الملكة ماري- أميلي إلى واجباتها المنزلية، ويعود الأوغاد الصغار إلى ألعابهم.

قدم ليونار رينوار وزوجته وأولاده إلى باريس، بالطبع، بمركبة سفر عمومية. هذه الرحلة من ليموج استغرقت أكثر من أسبوعين. لا يتذكر أبي منها شيئاً، لكن عمي هنري حدثني عنها مرّات عديدة. وهو يتذكر، بوجه خاص، الحر الذي لا يطاق داخل ذلك الصندوق المتدحرج الذي كانت وسيلة التهوئة الوحيدة فيه نافذة صغيرة. قبل البدء بالسفر، تمكن آل رينوار من جمع بضع قطع من السو[٨] من بيع أشياء لم يكونوا بحاجة حقيقية لها. ارتدوا أفضل ملابسهم التي خاطها أبوهم لهم من أقمشة جيدة، فكانت ثقيلة بما يكفي لتقيهم برد الشتاء القاسي في ليموج. في أحد أيام الرحلة، وكانت الشمس تتوهج بلا رحمة، أصيبت ليزا بإغماء. حملها الحوذي خارجا وأجلسها إلى جانبه على المقعد، وعندما بلغوا المحطة التالية لتبديل الخيول أعّد لها كأسا من الكونياك الصافي فشربته. تأخرت جدتي في الخروج من العربة كثيراً لإنقاذ ابنتها من هذا الدواء القوي.

ذات مرّة، وقد جلسوا إلى طاولة الطعام الرئيسية داخل نزل على طريق رحلتهم، كان بين المسافرين بائع متجول يعيد، كل ليلة، رواية الحكاية نفسها

---

(٨) الجزء العشرون من الفرنك.

Twitter: @ketab_n

عن هجوم تعرضت له الديليجانس (المركبة العمومية الفرنسية)، وزعم انه كان واحدا من ركابها. أجبر قاطعو الطريق المسافرين على الترجل من العربة ثم سلبوهم مالهم وحقائبهم وملابسهم. هو نفسه أفلت من اللصوص، لأنه كان ممدا على أرض العربة ثملا، وبقي على هذا الوضع ولم يلحظه أحد. استفاق بعد ساعة، بعد أن استأنفت المركبة رحلتها، فأدهشه أن يرى رفاق رحلته عرايا مثل آدم في جنة عدن.

بعد وجبة العشاء غادرت جدتي مع ليزا للنوم في واحدة من غرف النزل، أما ليونار رينوار والأولاد فافترشوا القش في الاسطبل.

هناك عدد من هذه الخانات لا يزال موجودا في فرنسا. أعرف واحدا منها، نزل فخم يقع قليلاً إلى الشمال من مدينة سان- إيتين. كان ينتصب على تقاطع طريقين رئيسيين، وهو بناء ضخم، جدرانه مبنية من صخور الأردواز، ومثقوبة بفرجات منتظمة تشكل نوعا من نوافذ صغيرة. المدخل الذي يشبه عربة مغطاة، مفتوح مثل فم هائل على زاوية المبنى. في كل مرّة اذهب فيها إلى هذه المكان يدهشني جمال عمارته الخشبية. تبدو العوارض الخشبية الرئيسية وكأنها تطير، محلقة نحو السقف، والدعامات تتعانق بما يشبه المخرمات.

أحسّ وكأني أركب بدنا متقلبا لسفينة كبيرة. مرآب العربة والاسطبل يحتلان مكانا رحبا، ويواجهان الباحة الكبيرة في الوسط التي تشبه قاعة الانتظار في محطات القطار، وتفضي إلى كل أجزاء المبنى. في ذلك الزمن القديم كانت الخيول تقف في مرابطها والناس يتجمعون معا في قاعة مشتركة، يشربون في أباريق النبيذ المحلي.

المرة الأخيرة التي أقمت فيها هناك، كان النزل لم يفقد أياً من أجوائه المزدحمة بعد، برغم أن عربات الديليجنس أبدلت بسيارات الشحن. إن

Twitter: @ketab_n

سائقي الشاحنات، هؤلاء الشعراء الحديثون للطرق السريعة، لهم إدراك سليم باتخاذ هذا النزل مكانا للتوقف في رحلاتهم. مثلي أنا، ربما تخيل السائقون عربات الزمن الماضي الثقيلة بإطاراتها المعدنية الضخمة وهي تدور بقعقعة مدوّية، وبأحصنتها الستة تدوس بقوة على حجر الحصى، ودواليبها المعدنية تبعث رذاذا من الشرر. عندئذ، كانت تظهر النادلات بمآزرهن المكوية مسرعات، والحوذي يعبّ من قدح نبيذ أبيض بارد قدمه له صاحب النزل: تقدير يُحسد عليه، لبطل هذه اللحظة، للرجل الذي جلب للقرويين النائمين في أسرّتهم إحساساً بجو المدينة، ما كان لهم أن يعرفوه أبداً.

في الوقت الحاضر تجيء الشاحنات الكبيرة بسُحب دخانها وغبارها، فتظهر النادلة على باب النزل، وهي ترمي السائق بنظرة واعدة عن عالم زاخر بالراحة. تنهض القطة وتتمطى، وتبرز مخالبها، ثم تفتل كرة عند حد الموقد، بينما يجلس الرجل، وإذناه ما زالتا تطنان من ضجيج محرّك عربته.

يتملكني العجب من القدر الذي سبّب وقوع حياة رينوار بين طورين مختلفين تماماً من تاريخ العالم. صحيح أنه كانت في شبابه قطارات السكة الحديد، لكنها كانت تذهب إلى مسافات قصيرة فقط، والكثير من الناس يخشون السفر بها. أقاويل كثيرة كانت تدور حول حوادث رهيبة على خط باريس – فرساي، وعن ضحايا كثيرين، بينهم ديمون- ديرفيي. فسّر الناس مقتله بالفأل السيئ، ذلك ان هذا الملاح الشهير كان قادرا على الإبحار في بحور نائية، مستكشفا أراضي مجهولة، وعاش وسط آكلي لحوم البشر من من دون أن يصاب بمكروه، بيد أنه ارتكب خطأ شنيعاً بركوبه قطار احترق فيه وتحوّل إلى رماد. بعضهم يجزم ان الدخان المنبعث من القاطرات يؤذي أنواعا معينة من المحاصيل الزراعية، وحتى انه يمنع البطاطا من النمو.

عديد من الاكتشافات العظيمة التي غيرت وجه العالم، حدثت في ذلك

Twitter: @ketab_n

الوقت: صهر المعادن الخام في الأتون ؛ التنقيب عن الفحم في أبعد الأعماق؛ صنع الملابس بواسطة الآلات. لكن عدا انكلترا التي أضحت فيها المكننة واقعاً قائماً، لم تغير الثورة الصناعية الأشياء هنا حقا. بصرف النظر عن الملابس والأدوات التي يستخدمونها، كان الفلاحون في الريف حول ليموج يشتغلون في الأرض بطريقة أجدادهم نفسها.

كان الشانزليزيه في تلك الأيام، لا يزال حديقة عامة، وكانت مصابيح النفط تستخدم في الإضاءة، وما أنفك الناس يعتمدون على الرافعة في الحصول على الماء، والفقراء منهم يذهبون إلى الينابيع العامة. كان التلغراف في مرحلة التجريب، والمنازل تدفأ بواسطة المواقد، ويتم تنظيف المداخن بيد منظفي المداخن الصغار الذين يتسلقون سراعا أنابيب المدخنة، مرتدين قبعة حريرية عالية، محتفظين إلى جانبهم دائماً بحيوان المرموط الأليف. كان السكّر يباع بقطع كبيرة، يتم تكسيره بأداة حادة أو مطرقة. كانت النيران، في بعض الأحيان، تخمد بواسطة رجال يشكلون سلسلة فينقلون دلاء الماء من واحد إلى آخر. لم يكن هناك نظام للمجاري، ولسبب بسيط هو عدم وجود بالوعات: كانت المبولة التي توضع في حجرة النوم هي السائدة. الأغنياء كانوا بدأوا للتو بترك هذه الأوعية الليلية. كانت الخضروات تزرع في فناء البيوت، أو في حدائق السوق المجاور، والخمر تقدم في أوعية فخارية، فالقناني الزجاجية كانت نوعا من الترف، وكان يتم صنعها في مصانع الزجاج التي يعمل فيها اولاد ينفخون في نهاية أنبوب طويل. وكان العديد منهم يموت بمرض السل، ولم تكن الواحدة من هذه القناني التي يصنعونها تشبه الأخرى.

كان القصابون يذبحون ماشيتهم في مؤخرة المحل، أو في الفناء. ربات البيوت اللائي يأتين لشراء قطعة لحم طرية يستقبلهن "الجلاد" بمريلة ويدين ملطخة بالدم. كان من المستحيل تجاهل واقع أن القوة واللذة المستمدتان من أكل اللحم يُدفع ثمنها بالألم والموت.

Twitter: @ketab_n

المخدر، بالطبع، لم يكن معروفاً في ذلك الحين، وكذلك المكروبات والمطهرات. كانت النساء يلدن أبناءهن بألم، إتفاقاً مع قضاء الخالق. كانت النساء الفقيرات يرضعن أطفالهن من صدورهن، أما الثريات فيستأجرن مرضعة فتية، تتميز بشعرها المزين بشرائط صغيرة مختلفة الألوان. كان يتفق أحياناً أن المرضعة تداري طفلها هي على حساب الطفل الآخر، ما يؤدي إلى أن طفل المرأة الثرية ينمو ضعيفا، وكان هذا امرا معروفا. نساء المجتمع كن مسلولات ويبصقن دما: اللون الصحي والصدر المعتنى به جيدا كانا يعدان ذوقا رديئا، فالنساء الفلاحات فقط كن يبدون مغريات. الرياضة بوجه عام لم تكن شائعة. كان الأولاد الفقراء يلعبون كرة اليد، أما الأغنياء فيمارسون ركوب الخيل. كان المدخنون يلّفون سجائرهم بأنفسهم. الأقفال، نوابض العربة، الأدوات وأعمدة الدرابزين كانت تصنع يدويا. وكان الحرفيون يسكنون فوق دكاكينهم، وهم لم يصلوا بعد إلى مرحلة القيام برحلة طويلة بمترو الأنفاق للذهاب إلى المصانع. المطاحن التي تدار آليا لم يكن لها وجود، والطحين يحوي كل الفيتامينات التي في الحنطة (القمح)، والخبز كان خشنا ومغذياً. الشغيلة يعملون إثنا عشر ساعة في اليوم، مقابل فرنك واحد ونصف. دزينة البيض تكلف سو واحد، يتشارك بها ثلاثة عشر فرداً. كان السو الواحد مبلغاً كبيراً: يعادل أربع ليارات (الليار يقابل الفارذنغ الانكليزي، وهو ربع البنس، في تلك الأيام). وبليار واحد يمكنك شراء نصف رغيف بريوش. عند الخروج من الكنيسة بعد القداس، فإن امرأة "محترمة" كانت تعطي ليارا واحداً لمن تفضله من الفقراء الذين تجمعوا أمام الكنيسة، وإذا أعطته سو واحداً، فإن استقامتها ستغدو محل شك، وستتهم بأنّها تحاول الاستيلاء على ملكية الآخرين، إذ كان يُنظر إلى المتسول مثل حُلية، مثل مروحة، مظلة خفيفة من الحرير أو زوج من القفازات.

الغرامفون لم يُخترع بعد. كان على الأغنياء الذهاب إلى حفلات

Twitter: @ketab_n

الكونشرتو للاستماع إلى موسيقاهم، وبإمكانهم أيضاً، إذا رغبوا، تعلم العزف على البيانو. الفقراء كانوا يعزفون على الفلوت مقابل سو واحد، ويغنون الأغاني التي كتبها الموسيقار الشعبي بيرانجيه. وفي الصيف يرقصون في مقهى صغير مفتوح تحت الأشجار، وكانت المتعة تتضاعف لو كانت الفرقة التي تعزف حية. رقصة الكانكان كانت هي المفضلة بين الأحياء الفقيرة، بينما أحياء الطبقات الأغنى قليلاً كانت ترقص على الخطوات الجديدة للفالس، الذي كان منبوذاً من الكنيسة. كان المعدل العادي لعمر الإنسان في فرنسا خمسة وثلاثين سنة. وبالرغم من ضحايا الحروب النابوليونية، كانت نفوس فرنسا أكبر من أي بلد آخر في أوروبا الغربية. وكانت الجزائر محتلة قبل خمسين سنة، في ذلك الحين. والدوق دومال حاكما لها، وكان العرب يحبونه. مسرحية الكسندر ديما "نابوليون" أحرزت نجاحا كبيراً في مسرح بورت سان مارتان الذي كان مسرحا ضخما حينها، ويسع جمهورا من أربعة آلاف شخص. استمر العرض ثلاث ليال متعاقبة. لم تكن الصور المتحركة اخترعت بعد، كذلك الراديو والتلفزيون بالطبع. لم يوجد ثمة ما يدعى بالتصوير الفوتوغرافي: الرجل العصامي الذي يرغب بصورة شخصية له عليه الذهاب إلى الرسام، كذلك يفعل صاحب المحل الذي يرغب صورة لمحله يعلقها في ردهة البيت.

هكذا كان حال العالم في عام ١٨٤٥، حين وصل أبي بعربة من ليموج إلى باريس.

توفي أبي في عام ١٩١٩. قبل ذلك بأربع سنوات تسلمت أنا رخصة طيار في سلاح الجو. مضى وقت طويل قبل أن يتعرّف الناس على "البرثيات الكبيرة"[٩] والغارات الجوية والهجوم بالغازات السامة. كانوا يهجرون الريف

(٩) جمع برثية berthe قبعة نسوية عريضة مدوّرة تغطي الكتفين، تنسب إلى «بيرث» والدة شارلمان.

Twitter: @ketab_n

إلى المدينة. ضواحي باريس بدأت منذ ذلك الحين تتحول إلى مكان بشع كما هي عليه اليوم. والطبقة العاملة وقعت في شرك المصانع. الخضروات التي تباع في باريس كانت تجلب من جنوب فرنسا، وحتى من الجزائر. كان لدى رينوار سيارة بمحرّك، يستخدمها للتنقل من نيس إلى باريس في رحلة تستغرق يومان. لديه هاتف في المنزل، وأجريت له عملية جراحية واستفاد من التخدير. عمليات المخاض صارت أقل ألماً. اكتسب الفرنسيون هوسا بكرة القدم. المقاهي الصغيرة تحولت إلى قاعات رقص رخيصة. قامت الثورة الشيوعية. انتشرت معاداة السامية. أصبحنا نملك غرامفون، وعارضة أفلام، كان أخي الصغير كلود يعرض فيها الأفلام لأبي. كان لدينا طاقم كريستال. انشغلت الصحف بقضية رواج المخدرات بين الأجيال الشابة. صار الطلاق شائعاً. كانت هناك أحاديث عن حق الشعب في الحكم الذاتي. مشاكل البترول بدأت تشغل العالم. علم النفس غدا موضة رائجة، وأخذ الناس يتحدثون عن رجل يدعى فرويد. العلاقات المثلية باتت معروفة. النساء بدأن يقصّرن شعرهن. ربات البيوت صرن يستخدمن علب الطعام المحفوظ، وأصررن على ان البازلاء المعلبة أفضل من الطرية. ضريبة الدخل أمست أمراً واقعاً. جوازات السفر أصبحت إلزامية، وكذلك التدريب العسكري. السادة الكهول ألقوا محاضرات عن مشاكل الشباب. بدأ الناس يدخنون سجائر مصنعة. الاولاد والبنات، أخذوا يهاجمون المارّة في الشوارع في اوقات متأخرة من الليل. الطرق صارت مقيّرة. بيتنا كان مجهزا بتدفئة مركزية، ماء جار حار وبارد، غاز، كهرباء، وحمام.

ثمة بون شاسع بين الأيام التي كان فيها الفتى رينوار يمضغ حلوى الملكة اميلي في باحة اللوفر، وبين الأيام التي يجلس فيها ابنه في سيارة سريعة في الطريق إلى الميدي (الجنوب الفرنسي). في الوقت الذي توفي فيه أبي كانت الثورة الصناعية غدت واقعا قائما. بدأ الإنسان يؤمن أن بإمكانه

Twitter: @ketab_n

القيام بمحاولات جادة للهرب من لعنة الله. أولاد آدم أخذوا يهاجمون أبواب جنة عدن، والعلم سيمكنهم من كسب لقمة العيش من دون عرق ينضح من جبينهم.

كنا أحياناً، أنا وأبي، نحاول أن نحدد أيها كانت اللحظة التقريبية التي تأثرت بها الحضارة، بتحوّل العمل من اليدوي إلى الذهني. أقرّ رينوار ان التقدم حصل بالتطوّر من أول أداة حجرية إلى اكتشاف موجات هيرتز، لكنه أصرّ على أن التصاعد المذهل في سرعة التقدم خلال زمننا بدأ باختراع الأنابيب، فالماء والغاز وكافة أنواع السوائل صارت تجلب بواسطة الأنابيب، كما أتاحت بناء معامل التقطير، لتقطير النبيذ والشعير. قبل وصول الأنبوب، كنا نسكر بالنبيذ المتخمر طبيعياً فقط.

جلبت لنا الأنابيب القاطرة والحمامات. لقد أسهمت في بناء مونمارتر. حين كان رينوار فتيا، بدأت الأنابيب تسود العالم لتوها. لم تبدأ المصانع بعد بإنتاج الأنابيب باليارادات مثل المعكرونة. مونمارتر كانت قرية، مجرد قرية، وكانت مكاناً مبهجاً جداً، قابعة وسط أيكات كثيفة من الزهور البرية. لا يمكن لمونمارتر أن تكون أكثر من قرية، لأن فيها فقط خمسة آبار، وهذا يحد من أعداد شاربي المياه. مع "الأنبوب" صار الماء يُمد وصولاً إلى التل، ما نتج عنه أن مونمارتر غدت، بشعة، مغطاة ببيوت رمادية كبيرة. سجون لنمال راضية. أنا نفسي، كوني جئت إلى عالم متأخر جداً عن الترحيب بوصول الماء الجاري، ومصابيح الغاز وكونياك الثلاث نجوم، كنت أعزو التغيرات العظيمة إلى حرب ١٩١٤، التي كنا نكابد منها آنئذ. وكي أدعم حجتي، رويت لأبي حكاية لها علاقة بالجرح الذي جعلني الآن بقربه. وقد تأثر بها جداً. كنت أصبت لتوي بجراح ونقلت للاستشفاء في مستشفى ميداني في الجبهة. كنت سمعت كيف تغيرت الحياة في مدينتي. لكن في جناح المستشفى، الذي كان وقتئذ كل عالمي، لم أكن أرى شيئاً من العالم في الخارج، كما الجرحى

Twitter: @ketab_n

الخمسين الآخرين معي، فهم لا يعرفون أكثر مما اعرف. ذات يوم أُعلمت بأن زوجة أخي بيير أتت لزيارتي. أحسست بأنه لا بد من أن يكون الأمر طارئا جداً، عدا ذلك لا تسمح السلطات بدخول المدنيين إلى ميدان الحرب. لكن لأنها كانت فيرا سيرجن، نجمة المسرح الكبيرة وقتذاك، سبّب الأمر إثارة جديرة بالاعتبار. قائد المستشفى كان منفعلاً جداً، واستقبلها في مكتبه الخاص، بينما كان المرضون والجرحى ذوي الجروح الخفيفة يستعجلون في ترتيب الجناح. كان ذلك في شهر حزيران، وتكلفت واحدة من الراهبات الطيبات بجلب حزمة من الزهور البرية لتجعل المكان مشرقا. لكنها حذرتنا بأن الزهور ستعود، بعد الزيارة، إلى المذبح حيث يجب أن يكون مكانها.

أخيراً وصلت فيرا سيرجن. كانت تسريحة شعرها قصيرة، وترتدي ثوبا يصعد حتى الركبة. بدت لنا ملابسها غريبة لشخص في حالة حداد. إذ كانت تحمل معها خبر وفاة أمي. كنت مصدوما بهذا الكائن الجديد الذي حط علينا فجأة، فاستلزمني الأمر بضع ثوان قبل أن أفهم رسالتها المروعة. الفتيات اللائي تركناهن وراءنا، أنا وزملائي الجنود، كانت لهن شعور طويلة. كانت فكرتنا عن الجمال الأنثوي ترتبط بشعر المرأة الذي ألفناه، وها نحن نجابه على حين غرّة بالمظهر الجديد لحواء. في بحر شهور قليلة خلعت المظهر الخارجي للعبودية. عبدتنا، نصفنا الآخر، صارت نداً لنا، شريكتنا. زي جديد، وبضع قصّات بالمقص، وفوق هذا اكتشافنا بأنها قادرة على العمل الذي كان حتى ذلك الحين حكراً على الرجل والسيد، هو ما دمرّ للأبد البناء الاجتماعي الذي حافظ عليه الذكر لآلاف السنين.

بعد رحيلها انتشرت الملاحظات والتعقيبات غزيرة وسريعة. (هذا النوع من المظهر يليق بها لأنها ممثلة... علينا أن نعتاد على هذا... إنه لا بأس به لفتيات باريس، لكني أعرف أنه عند أهلي في كاستلنوداري لا أمي ولا أختي...) الرجل الراقد بجوار سريري، وهو فلاح من فونديه، كان أكثر

Twitter: @ketab_n

صراحة: (حين أعود، لو وجدت زوجتي ترتدي مثل هذه الأثواب، سأضع رجلي في...!) استخدمت هذا الحدث، على نحو عرضي، في فيلمي "الوهم الكبير".

كان أبي يتذكر بوضوح الشقة التي عاش فيها حين كان طفلا - (علبة محارم) هكذا كان يدعوها. كان يفضل أكثر أن يكون في الشارع. (في شوارع باريس كنت أشعر أني في بيتي. لم يكن هناك سيارات حينئذ وكان بإمكاننا التمشي متمهلين كما نشاء...).

ولادة أخيه الأصغر ادمون، وكل ما استلزم في هذه المناسبة من غسل ملابس واستقبال زوار، لم تدع له ولإخوته حتى المجال الصغير من البيت. لحسن الحظ، كان اخوه الأكبر هنري غادر البيت، كي يتدرب كحرفي عند صائغ فضة، صديق لجدّي. بعد بضعة أسابيع غدا خبيراً ماهراً، فازداد أجره، ما أتاح له أن يستأجر غرفة مؤثثة، فأخذ أبي سريره إلى الغرفة الصغيرة، وكان يتقاسم سريره الأخير مع أخيه فكتور. كان رينوار، قبل هذا، مضطراً للنوم على "دكة" الخياط التي نصبها أبيه في "الردهة" حيث يستقبل زبائنه. في تلك الفترة كان الخياطون جميعا يجلسون متصالبي الأرجل، بطريقة شرقية، على منصة خشبية بحجم متر ونصف طولاً ونصف متر عرضاً، وبعلو خمسة عشر إنشاً. يتذكر رينوار ما كان يبدو عليه أبيه، وهو يضم رجليه مثل هندوسي، محاطاً بلفات القماش، والمساطر، والمقصات، ووسادة صغيرة من القطيفة الحمراء يحتفظ بها مثبتة على ساعده، كي يغرز بها أبره ودبابيسه. كان يقف فقط حين يستقبل زبونا أو للأكل أو لقضاء الحاجة. لكن جلسته التي تشبه جلسة بوذا، كانت تبدو لأطفاله طبيعية، ذلك انه حين يجيء إلى مائدة الطعام يدهشون تقريبا لرؤيته يمشي مثل البشر العاديين. بعد العمل كان ليونار رينوار يضع جانبا كل شيء استخدمه على الدكة. عندئذ يأخذ أبي الحشية والبطانيات التي إحتفظ بها فوق خزانة الثياب خلال النهار، ويعدّ فراشه على الدكة. لم تكن الحشية سميكة بما يكفي، والدكة الخشبية

Twitter: @ketab_n

قاسية تحتها، لكنه لم يكن يبالي، فالحشية بالنوابض كانت ترفاً مقصوراً على الأغنياء. ما كان يزعجه، هو وخز الدبابيس المبعثرة على الأرض، حين كان ينسى أن يلبس نعاله في الصباح. كان جدّي ليونار رجلاً وقوراً وصامتاً، يرى مهمته الوحيدة في الحياة هي أن يوّفر لأولاده تعليماً ملائماً وأن ينشئهم تنشئة تليق بسمعة أسلافهم. كان يعمل طوال اليوم، بدخل متواضع. لكن إذا كان انطباع طفولة رينوار صحيحاً، فإن أبيه كان سعيداً في عمله.

كانت حجرة الطعام في البيت ضيّقة. فالطاولة المستديرة، مع حوافها المضافة، تلامس الجدار تقريباً، وحين تجلس الأسرة للطعام، لا أحد كان بإمكانه أن يتحرك من مكانه. كانت جدتي، مارغريت ميرليه، تجلس على الكرسي القريب من المطبخ، وبخاصة حين يحل موسم البازلاء الطرية. في الربيع كانت البازلاء تجلب من الريف بحمولة عربة وتباع مقابل لا شيء تقريبا. وحيث ان أخويه الكبيرين كانا يتدربان خارجا، وأخته ليزا في المدرسة، فإن عبء مهمة تقشير البازلاء يقع على رينوار. حتى بعد مضي سبعين عاماً كان لا يزال يحس في أصابعه بالضجر من فتح تلك القرنات.

كانت غرفة والديه تطل على شارع دارجنتوي، الشارع الرئيسي من حارتنا التي اختفت. يتذكر أبي أن غرفة والديه، بخلاف كل غرف النوم في بيوت الجيران التي كان يتردد عليها، لم تكن لها ستائر سميكة. كانت جدتي تحب الضوء والهواء.

كانت شقة والديه، كما أعتقد، في الطابق الثاني. وكان السلّم من الحجر والدرابزين من الحديد المطاوع. والباب الأمامي، لسبب ما، ضيق، تؤطره أعمدة لولبية على كل جانب. فوق العتبة ثمة كوّة لتمثال أحد القديسين، دمرت بلا شك أثناء الثورة. لم يبالِ المستأجرون الآخرون كثيراً بمثل هذه العظمة الغابرة، لكن رينوار كان سعيدا لأنه نشأ وسط هذه الآثار لماضٍ أنيق. بالنسبة

Twitter: @ketab_n

له، الأناقة، وحتى الترف، لا تتمثلان بالأحصنة والعربات، والمآدب السخية أو المحظيات المزينات بالجواهر. إنها بالأساس كانت مسألة امتلاك الفرصة للنظر للأشياء في قيمتها الجوهرية. قيمة الشيء تكمن في ذاته، لو عكس فقط شخصية مبدعه. قد يكون تمثالاً، لوحة، صحناً أو كرسياً. قد تكون أتفه أداة من أدوات المطبخ أو تاج الملك شارلمان. الأمر الجوهري هو إمكانية التعرّف من وراء الحجر، الخشب، القماش، على الإنسان الذي تخيل ونفذ العمل. حتى ان رينوار كان يذهب بعيداً فيجزم بأن الأخطاء أو الشوائب في الأشياء تهمه، كما يهمه الاتقان، والتفاهة، كما العظمة.

في ما بعد، وحين نما عمله، استأجر جدّي محلاً في شارع دو لابيبليوتك، فقط ليخرج من شارع دارجنتوي. وقدّر أخيراً لجدتي أن تستعيد ردهة بيتها.

Twitter: @ketab_n

٤

قبل أن أسهب في وصف حياة صبي في باريس يدعى رينوار، أود أن أقدم فكرة عن رينوار نفسه كما بدا لي قبل نهاية حياته.

في حديقة منزلي في كاليفورنيا ثمة شجرة برتقال قرب باب المطبخ مغطاة بالزهور. أحدق بها وأتنشق عبيرها. حين أرى شجرة برتقال تكسوها الزهور أفكر بكانيي، والتفكير في كانيي يستحضر في الحال هيئة أبي. هناك قضى أجمل السنوات الأخيرة من عمره، هناك، حيث مات في منزله، ليه كوليت، لا يزال عبق زهور البرتقال نفسه وأشجار الزيتون الهرمة لم تتبدل. العشب، بوجه خاص، يقرّبنا منه. عشب رفيع، لكنه عال وقوي، لونه رمادي، عدا في فصل الشتاء، يضم أكثر الأصناف تنوعا وممزوجا بأجمل الزهور البرية التي يمكن تخيلها. إنه شيء بين الجاف والوافر، الرمادي والملون، مثلما هي أغلب الأشياء في جنوب فرنسا. عطره لا يقتحم منخريك بعنف كما في الأعشاب البرية الأخرى، القاسية المنبسطة في الأرض المحيطة بايكس-ان- بروفانس. إنه من النوع الأكثر رقة، ولا يُنسى. لو ذهبتُ إلى ليه كوليت معصوب العينين، فسأتعرّف عليه في الحال، من الرائحة ليس إلا. الفيء الذي تلقيه أشجار الزيتون غالبا ما يكون ارجوانيا. انه في حركة ثابتة، برّاق، مليء بالحبور والحياة. إذا ما دعيت نفسك للذهاب إلى هناك، سينتابك شعور

Twitter: @ketab_n

بأن رينوار ما زال موجودا وأنك فجأة ستسمعه يدندن وهو يرسم تخطيطاته على قماشة اللوحة. هذا جزء من المشهد. لا يحتاج الأمر للكثير من المخيلة كي يراه جالسا هناك، يواجه حامل اللوحة، معتمرا قبعته الكتانية البيضاء، معوّجة قليلاً على رأسه، ووجهه الهزيل يتلبسه تعبير من السخرية المحببة. عدا الأسابيع القليلة الأخيرة قبل وفاته، كانت الهيئة المحزنة لجسده الناحل والمشلول لا تؤثر بنا كثيرا، فلم نكن، أنا وغابريال وأخي، مكدرين من ذلك، ولا أي أحد آخر قريب منه. كنا ألفناه، كما ألفه هو أيضاً. في ذلك الحين، ومع مضي الأعوام، كنت أراه أفضل حالا. من السهل أن تتوارد المقارنات إلى ذهني. في الجزائر كان الاوربيون يدعون العربي العجوز بـ "ساق شجرة تين". في فرنسا، رجال الأدب، الذين كان يعجبهم أن ينتحلوا كلام الفلاحين، يشيرون إلى قروي عجوز بعبارة "سويق كرمة". هذه التعابير بنيت تماماً على تماثلات جسدية. في ما يخص رينوار، على أي حال، كانوا سيبالغون بمقارناتهم، فيذكرون الثمار الوفيرة واليانعة التي تنتجها شجرة التين والكرمة من التربة القاسية.

لأبي بعض من سمات العربي العجوز، وجزء كبير من القروي الفرنسي - بغض النظر عن حقيقة أن بشرته ظلت جميلة مثل تلك التي لمراهق، لأنها كانت تصان دوماً من أشعة الشمس. كان عليه أن يحتفظ بقماش الكانفاس بعيداً عن الضوء، الذي، كما يقول، (يخرّب) عمل المرء.

أكثر ما يؤثر بالناس الذين يلتقونه أول مرّة، كانت عيناه ويداه. كان لون عينيه بنياً فاتحاً، يقارب الكهرمان، وهما حادتان ونفاذتان. كان غالبا ما يشير إلى طير كاسر طائرا في الأفق فوق الوادي، أو إلى دعسوقة تتسلق وريقة نبات في حزمة من الأعشاب. نحن، مع أعيننا الفتية، كان علينا التحديق بعناية مركزين وفاحصين كل شيء عن قرب، بينما كان هو يحدس في الحال أي شيء يثير اهتمامه، قريبا كان أم بعيدا. إلى هنا ينتهي الحديث

Twitter: @ketab_n

عن الجانب المادي لعينيه. أما عن التعابير التي تملكها عيناه، فلهما تعبير عن حنان ممزوج بالسخرية، تعبير عن الفرح الممزوج بالحسية. كانتا دائماً تبدوان ضاحكتين، ترصدان الجانب الغرائبي من الأشياء. لكنه كان ضحكا لطيفا محببا. ربما كان أيضاً قناعا. لأن رينوار كان خجولا بشكل مفرط في إظهار مشاعره، وكان لا يحب أبداً إبداء أي إشارة على العواطف التي كانت تغلبه حين ينظر إلى الأزهار، والنساء، والفيوم.

يداه كانتا مشوهتان بشكل مروع. داء الروماتزم جعل من مفاصله متيبسة، وسبّب تعقف إبهاميه إلى الداخل نحو راحة يديه، وأصابعه انثنت نحو رسغيه. الزوّار الذين لم يكونوا مهيئين لهذا المنظر، كانوا لا يستطيعون رفع أعينهم عن تشوهه. وبالرغم من عدم تجرؤهم على الحديث عنه، فقد كان رد فعلهم يُعبر عنه بعبارات مثل (هذا لا يمكن!... مع يد مثل هذه، كيف أمكنه أن يرسم هذه اللوحات؟ هناك شيء من الغموض في الأمر). "الغموض". كان رينوار نفسه غموضاً خلاّباً سوف لن أحاول شرحه، لكني سأكتفي فقط بالتعليق عليه في هذه المذكرات. بوسعي تأليف عشرة كتب، بل مئة كتاب عن رينوار الغامض، من من دون أكون قريبا من سبر أغواره.

بما أني بدأت الحديث عن السمات الجسدية لرينوار، سأشير، بالإضافة إلى ذلك، إلى بضعة تفاصيل أخرى. قبل أن يصبح مشلولا كان طوله يقارب الستة أقدام. بعد ذلك، لو قدّر له أن يقف منتصبا ما كان سيغدو بنفس الطول، لأن عموده الفقري قصر قليلاً. شعره، الذي كان يوماً بنيا فاتحا، تحول إلى أبيض، لكنه ظل كثيفا بعض الشيء من الخلف، لكنه عند القمة أصلع تماماً، وهذا لم يكن مرئيا، حيث انه يرتدي دائماً قبعة، حتى داخل البيت. كان أنفه أقنى، يضفي على سيمائه سلطة. كانت لديه لحية بيضاء جميلة، وكنا نتناوب دائماً على تشذيبها. كانت غالبا ما تنحرف قليلاً، بشكل غريب، إلى اليسار، لأنه كان يفضل النوم والغطاء مثنيا تحت ذقنه.

Twitter: @ketab_n

في غالب الأحيان كان يلبس جاكيتا بياقة مزررة حتى العنق، وبنطالا فضفاضا، وكلاهما كانا بلون رمادي مخطط. كان رباط عنقه لافاليير[١٠] من اللون الأزرق الغامق عليه دوائر بيضاء صغيرة، ويُعقد بعناية حول ياقة قميصه الفانلة الصوف. كانت أمي سابقا تشتري له أربطة العنق من محل انكليزي. لأن المصنوعات الفرنسية تتحول ألوانها بمرور الزمن إلى اللون الرمادي الغامق: (لون كئيب، ولا أحد يلاحظه لأن الناس لا عيون لهم. يقول لهم البائع في المحل انه أزرق وهم يصدقونه!) في الأماسي، عدا فصل الصيف، كان يضع على كتفيه "كاب" (رداء خارجي فضفاض بلا كمين). كان ينتعل خفين من القماش السميك، رمادي بمربعات، أو آخر بلون بني غامق مع إبزيم حديد. خارج الدار كان يحتجب من الشمس بقبعة كتانية بيضاء. في البيت كان يفضل ارتداء قلنسوة من النسيج بغطاء لوقاية الأذن، من النوع الرائج في المحلات المستحدثة في بداية القرن وتدعى قبعة "الشوفورز". لم يكن يشبه كثيراً رجلاً من عصرنا، بل كان يتراءى لنا مثل راهب من عصر النهضة الايطالية.

ذات يوم اشتكى سيزان لأبي من رجل ثري من ايكس- ان- بروفانس. كان يبدو أن صاحبنا هذا لم يكتف بتزيين ردهة بيته برسومات بيسنار[١١] - (هذا البومبيير الذي احترق في النار)[١٢] - بل مارس حريته أيضاً في الوقوف إلى جانب سيزان في صلوات المساء وغنى بنغمة نشازا! وإذ أمتعته الحكاية، ذكّر رينوار صديقه بأن جميع المسيحيين إخوة، وأضاف: (أخوك هذا، شاء

---

(١٠) سميت على اسم مدموزيل لافاليير، محظية لويس الرابع عشر.

(١١) (١٨٤٩- ١٩٣٤)، رسام فرنسي.

(١٢) تلاعب بالألفاظ على الكلمة الفرنسية pompier ، التي تعني رجل اطفاء، وترد أيضاً في وصف كاتب تافه أو متحذلق.

Twitter: @ketab_n

له الحق في الإعجاب ببيسنار، والغناء بنشاز في صلوات المساء. في النهاية، كلاكما ستكونان في الجنة إلى الأبد).

(لا) ردّ سيزان بنزق، ثم واصل كلامه وهو بين جاد وهازل، (فوق، في الجنة يعرفون جيدا من يكون سيزان). لم يكن الأمر انه كان يظن نفسه أعلى منزلة من رجل ايكس- ان- بروفانس، بل لأنه ببساطة يرى نفسه مختلفا - (كما يختلف أرنب برّي عن أرنب أليف!) ثم إستدرك قائلا: (أنا لا أعرف حتى كيف أحل مشكلتي مع الأحجام كما ينبغي... أنا لا شيء على الإطلاق...)

هذا المزيج من الكبرياء المتكلف ولا أقل منه التواضع المتكلف، كان أمرا مفهوما تماماً لدى سيزان. فهو لم يُدعى قط لعرض أعماله في صالون "مسيو بوغورو"[١٣]. في حين أن رينوار، الذي كثيراً ما كان عرضة لسهام النقد والحط من قدره حتى نهاية حياته، نجح بتوطيد شهرة عريضة، وكان تجار الفن يتنافسون بشدة على أعماله، وفتحت أبوابها له المتاحف الكبيرة في كل مكان، والأجيال الشابة في كل البلدان أخذت تحج إلى كانيي بأمل أن يتاح لها رؤية الفنان الكبير لبضعة ثوان. بالرغم من كل هذا التقدير لم يكن يصدق ما كانوا يقولونه. ما أن يبدأ الناس بالتحليق مسبحين بالثناء عليه حتى يبادر رينوار بجرّهم إلى الأرض: (من؟ أنا؟ عبقري؟ أي هراء! أنا لا أتعاطى المخدرات، ولم أصب أبداً بالسفلس، وأنا لست لواطيا. إذاً...؟).

---

(١٣) ادولف وليام بوغورو (١٨٢٥- ١٩٠٥) رسام فرنسي، جائزة بري دو روم، عضو في المعهد الفرنسي. عمله الأكثر شهرة، لوحته الكبيرة "ابولو والميوزيات" في ردهة دار الاوبرا في بوردو. ذو شعبية كبيرة في زمنه، وكان يوصم بالتافه والاكاديمي لدى النقاد الحديثين.

Twitter: @ketab_n

٥

كان رينوار، وهو يحدثني عن طفولته، ينتقل بلا تمهيد من الوصف الحماسي للجمال المعماري للحي الذي عاش فيه، إلى الثناء الذي لا يقل حمية على لعبة الدعبل (كريات عاجية أو زجاجية). كان يقدر في كل الحالات، الإقتصاد في الوسائل. وهذه اللعبة، التي يمكن أن تلعب ببضع كرات صغيرة من الزجاج المصهور، كانت في رأيه أسمى من صيد الثعالب، (التي تستلزم خيولا، عربات، ناسا من علية المجتمع، ملابس سخيفة وحتى ثعلباً مسكيناً. أكثر من هذا انها ليست أكثر متعة من لعبة الدعبل). الأمر الأكثر أهمية، كما اعتقد هو، أن لعبة الدعبل كانت وسيلة "إتصال"، واندماج مع الصبيان الآخرين في حي اللوفر. بمعنى آخر، طريقة لإشباع حاجة المرء لرفقة أمثاله من البشر.

نحن نعرف جيدا انه في نظر رينوار، موقف المراقب للبشر هو موقف دعيّ وعقيم. كان يعتقد ان رغبة الفنان بأن يشرب من ينابيع الحياة نفسها لا بد أن تكون لاواعية. بالنسبة له، المشكلة لا تكمن في فهم البشر بل في الإختلاط بهم، بأن تكون جزءا من المجموع، كما الشجرة التي تشكل جزءاً من الغابة. كل مبدع عظيم ينقل رسالة إلى العالم، لكن في اللحظة التي يكون فيها على وعي بأنه ينقلها، فإنها تصبح، تظاهرة غريبة، جوفاء وبلا قيمة.

Twitter: @ketab_n

الأنبياء والقديسون اكتشفوا الحقائق الخالدة لأنهم كانوا مؤمنين بأن هذه الحقائق ليست من خلقهم، وبأنهم مجرد وسطاء لنقل كلمة الله. بعبارة أخرى، السماء لا تمنح وحيها الا للمتواضعين. كان رينوار قطع شوطا بعيدا بإلغائه كلمة "فنان" من مفرداته. كان يعد نفسه "رسّام- صانع". لكني ابتغاء للسهولة سأستخدم في كتابتي هذه الذكريات المصطلح الممقوت "فنان". وقد سألت أبي عفوه عن هذا. لكن،على كل حال، أصبح إستخدام الكلمة جارياً، ومن المستحيل تجنّبها: في الواقع، هو نفسه سلّم بها في النهاية. سنرى في ما بعد أنه كان يرتاب بالمخيلة. (لا بد من أن نملك مقداراً جهنمياً من الغرور الباطل كي نصدّق أن ما يصدر عن ذهننا هو أكثر قيمة مما نراه حولنا. فالمخيلة لا تأخذنا بعيدا جداً، في حين ان العالم عظيم الإتساع. مهما طفنا في حياتنا كلها، فإننا لن نرى نهاية له).

ينبغي عليّ الاعتراف بأن قصص رينوار، والمشاهد المستحضرة منها، كانت بلا شك متأثرة بولعنا المشترك، أنا وهو، بروايات الكسندر ديما. منذ اللحظة التي تعلّمت فيها القراءة، كان يصّر على مشاركتي حماسه لها. صديق له أخبره بأن مثل هذه الكتب غير ملائمة للأطفال، فهي ملأى بقصص الحب، والزنا، والخطف وما شابه. لكن شعور رينوار بأن مثل هذا التشويه للمبادئ الأخلاقية هو دليل على الصحة الأخلاقية الجديرة بالإعجاب لألكسندر ديما الأب. (أي شيء لا يمكن أن يجعلك مريضاً هو صحي). في أي ظرف، كان من المستحيل أن اسمعه يستغرق في الذكريات عن الباحة الخلفية للوفر من دون أن يتخيل دارتانيان والفرسان الثلاثة، ومن دون الإشارة إلى شخصياتنا المفضلة، من رواية "سيدة المونسورو" و "الخمسة والأربعون". من هذا، يمكن الافتراض بأن البيت الذي عاش فيه آل رينوار كان قد بني لواحد من النبلاء الغاربين من حرّاس الملك. كان شيكو ووسي دامبواس قد داسا بأقدامهما على الحجر اللوحي الأبيض والأسود لأرضية مدخل البيت. في المطبخ، حيث

Twitter: @ketab_n

كان رينوار يقشر البازلاء وهو صبي، كان الخدم يحدّون السيوف التي طُعن بها الدوق غيس حتى الموت. في تلك النافذة نفسها، اعتادت الملكة إميلي الجلوس عندها مع أشغال حياكتها. وكان هنري الثالث يقف غالباً وقد بدا شاحباً ونحيلاً، متبرجاً مثل النساء، وهو يؤرجح بفتور همّة كرة معلّقة بخيط بيده اليمنى. وخلفه مباشرة كان شيكو[١٤] يلعب مع كلب صغير. وفي الأسفل، في فناء القصر يمضي خمسة وأربعون حارساً في موكب على ظهور الخيل، وأعناقهم مشدودة من الإنفعال. ذلك الشبح الشاحب، وريث كل المآسي التي قادت السلالة الملكية إلى نهايتها، كان هو الملك: ملك بلاد فرنسا. عظمة غامضة بدت منبعثة من ذاك الرجل المنحط. هتف له الغاربون بهيجان عظيم من الحماسة. صرخات (عاش الملك!) يترجع صداها من السقوف المعقودة للقصر نحو الردهة الكبيرة، التي استبسل فيها، بعد قرنين، الجنود السويسريون مضحّين بدمائهم من أجل ملك آخر. حين كانوا يتساقطون أمام هجوم الغوغاء، هرب لويس السادس عشر عبر حدائق التويلّري، حاملاً آخر الآثار الباقية من "الحق الإلهي" للملوك، الذي أرست أوروبا القديمة عليه أساسها. رفرفت ورقة ميتة من شجرة عند قدمي الملك، فتوقف برهة ليتأملها، وإلى جانبه الملكة، والأطفال الملكيون، وكل خدم القصر. ربما لعب أبي الدعبل تحت تلك الشجرة، التي كانت بلا ريب لم تزل موجودة عند وصوله أول مرّة إلى باريس. في هذا المكان المثقل بالتاريخ والأسطورة، ترعرع رينوار. لكن في بيت جدّي كان الكل يعرف موقعه.

القاعدة الأولى التي كانت تحكم المنزل هي أن لا يتم إزعاج صاحب الدار. صخب الأطفال كان يثير أعصابه، اذا ما صرف إنتباهه عن عمله، فقد يُسبّب بإنزلاق مقصه وإتلاف قطعة القماش الآلينسون، وتخيّل حينها

---

(١٤) مهرج في بلاط الملك هنري الثالث.

Twitter: @ketab_n

الفاجعة التي ستحدث. إذاً هناك تقاليد وجب احترامها. حين يذهب الناس إلى مشغلهم يفضلون أن يكونوا في جورزين وهادئ. في ذلك الوقت، كان صنع الملابس أمراً جدياً. كانت الملابس غالية، إذ كانت بدلة رجل واحدة تكلف ما يقارب المئة فرنك، بينما كان الراتب العادي للعامل، في ذلك الحين، عشرين فرنكا في الشهر. بعد أن ظهرت المخازن الحكومية في المشهد وعرضت ملابس جاهزة الصنع، كان بوسع المرء الحصول على طقم كامل بعشرين فرنكاً فقط. من حسن حظ جدّي، في ١٨٤٥، البدلات التي تكلف لويسية[١٥] واحدة فقط لم تكن موجودة بعد. برغم غلاء الملابس فميزتها أنها تبقى العمر كله، حتى أن بنيتها كانت تعدل لتلائم أجيال عديدة.

من فرط ما تعوّد على عمله، وعصا القياس والطبشورة في يده، اكتسب جدّي طريقة مهيبة لم يتخل عنها حتى في حياته الخاصة. بحكم المهنة سافر إلى كل أرجاء فرنسا. في عصر "الإحياء" بقي هذا التقليد شائعاً في كل المهن. لكنه استمر لوقت أطول في مهن النجارة، والمصنوعات الخشبية، وصناعة البراميل. كان الجوّال المهني يبدأ رحلته على الأقدام، وهو يرتدي ثوب المهنة، حاملاً على كتفه حقيبة ظهر تحوي ذخيرته من الملابس الكتانية الجديدة. كان أول شيء يفعله، حين يغادر باريس، هو أن يقطع غصناً من شجرة بندق، جاعلاً منه عصا يدوزن عليها خطواته في مسيره، كما تمنحه مظهراً مختالاً. في أي وقت وقف فيه عند بئر عام للشرب، كان ينقش بسكينه زخارف رمزية على عصاه. في المساء يتوقف للمبيت، ويفضل أن يكون في مدينة، ويستعلم عن "الأم"، وهي زوجة عامل في المهنة كان قد تقاعد بعد أن وفّر بضعة قروش وكسب تقدير زملائه. كان الرجل العجوز يجد له في الحال عملاً، ولقاء مبلغ متواضع، تزوّده الأم بسرير وطعام وبجو منزلي.

---

(١٥) قطعة ذهبية بقيمة عشرين فرنكا.

Twitter: @ketab_n

حتى القرن التاسع عشر كانت فرنسا بلداً للتنوّع الهائل. برغم وجود السكك الحديد، فهم لم يتوصّلوا بعد إلى وسائل الاختلاط العامة، مثل الباصات والراديو والأفلام والتلفزيون، التي أسهمت في حضارتنا الراهنة. في ذلك الوقت، كانت العادات، والأفكار، واللهجات مختلفة، حتى من قرية إلى أخرى. كان لدى جدّي الكثير ليرويه عن رحلاته.

في المساء، كان بعض الجيران يجتمع بعد العشاء في مشغله، الذي كان يُعاد إلى حالته الأصلية كغرفة استقبال. واحد من الزوّار المواظبين كان مساعداً رئيسياً للجلاد الشهير سانسون في "عهد الإرهاب". في المرّة الأولى التي حدثني أبي فيها عن هذه الشخصية لم أكد أصدق ما سمعت. بدا لي هذا التقرّب مستبعد الحدوث، لكن بعد حساب سنوات العمر، ندرك أن الأمر ممكن تماماً. لنفرض أن مساعد سانسون هذا كان في الثالثة والثلاثين من العمر في عام ١٧٩٣، عمره إذاً، في عام ١٨٤٥، هو اثنان وثمانون سنة. وكما قال رينوار، هناك مهن تبقي الناس في صحة جيدة. هذا اللقاء بين أبي وهذا الباقي على قيد الحياة من عهد آخر ما زال يدفعني للتأمل، فهو يعطي فكرة عن المسيرة القاسية للزمن. عرف هذا الرجل فرنسا قبل الثورة. فهو كان ينتمي إذاً إلى عالم الباروكات والسراويل القصيرة. النبلاء الذين أعدمهم كانوا لا يزالون يحملون سيوفهم على خصورهم. عاصر الرسائل المختومة والحكم الملكي المطلق، والسيدات الجميلات بشعور صففت "آلا فريفات"، مثل سفينة نشرت كل قلوعها. لعله إلتقى فولتير وبنجامين فرانكلين في الشارع، وسمع موزارت يعزف على الهاربسيكورد، وحضر عروضاً لمسرحيات بومارشيه. رقص رقصة الغافوت، والمنويت والريفودون. رأى رأس مليكه الرائع وهو يتدحرج في سلة المقصلة المليئة بالنشارة، ووجه ماري انطوانيت المؤثر جداً، في اللوحة التي رسمها لها دافيد في دقائقها الأخيرة قبل الإعدام.

في صالة الطعام في بيتنا في بولفار روشيشور، كان أبي يحاول، وهو

Twitter: @ketab_n

يرتشف قهوته، أن يقدم لي هذا الشاهد على الكثير من الثورات. كان رجلاً عجوزاً فارع الطول بشعر أبيض طويل ومعتدل الكثافة. لا بد أنه أسِف على زمن البودرة والضفائر الطويلة. كان قد حلق ذقنه منذ وقت قريب. كان متقناً في كلامه كما في منظره. اتفق مع ليونار رينوار، ففي النهاية كلاهما عامل جيد، أحدهما كان يقص القماش، والآخر يقص الرؤوس بنفس الذمة. إنهما يؤديان عملهما، هذا كل ما في الأمر. من أجل أن تقص قطعة قماش بشكل جيد يجب أن تشحذ مقصك. والشيء نفسه يجري على شفرة الفأس. ومن الغريب أن مساعد سانسون هذا كان يستهجن اختراع الدكتور غيّوتان (المقصلة). أفسد هذا الاختراع المهنة بجعلها سهلة جداً، والسهولة تفتح الأبواب دائماً للهواة. في الزمن القديم، كان المرء يحتاج، من أجل قطع الرؤوس بفأس، إلى شيء من التدريب على المهنة، دعك من بعض المواهب الطبيعية، مثل عين حادة النظر ويد ثابتة الجنان. لكن ما الفضل بامتلاك آلة تؤدي عنك العمل بمجمله؟ في ما يخصّ مهنته هو، كان جدّي يخشى أن يصبح إنتاج الملابس بالجملة، قريباً، قاعدة عامة في فرنسا. فالهجوم سبق وأن شُنّ في انكلترا. الآراء التي عبّر عنها الرجلان كانت سديدة بلا شك. كل الإعتبارات العاطفية كانت مستبعدة. فقط الصنّاع السيئون يميلون إلى العاطفة: الخيّاطون الرديئون، والكتّاب الرديئون ـ والجلّادون الرديئون. كان أبي متّفقاً مع هذه الرؤية أيضاً.

في أثناء أحاديثي مع رينوار، كنت أخطط في طلب نقلي إلى سلاح الجو. بسبب جروحي لا يمكنني الخدمة في سلاح الفرسان، أو المشاة أو المدفعية. عرّضت نفسي لخطر إرسالي إلى واحد من مراكز تدريب المجنّدين والقيام بعمل كتابي. في تلك الفترة، كان مجرّد التفكير بالعمل الروتيني يملؤني بالذعر المفاجئ؛ هذا النفور دفعني حينها إلى القيام بكثير من الحماقات. لم يستصوب فكرة ذهابي إلى القوّة الجوّية. حجّته كانت بأن على المرء ألا

Twitter: @ketab_n

يتحدّى القدر: (فالإنسان مجرد فلينة طوّافة[١٦]) قال، (يجب أن يدع نفسه تنساق في الحياة مثل فلينة في مجرى نهر). لكن دعونا نرجع إلى الماضي.

الذكريات التافهة في رأي رينوار لها نفس أهمية البوح بأعمق آرائه. أحاول أن أحترم هذا التشوش. كان يتذكر حتى الطريقة التي كانت تحضّر بها جدّتي قهوتها الطيبة. كانت تطحن بذور القهوة طحناً دقيقاً جداً، ثم تغلي الماء في قدر ذي مقبض صغير، وتضع القهوة فيه، وتزيلها من النار مباشرة تقريباً. حين تسكب القهوة في الفناجين، كانت تستخدم مصفاة. وهذه الطريقة تتطلّب الكثير من القهوة، بما أن المنتج النهائي ليس غير نوع من النقيع. لكن كل المرارة والكافيين الزائدين يترسبان في القاع. كانت أمارات الجدّية الشديدة تبدو على وجه رينوار وهو يصف هذه الوصفة. لم يكن صبوراً لتلك الطرق التي تحاول أن تنتزع من الشيء أكثر من طاقته بالتنازل عنه. حسب منهجه في التفكير، جمال الرياضي يتبدّى في أحسن صورة حين يرفع الرباع الوزن الخفيف فقط. لم يكن يحب الـ"tour de force"[١٧]. كان يصرّ على أن الهرمونية هي، على الأعم، نتاج للسهولة. بطبيعة الحال، نظرياته هذه كانت عن الآخرين، إذ لم يكن يدرك مقدار الإسهام الذي قدمه في عملهم والذي لم يتوقف أبداً.

كانت فكرة (هدف في الحياة)، النجاح أو الفشل، الثواب والعقاب، غريبة عن رينوار. أنا أتحدث هنا، كما هو واضح، عن الجانب "المادي". قبوله الكلّي للوضع البشري يقوده إلى احترام الحياة ككل، والعالم بأسره ككينونة واحدة. (كان الأمر ملائماً جدّاً لغاليلو الأحمق أن يكتشف أن الأرض كروية، وانها مجرّد كوكب بين عدد لا يحصى من الكواكب الأخرى. الجميع

---

(١٦) فلينة تربط بخيط الصياد ليبقى طافياً على وجه الماء.

(١٧) "تجربة تتطلب القوة".

Twitter: @ketab_n

اقتنع بهذا، لكن لا أحد منهم تصرّف بوصفها حقيقة. الرجل العجوز الذي يعيش حياة تقاعد في فيسينيه يعتقد أن حديقة منزله هي مملكة فريدة وأن أزهاره لا صلة لها بأزهار جاره. كل فرد يؤمن أنه قدر منفرد، وأنه طائر وحيد في عالمه الصغير الخاص. من جهة أخرى، لا تغير النظريات والاكتشافات العالم إلا عن طريق النكبات. لا يصدق الإنسان بالقوة التدميرية للبارود إلا إذا إنفجرت قنبلة فوق رأسه... الاعتقاد بأن الأرض مسطّحة لم يمنع المصريون من نحت "أبو الهول"، ولا الإغريق من نحت تلك الفتاة الجميلة، "فينوس آرليس"... تنتابك الرغبة في صفعها على ردفيها! اكتشاف صلابة نهد كليوباترا، يمكن أن يُحدث انقلاباً، مثل اكتشاف كروية الأرض). بالنسبة لرينوار، ليس هناك أحداث تافهة وأحداث عظيمة، وليس هناك فنّانون صغار وفنّانون كبار، ولا اكتشافات ضئيلة ولا اكتشافات هائلة. هناك بشر، حيوانات، أحجار أو أشجار، منها من يؤدي وظيفته ومنها من لا يفعل. الوظيفة الرئيسية للكائن البشري هي العيش، فواجبه الأول أن يحترم الحياة. هذه التأملات لا يُقصد منها أن تكون فلسفة، إنها، بالأحرى تشكل جزءاً من النصائح العملية التي يقدمها أب لابنه. كان يستعين بأمثلة من أجل التوضيح: (كان عليّ أن أقشر البازلاء، وكنت أشمئز من هذا العمل. لكني كنت أعرف بأن هذا جزء من حياتي. لو كنت رفضت تقشير البازلاء، فإن أبي كان سيقوم بهذا، ولن يكون بمقدوره إتمام البدلة التي يخيطها لزبون في الوقت المحدد... وستتوقف الأرض عن الدوران، مما يجلب العار لغاليلو...) هذه الفكرة، بأن الحياة هي حالة وجود وليست مشروعاً، تبدو لي تفسيراً جوهرياً لشخصية رينوار، وبالتالي تفسيراً لفنّه. لا بد أن أزيد بأن هذه الحالة كانت بالنسبة له حالة سارّة، فيها كل مرحلة من مراحل الحياة موسومة بإكتشافات مدهشة. كل نظرة إلى العالم أمدته بذهول حقيقي، بدهشة لا يسعى إلى إخفائها. رأيت أبي يعاني من عذاب مطلق، لكني لم أره يسأم أبداً.

Twitter: @ketab_n

القارئ الذي سيرغب بمتابعتي عبر هذه الفوضى من ذكرياتي، ربما سيستنتج أن أبي كان يتخذ موقفاً قطعياً ضد العلم: في الواقع، إن الاستخدامات الحمقاء للعلم هي التي جعلت رينوار يلوم العلم لوماً عنيفاً. كان إتهامه الرئيسي لـ "التقدم" هو انه استبدل الإبداع الفردي بخط التجميع في الإنتاج. سأكرّر ما قلته، أن أي شيء، حتى لو كان القصد منه الاستخدام المؤقت، كان يثير اهتمامه بشرط أن يكون تعبيراً حقيقياً عن الصانع الذي أنجزه. في اللحظة التي يصبح فيها الصانع جزءاً من مجموعة، يختص كل عضو فيها بمرحلة من مراحل الصناعة، فإن الشيء موضوع هذه الصناعة يغدو في عين رينوار "مجهولا".

(إنه أمر طبيعي) يقول، (أن لا يكون للطفل عدة آباء. هل رأيت طفلاً ورث أذنين من أب، وقدمين من آخر، وعقل من شخص مفكر، وعضلات من مصارع؟ حتى لو كان كل جزء منه متقناً، فإنه لن يكون إنساناً، بل شركة، أو يمكنك القول، مسخاً).

كان يشعر أن العلم فشل في مهمته، عندما لم يكافح من أجل التعبير عن الفردانية، فهو بدلاً من ذلك، وضع نفسه في خدمة الاهتمامات المرتزقة، في مصلحة الإنتاج بالجملة. فكرة صنع منتوج منجز على نحو متقن، التي هي مثالية للصناعة العصرية، لم تخطر له أبداً. كان مولعاً بالاستشهاد بعبارة باسكال: (هناك أمر واحد يثير اهتمام الإنسان، هو الإنسان).

كانت الميزة المحببة في بيت جدّي هي أنه لم يكن ثمة حلية تافهة فيه. كانت جدّتي تكره كل هذه الزينات والتذكارات التي تشغف بها كل امرأة، بوجه عام. ملابسها كانت بسيطة، وأثاث بيتها قليل، مرتب. كانت تعتبر الشريط الذي يوضع على صدارها زائداً. أحَبّت الأشياء التي لها وظيفة، وتعني بالوظيفة، عدم التصنّع. ذات مرة، سخرت العائلة كلّها من سيدة، بعد

Twitter: @ketab_n

أن قاموا بزيارة بيتها، حين رأوا زوجاً من الكوشات مطرزاً بقوس من شريط وردي.

حتى في سنوات شبابها في سنت، لم تستخدم مارغريت ميرليه أبداً مساحيق التجميل أو أحمر الشفاه. كانت تضع ثقتها فقط في سافون دو مارسيي (صابون مرسيليا). فرشاة خشنة وكثير من رغوة الصابون كفيلان بإزالة كل الأقذار عن جلود آل رينوار، كما تفعلان تماماً في أرضية البيت. وبالطبع، لم يكن لديهم حمام. كانوا يستحمون بإسفنجة جالسين في حوض خشبي عريض. كان الماء القذر يُفرغ في فتحة معدّة لهذا الغرض في منبسط السلم. نظام تصريف المياه هذا، الذي كأنه في تلك الأيام القول الفصل في علم الصحة، كان يدّعى ليه بلومب (الرصاص)، بلا شك بسبب أن كل الأنابيب التي كانت ظاهرة على طول جانب السلم مصنوعة من معدن الرصاص، والمفاسل أيضاً من هذا المعدن. فُرش الأسنان كانت لا تزال ترفاً، فكان أفراد الأسرة يغسلون أفواههم، ليلاً وصباحاً، بالماء المملّح وينظفون أسنانهم بمسواك خشبي صغير، يُرمى بعد الاستعمال. حين يحتاج أحدهم حقاً إلى الإستحمام، كانوا يوصون على حوض إستحمام. فكانت العملية أشبه بمشروع. يحمل رجلان حوضاً نحاسياً، ويوضع وسط واحدة من الغرف، بعد ربع ساعة تسكب فيه قدور كبيرة من الماء الحار. بعد أن يستحم المرشّح المحظوظ، يتبعه الآخرون فيغطّسون أصابع أقدامهم في الماء الحار، بعد ذلك يرجع الحمّالون ليفرغوا الحوض أمام الجيران، الذين يستنكرون هذا التباهي.

متى ما حدث أن مرض أحد الأطفال، فإن أهل الدار جميعهم يقفون إلى جانب سريره. وكان جدّي لا يتردد بوضع الطلبات، التي يعمل عليها، جانباً، ولا تستأنف الحياة العادية للمنزل حتى تنقضي الأزمة. لكن قبل أن يُعلن عن هذا الطارئ، يجب أن تقتنع جدّتي أولاً بأن المرض خطير فعلاً.

Twitter: @ketab_n

أحب أن أضيف قائلا بشأن جديّ بأنهما لم يجلبا على نفسيهما الديون أبداً، وكانا يتجنبان عمداً التشبّه بالناس الأفضل أحوالاً مادية، خوفاً من التورط في نفقات لا يقوون عليها. كانا متديِّنان باعتدال، ولم يكن جدّي يذهب إلى القداس، لكنّه كان يصّر على أولاده للذهاب إلى الكنيسة. كانت زوجته تؤدي دائماً واجباتها في عيد الفصح، لكنها كرهت القسسة الذين كانوا، حسب ما تقول، حائكي دسائس. كل يوم أحد كانت تأخذ أسرتها إلى الكنيسة، ولاسيما في القداس الكبير، من أجل الموسيقى. كانت تختار أحياناً كنيسة سان مارش. أمام هذه الكنيسة، وقبل ستين عاماً من ذلك الوقت، هاجم نابوليون الملكيين بالمدفعية، وهكذا أنقذ الجمهورية ـ التي سيبيدها في ما بعد. كان رينوار يذهب، أيضاً، إلى كنيسة سان جرمان لوكسريو. كانت جدتي لا تكف عن تذكير أولادها بالإشارة إلى النافذة في قصر اللوفر، التي أطلق منها شارل الخامس النار، في عيد سان راتولوميو، على عصبة من البروتستانت كانوا يحاولون الاحتماء في بيت الرب.

في الربيع، وحين تبدأ الأشجار المصطفة على رصيف الميناء بالتبرعم، كانت الأسرة تتجرّأ بالخروج مسافة بعيدة حتى نوتردام. كان التنزه على ضفة السين يبعث دائماً على البهجة. كان الفتى رينوار يستنشق باريس بكل روحه، وعبر مساماته كلها، فيمتلئ بها. كان الهواء محملاً بالروائح المختلفة للمدينة وأسواقها. الرائحة النفاذة للكرّاث، الممزوجة بالعبير الخفيف، لكن اللجوج، لزهور الليلك، تنشر الجو كله بنسيم لاذع، كان هو حقاً هواء باريس. انه لا يشبه الهواء الرطب للنورماندي، حين تلهب الشمس العشب الكث ويحلّق الذباب مدوّما بجنون، ولا هو قريب من الرائحة المسكرة للأرض التي سفعتها الشمس في الميدي، حين تعصف عليها ريح الميسترال، ولا يماثل العواصف القوية في شرق فرنسا، الحادة مثل الموسى، والتي تسبب إختلالاً عقلياً وثوراناً حنوناً جماعياً. قبل أن يبدأ غاز أوكسيد الكربون المنبعث من

Twitter: @ketab_n

محركات السيارات بتلويثه، كان هواء باريس مثل كل شيء يميّز المدينة بإعتدالها وتوازنها.

أي شخص له معرفة بأعمال رينوار، من السهل عليه أن يلاحظ في صوره نوع السماوات التي لا بد انه كان ينظر إليها حين كان طفلا. ليس ثمة خشونة في ريف ايل- دو- فرانس. اليوم يحاول البشر تدمير هارمونيته بإفتقارهم إلى الرقة في ألوانهم التي تحاكي أكثر ألوان البلدان الشمالية. الضوء البارد للشمال يمكن أن يمتص الأخضر الصارخ والأصفر الزاهي: لكن ليس في باريس، من حسن الحظ، فمناخها يحمي جمالها. الملصقات المبهرجة بهتت ألوانها بسرعة من أثر صباحاتها الخريفية المضببة، أسوارها الهشة تتقوض تحت ضربات المطر الناعم واللجوج. المدينة التي أنجبت فرانسوا فيّون، موليير، كوبيران، ورينوار تواصل إلهام الفنانين في كل بقاع العالم.

أطفال ليونار كانوا لا يعرفون أبداً تعبير "ملابس الأحد". كانت جدتي تعتقد أن أولادها حسني المظهر في كل مناسبة. حين كان أبي يساعد في أشغال الطبخ او يلعب خارجا في الشارع يلبس بنطالا قديما، لكنه عندما لا يكون منشغلا بواحدة من هاتين الوظيفتين، يرتدي دائماً الملابس نفسها. في الخروج من القداس يوم الأحد، تنظر جدتي بشفقة إلى النساء وهن في ملابس الأحد، يكدن ينفجرن في مشداتهن التي تطوّق خصورهن، ويعرجن في أحذيتهن الضيقة.

عندما حان الوقت لأبي للذهاب إلى المدرسة، إشتروا له المئزر الأسود النظامي الذي يرتديه التلاميذ، والحقيبة الجلدية التي يحملها على كتفيه مثل حقيبة الظهر للجندي. كانت المدرسة، التي تقع في مبنى ملحق بدير، لا تبعد عن المنزل كثيرا. كان يديرها "الإخوة المسيحيون". ثمة مرسوم لبروبسبير، صدر في عام ١٧٩٣ أثناء عهد الإرهاب، أنشأ نظاما للمدارس

Twitter: @ketab_n

المجانية، وبموجبه كان على كل الأطفال الفرنسيين تعلم القراءة والكتابة والحساب، بالإضافة إلى إكتساب شيء من المعرفة الأساسية في الموسيقى. لم يكن لزاما على الطفل الدخول إلى هذه المدارس في حال قدم والداه إثباتا على انه تلقى تعليما مماثلا على نحو خاص أو بطريقة أخرى. لا يزال المرسوم ساريا حتى اليوم. فالملوك الذين حكموا بعد الثورة حافظوا على هذا النظام، لكن لمنافسة المدارس المجانية فضلوا أن يدعموا المدارس التي يديرها رجال الدين.

في معهد الإخوة الرهبان إلتقى أبي بعضاً من أبناء الجيرة ثانية. شرع بتعلم القراءة والكتابة والحساب، بنفس الجدية التي يبدأ بها بعمل أي شيء آخر. كانت الصفوف تقع في غرف مظلمة ذات سراديب. يذكر أبي أنه عوقب أكثر من مرّة، فقط لأنه، وبسبب الإضاءة الخافتة، كان لا يستطيع تمييز الكلمات في الكتاب. فكان يُجبر على الوقوف في الركن ـ إجراء ما زال متبعاً، كما أعتقد، في مدارس معينة. التلاميذ الكسالى أو الأغبياء كان يُفرض عليهم إرتداء قبعة المغفل، وهي مصنوعة من الورق على شكل رأس حمار، بأذنين طويلتين، وكان عليهم الركوع ومواجهة الحائط. كان لدى المعلم دائماً مسطرة خشبية طويلة جاهزة بين يديه للعقاب، كما كانت تستخدم في أمور عديدة، فمن وظائفها التأشير على الحروف الأبجدية المطبوعة على يافطة معلقة على الجدار، أو للدق بقوة على المكتب دعوة للصمت، وإذا أساء التصرف أحد التلاميذ الصغار وقبض عليه بالجرم المشهود، فإنه يرغم على بسط أطراف أصابعه أمام المعلم، الذي يطرق عليها بالمسطرة. الذكرى البعيدة لهذه الممارسة، كانت تملأ جوانح رينوار بالغضب. لكنه لم يكن ضد العقاب الجسدي، بل كان يعتبره أقل ايلاماً ومهانة من الإقناع بالحجة. المعلم الذي يفلح في إقناع التلميذ بأنه مخطئ بعدم مراجعة دروسه يمارس ديمقراطية زائفة؛ لأنه يدعم حججه بالسلطة التي يمنحها له منصبه الرسمي؛ ونصره

Twitter: @ketab_n

يمكن أن يعني فقط استسلاما من جانب الطفل. إذا كان رينوار يستنكر ضرب الأطفال على أيديهم، فذلك لأن مثل هذا العقاب قد يتلف أطراف الأصابع. كان يؤمن ايمانا عظيما بأهمية الحواس الخمس. المركز الرئيسي لحاسة اللمس هو أطراف أصابع اليد، وواحدة من وظائف الأظافر هي حماية مركز العصب الرقيق هذا. عندما كنت صغيرا، كنت أحب أن أقص أظافري بشكل قصير جداً، كي لا أعرّض نفسي للأذى حين أتسلق الأشجار. كان أبي ينهيني عن ذلك: (يجب أن تحمي نهايات أصابعك؛ فلو جعلتها مكشوفة، قد تدمّر حاسة اللمس عندك وتحرم نفسك من جزء عظيم من متعة الحياة).

في الشتاء، كانت الصفوف شديدة البرد، على الرغم من موقد الخشب الذي كان يهدر فيها. كان الأولاد "النبهون" بيننا يندفعون نحو المقاعد الأقرب إلى النار، فقط ليصبحوا، بعد ذلك ساخنين جداً. أبي لم يكن أبداً يفوق أحداً دهاء. بالنسبة له، أن تكون "نبيها" هو أسوأ أنواع النحس.

كتب عدد من كتّاب السيرة بأن رينوار كان يرسم صوره باستمرار على حافات دفاتر التمارين المدرسية. يبدو هذا الزعم مقبولا، مع أن رينوار لم يخبرني أي شيء عن هذا. من الواضح أن أكبر إكتشافاته كطفل كان الغناء. في تلك الفترة، كان يخصص وقتا كبيراً للغناء في المدارس الفرنسية. كان هذا تقليدا وطنيا، لكنه للأسف اختفى الآن. كان الفرنسيون في القرن التاسع عشر لا يزالون مولعين بالغناء، وبالطبع كانت موضة بيرانجيه رائجة. كانت الذكريات عن الملحمة النابوليونية تنتعش بعودة بقايا الإمبراطورية إلى فرنسا في مقاطع غنائية مؤثرة.

بين الحين والآخر، كان الفتى رينوار، الذي ناهز العاشرة من العمر، يذهب مع جاره البالغ، إلى الصيد أثناء الموسم. في يوم من أيام الآحاد، إستيقظ في منتصف الليل، حاملا حذاءه بيديه، وانسلّ من المنزل على رؤوس أصابعه خوفا من إيقاظ أبويه. عند الصيد، كان يُسمح له بحمل حقيبة

Twitter: @ketab_n

الطرائد والوقوف استعداداً للمراقبة. كانت منطقة الصيد المفضلة لجاره حقل الحنطة، الذي يقع بين شارع دو بنتييفر وقرية باتنيول. هذا الحقل هو الآن محطة سان لازار، والحي كله يدعى "دو ليروب". كانت المنطقة تعج بالطرائد، وبخاصة الأرانب البرية. حين يكون الصيد وافراً، كان الجار الطيب يكافئ معاونه الصغير ببعض من غنائمه، التي كانت تضاف دائماً إلى وجبات الطعام المعتادة للأسرة.

عندما يستعيد رينوار تفاصيل هذا الصيد، يتحول في الحديث إلى موضوع مخطط المدينة، والبارون هاوسمان، الذي غيّر وجه باريس بطريقة مؤسفة إلى حد كبير. فهذا الرجل، لم يكن يفتقر إلى المكان، فما الذي منعه من توسيع المدينة على المساحة القفر من الحقول في الضواحي، وترك الأشجار والحدائق داخلها على حالها؟ كان أبي يعتقد ان الرغبة بالمال القذر، برفع اسعار الأراضي، جاءت على حساب الاعتبارات الأخرى. كان يمقت عالم الصناعيين والمصرفيين الذين سيطروا على الأمور منذ الإمبراطورية الثانية. (ما الذي فعلوه بمدينتي المسكينة باريس! وحين أقيمت الضواحي، كيف تجرأوا على إيواء عمالهم في مثل هذه الأمكنة! يا له من عار! عندما تفكر بكل هؤلاء الأطفال الذين أصابهم السل من استنشاقهم الأدخنة المنبعثة من المصانع. يا له من جيل مليح سيولد!) بعد ذلك، كان يعرّج على غارنييه[١٨] الذي بنى دار الأوبرا. (لنفكر ان الألمان قد خاب مسعاهم مع مبناهم الكبير بيرثاس)، هتف قائلا. أما عن فيوليه - لو- دوك، فلا بد من أن أعطي فكرة عن شعور أبي حياله. في عام ١٩١٢ كنا انتقلنا لتونا إلى شقة في بولفار روشيشو التي دارت أحاديثنا فيها، أنا وأبي، في ما بعد. كان عقد الإيجار قد وُقع، والأثاث قد نقل، فإذا بأبي يتنبه فجأة إلى ان المبنى الذي كان

---

(١٨) جان لوي غارنييه (١٨٢٥- ١٨٩٨)، معماري فرنسي درس في معهد الفنون الجميلة في باريس وحامل جائزة روما الكبرى عام ١٨٤٨.

Twitter: @ketab_n

مدخله في الجادة، يقع على زاوية شارع فيوليه – لو- دوك. بالرغم من مزايا تملك شقة في نفس طابق مشغله، كان أبي يريد الانتقال فورا، لأنه لم يقدر على تحمل رؤية هذا الاسم عن قرب. بطبيعة الحال لم تكن هذه سوى نزوة، مع انه كان جديا في الأمر. من بين كل المعماريين، كان فيوليه – لو- دوك بالنسبة اليه أكثرهم مدعاة للكره... والله يعلم كم كان يكره المعماريين! فهو لم يغفر لهم أبداً إفساد كاتدرائية نوتردام في باريس، والأخرى في رون. (أنا أحب ديكور المسرح،) قال، (لكن في المسرح فقط). كان يجزم بأن فيوليه – لو – دوك دمّر من المعالم الفرنسية أكثر مما دمر الألمان بقصفهم، وأكثر مما فعلته الحروب والثورات مجتمعة.

Twitter: @ketab_n

٦

في الثاني والعشرين من شهر شباط ١٨٤٨، كان رينوار في الطريق إلى المدرسة، فشاهد جماعة من الحرس البلدي تخرج إلى الشارع وتأخذ مواقعها أمام قصر التويلّري. كانوا مدججين بالسلاح، وانقسموا إلى مجموعات صغيرة وبدأوا بلف سجائرهم. سأل جار لنا أحد الجنود ما الذي يحدث؟ (انها الثورة) أجاب الرجل مازحاً. مرّر جارنا الأخبار إلى جدّتي التي رجعت إلى أعمال البيت الصباحية، بينما تابع رينوار طريقه إلى المدرسة. عند الظهر تناول فطيرته الملأى بلحم الخنزير، وفي الساعة الرابعة عاد إلى البيت من دون أن يلاحظ أي تغير في الوضع، عدا وجود عدد أكبر من الحرّاس حول التويلّري. في وقت العشاء أخبرنا هنري وليزا كيف أنهما شاهدا مجموعة من العمال في شارع دو ريفولي، وكان أحدهم يحمل علما مثلث الألوان. كانت الراية ذات الألوان الثلاثة قد أصبحت الراية الوطنية منذ عهد لويس فيليب، ولم تكن ترمز إلى التخريب. كان العمال ينشدون أغنية جيروندان، التي صار لها شعبية من خلال مسرحية الكسندر دوما الأب. في الصباح التالي كان لا يزال الجنود متجمعين بأعداد كبيرة. لم تظهر الملكة اميلي من نافذتها كالعادة، لكن الأمر لم يكن غريباً، فالوقت شتاء والجو بارد. مع هذا، تملك رينوار إحساس أن هنري وليزا وحتى أبيه كانوا متوترين، ولاحظ أنهم كانا يتفوهون بعبارات مثل "الشعب"، "الحرية"، "حق الاقتراع الشامل"، إلى

Twitter: @ketab_n

آخره، التي من الغرابة أن تسمع في محيط العائلة. كان يبدو على الجميع الرغبة بذم اسم المارشال بوجو. فالرجل الذي ابتدع القلنسوة العسكرية، بطل الأغنية الشائعة "As-tu vue, la casquette"، كان مكروها. تساءل أبي، في ما بعد، كيف أن أسطورة دارت حول هذه الشخصية، أسبغت عليه دور الرجل العطوف. في الواقع، في لحظة حديثنا عنه، كان بوجو قد أضحى في أذهان الفرنسيين نوعا من بايار[١٩] حي. في واحد من رفوف مكتبتي لا بد ان هناك أعدادا من موسوعة "Image d'Epinal" القديمة، التي إعتادت غابرييل أن تقرأ لي منها حين كنت في الرابعة أو الخامسة من العمر كي تبقيني هادئا. تظهر هذه الكتب هذا الرجل متوّجاً بهالة من المجد وهو يقبل إستسلام الزعماء العرب، وهو يشارك الجنود طعامهم، وهو يحيي الجموع التي تهتف له وترمي قبعاتها في الهواء، مفطور على الظفر، مغمور بقبلات سيدات المجتمع. كان رينوار يعزو شهرة هذا المارشال، الذي تيتّم قبل أن يولد، إلى إحياء روح الكوكاردير[٢٠] التي تلت هزيمة الفرنسيين في الحرب مع الألمان عام ١٨٧٠. في عام ١٨٤٨، كانت ذكرى انتصارات نابوليون لا تزال في الأذهان، والشعب يرتاب بالعسكر.

بدأت "الأيام الثلاثة المجيدة"، كما كانت تدعى ثورة ١٨٤٨، مع الأغاني. مع هذا، فإن إطلاق الرصاص على الأحياء الرئيسية الذي أوقع ضحايا عديدة، حوّل ذلك الاحتجاج السلمي إلى حمام دم. جنود الملك أطلقوا النار على الناس! والناس ثأروا بالهجوم العنيف على الملك، الذي كان أكثر حظاً من لويس السادس عشر، إذ تمكن من الفرار إلى انكلترا. في أحد الصباحات الجميلة، اكتشف آل رينوار ان جيرانهم الملكيين استسلموا، وأن القصر

---

(١٩) «Bayard»: بيير دي تيرّاي، (١٤٧٣- ١٥٢٤)، جندي فرنسي، اشتهر بـ (الفارس الذي لا يعرف الخوف والمنزه عن العيوب).

(٢٠) الوطنية المتزمتة.

Twitter: @ketab_n

أضحى خاليا. أسفوا على رحيل الملكة الطيبة اميلي، لكنهم فرحوا بوصول الجمهوريين. إنهم حقاً لم يروا شيئاً من تلك الثورة التي هزت العالم، برغم انها حدثت على بعد خمسين مترا منهم فحسب. كان سادة يرتدون سترات فراك قد حلوا محل العائلة المالكة. وعمّد اللوفر والتويلّري باسم"قصور الشعب". صارت تكاليف الحياة غالية، ما اضطر جدّي معها إلى رفع أسعار بدلاته. حراس القصر حافظوا على مواقعهم. واختفى شعار أورليان واستبدل بكلمات "حرية، مساواة، أخاء".

كتبت الصحف ان اوربا كلها تبعت مثال باريس. قيل ان هناك قتالا دائرا في شوارع ألمانيا وايطاليا واسبانيا. وتردد ان الثورة في الولايات الألمانية قمعت بوحشية. هرب الآلاف من الجمهوريين، وعديد منهم هاجر إلى أمريكا، وقد أسهمت معارفهم ومهاراتهم الحرفية في إزدهار العالم الجديد. لكن الحركة في باريس ما لبثت أن عادت، وظهرت المدينة مرة ثانية انها مركز العالم. لم يكن الباريسيون قليلي الفخر بالحدث، وشاركهم آل رينوار هذا الشعور.

ذات يوم جاءهم مالك المبنى بزيارة غير متوقعة. أعلمهم ان البيت سيهدم، مع كل البيوت التي تزدحم بها الباحة الخلفية للوفر. كانت الجمهورية تبغي إحياء حلم قديم لملوك فرنسا ونابوليون، وهو ضم اللوفر والتويلّري معاً. قدمت خطط لا تحصى، لكن الأنظمة المتعاقبة كانت دائماً تتراجع أمام النفقات المكلفة المحتملة، ناهيك عن صعوبة مصادرة الملكيات الصغيرة العديدة. بعد أربعة أيام من ثورة ١٨٤٨، أصدرت الجمهورية، بدفع من الجنرال كافينياك، أمرا بالمضي في العمل طبقا لخطة مصممة من قبل المعماري مسيو فيسكونتي. كان المشروع طموحاً حقاً. حالما أخليت المنطقة، كانت ستقام مبانٍ هي أوسع وأجمل من اللوفر القديم، بإتجاه شارع دو ريفولي ونهر السين، تنضم إلى التويلّري وتطوّق مساحة رباعية الأضلاع.

انقضت سنوات عدة منذ أن استقر جدّي في الحي، وأثناء ذلك الوقت

Twitter: @ketab_n

كسب عددا لا بأس به من الزبائن، وكوّن صداقات جديدة، وشعر بالثقة في مواجهة المستقبل، لهذا فإن التفكير بمغادرة حيه ملأه بالرعب. هنري وليزا وفكتور لم يكونوا أقل خوفا من المرتقب. شعروا كما لو انهم كانوا مهددين بالنفي. رينوار، من جانب آخر، أمل بأن يحظى برحلة أخرى في المركبة العمومية. أما جدتي فلم تقلق من أخبار الكارثة، فقد لاحظت انه منذ الثورة الكبرى عام ١٧٩٨، كان هناك على الأقل عشرون مشروعا مختلفا لتغيير اللوفر، وستنتهي الخطة الجديدة إلى رف ما مغبر في وزارة ما، كما حدث للخطط الأخرى تماماً. حتى لو تم إقرار المشروع، فإن الآلة الإدارية ستباشر به ببطء، وهذا سيمنح آل رينوار الوقت لتدبر أمرهم.

كانت مارغريت ميرليه محقة، كما هي العادة. إذ حدث "taté'd puoc" (إنقلاب سياسي) في ٢ كانون الأول ١٨٥١، سبب سقوط الجمهورية، فأهمل اللوفر مؤقتا. لكن الرئيس، الأمير شارل لويس بونابارت، الذي أصبح نابوليون الثالث، أصدر، لسوء الحظ، أمرا بالبدء في العمل في المشروع في عام ١٨٥٤، فأجبر جدّي على الانتقال من مسكنه. برغم هذا فقد تأخر تنفيذ المشروع ست سنوات. لكن إذا كان إنقلاب ٢ كانون الأول قد أثار غضبهم، فإن القرار الإمبراطوري بتوسيع اللوفر صعقهم، لكونه لم يكن أكثر من تصرف إستبدادي. منذ ذلك الحين كانت ليزا لا تشير إلى نابوليون الثالث سوى باسم" بادينفيه ". وهذا كان اسم عامل دهان في المبنى استعار اسم عامل ليخفي هويته حيث كان يدبر مؤامرة للعودة إلى السلطة وكانت شرطة الملك تطارده.

إستقرت أسرة رينوار في شارع ديه غرافييه، في حي ماراس. حدثتني غابرييل مرارا عن ذلك المنزل، إذ كانت تعرفه جيدا. كانت قد ذهبت إلى هناك لتنقل هدية من أمي إلى عمتي ليزا، التي بقيت في شقة العائلة مع زوجها، النقاش شارل ليراي، بعد أن غادر جداي إلى لوفيسيان للإقامة

Twitter: @ketab_n

هناك. كانت شقة قديمة، على طراز لويس الثالث عشر تقع في مبنى مؤلف من ثلاثة طوابق، واجهته بسيطة جداً، مع نوافذ طويلة عالية بألواح زجاجية صغيرة، وباب ذي نقوش تفضي إلى ممر مسقف، يقود إلى باحة داخلية، تهيمن عليها شجرة كستناء ضخمة، قريبة من المكان السابق للإسطبلات. في عام ١٨٥٤ تم توسيع الباحة وتحويلها إلى حديقة بقول، حيث كانت عمتي ليزا تعتني بها بحب. إحتلت جياد ناقل الأثاث الإسطبلات. كان هناك رواق يؤدي إلى سلّم رائع. تتذكر غابرييل هذا السلم بوجه خاص، لأن له درجات حجرية عريضة وقليلة العمق، بالية جدّاً إلى حد انها أصبحت منحدراً مستمراً واحدا. وكان عليه أيضاً درابزين من الحديد المطاوع بأشكال نحتية، (شريط منتظم من الدانتيلا)، كما وصفته غابرييل. كانت شقة جديّ تقع في الطابق الثالث، وهي كبيرة بما يكفي أن تقدم إلى جدّي حلاً عملياً بالتخلّي عن محلّه في شارع لابيليوتك الذي كان بعيداً بعض الشيء عن شارع ديه غرافييه، الأمر الذي يتعب ساقيه المصابتين بداء المفاصل، ويتيح له أن ينصب دكّة عمله في مسكنه الخاص. كان السلّم الجميل لا يصعد إلى أكثر من الطابق الثاني ـ ولسوء الحظ، كي تصل إلى الطابق الثالث وجب عليك أن ترتقي سلماً خشبياً شديد الانحدار. كان جدّي يقول ان زبونه ستتولد عنده انطباعات حسنة في الصعود الأول تجعله بالكاد يلاحظ الفرق في بقيّة السلم. كان لدى الأطفال طابق تحت السقف كله لهم، مع إطلالة جميلة على الخارج. تعرّف آل رينوار على المكان عبر صديق منتج أزرار، وهو الابن الروحي لمالك المبنى، ويملك محلاً في الطابق الأول.

في الوقت الذي انتقلوا فيه إلى شارع ديه غرافييه، كان أعضاء عائلة جدّي حسب الأعمار التالية: ليونار، خمسة وخمسون؛ جدتي أربعة وأربعون؛ هنري أربعة وعشرون؛ ليزا اثنان وعشرون؛ فكتور اثنا عشرة؛ رينوار ثلاثة عشرة، وأدمون سبعة أعوام. كان الوقت قد حان لتعلم أبي مهنة ما. كان آل

Twitter: @ketab_n

رينوار يكسبون عيشهم بشرف، لكن لا بد لكل واحد منهم أن يعمل. عمل هنري لدى دافي، صائغ فضة يسكن في شارع ديه بتي شامبز. تعلق به مسيو ومدام دافيد بسبب ذوقه ومهارته، وكان عمي شغوفا بفتنة مدموزيل بلانش دافيد. وكانت مسألة الزواج معروضة على بساط البحث. برغم ان أسرة دافيد كانت يهودية، فلم يكن هناك إعتراض على موضوع الدين بين الطبقات الوسطى في محيط باريس. كان التعصب قد إختفى منذ زمن طويل، والتمييز العرقي لم يظهر بعد.

ليزا لم يكن لها عمل منتظم. كانت تعلمت الخياطة من والدها، لكن اهتمامها الرئيسي كان الدفاع عن الناس المضطهدين. كانت تحاول أن تتغلب على أكثر القضايا يأسا: ذات مرة، جلبت إلى البيت طفلا لقيطا، ولم يهدأ بالها حتى عثرت على أمه التي كانت، حسب رأيها، لا تستحق اللوم، لأنها ببساطة ضحية لنظام إجتماعي وحشي. وحين لا يكون هناك طفل لإنقاذه، كانت ليزا تلتقط كلبا شاردا أو قطة. كانت غرفتها ملأى بالحيوانات، وكلها تقريبا إما عرجاء وإما جرباء. كانت معجبة جدّاً بسان سيمون وبلانكي وفورييه. لم تكن تفوّت أبداً إجتماعا للجماعة الثورية في غرافييه. وإذا تصرّف أرباب عملها بظلم ازاء البعض من الفتيات العاملات المسكينات اللائي لا حول لهن، كانت ليزا لا تتردد بأن تجعلهم يعرفون موقفها منهم. طبيعتها السمحة لم تكن تنال الرضى عند أصحاب العمل، لكنها جلبت لها كثيراً من الأصدقاء الحميمين. واحد من أصدقائها السياسيين، وهو شارل ليراي، أصبح زائرا منتظما للبيت. كان والده طبيبا جراحا في جيوش نابوليون، وبعد سقوط الإمبراطورية واصل ممارسة مهنته في مستشفيات باريس. أقيم له تمثال في ساحة في بلدته، في مكان من فندي؛ هذا التمثال الأبوي أضفى على الإبن نوعا من المجد ما كانت ليزا تأبه له. كانت مهنة ليراي نقّاشاً، وأنجز رسوما لكتب عديدة، وعمل في محلات الموضة. كان جدّي راضياً عنه تماماً،

Twitter: @ketab_n

فكان الفتى يُقابل بالترحيب الودي حين يُدعى إلى المنزل. كان غالباً ما يرافق ليزا إلى الرقص، وكان هذا دائماً موضع ثناء كل الأسرة. لكنه عندما تقدم في النهاية للزواج منها صدته قائلة: (ماذا؟ أتزوج مثل أي برجوازية!) إذ كان الأمر لا يلائم تعاليم فوربيه التي تفيد بأن حيازة ملكية خاصة هي سرقة، أو أفكار سان سيمون حين رأى أن كل شيء لا بد أن يكون ملكاً مشاعاً، فليس ثمة سبباً يدعو إلى أن تنتمي المرأة إلى رجل واحد فقط... دعاهم جدّي يقولون ما يقولونه. أثناء عهد الإرهاب، كان صديقه مساعد الجلاد قد رأى أرباب العقل متوّجين في نوتردام، وما أن مرّ الإعصار، وصار هؤلاء الأرباب محل شك، ولا بد من أن ابنة واحد من التجار الوطنيين، نست هذه اللحظة من المجد المدنّس وتزوجت صاحب محل ميسور. وعمّدت أطفالها في الكنيسة، وعرف أحفادها كيف يتلون مقاطع من كتاب خلاصة العقيدة الدينية.

سألت مارغريت ميرليه ابنتها، ببرود، لماذا لم تنضم إلى بطلها سان سيمون في أمريكا، حين عثر على مجتمع فوربيه على منحدرات الميسيسبي. في ذلك الفردوس الأرضي، قيل انه كان كل شيء يُقتسم: الحصاد، النساء والأطفال. والعاطل عن العمل يأخذ بقدر ما يأخذ العامل.

برغم الأفكار الثورية، لم يجرؤ شارل ليراي الهزء بالتقاليد. كان أبي يشك أن ليزا كانت في يوم عشيقته. (كانت مخيلته قد أستهلكت معها)، علّق قائلا.

ذات يوم توقف ليراي عن المجيء إلى البيت، وبدأ يظهر في الأماكن العامة مع إبنة عم مدموزيل دافيد. قالت ليزا إنها سعيدة بالتخلّص منه، لكنها ذهبت إلى مسرح دي شاتو دو بانتظار ان يخرج مع غريمتها، التي كان قد اصطحبها لمشاهدة "لا كامبانيا ديتالي"، وحين ظهر تقدمت منه، وأمام عدة مئات من النظارة الذين ما زالوا متأثرين بما حدث لجوزفين بورانيا،

Twitter: @ketab_n

وجهت للسيد الشاب لكمة على أذنه. في ذلك اليوم ربح ليراي الصراع. بعد شهر من ذلك، تزوج من ليزا أمام قس الأبرشية. حين كانت ليزا ترتدي الرداء الأبيض قبل بدء المراسيم، قالت، (أنا مع يسوع. انه القس الذي أفسد كل شيء). (إنه محظوظ)، قال ليونار. (من هو المحظوظ؟) سألت ليزا. (يسوع المسيح)، أجاب ليونار. من الواضح ان ليزا كانت تفتقر إلى ما ندعوه اليوم حس الفكاهة.

عمي فكتور عمل مع خياط في واحد من الأحياء، وأحرز نجاحا لا بأس به في عمله. أسلوبه الأنيق وطريقته الذكية في الأزياء حققت له انتصارات عديدة. قالت عنه ليزا بإزدراء، (انه يركض وراء النساء، انه برجوازي بالفطرة).

أصرّ هنري وليزا أن يتعلم أبي مهنة النقش، وتصميم الأزياء. حدث هذا بعد مناولته الأولى، حيث أخذ يرسم باستمرار. ولأن الورق كان نادراً راح يرسم على الأرض بالطباشير. كان جدّي ينزعج حين يرى قطع طباشير الخياطة تختفي، لكنه كان يعتقد أن الأشكال التي يرسمها ابنه على أرضية الشقة (لا بأس بها)، ومارغريت ميرليه توافقه الرأي. أعطت رينوار بعضاً من دفاتر التمارين وحزمة من الأقلام، (أوغست سيحقق شيئاً ما في أحد الأيام) قالت، (إنه نبيه). لم تكن تناديه باسمه الأول، بيير، لأنها كانت تعتقد أنه حين يرافق اسم رينوار، فسيكون هناك الكثير من حروف الراء.

كان أوغست يحب رسم البورتريهات بوجه خاص. رسم صوراً زيتية تشبه الأصل لوالديه، وإخوته وأخته، والجيران، والكلاب والقطط، بإختصار، كل شخص وكل شيء، كما ظل يفعل بقية حياته. كان ينظر إلى العالم بإحترام، كمستودع لأشياء خلقت من أجله هو فحسب. لم يتخيل أي موديل ممن وقف أمامه للرسم في بداية مسيرته الفنية أن هذه التسلية ستكون في

Twitter: @ketab_n

النهاية مهنته، ولا حتى رينوار نفسه. "صوره" منحته فقط الأمل بأن يكون حرفيا ماهرا مثل أخيه هنري، أو ربما مصمما للأزياء، كما اقترح ليراي، أو مزخرفا للخزف الصيني والبروسلين. والمهنة الأخيرة هي التي كان جدّي يميل إليها أكثر، بسبب فخره بسمعة بلدته الأصلية ليموج، وكان الأمر سيملؤه بالغبطة لو رأى ابنه يواصل تقاليدها العظيمة. وفاءً منه لنظرية "الفلينة" التي كانت حينئذ مصاغة في ذهنه، ترك رينوار قدره يقرّر ما عليه أن يفعله، واستمر يرسم في دفاتر تمارينه.

كان جيدا جدّاً في الموسيقى، ويملك صوتاً رفيعاً من الجهير الأول. كان معلمه، خشية منه من ضياع مثل هذه الموهبة، يرغب بضمه إلى الكورس الشهير لكنيسة سان- اوستاش. كان مدرب الكورس هناك موزعا موسيقيا غير معروف اسمه شارل غونو. كان الكورس يتألف بالكامل من الصبيان، مثل المجموعة العصرية المعروفة بـ "ليه بتي شانتور آلاكروا دوبوا". معظم المنشدين في الكورس كانوا أبناء نساء من سوق لاهال، اللائي لا يفتقرن إلى المال، ويمتلكن رئات من نحاس، إذا إستخدمنا تعبير ذلك الزمن. مع هؤلاء التجار الموسرين، كان يُعَد شرفا لأي عائلة ان لها إبنا يغني في سان- اوستاش. كان الأمر أشبه بأن تضع شارة النبالة في سلّة من الملفوف وفي قن دجاج. حين كان المرشحون يفشلون في الشروط الأساسية الموسيقية، ينسحبون تصاحبهم احتجاجات بصوت عال مع أقذع الشتائم من أمهاتهم الناقمات اللائي كانت مجوهراتهن وألبستهن الحريرية تملأ المكان بالرعب. ساعد أبي في الإختبار قس عجوز، كان يؤدي مهماته دائماً في منطقة لاهال، وكان يرطن بلهجتها ويتكلمها على نحو فصيح.

أُعجب غونو بوالدي كثيراً، فأخذ يعطيه دروساً خصوصية، وعلّمه مبادئ التأليف الموسيقي، ودرّبه على الغناء السولو (المنفرد). حين كان رينوار يروي لي هذا، كانت مخيلته تحمل إلى الفضاء الداخلي المسقف للكنيسة. كان صوته

Twitter: @ketab_n

الواهن حلقة وصل لكل جماعة المؤمنين المخفيين عنه في الضوء الخافت. كان واعياً لحضورهم، ويحسّهم منتشين طربا عبر النغمات العالية، منزعجين إذا ما أصبح الصوت خشناً. اكتشف المشاركة بين الفنان وجمهوره، والتي هي جوهر القوة الروحية، ويمكنه أن يبلغها من دون أن توقظ رغبة الظهور أمام الناس عنده. (كنت محتجباً عنهم وراء الأورغن الكبير)، قال، (كنت وحيداً، مع هذا متحداً معهم).

كانت التمارين تبدأ في الساعات المبكرة للصباح. قبل بدء العمل كان الأولاد يحضرون القداس، بينما الظلام لا يزال مخيما في الخارج. كانت الكنيسة مضاءة بالشموع التي تومض بأعداد كبيرة أمام تمثالي العذراء والقديس، والنقاط الصغيرة للضوء تخفق عند أقل نسمة هواء. (أي غنى! عندما أفكر إن القسسة يستبدلون النور الحي بالضوء الميت للكهرباء)، قال رينوار متحدثا عن هذه الموضة الأخيرة في الإضاءة، (إنه ضوء في قمقم، يلائم الجثث فقط).

في ذلك الوهج السحري، كان المؤمنون بالكاد مرئيين وهم يسمعون القداس: بوابون محزّمون من لاهال، يمسكون أطراف قبعاتهم بأيديهم؛ قصّابون من المجازر، بمريلاتهم الملطخة بالدم؛ بائعات محار يرتدين قباقيب خشبية وتنانير قصيرة ملونة، بائعات ألبان بملابسهن البيض. إيمانهم كان مؤثرا، وكذلك جمال المشهد. (وجوه رجال مهنتهم القتل؛ أجسام اعتادت على تحمل الأثقال؛ رجال ونساء خبروا الحياة، ولا يأتون إلى القداس لعرض ملابس الأحد أو لأي أسباب عاطفية. حينها فقط، في ذلك الصباح البارد، فهمت رامبرانت).

أعطى غونو أبي مقاعد في المسرح لعروض الأوبرا، مقصورة للعائلة كلها. انه لم يكن مسرح "الأوبرا" الكبير في غارنييه - (تلك القطعة المحروقة

Twitter: @ketab_n

من خبز البريوش) - بل هو مبنى فاتن على الطراز الإيطالي، يمكنك أن تأخذ فكرة عنه فقط إذا ذهبت إلى الفينيس[٢١] في فينيسيا، (بالكامل من الخشب وكله مقصورات؛ علبة جواهر تُعرض فيها نساء باريس الجميلات. هذه الأيام المسرح هو "ممارسة ثقافية". المعماريون درسوا له علم الأصوات، وفكروا بأفضل الوسائل للسقوف الهندسية. أما اليطاليون فكانوا يعرفون قوانين الصوت بالغريزة، من دون الحاجة إلى صياغتها. في مسرحهم يمكنك سماع كل شيء، بحيث ان تنهيدة صادرة من البريما دونا (المغنية الأولى) توجع قلبك. ويالها من ألوان من الأحمر والذهبي، وأشكال من فينوسات وكيوبيديات وميوزيات مرسومة على الخشب! تشبه تلك التي في دوّامة الخيل في مدينة الملاهي... والمجوهرات التي تتربع على النهود النافرة! أنا أعشق المجوهرات، لكن فقط حين تستقر على صدر امرأة. مع أني أفضل المجوهرات المقلدة. التفكير بما تكلفه المجوهرات الأخرى يأخذ نصف المتعة فيها...).

في إحدى الليالي عرضوا في الأوبرا "لوسي دو لامرمور". في تلك الأيام لم يكن المغنون يعرفون شيئاً عن "الأسلوب الواقعي"، فكانوا يبقون وجوههم نحو الجمهور. حتى حينما يبوح التينور بعواطفه للسوبرانو، فإنه يركع موليا ظهره لها، باسطا ذراعيه نحو الاوركسترا. إستمتع آل رينوار بالأداء، وأبي كان في جنان النعيم. لكن ليزا تذمرت قائلة إن هذا ليس (حقيقيا). (في أن الحياة الواقعية لا يغني الناس بل يتكلمون). ملاحظتها هذه جعلت رينوار يفكر، لكنها لم تقنعه. في ما بعد، سيكشف لي في بضع كلمات أفكاره الخاصة عن المسرح: (كانت مدام شاربنتييه تلح علي كثيراً في أن أذهب لأرى واحدة من المسرحيات التي كتبها الكسندر ديما الإبن. أذعنت، ذات مرّة، لرغبتها

---

(٢١) مسرح بُني عام ١٧١٩ على يد انتونيو سيلفا، وكان دُمّر بحريق في عام ١٨٣٦ وأعيد بناؤه في ١٨٨٨ على أساس مخطّطه الأصلي.

Twitter: @ketab_n

كي أرضيها. لم يكن ديما الأصفر يعجبني بسبب موقفه أزاء أبيه، الذي هو الآن مزدرى في هذا العصر. كانوا يعتبرونه مجرد مسلّي - كما لو أن تسلية الناس عمل سهل دائماً. يصرّ المضجرون على فعل كل ما يريدون. كلما كانوا مضجرين أكثر، أثاروا الإعجاب أكثر... حسن، ذهبت لمشاهدة مسرحية ديما. إرتفعت الستارة عن مشهد يُظهر موقدا حقيقيا، نارا حقيقية وبيانو حقيقيا. كنت لتوي متزوجا من أمك، ولأنها تحب الموسيقى، أهديتها بيانو. كل ليلة، حين كنت أعود من المرسم، كان أول شيء يقع نظري عليه هو البيانو. لماذا أضيّع أمسية في مسرح غير مريح ناظرا إلى ما أراه في البيت وأنا أنتعل خفيّ وأدخن غليونا جيدا؟ نهضت وغادرت قبل نهاية العرض).

أفتح هنا قوسين، لأضيف كلمة حول الوصف الحازم، الذي إستشهدت به أعلاه بشأن الأشخاص المضجرين. في العادة، كان أبي يوضح أفكاره بلغة متقنة وصحيحة نحويا دائماً. كان لا يحب اللثغ بالراء في كلام الناس من ضواحي باريس، لأنه يعتبره متصنعا، واكثر منه الكلام النفاج الذي يقلد الناس فيه الانكليز، بما في ذلك اللثغة الطفيفة. كانت تزعجه الأخطاء في النحو. هو نفسه لم يكن يتكلم بلهجة ملحوظة. من جانب آخر، كانت تعجبه اللهجات المحلية الأصيلة، التي نشأت من التقاليد، ولغات الفلاحين بوجه عام. كان يتجنب الألفاظ الفظة قدر الإمكان، محتفظا بها لعدد محدود من أعدائه الشخصيين، وكان بينهم أدباء و"رسامون أدباء" على نحو خاص.

أرسل غونو صديقه القديم، قس سيدات لاهال، سفيرا إلى بيت جدّي مع اقتراح بتقديم تعليم موسيقي كامل إلى تلميذه. وفي الآن نفسه مع وعد بالحصول على مكان له في كورس أوبرا، كعمل لكسب العيش. كان على يقين بأن الفتى رينوار يمكن أن يصبح مغنياً عظيماً. كان العرض مغرياً. ورينوار كان يحب الغناء، وكما أسلفت، كان لديه رعب من الظهور أمام الناس. لم يكن الأمر جبنا، بل شعوراً بأنه لم يكن (مجبولاً على مثل هذا النوع من الأشياء)،

Twitter: @ketab_n

كما كان يحسّ بأنه خلف ظهور الممثّل الهاوي تقع قوى مدمرة خفية، لهذا كان من دون خوان أو فيغارو يستلزم نوعاً من تمارين رياضية روحية كان هو غير مستعد لها. لو كان عرض غونو هو الوحيد، لوافق عليه تماشياً مع سياسة "الفلينة"، ولوافق والداه. لكن واحداً من أصدقاء عائلة دافيد، مسيو ليفي، كان يملك مشغلا لأعمال البورسلين، الخزف الصيني، في شارع فيي دي تامبل، عرض أن يأخذه ليتعلم المهنة. البورسلين، ليموج ـ حلم ليونار المفضل! فقرر أبي اختيار البورسلين. ودّع أستاذه بدموع حارة. قال غونو له: (هل تعلم أن مغني التينور الذي سمعته في "لوسي" يكسب عشرة آلاف فرنك في السنة؟) لكن لم يكن للمال جاذبية كبيرة على أوغست رينوار.

Twitter: @ketab_n

٧

لرينوار نفور جسدي تقريبا من عمل الأشياء التي لا يحبها. لم يكن قادرا أبدا، على سبيل المثال، على التعليم. كان إسفنجة بشرية، يمتص كل شيء له علاقة بالحياة. كل ما كان يراه، كل شيء يدركه، يصبح جزءا من نفسه. التفكير بأن كل ضربة من ضربات فرشاته تحقق لأولئك الأغنياء مئة ضعف، لم يخطر له حتى نهاية مسيرته الفنية. حين كان يمسك فرشاته ليرسم، ينسى وينسى دائماً بأن عمله سيشكل ربما أهمية ما. دور الأستاذ الذي يتطلب من المرء أن "يعطي" ذاته، يبدو له غير واقعي، هو الذي أراد دوما أن "يأخذ" فقط. سخاؤه لم يكن ممروفا لديه.

الأمر نفسه في حياة رينوار الشخصية. حتى وهو طفل، كانت له نزعة أن يكون مقتصدا. (كان من عادتي أن أمشي على الأرض الرخوة من جانب الطريق، كي أتجنب أن أبلي حذائي على الأرض الصلبة للشارع المرصوف). مع هذا، كان لا يتردد بإنفاق معاشه الشهري لشراء طوق من المخرمات لأخته ليزا، أو عصا برأس ذهبية لأبيه. لم يكن يجرؤ على شراء هدية لأمه. لم تكن مارغريت ميرليه تأبه بالأناقة المتكلفة. كانت تهوى قطع الأثاث الجميلة، البسط والستائر الزاهية الألوان. ذات مرة إشترى لها أبي خزانة من طراز

Twitter: @ketab_n

لويس السادس عشر: (... ليست بولية [٢٢]) قال، (بل أفضل بكثير، في رأيي، بول يقع أحياناً في التكلف. ولو انه أنجز فعلا كل الخزانات التي كانت تنسب اليه، فهذا يعني انه عاش ثلاثة قرون!) أضاف أبي قائلا: (كان ممكنا للإمبراطورية الثانية أن تصبح فردوس جامعي التحف. فكتور هيجو شوّش عقول الناس، فلم يعد بوسعهم رؤية أي شيء بعين بصيرة. دفعوا أسعارا لا معقولة لأشياء مقلدة رديئة ـ كرسي بمساند من العصور الوسطى بنحت تافه ينغرز في ظهرك ـ بنوا قلاعا مقلدة، تراها هنا وهناك، سهل مونسو [٢٣] مليء بها: نوافذ قوطية، زجاج ملوّن، لا إضاءة، سلالم قد تدق عنقك وأنت ترتقيها. برج ذو كوى عادة ما يخفي مرحاضاً. والنساء البرجوازيات اللائي يقطنّ هذه الأمكنة، تظن الواحدة منهن نفسها إيسابو البافارية، وزوجها تاجر الخردة فرانسوا فيّون. وأثناء هذا الوقت، يستخدمون أثاثاً فلاحيا فخماً، أو أثاثاً برجوازياً من القرن الثامن عشر، حطباً للوقود).

بدأ رينوار مهنة الرسم على البورسلين بحماسة معتدلة، يمارسها في كل شيء كان يفعله. في أعماق نفسه، كان يشك في ما إذا كان خزف معلمه يمثل نموذج الجمال التشكيلي. كان ذلك الخزف من سَفر وليموج: زهريات مزخرفة بأكاليل من زهور ناعمة، أطباق مزينة بالأرابسك، ودائماً بأشكال في وسطها، مثل راعية غنم، نسور إمبراطورية، أو بورتريهات تاريخية. (... لم يكن في هذا العمل ما يدهش، لكنه عمل شريف. وثمة شيء ما بالتأكيد حول عمل الزخرفة باليد. حتى الصانع الغبي يضع شيئاً من روحه في ما يفعله. ضربة فرشاة خرقاء قد تكشف عن أحلامه الباطنية الفنية. أنا أفضّل، في كل وقت، حرفيا بليدا على آلة).

---

(٢٢) boulle، بولية: رياش مطعم بالذهب أو النحاس ويعرف باسم صانعه اندريه شارل بول.

(٢٣) منطقة الموضة في باريس، أنشئت في نهاية الامبراطورية الثانية.

Twitter: @ketab_n

بدأ رينوار عمله مع رسم أطر الأطباق، وهو عمل سهل إلى حد ما. وبرهن على براعة فائقة، بحيث إنتقل، بعد فترة قليلة، إلى رسم البورتريهات التاريخية في وسط الطبق. ليزا، التي ما فتئت تشغل نفسها، بعد الزواج، برفاهية الآخرين، أدركت ان أخاها يقوم بعمل مزخرف ماهر لقاء أجرة مهني. فذهبت لمقابلة صاحب عمل البورسلين لتقول له انه مستغل، وهددته بانتقال أوغست للعمل مع منافسه في الجهة المقابلة من الشارع. لم يقو الرجل الطيب على تخيل خسارة ممتهنه الجديد، حسن الأخلاق الهادئ. لكنه رأى انه من غير الملائم أن يدفع لصبي أجرة رجل بالغ... (رجل رب أسرة). كان يتفوه باستمرار بكلمة "ملائم"، وبدافع الجبن بلا شك، كان يقاطع كلامه بنشقات صغيرة حذرة. وصفه أبي بأنه رجل صغير الحجم مفعم بالحيوية، مصاب بقِصر البصر، وله لحية كبيرة تشبه لحية نابوليون الثالث، تسبغ عليه مظهراً خادعاً من القوة. في النهاية، وافق على دفع أجر رينوار بالقطعة (سأجربه مع طبق الحلوى، بإثنين سو عن الطبق، وثلاثة سو عن بروفيل ماري انطوانيت). (ماري انطوانيت في بروفيل!) قال رينوار بازدراء. (ذلك المغفل ظن انها ذكية جداً للعب دور راعية!). رسمها أبي مرات عديدة إلى الحد الذي أصبح بإمكانه أن يفعل ذلك وعيناه مغمضتان. كان يعمل على نحو سريع، الأمر الذي امتلأ جيبه بقطع السو. رب العمل كان يتنشق ويمسد لحيته غضباً، (مجرّد صبي... يكسب كل هذا المال!)، صرخ قائلاً: (انه أمر غير ملائم!)، اقترح عندئذ أن يدفع لرينوار أجراً باهظاً، عشرين فرنكاً في الشهر، إذ أعتقد ان هذا سيمنحه ضمانا آليا، ربما لا يحصل عليه بطريقة أخرى، فأبدى رينوار استعداداً للقبول، لكن ليزا جعلته يرفض العرض، فاستمر العمل "بالقطعة". إستفاد من نجاحه في ماري انطوانيت، ليقنع معلمه بأن يدعه يجرّب مواضيع أخرى. فزع الرجل الطيب من الأمر، لكن زوجته التي كانت غالبا ما تحب أن تمرر أصابعها خلال الشعر الأشقر للحرفي الصغير، ضمنت له الموافقة.

Twitter: @ketab_n

حاول رينوار أن ينسخ بيده صورا عارية من كتاب أعطته أمه إياه، "آلهات الأولمب بريشة الفنانين العظام". كان الكتاب مزوّدا برسوم منقوشة لأعمال فناني عصر النهضة الإيطاليين. كنت أملك، لسنوات عديدة، زهرية مزخرفة لفينوس على خلفية من الفيوم، من أعماله، وكانت تنبئ مسبقا عن رينوار الحقيقي. بالرغم من تفاهة الشيء، والغرض الواضح من عمل قطعة "تجارية" صرفة، فإنها تكشف عن يد رجل عظيم. لسوء الحظ، فقدت الزهرية من بيتي أثناء الحرب العالمية الثانية. ربما إستمتع بها مالكها الجديد إلى اقصى حد.

مدام ليفي، كانت امرأة بيضاء ذات شعر بني داكن. كان رينوار يخاف منها في البداية. فهو لم يتقرب إلى امرأة من قبل. (كما أذكر..) قال لي، (إنها كانت جذّابة جداً، لكنها ضخمة البنية، بساقين ضخمتين، وذراعين كبيرتين وصدر جميل..). وحيث ان شقة ليفي كانت تقع في الطابق الأول، كانت في كثير من الأحيان تنزل إلى المشغل، تراقب أبي وهو يعمل، وتتنهّد قائلة، (آه، كم أشعر بالوحدة... كم أحس بالضجر). وعلّق رينوار قائلاً: (لا بد أنها كانت تقرأ "مدام بوفاري"، الامرأة العاطفية الفاجرة. كنت حذراً بعض الشيء، ولدي أمور أخرى تشغلني. لكن يجب أن أعترف بأنها كانت من النوع الطيب، وكل ما كانت تريده حقاً هو مساعدتي).

الجانب الصناعي من العمل فتن رينوار. لكن مسيو ليفي واصل معارضة رغبته بمعرفة المزيد، لأن ما كان يهمّه فقط هو زيادة المنتوج من ماري انطوانيت، حيث كان الطلب عليها ما فتئ يتصاعد. (نحن ندين بذلك إلى المقصلة)، قال رينوار. (البرجوازيون يحبّون الشهداء - خصوصاً بعد وجبة دسمة، وكثير من النبيذ والشراب السكر المعطّرا).

بالرغم من ذلك، تعلم رينوار أن يقولب الهريات ويشكلها على عجلة

Twitter: @ketab_n

الخزّاف. الرجل العجوز الذي كان يعتني بالتنور، صار صديقه، وعلمه سر خبز الخزف بالنار. في تلك الأيام، كان الخشب لا يزال يستخدم في ايقاد الأفران. عاجلا أصبح رينوار ماهرا في التحكم بمقدار السخونة المطلوبة وقياس درجة الحرارة في الداخل، من خلال لون الطلاء في عملية الصهر. كان ثمة فتحة صغيرة في الجدار الجانبي لمراقبة مجرى العملية. كان الرجل العجوز، وهو يأخذ رشفات صغيرة من النبيذ الأحمر الرخيص، يعطي تلميذه تعليمات لا تنتهي: (يجب أن تشرب، لكن إمزج النبيذ بالماء. إذا لم تشرب، سيصيبك الجفاف من حرارة الفرن. أعرف واحدا من أصحابنا أصابه الجفاف، فلم يبق من لحم على جسمه. لم يصبح سوى جلد وعظم، وتوقف قلبه ورئتاه عن العمل... صارت ملتصقة بالأضلاع... فمات. لا ينبغي أن يتغير لون الزهريات من الأحمر القاتم إلى الكرزي الفاتح بسرعة. بعد ذلك، لا يجب أن تدع النار تخفت، إذ لو فعلت، سيكون لديك الكثير من الكسور).

خبز الخزف، كان يستغرق عادة إثنتا عشر ساعة. جلبت امرأة صاحب العمل لرعاة الفرن طعامهم. (تفضل يا فتاي)، قالت لأبي. (أحضرت لك قطعة شهية من لحم البقر المقلي). لكن رينوار كان مشغولا جدّاً بمراقبة قطع الخزف الصيني وهي تتحول من الأحمر إلى البرتقالي، ومحاولاتها في إغوائه باءت بالفشل. كان الرجل يستمتع بالأمر. (أنت يافع جداً، وأنا عجوز جداً) قال ملاحظا، بضحكة خافتة، بعد أن غادرت. (لقد خانها الحظ هذه المرة أيضاً).

كان أبي يسرد هذه الذكريات على نحو عشوائي، لكني أعتقد أني نجحت في ترتيب الوقائع، ونسبتها بشكل صحيح إلى الفترة التي كان يعمل فيها بأشغال البورسلين. أعتقد انه بقي هناك نحو خمس سنوات، من عمر الثالثة عشرة حتى الثامنة عشرة. خلال هذه الفترة، تعلم رينوار المبادئ الأساسية للحياة: الفن والحب. في ما خص الفقرة الثانية، لا بد لي من القول، على نحو

Twitter: @ketab_n

ملائم أكثر، "المرأة". وينبغي أن أضيف، انه مع بضعة إستثناءات محتومة، مثلت النساء بالنسبة اليه، قبل كل شيء، تجسّد الفن.

رفض رينوار عن حق أن يكون مفكرا. (ما يدور داخل رأسي لا يهمني. أريد أن ألمس... أو على الأقل أن أرى!)، كان يقول. بالنسبة له، مصطلح "فن" الذي قبله صاغرا أخيراً (عليك أن تتكلم لغة عصرك) ـ تغير من التجريد إلى الواقع، حين صادف، وهو يتمشى ذات يوم، "نافورة الأبرياء". إنها لم تكن المرّة الأولى التي يراها فيها. كان كثيراً ما يدور الحديث عنها في تلك الأيام. كانت الحكومة قررت، وبنفقات عالية، أن تضع النصب في موقع جدير بالتقدير أكثر من موقعه السابق. كان نابوليون الثالث قد أخذ على عاتقه تجميل باريس، وجعلها مكاناً أكثر ازدهاراً، ولتنفيذ خطة هاوسمان لن يتردد في المغالاة فيها. وكفتى صغير استحسن رينوار هذه التغيرات المتطرفة. كان بلا شك واقعاً تحت تأثير ليزا التي كانت بكليتها مع التقدّم. مع هذا، في سنواته المتأخرة كان غالبا ما يعبر عن أسفه لاختفاء الكثير من الأحياء القديمة. (لا يمكنك أن تتخيل كم كانت باريس جميلة ومبهجة)، قال. (ومهما كانت آراء هاوسمان ومخربي المملكات الآخرين، كانت باريس أكثر ازدهارا مما هي الآن. كانت الشوارع عريضة، وقنوات البالوعات أقل نتانة، وخلف كل بيت حديقة. وكان الكثير من الناس ما زالوا يعرفون متعة أكل الخس المقطوف الطازج).

يعود تاريخ "نافورة الأبرياء" إلى عهد شارل التاسع. كانت مشيدة وسط "مقبرة الأبرياء"، وهي الشهيرة يومها بمواضعها الأربعة لحفظ الجثث، والمقابر العامة التي كانت يرقد فيها موتى كلهم تقريبا من المجهولين. كان العمل قد بدأ فيها قبل وقت قصير من مذبحة سان بارتولوميو. كان الصنائعيون يشتغلون بحذر بالحلي الرقيقة للنافورة، بينما كانت أجساد البروتستانت مكدسة في قنوات المياه المفتوحة. أتلفت الثورة المقبرة، الأثر

Twitter: @ketab_n

الباقي من العهود الغابرة، وأحلت محلها سوقاً لمزارعي الخضار والفاكهة من شارون ومونتروي والمناطق البعيدة في الشمال الشرقي. التدمير العبثي صار أقل: مع انتصارات جيوشها، أصبحت الجمهورية أكثر تسامحاً. هذه النزعة للاعتدال هي ظاهرة عامة بين الثورات، (بما فيها الثورة المسيحية)، كما رأى رينوار. مهما يكن الأمر، فإن النافورة نقلت، بشكل ممتاز، حجراً بعد حجر، إلى ركن في المقبرة، وهكذا نجت من معاول المساواتيين. الناس الذين كانوا يودون تأملها معجبين، عليهم أن يشقوا طريقهم وسط سقائف خشبية، وعربات يد ومختلف الحيوانات التي حشر التجّار بها المكان. في عام ١٨٥٥، انتقل هذا الجمع الفوضوي من الناس إلى أمكنة متفرقة مخصصة إلى السوق المركزي الجديد، أو "لاهال"، الذي أفتتح لتوه. عليه، أخليت منطقة المقبرة السابقة ونصبت النافورة وسط المكان الجديد. وفي مكان أكشاك السوق المتداعية للسقوط، زرعت أشجار فوق أكوام الهياكل العظمية، لأجل بناء ساحة عامة. وكما كان متوقعاً، أسف رينوار على إختفاء السوق القديمة بكل ألوانها وفوضاها، (أنا لا أحب عملاً من أعمال الفن مقدم لي على طبق)، قال. (لقد فعلوا الشيء نفسه مع نوتردام، التي ظلت لقرون جميلة ومحاطة بأكواخ قديمة. ولأن مثل هذا الشيء يدعونه فناً، فلن أقول ان ليس هناك فناً من دون حياة. وإذا قتلت الحياة... لكن ذلك، يا للعنة، هو سبب هوسنا في أن يكون واحدنا distingué "متميزاً". البرجوازيون لا يريدون أن تطال أنوفهم رائحة السمك).

إذاً، ذات صباح، خطرت للفتى رينوار فكرة التوقف وتأمل نافورة الأبرياء. اعتقد أن الرسوم المنحوتة على سطح الرخام توحي له ببعض المواضيع في عمله في البورسلين. عاد في اليوم التالي ومعه ورق تخطيط وقلم. سرعان ما تعلم أن يميز بين عمل جان غوجون وأعمال النحاتين الآخرين. سأل صهره ليراي عن ذلك، فسمع قصة النافورة منه. سؤال واحد مهم ورد

Twitter: @ketab_n

إلى ذهن أبي: (النساء جميعهن يتشابهن: فتيات جميلات بقوام رائع ـ من المحتمل انها كانت زوجة النحات أو عشيقته. لكن لماذا هاته النسوة أكثر إثارة مما هن عند ليسكوت؟ لماذا تنتابني رغبة بالتحديق لساعات في نساء غوجون، بينما الأخريات يجعلنني أحس بالملل بعد دقيقة أو دقيقتين؟)، يختتم رينوار كلامه قائلا، (لو قدّر لي أن أعرف الجواب، لكنت أحسست بالرضا).

قد أبدو دعيّا، لكني أعتقد انني أعرف الجواب. فرينوار شعر بلا وعي برباط روحي مع جان غوجون. (إننا من دم واحد، أنا وأنت)، كما قال ماوي في "كتاب الغابة"، الذي قرأه رينوار وأعاد قراءته مرات عديدة. بين البشر الذين يشتركون بنفس الدم يكون الحوار أسهل. ما يعنيني هنا هو قضية انتشار أعمال الفن. فقط هؤلاء الذين يرتقون إلى مصاف الفنانين يمكنهم المشاركة في الحوار. عددهم، بالضرورة، محدود. لمَ إذاً تفتح المتاحف أبوابها للعدد الكبير من الجهلة؟ عن هذا السؤال أجاب رينوار إن أفضل طريقة لتعلم لغة أجنبية هي بالذهاب إلى البلد الذي يتكلمها وسماعها هناك،(والطريقة الوحيدة لفهم الرسم هي بالذهاب والنظر اليه. وإذا لم يكن هناك سوى واحد من المليون زائر، يعني له الفن شيئاً، فإن هذا كافٍ لتبرير وجود المتاحف).

حين كان رينوار يتحدث عن نافورة الأبرياء، لم أستوعب حقاً ملاحظاته. كان الظلام خيّم على مرسمه، واستمر هو برواية قصته هذه، بينما كان يلقي، بين حين وآخر، نظرات عجلى من زاوية عينه على لوح غير كامل لزهور. لم ينقضِ زمن كاف، بالنسبة اليه، على تجاوز الإرباك الذي سببه موت أمي. لم يكن يشعر أبداً في نفسه الكفاءة للشروع بتخطيط شكل ما، أو الذهاب خارجاً لرسم منظر طبيعي. كان يجلس غارقاً في كرسيه ينتظر هبوط الليل. أظنه كان يشعر بالارتياح متحدثاً معي عن طفولته. (لا بد لك أن تلقي نظرة أخرى على النافورة،) قال. (أما أنا فلم أعد قادراً.. فمن العسير عليّ أن أتحرك... أعطني سيجارة من فضلك. من يصدق بأني عاجز حتى

Twitter: @ketab_n

عن لف سيجارة!) نظر إلى يديه اللتين شوههما الروماتزم. (سجائر جاهزة الصنع... نساء معلبات). أمثلته المقارنة يرددها غالباً. أذكر قوله، حين إشترت له أمي أوتوموبيلاً قبل بضع سنوات، (ها أنا في سيارة، تماماً مثل بغي من الطبقة الراقية). ثم قفل راجعا إلى النافورة، مضيفاً: (النساء اللائي نقشهن غوجون، فيهن شيء من القطة. قطط النساء الوحيدات هو الموضوع الأكثر تسلية في الرسم. لكني أتذكر أيضاً معزاة كبيرة: فتاة رائعة! أنا أحب أن أرسم البكيني[٢٤] أيضاً. حين تبوّز فإنها تبدو فاتنة). كان يهوى مقارنة الناس بالحيوانات. (اروين كان جاهلاً بهذا الأمر. قل لي، لماذا القرود فقط؟ "فلان" (ذكر اسم تاجر معروف)، هو سليل قرد. وفكتور هيجو هو بلا شك فحل وسط أسلافه. وكم من النساء يشبهن الوز؟ مع ذلك فهن جذابات، والوزة، على أي حال مخلوق لطيف جداً).

لاعتقادي أن ذلك يرضي أبي، إشتريت له بعض نماذج مصغرة من الرسوم المنحوتة على الرخام لغوجون الموجودة في اللوفر. لكنه بالكاد ألقى نظرة عليها. مع هذا أعجبته عذراء القرن الثاني عشر. وكنت إشتريتها مصادفة. الجسم كان طويلاً، والوجه صيغ بشكل أخرق، ويسوع الطفل، وهو صغير جداً نسبة إلى حجم الأم، ذو وجه متجهم، نظرة محدقة بلهاء تشبه نظرة دمية رخيصة. تعليق رينوار فتح أمامي أفقا جديدا كليا: (أي جاذبية تتمتع بها هذه المرأة الفرنسية الصغيرة البرجوازية! وأي تواضع! لقد كانوا محظوظين، أعني قاطعي الأحجار أولئك اللذين نقشوا الكاتدرائيات القديمة. لا أصدق أن انسانا يعمل على المواضيع نفسها طوال حياته: العذراء والمسيح الطفل، الحواريون، مؤلفو الأناجيل الأربعة. سوف لا أدهش لو أن أحدهم عمل على الموضوع نفسه مرارا وتكرارا. أي حرية! أن لا يشغل بالك العثور

---

(٢٤) جنس من الكلاب الصغيرة الحجم.

Twitter: @ketab_n

على قصة، بما انها كانت رويت مئات المرات. ذلك هو المهم: أن تتخلص من عبء الموضوع، أن تتجنب أن تكون "أديبا"، وهكذا تختار شيئاً يعرفه الجميع ـ الأفضل من هذا، أن لا يكون ثمة قصة أبدا). حين كان يتحدث، كان ينظر إلى لوحته مرة أخرى. (أطبق الظلام الآن تماماً. سأضع هذه الورود جانبا. ناد لي على غران لويز).

كان أبي موسوسا بكل شيء يتعلق بمهنته. كان دائماً يحفظ الملون والفراشي نظيفة على نحو دقيق جداً. هناك قلة من الأشخاص الذين كان يأتمنهم للعناية بها. كان له ثقة عظيمة، على أي حال، في أمي وغابرييل، والآن في غران لويز أيضاً.

حالما أشعلت له السيجارة المحتومة، إستأنف أبي حديثنا. (تذكر، هذا مجرد جص يشبه الأصل. لا شيء يعيب الجص، لكنه يفتقر إلى الفخامة. غوجون كان متعدد المواهب، لكن من أجل أن تبرز جمال العمل في نسخة طبق الأصل، فإنك تحتاج إلى قوة تفوق الحد).

ذات مرة سمعت والدي يقول لمجموعة من أصدقائه، بينهم تاجر الفن فولار، وجامع الأعمال الفنية غانيا، (منذ زمن الكاتدرائيات ليس لدينا سوى نحات واحد. فن النحت عمل شاق. ما زال بالإمكان العثور على بضعة رسامين وحفنة من الكتّاب والموسيقيين، لكن أن تكون نحاتا عليك أن تكون قديسا، تملك القوة للإفلات من شرك المهارة... ومن جانب آخر تتفادى الوقوع في فخ إدعاء البساطة). ثم واصل كلامه، متأملا، (منذ شارتر، ثمة نحات واحد فقط، في رأيي، ذلك هو ديغا). (هؤلاء الذين يعملون على الكاتدرائيات،) قال أبي في الختام، (نجحوا بإعطائنا فكرة عن الخلود. كان هذا هو الشغل الشاغل في عصرهم. ديغا عثر على طريقة في التعبير عن علّة معاصرينا: أعني الحركة. في عصرنا الحاضر لدينا جميعا توق للحركة، "حركة"

Twitter: @ketab_n

الجوكي والحصان عند ديغا. قبله، كان الصينيون فقط هم من اكتشفوا سر الحركة. هذه هي عظمة ديغا: الحركة بأسلوب فرنسي). للتأكيد على وجهة نظره، ذكر الخطأ الذي إرتكبه، كما يعتقد، غارنييه حين إستعان بكاربو، بدلاً من ديغا، لإنجاز الشخصيات الراقصة على مبنى الأوبرا. لا بد انه غاب عن بال رينوار ان ديغا، في ذلك الوقت، كان شابا صغيرا.

تمجيده للحركة يبدو انه يناقض آراء معينة كان عبّر عنها في السابق. ذكّرته بتعليقات له حول فن النحت في متحف لوكسمبورغ. كان يقول، (هؤلاء الرجال والنساء متكلفون، انهم يتعبونك حين تنظر اليهم. فهم إما واقفون على رجل واحدة، أو يلّوحون بسيوفهم وكل عضلة من عضلات جسمهم منتفخة. مثل هذا الجهد لا يدوم إلى أبد الآبدين. لأنه مصنوع من حجر أو برونز، ومادة دائمة، فلا بد للنحت ان يكون خالدا مثل المادة التي خلق منها. كأنك ترغب تقريبا أن تقول لهؤلاء الجنود القتلى والأمهات المفجوعات: "اهدأوا، خذوا لأنفسكم كراسي واجلسوا قليلاً لتستريحوا") ضحك رينوار من إعتراضي، وأجاب: (لكن يمكن للحركة أن تكون خالدة مثل السكون طالما كانت في وئام مع الطبيعة: إذا ما عبرت عن الفعالية البشرية الطبيعية. طيران السنونو هو خالد بقدر ما هو سكون "ابو الهول". التماثيل الموجودة في متحف اللوكسمبورغ مفرطة النشاط لأسباب فكرية، ولأسباب أدبية. السنونو يطير سريعا في الجو كي يلتقط بعوضة ويسد جوعه، لا ليؤكد صحة مبدأ ما). هذا الإنكار لقيمة المواضيع غير المادية في الفن هي خصيصة رينوار المميزة. لكننا سوف لا نشتط لو قلنا ان هذا الرجل الذي كان يؤمن بهذا المبادئ، يفضل الموت جوعا على خيانتها.

بغض النظر عن "نافورة الأبرياء"، وبضعة إكتشافات أخرى سأشير إليها في ما بعد، نادرا ما كان رينوار يتحدث عن تطوره في الرسم. من الواضح إن ذلك يحدث بشكل طبيعي مثل التنفس، فهو لم يفعل شيئاً آخر سوى الرسم.

Twitter: @ketab_n

المراحل المختلفة التي آل إليها هذا التطوّر لم تكن نتيجة مصادفة سعيدة أو مشؤومة، بل خطوات عادية ومحتومة على الدرب الذي كان مقدراً عليه اجتيازه. حتى قبل أن يكون هو نفسه واعيا بهذا، فإن يده خلقت للرسم مثلما خلقت ألسنتنا للكلام. ليس اكتشافاً مذهلاً أن نعرف أن الوظيفة الرئيسية لسيقاننا هي القدرة على المشي: الطفل الرضيع يبدأ بالزحف ثم في يوم يمشي. رينوار، ذهب إلى المدرسة، تعلم الغناء، زخرف البورسلين، ثم ذات يوم بدأ يرسم. وهذا كل ما في الأمر.

عرف أبي متحف اللوفر جيداً. كان جدّاي، وخصوصاً جدّتي، يأخذانه لزيارة المتحف مرات عديدة. كانا إنسانين سليمي الذوق: (يمكن أحياناً أن تصادف مثلهما في فرنسا). لكن الإحساس العميق بالرسم لم يتجلَّ لدى رينوار إلا في وقت متأخر جداً. (هذه الفكرة، في فلسفة روسو، بأن البشر ولدوا وهم يعرفون كل شيء ما هي إلا وهم أدبي. نحن لا نعرف شيئاً حين نولد. نحن نحمل كل أنواع الإمكانيات في داخلنا، لكن أي عمل يحتاجون أن يكتشفوا. أنا، احتجت عشرين عاماً كي أكتشف الرسم. عشرون عاماً وأنا أنظر إلى الطبيعة، والأهم من ذلك، أذهب إلى اللوفر. وعندما أقول إكتشاف، فأنا ما زلت في البداية، ما زلت أرتكب الأخطاء. خذ فلاحا من إيسوي يسمع رائعة الروائع، من دون جيوفاني لموزارت، سيصيبه الضجر الشديد. فهو يفضل أكثر كونشرتو المقهى[٢٥] ـ يجري هذا بالرغم من ذلك المنافق جان جاك روسو.إذاً الأمر بسيط جدّاً، يجب أن تبدأ مع كونشرتو مقهى، لكن عليك أن تختار الأفضل).

رينوار بدأ بشيء أفضل من كونشرتو المقهى. كان حماسه الأول نحو واتو

---

(٢٥) café – concert، مقهى مغنى، وهو المقهى الذي يمكن للزبائن فيه أن يستمعوا إلى الأغاني والموسيقى الحية.

Twitter: @ketab_n

وبوشيه[٢٦] (كنت أتوق إلى نسخهم على البورسلين، لكن معلمي كان يخشى أن تأخذ مثل هذه المواضيع المعقدة وقتا أكثر وتعطي مردوداً أقل. حاولت عبثاً أن أقنعه بأنه لن يخسر شيئاً، بما أنه يدفع لي بالقطعة. عملي كان مطلوباً جداً، وقد غطى الحاجة لهذا الطلب. كنت فخوراً بنفسي كثيراً).

كان رينوار يؤكد أن نجاحه في الرسم على البورسلين منحه رضاً أكبر من كل المديح والتشريف اللذين أثقله بهما معجبوه في السنوات التالية. (فكر بالأمر، مجرد صبي ومعلمه يقول له إنّه يحتاجه كثيراً! هذا جدير بأن يذهب بعقل أي شخص. كنت أسير في الشارع وأنا أتخيل أن المارّة كلهم يعرفوني: "ها هو الفتى رينوار، تعرفه، أليس كذلك؟ انه الفتى الذي رسم ماري انطوانيت!" أنا أعرف الآن كم كان ذلك لا يعني شيئاً. فالناس على حد سواء لا يبالون بما هو جيد أو سيئ. وبعد مئة عام من الرومانسية العاطفية إلى حد مفرط، أصبح الشعب الفرنسي مفرط العاطفة).

كان يلمّح إلى لوحة باعها للتو في صالة سوثبي في لندن. (تجار اللوحات الأوغاد هؤلاء يعرفون جيدا ان الجمهور مفرط العاطفة. لقد وضعوا عنوانا لعينا على فتاتي المسكينة التي أسلمت أمرها، وكذلك أنا. سمّوها "La Pensée التأمل"). قطب وجهه حين تذكر ذلك، ثم ما لبثت عيناه أن تألقتا بمكر حين تطلع إلى مستمعيه: (موديلاتي لا يتأملن بالمرة).

---

(٢٦) Watteau، جان انتوان (١٦٨٤ – ١٧٢١)، رسام فرنسي، فلمنكي الأصل، من رواد أسلوب الروكوكو. Boucher، فرانسوا (١٧٠٣ – ١٧٧٠)، رسام وفنان زخرفة فرنسي، واحد من أهم فناني الروكوكو في فرنسا.

Twitter: @ketab_n

٨

اعتاد رينوار الذهاب بعد الظهر إلى متحف اللوفر، بدلاً من الذهاب للغداء مع أصدقائه في المقهى الصغير عند زاوية الشارع. (أضيف فراغونار إلى قائمة المفضلين عندي التي تضم واتو وبوشيه، ولاسيما بورتريهاته عن النساء. نسوة فراغونار البرجوازيات تلك! كنّ مميزات وفي الوقت عينه طيبات القلب. أنت تسمعهن يتكلمن لغة آبائنا، لاذعة لكنها مبجلة. لم يكن يطلق على الحلاقين بعد تسمية "مصففي الشعر"، وكلمة grace (فتاة فاجرة) كانت ببساطة مؤنث كلمة garçon (صبي). كنّ لا يتورعن عن إطلاق ضرطة بأدب وسط المجتمع، وفي الوقت نفسه يتحدثن كلاما فصيحا. هذه الأيام، الفرنسيون لم يعودوا يضرطون علنا، لكنهم يتكلمون مثل الجهلة الأدعياء. حين باع آل دافيد، صاحب عمل عمي هنري، محلهم، ذهب عمي للعمل عند اوديو، وهو صائغ فضة معروف في بلاس دو لا مادلين. فرض عليه وضعه الجديد الإسراع بإتمام زواجه من مدموزيل دافيد، وكذلك العمل على الحصول على المزيد من زبائن الموضة. عمل اوديو متعهدا لدى جلالة الامبراطور، وكان هناك رواج لكل شيء صيني، والحكومة تنوي إقامة مستعمرة فرنسية على ساحل الهند الصينية، والبلاط بأكمله اكتشف فجأة الشرق الأقصى. إصطحب عمي هنري أبي إلى معرض الخزف الصيني التي

Twitter: @ketab_n

جُلب قسم منها من قبل الدبلوماسيين والقسم الآخر من البعثات التجارية. أبدى رينوار إعجابه، مجاملة، بالزهريات بأشكالها المعقدة، والتماثيل الصغيرة بابتساماتها الملغزة. (وجدت أن كلها جميلة، ومصنوعة ببراعة، لكنها لسبب ما لم تعنِ لي شيئاً. كانت بارعة أكثر مما يجب! كنت يافعاً جدّاً لأرى أن هؤلاء الحمقى، الذين جلبوها، لم يختاروا سوى الأشياء التي تمثل إنحطاط حضارة عظيمة. لكن فجأة، وفي إحدى زوايا المكان اكتشفت آنية فخارية رائعة الأشكال برسوم بسيطة جداً، تركت أثراً كبيراً عليّ. كانت مرقطة بأوكسيد النحاس، نوع من اللون الأخضر يذكرك بأمواج البحر. بإختصار، بورسلين عومل من دون عناية فائقة، وهو نوع جيد من البورسلين السميك يمكنك العمل عليه من دون الخوف من الكسر. من خضع مسبقاً لهوس الموضة، لم يقدر أن يفهم حماستي، مع هذا كان نقاشاً رائعاً. لكن الموضة لا ترحم أحداً. إنها تمنعك من رؤية ما هو خالد).

الآنية الفخارية التي رآها رينوار فاقمت من شكوكه حول قيمة المواد المصنعة من أعمال البورسلين في مشغل معلمه. لكن، في تلك الأيام، كانت مهنة الفنان الرسام بعيدة عنه: حلم في جنة عدن. (برغم كل ذلك، كنت أكسب عيشي جيدا من زخرفة البورسلين)، قال. (كنت قادرا على مساعدة والديّ لشراء بيت في لوفيسيان، يرتاحان فيه حين يبلغان الشيخوخة يوماً ما. كان بمستطاعي حتى أن أعيش مستقلاً عنهما وأنا في عمر الخامسة عشرة، كان ذلك أمراً غير عادي. لكني كنت أحب البقاء في البيت، إذ كان يمتعني أن أجلس مع أمي، في الأمسيات، نثرثر. كانت تؤمن بإمكانياتي في الرسم، لكنها نصحتني أن أوفّر نقودي لمدة عام قبل أن أندفع بخوض تجربة جديدة).

كانت مدرسة فونتانبلو صنعت لنفسها إسماً معروفاً. كان أبي، متبعاً الاتجاه السائد، يطنب في المديح بهذه المجموعة التي تخصصت في رسم الطبيعة. (كنت منذهلاً بروسو، وبدوبنيي أيضاً، لكني أدركت في الحال

Twitter: @ketab_n

أن الرسام العظيم حقاً كان كورو. عمله كان لكل العصور. مثل فرمبير الهولندي، لم يكن يرسم لزمنه فقط. كنت أشمئز من ميليه، إذ كان فلاحوه المتباكون يُذكّرونني بالممثلين الذين يرتدون ملابس فلاحين. أحببت دياز[٢٧]، فهو شخص يمكنني فهمه. كنت أقول لنفسي بأني لو كنت رساماً لتمنيت أن أرسم مثله. يعجبني مشهد الغابة الذي يجعلك تشعر بوجود ماء في مكان ما قريب. في لوحة دياز بوسعك تقريبا أن تشم الفطْر، والأوراق الميتة والطحلب. صور كانت تذكرني بنزهاتي مع أمي في خمائل لوفيسيان وغابة ماري. تعرّف رينوار في ما بعد على دياز. عندما حدثني عن ذلك، كان لا يزال متأثراً من الحدث. عاد شاباً متحمساً، مرة أخرى، مرتبكاً جدّاً في حضرة الأستاذ. كيف تم هذا اللقاء؟ كان رينوار قد ترك العمل في البورسلان، في ظروف سأشير إليها لاحقا، لكنه ظل يكسب عيشه من الزخرفة. حين كان يتيسر له وقت فراغ من عمله، يذهب خارجاً إلى الريف ليرسم من الطبيعة. ذات يوم، بينما كان في غابة فونتانبلو منشغلاً بـ "موضوع"، وجد نفسه فجأة محاطاً بعصبة من الشباب الباريسي المشاكس ـ عاملون وعاملات محلات صاخبون ـ وبدأوا بالسخرية من الرداء الواسع الذي كان يرتديه. (كم كان يأس جدك عظيماً، أن يرى الملابس الجاهزة الصنع وقد أصبحت في ذلك الوقت موضة سائدة. وصار الناس يشبهون تماثيل عرض الملابس في محلات الخياطة. أتعلم، أن مشكلة الملابس الجاهزة هي ان كل شخص يبدو فيها حسن المظهر، مثل وكيل بضائع متجول. فأنت ترى عاملاً، مثلاً، يبدو متنكراً كجنتلمان، بسعر متواضع يبلغ الخمسة وعشرين فرنكا ونصف الفرنك. حين كنت شاباً، كان العمال فخورين بحِرفهم، إذ ترى النجارين يرتدون بناطيل فضفاضة ووشاحاً

---

(٢٧) تيودور روسو (١٨١٢ - ١٨٦٨)، شارل فرانسوا دوبنيي (١٨١٧ - ١٨٧٨)، نارسيس فرجيل دياز (١٨٠٨ - ١٨٧٦) كلهم كانوا رسامي جماعة مدرسة فونتانبلو.

Twitter: @ketab_n

أحمر أو أزرق من الفانيلة حول خصورهم، حتى في أيام الأحد، كان الدهانون يرتدون بيريه ورباط عنق متهدلاً. أما الآن فقد استبدلوا الفخر بمهنهم بهذا الغرور الأحمق في محاولة الظهور بمظهر البرجوازيين. النتيجة أن شوارع باريس صارت ملأى باناس يشبهون ممثلين من مسرحية ديما الإبن). (وكل ذلك)، أضاف قائلاً، (هو ذنب الإنكليز).

عودة إلى حادثة غابة فونتانبلو. تظاهر رينوار بتجاهل تعليقات الشباب المتطفّلين الوقحين، وواصل الرسم. وقد أغاظهم صمته، فمد واحد منهم إلى رفس الملون فوقع من يده. ويمكنك أن تتخيل كيف أخذ الاخرون بالضحك... هجم رينوار على هذا الشخص، لكن وثب في الحال عليه نصف دزينة من الرجال الأقوياء. وبدأت الفتيات بضربه بمظلاتهن - (بالطرف المعدني المستدق على وجهي. كان يمكن أن يفقأن عيني!). فجأة ظهر من بين الأحراش رجل، في نحو الخامسة والخمسين من العمر، بساق خشبية. كان يحمل في يده عدّة الرسامين، وخيزرانة ثقيلة في اليد الأخرى. ترك صندوق عدته، وأسرع لإنقاذ زميله الشاب، وهو يقاتل بضراوة بمقبض عصاه، تبعثر المعتدون على رينوار. في هذه الأثناء، صار بإمكان أبي الوقوف ثانية على رجليه، فانضم إلى العراك. كانت عصبة الفتيات الصاخبات تقوقي مثل الدجاجات، ثم انسحبوا جميعا مسرعين، تاركين الميدان لسيطرة الرسامين. بينما ضحية الإعتداء يعبر عن شكره، إلتقط منقذه ذو الرجل الواحدة قماشة لوحته وأخذ يتفحصها بعناية. (أنت تملك موهبة، بل موهبة كبيرة. لكن لماذا ترسم بهذه الدرجات المعتمة من اللون؟) أجاب رينوار بأن أغلب الرسامين الكبار الذين يعجب بهم يرسمون بهذه الدرجات المعتمة (لكن حتى في ظلال أوراق الشجر هنالك ضوء)، قال الآخر، (أنظر إلى جذع شجرة الزان تلك. اللون الحُمَري[٢٨] هو مجرد تقليد، سوف لا يدوم... بالمناسبة ما أسمك؟).

---

(٢٨) لون داكن برّاق يستعمله الرسامون.

Twitter: @ketab_n

جلس الرجلان على العشب، وتكلم رينوار بطلاقة عن نفسه، محدثا صديقه الجديد عن طموحاته المتواضعة. وقام الوافد الجديد بتقديم نفسه بالمقابل. كان اسمه دياز. (تعال لزيارتي في باريس. سوف يكون لنا حديث شيق). بالرغم من إعجابه بدياز، لم يلب رينوار دعوته أبدا. (كنا سنتبادل الأفكار ونناقش نظريات الفن). قال أبي (كنت فتيا، لكني كنت أعي مسبقا أن بضعة خطوط بالقلم تعادل الكثير من النظريات، بالنسبة لي، على كل حال. كنت لا أدع أبداً يوماً يمر من من دون أن أرسم على صفحة دفتري شيئاً ما، حتى لو كان مجرد تفاحة، عدا ذلك، ما أسرع أن تضيء الموهبة).

أخشى أني لم أقتنع تماماً بتبرير رينوار. فأنا أميل أكثر إلى التفكير بأنه كان يمتثل بلا وعي لغريزته، التي جعلته يدرك، بالرغم من احترامه لدياز، بأنه والرجل الآخر، في ما يخص الفن على الأقل، لا يمكنهما أبداً أن يكونا "إخوة بالدم".

إنه التقدم الصناعي الذي أجبر أبي على التخلي عن مهنة الرسم على البورسلين. حدث هذا في عام ١٨٥٨. كان حينئذ يبلغ السابعة عشرة من العمر. صارت عملية طبع التصاميم على الخزف والبورسلين متقنة. بورتريهات ماري انطوانيت يمكن الآن أن يعاد إنتاجها آلياً آلاف المرات. كان الأمر إيذانا بموت براعة رائعة. كان رب عمل رينوار يمسّد لحيته طويلاً بينما هو يفكر بالأمر مليا. شراء آلات طباعة من هذه النوع يتطلب نفقات رأسمالية محترمة. لكن كان لديه شعور غامض بأن أيام الشركات الصغيرة، كشركته، باتت معدودة. فالخزف والبورسلين يصنعان من الآن وصاعدا في مصانع بمداخن طويلة، وعجلات دوّارة، ومكاتب ملأى بالعاملين ذوي ياقات بيضاء. رب عمل رينوار، في مئزره الأبيض، الذي يفصل مشغله عن المسكن الذي يعيش فيه سلم لولبي، عاجلاً سيكون شيئاً من الماضي، كما حدث للشعر المستعار وحوامل الشموع. قرر أن يبيع محله ويتقاعد ويعيش في الريف، حيث

Twitter: @ketab_n

يسعه إمتلاك حديقة يزرع فيها البطيخ. زوجته الجميلة، مع ذلك، لم تأبه أبداً لخططه هذه. كانت تخشى أن يصيبها الملل في البيئة الريفية. فقد أحبت ذلك الجو الذي يتسم به المحل. كان بالأحرى يؤنسها حين تجرّب رداءً جديداً وتراقب التأثير الذي تتركه في نظرات العمال، وتجعل الأمر واضحاً بأنها لا ترتدي مشداً، بسبب حرارة المشغل. لم يكن الفتى رينوار جباناً جدّاً إلى الحد الذي لا يلقي فيه نظرة امتنان على فتحة صدارها حين تنحني مدام ليفي لتراقب عمله. (كان شاربي بدأ للتو ينمو، وكان هذا يجعلها تضحك) قال، ثم أضاف بعد برهة، (لا تثق بمن لا يثار عند رؤية صدر جميل). وقفت هذه المرأة إلى جانبه حين عرض، بالإتفاق مع رفاقه العمال، إقتراحا مدهشا على مسيو ليفي. على الرغم من أنه كان في السابعة عشرة من العمر فقط، صاغ لنفسه موقفا جعله يلهم كل شخص عرفه حتى آخر يوم في حياته. كان يُنظر اليه كمعلم. بثقة كاملة، وضع رفاقه العمال مصيرهم بين يدي "مسيو روبنز"، كما كانوا يلقبونه تحببا. كان إقتراحه هو إنشاء مشغل تعاوني. وإيجار المكان سيدفع إلى رب عملهم من الأرباح التي سيجنونها من عملهم. ما يبقى يُقسَم بالتساوي بينهم. كانت فكرته أن يخوضوا "سباقا مع الزمن" ضد الآلة التي توشك أن تسرق الخبز من أفواههم. ناشدت مدام ليفي زوجها أن يقبل الإقتراح، فرضخ للأمر وأرجأ زراعة البطيخ إلى وقت آخر. كان عليه أن يساعد التعاونية مع مشاكلها التجارية. بدأ الجميع العمل بنشاط محموم. وبسرعة لا تصدق بدأ رينوار برسم النهود النافرة للفينوسات على مئات الزهريات والأطباق. كان عاقدا العزم على دحر التقدم في عقر داره، والإتيان ببرهان بأن يد الحرفي الباريسي تفوق العجلات اللامعة وأذرع الكبّات المشحمة جودة. وبمبادرة من مسيو ليفي إتصل بتجار البيع بالجملة في شارع باردييس، لمناقشتهم إمكانية شراء الخزف. سعر التكلفة الذي إقترحه كان أقل من السعر المطلوب في السلع المزخرفة آليا. لكن التجار، للأسف، لم

Twitter: @ketab_n

يتحمسوا كثيراً للعرض الذي تقدم به. ما يجذبهم إلى صحون الإنتاج الكبير هو أن كل نسخة منه مطابقة تماماً للأخرى. (هُزمت منذ البداية بهذا التعلّق الأبله بالرتابة، القوية جدّاً عند أسس عصرنا. كان عليّ الاستسلام).

إغلاق أعمال البورسلين أزعجه أكثر مما أغضبه. (بإمكان المرء دائماً أن يجد قوت عيشه. لكني كرهت كثيراً إتخاذ القرارات: "الفلينة"، هل تذكر...). قال، ملمّحا مرة إلى نظريته الأثيرة. (عليك السير مع التيار... وهؤلاء الذين يرغبون بالسير ضده هم إما مجانين وإما مغرورين، أو، في أسوأ الأحوال، "هدامين". انت تدير ذراع الدفة، بين حين وآخر، إلى اليمين أو اليسار، لكن دائماً بإتجاه التيار). لم أقتنع بكلامه هذا، فذكّرت أبي بأن اسمه إرتبط بالثورة الإنطباعية، ونسب اليه الفضل بتغيير مجمل مسار الفن الحديث. نظر اليّ وعلى وجهه إبتسامة ساخرة.

يجب أن اصف كيف كان وجهه يبدو حين كان أمر ما يسليه ـ كما يحدث غالبا. يمكن القول إن وجهه كان ينضح بهجة من كل مساماته. لحيته نفسها كانت ترتعش بضحكة مكبوتة. عيناه البنيتان، المفعمتان بالحياة دوما، تتألقان بالمعنى الحرفي للكلمة. هذا التعبير غالباً ما يستخدم في غير موضعه، لكن في حالة رينوار هو صحيح تماماً، فعيناه كانتا تقدحان ناراً حين يتكلم. (منذ فكتور هيجو، لم يعرف الفرنسيون كيف يفصحون عن أنفسهم بتعابير بسيطة. الواحد منهم يقول أنا ثوري! لكن ماذا تعني هذه الكلمة؟).

نظريته ـ التي صرت أفهمها الآن ـ كانت تفيد أن كل الرجال الذين فعلوا شيئاً له قيمة، لم يتصرفوا كمبتكرين، بل كوسطاء لقوى الحياة، التي هي للآن مجهولة للناس العاديين. الرجال العظام، هم ببساطة أولئك الذين يعرفون كيف يفهمون. استشهدَ بسان – جيس، الذي لم تكن أمنيته تأسيس نظام متري بآفاق ثورية. كان سان – جيس قد أدرك بأن العالم الحديث

Twitter: @ketab_n

هو عالم من التقنيين، وهكذا كان عليه تطوير شكل من الشمولية: شمولية من الفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية. وكان هذا سيقود إلى الحاجة إلى نظام مبسط من الأوزان والقياسات، يمكن أن تكون سهلة الوصول للجميع. "الهدامون"، هم هؤلاء الذين لا يدركون مسيرة الزمن، ويريدون أن يطبقوا طرقا مبتذلة على مسائل جديدة. (على سبيل المثال، أنا أؤمن بأن من الأفضل للرسام أن يطحن ألوانه بنفسه أو يدع شخصا ممتهنا يطحنها له. لكن لم يعد هناك من ممتهنين؛ ولأني أفضل أن أرسم أكثر من تحضير أصباغي، فأنا أشتريها من صديقي القديم مولار الذي يتاجر بتجهيزات الرسامين في كشك في شارع بيغال، لأنه يطحنها لي. اذا ما ضيّعت الوقت في تحضير ألواني الخاصة، سأبدو مثل معتوه لو أردت أن أرسم مرتديا لباسا مثل لباس اندريا دل سارتو. لا يفوتنا حقيقة ان سارتو عاش في الأيام التي كان للناس فيها الكثير من الوقت، وكان لديه ممتهنون يعملون له من دون أجر، لهذا كان طحن الألوان إقتصاديا. وعليه أنا أفضل أن تكون ألواني معبأة في أنابيب. انها قضية "الفلينة" مرة ثانية. هذا الموقف السلبي له منافعه. ألوان في أنابيب يسهل حملها، وتتيح لنا العمل في الطبيعة، وفي الطبيعة فقط. من من دون هذه الالوان المعبأة ما كان هناك سيزان، ولا مونيه، ولا سيسلي أو بيسارو، لا شيء مما سيدعوه الصحفيون، في ما بعد، الإنطباعية. هذا لا يمنعني من الأسف على الممتهنين وكره النظام المتري، الذي هو نتاج العقل، لأنه حلّ محل المقاييس المبنية على الجسم البشري - الإبهام، القدم، والذراع، والفرسخ (إختراع بلاد الغال)، الذي يمثل على نحو فعلي البعد الذي يمكن للإنسان العادي أن يمشي فيه لمدة ساعة من من دون أن يحس بالتعب.

(لو كنت أرسم بألوان فاتحة، فذلك لأن من الضروري الرسم بهذه الطريقة. وهذا لم يكن نتيجة لنظرية ما، بل لحاجة، حاجة كانت عند كل الناس، بلا وعي، وليست عندي أنا فقط. حين رسمت بدرجات ألوان فاتحة

Twitter: @ketab_n

لم أكن ثوريا، كنت "فلينة". والرسامون "الرسميون"، مع لونهم الحُمَري، كانوا حمقى. لا بد من أن تكون أحمق كي توقف مسيرة الزمن. في الواقع، الناس هم الذين يتظاهرون باحترام التقاليد التي تدمرهم. إذاً، لا تحاول أن تقول لي بأن مسيو بوغورو هو وريث شاردان(!). مهما يكن من أمر، كان على "الفلينة" أن يعزم بشكل محتوم على مهنة جديدة، بما انه لم يعد بإمكانه أن يبقى رسام بورسلين.

كانت العائلة، في تلك الفترة، في رخاء إلى حدٍّ ما. كان جدّي قد تخلّى عن معظم عمله، لكنه احتفظ بقلة من الزبائن القدماء. والأولاد جميعاً كانت أحوالهم على ما يرام. هنري وزوجه، بلانش دافيد، كانا حينئذ سعداء لأن وضعهما مستقر جداً. لم يكن هنري من النوع المغامر أبدا. كان يدرك انه مع شركة اوديو سيضمن حياة شريفة حتى نهاية العمر، ولم يكن يحلم بأكثر من هذا. لم يصبح لدى عائلة هنري رينوار أطفالا، وطوال حياتهما الزوجية لم يكن لهما من متع سوى الحيوانات، وحفلات كونشرتو المقهى. أذكر، حين كنت صغيرا، كان لديهما كلب صيد صغير، اسمه لو روا (الملك)، وكان حقاً ملك المنزل. كما كان عندهم عصفور كناري يدعى مايول، على اسم المغني الذي كان يغني في كونشرتو المقهى. كان لدى عمتي بلانش هوس بالمزادات والصفقات. ذات يوم جاءت إلى البيت ومعها خمسون مظلة، وكانت استأجرت بواباً لحملها. كل مظلة بقطعتي سو. لم تستطع مقاومة صفقة مثل هذه.

فكتور كان مفصل ثياب في محل خياط في غران بولفار. كان هو نفسه يلبس على أحسن ذوق. وكان فكها جداً، فكانت الفتيات يجدنه لا يقاوم، ونتج من هذا الكثير من العلاقات العاطفية. جدّي لم يكن راضياً على طريقة الحياة هذه. بالنسبة له، الحياة ليست مغامرة بل درب طويل وعسير، وفي أحيان قليلة ممتع، وقد خاض هو دربه بثقة، بصحبة رفيقة لم تخذله أبداً. كان يصرّ على الثقة المتبادلة بين الرجل والمرأة، بدونها تصبح الحياة معركة،

Twitter: @ketab_n

تكون الهزيمة فيها، في الأعم، من نصيب الرجل، لأن النساء (قويات بشكل مهول). أما جدتي فكانت، على نحو خفي، فخورة بفتوحات ولدها فكتور، ومع هذا فمن بين كل أولادها، ظل أبي هو المفضل عندها.

ليزا وزوجها كانا يعيشان مع أبويها. غالباً ما كانا يصطحبان أصدقاءهما للبيت على العشاء. انشأت جدّتي تقليداً، حافظا عليه من بعدها أمي وأبي. كل سبت كانت تحضّر وجبة كبيرة من البوتوفو (طعام مركب من لحم مسلوق وخضر)، كانت تطبخها لكل الضيوف. لم يكونوا بحاجة لإعلامها مسبقاً بقدومهم. إن لم يكن في المنزل ضيوفاً، كانت العائلة تأكل لحم بيف مقلياً بارداً لبقية الأسبوع. أبي لم يكن يمانع، لأنه كان مولعا بالمخللات التي ترافق هذه الوجبة. حين كان يحل موسم التخليل، كانت جدّتي تحشد كل أطفال الأسرة، وأصدقائهم إذا اقتضت الضرورة من أجل تحضير التوابل. كان من بين المدعوين على العشاء في أمسيات السبت هذه، شخص عرفت هويته من غابرييل. كان رساماً اسمه أوليفي. أعيد هنا رواية حكاية غابرييل عنه: (كنت أنت صغيراً وقتذاك، وكنت تقف أمام والدك ليرسمك، وكنت أنا أحاول أن أجعلك تقف ساكناً. ثم فجأة توقف رينوار عن الرسم، وقال لي "هات بعض النقود من جيب سترتي". كان دائماً يحتفظ ببعض النقود في جيبه عند الحاجة. من أجل نفسه، كان يثير شجاراً هائلاً حول شراء علبة ثقب، لكن من أجل الآخرين كان مستعداً أن يهب ألف فرنك من دون أن يطرف له جفن. أمك كانت تعرف ذلك، لكنها لا تتحدث عنه أبداً. مع هذا، لم تكن عائلتك ثرية. لم يكونوا في عوز، ويملكون أفضل الأشياء، لكنهم لم يكونوا أثرياء).

(طلب مني أن آخذ المال إلى مسيو أوليفي في شارع بلوميه. وقال لي المعلم: "آمل أن يقبله. فهو عزيز النفس، وفنان جيد. أسدى لي كثيراً من النصائح الغالية حين كنت صبياً. شجعني في عملي، وكان يحثني على نسخ الأساتذة القدماء". ذهبت إلى شارع بلوميه، والتقيت بهذا السيد العجوز،

Twitter: @ketab_n

الذي لم يفهم كيف عرف رينوار أنه تقريباً أعمى وفي ضائقة إلى حد أنه لا يستطيع دفع إيجار بيته. ثم بدأ بالبكاء، وهو يتذكر المعلم حين كان شاباً. "كنت أعرف انه سيصبح في يوم ما رساماً عظيماً، فهو مفعم بالحيوية مثل الزئبق". بعد ذلك أعطاني سلطانية حساء أنتيكا هدية للمعلّم؛ سلطانية بيضاء من خزف باريس القديم).

ظلت سلطانية الحساء تلك عندي حتى حرب ١٩٣٩. حين عدت إلى شقتي، التي تركتها لفترة، كانت قد اختفت. هذا كل ما أردت قوله عن أوليفي، الذي كان واحداً من ضيوف جدّتي الدائمين. واحد آخر من الفاوين المتحمّسين للبوتوفو الشهيرة، كان الرسام لابورت. لا أعرف كيف أصبح صديقاً لجدّيّ. هو الآخر كان يرى ان الصبي أوغست موهوب جداً، مع أنه كان يجنح كثيراً إلى إهمال التعبير. كان مزاجه وطريقته في الرسم متعارضان مع تلك التي لرينوار، مع هذا كان كريماً في إطرائه عمل رينوار. كان سلوكه له تأثير كبير على جدّيّ، عندما كان عليهما الاعتراف بأن ولدهما أصبح جاهزاً لـ(عبور الروبيكون[٢٩]). من المحتمل أن لابورت كان أول شخص عرض عليه رينوار أول عمل كبير له: حواء مغوية من قبل أفعى ملتفة على جذع شجرة. إنتظرت العائلة برمتها حكم الأستاذ، بينما كان يقف لوقت طويل يتأمل اللوحة. في النهاية أعلن أن الفتى أوغست هو فنان حقيقي وعليه أن يعير أذنا صاغية لموهبته. بعد سنوات إلتقى به لابورت ثانية، بعد أن غدا رينوار شهيرا. قال له: (ايها الشاب، لو بقيت مخلصا للون الحُمَري، لأصبحت رامبرانت آخر) كان أبي متأثرا جد بمديحه الصادق لكن ليس إلى الحد الكافي الذي يهديه إلى استخدام اللون الحُمَري. لكن دعونا نعود إلى شارع غرافييه.

---

(٢٩) نهر في شمال شرق ايطاليا، كان حداً فاصلاً بين بلاد الغال وإيطاليا. قاد عبره يوليوس قيصر جيشه داخلاً إلى ايطاليا عام ٤٩ قبل الميلاد، خارقاً القانون الذي يحظر على الجنرال قيادة جيشه خارج مقاطعته، الأمر الذي أدى إلى نشوب حرب أهلية انتصر فيها قيصر بعد ثلاث سنوات.

Twitter: @ketab_n

واصلت ليزا إنتظار "اليوم العظيم"، الذي يمثل لكل الأحرار الأمل بثورة العمال على مضطهديهم. كان جداي ورينوار يناكدونها أحياناً حول ذلك. وبدأت أمور زوجها بالإستقرار، حيث كان يقبض معاشا لا بأس به من الجريدة. اما ادمون، فكان غارقا في دراساته. وكان لديه هوس بكل شيء يتعلق بالتاريخ والأدب. كان هو وليزا متفقان تماماً في موضوع السياسة. كتب قصصا قصيرة واقعية، وكانت العائلة جميعها وكل أصدقائه معجبين بأسلوبه. كما كتب بعض الأشعار نشرت في مجلات أدبية. كان يتمتع بخفة دم وسرعة بديهة أكثر من فكتور. كان الأخير راضياً عن نكاته البارعة التي تسلّي الفتيات، بينما أمكن لأدمون أن يلاحظ جانب السخرية ويبرزه في تعليقاته اللاذعة. قال أبي عنه انه " لاذع ". هو نفسه كان لا يخلو من الظرف. (من الممكن أن تفسَد صداقة بملاحظات ظريفة. بوسع الكلمات أن تكون خطرة جداً. يمكن أن تأخذك إلى إتجاهات خاطئة، والأسوأ من ذلك، يمكنها أن تخفي أفكارك الحقيقية).

انقضت الأشهر، وبدأ المال، الذي ادّخره رينوار من عمله في البورسلان بالنفاد في زمن قياسي. كان رينوار يفضل الموت جوعاً على الاقتراض من والديه. أخبرني مرّة انه لم يكن في حياته مديناً لأحد ولا حتى بقطعة سو واحدة. (ولم أمت من الجوع أبداً).

في أحد الأيام، لفت نظره إعلان معلّق في واجهة محل، يُطلب فيه رسام متخصّص بالزخرفة على الستائر والقماش المشمّع. فدخل مقدماً نفسه لصاحب المحل، الذي كان يشبه على نحو غريب صانع البورسلان السابق. صحيح انه كان أطول قامة وله سالفان على طريقة لويس بدلاً من لحية مستدقة، لكنه كان يرتدي النوع نفسه من الثوب الأبيض الواسع، ويتكلّم بالضبط اللغة نفسها التي يستخدمها حِرفيو باريس ليميزوا أنفسهم عن النوع العادي من الناس العاملين. أكد له رينوار انه يعرف كل شيء وجب معرفته

Twitter: @ketab_n

عن رسم الستائر، فتم قبوله في الحال. طلب منه المالك أن يبدأ العمل في صباح اليوم التالي، وذهب راجعاً إلى المشغل في خلفية المحل. دعا أبي واحداً من العاملين لتناول كأس من الشراب معه في التروكيه (troquet) ـ المقهى الصغير المتاخم للمحل (مصطلح بيسترو (bistro) ـ خمارة أو حانة صغيرة ـ لم يكن متداولاً بعد)، وهناك اعترف له بأنه جاهل تماماً بالحِرفة. صاحبه الشاب، الذي له وجه صريح وسمح، أعلمه بأنه صهر مالك المحل، ومثل هذا الخبر الصغير قد يؤثر على مستقبل رينوار في صناعة الستائر. على أي حال، صاحبنا كان من النوع الطيب. (تعال إلى بيتي بعد إنتهاء العمل)، قال له، (سأريك كيف يجري العمل. أنه أسهل من أي شيء آخر).

حين كان يروي لي القصة، إستسلم أبي إلى عرض الغرور الساذج الذي يمكن الصفح عنه. لشخص مثله، طالما أتاح للآخرين أن يحتالوا عليه، تبدو هذه الكذبة البيضاء مكيافيلية تقريبا. كان قد ذكر لي اسم هذا الصهر، لكني نسيته. أصبح الإثنان بعد ذلك صديقين حميمين. كانت زوجة صاحبنا الشاب شقراء شاحبة، لا تفكر بشيء سوى أمور البيت. كانت تفوح من شقتهما دائماً رائحة الغسيل، واينما نظرت ترى أشياء معلقة لتجف. كان لهما بنت صغيرة، رسم لها رينوار بورتريهات عديدة، ضاعت في حينها. أعجبا بأبي وحاولا إقناعه بأن يصبح "فنانا حقيقيا". لكنه إستمر في عمله الجديد، لأنه كان مرعوباً من التفكير بكل ما عليه تعلمه، وتردد في التخلي عن الضمان الذي تمنحه المهنة في حل بعض متطلبات العيش. كان أفضل زبائن المحل من المبشرين الذين يقيمون في الشرق الأقصى. كانت المواضيع المقترح رسمها مستوحاة من قصص الإنجيل، ورسمت على ورق نصف شفاف. كان القصد من الستائر أن تستخدم في النوافذ المزججة في كنيسة أثرية، كانت أنشئت على يد القسسة الطيبين في الهند الصينية. أدرك المالك سريعا أن من مصلحته أن يطلق يد العامل الجديد في هذا العمل ويدعه يتبع إلهامه

Twitter: @ketab_n

الخاص (بشرط أن ما يصوّره يكون باعثا على التقوى)، فقضى أبي أوقاتا سعيدة في هذه المهمة. (كنت عثرت صدفة على حيلة) قال لي، مع غمزة من عين، (قمت برسم الكثير من السحب. وكما تعلم، يمكن رسم السحب ببضع ضربات من الفرشاة). كان صانع الستائر ذو سالفي لويس فيليب قلقا. إذ ساورته الظنون نفسها التي كانت تساور صانع البورسلان. (مثل هذه المهارة أمر غير طبيعي)، أعلن قائلا، (كسب مال كثير مع القليل جدّاً من الجهد لا يكون نافعا لك على المدى الطويل).

Twitter: @ketab_n

٩

كان أبي مفرط الإحتشام. أنا نفسي كنت لا أستطيع أن أروي له مغامراتي مع النساء من دون أن أشعر بالحرج. لكننا كنا نفلح أحياناً بالتغلب على التحفظ، من جهتي أنا على الأقل، ولاسيما حين كنت أحس بأني أسليه، حتى كان يبلغ بنا الأمر إلى تبادل القصص الفاحشة، بلا كلمات أنيقة على نحو متكلف. بوجه عام، كانت هذه القصص عن ناس لم نكن نعرفهم، رويناها لمجرد وسيلة لتسلية أحدنا للآخر، وليست قصصا حقيقية. ذات يوم، وبعد وجبة شهية وبضعة كؤوس من نبيذ ايسوي، أحسّ هو بمزاج طيب فحكى لي عن بعض من علاقاته العاطفية المبكرة. إذا ما أضفت إلى هذه الاعترافات الجريئة النصيحة التي أسداها لي، في شكل حكاية أو ذكرى (كيف يجرؤ الواحد على نصح الآخرين، اذا كان هو نفسه قام بالشيء نفسه؟)، فإن بإمكاني أن أكوّن فكرة عن تجاربه مع النساء.

في أحد المناسبات التي جمعته على العشاء مع صهر صانع الستائر، إلتقى رينوار فتاة تدعى بيرث، شقراء موفورة الصحة على نحو رائع، واحدة من اولئك الفتيات اللائي لهن شعر جامح ويقضين وقتهن في ترتيبه على شكل كعكة. كانت قد قدمت إلى باريس من بلدتها بيكاردي لمساعدة قريبة لها في شؤون البيت. في ما بعد، تركت قريبتها من أجل سيد عجوز، أسكنها في شقة

Twitter: @ketab_n

مفروشة. ومن دون حسد، كان الصهر وزوجه معجبين بها لكونها شجاعة جداً، (إنها محظوظة حقاً) قالت الزوجة، (لكنها تستحق ذلك. لا يمكنك أن تجد ذرة غبار في أي مكان من بيتها).

عشيقها، الذي كان يعاني من سوء الهضم، أباح لها الكثير من الحرية، وهي لا تقصر في استغلالها. كانت تأخذ رينوار إلى حفلات الرقص، واصطحبها هو إلى الغابات في مودون. لا أعرف إن كانت هذه هي أول عشيقة له. تحدث أبي عنها مرات عدة من دون أن يخوض في التفاصيل، ولم ألّح أنا للأمر. أعلم انه أشار إلى اسم بيرث أثناء محادثة مع صديقه لسترنغيه حول موضوع الغيرة. هل كان يلمّح إلى تجربته الخاصة حين سخر من الشباب الذين لا يعرفون بهجة الإختباء في خزانة الثياب خلال زيارة العشيق الشرعي؟

قضى رينوار، لشهور عديدة، الكثير من الأوقات الجميلة مع بيرث، والتي كان، بخلاف هذا، سيكرسها لتجاربه في الرسم. لكن عمله في رسم الستائر وفر له مالا كافيا أتاح له الإنغماس في هواه هذا.

في الإجتماعات، في بيتنا في بولفار روشيشور، وبعدها في ليه كوليت، في كانيي، كانت آراؤه في تنشئة الشباب غالبا ما تدهش زائريه. (يرتكب المرء الكثير من الحماقات، وهذا لا يهم، لأنه لم يأخذ على عاتقه بعد أي مسؤوليات. لكن بعد ذلك سيكون أحمق لو لعب مع النساء بدلاً من إمتاع نفسه بالرسم. بالطبع، هناك داء السفلس، لكن مع الدواء ١٦٠٦...) آراؤه بشأن "التصرف بطيش" قبل الزواج، تنطبق على الفتيات أيضاً، (قبل الزواج أنت تفعل ما تشاء. أنت غير مطالب بأي شيء لأي أحد غير نفسك. لكن في ما بعد، حين ترتبط برفيقة حياتك، فهذا النوع من التصرف يُعّد خيانة، ونهايته دائماً سيئة). كان مقتنعا أن علاج ٦٠٦ الذائع الصيت، (سيجهض متعة الفجور). ماذا كان سيقول عن البنسلين؟ (ليس في الأمر الكثير من المتعة بقضائك

Twitter: @ketab_n

ليلة مع عاهرة. أفضل جزء في الأمر هو حين تمهّد لهذه الليلة. ما يلي ذلك هو أمر شنيع. فقط هنا، توجد المخاطرة. وهي المخاطرة التي تضيف التوابل إلى المغامرة!).

من المحتمل جدّاً أن بيرث إهتمت بعشيق آخر، وتركت أبي في حال سبيله. رجحت كثيراً هذا الإفتراض، لأنه كان غالبا ما ينصحني أن لا أنفصل أبداً عن أي أحد. (كيف لك أن تعرف بأنك لست مخطئا؟ فقدت صوابك، ولم تعد تعرف ماذا تفعل. بعدئذ ستندم، ستشعر بالذنب. كل امرأة تصبح لا تطاق في بعض الاوقات... نحن أيضاً). نصيحة أخرى من نصائحه: (إفصل نفسك عن زوجتك، في بعض الأحيان، لكن لا لوقت طويل. بعد أن تصبح بعيدا، ستكون سعيدا بالعودة اليها. اذا ما بقيت منفصلا عنها لفترة طويلة، ربما ستراها قبيحة حين تعود، وسترى هي الشيء نفسه عنك. عندما يتقدم بكما العمر، لا أحد منكما سيلاحظ ما هو عليه مظهر الآخر. سوف لا ترى الوزن الزائد والتغضنات. الحب مؤلف من عديد من الأشياء العظيمة، وأنا لست ذكيا بما يكفي لأشرحها. لكني أعرف أن الحب هو عادة أيضاً).

أعتقد انه بعد رحيل بيرث، وقع حادث على جانب عظيم من الأهمية في حياة رينوار. (إشترى) أول علبة من الألوان كاملة مع الملّون (اللوح الخشبي لألوان الرسم)، وشفرات وفناجين وأول حامل لوحة، حامل صغير قابل للطي. وكان شارل ليراي هو الذي ساعده في مشترياته هذه. قبل هذا، كان رينوار يستخدم صحنا قديما كملون، ومزيجا من زيت بذور الكتان ودهن التربنتاين في قدح. بعض اللوحات الزيتية التي تعود إلى تلك الفترة ما زالت موجودة: بورتريه لجدي، وآخر لجدتي، وبضعة وجوه لفتيات صغيرات.

(أحببت النساء حتى قبل أن أتعلم المشي)، قال. ثم بدأ معي الحديث للمرة المئة عن أمه. من المؤكد أن الأمر لا علاقة له بـ "عقدة أوديب"، إذ

Twitter: @ketab_n

كان رينوار من أكثر الأطفال سوية، تماماً مثلما كان من أكثر الرجال سوية. وعلينا أن نفهم بأن مفرداته تنطوي على معانيها الحقيقية. (لم أثق بطريقة فكتور هيجو في التعبير عن الأشياء). حين قال رينوار (أحب النساء)، فإنه لم يقصد أن يطلق العبارة بصوت خفيض خبيث، كما كان يحاول رجال القرن التاسع عشر التلميح به حين يستخدمون كلمة "حب". (ليس لدى النساء شك في أي شيء. بالنسبة لهن العالم هو شيء بسيط جداً. إنهن يضفن قيمة حقيقية على الأشياء، ويعرفن أن غسيلهن هو من الأهمية بمكان، مثله مثل دستور الإمبراطورية الألمانية. وهن يجعلنك تحس بالإطمئنان وأنت معهن). لم يكن عسيرا علي فهم العذوبة الدائمة للمسكن الذي عاش طفولته فيه؛ أنا نفسي أموت وسط عذوبة مماثلة.

بيتنا كان بيتا مليئا بالنساء. أمي، غبريال، كل الفتيات، الخادمات، الموديلات اللائي ينتشرن في البيت أضفين عليه أسلوبا هو بالمطلق لا رجولي. كانت الطاولات مكسوة بأشياء صغيرة متنوعة من لوازم الخياطة وصنع الملابس. (قال لي الصغير جرمان مرة، بأنه لا بد أن يكون لي خادم خصوصي. تخيّل أن رجلاً يرتب فراشي ويترك عقب سيجارته على رف المستوقد!). الفتى الذي أشار اليه هو ابن رجل مال بارز. كان صديقاً حميماً لأبي في بداية القرن. أقل ما يقال عن صداقتهما انها كانت غير متوقعة. هكذا كانت تجري الأمر مع رينوار دائماً، الذي كان النقيض الحي للمثل السائر "الطيور على أشكالها تقع". جرمان هذا، كان شاباً متكلفاً، مغناجاً يستخدم العطور، يتكلم بلهجة اوكسفورد، ومخنثاً جداً، ما أضفى عليه مظهراً هزلياً. كان يثني على طريقته في تقييم الناس، والإدلاء بتعليقات غير متوقعة عن أي شخص وأي شيء. على سبيل المثال، عند الحديث عن كنيسة سان – بيتر في روما قال إنها (مشروع ناجح تماماً، من وجهة نظر صناعية: مصنع عادي لإنتاج الدين بالجملة): أذكر أني سمعت مرة نتفا من حديث له مع أبي ـ رسم له أبي بورتريها جميلا ـ بعد إنتهاء جلسة الرسم.

Twitter: @ketab_n

(مسيو رينوار، ما هي لعبتك المفضّلة حين كنت طفلاً؟).

(كنت أحب لعبة الدعبل).

(حقا؟ أنا كنت أحب الزهور!).

عن اقتراحه بامتلاك خادم خاص، أجاب رينوار على نحو مراوغ، لأنه لم يشأ أن يهين جرمان. ذات مرة، وكان وحيداً ردّد رينوار قوله، (لا أطيق أن يكون حولي سوى النساء). والنساء قابلن محبته بالمثل. كان لي في المدرسة صديق كانت جدّته على معرفة جيدة بأبي. أوقفتني ذات يوم، حين كنت خارجاً من المدرسة، ونظرت إليّ عن قرب، (أنت لا تشبهه. لا بد أنك تشبه أمك). كانت إلتقت برينوار بعد حرب ١٨٧٠ مباشرة. (آه لو تعرف كم كنا نحبه!)، هتفت قائلة، ثم أسبلت عينيها وابتسمت. كنت حينها أناهز العاشرة من العمر. لم أر في حياتي مثل هذا العدد الكبير من التجاعيد على وجه بشري من قبل أبدا. كنت بالكاد أصدق أن المرأة العجوز كانت في يوم ما فتاة شابة بخدود موّردة. (أحببناه لأنه إعتقد نفسه غير جدير بإنتباهنا)، وأضافت قائلة انها لا تريد رؤية أبي مرة أخرى، لأنه (لا نفع في الأمر، فالأفضل العيش في الذكريات). لكن أبي لم يكن هو الشخص الذي يعيش على الذكريات. كان مشغولا بالتعلق بالحاضر ومنحه قيما أبدية. ولا يمكن الإنكار بأن الحاضر الذي كان يهمه هو ذاك الذي يرتدي تنورات. كان لرينوار الكثير من الصداقات الجميلة مع الرجال، لكنه أقام صداقات أكثر مع النساء، علاقات مؤقتة جدّاً ورقيقة جداً، وكانت دائماً توشك على التحول إلى عاطفة أخرى.

يجب أن لا نعتقد، على الرغم من هذا، بأن إعجابه كان أعمى. لا يمكن أن ندعوه إعجابا. في حقيقة الأمر، كان نوعا من الإمتنان للجو الملائم الذي كن يخلقنه. بعض الناس يحبون البلدان الحارّة، وآخرون يفضلون الحياة الإجتماعية. رينوار، يزدهر جسديا وروحيا حين يكون بين النساء. أصوات

Twitter: @ketab_n

الرجال تتعبه، أصوات النساء تريحه. كان يرغب من كل الخادمات أن يغنين، ويضحكن ولا يشعرن بالحرج حين يعملن حوله. كلما كانت أغانيهن ساذجة وغبية، كان هذا يرضيه. كم من مرة سمعته يسأل، (لماذا لا تغني لابولانجير اليوم؟ لا بد انها مريضة. أو ربما تشاجرت البلهاء مع حبيبها!).

واحدة من تناقضاته الغريبة التي تجعل من أفكاره صعبة الفهم، كان يؤكد موافقته على تفوّق المرأة ببضع عبارات هازئة عن رغباتهن الحديثة بالإستقلال والتعليم. اذا ما أخبره أحد ما عن امرأة محامية، كان يهزرأسه ويعلق، (لا أتخيل نفسي في فراش واحد مع محامية). كان يقول أيضاً، (تعجبني أكثر النساء اللواتي لا يعرفن القراءة، وحين ينظفن يمشي أطفالهن وراءهن). لم يمتلك رينوار عن المرأة صدى للمفهوم البرجوازي، الذي عبّر عنه موليير بوضوح شديد في "المتحذلقات" أو "النساء المتحذلقات". بل هو مثال آخر عن تمرده على القيم السائدة. كان القرن التاسع عشر يؤمن بـ "النخَب" - élites -، وبنى إيمانه على المعرفة التي تمتلكها هذ النخب. رينوار آمن بالإكتشاف المتجدد بلا إنقطاع للعالم من خلال الإتصال المباشر بطبيعة هذا العالم، وكلما أوصلت هذه الطبيعة إلينا كان الاكتشاف مهمّاً. (إكتشاف نيوتن لقانون جاذبية الأجسام هو إكتشاف عظيم، لكن هذا لايعني إن إكتشاف الأم كيف تحضن طفلها لا يقل أهمية أيضاً). حين كان يقال له أن نيوتن كان عبقرياً، كان يرد بأن الفلاحة التي تصنع الجبن الطيب هي عبقرية بنفس القدر. (لماذا تتعلم المرأة مثل هذه الوظائف المملة في القانون، والطب، والعلوم، والصحافة، التي يعمل بها الرجال، بينما النساء ملائمات لمهام لا يمكن للرجال أبداً أن يحلموا بمحاولة القيام بها، وهي التي تجعل من الحياة قابلة للإحتمال؟). وقال لصديقه لسترنغيه: (ما تجنيه في يد تخسره في اليد الأخرى. نحن لسنا عباقرة شموليين. إذاً ما تجنيه المرأة في التعليم ستخسره في حقول أخرى. أخشى أن الأجيال القادمة سوف لا تعرف كيف تمارس الحب

Twitter: @ketab_n

كما يجب، وهذا أمر خطير). هواجسه، برغم انها تتردد بصوت لا مبالي، كانت حقيقية جداً بالنسبة إليه. كان يؤكد بأن الإفتقار للتمارين الجسدية عند المرأة - (وأفضل تمرين للمرأة هو الركوع على الأرض لفرك أرضية البيت، وإيقاد النار، والقيام بالغسيل: بطونهن بحاجة إلى حركات من هذا النوع) - سينتج نساء عاجزات عن التمتع بالإتصال الجنسي إلى أقصى حد. (سوف تجد أقل فأقل من هاته الفتيات اللواتي يفقدن عقولهن اذا منحن أنفسهن بالكامل. ممارسة الجنس، حتى في أكثر حالاتها الإعتيادية، توشك أن تصبح نوعا من الإستمناء). هذه الأحاديث كانت غريبة على رينوار، هو الذي كان يكره الجانب الجسدي من هذه المسألة، بالرغم من انه يكن كرها مساويا للمقاربة الرومانسية أو الفكرية. (الأشياء هي كما هي عليه. تحليل الدم لا يساعدني في طريقتي بالرسم على إعطاء فكرة عن الدورة الدموية). هل من المحتمل انه كان يخشى من تفاصيل وظائف الأعضاء البدنية، بسبب إيمانه بالحاجة إلى الإبتعاد عن الموضوع من أجل فهم جوهره.

كان مقتنعا بشدة بأن إنتصار المبدأ ما هو الا ظاهري، وممكن أن يولّد رد فعل: (حين كانت النساء عبدات، كن عشيقات حقيقيات. الآن، وقد بدأن ينيل بعض الحقوق، فقدن أهميتهن. عندما يصبحن مساويات للرجال، سيصبحن عبدات حقيقيات). كان يؤمن بقوة الضعف، وبأن بذور التدمير تكمن في النجاح. (البرجوازيون يظنون أنفسهم أذكياء، حين يشيرون إلى بولفار هاوسمان، ودار الأوبرا، والمعرض العالمي كأمثلة على إنجازاتهم. هم يدركون بأنهم يحفرون قبرهم بأيديهم، وأن العمال هم الذين سيربحون من ذلك، لسبب بسيط، لأنهم يعيشون في الأحياء الفقيرة ويعملون تحت الأرض). كانت حالة المناجم تبدو له شنيعة (في يوم من الأيام سندفع ثمن ذلك)، قال محذراً.

نعود إلى موضوع النساء. كان رينوار يدرك أخطاءهن، وكان أمر واحد

Twitter: @ketab_n

يضايقه، هو إنقيادهن للموضة. رواج الأجسام النحيلة كان بدأ للتو، في الوقت الذي بدأ به حياته. لا بد ان بيرث سألته في يوم ما أن يساعدها بعقد رباط مشدها. من أجل أداء هذه العملية على نحو مناسب، وجب على الزوج أو العشيق أن يضع ركبته على ظهر الضحية كي تتمكن من أن توتر نفسها، بينما هو يسحب الأربطة بكل قوته. كان رينوار يعترض على هذا الصنف من التعذيب، (ضلوعهن تعصر مع بعضها، وتأخذ تدريجياً بالتشوه)، قال، (وعندما يصبحن حوامل، فأنا أشفق على الطفل المسكين في داخلهن! لكن حين يتعلق الأمر بالموضة، فإنهن يفقدن عقلهن تماماً. وكل هذا من أجل أن تمتلئ جيوب صانعي المشدات الذين يجب أن يودعوا السجن). الأحذية الضيقة والكعوب العالية كانت أيضاً تثير استياءه. من جهة أخرى، كانت دانتيلا السراويل التحتية وإمتلاء التنورات يسليانه، وكان يقارن أحياناً بين امرأة تخلع ثيابها بواحدة من فقرات السيرك التي يقوم فيها المهرّج بخلع نصف دزينة من الصُدَّر: (إنهن يغطين خلفياتهن كما لو كنّ في القطب الشمالي، لكن من فوق يتعرّين حتى السرّة).

الضعف الأنثوي الذي كان يزعج رينوار أكثر هو طريقتهن في تصفيف شعرهن. (بدلاً من ترك الشعر على طبيعته، فإنهن يجدلنه حول بعضه البعض، ويحرقنه، ويشدّنه بلا رحمة، ويجعلنه زغبا مثل صوف الخرفان، او يجعلنه متهدلا مثل أغصان صفصافة). في إحدى المرّات، فقد الاهتمام بفتاة كان يصاحبها، لأنها كانت تقضي ساعات متواصلة في ترتيب لفات شعرها على جبهتها. كانت توفق في الوصول إلى ترتيب شعيرات قليلة، لكن ما أن تتحرك حتى تختفي هذه الشعيرات، فتبدأ بالعبث به من جديد (كنت أتمنى لو أقتلها!)، قال ثم ختم كلامه، (لكن هذا هو الوجه الآخر من العملة. إذ كيف تطلب من المرأة أن تتحلى بالمنطق، في حين ان هذا المنطق يجعل من الرجال بغيضين جداً؟).

Twitter: @ketab_n

كنا أحياناً نأتي على ذكر موضوع "العاهرات". كان رينوار لا يشارك "الأدباء" حماسهم الرومانسي لما يدعى "النساء الملعونات". في المقام الأول، وبالنسبة اليه، لا أحد كان ملعونا أو مباركا. كل فرد له دور يلعبه في الحياة، وهذا كل ما في الأمر. الدور الذي تلعبه المومسات في النظام الإجتماعي المبني على الوراثة يبدو له واضحا. (المسألة كلها تدور حول المال. سيد العزبة لا يريد أن تخونه زوجته، لأن ملكه قد يذهب إلى ابن حرام. لذلك أبتدع حزام العفة... والعاهرات ضروريات بالنتيجة، لأنك إذا ذهبت إلى زوجة جارك لاشباع رغبتك وأنجبت بضعة أولاد حرام، فلا شيء سيمنع جارك من فعل الأمر نفسه بك).

كان يهزأ بالغرور الأبوي للرجال، ويسخر من الأب الذي يطفح غرورا لو جاءه وريث ذكر، وهو يصرخ، (انه يشبهني!) (وليتك ترى الكبرياء المصطنعة التي يتظاهر بها. فالأحمق ولوهلة يتصرف وكأنه دوق بورغوني، وانه أنجب للتو وريثا لدوقيته). إبتسم رينوار بخبث، وأضاف، (لكنك لا تعرف أبدا، فالنساء ذوات الشخصية القوية يكنّ أحياناً مادة لنوبات من الضعف يتعذر تفسيرها. كل ما هنّ بحاجة اليه عندئذ هو قوّاد جميل المظهر...). كان يرى جادا أن يكون اسم العائلة من جانب الأم: (ستكون طريقة أكثر تأكيداً من ناحية النسب).

صديق له، كان كثير السفر، روى له عن العرف في النظام الأبوي في جنوب الهند، استحسنه هو تماماً. (ضرائب الوراثة ستنظم الأمور كلها. وعاجلا سوف لن تبقى هناك وراثة لنقلها، فالزوجات الشرعيات سينمن على يمين وشمال الزوج، وستندثر "المهنة الأقدم" بسبب المنافسة. انه لأمر مؤسف!).

في الفترة التي كان يعمل فيها رينوار لدى صانع الستائر، تودد

Twitter: @ketab_n

اليه مومس من حي لاهال. (كنّ حقاً مخلوقات رائعات تلك الفتيات من حي اللاهال، يعشن في رخاء، ومغطيات بالجواهر. فمع هاوسمان، كانت تجارة الأغذية تغل ربحا وفيرا، وبائعو الخضروات في سوق لاهال يكسبون أكثر من عشرة فرنكات في اليوم). فتيات اللاهال كنّ لسبب ما متخلفات عن الموضة. الكثير منهن يرتدين مثل الملكة اميلي، لكن من من دون فتحة الرقبة في الفستان. لم يكنّ متأثرات بعد بموجة الإحتشام المفرط التي جاءت من انكلترا، واحتفظن بعادة القرن الثامن عشر الفاتنة بترك صدورهن مكشوفة في أعلى الصديري. (النسوة اللائي كنت أراهن في شوارع مونمارتر ودو لاريال، في طريقي إلى العمل كل يوم، كنّ صغيرات جداً. في خوضهن المعركة استولين على شارع سان – دينيس. أما المحاربات القديمات فهربن إلى الشوارع المحاذية لرصيف الميناء وغالبا ما أنتهين ميتات تحت الجسور. كنّ جزءا من المنظر الطبيعي. أثوابهن الحريرية ذات الألوان الفرحة تتمازج على نحو جميل مع حظائر القصابين وأكوام ثمار اليقطين البرتقالية الكبيرة. لا ريب كنّ سيشعرن بأنهن لسن في موضعهن في صالة إستقبال بيت في فابورغ سان جرمان. من المهم مراعاة الفروق. كنت أقضي وقتا جميلا وأنا أطوف بين تجمعات وفوضى اللاهال، وربما كنت سأحس بالملل الشديد في فابورغ سان جرمان).

الفتاة التي إهتمت برينوار كانت (بنت وقحة جميلة من النوع الإسباني). كانت ترهب منافساتها على الرصيف، دافعة إياهن بمنكبيها للحصول على مكان ستراتيجي لنفسها قرب مجمرة بائع الكستناء. كان قوّادو العاهرات يحترمونها. المكّارو (القوّاد) الخاص بها كان قد قتل في شجار حيث (سقط في ساحة الشرف). ذات يوم، دنت من رينوار وخاطبته فتبعها، (كانت ذات شخصية، ومن ثم لم أزغب بإثارة المتاعب لنفسي). حالما غادرها ذهب لرؤية طبيب، كان صديقا لأخته ليزا. شرح له الطبيب أن المرض الوحيد الخطير

Twitter: @ketab_n

حقاً هو السفلس. (تعتبرك شقيقتك رساماً عظيما)، قال، (كثير جدّاً من العباقرة أصيبوا بالسفلس. ربما عليّ أن أتمنى أن تصاب بهذا المرض كذلك). شكره أبي، لكنه ظل قلقا. على الرغم من هذا، عاد ليرى التي أسرته، (كنت أخشى أن تتضايق لو تخلفت عن موعد معها)، لكنها أعجبت جدّاً بتواضعه واسلوبه المهذب، المختلف كثيراً عن اسلوب زبائنها العاديين، لذلك عرضت عليه أن تساعده كما لو كان قوّادها، (بدلاً من عمل هذه الستائر، بإمكانك رسم بورتريه لي)، هذا ما اقترحت عليه. أحسّ رينوار بمأزق. (ليس بسبب أنني أزدري مهنة القوّاد)، شرح قائلا، (بالعكس، فأنا أحسدهم. بل لأن الأمر يأخذ مني وقتا طويلاً، إلى جانب انه يجب أن اتحلى بالموهبة).

لا بد أن رينوار إختلق هذه الحكاية في ليلة ماطرة، عندما نسيت لابولانجير أن توقد ضوء المصابيح في شقتنا قي بولفار روشيشور. لعله زوّقها على نحو مبالغ فيه. في ما يتعلق بالنساء، خطرت في ذهني واحدة من ملاحظاته: (أشعر بالأسف على الرجال الذين يقضون جل وقتهم راكضين وراء النساء. يا له من عمل شاق! في الواجب، ليلاً ونهاراً، لا دقيقة راحة. كنت أعرف رساما، كان لا ينجز أي عمل ذي قيمة، لأنه بدلاً من رسم موديلاته كان يغويهن).

غالباً ما كان أبي يتحدّث عن الناس (القصيري النظر). (عاطفيتهم المفرطة تمنعهم من رؤية النساء كما هن حقاً). إبنة عم بلانش دافيد، زوجة هنري، كانت جميلة جداً، بحيث أن الجميع كان يتحدث عن جمالها. السيدة المشار إليها كانت تضع خماراً أسود وعلى وجهها مساحيق حتى ليبدو كأنه وجه بيرّو (مهرّج). وكان شعرها الفاحم السواد، وعيناها الواسعتان يكملان هذا الانطباع. (عيون اسبانية)، كما قال شارل ليراي. كانت اسبانيا موضة دارجة في ذلك الوقت (عيون عجل)، كما قال رينوار. كانت مهتمة بالفنان الشاب، وأرادت منه أن يرسم لها لوحة وهي عارية، جالسة في ضوء القمر

Twitter: @ketab_n

على صخرة عالية، تحدق بالمحيط. (كان يمكنني أن أرسم نهديها مدليان من وراء الخمار الشفاف، لكني تخلصت من الموقف بقولي ان ليس لدينا صخرة أو محيط).

كانت تجلب له كتبا للقراءة. لم يكن قرأ الكثير ما عدا الأدب الفرنسي الكلاسيكي. حفظ رونسار عن ظهر قلب، لكن كانت له معرفة قليلة بفكتور هيجو. كان شغفه الكبير رابليه وفرانسوا فيّون. عرّفته السيدة ذات الخمار على الرومانتيكيين. من كل التفاهة التي إلتهمها (من حسن الحظ كنت أقرأ بسرعة، عداها كنت ضيعت الكثير من الوقت...). بقي في ذهنه مؤلفان كانا جديرين بالقراءة: تيوفيل غوتييه والفرد دو موسيه. (انهما رفقة طيبة، يتكلمان لغة أفهمها). ذكرى هذه المعلمة قادته إلى صياغة بضعة آراء عن القراءة بوجه عام: (يمكن للقراءة أن تصبح آفة أسوأ من الكحول والمورفين. لا ينبغي أن تتخم بالكتب، لكن لو فعلت هذا، عليك عندئذ أن تقرأ الأعمال العظيمة فقط. الكتّاب العظام يقرّبوننا من الطبيعة، أما الرومانتيكيون فيبعدونا عنها. الأمر المثالي هو أن يقرأ المرء كتابا واحدا فقط طيلة حياته. اليهود فعلوا ذلك بإخلاصهم للكتاب المقدس، والعرب مع القرآن. بالنسبة لي، إعطني رابليه كل يوم).

لهذه السيدة نفسها كان أبي مدينا بالذهاب إلى المسرح بين حين وآخر. (كان لا بد من أن أخرج من البيت أحياناً، وكان أخي ادمون، لا أعرف بأي سر خفي، جلب لي بطاقات). كانت المسارح متجمّعة كلّها تقريباً في "البولفار"، في ذلك الجزء بين سيرك ديفيه الحالي ومسرح الفاريتي، الذي كان يعتبر، في تلك الأيام، الحركة الطليعية للتقدم نحو الغرب. لم يكن البلاس دو لاريبوبليك (القصر الجمهوري) موجودا بعد. كان البولفار بومارشا إنضم إلى اللامبيغي، الذي كان في تلك الفترة واحدا من أكثر المسارح فخامة وعصرية في باريس. أدى إنشاء مبنى الأوبرا و بعده بسنوات عدة انتقل مركز

Twitter: @ketab_n

الترفيه إلى مكان آخر في الجادة التي بالاسم نفسه. هذا البولفار، حيث كان يهيمن المسرح والسيرك والموسيقى، كان يلقب بـ "بولفار دي كريم" (جادة الجريمة)، بسبب المآسي الدموية التي تقترف فيه كل ليلة، كما يقول بعض الناس، ووفقا للبعض الآخر، بسبب محاولة فيشي إغتيال لويس فيليب. مهما اعتقد صديقي القديم جورج ريفييه[٣٠] في كتابه "رينوار وأصدقاؤه"، فإن رينوار لم يكن يحب الميلودرامات (البرجوازيون يحبون أن ينتحبوا على تعاسة البنت اليتيمة المسكينة في المسرح. فهم يذهبون إلى بيوتهم يذرفون الدموع عليها، ثم يطردون الخادمة لأنها حامل). لم يكن يتحمل أي دراما من هذا الصنف عدا أعمال الكسندر ديما الأب، (إنه شاعر حقيقي، اكتشف تاريخ فرنسا). كان يجزم، بكل جدية، بأن العجوز ميشيليه (لم يفعل شيئاً سوى كتابة محاكاة مملة لألكسندر ديما. لو جعلت الناس يتثاءبون حينها فقط سيأخذونك على محمل الجد).

أكثر ما كان يحبه رينوار في البولفاردي كريم هي العروض الصاخبة خارج المسارح. هاته العروض، التي تؤدى في السيرك، والتي تفوق عروض سيرك ديفيه أهمية، كانت شهيرة. بالإضافة إلى الاستعراض الجانبي للنباحين بائعي مقوي الشعر ومدربي الصقور بائعي دواء مسمار القدم. أطباء الأسنان الذي يقلعون الأسنان أمام الناس، والأطباء الذين يبيعون أدويتهم العالمية التي تشفي جميع الأمراض والعلل، كانوا اختفوا. أضواء الغاز التي تومض ومضات ضئيلة، تبعث توهجاً منقطاً على عرض الفتيات الفارسات، والراقصات في تنورات راقصات الباليه المنتفخة، والأكروبات، (فتيات قصيرات، ثابتات على أرجل قوية، يقوّسن ظهورهن بليونة، يؤدين شقلبات مزدوجة، واضعات على خصورهن أيدٍ صغيرة مدربة على أن لا تخطئ قضيب أرجوحة البهلوان، والتي بهن يقطعن الجزر في حسائهن للعشاء).

---

(٣٠) ريفييه (١٨٥٥- ١٩٤٣)، موظف في وزارة المالية، مؤرخ وصديق رينوار.

Twitter: @ketab_n

هل كان رينوار يعرف بأنه سيضع في يوم ما هذه الانطباعات العابرة للسيرك على قماشة اللوحة؟ كان، للحظات، يتشربهم عبر مشاعره ويخزنهم في ذهنه للمستقبل. كان الفتى حسن السلوك، الذي يختلف ملبسه قليلاً عن ملابس حرفيي باريس، بدأ مسبقا خطواته على الطريق الذي سيقوده إلى رسم لوحته الكبيرة "المستحمات" (في متحف اللوفر)، ولوحاته الأخيرة عن شقائق النعمان. حياة رينوار تجعلني أفكر بطيران الطيور المهاجرة، هذا الإنجاز الذي يفوق الإدراك ويتجاوز إلى حد بعيد أي إختراع بشري. ليس هناك بوصلة، رادار، توجيه مسافي تفوق غريزة بط بري في الوصول إلى الهدف. كل فصل ربيع تمتلئ حديقتي بطيور صغيرة قريبة للسنونو. ندعوها أنا وزوجتي بـ "لاعبي الكريكت"، بسبب الخطوط السود والبيض التي تغطي رؤوسها. تأتي في موعد محدد من مناطق أخرى وتحط على شجرات الزيتون في الحديقة. بدون لحظة تردد، تطير نحو الأغصان، التي هي الهدف الذي كانت تبتغيه منذ أن بدأت أول مرّة رحلتها على بعد آلاف الأميال. هذه الدقة التي لم تتغير عبر إجتياز مسافة هائلة والتي قادتها، كما لو أنها مجذوبة إلى مغناطيس، إلى بقعة محددة من الطبيعة، قد يكون رمزاً يعيننا على فهم نموذج رينوار في السلوك. سوف أجانب الدقة لو قلت أن إرادته لا تلعب دوراً في المسألة. بالرغم مما يبدو انه استسلام، فإن "الفلينة" كانت تقاتل بعناد للتشبث بمسارها. الحقيقة هي انه بينما كانت غريزته أقوى من عقله، فإنه أتاح للأخير أن يأخذ على عاتقه السيطرة، حين بدا له انه ملائم لقدره. انه قد ينعطف هنا أو هناك، وقد يتوقف أحياناً، أو رغماً عن نظريته يسير لوهلة ضد التيار، لكنه كان دائماً يستأنف الإتجاه الذي يقوده إلى إكتشاف العالم. وأنا واثق تماماً من أن هذا الإتجاه الذي إتخذه كان غير متعمد بالقدر المماثل لذلك الإتجاه الذي سلكته الطيور للوصول إلى حديقتي. أعتقد أيضاً انه اذا كان رينوار عاجزا عن الرسم ـ لو كان، على سبيل المثال، فقد ذراعا

Twitter: @ketab_n

أو أصيب بالعمى ـ فإنه كان سيتبع الطريق نفسه. كان سيعبر عما يريد قوله بطريقة أخرى. بدلاً من الألوان والأشكال، كان سيستخدم الكلمات، أو الأصوات فحسب. "زمرة الأدباء"، كما كان أبي يسمي الكتّاب الذين سمحوا لمخيلتهم بعزلهم عن الحياة، ابتكروا أسباباً كثيرة لتفسير الموهبة. البعض منهم حاول أن يثبت أن تولوز – لوتريك إحترف الرسم من أجل أن يهرب من الكرب الذي سببه تشوهه الجسدي. السقوط من حصانه، الذي حدث له حين كان صبيا، عوّق نموه، لذلك فإن مظهر القزم الذي كان له جعل النساء ينفرن منه كما لو كن يهربن من وحش. بسبب هذا كله، كان يعزّي نفسه باللجوء إلى العاهرات، والى الرسم. ثمة شيء من الحقيقة في النظرية التي تقول ان العقبات في طريق المرء تساعده، لكنها لا تكفي. أو ربما انها تكفي في النشاطات الأدنى منزلة، مثل الأعمال والسياسة. شخصية روكفلر حصيلة العلة التي في معدته، وشخصية فرانكلين روزفلت حصيلة شلل الأطفال. هنا أيضاً، لدي شكوكي. لا بد أن روكفلر ولد موهوباً بصنع المال، ورزفلت موهوبا برؤية التاريخ. التربة الصالحة والرعاية الدقيقة يمكن ان ينتجا شجرة بلوط قوية من شجيرة صغيرة، لكن هناك دائماً بلوطة في البداية. لا يمكنك أن تحصل على ورود من زراعتك الكرنب. في ما يخص تولوز- لوتريك، رأيت رسوما له رسمها وهو طفل، قبل الحادث الذي تعرّض له، وكانت بصمات تولوز- لوتريك واضحة عليها مسبقا.

كانت غابريال تعرفه جيدا. حين كنت ما أزال صغيرا، كانت تحملني على ذراعها عندما تذهب خارجا في رحلة قصيرة على المحلات قرب بيتنا في مونمارتر. كانَ تولوز- لوتريك غالبا ما يُشاهد جالساً بعظمة قرب الواجهة الزجاجية لمقهى في زاوية شارعي تولوزي وليبيك. كنت أصغر من أن أتذكر أي شيء، لكني في السنوات التي تلت كنت قادراً على تكوين فكرة ما عن مظهره من خلال حكايات غابريال عنه. كان يدعونا إليه ويجعلنا نجلس بين

Twitter: @ketab_n

فتاتين من أصدقائه ـ فتاتان من مونمارتر بلباس جزائري وإسمين غريبين. كانتا تؤديان الرقص الشرقي في المولان روج. حين كانت تصفه لي، كنت أسأل غابريال، (هل تعتقدين انه كان يخجل من تشوهه؟)، (لا، بالمرة)، تجيب قائلة. (كان يمزح طوال الوقت. كان دائماً يسأل عن المعلم، وعيناه تبرقان بحنان حقيقي. كان مولعا جدّاً بالمعلم).

لكن دعونا نرجع إلى الشاب رينوار، الذي لم يكن يجرؤ بعد أن يدعو نفسه رساما. ذات يوم كان جالسا في مقهى قريب من اللاهال يأكل الكرواسان، سمع عرضا مجادلة بين مالك المقهى وأحد المقاولين حول تزيين المكان. كانا يناقشان تكلفة العمل، لكن كما هو واضح كان السعر مرتفعا جدّاً بالنسبة للمالك. حالما غادر المقاول ذهب رينوار إلى صاحب المقهى وعرض عليه أن يتولى المهمة. رفض الأخير أن يصدق بأن مجرد غلام قادر على القيام بهذا العمل. (ماذا لو أفسدت لي الحيطان؟) سأله. إستطاع رينوار إقناعه بانه سوف لن يتسلم أجره ما لم ينهِ العمل.

(لا يمكنك أن تتخيل كم هو أمر مشوّق أن تقوم بتغطية سطح كبير، إنه يُسكر). أدرك رينوار حالا بأن الصعوبة الكبرى في الزخرفة الجدارية هي القدرة على تقييم المنظر (سيكون وجهك قريباً جدّاً من موضوعك، بينما أمام حامل لوح الرسم بإمكانك أن تخطو إلى الوراء لتنظر إلى ما رسمت. أما مع هذه النوع من العمل فأنت عالق على السلم). كان يصعد وينزل من السقالات، راكضاً من هذا الجانب من المقهى إلى ذاك، كي يقدّر الأبعاد الجدارية التي كان يرسمها. كانت أسرة صاحب المقهى بأكملها تتجمع لمراقبة حركاته الإكروباتية. (إنه سنجاب طبق الأصل)، قال المالك، الذي أضفى عليه شكله الممتلئ وقارا. كان في غاية الرضى عن النتائج. ولا بد له أن يكون راضيا، لأن رينوار أتم في يومين عملا كان العامل المحترف سيطلب أسبوعا لإكماله.

Twitter: @ketab_n

(صوّرت في موضوعي فينوس وهي ترتفع من الأمواج. وأؤكد لك بأني لم أوفر لا الأخضر الفيروزي ولا الأزرق الكوبالتي)، قدم الزبائن بأعداد كبيرة ليعبروا عن إعجابهم بفينوس، ويشربوا كأسا من البيرة أو كأسين، وبهذا نال رينوار عروضا لأعمال أخرى. (رسمت على الأقل عشرين مقهى في باريس)، قال مؤكدا بفخر، (كم أحن إلى العودة إلى الزخرفة ثانية، مثل بوشيه، وأحوّل الجدران كلها إلى جبل الأولمب. يا له من حلم! أو، بالأحرى، يا له من هذر. ها أنذا، لست قادرا حتى على النهوض من هذا الكرسي اللعين). كل الجدران التي رسمها رينوار في تلك لفترة لم يبق أي واحد منها. لا أعرف إن كان المعماري المسؤول عن مبنى مسرح فوليه برجيه، وقتئذ، طلب من أبي أن يقوم بأعمال الزخرفة للمسرح. على أي حال، ما كان رينوار سيقبل التكليف، لأنه لم يكن يملك المال الضروري لاستئجار السقالات، والدفع للمساعدين أو مواجهة النفقات الهائلة التي يستلزمها مشروع مثل هذا. (لم أندم على ذلك. كان سيتحتم علي أن أكلف آخرين بإنجاز الخلفيات، بينما كنت أحمل هوساً بالقيام بكل شي بنفسي). مع هذا، لو كان الفوليه برجيه مزخرفاً على يد رينوار لغدا مركز جذب في باريس!

برغم أني لا أتذكر أحاديثنا أنا وأبي كلمة كلمة، فأنا أحاول أن أعطي ما أمكن نسخة دقيقة عنها، حتى لو بدت بعض الأحداث ساذجة. في كل رجل عظيم ثمة براءة معينة.هدفي الرئيسي بالطبع هو إعانة القارئ على تشكيل فكرة واضحة عن رجل فنه محط إعجاب هذا القارئ أصلا. جوهر باخ في موسيقاه، وجوهر سقراط في حواراته، كم سجلت على يد بلاتو في كتابه "الحوارات"، وجوهر رينوار، الجزء الأعمق والأكثر حيوية منه، هو من الواضح في رسمه. مع ذلك، لو كان هناك شخص ما، بجانب سجل بلاتو، وصف كيف كان سقراط يتصرف حين كان يعاني من ألم الأسنان، لكنا استمتعنا كثيراً.

Twitter: @ketab_n

طوال الفترة التي رسم فيها الآلهة والأساطير على جدران مقاهي باريس، كان رينوار يفكر في خطط. نمت الفكرة وتبلورت واختمرت مع كل مهمة كانت تضاف إلى خزينه: قرر أن يدرس الرسم في واحدة من مدارس الرسم المعروفة. بمعنى آخر، عزم رينوار على أن يصبح فناناً. كان وقتذاك تحت العشرين من العمر.

Twitter: @ketab_n

١٠

في ظاهرة عامة لدى الرجال في عمر معين، كان رينوار يحب الاسترسال في الحديث عن شبابه ويتملّص من ذكرياته اللاحقة. لم أحاول أن أردم الفجوات في حكايتي بالاستعانة بأعمال أخرى كتبت عنه. لم أشأ أن أبدّل الصورة التي كونتها عن أبي في سبيل حقيقة هي ليست أكثر صدقاً من حقيقتي. سأواصل إذاً الإتكاء فقط على أحاديثي مع رينوار ومع الشهود الذين كانوا جزءاً من عالمه.

في العشرين من عمره، كان أبي رجلاً ناضجاً. كان عليه أن يعيل نفسه بنفسه، وكوّن صداقات عديدة، وكان له بضع علاقات حب. لم يكن عرف الفقر بعد، بفضل العناية المحبة لوالديه، وأيضاً بفضل قدراته المذهلة. اعماله المختلفة، ورسمه، الذي كان يوفر له عملاً جانبياً، وعلاقاته مع أصدقائه رجالاً ونساء، وصلته بأسرته، كل هذا مكّنه من العيش في فترة الاضطرابات في التاريخ الفرنسي من دون أن يكون جزءا منها.

بعد قيام الجمهورية عام ١٨٤٨ حل وضع مشوش بغيض. كانت هناك متاريس وقتال في الشوارع. الحرس الملكي، برغم تحوله إلى حرس جمهوري، واصل إطلاق النار على الناس، كما فعل في الماضي. أحسّت فرنسا بالملل الكبير في الورشات الحكومية ـ "الخبز للجميع" ـ وباليأس من هزيمة دموية.

Twitter: @ketab_n

الرئيس - الأمير، باسم الحرية والديمقراطية، أعاد إنشاء الإمبراطورية، وبعث الحياة في البلاط وألبس الجنود ثانية ملابس نظامية ملونة قبل أن يرسلهم إلى الخارج ليُقتلوا في ساحات المعارك البعيدة. بعد سنوات عدة من التضحية في سبيل قضية الأخوة العالمية، صار الفرنسيون وطنيين وأضحى التزمت الوطني شائعا. إستتب النظام الإجتماعي، بعد تصفية النبلاء، ونصّب البرجوازيون أنفسهم في القصر، ولم تكن لهم نية في الخروج منه. كانوا مهيأون لأوفنباخ[٣١]، وقلة منهم كانوا سيظهروا انفسهم مهيأين لرينوار. هؤلاء القلة كانوا استثناء، بالطبع، فالاهتمام العام بالفن، حينئذ، لا يمكن أن يقارن بالنجاح المذهل للمحظيات اللائي على الموضة، والخياطين الكبار وميادين سباق الخيول. بخلاف أصدقائه، أستحسن رينوار هذه الملذات الدنيوية التي اجتذبت سادة جدداً إلى محيط الحياة الأنيقة. (لقد صاغوا هذه الملذات. لقد بدأوا بـ "بنت هوى"، ثم ما لبثت بنت الهوى هذه أن رغبت بأن تسكن قصراً تزين جدرانه لوحات واتو. من أجل ذلك، ما كانت بحاجة اليه حقاً هو قوّاد لديه القليل من الذوق في الفن. وبعد واتو، من يعلم، ربما كانت سترغب بمانيه).

كان على يقين من أن قيم القرن الثامن عشر، التي أحبها كثيراً، كانت في سبيلها إلى الاندثار. (أولئك الذي حلوا محل الجيل القديم بدأوا بالثراء السريع. كانت الطريقة الوحيدة هي في تشييد المصانع بمكان الحدائق. قبل ظهور المصانع، كانت ايل- دو- فرانس مزرعة ورود. ما أكثرها هذه المصانع! للأسف، هناك أيضاً دار الأوبرا، وبلاس دو لاروبيليك، وبولفار راسبيل، وغران باليه...!) كان رينوار يعتقد أن انتشار الذوق الرديء كان محتوماً،

---

(٣١) جاك اوفنباخ (١٨١٩- ١٨٨٠)، موسيقار الماني، أقام في فرنسا منذ ١٨٣٣، له سلسة من الأوبرات، أهم أعماله "حكايات هوفمان".

Twitter: @ketab_n

إلا أن ذلك بلا ريب سينتج عنه شيء جيد. (مهما يكن، فمن المؤكد أننا لا نستطيع أن نعتمد على ورثة الصليبيين في أن يشتروا لوحات، وعيونهم على سباق الخيل فقط. كنا سعداء بأن يكون لدينا برجوازيون أثرياء نلجأ اليهم. كانوا فرصتنا الوحيدة).

كانت "الفلينة" على حق، هذه المرّة أيضاً. كان عليه إيجاد مادة مسهبة للرسم وسط التيار الذي كان يجرف معه المجتمع الجديد، والعثور على وسيلة كذلك، على الرغم من اللحظات العسيرة حقاً، لتجنب الموت جوعاً. (زد على ذلك، الذوق الذي كان واضحا في أعمال القرن الثامن عشر، فهو على الأرجح لاشعوري. النجاحات البشرية كانت على الدوام لاشعورية!). استشهد بقصة، كانت ترعبه، عن مدام دي باري، التي تمنت ذات مرة على الملكة، والبلاط كله، تنقيح "فينوس دارل" التي رأت انها بدينة جداً. (تخيّل أن يجرؤ أحد على تنقيح فينوس دارل! لقد فعل اليعقوبيون حسناً بحكمهم على هذه البلهاء بالمقصلة. لقد إستحقت هذا المصير مئة مرة!).

حول الترف التفاخري الذي إنغمس فيه المجتمع الباريسي بعد الكومونة، قال رينوار: (أحب الأقمشة الجميلة، المطرّزة النفيسة، والماسات التي تبرق في الضوء، لكني سأصاب بالرعب لو فكرت في أن أرتدي هذه الأشياء بنفسي. أنا ممتن لهؤلاء الذين يرتدونها، بشرط أن يدعوني أرسمهم). ثم بعدئذ، وكما كان يفعل غالبا، غيّر رأيه: (من جانب آخر، كنت أفضل أن أرسم الحليات الزجاجية الصغيرة والأقمشة القطنية التي تكلف قطعتي سو للمتر الواحد. انه الرسام الذي يصنع الموديل). فكر متأملا للحظات، (نعم ولا. أنا بحاجة للشعور بكل إثارة الحياة حولي، وسأحتاجه دوما).

حين أفصح رينوار عن نيته بأخذ بعض الدروس في مدرسة الفن، نصحه صديقاه " الفنانان " اوليفي ولابورت وصهره ليراي بالذهاب إلى اتيليه غلير، واحدة من المدارس المعروفة في العاصمة.

Twitter: @ketab_n

ما أراد رينوار تعلمه بوجه خاص هو رسم الأشكال البشرية على نحو جيد: (رسمي كان دقيقا لكنه جاف بعض الشيء). سألته إن كان يعتقد انه تعلم شيئاً في المدرسة؟ (الشيء الكثير)، أجاب، (بالرغم من المعلمين. التمرّن على عمل نسخة من الموديل نفسه التشريحي هو أمر ممتاز. إنه مضجر، وإذا لم يدفع لك مقابله فإنك لن تكلف نفسك عناء القيام به. لكن متحف اللوفر هو المكان الوحيد للتعلم، حقا. وبالنسبة لي، عندما كنت في اتيليه غلير، اللوفر كان يعني لي ديلاكروا).

حدثان مهمان يبرزان من إشارة رينوار إلى هذه المرحلة من حياته: سحبه الرقم العسكري المحظوظ في القرعة، واللقاء مع بازيل[٣٢]. بدون الحدث الأول، كان رينوار سيخدم سبع سنوات في الجيش الفرنسي. في ذلك الحين، كان نظام التجنيد العسكري قائما على إجراء القرعة. هؤلاء الذين يربحون في اليانصيب كانوا يُستثنون من الخدمة، أما الخاسرون فعليهم أداء خدمة السبع سنوات. حين شكرت الله على نجاة أبي من تلك المحنة، أجاب، (من يدري. ربما كنت سأصبح رساماً عسكرياً. كان الأمر سيبدو ساحراً لو رسمت مدناً محاصرة، مطوقة بغيم متعددة الألوان، مع سحب الدخان).

وسم لقاءه ببازيل بداية عالم جديد لرينوار، والتحول من الحياة الريفية، في سنواته المبكرة، إلى حياة المدينة، الرفيعة الثقافة. (كم من الباريسيين هم ريفيون في داخلهم ولا يعرفون ذلك!). سألته إن كان يلمح إلى الناس في الحي الذي كان يعيش فيه في ذلك الوقت؟ (لا أبداً. في حيك الخاص يمكنك سبر عمق الأشياء. إنها الحياة الفضلى للهرب من الريف. الريفي هو ذاك الذي لا يميّز. هذا يعني: بوغورو وسيزان وهما رسامان، كأن هناك جامع بينهما!

(٣٢) بازيل (١٨٤١-١٨٧٠) رسام فرنسي انطباعي، وواحد من أصدقاء رينوار الحميمين.

Twitter: @ketab_n

في باريس، يمكنك الاختيار، يمكنك التمييز، لا يهمك الدخول في حياتها، بل تنضم إلى جماعة تؤمن معها بالأشياء نفسها، تفضل الموت جوعاً على أن ترجع عما أنت فيه). (أه، لو كنتَ عرفتَ بازيل!). قال بإبتسامة كئيبة وهو يستعيد ذكرى الصديق الذي أحبه كثيرا. سرح ذهنه بعيدا نحو ذلك اليوم، وهو في العشرين من عمره، حين دخل أول مرة إلى اتيليه غلير ورأى تلك الورشة الكبيرة تغص بتلاميذ الفن الشباب وهم يرسمون أمام مساند لوحاتهم. كانت نافذة مشربية تلقي ضوءاً رمادياً على موديل ذكر نصف عار (جعل غلير الموديل يرتدي سروالاً تحتياً، كي لا يؤذي مشاعر الإناث بين التلاميذ). كانت هناك ثلاث نساء في الصف واحدة منهن شابة انكليزية، ممتلئة ووجهها مغطى بالنمش. كل مرة تأتي فيها إلى الأتيليه كانت تسأل ما إذا كان بالإمكان خلع (اللباس الصغير عن الموديل). كان غلير، السويسري المتصلب، الملتحي وحسير البصر، يرفض رفضا باتا. كانت الفتاة الانكليزية عندئذ تطلب أن تتحدث اليه على انفراد. كان الطلاب الآخرون يجزمون بأنهم يعرفون ما ستقوله (لكن مستر غلير أنا أعرف كيف يبدو شكله، لأن لدي عشيق). ويُفترض ان غلير رد عليها، بلهجة مضحكة، (لكني لا أريد أن أفقد تلاميذي الذين من فابورغ سان جرمان).

كما نعرف، كان رينوار يرتدي رداء الحرفي حين يرسم، وهو الرداء نفسه الذي سبّب، في ما بعد، الحادث مع دياز وفتيان المحلات في غابة فونتانبلو. هذا الزي سبّب الآن سخرية التلاميذ، ولاسيما أولئك الذين ينتمون إلى عائلات ثرية، والذين يريدون ممارسة الفن على سبيل الهواية. عدد منهم أضفى على نفسه مظهرا رياضيا مع سترة قطيفة سوداء وبيريه. لم يكن رينوار يشعر بالإرتياح في وسط مختلف كثيراً عن الوسط الباريسي الحرفي الذي تعوّد عليه. لكن المزحات التي تناقلوها عنه لم تكن تزعجه كثيرا، فقد ذهب إلى هناك لتعلم رسم الشكل البشري. كانت صفحة الورق

Twitter: @ketab_n

على لوح الرسم سرعان ما تُغطى بخطوط من قلم الفحم، فكان مشغولا جدّاً برسم نموذج من ساق أو إنحناءة يد، الأمر الذي كان يجعله لا يلقي بالا لأي شيء آخر.

في احدى الأمسيات، وكان قد مضى أسبوع على وجوده في المدرسة، جاء اليه أحد التلاميذ وقال: (هل أنت ذاهب باتجاه الابسرفاتوري؟ أنا أسكن في شارع كامباني بريمبير). لأن اتيليه غلير كان بعيدا، إذ يقع على الضفة الشمالية، استأجر أبي غرفة مفروشة في ذلك الجزء من المدينة. زميله هذا شاب وسيم ومهندم (من النوع الذي يعطيك إنطباعا بأنه يملك خادما خصوصيا، يساعده بارتداء حذائه الجديد). سارا معا ودخلا حديقة اللوكسمبور. كانت أشعة من شمس الخريف تضيء المنظر الطبيعي. كان هناك أطفال مع أمهاتهم، وفتيات صغيرات، وجنود، كثير من الألوان تتمايز على اللون الرمادي لأحواض الزهور واللون الذهبي لأوراق الشجر. قال بازيل بأن ذلك المنظر هو ما كان يود أن يصل اليه. (التشكيلات الكلاسيكية الكبيرة إنتهى عهدها)، قال. (مشهد الحياة اليومية هو أكثر إثارة للاهتمام بكثير. لم يحر رينوار جوابا. جذب إنتباهه طفل في عربة يبكي. كانت مربيته تركته للحظات لتغازل عازف بوق من جنود الهوسار الذي كان يتسكع في الجوار. (ذلك الطفل كاد يختنق ببكائه حد الموت). مشى نحوه وبدأ يؤرجح عربته بتهيب. عندئذ توقف الطفل عن البكاء، فجذب الصمت المفاجئ إنتباه المربية فالتفتت، ثم صرخت هلعا حين رأت شخصا غريبا منحنيا على عربة الطفل. تقدم الجندي من رينوار وأخذ يدفعه بخشونة. أقبل عدد من الأمهات، وهن يركضن نحو المكان متوعدات. كان هناك صراخ، (أوقفوا سارق الأطفال!)، فتدخل حارس الحديقة في الوقت المناسب. شرح له صديق رينوار الجديد الموقف، وبحركة تدل على الأهمية قدم له بطاقته. ابدى له الرجل إحتراما، بعد أن أثر فيه مظهره المهذب. لكنه قال لأبي: (لا تدعني أقبض عليك متلبسا

Twitter: @ketab_n

بهذا الفعل ثانية!). حينئذ لم يتمالك الصديقان نفسيهما من الإنفجار بالضحك.

(دعنا نذهب ونحتسي قدحا من البيرة)، إقترح بازيل. فذهبا إلى مقهى كلوسيري دي ليلا، وجلسا على إحدى الطاولات. (ما الذي أوحى لك بأن تتكلم معي في أول الأمر؟) سأله رينوار. (من الطريقة التي ترسم بها)، أجاب بازيل، (شعرت بأنك متميز حقا).

عليّ هنا أن أستطرد قليلاً، كي أقدم للقارئ شرحا عن المشهد الذي وقع في حديقة اللوكسمبور. كان أبي غالبا ما يقول لي انه كان يخاف من الحشود، وكم كان يحس بأنهم معادون له. أورد أمثلة عديدة. كنت رويت مسبقا واحدة منها عن دياز والشباب المشاكسين. من الصعب تعليل عداء الناس لشخص كان على الدوام يوحى بتأثير طيب على أولئك الذين عرفوه حقا. مرة ثانية يجب أن أتطرّق إلى صفة "التغرب" التي لازمت رينوار. إن اسلوبه في محو الذات لم ينجح بطمس صفة الاختلاف فيه، الصفة التي كانت تثير عداوة شديدة لهؤلاء الذين لم يعتادوا عليه - والتي كانت ببساطة تشير إلى العبقرية. يألف المرء كل شيء، وأغلب الناس الفوا رينوار بسرعة إلى حد ما. لكن الاتصال عادة ما يكون مفزعاً. كانت شخصيته غير تقليدية بالقدر الذي كانت فيه رسومه. إنها القصة القديمة للبطة الصغيرة القبيحة (الفتاة التي كانت دميمة الشكل ثم أصبحت امرأة جميلة).

هنا مثال آخر عن علاقة رينوار بالحشود. ما يقارب الفترة نفسها كان رينوار ماشيا في شارع فيه أبنية قيد الإنشاء، عندما شعر بنداء الطبيعة. نظر حواليه، وحين تأكد أنه لم يكن هناك أحد في مدى البصر، ذهب إلى سياج خشبي طويل، كان وضع لإبعاد المتطفلين، فوجد فتحة بين لوحي خشب، فجلس لقضاء حاجته. فجأة أحسّ بأحد ما يقف خلفه. إلتفت فرأى شخصا

Twitter: @ketab_n

غريبا يحدق فيه بسخط. بدأ الغريب بالصراخ، (شهواني، شبق، إمسكوه!) ـ ثم تسلق السياج وبدأ يخاطب بعض النساء مع أطفالهن، اللائي كن في الجانب الآخر من السياج ولا يراهن رينوار. القادم الجديد لم يجد صعوبة بإقناع جمهوره بأن (هذا الشخص القذر مذنب بالإنحراف الفاضح)، فتجمع حشد مختلف في لحظات ـ (كانوا تقريبا يبدون وكأنهم سيثبون من الأرض) ـ وتقدموا نحوه. حين رأى رينوار انه ما من مخرج آخر، أسلم ساقيه للريح. فتبعه الحشد في مطاردة حامية، ومن حسن الحظ كان رينوار عداء سريعا. برغم هذا، وقد ركض مثل مجنون نحو نصف الميل، فإن معذبيه كانوا لا يزالون قريبين منه. فجأة لمح مركز شرطة، ومن يأسه إندفع بسرعة داخلاً اليه، وأخبر، بأنفاس مقطوعة، الضابط المسؤول عما حدث، وطلب حمايته. وبخه الضابط بقسوة، لكنه أبقاه في المركز للأمان، حتى قرر الغوغاء في الخارج أن يتخلوا عن إعدامه بغير محاكمة، وانسحبوا واحداً وراء الآخر.

عودة إلى الحديث عن بازيل. كان صاحب أبي الجديد ينتمي إلى عائلة ثرية من عوائل باريس البرجوازية القديمة. والداه كانا من معارف ادوار مانيه، وكان يدعى مرات عدة لزيارة الأستاذ في محترفه. (قد تتفق معي، إن مانيه مهم بالنسبة لنا)، قال بازيل، (بقدر ما كان تشيمابو وجوتو مهمين لإيطاليي الكواتروتشنتو (القرن الخامس عشر). لأن عصر النهضة في سبيله للولادة من جديد، فإننا يجب أن نكون جزءا منه... هل تعرف كوربيه؟).

كان بازيل ورينوار يحلمان بإنشاء "مجموعة" من الفنانين، يتابعون أبحاث هذين الأستاذين، والتي ما زالت جارية. كانا قد إهتديا مسبقا إلى عبادة الطبيعة، ولم يترددا في سرقة الوقت الذي كانا يقضيانه عادة في المتاحف، للخروج إلى الطبيعة ودراسة مشهد باهر لأوراق الخريف. وأينما سمعا بفنان شاب آخر (يتابع الأفكار الجديدة)، كانا يتقصيان حالا عن أمره. وفي كل مرة، كانا يصابان بخيبة أمل، لأنه سرعان ما يتحول إلى فنان

Twitter: @ketab_n

من النوع "الأدبي"، الذي يتوهم ان الغاية من الرسم هي رواية قصة (إذا أردت أن تروي قصة، خذ القلم واكتبها. أو يمكنك أن تتسمر أمام موقد في غرفة إستقبال، وأروها هناك).

كنت أجد صعوبة بإقناع أبي أن يعطيني المزيد من التفاصيل عن صداقته مع بازيل، وعن الأحلام والطموحات التي تقاسماها. (لم الحديث عن أحلام شابين مندفعين؟ الشيء الوحيد الذي يهم هو ما يضعه الرسام على قماشة لوحته، وهذا لا علاقة له بالأحلام. ما يتعامل معه هو الأصباغ الجيدة، ممزوجة مع زيت بذر الكتان وقطرة أو إثنتين من التربنتاين). مع هذا، سيقول، في وقت آخر: (يجب أن تتكاسل وتحلم قليلاً. ذلك انك حين لا تفعل شيئاً، فإنك ستنجز الشيء الكثير. قبل أن تكون لديك نار متأججة، عليك أن تجمع ذخيرة كافية من الحطب. الأمر المهم)، أضاف، (إن بازيل كان يمتلك الكثير من الموهبة... ومن الشجاعة. انت تحتاجها حين يكون لديك المال، اذا أردت ان لا تصبح مجرد رجل مجتمع. إكتشافنا للطبيعة أصابنا بالجنون). بالمقابل كان يحب الإسهاب في حكايات كانت تبدو لي تافهة. واحدة منها عن زيارة السفير الهولندي إلى اتيليه غلير. كان لدى هذا السفير إبنة ترغب بتعلم الرسم. كان غلير شديد التأثر. شخصه المتسلط صار يهتز بتحيات ترحيب صغيرة وبإيماءات احترام ودية. بلهجته الغليظة صاح بجذل فجأة: (تلميذ من موطن رامبرانت وروبنز. يا له من شرف لمدرستنا!). أما التلاميذ، فقد تركوا، وكأن الأمر مصادفة، لوحات مكشوفة تصوّر موديل ذكري، رسموه بتروٍ من دون سرواله التحتي، حتى انهم اسبغوا على الرجل صفة ذكورية بحجم يجعل كاراغوز يموت حسدا. حين رآها غلير سارع إلى إدارة وجه اللوحات إلى الجدار، دافعا زواره برفق نحو الأمان في مكتبه الخاص. كان هذا المكتب يقع في النهاية البعيدة من حديقة صغيرة، وعلى مدخله ثلاث درجات حجرية. واحد من التلاميذ، وكان مهرّجا

Twitter: @ketab_n

بعض الشيء، كان يضع أحياناً على واحدة من الدرجات كسرة من الخزف الزجاجي على شكل غائط بشري. لم يكن غلير ينتبه إليها كثيرا، وغالبا ما كان يدفعها بقدمه جانبا حين يدخل. هذه المرة، صعق السفير وزوجته وابنته بشدة عندما لاحظوا الشيء البغيض، الذي بدا وكأنه يعترض طريقهم. (لا تهتموا للأمر)، توسّل غلير اليهم معتذراً (أنها مجرد مزحة)، ثم التقط القطعة الآثمة بيده ليري السفير انها مجرد تقليد. لكن، وعلى نحو غامض لم يتم تفسيره أبدا، تحولت هذه القطعة في ذلك اليوم إلى شيء حقيقي!

أكّد لي رينوار الحكاية المعروفة عن غلير، عندما توقف، في أحد الأيام، خلفه حائرا، وهو ينعم النظر طويلاً في رسم أولي له. في النهاية قال (أيها الشاب، أنت بارع جداً، وموهوب جداً، لكنك بلا شك تعمد إلى الرسم كي تسلي نفسك فقط)، فأجابه رينوار، (بالتأكيد. لو لم يسليني لما قمت به!) رده السريع هذا، أُعتبر، على نحو ملائم، من قبل العديد من مؤلفي الأعمال عن رينوار، بأنه إعلان عن مبدأه في الفن.

السرور المحض الذي وجده رينوار في الرسم لم يمنعه من أن يكون تلميذا ممتازا. إجتاز بامتياز إمتحانات المنافسة في الرسم التشريحي، والمنظور، والتصميم، والمشابهة. وكان أيضاً بين الأوائل في الإمتحان النهائي. لم يخف فانتان – لاتور، الذي كان حينئذ في أوج مجده، إعجابه برينوار، في زيارة له إلى اتيليه غلير، وأشار إلى هذا التلميذ بالقول، (ان براعته الفنية الفائقة تذكرنا بعصر النهضة الإيطالي). دعا أبي إلى زيارته، وانضم إلى غلير في تحذيره من (عبادة الإستخدام المفرط للون). قبل رينوار، المهذب دائماً، هذه الدعوة. وكي يرضي غلير - (بائع حساء، لكنه رجل طيب) - رسم له شكلا عاريا يطابق كل القواعد: (لحم بلون الكاراميل ظاهر من قطران أسود مثل الليل، وضوء خلفي يكلل الكتفين، وتعبير معذب على الوجه يشبه ذاك الذي تسببه الآم المعدة). في البدء كان غلير مبهورا، ثم مصدوما بطريقة غير

Twitter: @ketab_n

مباشرة. إذ أظهر تلميذه ان بإمكانه أن يرسم (على نحو مسرحي)، مع ذلك يصر على تقديم البشر (تماماً كم هم في الحياة اليومية). (أنت تجعل الناس إضحوكة).

ذات يوم، إصطحب بازيل رساماً شابا إلى اتيليه غلير، كان مثله عاقد العزم على إشعال النار في "التافهين" (pompiers). اسمه سيسلي. كان أبوه رجل أعمال إنكليزياً، تزوج من امرأة فرنسية واستقر في باريس. بعد كل جلسة رسم، كان رينوار ورفيقاه يذهبان لإحتساء البيرة في الكلوسيري ديه ليلا، حيث كانا يواصلان مناقشاتهما الحيوية. في النهاية، إنضم مونيه إلى المجموعة. وكان له ثقة كبيرة بنفسه، فسرعان ما أصبح زعيمهم. ثم تبع فرانك لامي[٣٣]، بالإضافة إلى آخرين، فانتني أسماؤهم، وصاروا يشكلون فرقة صغيرة من الشباب "المتصلبين" (intransigeants). بيسارو لم يحضر أبداً إلى اتيليه غلير. كان بازيل إلتقى به من خلال مانيه، وجلبه إلى اللقاءات في الكلوسيري. استشعر الأب غلير خطر ثورة يهَيأ لها في مدرسته. فقد أمسك بالفتاة الانكليزية المنمشة وهي تضع لمسة من اللون القرمزي على حلمتي ثدي "شكل" كانت ترسمه. إصطبغ وجهه غلير بالإحمرار(هذا غير محتشم!)، قال لها. (أنا مع حرية الجنس ومع كوربيه)، ردت الفتاة بحسم.

كان بيسارو ومونيه الأكثر تعصبا بين المجموعة كلها. كانا أول من أدان دراسة أعمال أساتذة الفن الكبار، ودافعا عن التعلم مباشرة من الطبيعة فقط. كان كورو، مانيه، كوربيه، ومدرسة فونتانبلو قد عملوا أصلا في الطبيعة، لكن في تفسيرها إتبعوا تعاليم الفنانين الأقدمين. كان هدف المتصلبين ترجمة إدراكهم الحسي الفوري على لوحاتهم من من دون أي تفسير. إعتبروا

---

(٣٣) رسام فرنسي، رفيق رينوار في فترة "مولان دو لاغاليت"

Twitter: @ketab_n

أي شرح تصويري بمثابة خلاصة. كان رينوار مع هذا الرأي، لكن مع بعض التحفظات. لم يمكنه أن ينسى نساء فراغونار البرجوازيات. السؤال الذي واجهه كان معرفة ما اذا كان فراغونار رسم في بورتريهاته (ما رآه هو)، أو إستخدم صيغة توارثت من أسلافه. مع هذا فالتيار لا يقاوم، فبعد فترة قصيرة من التردد إنجرفت "الفلينة" بحماسة بهذا الدفق من إنطباعات الطبيعة، الذي شكل "عقيدة" فن الرسم الجديد.

حتى قبل أن يترك المدرسة، وجد رينوار نفسه يواجه مأزق وجوده كله. قضيتان متضادتان كانتا ستتطوران في ما بعد أقلقتاه وحرمتاه النوم. منذ فترة اتيليه غلير، كان المقصود هو الاختيار بين الإدراك الحسي المباشر وبين الإفتتان الشديد بالدراسة لدى الفنانين الأقدمين. سرعان ما اتخذ هذا المأزق ميزة أكثر تقنية، وتحدد بين العمل في الطبيعة، مع كل الإختلال فيه، والحيل التي يمارسها ضوء الشمس، وبين العمل في المرسم في ظل الدقة الباردة للضوء القابل للتحكم. المسألة الحقيقية، التي يمكن إعتبارها الموضوعة المركزية في حياته، مسألة الصراع بين الذاتي والموضوعي، رفض رينوار دائماً أن يضعها في صيغة سؤال مباشر. آمل أن التأملات والذكريات التي سُجلت في هذا الكتاب ستفيد القارئ في حلها بنفسه.

كل شيء تضافر للتأثير عليه كي يتبع "المتصلبين": حبه للحياة، وحاجته إلى التمتع بكل إدراكه الحسي، اليقظ دائماً، بالإضافة إلى موهبة رفاقه. "المدرسة الرسمية"، التي هي مجرد تقليد للأساتذة الأقدمين، كانت قد ماتت. رينوار ورفاقه كانوا أحياء جداً، وبالنسبة لهم، كان من الواجب إعادة الحياة إلى الرسم الفرنسي. كانت إجتماعات المتصلبين مفعمة بالحيوية للغاية. كانوا متقدين بالرغبة بمقاسمة العالم معرفتهم للواقع. افكار كانت محل نقاش، خلافات كانت تندلع، تصريحات تتدفق. أحدهم طالب، بجدية بالغة، بإحراق اللوفر. لمّح أبي بوجوب الإبقاء على المتحف كملجأ للأطفال في

Twitter: @ketab_n

الأيام الماطرة. قناعاتهم لم توقف مونيه، سيسلي، بازيل ورينوار عن الحضور المنتظم إلى المدرسة التي يديرها غلير. برغم كل شيء، لم تكن عبادة الطبيعة تتعارض مع دراسة الرسم. مونيه (أدهش) العجوز غلير. الجميع، في الواقع، كانوا مندهشين به، ليس فقط لبراعته الفائقة، بل أيضاً لأسلوب حياته. حين قدم إلى المدرسة أول مرة، غار الطلاب من مظهره الأنيق، ولقبوه بـ "الغندور". أبي، الذي كان دائماً متواضعا في ملبسه، كان معجبا بالأناقة اللافتة لصديقه الجديد. (كان معدما، لكنه كان يرتدي قمصانا بدانتيلا في طرف الأكمام!).

بدأ مونيه، حين دخل الصف أول مرة، برفض إستخدام المقعد الذي كان مخصصا له. (انه ملائم فقط لحلب البقر). بوجه عام، كان الطلاب يرسمون واقفين، لكن كان لهم الحق بمقاعد. حتى ذلك الحين، لم يخطر أبداً على بال أي منهم أن يجادل بشأن هذه المقاعد. كان لدى العجوز الطيب غلير، من أجل إسداء النصح للتلاميذ، عادة الصعود على المنبر حيث يقف المودیل. ذات يوم دخل الصف فوجد مونيه قد نصّب نفسه في مكانه. (أحتاج إلى أن يكون أقرب إلى المودیل من أجل فحص نسيج جلده)، علل مونيه قائلا. ما عدا أصدقائه من "المجموعة" كان ينظر إلى بقية التلاميذ نظرته إلى حشد مجهول - (مجرد حفنة من صبيان بقالين). وإذا ما حاولت فتاة لطيفة ما، لكنها عامية أن تتقرب منه، فكان سيقول لها: (لا تؤاخذيني، لكني لا أنام الا مع دوقات...أو خادمات، أما من هن بين الصنفين فيصبنني بالغثيان. فتاتي المثالية ستكون خادمة لدوقة).

بيسارو، كان نوعاً مختلفاً تماماً. كان أكبر عمراً بعشر سنوات من رينوار. ولد في جزر الأنتيل، وله طريقة في التعبير عن نفسه ببطء، وبصوت ناعم موسيقي. كان لا يبالي بملبسه، لكنه ينتقي كلماته بعناية. وكان مقدراً له أن يكون منظّر المدرسة الجديدة.

Twitter: @ketab_n

أضطر رينوار إلى ترك اتيليه غلير والعودة إلى أعمال الزخرفة، لأن نقوده نفدت. مع هذا، فهو لم يتخل عن (الرسم الحقيقي)، وظل عضوا مخلصا ونشطا في المجموعة. أصاب أسرته الهلع وهم يرونه يسير في هذا الطريق الخطر (انه فنان، لكنه سيموت جوعا)، قال جدي، وهو يهز رأسه أسفا. حتى ليزا نصحت أبي أن يكون متبصرا ويبذل سعيه في عمل البورتريهات، (وذلك هو فقط ما كنت أفعله. المشكلة الوحيدة هي ان الذين كنت أرسمهم هم من الأصدقاء، ومقابل لا شيء).

لكن برز داخل العائلة بطل غير متوقع: ادمون، الأخ الأصغر لرينوار. لم يتخل ادمون عن طموحه بأن يصبح كاتبا، وهو في الواقع كان كذلك أصلا. في الثامنة عشرة من عمره، بدأ يسهم بإنتظام في صحف عدة. وهو مؤلف أول مقالة عن رينوار، والتي بشّر فيها بولادة حركة جديدة.

قبل ختام هذا الفصل من حياة رينوار، أود أن أستطرد قليلاً لتقديم بضعة أمثلة عن نوع الأغاني التي كان تلاميذ غلير يغنونها في الشوارع، كي يظهروا انهم فنانون مؤهلون. هذه واحدة منها:

La Peinture à l'huile

C'est plus difficile

Mais c'est bien plus beau

Que la peinture à l'eau[34]

أو أغنية أخرى، مغناة على لحن "Prends ton fusil Grégoire" (تناول

---

(٣٤) الرسم بالألوان الزيتية
هوأكثر صعوبة
لكن ألأكثر جمالا
هو الرسم بالألوان المائية

Twitter: @ketab_n

بارودتك يا غريفوار):

Prends ton pinceau Gérôme

N'rate pas le train pour Rôme

N'oublie pas l'jaune de chrôme

Ces messieurs sont partis

A la chasse au grand prix[35]

جيروم كان في الأربعين من العمر، وكان يتبع بشرف خطى "البومبيه" (التافهون)، وفاز في حينها بجائزة روما الكبرى (grand prix de Rome). حين ذكّر جورج ريفييه رينوار، في حضوري، بهذه المزحات الهرائية، هزّ أبي كتفيه إستهجانا (لم يكونوا قادرين على إيذاء ذبابة)، قال.

بعد أن تخلى رينوار بشكل تام عن عمله في الزخرفة، تقاسم مع مونيه السكن. تدبرا معيشتيهما برسم بورتريهات لصغار التجار. كان مونيه بارعا بإدارة الأعمال، وبالرغم من كل شي، استمر بإرتداء القمصان المزينة بالدانتيلا والتعامل مع أفضل خياط في باريس. ولم يكن يدفع أبداً للرجل المسكين، وكان عندما يذهب اليه مع قائمة الدفع، كان مونيه يعامله بتعاطف دوان خوان المتعجرف حين يستقبل ديمانش.(مسيو، إذا واصلت إصرارك على هذا الشكل، سأضطر إلى سحب تعاملي معك). فيكف الخياط عندئذ عن إصراره، لأن الكبرياء كان غلبه بحصوله على سيد بمثل هذا الأسلوب الراقي كزبون (كان لوردا بالفطرة)، قال رينوار.

كل المال الذي إستطاع الصديقان جمعه، كان يذهب كنفقات على مرسمهما وعلى الموديلات، وعلى جمر الموقد. أما من ناحية الطعام، فقد

---

(٣٥) تناول ريشتك يا جيروم / لا تفوّت قطار روما / لاتنسى الأصفر الكرومي / هؤلاء السادة رحلوا / سمياً وراء الجائزة الكبرى

Twitter: @ketab_n

عملا وفقا للخطة التالية: بما أنه كان يجب أن يمتلكا موقداً لتدفئة الفتاة التي تقف عارية كموديل، فإنهما إستغلاه لطبخ وجبات طعامهما. حميتهما في الأكل كانت اسبارطية. صادف ان واحدا من الذين كانوا يجلسون امامهما لتصويره، بقال، فكان يدفع أجرهما بشكل تجهيزات غذائية. كان كيس البازلاء يكفيهما عادة لمدة شهر. وعندما كان مخزونهما من البازلاء ينفد، يتحولان نحو العدس على سبيل التغيير. وعلى هذا النحو، كانا يواصلان تقييد نفسيهما بالأطباق النشوية، التي تتطلب انتباهاً أقل أثناء طبخها. سألت أبي ألم يكن أكل البازلاء في كل وجبة عسيراً على الهضم. (لم اكن أسعد حالا في حياتي أبدا، كما كنت في تلك الفترة. لا بد أن أعترف بأن مونيه كان قادرا على الإحتيال بتدبير وجبات العشاء من وقت لآخر، فكنا نتخم بلحم الديك الرومي مع الكمأ، المنقع بنبيذ بورغونيا، الشاربنتان).

بقيت بضع لوحات من تلك الفترة، أنقذت بإعجوبة من الضياع أثناء التنقل من منزل لآخر، أو من نسيانها في غرفة سطح، أو من الحرق بيد الفنان نفسه، أو من الوقوع في أي من الأخطار العديدة الأخرى. رسم رينوار صورا كثيرة، لذلك أفلت عمله من تدمير الطبيعة والبشر. حين نتأمل اليوم الرسوم المبكرة التي نجت، مثل بورتريهات جدتي، وجدي، ومدموزيل لاكو، بالإضافة إلى "المرأة النائمة" و "ديانا القناصة"، يمكننا أن نفهم لماذا الجمهور الفرنسي قبل نحو المئة عام تركها للأجيال الأخيرة لتصب عليها سهام نقدها الجارح. انه رسم جيد وفق أفضل التقاليد الفرنسية. على أي حال، أنا مندهش من أن هذا الجمهور لم يميز في هذه الصور شيئاً صغيراً هو، إذا شئنا الدقة، إشارة العبقرية. كيف أمكنهم ان لا يغرموا بصفاء الموديلات، اللائي تذكرهم بموديلات كورو ورفايل؟

أحد النقاد، كما أخبرني أبي، ظن انه تبين في "ديانا" أثرا من إكتشاف الطبيعة هذا، الأمر الذي جعل الباريسيون ينفجرون غضبا بعد عشر

Twitter: @ketab_n

سنوات. كان يتحدث عن نقاء "درجات اللون"، واستخدم حتى تعبير "حب الجسد". تقييم الناقد هذا، أشبع كبرياء رينوار الشاب: (بدأت أتخيل أني كوربيه نفسه). لكنه مع تقدم العمر، كان له رأي مختلف (أحسّ بالفزع من كلمة "جسد"، التي أصبحت مبتذلة. لم لا "لحم"، بما أنهم يقصدونه بهذا التعبير؟ ما أحب هو البشرة، بشرة فتاة شابة، بلونها القرنفلي الذي يدل على أن لها دورة دموية جيدة. لكن ما أحب أكثر هو الصفاء). كان يعود على الدوام للحديث عن (تلك الهبة التي تملكها النساء اللائي يعشن اللحظة. أنا أقصد، بالطبع النساء اللائي يقمن بأعمال البيت أو الأنواع الأخرى من العمل. أما النساء الكسولات فرؤوسهن ملأى بالكثير جدّاً من الأفكار. يغدون مفكرات ويفقدن الإحساس بالصفاء، فلا يعدن ملائمات للرسم. ثم)، تابع قائلا، (تصبح أيديهن خرقاء وعديمة النفع مثل الزائدة الدودية، التي يولع الجراحون الحديثون بإزالتها).

في عام ١٨٦٣ قدّم رينوار "ازميرالدا الراقصة" إلى "الصالون". تم قبول اللوحة، وهو حدث عُدّ انتصاراً برأي العائلة كلها. كتب ادمون رينوار مقالة طويلة عنها، لم يبقَ أثراً منها. لكن رينوار داخله الشك. (شيء حسن أن يتم قبولك في "الصالون"، لكن الأمر كان نتيجة سوء فهم. شعرت مسبقاً أن الرسميين سينقلبون ضدنا عاجلاً أم آجلاً. لكن في تلك اللحظة كان الأمر ما زال موضع شك).

الزيارات الأولى لعائلة شاربنتييه بدأت قبل حرب ١٨٧٠، كما يشهد ذلك بورتريه مدام شاربنتييه الكبيرة، الذي رسم عام ١٨٦٩. في السنة نفسها التقى أبي ارسن هوساي وتيوفيل غوتييه، اللذان ساعداه بطريقة فعالة على "وضع" البعض من مناظره الطبيعية. في واقع الأمر، ان غوتييه هو الذي قدّم رينوار إلى ناشر بارز. ومن ثم إلتقى سيزان (منذ البداية، وحتى قبل أن أرى رسومه، أدركت انه عبقري).

Twitter: @ketab_n

دامت الصداقة بين الرجلين طوال حياتهما، وتواصلت مع أبنائهما. بالرغم من ذلك كان الإختلاف كبيراً بينهما. كان سيزان أكبر بسنتين فقط من رينوار، لكنه كان يبدو أكبر عمرا بكثير (كان يشبه القنفذ). حركاته تبدو مقيدة، كما لو أنه مكسو بقوقعة غير مرئية؛ صوته على حد سواء. كلماته كانت تخرج بإحتراس من فمه، موسومة بلهجة أكسوا العجيبة، لهجة لا تتفق أبداً مع الأسلوب المتحفظ، والمهذب على نحو مبالغ فيه، للشاب الريفي. تحفظه هذا، كان يُكسر أحياناً، فيطلق عندئذ شتيمتيه المفضلتين: "مخصي" و "لا خير فيه". كان وسواس سيزان الدائم أن (لا يدع نفسه تقع في شرك)، فكان حذراً جداً. رينوار، كان العكس تماماً. ليس لأن أبي كان "غرّاً"، فقد كان بعيداً عن الإيمان بالطيبة الشاملة، لكن في رأيه أن تكون دائماً على حذر، هو مضيعة للكثير من الوقت والطاقة. (لا شيء يستحق! فضلاً عن أنه ليس لدي ملكية أو مالاً أخسره). وذهب أبعد من ذلك عندما قال لي بأنه يجب على المرء أن يدع الناس يفيدون منه بأكثر ما يمكن. (إذا لا تقاتلهم إسترضهم)، قال، (حينئذ سيكونون لطيفين. الناس يحبون أن يكونوا لطافا، لكن عليك أن تمنحهم فرصة).

لم يكن سيزان أبداً عضواً ناشطاً جدّاً في مجموعة الأصدقاء الذين كانوا يتجمعون أكثر فأكثر حول مونيه وبيسارو. (كان وحيدا كذئب). لكنه شاركهم أفكارهم وآمالهم. كان يؤمن (بحكم الناس). كان من المهم، بالنسبة له، توصل المجموعة إلى عرض أعمالها، وإقتحام أبواب "صالون مسيو بوغورو"، ومن ثم فإن جدارة "الرسم الجديد" ستفصح عن نفسها. كان نابوليون الثالث، (الذي لم يكن بالشخص التافه)، كما كان سيزان يقول، قرّر إنشاء صالون للمرفوضين. هذا الصالون، لم يلبِ آمال المجددين الشباب، إذ لم يهتم به الجمهور، وتحدّثت الصحف عنه كشيء ابتدعه جلالة الإمبراطور من أجل تسليته الخاصة.

Twitter: @ketab_n

حين قدم سيزان إلى باريس، إعتمد إعتمادا كبيراً على زولا لمساعدته في "إختراق" الوسط الفني. كان هذان الرجلان اللذان جاءا من مدينة ايكس رفيقا مدرسة واحدة. كانا، وهما متكئان على شجرة صنوبر في لوتولونيه، يحلمان معا بباريس، ومعا أنجزا اولى تخطيطاتهما في رسم المناظر الطبيعية وكتبا أولى قصائدهما. صار زولا يُستقبل في منزل شاربنتييه. أما سيزان، فكان بطبيعته متمردا، لم يأبه بدخول المجتمع. كان يفضل رفقة الرسامين الذين عرفهم، وفضل، قبل كل شيء، العزلة في مرسمه الخاص. (أنا أرسم الحياة الساكنة. الموديلات النساء يرعبنني. فهاته الوقحات يراقبنك ليأخذنك على حين غرّة. عليك أن تكون كل الوقت متحفزا للدفاع، وهكذا تفلت منك الفكرة الرئيسية في اللوحة!) كان يأمل بأن (يوصي به صديق صباه لدى الآخرين)، لكن زولا، الذي كان يُعتبر حاميه، لم يكن (في وضع سليم)، إذ كان يقف تماماً مع الرسم الرسمي: (هذا الرسم يعني شيئاً). حين باح له سيزان، ذات مرة، بمتاعبه في (حل مشكلة الحجوم)، حاول أن يقنعه بعبث مثل هذه المساعي. (أنت موهوب. لو تبذل، فقط، جهدا أكبر في التعبير. شخصياتك لا تعبر عن أي شيء). في يوم، إنتاب سيزان الغضب، (وماذا عن عجيزتي؟)، قال له، (هل تعبر عن أي شيء؟). هذا الرد المباغت لم يثر سببا للنزاع، لكنه خلق نوعا من الفتور بينهما. وهذا أرضى زولا، لأنه كان يشعر، إلى حد ما، بالخزي من صديقه، إذ كانت رسوم سيزان رسوم رجل مجنون، ولهجته الغريبة جعلته غير ملائم لإصطحابه في زيارات إجتماعية إلى أي مكان. عندما فقد زولا الاهتمام به، بدأ سيزان يتخلى تدريجيا عن الأمل بأن يكون قادرا على إيجاد من يشتري أعماله. لكنه واصل الرسم برغم كل شيء، مواسيا نفسه بأنه يمكن، ربما، الإعتماد على (الأجيال القادمة التي لا تخطئ الحكم أبدا).

ذات يوم أتى مليئا بالحبور إلى المرسم الذي كان يتقاسمه مع رينوار

Twitter: @ketab_n

ومونيه، وأعلن بروحية عالية بأنه عثر على مشتر اكتشفه في شارع روشفوكول. كان سيزان عائدا من محطة سان لازار ماشيا، بعد أن إنتهى من العمل على موضوع، في سان- نوم - لا- بريتيش، وكان متأبطا منظره الطبيعي. إعترضه شاب في الشارع، وطلب منه رؤية اللوحة. فوضعها سيزان على أسفل جدار بيت، حريصا على أن تكون في الظل لتجنب أي إنعكاس للضوء. فرح الغريب بها، وبالأخص باللون الأخضر للأشجار (يمكنك تقريبا أن تتنسم عبير الطراوة)، قال. (اذا أعجبتك أشجاري، يمكنك الحصول عليها)، أجابه سيزان. (لكن لا يمكنني أن أدفع لك)، فأصرّ سيزان، وذهب عاشق الفن ومعه اللوحة، تاركا الرسام سعيداً.

كان هذا الشاب موسيقياً، يدعى كابانيه، كان يعزف على البيانو في مقهى وكان مفلسا. إصراره على عزف المقطوعات الموسيقية التي ألفها بنفسه سببت له خسارة كل عمل يحصل عليه. كان أبي يعتقد انه صاحب موهبة كبيرة: (مشكلته انه ولد خمسون عاما قبل زمنه). مدحه ريفييه أيضاً، وقال عنه انه موهوب على نحو إستثنائي (ولو انه تجريدي قبل الأوان).

في الفترة التي كان الناس فيها منتشين بمايربير، إدّعى كابانيه بأن بين المؤلفين الموسيقيين هناك إثنان فقط، باخ وهو نفسه. قال لي أبي انه (كان يشبه محامياً ريفياً). من جانب آخر، وصفه ريفييه بالبوهيمي المتوحش، لأنه كان غريب الأطوار في عاداته وفي ملبسه. يمكنني أن أعقب قائلاً أن ريفييه نفسه كان من الطراز البدائي لمحام ريفي. إذا ما بدا أني استرسلت في الحديث عن كابانيه، فذلك لأن اسمه سيرد غالباً في قصص رينوار.

أصبح كابانيه عضواً في جماعة الرسامين الشباب. ذات يوم، عندما سأله الشاعر شارل كرو، بهدف إحراجه، هل يمكن التعبير عن الصمت في الموسيقى، أجابه: (بالنسبة لي الأمر سهل، لكن من أجل هذا علي الإستعانة بثلاث فرق موسيقية عسكرية). وقال في أخرى: (أبي، كان شخصا من صنف نابوليون، لكنه أقل منه جحوشية). في ما بعد، وأثناء حصار باريس، صادف

Twitter: @ketab_n

أن كان ماشيا مع غونيت[٣٦] بحذاء التحصينات. إنفجرت بضع قذائف على بعد مئة متر منهما (ما هذا؟)، قال كابانيه، (قذائف)، أجاب غونيت. (من أطلقها؟)، (البروسيون. من كنت تظن؟)، أجاب كابانيه مع إشارة مبهمة: (كيف لي أن أعرف؟ قد يكونوا الأتراك).

لأن بازيل لم يتخل بالكامل عن حياته الإجتماعية، كان يجلب معه، بين الحين والآخر، واحدا من أصدقائه إلى إجتماعات أصحابه الرسامين في مقهاهم المفضل. القادم الجديد، كان الأمير بيبسكو، الذي كان والداه صديقين حميمين للإمبراطور والإمبراطورة. أظهر إعجابا كبيراً برينوار، واشترى بعضاً من لوحاته، كما ساعده على بيع بعضها الآخر، والأهم من كل شيء (كان يصطحبني للخروج معه بين حين وآخر. فكان هناك وقت علي أن أتهندم فيه قليلاً). لم يكن أبي يؤمن برسام المجتمع، الذي حين تحين الساعة السادسة يرمي عنه سترته القطيفة ويرتدي ثياب المساء، ويذهب في زيارة قصيرة للراقصات في غرفة تغيير الملابس في المسرح، أو يغازل الدوقات، وفي الصباح يتنزّه على فرسه في غابة بولونيا، أو يمارس رياضة المبارزة بالسيف في معهد غاستين رينيت. (وهو ينجز رسومه بين مبارزتين، حين يتوفر الوقت). ولم يكن أيضاً يؤمن بالنوع الفظ من الفنانين، الذي عندما يكون بقرب اولئك الذين يرتدون الحرير والساتان، يلبس هو القماش القطني الثقيل، ويتصنع، مثل ميليه[٣٧] لهجة الفلاحين الغليظة، ليظهر صلته بـ "التربة". التعبير الذي يُطلق على الفنانين "أفظاظ مثل الدببة"، لا ينطبق على سيزان. كان أبي يستحسن فظاظته، مبرراً أياها بقوله، (إنه، على الأقل، إنسان حقيقي، وتعابيره تعكس طيبة ناس الجنوب "الميدي" كلهم). كل واحد

---

(٣٦) (١٨٥٤- ١٨٩٤)، رسام ونقاش فرنسي، واحد من أصدقاء رينوار وأحد موديلاته.

(٣٧) جان فرانسوا ميليه (١٨١٤- ١٨٧٥)، رسام فرنسي، إشتهر بالإحترام الذي أضفاه على معاملة موضوع الفلاحين، الذي ركز عليه منذ عام ١٨٥٠، أهم أعماله «الحاصدون» (١٨٥٧).

Twitter: @ketab_n

من أصدقاء رينوار منحه شيئاً ما كان هو ممتناً منه. بيبسكو، أعطاه أول فرصة لرؤية الأكتاف العارية للنساء في ثياب السهرة الجميلة، أما سيزان فكشف له عن دقة التفكير المتوسطي، ومونيه فتح عينيه على المخيلة الفطرية لناس الأقطار الأوربية الشمالية، أما بيسارو فصاغ بمصطلحات نظرية أفكاره وأفكار أصدقائه. كل من أصدقائه أسهم في خزين الفنى الجمالي الذي كانوا يشتركون به، وبالتأكيد استفاد رينوار منه، وهو الأكثر حسية من البقية. انه سرعان ما تعلم كيف يدع ذاته تتأثر بالآخرين، مع هذا، يبقى في الجوهر هو نفسه. الدمائة هي هبة سيسلي. (كان إنسانا عذبا). النساء بوجه خاص، كن يتأثرن سريعا برغبته المشوبة بالاحترام. لكن الطريق الذي سلكه سيسلي إنتهى بعذاب نفسي، إذ ذهب ضحية دمائته. كانت العاطفة تغلبه لنظرة معبرة عن الشكر، أو حتى لضغطة يد. (لم يستطع أبداً مقاومة تنورة. فلو كنا نمشي في الشارع، نتحدث عن الجو أو شيئاً من هذا القبيل، كان سيسلي يختفي فجأة. بعد ذلك، نكتشف انه كان مشغولا بلعبته القديمة في مغازلة إحداهن).

يجب الاعتراف انه كان ذوّاقا في اختياراته. تذكر أبي واحدة من فتوحاته. كانت خادمة في نزل يقع في طرف الغابة، في ضواحي باريس. (كانت فتاة أخاذة، رسمتها، وكانت تقف أمامي مثل ملاك. لكن سيسلي لم يرض أن يرسم فقط. كانت مجنونة به. لا أعرف كيف آلت الأمور معهما. كنت رجعت إلى باريس قبله، إذ كنت أمرّ بأزمة حينها). نحن نعرف الآن ماذا كانت هذه الأزمة التي أشار إليها رينوار. انها الأزمة التي قادته إلى تهورات معرض١٨٧٤ [٣٨]، وإلى هجوم النقاد والجمهور، والتي أدت في النهاية إلى تأكيد عبقريته.

---

(٣٨) أول معرض من ثمانية أقيم في محترف الفنان الفوتوغرافي نادار، حيث ولدت الانطباعية.

Twitter: @ketab_n

في متحف الفن في كولونيا ثمة بورتريه بريشة رينوار لمسيو ومدام سيسلي، الذي ينقل فكرة عن سلوك سيسلي الأخاذ، ليس فقط تجاه زوجته، بل تجاه كل النساء. التعبير الذي يظهر على وجه مدام سيسلي، وعلى جسدها كله، يفصح، أفضل من أي شرح يمكنني تقديمه، عن سعادتها واعتدادها بذلك الرجل الجسور. كانت،، موديلاً وقفت أمام أبي وأمام زوجها المقبل أيضاً. وكان رينوار يكنّ لها احتراماً عظيماً. كانت لديها طبيعة حسّاسة جداً، وكانت مهذّبة للغاية. احترفت مهنة الموديل لأن عائلتها كانت أُفلست في مغامرة مالية. (وقعت فريسة مرض لا يرحم. كان سيسلّي الروح المخلصة، حيث رعاها بلا كلل، ساهراً عليها وهي راقدة في سرير مرضها. وكم أنفق من مال!). ماتت من ألم مبرح بمرض سرطان اللسان. (وجهها الجميل انقلب كلّه بفعل المرض، وكم صار صغيراً...).

بعض من تأمُّلات أبي، الملوّنة بالإعجاب والسوداوية، قادتني إلى الافتراض بأنه قد يكون على علاقة مع جوديت غوتييه، ابنة الكاتب. كان قدّم لي وصفاً حماسيّاً عن تلك (الأمازونية)، بما فيه وصفاً لمظهرها وهيئتها، وصوتها، وطريقتها في اللبس، وذوقها في الأثاث: (استقبلتني في غرفة مؤثثة بالأسلوب الأندلسي، على أرضيتها جلد أسد. لم تكن تبدو على الإطلاق مثيرة للسخرية في مكان كهذا. كانت ملكة شيبا!). ثم اعترف، بكآبة، بأن المرأة الآسرة جدّاً لا يمكنها أن تكون رفيقة ملائمة لرسّام. (حرفتنا مؤلفة من الصبر والانتظام، ولا يمكن أن تستسلم للجيشان العاطفي للرومانسية).

من معرفتي لرينوار، يمكنني تخمين طبيعة سوء الفهم هذا. كان يكنّ إعجاباً هائلاً لأصالة هذه المرأة، التي كانت أبنة أبيها حقا. جوديت، من جانبها، اكتشفت فيه عبقرياً، يتحلّى بالفتنة التي يبقيها خلف مظهره المتواضع. لكن رينوار، الحكيم بطبعه، عرف أن امرأة مثل هذه ولدت لتقود، لتهيمن. هو نفسه لم تكن له رغبة بالهيمنة، فهو يمقتها بشدة. لكنه أدرك

Twitter: @ketab_n

على نحو تام بأن فرصته الوحيدة لبلوغ هدفه الذي ألهمه بكل كيانه، هو أن لا يكون مهيمناً عليه.

في عام ١٨٦٦، رسم رينوار "نزل الأم أنتوني"، في مارلوت، في الجهة الجنوبية من غابة فونتانبلو. كان يحدّثني كثيراً عن هذا المكان، وعن الزيارات التي كان يقوم بها للقرية مع سيسلي، بازيل، مونيه، فرانك لامي، وأحياناً مع بيسارو، بحيث أنني، بعد وفاته، اشتريت منزلا هناك. واقتدى بي أبن سيزان، الذي استقر في ملكية كانت تعود يوماً إلى جان نيكو، الرجل الذي أدخل التبغ إلى فرنسا في نهاية القرن السادس عشر. المسيرات التي قمنا بها عبر الغابة والأراضي المقطوعة الشجر، حيث تدرّب جماعة المتصلبين في أولى حملاتهم المبكرة، جعلت من السهل علي أن أحدّد بالضبط واحداً من أكثر المواقع أهمية الذي نشأت فيه الانطباعية.

Twitter: @ketab_n

١١

تيودور روسو، ميبه، دياز، دوبنيي وكورو أنجزوا كلهم أغلب أعمالهم في ضواحي فونتانبلو. عاش ميبيه ما يقارب العام في باربيزون، على الجهة الشمالية من الغابة. في ذلك الموقع، على إمتداد السهل من الأراضي المحروثة، رسم فلاحيه العاطفيين، الذين أغاظوا رينوار كثيرا. (صلاة التبشير جعلت الناس يقفون ضد الدين أكثر مما فعلته خطب الكومونة مجتمعة). ثم قال مناقضا نفسه، (كم أنا أحمق، نسيت كم يحب الناس بطاقات المعايدة. كان "المفتاح"[٣٩] المذهب يخيفهم).

دياز أيضاً رسم في باربيزون، ربما في جوار المكان الذي أنقذ فيه، ذات يوم، رينوار من عصبة الشباب المشاكس. كان أبي ومونيه إستكشفا ذلك الجزء من الريف خلال بحثهما عن مواضيع لرسومهما، وكان رفاقهما سألاهما أن يعثرا لهم عن نزل صغير ومريح يمكن الحصول على غرف فيه. قال لهما سيسلي: (لا تنسيا أن تلقيا نظرة على خادمة النزل). قرر الصديقان أن يغادرا باربيزون، (لأنك تصطدم بميليه في كل ركن شارع). كان القرويون فخورون برسّامهم "العظيم"، فكانوا يقلدون مظهر شخصيات رسومه.

---

(٣٩) تفسير رسم أو صورة أو خارطة.

Twitter: @ketab_n

(تماماً مثل الباريسيات، أثناء عطلتهن في بريتاني، اللائي يعتقدن أن عليهن إرتداء قبعة بالدانتيلا إكراما للمظهر المحلي). هذا المظهر المحلي الشهير - (المكتشف دائماً من قبل السياح) - كان واحدا آخر من الأشياء التي يبغضها رينوار. كان يكره المظهر الكاذب، وينتقد على حد سواء الفتاة البريتانية، التي ما أن تنزل في محطة مونبارناس حتى ترتدي مثل الباريسيات. لكن الأعراس الريفية كانت تسرّه، حيث كان الناس، قبل حرب ١٨٧٠، غالبا ما يلبسون الزي المحلي. وكانت أنغام الكمان التي يعزفها الريفيون تثير مشاعره حد الدموع.

كرهه للزيف، بكل أشكاله، امتد إلى فن العمارة. إذ كانت قصور نورمان الريفية والفلل الإيطالية حول باريس تثير حنقه. عارضته بشأن قصر فرساي، فاعترف بأنه تقليد لقصر إيطالي. من دون تردد أعطى تعليلا لهذا التشويه للتقليد المحلي وكل التشويهات من النوع نفسه، من اللوفر إلى قصر بوتسدام.حيث قال انه على مرّ القرون، كل التحسينات والابتكارات جاءت من ايطاليا. لقد إبتدع الايطاليون السقوف، الارضيات الخشبية، الأقفال، النوافذ الزجاجية، الكراسي، شوك الطعام، المداخن، الحرير الفائق الجودة مثل الحرير الصيني، الموساين الذي يضاهي النسيج الموصلي، الموسيقى، المسرح، الاوبرا... بإختصار، كل مظاهر الحياة الاجتماعية تقريباً. فكان من الطبيعي أن يبني لويس الرابع عشر قصرا على طراز البلد الذي كان، تقنياً، أكثر تقدماً. المشكلة تبدأ حين يستغل المعماري تقنية بلده المتقدمة لينسخ المظهر الخارجي لأبنية من عصور قديمة. عندئذ سيجد نفسه أسيراً لتزيينات تنمو على نحو قبيح لأنها لم تعد تخدم غرضاً مفيداً.

رغم إعجاب رينوار بقصر فرساي، لكن كانت له تحفظات بشأنه: (فهو ليس البارثينون). في رأيه، ان أعظم عمارة فرنسية تجسدت في كاتدرائيات شارتر، وفيزولاي، وعلى الأخص لاميزون ديز أوم في كين، وكنيسة تورني.

Twitter: @ketab_n

(هذه الأبنية ليست فرنسية فحسب) قال، (بل هي عالمية). أضيف هنا، أن هذه الإستطرادات حول موضوع العمارة منحته فرصة أخرى للتشهير بفيوليه- لو- دوك، الذي كان، حسب رأيه، أكثر (خطرا) من فكتور هيجو: (التماثيل البشعة الوجوه، التي رممها، هي تماثيل متأوهة بعاطفية مفرطة).

نهاية حياة رينوار، تزامنت مع إزدهار الـ "hostellerie" (المدرسة الفندقية)، أو النوع (الطريف)، المقترب عن تعمد من النزل. لم يصدقني عندما أخبرته عن نجاح هذا الإتجاه المضحك. لذلك قررنا، أنا والبير اندريه[٤٠] وأخي كلود، اصطحابه لرؤية واحد من تلك المعابد البديعة لفن حسن الأكل - (مصطلح آخر أكرهه بشدة). عندما رآها ضحك ساخرا من الديكور المنافي للعقل: السقوف معومة بعوارض خشبية جوفاء، مكوّنة من ألواح رفيعة من الخشب الرقائقي، والجدران مزينة بعوارض مصطنعة من الجص الخشن، مع صدوع وهمية لتظهر القرميد الوهمي خلفها. لكن ثالثة الأثافي كان خازن الخمور. طاقمه الأزرق الذي يرتديه عامل الكرّم الأصلي، والقبعة القطنية، كانا تحفة فنية حقيقية. أصرّ رينوار علينا أن نأخذ قنينة من نبيذ فوسن- روماني، التي تكلف ثروة. كان رينوار يفضل كأساً صغيراً من النبيذ الأبيض. تخلّيه عن السترة الفراك لم يضعف فيه سطوة الشخصية البارزة، فخرجنا بيسر، ونحن نتنفس الصعداء، كما دخلنا.

هذه الوليمة التي استضافنا أبي بها ذكرتني بوجبة طعام، روى لي مونيه انه هو وأبي تناولاها ذات يوم في باربيزون. كان المكان الذي ذهبا اليه ذو مظهر متواضع، لكن كانت لافتة بحروف كبيرة حمراء في الواجهة تفصح عن نوع الزبائن الذين يأمل المالك باستدراجهم اليه: "روستران ديز آرتيست". (كان يجب أن نرتاب بالأمر. فكلمة آرتيست تخفي دائماً شيئاً مريباً).

---

(٤٠) (١٨٩٦- ١٩٥٤)، رسام فرنسي، من أشد المعجبين برينوار، ومن أصدقائه الشباب.

Twitter: @ketab_n

رحبت امرأة عجوز بهم وهما داخلين، قائلة، (أنا وحيدة تماماً. أولادي ذهبوا إلى مولين). كانت السكة الحديد بين باربيزون ومولين أنشئت حديثاً، وجلبت الكثير من السياح لهذا الجزء من غابة فونتانبلو. (هل يمكنك إعداد عجة البيض لنا؟). سألها مونيه. بدأت العجوز التنقيب في المطبخ. كانت تعرج قليلاً وتمشي بألم، لذا إنتظرنا بصبر تحضيراتها التي كانت تجري ببطء. أخيراً نجحت بعد بحث طويل بالعثور على بضع بيضات. (لست متأكدة إن هذه هي البيضات المناسبة، فالأولاد يحتفظون ببعضها للتفقيس). بعد ذلك، فتحت دولاباً قذراً، تتكدس فيه جرار مربى فارغة ومفارش مائدة وسخة، وبقايا قطع من شحم الخنزير. بعد إلقاء نظرة خاطفة على هذا الطعام الشهي، العديم اللون، ساعدها الرسامان بإشعال النار في الموقد. بعد أن أحسّت أن جواً حميماً نشأ معهما، بدأت تفضي إليهما بسريرة نفسها، متحدّثة عن آلامها الشخصية. كانت تحكي بنبرة رتيبة عن الإجهاضات والمولودين الميّتين الذين مرّوا في حياتها. إبنتها، إختصت بالسقم نفسه، وكانت في الواقع تقدم الإستشارة للطبيب في مستشفى مولين حوله. بدأ رينوار ومونيه يحسّان بالكآبة. في النهاية، كان على المرأة العجوز أن تجلس، وأنهى الصديقان إعداد العجة بأنفسهما. في هذه الأثناء، واصلت هي سرد الكارثة تلو الأخرى، والموت بعد الآخر. ما أن بدأا بتناول الطعام حتى تحولت نحو الأحياء: حفيد أحمق، ابن أخت أبله، وأخيرا، ابن تشوه على نحو شنيع في حادث قطار. وجد الصديقان بيضهما تفه المذاق، وشحم الخنزير قاسيا مثل قطعة من لجام حصان. ما إن هموا بالنهوض من المائدة قرفين حتى بدأت العجوز بسيرة جديدة من الرعب، فقررا، كي لا يضيفا بلية أخرى إلى بلاياها، تجرّع الطعام المنفر ببطولة إلى آخر لقمة، ودفعا ثمنه وبدأا برحلتهما إلى مارلوت بأسرع ما يمكن. من حسن حظهما، إن الرسامين في تلك الأيام، كانت لهم سيقان قوية مثلما كان لهم معدات قوية. الأميال التي كان يقطعها رينوار وأصدقاؤه مشياً

Twitter: @ketab_n

على الأقدام، كانت حقاً لا تصدق. أبي، على سبيل المثال، كان يمشي طوال الطريق من باريس إلى فونتانبلو - ثمانية وثلاثين ميلاً ونيّف. وكان يستغرقه يومين، متوقفاً للمبيت في ايسون.

في نزل مدام ماليه في مارلوت، أتيح لرينوار ومونيه العثور على طبخ جعلهما ينسيان الوجبة المغثية في باربيزون. وجدا، أيضاً، أسرّة نوم ممتازة، ومواضيع للرسم (بالكوم، وفي متناول اليد)، وخادمة كانت فتنتها بالتأكيد ستخلب لب صديقهما سيسلي. لم يمض وقت طويل حتى إنضم إليهما سيسلي مصطحبا بيسارو. بعدهما بفترة قصيرة، لحقهما بازيل. وحتى سيزان، الكثير التشكي، وصل، لأنه كان متلهفا للرسم على حد سواء. (تلك الدروب الغابيّة التي لا ينقصها سوى الجنيات).

كان رينوار مهتما بقصة "سيلفان" كولينيه، المحارب القديم في جيش نابوليون، الفران آرمي، الذي إنعزل، من شدة الحزن على هزيمة إمبراطوره، في غابة فونتانبلو بعد عودة الملكية. شيئاً فشيئاً تحوّل من عبادة نابوليون إلى عبادة الغابة؛ من إجترار الأوهام في كور ديز آديو[41] إلى المسيرات الطويلة عبر الغابات، التي لم تكن، في تلك الأيام، مستكشفة سوى من قبل صيادي الحيوانات الوحشية. انه هو، مع بضع رفاق، من شق طريقا جديدة، لا زلنا نستخدمها، وأطلق على الغابة أسماء رومانسية أبهجت سيزان: وادي الجحيم، كهف كوشيوزكو، طاولة الملك، بركة الحوريات، إلى آخره.

أفترض إن نزل الأم أنتوني كان هو الآخر في مارلوت. جورج ريفييه، الذي كان في أيامي يأتي أحياناً لزيارة صهره بول سيزان (ابن الرسام)، كان مقتنعاً بإفتراضي هذا، لكنه لم يستطع تأكيد صحته، لأنه لم يلتق رينوار الا في

(٤١) الباحة الخلفية للوفر، حيث ودّع نابوليون جنوده.

Twitter: @ketab_n

العام ١٨٧٤. غابرييل، التي انضمت إلى محيط العائلة في وقت متأخر جداً، لم تتمكن من مساعدتي في هذا الأمر. للأسف، كنت نسيت أن أسأل مونيه، وبقي الآن قلة قليلة من أولئك الذين كانت لهم صلة بحياة رينوار...

كانت مارلوت، حينذاك، مؤلفة من بضعة بيوت وضيعة، تتجمع حول مفترقات طرق تتجه من فونتانبلو ومونتيي نحو بورون. كانت الغابة الفعلية تبدأ بمجموعة المنازل على الجهة الشمالية. وتلك التي على الجهة الجنوبية، كانت تشرف على وادي لوانغ، ونهر صغير مبهج، وأشجار سامقة، رشيقة تظلل ضفته. كان كورو قد خلّد ضفاف لوانغ. كما رسم رينوار وأصدقاؤه الجزء الكبير من لوحاتهم هناك. لقد صاعدت مارلوت، حتى بأكثر ما يمكن، إحساسهم بالواقعية الشعرية، كما عززت همتهم على عدم العمل أبداً سوى من الطبيعة. مع هذا، لم يكن أحداً منهم مهيّأ بعد لاتخاذ الخطوة الحاسمة التي ستقودهم في النهاية إلى L'impressionnisme (الإنطباعية). ذكريات عديدة، وتقاليد عديدة، كانت لاتزال تتضارب مع رغبتهم العمل من الطبيعة وحدها، لكنهم، فقط بعد حرب ٧٠، صاروا قادرين، حسب عبارة مونيه، (على إيقاع الضوء في الشرك، ورميه مباشرة على قماشة اللوحة).

في الصورة التي رسمها رينوار في نزل الأم أنتوني، من السهل التعرّف فيها على سيسلي، في وضع الوقوف، وبيسارو، الذي يقف مديراً ظهره. الرجل ذو الوجه الحليق هو فرانك لامي. في الخلفية، يمكن رؤية مدام أنتوني، بينما في الواجهة، من جهة اليسار، الخادمة نينا. الكلب المهجن الراقد أسفل الصورة، كان يدعى توتو. كان قد فقد واحدة من قدميه في حادث عربة. حاول أبي أن يصنع له رجلا خشبية، لكنها لم تلائم توتو، الذي كان يتدبر أمره جيدا بثلاثة أرجل.

مارلوت، الآن، أفسدت بالفيلات المزوّقة، والقلاع المبنية بالحجر

Twitter: @ketab_n

الأصفر، التي تمثل في تكاثرها مثل الفطر في كل الضواحي الباريسية الصغيرة والكبيرة. على أي حال، القلة الباقية من بيوت الفلاحين تجعل الحج إلى مارلوت يستحق العناء. لا تزال هناك بضع ضيع، كان رينوار مولعاً ببواباتها المغطاة بأقواس، وأفنيتها الجميلة الواسعة والمرصوفة بالحجر اللوحي، الذي سرقه الفلاحون من الطريق الملكي العام إبان الثورة. لم يكتفوا باستعماله في الأفنية، بل استخدموه أيضاً في تشييد أبنية إضافية لدورهم. كانت من الحجر الرملي المنقّر، وغالباً ما تنشق بتأثير البرودة. ذلك هو السبب الرئيسي الذي جعل البيوت في مارلوت مكسوة بطبقة من الجص. أحبّ رينوار الجدران المطلية بالجص الوردي والأزرق، قبل أن تصبح هذه الألوان علامة على (سمو المنزلة) لترك انطباع لدى الجيران.

فندق ماليه الحالي، الكبير إلى حدٍّ ما، هو بالطبع ليس الفندق نفسه الذي أقام فيه الرسّامون في السابق. المبنى الأصلي ما زال موجوداً. حين كنت أسكن في مارلوت، كان المكان يعود إلى مسيو غييو، الذي كان يملك خيولاً وعربات تأجير. لم يزل المبنى بفنائه الداخلي سليماً بعض الشيء، على ركن شارع صغير يؤدي إلى الحقول. لو لم تكن هناك بضعة قدور فخارية لزهور الجيرانيوم في نوافذ الفندق الجديد واللوحة الإعلانية لشراب الأبيرتيف، لكان بوسعنا تخيل أنفسنا عائدين إلى شباب رينوار. أنا نفسي، انغمست في هذه اللعبة الصغيرة، متوقعاً في أي لحظة رؤية شخص في رداء الحرفي يحمل صندوق أصباغ، وحامل وقماش لوحة، قادماً من الركن بخطوات رشيقة. ويعجبني تخيله يبرم لحيته الصغيرة الخفيفة، بحركة عصبية أعرفها جيداً، ملهما بالجنيات التي ترافقه في الغابة الظليلة.

ما الذي ألهم رسّامو القرن التاسع عشر بمثل هذا الهوى لغابة فونتانبلو؟ المدرسة الرومانتيكية، تنسب الفضل إلى الاكتشاف "الأدبي" للطبيعة، الذي بدأ في القرن الثامن عشر. كانوا لا يزالون يشعرون بحاجتهم إلى طبيعة

Twitter: @ketab_n

"درامية". كان رينوار وأصدقاؤه في سبيلهم إلى إدراك ان العالم، حتى في أكثر سيمائه إبتذالا، هو معجزة دائمة. (إعطني شجرة تفاح في جنينة ريفية، هذا يكفيني تماماً، فأنا لست بحاجة إطلاقا إلى شلالات نياغرا). مع ذلك، كان لا بد لأبي من الاعتراف بأن الجانب الدرامي من الغابة سحره هو ومجموعته، كما حدث تماماً لمعاصريهم. لكن، بالنسبة لـ "المتصلبين"، هذا النوع من الدراما، هو بمثابة نقطة الإنطلاق للتقرب أكثر من جوهر الأشياء. خلف التأثيرات الواضحة لأشعاع الضوء النافذ من أوراق الشجر، اكتشفوا جوهر الضوء نفسه. في تفسيرهم لمشهد الغابة، أقصوا كل التأثيرات العاطفية، وكل جاذبية ميلودرامية، بالإضافة إلى كل رواية لقصة، تماماً كما تجنبوها في أعمالهم التي تصور كائنات بشرية. شجرة رينوار لا (تفكر) أكثر مما يفعل موديله. هذه الصرامة لا تمنع رينوار ورفاقه من الإعجاب بـ (الجذوع المستقيمة لشجرة درّاق كبيرة، وبالضوء الأزرق يخفق خلال الأوراق مشكلا هالة حولها. بإمكاننا تقريبا أن نظن أنفسنا في عمق البحر وسط صواري المراكب الغارقة). (إستخدمت، أنا نفسي، كلمات أبي هذه بالضبط في مسرحيتي "اورفيه").

خلف هذه المظاهر الأدبية للطبيعة، كان رينوار بصدد إكتشاف طريقه في رؤية المظهر الجوهري للأشياء. كانت حركة غصن، لون ورقة شجرة، تُراقب بنفس العناية المفرطة، كما لو كان يتم فحص هذه الظواهر من داخل الشجرة نفسها. أعتقد أن هذه هي واحدة من التفسيرات المحتملة لعبقريته. انه لم يكن يرسم موديلاته من الخارج فحسب، بل كان يتماثل معها، وبالتالي رسمها كما لو كان يرسم صورته الذاتية هو نفسه. أعني بكلمة "موديل" بالطبع أي موضوع، سواء كان زهرة أو واحدا من أطفاله. منذ بداياته، شرع رينوار بهذه القصة الطويلة من تشربه بموضوعه، التي وصلت إلى حد التأليه في أعماله الأخيرة (صدقني كل شخص بإمكانه أن يرسم. بالطبع، من

Twitter: @ketab_n

الأفضل أن يرسم فتاة جميلة أو منظراً طبيعياً. لكن كل شيء قابل للرسم).

كان رينوار مولعاً بالحكايات الخرافية. لكنه لم يكن بحاجة إلى أن يعرف قصة بيرّو في حكاية "جلد الحمار"، كي يكسو موديله برداء من الضوء. بالنسبة له، كانت الحياة اليومية حكاية خرافية ليس لها نهاية: (إعطني شجرة تفاح في جنينة ريفية...).

حين كان يرسم يغدو مأخوذا بموضوعه بالكامل، بحيث لا يرى شيئاً آخر ويفقد الوعي بما يدور من حوله. ذات يوم طلب منه مونيه، بعد أن نفدت سجائره، سيجارة. لم يحر رينوار جواباً، ما دفع صديقه إلى تحسس جيبه، حيث يضع صديقه كيس التبغ. حين مال عليه، لامست لحيته وجه أبي، لكن رينوار بالكاد لاحظ ذلك. وعندما رفع نظره، قال، (آه، هذا أنت، ها؟) ثم عاد للرسم.

مثال آخر على انهماك رينوار، حدث في غابة فونتانبلو. (أيائل وإناث ظبي فضولية مثل البشر). اعتاد الغزال على الزائر الصامت فوقف يتأمّله أمام حامل اللوحة، وقام بحركات صغيرة كما لو يربت على سطح اللوحة. ظلّ رينوار وقتاً طويلاً غير واعٍ بوجوده، لكنه حين تراجع إلى الخلف ليقوّم تأثير ما في رسمه، فرّ الغزال مذعوراً، واختفى بوقع حوافره على الأرض الطحلبية.

من حماقته، جلب لهم أبي، ذات يوم، قطعاً من الخبز، ومذ ذاك لم ينعم بالسلام أبداً. (كانوا حولي طوال الوقت، يحكون أنوفهم بي، ينفثون أنفاسهم على رقبتي. ومرة، انتابني غضب حقيقي، فصرخت بهم، "هل ستدعوني أرسم أم لا؟").

ذات مرة، وبعد أن ثبّت حامل لوحته في فرجة في الغابة، ضايقته سحابة غيرت الضوء على لوحته. تفاجأ بأن رفاقه المألوفين لم يكونوا هناك. ساءل نفسه إن كانوا إبتعدوا بسبب واحدة من حملات صيد الأيائل المقززة، التي

Twitter: @ketab_n

كانت شائعة بين الطبقات الراقية: (أولئك البلهاء بأردية الصيد الحمراء! أود لو أطلق عليهم الرصاص جميعهم! لو كان هناك جحيم، فسيُحكم عليهم بأن يطارَدوا من قبل غزال إلى أن ينفقوا من الإنهاك!). عندما كان الحديث يدور حول الألم الجسدي، للحيوانات أم للبشر، كانت مشاعره تثار جدّاً إلى الحد الذي لا يحتمل فيه مواصلة الحديث.

اكتشف رينوار عاجلا سبب إختفاء غزلانه. فقد سمع صوت خشخشة في الدغل قريبا منه، فرأى رجلا غريبا يمشي بخطوات مضطربة. بدا المتطفل خائفا بعض الشيء، عليه أسمال بالية غطاها الوحل، وعيناه متقدتان من الأرق، ومشيته متعثرة. تناول رينوار عصاه، ظانا انه يواجه مجنونا هاربا، وتهيأ للدفاع عن نفسه. عندئذ توقف الغريب فجأة، ليقدم له بضع نصائح عملية: (لا ترفع عصاك أبداً أعلى من رأسك، لأنك بذلك ستعطي مهاجمك الفرصة بأن يطعنك في البطن. إستخدم عصاك مثل السيف. بطعنة محكمة ستفقده صوابه، وسيمنحك وقتا للهرب).

متى ما خرج رينوار من عالمه، عالم الضوء والشكل ـ العالم الحقيقي الوحيد بالنسبة له ـ فإن سلوكه تجاه مشاكل الحياة، يبدو بغتة ساذجا بإفراط في نظر أولئك الذي يخضعون للسلوك السائد.

لكن لنعد إلى مشهد غابة فونتانبلو. وقف الغريب على بعد بضع خطوات من أبي، وقال في صوت مرتعش: (ساعدني أرجوك، مسيو! أرجوك! أنا أموت من الجوع!). كان الرجل صحفيا، تحول ليصبح من أنصار الجمهورية، وكان مطاردا من قبل السلطات الإمبراطورية. كان تدبر أمره بالهرب عن طريق الشقة التي تجاور شقته، عبر النافذة، ثم نزل هاربا من السلّم. قفز في أول قطار مغادر محطة دو ليون، ترجل في موريه- سير- لوانغ. بعد ذلك، ظل يطوف في الغابة لمدة يومين، بلا طعام. أخيرا، قرر أن يسلم نفسه.عاد

Twitter: @ketab_n

رينوار إلى القرية، وجلب للرجل رداء فنان وعدة رسم. (هاك، سيظن الناس أنك واحد منا. لا أحد سيكلف نفسه بتوجيه أسئلة اليك. الفلاحون يروننا بإستمرار، ولم يفكروا بالتعرّض لنا). قضى الرجل، الذي كان اسمه رول ريفو، عدة أسابيع مع الرسامين في مارلوت. أشعر بيسارو أصدقاء الهارب في باريس، فدبر هؤلاء أمر رحيله إلى انكلترا، حيث بقي حتى سقوط الإمبراطورية الثانية.

هذا هو الجزء الأول من القصة. وهنا تتمتها: مرّت سنوات عدة. فكانت الحرب، الهزيمة، وفرار نابوليون الثالث. سأصف الآن كيف كانت حياة رينوار أثناء هذه الأحداث. عاد إلى باريس قبل نهاية الكومونة.

انتصار كوربيه[٤٢]، الذي جعل منه شخصية سياسية بارزة، وهدم عمود فندوم، الذي إعتبره الرسام ذروة ما وصل اليه في حياته، لم يلويا رأس زميله الشاب. شكل الحكم، كوموني كان، أم إمبراطوري أو جمهوري، لا يمكن أن يبدد الضباب المنتشر بين الطبيعة وعيون الناس. لذلك واصل عمله بجهد بالقضية الوحيدة التي كانت تهمه، وهي محاولة تبديد ذلك الضباب الكابح. كان يرسم من دون إنقطاع. ذات يوم، بعد أن نصب حامل لوحته على ضفة نهر السين، وقف بعض من جنود الحرس الوطني ليشاهدوا عمله. لم يعرهم رينوار اهتماماً. كان الجو رائعا، وشمس الشتاء الشاحبة تنعكس على صفحة الماء، فتكشف عن نسق لوني من الذهبي والأصفر، اللذين لم ينتبه اليهما من قبل أبدا. في البعيد، إنفجرت قذائف، أطلقها جنود قوات فرساي، وسقطت على حصن موت، لكن الصوت لم يكن قويا بما يكفي ليغطي على صوت إرتطام ماء النهر بالرصيف. فجأة، جال في رأس واحد من الحرّاس بأن ثمة ما يثير

---

(٤٢) غوستاف كوربيه (١٨١٩ - ١٨٧٧)، رسام فرنسي، رائد المدرسة الواقعية في الرسم في القرن ١٩، من أبرز رجال الكومونة.

Twitter: @ketab_n

الشبهة بشأن هذا الرجل، الذي يلطخ اللوحة بإشارات غريبة. لا يمكن أن يكون بالتأكيد فتانا عبقريا. لا بد انه جاسوس. وصورته ما هي الا خريطة لمنطقة السين لمساعدة العدو في حركته التالية ضد المدينة. نقل الجندي، الذي نصّب نفسه ستراتيجيا عسكريا، شكوكه إلى حارس آخر، فسرعان ما إنتشر الخبر مثل النار في الهشيم. تجمع حشد، وإقترح أحدهم رمي رينوار في النهر. (لم أكن شديد اللهفة إلى حمام بارد، لكن المقاومة لا تجدي نفعا. فبالرغم من كل شيء، الغوغاء لا عقل لهم).

كان رجال الحرس الوطني مع فكرة إقتياد (الجاسوس) إلى مبنى البلدية في الدائرة السادسة عشر، وإعدامه هناك. (ربما حصلنا منه على بعض المعلومات المهمة). سيدة كبيرة في السن من الحشد طالبت بإغراقه في النهر. (نحن نغرق القطط الصغيرة)، قالت، (وهن لسن مؤذيات مثله)، لكن الحرس نفذوا ما أرادوه، وتم سحب أبي إلى المبنى البلدي، حيث فرقة الإعدام في الواجب طوال اليوم. بينما كان رينوار مقيدا إلى المكان الذي سيعدم فيه، لمح الرجل الذي كان قد ساعده قبل سنوات عدة في مارلوت. بضربة حظ، حدث أن مسيو ريغو كان مارّا في اللحظة المناسبة. كان في كامل ملابسه النظامية، والوشاح الثلاثي الألوان على خصره، يتبع جنوده، وكلهم متألقون على حد سواء. أفلح رينوار بجذب إنتباهه، فأسرع رول ريغو اليه وعانقه. فجأة، تغير سلوك الغوغاء، وأقتيد أبي، ويده بيد مخلصه، بين صفين من الجنود بوضع تحية السلاح، إلى شرفة تطل على الساحة، التي كانت غاصّة بالناس الذين حضروا ليشهدوا إعدام الجاسوس. قدمه ريغو إلى الحشود. (الآن، أيها المواطنون)، خطب قائلاً، (دعونا ننشد المارسيليز تحية للمواطن رينوار!). بإمكاني تخيل أبي، متكئاً على الشرفة، تصدر منه حركات خجولة رداً على الهتافات الحماسية.

استغل رينوار هذه المناسبة ليطلب من صديقه ورقة عدم تعرّض، للذهاب

Twitter: @ketab_n

إلى رؤية عائلته التي كانت قد لجأت كلها إلى البيت الريفي في لوفيسيان. قبل إنصرافه، اسر له ريغو بكلمة تحذير. (لو شاء سوء الحظ ووقعت في أيدي قوات فرساي، تأكد من أن لا تدعهم يرون هذه الورقة. فهم سيطلقون النار عليك في المكان نفسه). كان صديق رينوار، بيبسكو، له نفوذ مؤثر بين الجانب المعارض. حين علم أن أبي سيغادر إلى لوفيسيان، ذهب اليه وأعطاه ورقة عدم تعرّض من عصبة فرساي. وجد رينوار جذع سرو مجوّفا، في حديقة مهجورة، قرب خط التماس بين منطقة الرجعيين ومنطقة الثوريين. وهكذا، كان كلما أراد عبور (الحدود)، أخفى في الشجرة الورقة التي تضرّه وأخذ الأخرى التي يحتاجها. كلما ذكر أبي هذه الحادثة، التي كادت أن تنتهي بكارثة، لا ينسى الإستشهاد بمقطع من لافونتين:

Le sage dit, suivant les gens: Vive le roi, vive la Ligue![٤٣]

هدير المدافع لم يتوقف. لكن هوى رينوار للرسم كان أقوى من حذره. فكان ينجز لوحة على موديل في باريس، كما كان يرسم عددا من المناظر الطبيعية في لوفيسيان. (الحظ السيئ في الأمر، كان تغير الضوء بسرعة كبيرة!).

(٤٣) (قال الحكيم، تبعاً للناس: عاش الملك، عاشت العصبة!)

Twitter: @ketab_n

١٢

الفصل الخاص بروول ريغو قادني إلى موضوع الكومونة، بينما أغفلت حرب ١٨٧٠. الهزيمة الوطنية لم تؤثر على مصير رينوار أبدا. كانت أثرت، في الواقع، على عدد قليل من الناس، من بينهم الإمبراطور والسياسيون الذين كانوا وراء إندلاعها. لقد أدت فقط إلى تكريس عبادة العجل الذهبي (المال)، إله القرن التاسع عشر غير المتوّج. كان الناس، في ذلك الوقت، يدعونه إزدهارا. العهد الذهبي للسماسرة، والبائعين والمشترين، والتجار الدهاة، كان قد بدأ الآن. ما لبث تجار اللوحات أن باعوا محالهم ونصبوا لأنفسهم غاليريهات. سرعان ما فسحت أرستقراطية كبار الصناعيين، التي حلت محل طبقة النبلاء، الطريق إلى الصفوة من تجار البضائع المنظمين جيدا.

بالنسبة لأبي، كان الأمر كله يبدو طبيعيا. (لدينا متعة ممارسة الرسم)، قال، (وإذا صرنا، علاوة على ذلك، مكسوين بالذهب، فستكون الحياة أكثر من رائعة). كان يتحدث عن حرب ١٨٧٠ ليبرر بشكل رئيسي سياسة "الفلينة" مرة أخرى. لا يوجد ثمة تبجح في روايته لسنوات الحرب هذه، بل بالعكس، كانت مشبعة بالسوداوية، لأن ذكرياته ارتبطت بخسارة عظيمة.

بالرغم من أن رينوار أُستثني في السابق من الخدمة في الجيش، لأسباب

Twitter: @ketab_n

شرحتها، لكن كان عليه أن يذهب هذه المرة إلى مكتب التجنيد في اوتيل ديز انفاليد، إذ رأت السلطات انه صالح للخدمة. عندما علم الأمير بيبسكو بذلك، حاول إقناع رينوار بقبول منصب في طاقم الجنرال دو باريل، الذي كان واحداً من ضباط المدفعية فيه. (يمكنك أخذ عدة الرسم معك، وسيكون لديك الكثير من الفرص لاستخدامها. تلك النساء الالمانيات بشعورهن الشقر، وخدودهن الوردية، سيكونن موديلات رائعات. برلين، بالطبع، ليست مسلية كثيرا، لكننا قد نحتل ميونيخ، ونسبح في البحيرات ونشرب البيرة اللذيذة!). لكن أبي كان صلباً جداً، واضطراره للذهاب إلى الحرب لم يكن يهمه أبداً. (لا بد من الاعتراف بأني مرتعب من إطلاق النار، لكني لا أريد لأحد آخر أن يأخذ مكاني في جبهة القتال بينما أنا أرسم في طاقم الجنرال دو باريل. إذا ما حدث أن قتل الشخص الذي حل محلي، فإن الذنب سيظل يلاحقني مدى العمر. أخبرت بيبسكو بأني سأترك لقدري أن يقرر لي إلى أين أُرسل).

بازيل، على العكس من رينوار، قبل عرض بيبسكو، ليس لأنه اراد أن يتفرغ للرسم بينما رفاقه الجنود يطعنون بالحراب، بل لأنه سيتسنى له رؤية نفسه يعدو فوق فرس جميلة، مندفعا بعنف عبر وابل الرصاص، حاملا رسالة مهمة قد تقرر مصير المعركة. رينوار كانت لديه شكوكه. (البروسيون هزموا النمسويين، ومن حكم معرفتي بالنمسويين، نحن نشبههم كثيراً).

هكذا جرف التيار "الفلينة"، أولا إلى فوج كوراسييه. لكن هيئة أركان الحرب كانت لتوها قررت زيادة وحدات الفرسان. (بهذا سندخل برلين في وقت أسرع). إذاً، كان يجب أن يتم تدريب الخيول. وبمنطق مثير للإعجاب، اشتهر به الجيش، أُرسل أبي، الذي (لم يضع أبداً عجيزته على ظهر حصان) إلى مركز تدريب الفروسية في بوردو. ومكث هناك وقت الحرب، بعيداً عن أصوات الرصاص الذي يخمد همته.

Twitter: @ketab_n

عند وصوله إلى بوردو، إعترف لمارشال مقر الفرسان بأنه لا يعرف شيئاً عن ركوب الخيل، (مجازفا بنقلي إلى صف المشاة، لكني أردت أن أكون صادقا)، فأرسله هذا إلى الملازم، الذي حوّله بدوره إلى النقيب. على الأقل لم يبد النقيب مندهشا. (ما هي حرفتك؟)، سأله. (رسام) أجاب أبي. (أنت محظوظ لكونهم لم يضعوك في سلاح المدفعية). كان رجلا طيبا، فارسا بالفطرة، إذ كان يحب الخيول، وكره فكرة انتزاعها منه قريبا لترسل إلى (المجزرة التي لا نفع فيها). كانت إبنته تهوى الرسم. (بإمكانك أن تعطيها دروسا)، قال لأبي. فكر أبي انه ربما تعلم منها ركوب الخيل. (انها لفكرة!).

لحسن الحظ، أثبت أبي انه ماهر في الفروسية. وفي بضعة أشهر بات فارسا تماماً. أعطاه النقيب أكثر الخيول جموحا ليدربها. (رينوار يروضها بشكل جيد جداً. فقد تركها تفعل ما تشاء، وفعل هو أخيراً ما أراد). كان الفارس الشاب يستخدم مع الخيول الطريقة نفسها التي استخدمها مع موديلاته، (قضيت وقتا رائعا. كان النقيب يعاملني كفرد من العائلة. بينما كانت ابنته ترسم، كنت أنا أرسم لها بورتريها. كانت لها بشرة تثير الإعجاب. كنت أتحدث معها عن أصدقائي في باريس، وما لبثت أن غدت أكثر ثورية مني في أفكارها حول الفن. حتى انها رأت وجوب إحراق لوحات مسيو ونترهالتر[٤٤]).

نُقل النقيب إلى تارب، فأخذ معه أبي، الذي صار متحمساً أكثر فأكثر لمهنته الجديدة. (عليك أن تعرف ان تارب تستولد الخيول، ومن أفضل الأنواع، وهي، في رأيي، قوية، جديرة فقط بالدم العربي كي تكون أصيلة. واحد منها سبب لي متاعبا. كنت حين أمتطيه، يحتال عليّ بالاتكاء بكل ثقله

---

(٤٤) فرانز كزافييه ونترهالتر (١٨٠٦-١٨٧٣) رسام البورتريه المفضل لدى العائلة المالكية في تلك الأيام.

Twitter: @ketab_n

على جدار مدرسة الفروسية، كما لو انه يحاول أن يكسر رجلي. حاولت معه السوط في البداية، ثم الدلال، وبعده السكر، لا شيء نفع. لا غرابة في الأمر، إذ كانت لديه جبهة فكتور هيجو!).

حالما سُرّح من الجيش، عاد رينوار إلى باريس ليجد نفسه وسط الكومونة. كان كل أصدقائه تقريباً غادروا العاصمة. بقي قلة منهم فقط، بينهم بيسارو وغونيت، وبالطبع الموسيقي كابانيه، الذي كان يعيش يومه فقط، فلا يمكنه من تدبّر نفقات السفر. من خلالهم علم أبي بموت بازيل. كان صديقه قُتل، ويا للسخرية، بعد أن باتت هزيمة الفرنسيين وشيكة. لم يمت على نحو رومانسي، وهو يعدو بفرسه في ساحة معركة دولاكروا، بل أثناء الإنسحاب في طريق موحل في بون لارولاند. كما حدث، قبل أيام منه، مع بيبسكو الذي، لحسن الحظ، أصيب فقط بجراح، وأخفاه الفلاحون في حظيرة، ورعوه حتى تماثل للشفاء.

كانت لدى رينوار صلات عدة مع الثوريين الكومونيين. نحن نعرف كم كان يحترم كوربيه، مع ذلك، رفض أن يتبوّأ أي منصب رسمي. كان لا يزال يتبع فلسفة "الفلينة"، وفوق كل شيء، العرف الذي يقضي بأن مهنة الرسام هي الرسم فقط. (ذهبت لرؤية كوربيه أكثر من مرة. لم يكن يشغل تفكيره سوى عمود فندوم. تتوقف السعادة البشرية على تدميره). قلّد لثغة كوربيه في الكلام، (انه الشيطان الرجيم، ذاك العمود!). كان رينوار كارهاً للاسترسال في الحديث عن تلك الفترة، إذ إكتأب حين خطرت له ذكرى بازيل، (ذاك الفارس الكريم، النقي القلب، رفيق شبابي!)، وأيضاً أحسّ بالصدمة، لأنه أثناء الكومونة، وخصوصاً بعدها، (بالغوا بالإعدامات). كان يحب الحياة كثيراً، لكنه لم يخش مشهد الموت. (شجعان، اولئك الكومونيون. كانت مقاصدهم نبيلة. لكن لا تلعب دور روبسبير مرة ثانية. كانوا متأخرين ثمانين عاماً عن زمنهم. وما الداعي لإحراق التويلّري؟ لم يكن شيئاً مهما، لكنّه على الأقل أقل زيفا من أشياء كثيرة أقيمت بعده).

Twitter: @ketab_n

في لوفيسيان، كانت ليزا تدافع عن قضية لويز ميشيل، إرهابية مسؤولة عن إضرام النار في مبان كثيرة في باريس. برغم أن أبي ما كان يحب أن يبدو ساخرا، لكنه، ذات يوم، وهو يتهيأ للعودة إلى باريس، سأل ليزا إن كانت ترغب بالذهاب معه لرؤية مدام ميشيل. (سيعرّفك كليمنسو عليها)، قال. لكن ليراي إعترض صائحا، (مكان المرأة في البيت). بعدها، ظلت العائلة لوقت طويل تماحك ليزا لأنها أصبحت (ثورية غير عملية).

في النهاية، صُفيت الكومونة، وسيطرت عصبة فرساي على باريس، وتواصلت الإعدامات على يد الرجعيين، الذين نافسوا مقترفي محاكم الشعب. (الإعدام الوحيد، الذي يمكن أن أقبله، هو إعدام ماكسميليان في لوحة مانيه. جمال اللون الأسود المتدرج يعوّض عن وحشية الموضوع).

أُعتقل كوربي، وأُشيع بأنه سيعدم رميا بالرصاص. لا أحد يعرف في ما إذا تدخل صديقه بيبسكو بناء على طلب الرسام، لكن على الأرجح أنه فعل ذلك. قبل الانتهاء من الحديث عن الكومونة، لا بد لي من الاستشهاد بواحدة من ملاحظات رينوار. (كانوا مجانين، لكنهم كانوا يحملون شعلة صغيرة في داخلهم لم تنطفئ أبداً). لم يعش طويلاً بما يكفي ليرى الشعلة وقد تحولت إلى نور معتم.

مقهى غوربوا، حيث كان يتجمّع الكثير من الرسّامين حول مانيه، بعد ١٨٧٠، كنت أشرت إليه سابقاً في أحاديثي مع أبي. من جانب آخر، كان غالباً ما يذكر مقهى نوفيل آتين. أخذني مرة إلى هناك لتناول كأس من الشراب، قبل الحرب العالمية الأولى. القوّادون والبغايا من البلاس بيغال، كانوا حلوا محل مانيه وسيزان وبيسارو. حاولت أن أتخيل فان خوخ وأخيه في ذلك المكان، يستمعان إلى غوغان وفرانك لامي يتحدثان عن تقنية الرسم بالشفرات. من الصعب علي أن أتصوّر الفنانين الملتحين الشباب، التوّاقين من القرن الماضي،

Twitter: @ketab_n

خلف الوجوه الحليقة الوقورة والمنهكة لرواد المقهى الجدد. إنحطاط تام كان قد بدأ، سقوط نهائي. مقهى النوفيل آتين (لحسن الحظ هو الآن تحت اسم مختلف)، كان مؤثثا وأعيدت زخرفته، وغدا راندیفو اللوطيين. مع هذا، فهذا المقهى، المسكون بأرواح مشاهير الماضي، لم يقدَّر له أن يبقى قائما. آخر المحاولات لإنقاذه، كانت تحويله إلى حانة ستربتيز، حيث بإمكانك أن تشاهد عشرين فتاة عارية بسعر بطاقة فيلم. كانت الفتيات المسكينات يسرن بتمهل، عارضات مفاتنهن المستهلكة، في البقعة نفسها التي كان يتردد عليها في ما مضى روّاد المدرسة الفرنسية، التي طهّرت العري وحرَّرته من كل السِّمات الداعرة. أتساءل أحياناً ماذا كان سيفكر رينوار. لكني أعرف ما سيكون تعليقه: (للمكان الكثير من التيارات الهوائية. المسكينات، بالتأكيد، سيمتن من البرد).

أكثر النقاشات المثيرة عن النوفيل آتين، كانت تدور في الإجتماعات التي تعقد في بيت شاربنتييه، حيث كان النشاط الإجتماعي الرئيسي لأبي قبل الزواج. كان على صلة جديدة بهذه العائلة، حيث رسم والدة شاربنتييه في عام ١٨٦٩، لكن خشيته من (فرض نفسه عليهم وأن يوصم بالوصولي) جعلته ينقطع عن زيارتهم. إلتقاهم ثانية عقب معرض نظمه مع بيرث موريسو وسيسلي في لوتيل دروو[٤٥]، بعد بضع سنوات من حرب ٧٠. بريث موريسو، كانت صهرة مانيه، وصديقة حميمة لمسيو شاربنتييه. حضر الناشر الشهير إلى المعرض، واشترى لوحة رينوار "صياد على ضفة النهر" مقابل مئة وثمانين فرنكا. عند مغادرته المعرض دعا أبي لحضور أمسيات مدام شاربنتييه. كان صالونها شهيرا، وبإستحقاق، لأنها سيدة عظيمة حقا، ونجحت بإعادة الحياة إلى أجواء الصالونات العريقة في الماضي. كل الأشخاص المرموقين في

---

(٤٥) غاليري ومزاد فني كبير.

Twitter: @ketab_n

عالم الأدب، كانوا يحضرون لقاءات الجمعة تلك. نشر زوجها أعمال أفضل المؤلفين الشباب، واحتضن كتّاب المدرسة الطبيعية، كما الرومانسيين الجدد. زولا، موباسان، آل غونكور، ودوديه، كانوا بين مرتادي المنزل المنتظمين. حتى فكتور هيجو كان يحضر بين الحين والآخر. شاربنتييه، كان بلا جدال في صف الرسامين الشباب، حتى قبل أن يُعرفوا بالإنطباعيين. من الشخصيات البارزة بين الضيوف كان غامبينا وكليمنسو وغيفروي، كل هؤلاء الذين كانوا ضد الإمبراطور، ومكماهون.

أسس شاربنتييه جريدة دعاها "لا في مودرن" التي شغل فيها، في ما بعد، عمي ادمون منصب مدير التحرير. كان هدفها الرئيسي مناصرة قضية الرسم الجديد، كما أنه ساعد على إقامة غاليري لأعمال الإنطباعيين المقبلين. لسوء الحظ، أثبتت المغامرة انها مكلفة جداً، وتعين عليه إغلاق المكان.

العلاقات الحميمة بين رينوار وآل شاربنتييه، تظهر واضحة في رسومه لهذه الأسرة. إذ وجد لا متعة التعرف على هؤلاء الناس الرائعين من الطبقة البرجوازية وحسب، بل والبهجة في رسمهم. (مدام شاربنتييه تذكرني بنسائي اللائي أحببتهن في عمري المبكر، النساء اللائي رسمهن فراغونار. إبنتهم الصغيرة، لها غمازتان على خديها. كانت العائلة تطري أعمالي، ما جعلني أنسى إساءات الصحفيين. لم يكونوا موديلات يقفون أمامي بالمجان، بل اناس عطوفين أيضاً).

من خلال آل شاربنتييه، إلتقى رينوار الفرد بيرار الذي غدا واحدا من أصدقائه المخلصين. كان أبي إعتاد أن يقضي مع بيرار وقتا طويلاً في زياراته إلى قصرهم الريفي في كو. وهناك عثر على خزين كبير من الموديلات، وكان بالكاد يتوقف عن الرسم لحظة. حين كان القماش وورق الرسم ينفدان،

Twitter: @ketab_n

يرسم على الأبواب والحيطان، وهو ما كان يزعج مدام شاربنتييه الطيبة، التي لم تكن تشارك زوجها إعجابه برسوم ضيفهم. صلات رينوار بآل بيرار وآل شاربنتييه، واللوحات التي رسمها في بيتيهما كتب عنها على نحو واف ورثة العائلتين: "رينوار في وارغيمون"، في حالة آل بيرار، "رينوار والأطفال"، الذي يدور حول معرفته المبكرة بآل شاربنتييه.

أود الإستطراد قليلاً لأشير إلى تفاصيل معينة، تلقي ضوءا على شخصية رينوار، وهي عن نادرة روتها لي أمي، والتي سمعتها بدورها من بيرار: ذات يوم، كان أبي في الخارج يرسم غابة، وتذكرفجأة أنه مدعو في تلك الأمسية إلى حفلة عشاء كبيرة في منزل شاربنتييه. كان يُفترض فيها أن يتم تقديمه إلى غامبينا، الذي كان في ذلك الوقت في أوج سلطته. كان شاربنتييه يسعى لإقناع رئيس الوزراء بتكليف رينوار بإنجاز لوحة جدارية كبيرة في اوتيل دو فيل الجديد.

لملم رينوار عدة رسمه على عجل، وهرع بها إلى بيت جدّيه في لوفيسيان، وذهب مسرعاً إلى مدينة مارلي، فوصل إليها في الوقت نفسه الذي كان فيه القطار يغادر إلى باريس ويخرج من المحطة توا. من حسن الحظ، كان مدير المحطة يعرفه، فسمح له بالصعود إلى قطار شحن، مرّ بعد فترة قصيرة. أخذه القطار إلى تحويلة القطارات في باتينيول، التي كانت حينذاك لا تزال ضاحية. نزل من القطار واندفع راكضا، مثل مجنون، عبر الشوارع الفارغة، وفي النهاية وجد عربة أوصلته إلى داخل باريس.

طالما كانت ضرورة إرتداء ملابس السهرة الرسمية تزعجه. حين وصل إلى البيت، أراد أن يوفر الوقت، فبدلاً من تغيير قميصه، وضع عليه، بتركيبة غريبة، ياقة منشاة وواجهة قميص مزيف، والتي كانت وسيلة شائعة في تلك الأيام.

Twitter: @ketab_n

غداة وصوله إلى بيت شاربنتييه، سلّم بوقار قبعته ولفاعه وقفازيه والمعطف إلى الخادم، وخطا داخلا إلى صالة الإستقبال، قبل أن يتمكن الخادم المذهول من إيقافه. ما أن دخل حتى جوبه بعاصفة من الضحك، ولسبب معقول، فهو في عجلته نسى أن يضع عليه جاكيت السهرة، وكان فقط في قميص الأكمام المزيف. جعل ذلك شاربنتييه في غاية المرح، وكي يبدد عنه الإحراج، عمد إلى خلع جاكيته. فإقتدى به كل الرجال الآخرين. قال غامبينا ان هذه هي (ديمقراطية) حقا، فساد حفل العشاء أقصى ما يكون من المرح.

ناقش شاربنتييه اللوحة الجدارية المقترحة بصراحة مع غامبينا. (هذا الرسام الشاب بإمكانه أن يحيي فن الرسم الجداري. انه سيضفي المجد على الجمهورية). عندئذ أخذ غامبينا رينوار جانبا، وقال له: (لا يمكننا تكليفك بأي عمل، ولا أي من أصدقائك. إذا فعلنا، فإن الحكومة قد تسقط).

(ألا يعجبك نوع الرسم الذي نرسمه؟).

(بلى، يعجبني حقا. انه الرسم الوحيد الذي يُعتد به. واولئك الذين نكلفهم بأعمال ليسوا اكفاء على الإطلاق. لكن كما ترى ـ أرى ماذا؟ـ أنتم ثوريون!).

صعق أبي بشدة، لكنه لم يتمالك نفسه عن الرد: (حقا! وماذا عنك؟).

(هكذا هو الأمر)، أجاب غامبينا. (يجب علينا أحياناً أن ننسى المبادئ، وآراءنا أيضاً. علينا أن نرسخ أولا قوانيننا الديمقراطية، وأن نضع كل ما غير جوهري جانبا. انه أفضل للجمهورية أن تحيا مع رسوم سيئة، من أن تموت إكراما للفن العظيم).

كان أبي يروي لي غالبا كيف كان غامبينا يستميل الفتيات الجميلات (حين كان في السلطة). كن يتقاتلن فعلا على الركوع عند قدميه. كنت تراه

Twitter: @ketab_n

بارزا من بين تويج من الأكتاف اللامعة، ويبدو شديد المرح. لكونه من الجنوب كان من السهل عليه أن يثير النساء. (كن يعرفن هذا، تلك المغناجات، وكي يثرنه، كن يلبسن ثياب سهرة مكشوفة أكثر ما يمكن). لكنه في النهاية هوى من السلطة. وبالرغم من الأموال التي دُفعت إلى الرسامين البومبيير، الا ان حزبه هُزم. بعد بضعة أيام، رآه أبي ثانية في منزل شاربنتييه. (كان الأمر مثيرا للشفقة، إذ لم يبق حوله ولا ثدي واحد!).

حكاية أخرى، قد تبدو ساذجة، لكنها أمتعت رينوار كثيرا، وتعطي فكرة عن الجانب (المرح) من أمسيات شاربنتييه. إن واحدا من الضيوف الذي يترددون على هذه الأمسيات، شارل كرو، هو شخص غير عادي. البعض من أصدقائه زعموا بأنه إخترع التلفون سنتين قبل الكسندر غراهام بل، لكن المصرفيين الفرنسيين لم يكن لهم الجرأة على دعم إختراعه. كرو نفسه، كان يؤمن أنه شاعر في المقام الأول، كان اتجه إلى الفيزياء والكيمياء بدافع الفضول فقط. وكان قد نشر لتوه كتاب أشعار لدى شاربنتييه تحت عنوان "صندوق من خشب الصندل". صار مولعاً بكابانيه، الذي لحّن بعضاً من قصائده واصطحبه إلى حفلة موسيقية عند آل شاربنتييه، حيث غنى الموسيقي بعضاً منها. لم يكن عازف بيانو جيداً وحسب، بل ومغنّياً إلى حدٍّ ما: على الأقل كان يمتلك صوتاً معقولاً لنقل الفكرة عن طريق اللحن، أو حتى من من دون لحن، بما أنه أقلع عن تلك (العاهرة) الموسيقى.

كل شيء سار حسناً، حتى أتى على مقطع يصف فيه طائر الشحرور. ولأن كابانيه كان يعاني خللاً في النطق، كان من المحال عليه لفظ حرف (L) بوضوح، فكان يحرّفه إلى حرف (D). النتيجة كانت، أنه حين أطلق كلمة شحرور، التي هي في الفرنسية "merle"، فإنها بدت مثل "mèrde" (خراء). لم يصدق الجمهور ما سمع، واستنتجوا ان كابانيه أطلق بعمد مزحة سوقية. شعر كرو بالخزي تماماً. وحين إنتهت القطعة، قال للجمهور، أن ما سمعوه للتو

Twitter: @ketab_n

ليس هو مثلما افترضوا، بل هي إشارة إلى (طير مألوف، وسائد في ريفنا، ويعرف باسم متواضع، الشحرور). (هذا أمر يدعو للأسف)، رد بحسم الشاعر فييه دو ليل- آدام، الذي كان تنازل، في تلك الليلة، ليُظهر وجهه المعذب في المجتمع الراقي. (تفسيرك أزاح كل القيم الخفية من عملك).

أملك في بيتي حلية نافرة لرأس فتاة صغيرة، شكّلت جزءاً من تصميم مركزي لإطار مرآة، كان رينوار صممها لبيت شاربنتييه. حاول صنعها من إبتكار انكليزي، أمل احد المستخدمين في غاليري دوران- رول أن يطرحها في سوق باريس، كمنتج عرف باسم إسمنت ماكليش، مؤلف من مزيج من الجص والصمغ، يُفترض أن يكون بديلا للرخام. الإطار دُمّر قبل سنوات عديدة حين هدم بيت شاربنتييه لكن الحلية نجت. النظر إليها يذكرني بنشاط أبي الذي لا يعرف الكلل في "التجريب"، لكنه كان دائماً تواقا للعودة إلى فراشيه وملونه المألوفين لديه. كان على إسمنت ماكليش، في ما بعد، أن يفسح الطريق للجص الايطالي "ستوكوس" الذي كان سهل المعاملة وتكلفته أقل.

في وصفي لسنوات ما قبل حرب ١٨٧٠، لم أشر إلى صداقة رينوار الحميمة لإثنين من الذين ادوا دورا في تطوره الفني: الرسام ليكور، وليز، وهي شابة فاتنة كانت تقف أمامه وأمام بضعة رسامين آخرين كموديل. لا أملك معلومات مباشرة عن هذه العلاقة الثلاثية. كل ما أعرفه، هو ان رينوار وليكور كانا يقضيان بضعة شهور في بيت والدي ليز في فيل دافراي.

Twitter: @ketab_n

١٣

واحد من الأسباب الذي جعل من أوصاف رينوار متناقضة أحياناً لدى مختلف المؤلفين الذين كتبوا عنه، هو ان سلوكه، كما كلامه يتنوعان بشكل واضح، أو على الأقل يبدوان كذلك. ردود أفعاله، كانت تعتمد على نوع الناس الذين صادف أن يكون معهم. من هذه الناحية، كان يشبه بعض شخصيات شكسبير. إذ كان يكيّف أسلوباً في الكلام والتصرف يناسب الشخص الذي يخاطبه. هاملت لا يتكلم مع الملك بالطريقة نفسها التي يتكلم بها مع الممثلين أو مع حفار القبور. ومع ذلك، من هو أكثر ثباتا من هذه الشخصية التي تملكتها فكرة وحيدة ؟ رينوار، كان ثابتا مثل هاملت، أو مثل غويا أو باسكال، وكان يعتقد انه من العبث تبديد القوى بالتركيز على أشياء هي غير مهمة بالنسبة اليه. برغم إدعائه بأنه ليس عنيدا، فإنه انتهج طريقه بعزيمة متعبد حاج إلى القدس. لا شيء كان يحول دون بلوغه غايته. في حين أن أمورا مثل السياسة أو العلاقات العاطفية، تبدو له تافهة، فإن مسائل أخرى صغيرة كانت لها أهمية كبيرة عنده، الأمر الذي يكون غالبا باعثا على الدهشة حتى إلى أقرب محبيه.

عالم رينوار لم يكن مصنفا بالطريقة التي يراها الآخرون. في نظره، ما من شيء هو أبيض أو أسود بالمطلق. وهذا يفسر كيف أمكنه أن يعيش أثناء

Twitter: @ketab_n

الكومونة والأحداث المهمة الأخرى من من دون أن يصطف إلى جانب معين. كان مدركا أن الألقاب والتصنيفات هي أمر واقع، لكن لا يمكن للقب أن يفصح عن جوهر صاحبه. كان يوافق على وجود أشياء مثل لهجة جرمانية ولهجة مارسيلية، وأن هناك نفاقا بروتستانتياً وتعصباً كاثوليكياً، وكلاماً طنّاناً لدى الجمهوريين وضلالاً لدى الملكيين، كما كان هناك إشتراكيون بيوريتانيون (متزمتون)، لكن هذه هي فقط مظاهر خارجية لأفراد، كان يصنفهم هو على نحو مختلف. إن "انترناسيوناله" (أمميته) هي الفتيات الصغيرات اللائي (بشرتهن تسلب الضوء)، وتمثل في نظر رينوار فئة أكثر أهمية من مجرد مجموعة فرنسية أو ألمانية، أو حزب سياسي أو ديني. الحدود الفاصلة الكبيرة، كانت بين اولئك الذين يدركون عن طريق الحواس وبين أولئك الذين يستبطنون بالمنطق. كان يرتاب بـ "folle du logis" (المخيلة)، ويثق بعالم الغريزة المنافي لعالم العقل. على الرغم من أنه لا يفهم، بالطبع، اللغة الصينية، فإنه كان يشعر بحميمية مع خزّاف شرقي من القرن الثاني، على سبيل المثال. في حين، مع العديد من أبناء جلدته، كان يشعر بنفسه غريباً.

في مسألة الدين، كان متسامحاً جداً. إذ كان يرى، مثلاً، أنه من العسير التصديق بأن مئتين وخمسين مليون هندوسي كانوا على خطأ لمدة أربعة آلاف عام. لماذا يجب أن نكون وحدنا فقط من يملك الحقيقة، وليسوا هم؟ لماذا يقرر القدير الأعلى، على نحو إستبدادي، أن يجعل نفسه معروفا للناس الذين يعيشون على ضفاف نهر السين، ويهمل أولئك الذين على ضفاف الكانج؟ ثم، كما قال، (إذا ما اخترت عبادة "الأرنب الذهبي"، فأنا لا أرى أي سبب يدعو الآخرين لمنعي من ذلك)، إبتسم إبتسامة ساخرة، وأضاف: (زد على ذلك، قد تكون ديانة "الأرنب الذهبي" جيدة، مثلها مثل أي ديانة أخرى. بإمكاني أن أرى الكهنة الكبار وهم بآذان طويلة، مائلة!).

كان يستحسن كثيراً إستخدام الكاثوليك للغة اللاتينية، (ليس فقط

Twitter: @ketab_n

لأنها لغة عالمية، لكن بالأخص لأن المؤمنين لا يفقهون كلمة منها. إن من المهم جدّاً أن تخاطب الله بلغة سرية، مختلفة عن اللغة التي تستخدمها لشراء بطاطا مقلية ببنسين). كان يحبذ أيضاً الاعتراف في الكنيسة: (انه صمام أمان ـ انه مثل ذلك الشيء الذي يشبه نبات الفطر الذي نراه على القاطرة البخارية. يا له من فرج، أن تكون قادرا على البوح بسريرة نفسك لشخص مجهول وأنت على ثقة بأنه سوف لا يفشي سرك لزوجته في سرير النوم. انها الطريقة المثلى لمنع الجريمة!).

نادراً، إن لم نقل أبداً، ما وطأت قدما رينوار عتبة كنيسة. مع ذلك، تلك النظريات المادية للكون لم تكن تقنعه. كان يؤمن بأن كوننا، بالرغم من التحليل العلمي والمكروسكوبات، سيظل مسكونا بالقوى الغامضة. (تراهم يقولون لك إن الشجرة ما هي الاّ مركب من عناصر كيميائية. أنا أفضل الإعتقاد بأن الله خلقها، وبأنها كانت مسكونة من قبل حورية). كان يحزنه التفكير بأن الماء الأخضر الذي يرتطم بصخور الأنتيب مجرد "كوكتيل" من أوكسجين وهيدروجين وكلوريد الصوديوم. (إنهم يحاولون أن يقضوا على نبتون وفينوس، لكنهم لن يفلحوا. فينوس باقية إلى الأبد ـ على الأقل كما رسمها بوتيتشلي). لرينوار أيضاً إعتقاد لا لبس فيه حول عذرية مريم. ولادة العذراء، بالنسبة له، كان رمزا مثاليا لمبدأ "الإقتصاد في الوسائل"، الذي كان مبدأ محفزا في حياة رينوار ورسمه. في اللغة العلمية، هو لا شيء أكثر من مبدأ الكفاية.

بعض الطباخين يصلون إلى نتائج مدهشة، لكن بتكلفة عالية. انهم يضعون أرطالا من الزبدة في يخناتهم، ويستخدمون قناني من الكونياك في صلصاتهم. انها رائعة المذاق، لكنها ثقيلة وجديرة بأن ترسلك إلى المستشفى. في بيت والديّ يخبزون الفطائر بقالب واحد فقط من الزبدة، وكان مذاقها طيبا أكثر من أي معجنات، وسهلة الهضم. كانت والدتي تعلمت هذه الطريقة

Twitter: @ketab_n

في الطبخ من ماري "كورو"، التي هي ليست من أقرباء الرسام العظيم، لكنها كانت طباخته. (كانت تطبخ بنفس الطريقة التي يرسم بها كورو)، قال لي رينوار مؤكدا.

الجبل الذي يتمخض عن فأر، كان بالنسبة لرينوار رمزا مثاليا لطرق الإنتاج العصرية. كان يفضل لو أن التل الصغير تمخض عن فيل. غابات تقطع أشجارها لصنع صحف الصباح، التي قلما تستأهل القراءة. هناك الملايين من أطنان الورق، التي تمثل موت أشجار السنديان الرائعة، في كندا واوريغون، تستهلك لغرض وحيد هو طبع الإعلانات السخيفة التي تتبجح بفضائل مستحضرات التجميل أو منتج ما لإزالة مسامير القدم. مونتانيا، الذي كانت أعماله مكتوبة على ورق مصنّع من بضع خرق بالية، كان لديه ما يقوله للعالم أكثر من عشرين جريدة مجتمعة. الرسامون يكوّمون أصباغا على ملاونهم. كل درجة من درجات اللون، يتم الحصول عليها بإستخدام لون يخرج من إنبوب مختلف. هذه الألوان، بفضل الصناعة الكيمياوية العصرية، صارت تتميز بالتألق والغنى، الا انها ما كانت معروفة للفنانين الأقدمين. مع ذلك، بالرغم من كل هذه الكلف، وكل هذا العلم، بقيت باهتة. كان رينوار يستخدم ثمانية أو تسعة ألوان على الأكثر، مرتبة في كومات صغيرة حول حافة ملونه النظيف على نحو موسوس. من هذا النسق المتواضع برز حريره المتلألئ ودرجات اللحم اللونية البرّاقة.

عودة إلى آراء رينوار حول مريم العذراء. بالنسبة اليه، قصة هذه الشابة اليهودية من الخليل التي أنجبت إلها، من دون أن تدَنس، من دون أن تخسر نقاءها أو طهارتها؛ هي رسالة نوى أن يأخذها مأخذ الجد. حسب رأيه، العالم مقسّم إلى فئتين، واحد مؤلف من الذين يحترمون موارد الطبيعة، والآخر ممن يبددون هذه الموارد، مقسّم بين الرغبة بالإبقاء على عمل الخالق، والمحاولة المغرورة لتدميره.

Twitter: @ketab_n

ما دمنا بصدد موضوع الدين، أود أن أبيّن كيف كان شعور رينوار إزاء الإلحاد. الكثير من أصدقائه، بما فيهم المقرّبون والأعزاء جداً، كانوا ملحدين. وكان لديهم إنطباع بأنه كان واحدا منهم. لم يتمكنوا من فهم كيف يكون المرء ثورياً في الفن ولا يزال يؤمن بالله. في الجانب المعارض، كان هناك أصدقاؤه الآخرون، وهم كاثوليكيون متحمّسون، كانوا لا يشكّون أبداً بأرثوذكسية أبي. كان رينوار حساسا جدّاً حيال المساس بمشاعر الناس، بحيث كان غالبا ما يحجم عن مخالفتهم. لهذا فإنهم صاغوا أفكارهم الخاصة عنه، كما تلائمهم بشكل فردي، من دون أن يراودهم الشك أبداً بأنه كان ينظر سرا إلى نزاعاتهم بأنها ليست أكثر من ثرثرة عقيمة. مع هذا، في احد الايام، بعد أن أخضعه أحد أصدقائه إلى محاضرة، في محاولة منه لإثبات ان الله غير موجود، قال له: (هل تعرف، اذا توجب علي الاختيار بينك وبين قس، أعتقد بأني سأختار القس). وحين صرخ الآخر محتجاً، أضاف رينوار: (القس لا يتخفّى، فهو يظهر في ملابس كهنوتية. وهذا أمر نزيه، على كل حال، وكلّما رأيت واحداً منهم فأنا أتوقع تلك النزاهة. اذا أردت أن تبشر، ينبغي عليك إرتداء زي معين، كي يأخذ الناس حذرهم في الوقت المناسب). لا بدّ أن رينوار كان مغتاظاً جداً لكي يجيب بمثل هذا الرد الفظ، ولا يمكن أن يتفوه به إلا إذا كان الضحية صديقاً مقرّباً إليه.. كان هذا يحدث فقط حين يشعر تماماً بالارتياح مع شخص، فيبيح لنفسه التعبير عن رأيه بمطلق الحرية. وعلى هذا النحو، كان، بلا شك، مع أطفاله أيضاً. وهو السبب الذي يجعلني أفهمه أفضل من أغلب الكتّاب الذين حاولوا تحليل شخصيته لحد الآن. أذكر، بوجه خاص، وصف ميشيل جورج – ميشيل لرينوار، في كتابه "من رينوار إلى بيكاسو". كان قد صوّر أبي فيه كنوع من الشخصية الرابلية (نسبة إلى رابليه). فالمؤلف، إذ تأثر بلا شك بقوة عاريات رينوار، قرّبه إلى صنف "ماجن" بعض الشيء. ولأن أبي لم يتمنَّ أن يخيب أمله، فإنه لم يعارض

Twitter: @ketab_n

رأيه. فكانت النتيجة التي استوحاها القارئ: رينوار عجيب، لا يتحدث سوى عن الأنداء والمؤخرات، نوع من فلاح عادي من سيلين، واحد من شخوص الاحتفالات الشعبية ليوردنس[٤٦].

جورج ريفيير نفسه، رفيق أبي الوفي في سنوات مولان دو لاغاليت، بنى تصورا عن رينوار كان تقريباً على صورته الخاصة، على العكس من ميشيل جورج - ميشيل، إذ قدم رينوار رصيناً محافظاً، مصمماً على أن يعيش وفق تقاليد بلده، ولم يبح لنفسه الانجرار وراء الـ "métèques"[٤٧] والأجانب الآخرين الذين يتآمرون لتدمير الحضارة الفرنسية.

عندما كتب فولار كتابه، فإنه سعى بأمانة إلى التوثيق من المصادر عينها. لكن الإفادات التي إلتقطها وعلاقاته الشخصية قدمت في النهاية أثراً متحيزاً كما عرفناه، لكنه مكتوب بأفضل النيات وبجزء كبير من الموهبة. ذات يوم، قادته أبحاثه إلى إكتشاف صبّاغ بيوت عجوز، كان قبل سنوات عديدة، يرتاد المطعم الصغير نفسه الذي اعتاد أبي تناول طعامه فيه. تذكر رينوار جيداً: (شاب مهذب لطيف، حسن الملبس دائماً، نحيف قليلاً، على عجلة دوما ورشيق مثل قطة زقاق. حسبته، في أول الأمر، واحداً من الحرفيين المحليين). كان ما أثر في الرجل الطيب، على وجه خاص، أنه (أينما كان هناك قدر من لحم البقر المغلي، كان رينوار يدّعي دائماً بأن دوره حان في الحصول على نخاع العظام). أعاد فولار، أمامي، رواية الحكاية لأبي، ليقيم الدليل على نظريته، بأن الناس العاديين غير قادرين على تمييز (اولئك الذين لا يتفاخرون). كان مقتنعا ببلاهة عامة الناس. لم يكن يحمل كراهية لهم. كان

---

(٤٦) ياكوب يوردنس (١٥٩٣- ١٦٧٨)، رسام فلمنكي، تأثر بروبنز، أشتهر برسومه التي تصور فلاحين صاخبين، في مشاهد رسمت بألوان حارة.

(٤٧) تعبير ازدرائي، يعني الأجانب غير المرغوب فيهم.

Twitter: @ketab_n

حتى معجبا بهم طالما لم يتجاوزوا أماكنهم. (الدعاية هي كل ما يمكنهم إستيعابه. انهم يعرفون ان سارا برنار ممثلة عظيمة لأنهم قرأوا عنها في الصحف).

بعد ذلك بزمن قصير، روى لي أبي، من جانبه، حكاية نخاع العظم، التي هي على الأرجح جديرة بالتصديق أكثر. أولا، لفت النظر إلى أن نخاع العظم بالنسبة للباريسيين هو حقاً (وجبة ملوكية). تذكر العامل جيداً، ووصفه بأنّه (رجل طيب، أراد فقط أنت يكون لطيفا). كان الرجل العجوز يرفع مرات كثيرة قطع العظم من صحنه ويضعها في صحن أبي، معتقدا انه يمنح شريكه في المائدة (هدية) لطيفة. لكن رينوار كان يأكلها بشرود ذهن، من دون أن يظهر تلذذه بها كثيرا. (بيني وبينك، لم أكن مولعا جدّاً بمخ عظام لحم البقر). شعر الرجل العجوز بالإساءة بعض الشيء، فكان أبي، ومن أجل أن يصلح سلوكه الفظ، يتظاهر بين الحين والآخر بانه يريد الحصول على العظم أولا. وهكذا، كان الرجل العجوز يشعر بالاطمئنان. وما هي الا لحظات حتى كان يستأنف مجاملته الصغيرة، فيضع (حصة الأسد) على طبق صديقه الشاب، قائلا وهو يغمز بعينه، (المائدة عامرة بنخاع العظم هذا اليوم). قال أبي، (لكنك أعطيتني إياه بالأمس). (حقا؟ حسنا، أنا مسرور. أنت شاب، وتحتاج إلى القوة، ونخاع العظم مليء بالحديد).

تقريبا في الفترة نفسها، كان رينوار يرسم بورتريها لإحدى النساء التي كانت عشيقة البارون "ر..."، كان بيرار عرّفها عليه. (فتاة لطيفة. كل رجال باريس ناموا في فراشها. والآن، هي لا تخون زبونها "miché"[٤٨] إلاّ مع قوادها "maquereau"[٤٩]). لم يكن يطلب الأول غير شيء واحد وهو أن

---

(٤٨) عامية فرنسية، تعني زبون المومس.

(٤٩) عامية فرنسية، تعني القوّاد.

Twitter: @ketab_n

يتصرّف معها كما لوكان عشيقها. عندما يطرق الماكورو على الباب، تخبئه في خزانة الثياب. حينئذ يندفع المتطفل داخلاً، محدثاً شجاراً رهيباً، ثم، وهو يلعب دوره، يتظاهر بضرب الخائنة. كانت هذه اللعبة تسرّ البارون. ويستمتع أكثر، حين يخرج من مخبئه ليواسي الفتاة الباكية. حدث ذات يوم، ان الماكورو أخذ دوره في اللعبة على محمل الجد، فضرب حبيبته بعنف إلى حد إيلامها، فردت هي بضربه، وسرعان ما إنحط هذا الشجار المخزي إلى معركة حقيقية. لكن القوّاد تلقى الأسوأ. أخيرا، فتحت الباب، وهي قرفة من ضعفه، ورمته خارجا. ثم دعت البارون للخروج من الخزانة وقالت له انها (نالت ما يكفيها من الحياة الماجنة)، وقررت، من الآن، أن تعيش حياة مستقرة.

في تلك اللحظة، وصل رينوار، إذ أتى للعمل على بورتريه حبيبة البارون. في طريقه صاعدا السلم، التقى القوّاد المهان، فأخذ يبث شكواه ومحنته له، وتبعه إلى الشقة. أوحى رينوار للجميع بالثقة، فطلب أن يكون حكما بين الأطراف المتخاصمة. بدأ بالتصرّف كما لو ان ما من شيء معيب حدث. إقترح بهدوء بأن يبدأوا بالجلوس في الحال. لم تربكه مطلقاً الحالة المشعثة التي كانت عليها السيدة ؛ بالعكس، أوحت له بفكرة عمل بورتريه ثان لها، لكنه مختلف. جلس ورسم بالفرشاة تخطيطا تحضيريا لها. راقبه الرجلان، بإعجاب، متتبعين حركات فرشاته على قماش اللوحة. بينما هو يرسم، أخذ غضبهما يبرد، وحين توقف، (لأن الضوء بدأ يتلاشى وبات جو الغرفة كئيبا)، كانا قد تصالحا.

روت الفتاة لرينوار قصة حياتها. كانت بدأت مهنتها وهي لم تزل فتية جداً. (تركت عملي المنتظم وأنا في الخامسة عشر). إعترفت بصراحة انها مارست قليلاً من البغاء. في وقت رسم البورتريه، كانت بلغت لتوها الثامنة والعشرين من العمر، وكانت لذيذة. لا بد انها كانت تخلب الألباب وهي في

Twitter: @ketab_n

الخامسة عشرة. هذا ما قاله لها رينوار، فابتسمت. (لا أحد كان يرغب بي)، أجابت، (كنت محظوظة لو عثرت على عجوز غريب الأطوار يمنحني فرنكين). في اللحظة التي حصلت فيها على ميشي غني، كانت كل باريس تسعى وراءها.

اختتم أبي حديثه قائلاً، (هل تعرف، جان، هذا يذكرني بنخاع العظم. الناس لا يستخدمون عقولهم. انها القصة القديمة عن بانورج والخرفان. رابليه مدهش!). دارت هذه المحادثة قبل الغداء مباشرة. جاءت غران لويز لتخبرنا أن الغداء جاهز. دفعت كرسي أبي نحو صالة الطعام. كان على المائدة ضلوع لحم مشوية وبطاطا مهروسة. (أسناني) هتف رينوار. جلبتها له، وضعها في فمه، وسألني إن كنت جائعا. (جائع جداً)، أجبته. (أنا لا أحس بالجوع)، قال، (أنا آكل، لأنه أمر لا بد منه). وأنا أقطع اللحم له، واصل حديثه. (كلنا خراف بانورج. الرسامون، بوجه خاص. الصعوبة في الأمر، هي أن ندرس الفنانين الكبار من دون أن ننسخهم. مع هذا، عليك أن تنسخهم كي تفهمهم. لكن، مهلا، أراني بدأت بالتنظير. لا أعرف ماذا أقول. هذا اللحم قاس، وأنا أفقد جسر أسناني).

كان لهذه السيدة، التي تحدثنا عنها، كلبان من كلاب الدشهند، صار رينوار مولعا بهما. الذكر اسمه بيتر، والأنثى اسمها ديزي. في صباح أحد الأيام، بينما كان رينوار قادما للعمل على البورتريه، وجد موديله وقد بانت عليها مظاهر التعب والإرهاق، (بعيون منتفخة ووجه شاحب). طلب منها أن تذهب لتستريح، فسألته إن كان لا يمانع بأخذ الكلبين للنزهة. (لا يمكنني الثقة بخادمتي)، قالت، (إنها ليست حريصة بما يكفي. بالإضافة إلى أن ديزي في حالة نزاء). كانت قلقة جدّاً على عفّة ديزي، لأن أنثى الكلب هذه كانت أرستقراطية، ودفعت هي ثروة مقابلها. شرحت الأمر قائلة، بأنه إذا ما تدَنست أنثى الكلب بنسل آخر، فإن العِرق سيتلف إلى الأبد. حين إبتسم أبي،

Twitter: @ketab_n

إنفجرت ضاحكة: (انها من عرق أصيل). وكي تشدد على تلميحها، أضافت: (من حسن الحظ، ان الرجال أكثر تسامحا من الكلاب: بيتر غيور على نحو مرعب. كلما إقترب كلب ما من ديزي، فإنه يتهيأ لإفتراسه).

خرج رينوار مع الكلبين، ممسكا بهما بأمان، بمقود مزدوج مصنوع من الجلد. جابهوا مختلف الصعاب: مرة، أفلت كلب بودل تقريبا من يد سيده وهو يحاول التقرب إلى ديزي. فأصابت بيتر نوبة من الغضب، وكشف عن أسنانه، وكاد أن يختنق في طوقه. تدبر أبي أمره بالوصول بحمولته إلى غابة بولونيا، من دون حادث آخر مؤسف، وقادهما نزولا نحو درب معزول، حيث ظن بانهما سيكونان آمنين. كان الجو حارا ومشمسا. صار الكلبان أهدأ. وقف بيتر يهرّ وينهش صاحبته مداعبا. وجد رينور مقعدا في بقعة ظليلة وجلس مستغرقا بالتفكير بمشاكله مع الرسم. فجأة، ثاب إلى نفسه من أحلام اليقظة، بعد أن سمع بعض الأصوات المعروفة، فهب واقفا ليشاهد كلبا مهجنا وسيما مشغولا على نحو محموم مع ديزي، بينما بيتر يراقبهما مؤرجحا ذيله بإستحسان.

يفاجئني، عندما أرى أبي مستغرقا في ذكرياته عن نفسه، عدد الناس الذين عرفهم معرفة حميمية. كان هناك، على سبيل المثال، أناس لافتين من المجتمع الراقي، مثل كاييبوت، وهو رسام أيضاً. بادر هذا، على نحو عرضي، إلى فتح أبواب متحف اللوفر أمام المدرسة الجديدة للرسم، بتوريث مجموعته الجميلة إلى الدولة. هناك أيضاً دكتور دو بوليو، وهو طبيب روماني صديق لبيبسكو، الذي بدا انه إختفى من حلقة أبي في تلك الفترة. الآخرون، كانوا آل داراس، الذين يرتبطون في ذهني بالنقيب الذي خدم رينوار تحت أمرته في بوردو، وآل كاين دانفير، وآل كاتول مانديز، وعائلة الإستثنائي مسيو

Twitter: @ketab_n

شوكيه[٥٠]، وتاجر الفن دوران- رول، (الأب دوران). بين الممثلات، الفاتنة جين ساماري، الين اندريه، ومدام انريو، وإبنتها. لكن رينوار ذكر أسماء عديدة إختلطت في ذاكرتي. وكم كان عدد الموديلات: أمثال نينيس ومارغو، وسوزان فالادون، والفتيات العاملات، اللائي كن يوقفهن في الشارع. وكم من مرة تطورت هذه اللقاءات العرضية إلى صداقات حميمة! سوف لا أكلّ أبداً من ترديد القول كم كان الناس يحبونه. كل أصدقائه ومعارفه، الذين أعرفهم شخصيا، كانت عواطفهم تثار، حين يتحدثون عنه.

روت لي مدام انريو عن وفاة إبنتها، الممثلة أيضاً في الكوميدي فرانسيز، والتي أنجز لها أبي بورتريهات عدة. ذات ليلة، إندفع أخاه ادمون داخلا إلى مرسمه، في اللحظة التي كان يهيئ نفسه فيها للذهاب إلى النوم. (إندلع حريق في الكوميدي فرانسيز!) قال ادمون بأنفاس مقطوعة. (بدأ بإنفجار الغاز). لبس أبي معطفه على عجل، وركض على طول شارع سان- جورج. في الوقت الذي وصل إلى هناك، كانت النيران قد إنتشرت في المبنى كله. لمحته مجموعة من الأصدقاء، وأخذوه حيث مدام انريو واقفة. كانت إبنتها عادت إلى غرفة الملابس راكضة لإنقاذ كلبها المدلل، ولم ترجع ثانية. بالرغم من أن النيران يتصاعد لهيبها، فإنها لم تصل بعد إلى غرفة ملابس الممثلة الشابة. إندفع رينوار كالسهم إلى المبنى، فوجد السلالم وبدأ بتسلقها، ممسكا بمنديل على فمه. لكن الدخان كان كثيفا بحيث منعه من التنفس، فسقط شبه مغميا عليه على الدرابزين. حمله رجل إطفاء سالما إلى الخارج قبل أن تلتهم النيران السلالم.

عندما روى لي رينوار هذه الحادثة - ألمح إليها مرات عدة - كنت

---

(٥٠) موظف في خدمات الكمارك الفرنسية، وهو أيضاً جامع أعمال فنية.

Twitter: @ketab_n

مدهوشا من المفارقة بين لامبالاته بالخطر وبين حذره المعتاد. لا بد من أن أضيف، بأنه حتى بعد أربعين سنة، كان موت (انريو الصغيرة) يجعله يغص بالإنفعال. (هذه الحمقاء!... من أجل كلب!... كلب بكيني مرعب سمّته توتو، بعد أن رويت لها عن الكلب المجعد الوبر في نزل الأم أنتوني. كانت نحيفة، لكن بإنحناءات جميلة. واحدة من هذه الكائنات المميزة، التي حفظتها الآلهة من قباحة الزوايا الحادة! وكانت تقف للرسم مثل ملاك!). وخشية من أن تكون العاطفة جرفته، غيّر موضوع الحديث، وقال بصوت ما زال أجشاً قليلاً: (إذا ما حاصرتك النيران، تأكد بأن تحتاط من الدخان. إغمس منديلك بالماء، وتنفس من خلاله. لا تركض، مهما كان الأمر، بل راقب كل خطوة تخطوها. اذا ما فقدت رشدك، إنتهى أمرك).

Twitter: @ketab_n

١٤

في العديد من أحاديثي مع أبي، كان يُشار بإستمرار إلى اسم دوران- رول: "الأب دوران" شجاع ؛ الأب دوران رحالة عظيم ؛ الأب دوران متعصب. كان رينوار يستحسن هذه الميزة فيه. (كنا نحتاج إلى محافظ ليدافع عن رسمنا، الذين كانت عصبة "الصالون" يصفونه بالثوري. انه الشخص الوحيد، على أي حال، لم يعرّض نفسه لخطر أن يكون مستهلكا ككوموني!). لكنه غالباً ما كان يقول، (الأب دوران رجل كريم النفس). دخل فولار في حياة رينوار بعد فترة قصيرة من دوران- رول ؛ كذلك آل بيرنهايم ؛ كاسيريه وبيرلان، بالإضافة إلى آخرين عديدين من تجار اللوحات المهمين، والمهتمين بتوعية الناس بالرسم الجديد أكثر من اهتمامهم بالمال. كان دوران- رول الأول بينهم، على أي حال. (بدونه ما كان بوسعنا البقاء). بإستخدامه هذه العبارة، كان رينوار يعني البقاء جسدياً أكثر مما يعني بقاء فنهم. (الحماسة، لا بأس بها، لكنها لا تملأ معدة فارغة. وضعت في موقف دفاعي سائلاً إياه: (هل تعني انه لولاه لتوقفت عن الرسم؟). (أنا لم أقل ذلك)، أجاب نافد الصبر. (أنا عنيت فقط أن لولاه لكان لدينا القليل من الخبز للأكل).

في تلك الأيام، كنت لم أزل صغيراً جدّاً على أن يكون لدي ما يكفي من حس الفكاهة. والآن، عليّ أن أضحك من فكرة توقف رينوار عن الرسم.

Twitter: @ketab_n

واصل حديثه مؤكداً قوله انه في زمن "المعرض العالمي" في باريس عام ١٨٥٥، كان دوران – رول في الخامسة والعشرين من العمر فحسب، وكان مسبقاً من مناصري دولاكروا ضد الإمبراطور، الذي كان مع رسوم ونترهالتر فقط. توقف أبي فجأة عن الكلام، متسليا بفكرة خطرت له للتو: (لا بد من القول، ان دوران- رول ثائر ملكي قديم. كان في السابق مخلصا للكونت دوشامبور، وغالبا ما كان يذهب إلى هولندا للقائه).

كان دوران- رول يتابع دائماً نشاطات "المتصلبين" منذ بداياتهم. (كان ذكيا بما يكفي ليدرك أن شيئاً ما يمكن إنجازه في هذا الإتجاه. وأعتقد انه كان معجبا حقاً برسومنا، وبمونيه خصوصاً). قام بتنظيم معارض عديدة لـ"المدرسة الشابة" في غاليريه في شارع لوبيليتيه. حكى لي أبي، انه بعد واحدة من هذه المغامرات التجريبية ـ لم تكن هناك (إشارة لأي مشتر) ـ قرر، سوية مع سيسلي وبيرث موريسو، أن يجربوا حظهم في البيع بالمزاد في غاليريهات دروو، أطلق فيها الجمهور لشعوره العنان. واحد من السادة وصف بيرث موريسو بالـ "غورغاندين" (المومس)، فلكمه بيسارو على وجهه، فتدخلت الشرطة بعد هذا الشجار. ولا لوحة واحدة بيعت. كان رينوار يتذكر مقالاً قاسياً، بوجه خاص، كتبه بيير وولف لصحيفة لوفيغارو عن معرض دوران- رول، عثر عليه صديق لي: "فجع شارع لوبيليتيه بمصيبة أخرى. فبعد حريق الأوبرا، حلت كارثة جديدة في هذا الشارع. معرض، كما قيل مخصّص للرسم، كان افتتح لتوه في غاليري دوران- رول. جذبت المشاة الأبرياء الأعلام المعلّقة في الشارع، للدخول وإلقاء نظرة. لكن أي مشهد وحشي لاقت هذه العيون المرعوبة ! خمسة أو ستة مجانين ـ بينهم امرأة ـ شكلوا مجموعة من البائسين، يثيرون الشفقة، غلبهم جنون الطموح، فتجرّأوا على عرض أعمالهم في معرض".

"بعض الناس انفجروا ضاحكين أمام هذه الأشياء. أما أنا، فانقبض

Twitter: @ketab_n

قلبي. هؤلاء الفنانون المزيفون إنتحلوا لقب المتصلبين ؛ أخذوا قماش لوحات، وأصباغاً وفراشي، وبقّعوا بضع لطخات لونية عليها، ووقعوا على ثمرة أعمالهم. كذلك يفعل نزلاء ملجأ فيل- ايفرار للأمراض العقلية، حين يلتقطون حصى من الطريق، ويتخيلون انها جواهر. انه مشهد مروع عن تحول الغرور إلى جنون. حاول فقط أن تقنع مسيو بيسارو بأن تلك الأشجار ليست ارجوانية، أو ان للسماء لون الزبدة؛ ذلك النوع من الأشياء التي يرسمها لا يمكن أن نوجد في أي من الأرياف؛ وما من عقل ذكي يتحمل وزر ارتكاب فظائع مثل هذه. لا بد أنك ستضيع الكثير من الوقت محاولاً أن تجعل واحداً من مرضى دكتور بلانش[٥١]، الذي يظن نفسه البابا، يفهم بأنه يسكن في الباتينيول وليس في الفاتيكان. حاول أن تعيد مسيو ديغا إلى العقل؛ إخبره عن الرسم، اللون، الإنجاز، الهدف، فإنه سيضحك في وجهك وينعتك بالرجعي. جرب أن تشرح لمسيو رينوار بأن جذع المرأة ليس كتلة من اللحم الفاسد، مغطاة ببقع خضراء بنفسجية، إشارة إلى جثة في مرحلة الإنحلال الأخيرة. هناك أيضاً امرأة في المجموعة، كما في كل العصابات الشهيرة، اسمها بيرث موريسو، وهي امرأة غريبة الأطوار. الجمال الأنثوي عندها، يصون نفسه في بيئة فاسقة لروح هائجة".

"وهذه الأعمال السوقية المختارة، عرضت في العلن من دون التفكير بالنتائج الكارثية المحتملة. بالأمس فقط، قبض على رجل مسكين في شارع لوبيليتيه، بعد مغادرته المعرض، لأنه كان يعض أي شخص يصادفه".

سألت أبي إن كان المقال أوهن عزيمته. (أبداً. كانت تتملّكنا فكرة وحيدة - أن نعرض أعمالنا، أن نظهر لوحاتنا في كل مكان، حتى نصل إلى

---

(٥١) طبيب أمراض عقلية شهير، توفي عام ١٨٥٢.

Twitter: @ketab_n

الجمهور الحقيقي. أعني، الجمهور الذي لم يجعله الفن "الرسمي" غبياً. كنا على يقين انه موجود في مكان ما). كان وزملاؤه غاضبين من الإهانات التي وجهت إلى بيرث موريسو، (تلك السيدة العظيمة)، أما هي فضحكت منها فقط. إعتقد مونيه انه أمر طبيعي جداً أن يكون النقاد بليدين. (منذ ديديرو، ذلك الممثل العظيم للنقد)، قال، (كان النقاد كلهم على الدوام مخطئين. شتموا دولاكروا، غويا وكورو. لو مدحونا، فمن الحري أن نقلق).

توصل بيسارو إلى إقناع رفاقه بتنظيم معرض بجهودهم الخاصة. إنضم سيزان إلى المجموعة، ولم يكن أقل حماسا في إدانة النقاد. (انهم عصبة من المخصيين لا خير فيهم!). بعده، كان ديغا، المنعزل غالباً، الذي حشّد كل قواه للقضية. تلاه القادم الجديد، غيّومان، الذي قال الشيء نفسه. كان بيسارو ومونيه يفضلان اقتصار العدد على القلة الذين حملوا اللواء أولا للدفاع عن الفكرة. كانوا جميعا مرتابين بذاك (البرجوازي) ديغا ؛ لكن رينوار ذكّرهم بأنه (فعل أكثر من أي واحد منا في فضح الكبرياء الكاذب لـ"مسيو جيروم"). وافق ديغا أن يصبح عضواً، بشرط أن لا يكون المعرض "ثورياً"؛ وأن يحتجب خلف اسم شهير. ولأن مانيه بدأ يحظى باعتراف رسميي "الصالون" والصحفيين، دعته العصبة الصغيرة من الرسامين الجدد للإنضمام اليها. لكنه رفض، قائلا، (ما الذي يدفعني للانضمام إلى شباب، في حين أنا مقبول في "الصالون الرسمي"؟ الصالون، أرض ميدان معركة أفضل. ألّد أعدائي مجبرون على مشاهدة لوحاتي هناك). ثمة جانب كبير من الحقيقة في هذا. وهكذا كان عليهم أن يستسلموا. على أي حال، هناك فنانون آخرون، برغم انهم أكاديميون، كانوا مستقلين بما يكفي للاعتراف بأن (المتصلبين لديهم شيء ما، برغم كل شيء). وسألوا عن إمكانية أن يكونوا جزءاً من المعرض. أصرّ أبي على إفساح المجال لهم، لأنهم سيسهمون في تخفيض حصة كل منهم في النفقات العامة. بين الغرباء، كان

Twitter: @ketab_n

بودان، رجل أكبر في السن، كان رينوار يقدّره كثيرا. قامت المجموعة الجديدة بتأجير الملكية التابعة للفوتوغرافي نادار، في بولفار ديه كابيسين. هذا الموقع، دفع ديغا إلى إقتراح تسمية المجموعة بـ "La Capucine"، لكنه رُفض.

افتتح المعرض قبل أيام فقط من معرض آخر أقيم في "الصالون". ما حدث في تلك المناسبة معروف. كان فشلا كارثيا. (الشيء الوحيد الذي خرجنا به هو لقب " الإنطباعية ". اسم أبغضه)، قال رينوار. كانت اللوحة الصغيرة لمونيه، وهي المنظر الطبيعي المضبب تحت شمس شتائية، وراء السبب في التسمية. ببراءة، أطلق الفنان على لوحته عنوان "Impression" (إنطباع). صحفي يدعى ليروي، ناقد في مجلة كاريفاري، إلتقط هذا العنوان وأشار اليه في مقالته وقرنه بشكل ساخر بمجموعة العارضين، وهكذا علق الاسم. نافس الجمهور الصحافة في عدائهم. انهمر سيل جارف من الإساءات على شكل توريات، وسخريات وإهانات. ذهب الناس إلى المعرض بهدف التسلية. لكن ضحكاتهم سرعان ما تحوّلت إلى غضب، حين رأوا الموضوعات المرسومة بريشة ديغا وسيزان؛ وهزأوا بالفتيات الفاتنات اللائي رسمهن رينوار. لوحته "La Loge" (المقصورة)، أصبحت هدفاً لسخرية خاصة. تعليقات، مثل (يا له من مغفل!) و(أين عثر على هاته الموديلات؟)، كانت تسمع من كل جانب. النماذج المصوّرة مثلت عمي ادمون ونيني الحبيبة. ادعّى ابن سيزان بأن واحداً من الزوار الحانقين بصق على "صبي في صدارة حمراء"، لوحة سيزان، التي حققت أخيراً سعراً خيالياً في لندن، وأعدّت نسخ منها للنشر، مع المقالات التي كتبت عنها، في كل أنحاء العالم. إنها مسافة بعيدة من عام ١٨٧٤ إلى عام ١٩٥٩ ! بينما كان رينوار ورفاقه يدفعون ثمن الهزيمة. بيعت لوحة "شحنة مدرّعات" لميسونييه[٥٢] لرجل أمريكي بمبلغ لافت يناهز الثلاثمائة ألف فرنك.

---

(٥٢) رسام فرنسي، إختص بالمواضيع الحربية الدرامية.

Twitter: @ketab_n

أمامي عدد من قصاصات صحف صدرت عام ١٨٧٤، تثير الأسف. النقد الساخر العنيف التالي من صحيفة لابرس، الصادرة يوم الأربعاء ٢٩ نيسان:

أمام الصالون. معرض الثوريين

... هذه المدرسة ألغت شيئين: الخط، الذي بدونه من المستحيل تصوير شكل كائن حي أو مادة ؛ اللون، الذي يمنح الشكل مظهره الواقعي.

لطخ ثلاثة أرباع قماشة اللوحة بالأسود والأبيض، وادعك الفضاء الباقي بالأصفر، وانثر بضع بقع من الأحمر والأزرق هنا وهناك، سيكون لديك "إنطباع" عن الربيع، يجعل من هواة الفن يحلقون في عالم من النشوة.

وسخ القماشة باللون الرمادي، وإطرح بضعة خطوط سوداء أو صفراء عليها، وسيقول لك العرّافون بأنه انطباع عن الغابة في ميدون.

حين يتعلق الأمر بالشكل البشري، فهي مسألة أخرى تماماً، فالهدف ليس نقل الشكل، النموذج، التعبير، بل نقل " الإنطباع "، من دون أي خط محدد، من دون ظل أو ضوء. من أجل إنجاز نظرية بعيدة الإحتمال مثل هذه، فإن المرء يقع في فوضى عديمة المعنى، جنون، غرابة، ليس لها، لحسن الحظ سابقة في تاريخ الفن. لأنه لا شيء سوى إنكار لمعظم القواعد الأساسية للرسم والتصوير الزيتي. خربشات الطفل، لها سذاجة وصدق مؤثران في النفس بقدر ما هي مسلية. لكن التجاوزات التي إنغمست بها هذه المدرسة هي مدعاة للغثيان والتقزز.

في صالون ديه ريفوسي (المرفوضون) الشهير (١٨٦٣)، الذي لا يخطر في الذاكرة من دون السخرية، يمكن للمرء رؤية نساء بلون التبغ الاسباني، وهن يمتطين خيولاً صفراء، في غابة بأشجار زرقاء. لكن ذاك المعرض كان لوفرا حقيقياً مقارنة بالمعرض الذي نظم في بولفار ديه كابيسين.

Twitter: @ketab_n

بعد إلقاء نظرة فاحصة على الأعمال المعروضة (وأنا أنصح الزائرين بشكل خاص باللوحات ذات الأرقام ٥٤، ٤٢، ٦٠، ٤٣، ٩٧، ١٦٤)، فأنا أميل إلى التساؤل في ما لو كانت هناك محاولة متعمدة لإرباك الجمهور، والا فإن الأعمال المعروضة هي نتاج جنون عقلي، ولا يمكن سوى الرثاء له. اذا كان الإستدلال الثاني صحيحا، فإن هذا لا يستدعي رأي ناقد بل رأي دكتور بلانش.

(أفتح هنا قوسين لتحديد اللوحات ذات الأرقام المشار إليها: رقم ٥٤: درس الرقص، ديغا. رقم ٤٢: البيت المعلق في أوفر- سير- واز، سيزان. رقم ٦٠: بروفات باليه على المسرح، ديغا. رقم ٤٣: أولمبيا عصرية، سيزان. رقم ٩٧: بولفار ديه كابيسين، مونيه. رقم ١٦٤: روضة، سيسلي. رينوار، لم يكن له الشرف أن ينال سهام الناقد).

لكن لا! كل هذا جدّي، أنجز بجدية، نوقش بجدية، وأشير اليه كأنه تجديد في الفن. فيلاسكيز، غروز، انغريه، دولاكروا، تيودور روسو، كل هؤلاء هم عاديون: انهم لم يفهموا الطبيعة أبداً؛ انهم ببساطة رسامون مبتذلون ولى زمنهم، لهذا ينبغى على الوصي على المتحف أن يرمي أعمالهم في القبو.

ولا يتهمنا أحد بالمبالغة، فجميعنا أصغى إلى حجج الرسّامين هذه، والى تلك التي لمعجبيهم، في غاليريهات دروو، ونحن نعرف بأن لوحاتهم هناك لم يبع منها أكثر مما بيع منها لدى تجار اللوحات في شارع لافيت، الذين راكموا هذه التخطيطات الفظة في زوايا محالهم، بأمل أنهم سيتخلّصون منها يوماً ما. سمعناهم يطنبون في الحديث عن نظريتهم، بينما كانوا ينظرون بإزدراء إلى الرسم الذي إعتدنا الإعجاب به. سخروا من كل شيء تعلمنا بحرص أن نحبه، مرددين على نحو لا متناه وبغرور متعجرف، ((اذا كنت تعرف أي شيء عن شعلة العبقرية، عليك أن تعجب بمانيه - وبنا نحن، أيضاً، لأننا مريدوه))!

أميل غاردون

Twitter: @ketab_n

لكن هناك مقال مؤيد، من لوسييكل، في ٢٩ نيسان:

قبل بضع سنوات راجت إشاعة في محترفات الرسم، بأن مدرسة جديدة في الرسم نشأت حديثاً. ماذا كانت أهدافها، منهجها، حقل مواضيعها ؟ كيف ميّزوا نتاجهم عن نتاج مدارس الأسلاف، وأي تأثيرات أحدثوها في الفن المعاصر؟ كان من الصعب، في البداية، فهمهم. أعضاء هيئة التحكيم من الخبراء أقاموا العقبات في طريق القادمين الجدد. أوصدوا أبواب "الصالون" في وجوههم وحرموهم من منافع الدعاية. وبكل وسيلة، وبدافع من الأنانية والبلاهة والحسد، حاولوا أن يجعلوا منهم إضحوكة للناس.

وهم مضطهدون، محظورون، مشنّع عليهم، ومبعدون عن الفن الرسمي، قام الفوضويون المزعومون بتجميع أنفسهم. أجّر لهم دوران – رول، وهو المنيع عن التحامل الرسمي، قاعة عرض، ولأول مرة أتيحت للجمهور فرصة اكتشاف الميول الفنية لأولئك الذين، لسبب غير معروف، أُطلق عليهم "يابانيو الرسم". وقت طويل مضى منذ ذلك الحين. بتعاضد عدد من الأعضاء الجدد، شكّل هؤلاء الرسّامون جمعية تعاونية، واستأجروا المحترف السابق للفوتوغرافي نادار، في بولفار كابيسين. وهناك، في مكان خاص بهم رتبوه بجهودهم الشخصية، وأقاموا معرضهم الأول...

... دعونا نفحص ما قيل لنا انه شاذ جداً، ومدمِر للنظام الإجتماعي عند أولئك الثوريين المتطرفين. أقسم برماد كابانيل وجيروم بأن هناك موهبة، وموهبة كبيرة. هؤلاء الشباب لديهم أسلوب في فهم الطبيعة، لا هو ممل ولا هو بتافه. انه حي، رشيق، رقيق ؛ بإختصار، انه يسلب اللب. يا له من إدراك ثاقب بالموضوع، ويا لها من طريقة صنع مشوّقة حقا. انه خلاصة، لكن كم هو ملائم كل خط...

... والآن، ماذا نحسب هذا التجديد ؟ هل ننظر اليه كثورة ؟ الجواب

Twitter: @ketab_n

هو لا. لأن أساس الفن وشكله، إلى درجة كبيرة، يبقيان نفسهما. هل هو، إذاً، يهيء لقدوم مدرسة جديدة ؟ مرة ثانية، الجواب هو النفي؛ لأن أي مدرسة تعيش على الأفكار، لا على الوسائل المادية، وتميز نفسها بعقائدها، لا بإنجازها. إن لم يكن ثورة، وإن لم يتضمن أصل مدرسة، ما هو إذاً ؟ هذه المرة، الجواب هو "اسلوب" ولا شيء آخر. بعد إنجازات كوربيه، دوبنيي وكورو، لا يمكن أن يقال إن الإنطباعيين إبتكروا أسلوبا لا متناهيا. لكنهم مجّدوه، أعلوا شأنه، صاغوه في نظام، وجعلوه حجر الأساس للفن؛ وضعوه على قاعدة وأدوا له فروض العبادة. هذه المبالغة ما هي الا تكلف، وما هو مصير التكلف في الفن؟ سيظل العلامة الفارقة للرجل الذي ابتكره أو المصلى الذي يتعبد له فيه، ويحد من مجال إنتشاره، ويجمده، ويجعله عاجزا عن الإنتاج، وعاجلا، يحكم عليه بالإنطفاء.

في بضع سنوات، سيتجزأ هؤلاء الفنانون الذين اجتمعوا اليوم في بولفار ديه كابيسين. الأقوى بينهم، أولئك الأصيلون، سيدركون بأنه بينما هناك مواضيع معينة تمنح نفسها للتفسير الانطباعي، فإن هناك مواضيع أخرى تتطلب تعبيرا أكثر وضوحا وتستلزم أنجازا دقيقا. بإختصار، تفوق أي رسام، يكمن في قدرته على التعامل مع كل موضوع طبقا للأسلوب الذي يلائمه، وبالتالي أن لا يكون منهجيا قط، وأن يختار بجسارة شكل التعبير الذي يجسّد أفكاره بشكل أفضل. اولئك الذين سينجحون، بعد زمن مناسب بإتقان رسمهم، سيتركون "الإنطباعية"، إذ ستغدو بالنسبة لهم فنا سطحيا. أما أولئك الآخرون، الذين سيتهاونون بالتفكير والتعلم، فسيواصلون الانطباع حتى النفس الأخير، ومثال لوحة مسيو سيزان "اولمبيا العصرية" يمكن أن يدل على المصير الذي ينتظرهم، مصير الرمي في الأقبية. سيتابعون دربهم من مثالية إلى أخرى، حتى يصلوا إلى مرحلة من الرومانسية الجامحة، حيث الطبيعة ليست أكثر من ذريعة لحلم اليقظة، وحيث المخيلة عاجزة عن تصوّر

Twitter: @ketab_n

أي شيء عدا الخيالات الشخصية والذاتية، التي هي غير منطقية تماماً، لأنها غير قابلة للتحكم ولا يمكن تحقيقها في الواقع.

كاستينياري

من السهل فهم كيف أن هذه النية الطيبة والمهدئة للناقد أربكت العارضين. تعليقا على هذا المقال، إعترف رينوار في واحد من أحاديثنا، بأن إستياءه كمبتدئ يبدو له الآن صبيانيا (لم نكن نصدق إن أحداً يجرؤ على مهاجمة الإنطباعية)، قال. (يا لها من دناءة! شعرت بنفسي، مثل بولوكت بطل كورناي، راغبا بتحطيم الأوثان. كان ذلك قبل أربعين سنة. الآن أنا ميال إلى موافقة كاستنياري، في ما يتعلق بالإنطباعية. لكني لا زلت أحس بالغضب حين أتذكر انه لم يفهم بأن لوحة سيزان، "اولمبيا العصرية"، كانت تحفة كلاسيكية، أقرب إلى جورجيوني من كلود مونيه، وهي مثال ساطع عن الرسام الذي كان تجاوز مسبقا الإنطباعية. ماذا نفعل مع هؤلاء الناس الأدبيين، الذين سوف لن يفهموا أبداً بأن الرسم براعة، وأن الجانب المادي منه يحل في المقام الأول؟ الأفكار تأتي لاحقا، حين تتم اللوحة. بعد سماع ما يقوله هؤلاء الناس، كيف يمكن للمرء التصديق بأنه لا يزال هناك مجال للرسّامين في فرنسا؟).

لكن تفاؤله ما لبث أن تجدد: (الفرنسيون يمارسون الكثير من الرسم، لكنهم لا يحبونه). ومرة أخرى: (نحن لا نعمل من أجل النقاد، أو من أجل التجار، أو حتى من أجل محبي الفنون عامة، بل فقط من أجل نصف دزينة من الرسامين المؤهلين لتقوّم جهودنا، لأنهم يمارسون الرسم هم أنفسهم). ولأن هذا التوكيد الأخير بدا إيجابيا أكثر مما يلزم، فإنه أضاف، (نحن نرسم من أجل مسيو شوكيه، من أجل غانيا، ومن أجل الشخص المجهول

Twitter: @ketab_n

الذي يقف أمام واجهة محل تاجر اللوحات وينال دقيقتين من المتعة بالتطلع إلى واحد من رسومنا).

أود مواصلة اقتباس مقال آخر في عمود " أخبار الفن " من صحيفة لاباتري، عدد ٢١ نيسان ١٨٧٤:

... أنا، الذي لي الشرف أن أتحدث اليكم، لدي رغبة مهتاجة أن أقيم معرضا للنحت في بولفار ديز ايتاليان. أملك في المنزل بضع منحوتات...

لكن هل عندي سابقة ؟ زرت بالأمس معرضا في بولفار ديه كابيسين: مئة من الرسوم والصور الزيتية، توزعت على حيطان ثلاث أو أربع قاعات. هناك على الأقل دزينة منها، ربما كان "الصالون" سيقبل بها، لكن من أجل كثير منها لا بد أن يكون الحكام متسامحين...

لكن الباقي من اللوحات...! اولئك الذين لم يروها لا يمكنهم تخيل مدى حيرة الزائر. هل تذكرون "صالون ديه ريفوسي" ـ المعرض الأول، ذاك الذي كان بوسعك أن ترى فيه نساء عاريات بلون بسمارك صفراوي، واحصنة نرجسية، وأشجار بلون ماري- لويز أزرق ؟ حسناً، ذاك الصالون كان متحف اللوفر، متحف البيتّي، متحف الاوفيزي، قياساً بمعرض بولفار ديه كابيسين.

وأنت تنظر إلى اللوحات الفظة الأولى (وفظة هي الكلمة المناسبة لها)، ستهز كتفيك لامبالاة ليس غير ؛ وأنت ترى المجموعة الثانية ستنفجر بالضحك؛ لكن مع اللوحات الأخيرة سينتابك في النهاية الغضب. ستحس بالندم لأنك لم تعط الفرنك الذي دفعته، إلى شحاذ فقير.

تتساءل إن لم يكن هذا خداعاً، بالأحرى وقحاً لأن المخادع قصد من ورائه الربح. وإلا فإنه مضاربة بمهارة مشكوك فيها. انت حتى لا تستطيع الاحتجاج. سيُعرض عليك لوحات غريبة، بعض منها تقريبا جيدة، تقريبا معتدلة ـ هي إستثناءات، وسيقال لك، (هل ترى، لدينا هنا أيضاً أعمال جدية

Twitter: @ketab_n

؛ إن رأيتها لا تلائم ذوقك، فهذا ليس خطأ الجماعة التي عرضتها، الفن حر، من جهة أخرى، هل أنا متأكد بأن ما تراه هنا لا يمثل جهود عباقرة أسيئ فهمهم، جهود مجددين جريئين، ورواد الرسم المستقبلي؟). لاحظ أني قلت، سيقال لك، لكن لا أحد قال لك شيئاً. إن الأمر يتطلب الكثير من الوقاحة للإتيان بمثل هذا القول.

كما قلت، ذهبت إلى هناك أمس صباحا. كنت مع عشرة أو خمسة عشر زائراً، من رجال ونساء. البعض منهم كان ضحية إرتباك شديد، وهم لا يعرفون أحدهم الآخر، قرروا أن يضحكوا معا (بمرارة قليلاً)، بينما هم يهتفون قائلين، (أحسنتم عملا!) إنهمك الآخرون بكل أنواع الفرضيات الغريبة والمجانية. وتلك بعض الأمثلة:

إن مدراء مدرسة الفنون الجميلة هم الذين نظّموا هذا المعرض ليسوغوا رفض هيئة التحكيم عندهم الاعتراف بهذه الرسوم. بعد رؤيتها، سيقول الناس كم كانت هيئة التحكيم محقّة بنبذ مثل هذه الأشياء المرعبة.

- إسمحي لي، أنت مخطئة. هذه الأشياء لم ترفض من قبل لجنة التحكيم، لأنها لم تخضع لتقييمهم. هذا معرض حر.

- حسنا، إنه إذاً منكّت سمج أراد أن يسلي نفسه، فغمس فرشاته بالأصباغ، ملطخاً بها ياردات وياردات من القماش، موقعاً عليها بأسماء مختلفة.

- أنت مخطئة مرة أخرى، سيدتي العزيزة. هذه أسماء حقيقية، لا أحد ابتدعها.

- في هذه الحالة، لا بد أنهم من تلاميذ مسيو مانيه.

- لقد لامست الحقيقة. من المحتمل أنهم تلاميذ مسيو مانيه، لكنهم من اولئك الذين رفض الأستاذ تبنيهم.

Twitter: @ketab_n

ـ عجبا ! تلاميذ نبذهم مانيه ! من هم يا ترى؟

ـ أنظري حولك، وستعرفين.

ـ لكن أليس مسيو مانيه نفسه قد تم رفضه هذه السنة؟

ـ أجل، هذا صحيح. لكن هذا لا يعني انه لا يملك الحق بأن يرفض، هو بدوره، أعمال هؤلاء التلاميذ الذين جنحوا بعيدا جدّاً عن الواقعية. هاك، أنظري إلى اللوحة رقم ٤٢ ("البيت المعلق" لسيزان).

ـ ألا تعتقد، مسيو، بأنه من الأولى أن يكون هناك الكثير من النقد على نهج مانيه ؟ سيكون مسليا.

ـ لا، لا أعتقد ذلك. اسألي هؤلاء الذين أنجزوا هذه اللطخات، وسيقولون لك، بنظرة مشفقة، بأنك لا تفهمين شيئاً عن شطحات العبقرية ؛ أو حول الفن مجددا نفسه. "انتم تنتمون إلى الرجعيين القدماء" سيقولون. "انتم عالقون في الروتين ؛ انتم عبيد للمبتذل، بعبادتكم رافايل وموريو، وكل البقية. المدرسة القديمة ولّت أيامها، وقد شبعنا منها. إفسحوا الطريق للواقعية ؛ واكبوا الجديد ! يعيش مانيه، ويسقط اللوفر ! يسقط فن النهضة، الركوكو !"

انهم حسنوا النية تماماً. لكن هذا لم يمنعهم من الرسم بطريقة تبدو معها حتى أكثر رسوم مانيه قذارة، عملاً من أعمال كورفاجيو أو كروز، مقارنة بما يقدمه الانطباعيون.

أي. أل. تي.

أود أن أتبع هذا المقال بهذه الملاحظة الباريسية الصغيرة، من لاباتري، عدد الخميس ١٤ أيار ١٨٧٤. في عمود عن أخبار معارض مختلفة:

... هناك معرض للمتعصبين في بولفار ديه كابيسين، أو بالأحرى

Twitter: @ketab_n

يمكنك القول، معرض للمجانين، الذي كتبت لكم تقريرا عنه سابقا. اذا رغبت بالتسلية، وكان لديك وقت تضيعه، لا تتردد بزيارته.

أي. أل. تي.

ولتكملة القائمة، دعوني أقدم لكم مقال ليروي ـ لوكاريفاي، ٢٥ نيسان ١٨٧٤:

معرض "الانطباعيين"

بقلم: لوي ليروي

كان يوماً حزينا جزئيا، حين تجرأت في الذهاب إلى المعرض الأول في بولفار ديه كابيسين، برفقة مسيو جوزيف فنسان، رسام المناظر الطبيعية، الذي كان تلميذا لبرتان، والذي كُرّم بأوسمة من حكومات مختلفة عديدة.

صاحبي المندفع، أتى مطمئناً، لأنه تخيل انه سيشاهد رسماً من النوع الذي يُشاهد تقريبا في كل مكان، جديد ورديء ؛ لا النوع الذي يهاجم التقاليد الفنية الجدية، على احترام الشكل، أو احترام الأساتذة العظام. واحسرتاه على الشكل وعلى الأساتذة العظام ! فهم لم يعودوا ضروريين، يا صديقي العزيز. لقد غيرنا كل شيء.

في القاعة الأولى، تلقى مسيو فنسان صدمته الأولى، حين شاهد "الفتاة الراقصة" لديغا.

(وآسفاه !) قال لي، ان الرسام، مع مهارته باللون، لم يرسم أفضل ! ساقا راقصته مهلهلة مثل شاش تنورة الباليه التي ترتديها.

ـ أنت قاس عليه قليلاً. أجبته. رسمه متين جداً.

Twitter: @ketab_n

هز مريد برتان كتفيه استهجاناً، معتقدا بأني أقصد السخرية، من دون أن يكلف نفسه الإجابة علي. ثم قدته، وعلى نحو بريء، أمام "الحقل المحروث"، بريشة مسيو بيسارو. وفي اللحظة التي وقعت فيها عيناه على ذلك المنظر المذهل، ظن ان نظارته غشاها الضباب، أزالها ونظفها بعناية، وأعاد وضعها على أنفه، ثم نظر ثانية.

ـ ما هذا بحق الجحيم؟ هتف قائلا.

ـ ألا ترى، قلت. إنها تمثل أخاديد المحراث مكسوة بالصقيع.

ـ هذه؟ أخاديد محراث! هذا صقيع؟ لكنّها ليست سوى مواضع مكشوطة بالألوان، موضوعة بخطوط متوازية على قطعة من قماش قذر. ليس لها رأس أو ذيل، لا قمة ولا عمق، أو أمام أو خلف.

ـ ربما هي كذلك، لكنها انطباع، برغم كل شيء.

ـ حسناً، إنها إنطباع غريب... آه، وما هذا ؟

ـ إنها "أشجار بستان"، بريشة مسيو سيسلي. أعتقد أن الأشجار الصغيرة على اليمين ستعجبك. أنها زاهية، لكن الانطباع هنا...

ـ هيا، أرحني من انطباعك... أنها غير مكتملة، ولا يجب أن تكون مكتملة. لكن هاك، "منظر لميلون" بريشة مسيو رور. ثمة شيء ما في الماء... والظل في مقدمة الصورة غريب جداً.

ـ انه تذبذب درجات اللون هو الذي يقلقك.

ـ لو قلت لطخات بدل درجات، ربما كنت سأفهم أفضل. أه ! كورو، كورو، أي جرائم ترتكب بإسمك ! أنت من بدأ موضة الأداء الركيك هذه، والألوان الشفافة والبقع التي أزعجت عشاق الفن لثلاثين سنة، ولم يقبلوها

Twitter: @ketab_n

الا صاغرين، بسبب إصرارك الهادئ. مثال آخر على قطرة الماء التي فلقت الصخر.

برغم ان الرجل المسكين بدأ يهذي بهدوء، فلم يمكنني أن أتنبأ بالمشهد المؤسف الذي حدث بعدئذ نتيجة لزيارته هذا المعرض.

تحمل لوحة مونيه، "زوارق الصيادين تغادر الميناء"، من دون أن تثار أعصابه كثيراً بسببها، ربما لأني سحبته بعيدا عن هذا المنظر الخطر، قبل أن يترك الشكل الصغير المنفر في مقدمة اللوحة أثرا عليه. لسوء الحظ، كنت من الحماقة بحيث جعلته يقف لوقت طويل جدّاً أمام لوحة الرسام نفسه، "بولفار ديه كابيسين".

ـ ها ها ! ضحك هازئا. هذه الواحدة هي نجاح حقيقي. هناك إنطباع ما، أو ربما أنا لا أعرف الإنطباع حين أراه. لكن، من لطفك، هلا أخبرتني ماذا يعني كل هذا الرذاذ الأسود في عمق الصورة؟

ـ لكن، هؤلاء مشاة. أجبته.

ـ وهل أبدو هكذا عندما أمشي في بولفار ديه كابيسين ؟ بحق السماء، هل تمزح معي.

ـ أؤكد لك، مسيو فنسان...

ـ لكن هذه البقع عملت بنفس الطريقة التي تستخدم في طلاء صوان النافورات، برشها بعنف وعجلة. هذا غريب، فظيع. لو رأيت المزيد، سأصاب بسكتة دماغية...

حاولت أن أهدئ من روعه، وأريته "قنال سان - دني" لمسيو لوبين، و"هضبة مونمارتر" لمسيو اوتان، كلتاهما بدرجات لون صافية. حين وصلت

Twitter: @ketab_n

إلى "نبات الملفوف" لمسيو بيسارو، انقلب وجه صديقي من اللون الأحمر الزاهي إلى اللون القرمزي الداكن.

ـ هذا ملفوف، قلت له، بصوت مقنع.

ـ يا للنبات التعس ! يا له من كاريكاتير! سوف لن آكل ثانية ملفوفا أبدا.

ـ لكن هذا ليس خطأ الفنان، اذا كان...

ـ توقف ! كلمة أخرى، وسأرتكب جناية.

فجأة أطلق صرخة، عندما شاهد "البيت المعلق" لمسيو بول سيزان. الصبغ الكثيف لهذه الجوهرة الصغيرة أكمل الضرر الذي بدأ بلوحة "بولفار ديه كابيسين". إنتاب العجوز انفعال رهيب.

في البداية، لم يكن جنونه واضحا، لكن بدت علائمه جلية حين تحول على نحو غير متوقع إلى صف الإنطباعيين، وبدأ يدافع عنهم.

ـ بودان، لديه موهبة، قال لي، بينما كنا واقفين أمام لوحة "ساحل" لهذا الفنان. لكن لماذا يضع الكثير من الزخارف على بحره ؟

ـ آه، انت تعتقد، إذاً، ان رسمه مبالغ فيه؟

ـ لا مجال للشك. كلمني عن مدموزيل بيرث موريسو. هذه الشابة لا تزعج نفسها بوضع كثير من التفاصيل اللامجدية. حين ترسم يد، كما في لوحتها "القراءة"، فإنها تقوم بضربات فرشاة طولية، بالقدر الذي توجد فيه أصابع، ويكون الشيء قد أُكمل. البُلهاء الذين يضيعون وقتهم في تفاصيل اليد، لا يفهمون الفن الإنطباعي، وسيطردهم مونيه العظيم من جمهوريته.

ـ إذاً، مسيو رينوار هو في المسار الصحيح. ليس ثمة أشياء زائدة أو غير ضرورية في لوحته "الحاصدون". ويمكنني القول حتى ان شخصياته...

Twitter: @ketab_n

ـ ... مرسومة بشكل أكثر من جيد.

ـ لكن، مسيو فنسان، أنظر فقط إلى تلك الضربات الثلاث من اللون التي يفترض انها تمثل رجلا يعمل في حقل حنطة.

ـ هناك إثنتان، وهذا كثير. واحدة تفي بالغرض.

ألقيت نظرة على تلميذ برتان الكفء. أحسست بالقلق من أن أرى وجهه تغير ببطء إلى اللون البنفسجي الداكن. بدا ان كارثة ما وشيكة الحدوث ؛ في الواقع، كان مسيو مونيه هو الضحية الذي ستتلقى الهجوم لأخير.

ـ أه، تفضل ! صرخ، حين وصل إلى اللوحة رقم ٩٨. ماذا تمثل هذه اللوحة ؟ ماذا يقول البروشور عنها ؟

ـ " إنطباع، شروق شمس ".

ـ إنطباع ! كنت متأكدا من ذلك. لا بد ان هناك إنطباعا ما في مكان ما هنا. يا له من تعبير عن الحرية، يا له من يسر في طريقة الصنع ! الورق في مرحلة العجينة منجز أكثر من هذا الرسم.

ـ لكن ما الذي كان سيقوله بيدو، بواسولان، برتان أمام هذا الإنطباع المؤثر؟

ـ لا تذكر أسماء هؤلاء الشنيعين البلهاء! صاح العجوز فنسان.

المسكين التعس تنكر لآلهته المفضلين.

حاولت إنقاذ عقله الواهن، إذ أريته "منظر بركة" لمسيو رور التي كانت تقريبا عملا متقنا ؛ ولوحة "دراسة لقصر سافوا" لمسيو اوتان، التي كانت صقيلة جدّاً وصافية، لكن عبثاً. كانت تجذبه الأشياء المرعبة فقط. لوحة مسيو ديغا، "الفسّالة" (التي تحتاج هي نفسها أن تغسل) جعلته يصرخ إعجاباً.

Twitter: @ketab_n

حتى سيسلي بدا طريفاً ومفرط التأنق بالنسبة اليه. بسبب هوسه الجديد هذا، وخشية إزعاجه، بحثت عن أي شيء مقبول بين هذه الصور الإنطباعية، وافترضت أن الخبز وفتات الطعام والكرسي في لوحة مسيو مونيه " الغداء " هي آثار فنية في فن الرسم. لكنه رفض هذا الإفتراض.

ـ لا، لا! صرخ. في هذه، أظهر مسيو مونيه ضعفه. لقد ضحى من أجل إله ميسونييه المزيف. إنها مبالغة، مبالغة. حدثني عن "أولمبيا عصرية" لسيزان، فهذا هو الوقت المناسب. لنذهب ونلقي نظرة على سيزان مرة أخرى. ماذا نرى؟ امرأة محنية، بينما تخلع عنها خادمة زنجية الطرف الأخير من خمارها، لتظهرها بكل قبحها، أمام العين المحدقة لدمية سوداء البشرة. هل تتذكر لوحة مسيو مانيه، "اولمبيا"؟ حسنا، انها تحفة من التصميم الهندسي مقارنة بلوحة مسيو سيزان هذه. أخيراً، طفح الكيل. غدا عقل العجوز فنسان الأكاديمي، وقد هاجمته أفكار عديدة فجأة، مشوشاً تماماً. وقف أمام شرطي باريسي، انتصب هناك ليحرس هذه الكنوز، وظنه بورتريهاً مقدماً نفسه لِلَدغ النقد.

ـ إنه رديء جداً، قال فنسان. فلديه عينان، وأنف، وفم في المقدمة. الإنطباعيون لا يزعجون أنفسهم بمثل هذه التفاصيل. بهذه القسمات الزائدة التي وضعها الفنان في وجهه، يمكن لمونيه أن يرسم عشرين شرطيا باريسيا.

ـ على مهلك يا رجل، قال الشرطي البورتريه. من الأفضل أن تمشي من هنا.

ـ هل سمعت هذا ؟ ان اللوحة تملك حتى صوتاً! المتحذلق الأحمق، الذي إنتزع كل هذا الكمال من عمله، لا بد انه قضى في ذلك وقتاً طويلاً. ثم، كي يظهر لي كم هو جدّي بجمالياته، بدأ العجوز فنسان بأداء رقصة فروة الرأس للهنود الحمر أمام الشرطي، ففنى واضعاً يده على فمه: هو هوا أنا

Twitter: @ketab_n

في الإنطباعية أسير، في يدي شفرة وملون جاهزان للثأر لمونيه "بولفار ديه كابيسين"، ولسيزان "البيت المعلق" و"أولمبيا عصرية". هوهوا هوهوا!))

استغرق مني بعض الوقت، كي أدرك بأن المقال الذي إقتبسته لتوي، كان يقصد السخرية. فقد فهمت إن إهاجة كاتب المقال لصديقه الرسام كانت بمثابة مديح صادق. كانت هذه السخرية تعرف بخفة دم البولفار، التي إختفت منذئذ، مع المشدات والأثاث المقلد لعصر النهضة. قال رينوار: (الفكاهة الانكليزية سطحية مثل خفة الدم الباريسية، لكن، على الأقل، في الجانب الآخر من المانش يغسلون أقدامهم من وقت لآخر). لم أقتبس المقالات التي كانت في صالح المعرض، التي كتبت بأقلام أصدقاء، مثل ريفييه وادمون رينوار.

الرسام الذي كان موقفه أسوأ بين العارضين هو أبي، لأنه تلقى أقل الإهانات. فقد اعتبر أتفه من أن يلاحظ. (لقد تجاهلوني، وكان هذا مثيراً للإحباط).

بعد المعرض، قلّ عمل البورتريهات، الذي كان الإنطباعيون يعتمدون عليه لكسب لقمة العيش. إذ لم يعد الناس يجرؤون على أن يعلقوا في بيوتهم أعمال الفنانين الذين أنتقدوا بقسوة من قبل العقول النيّرة في ذلك الوقت. من جهة أخرى، اشترى الموالون المخلصون، أمثال شوكيه، شاربنتييه، كايبوت، بيرار، غاشيه والبقية، ما يمكنهم شراؤه من اللوحات، وجدرانهم كانت مغطاة أصلاً بأعمال المدرسة الجديدة. المزاد العلني الثاني لبعض من أفضل لوحات رينوار وسيسلي وبيسارو جلب ثلاثمائة فرنك فقط. في حين باع الرسّامون "الرسميون" أعمالهم بأسعار عالية، وتغدق عليهم الأوسمة والتكريم، ويعيشون في منازل راقية. (لا تدع أحداً يقول لك بأن كل هذا كان

Twitter: @ketab_n

من الدولة ومدرسة الفنون الجميلة أو من المعهد. فالجمهور إستمتع بذلك النتاج التافه).

في وقت ما، فكر أبي في إمكانية عودته ثانية إلى عمل تزيين جدران المقاهي، لكن " الفلينة " أبقت رأسه مرفوعا. (كنت تذوّقت الفاكهة المحرمة، ولم يكن في نيتي التخلي عنها).

Twitter: @ketab_n

١٥

من حسن الحظ هناك مونيه الذي ارتفع إلى مستوى الحدث بطريقة مدهشة. رفض أن يستسلم لأول نكسة وحتى لتلك التي تبعتها. رسم خطة عجيبة جداً، كان أبي يضحك كلما تذكرها، حتى بعد أربعين سنة. كان المنظر الطبيعي لمونيه "انطباع" محل سخرية، لأنه (لم يمكن لأحد أن يرى فيه شيئاً). كان مونيه يقول، وهو يهز كتفيه بعجرفة. (الحمقى العميان المساكين. إنهم يريدون أن يروا كل شيء بوضوح، حتى من خلال الضباب!). قال له أحد النقاد، بأن ذلك الضباب لم يكن موضوع لوحة ملائم: (لم لا يكون مشهد قتال زنوج في نفق مظلم؟)، اقترح قائلا. الافتقار الجمعي للفهم منح مونيه رغبة لا تقاوم بعمل رسوم ستكون مضببة أكثر. في أحد الأيام، قال لرينوار بانتصار: (لقد وجدتها ! غار سان- لازار! سأصور هذه المحطة في اللحظة التي تهم فيها القاطرات بالإنطلاق، مع كل الدخان المنبعث من الماكنات، الكثيف جداً بحيث يمكنك بالكاد رؤية شيء. انه مشهد خلاب، فتنة حقيقية). لم يرد بالطبع، رسم المحطة من الذاكرة. كان سيرسمها in situ (على الطبيعة)، كي يقبض على تموجات أشعة الشمس على البخار المتصاعد من القاطرات. (سأجعلهم يؤخرون القطار الذاهب إلى الرون نصف ساعة. سيكون الضوء أفضل عندئذ). (أنت مجنون)، قال رينوار.

Twitter: @ketab_n

لم يكن لدى "الانطباعيين" ما يكفي ليأكلونه، بالمعنى الحرفي للكلمة. كانوا يتدبرون أمرهم فقط بدعوات العشاء التي تأتي بالمصادفة. لم يمكن لأبي أن يدفع للكريميري (المطعم الصغير) الرخيص الذي اعتاد أن يذهب إليه. صاحبته، كانت امرأة طيبة تدعى مدام كاميل، وودت عن طيب خاطر أن تقرضه بعض النقود، لكنه كان يخشى الا يستطيع ردها. في الوقت نفسه، كان أخوه ادمون مجبرا على تأجيل مشروعين مهمين: زواجه ونشر "الانطباعي"، وهي مجلة مكرسة كليا لـ"الرسم الجديد". سيزان، كان قد رجع إلى ايكس - ان - بروفانس. ديغا، تعطل في شقته المريحة في شارع فكتور ماسي. أما مونيه، فرغم كل شيء، ارتفع فوق كل الطوارئ. في يوم ما، ارتدى أفضل ملابسه وغضن تخريمة معصمي سترته، وسار وهو يبرم عصاه الذهبية الرأس نحو مكاتب السكك الحديد الغربية، حيث سلّم هناك، حين وصل، بطاقته ليدخلوها إلى المدير. دعاه الحاجب المرهوب إلى الدخول مباشرة. طلب منه المدير الجلوس، وبتواضع قدم الزائر نفسه على انه (الرسام كلود مونيه). لم يكن مدير الشركة يعرف شيئاً عن الرسم، لكنه لم يجرؤ على الاعتراف بذلك. أتاح مونيه لمضيفه أن يرتبك بالأمر للحظات، ثم تعاطف فأعلن عن الغرض من زيارته.

(قررت أن أرسم محطتكم. كنت متردداً، لبعض الوقت، بين محطتكم وغار دي نورد، لكني أعتقد أن محطتكم لها سمات مميزة أكثر). بعدئذ، نال الموافقة على فعل كل ما يشاء. كانت القطارات كلها متوقفة، والأرصفة مفرّغة، والماكنات محشوة بالفحم، كي تنفث كل البخار الذي يرغب فيه الرسام. نصّب مونيه نفسه في المحطة كطاغية، وسط خشية مفعمة بالإحترام. في النهاية، غادر مع نصف دزينة أو ما يقارب من التخطيطات، بينما وقف مدير الشركة وكل العاملين يحيونه برؤوس مطأطأة وهو يغادر. إختتم رينوار قائلاً: (أنا نفسي، لم أكن أجرؤ على الرسم حتى أمام البقال في زاوية الشارع).

Twitter: @ketab_n

أخذ بول دوران- رول صور "غار سان- لازار"، كما أعد ترتيبات بالدفع مقدما إلى محميه الفنانين. هذا البرهان على حيوية المدرسة الجديدة كان مفيدا للكل.

لم يكن مونيه وحده من له ثقة بنفسه وبأصدقائه. حتى الطلاب الشباب من مدرسة الفنون الجميلة كانوا يناصرون الإنطباعيين. حين كان عمود فوندوم يرمم، حوروا إغنية معروفة:

Monsieur Courbet a dit à Cabanel:

Cabanel,

Pourquoi peins tu avec du caramel

penses-tu Gérôme Que

De la colonne Vedôme

a n'vaut pas l'jaune de chrôme?

Faudra la démolir

Pou em... l'empire [٥٢]

لم يمر يوم من دون أن يأتي رسام شاب لرؤية رينوار. في بعض الاحيان كان يقول له أحدهم، (مسيو رينوار، نحن كلنا نتمنى أن نرسم بالطريقة التي

---

(٥٢) مسيو كوربيه قال لكابانيل

كابانيل

لماذا ترسم بالكاراميل

ما رأيك جيروم

بعمود فوندوم

أليس هو أصفر مثل الكروم

يجب أن يقوض بنار حامية

لتس... الامبراطورية

Twitter: @ketab_n

ترسم بها، لكننا لا نعرف كيف). (لكن لا شيء مميز فيه، كل ما عليكم فعله هو أن تنظروا حولكم)، كان يجيبه. وآخر كان يؤكد: (مسيو رينوار، حتى وقت قريب، كنت أعتقد أن الرسم الحقيقي هو دولاكروا، لكني الآن أعرف انه أنت!)، وكان أبي يعلق: (كما لو ان ليس هناك مجالاً لدولاكروا... ومئات الآخرين، بما فيهم خادمك المتواضع... في ركنه الصغير!) ثم يضيف: (يا لها من حماسة تشعر بها وانت في العشرين ! لماذا على الناس أن يتغيروا، ويتحولوا إلى سادة بقبعات عالية وسيدات بمشدات ضيقة ؟).

ذات يوم قام وفد مفوض منهم بزيارة رينوار، وكانوا مجموعة من حوالى إثني عشر شخصاً. (مسيو رينوار)، قالوا، (لقد رمينا كل أنابيب أصباغنا من اللون الأسود في نهر السين). تحيّر أبي. (لكن الأسود لون مهم جداً)، قال لهم، (ربما الأكثر أهمية)، وأشار إلى كثرة وجود اللون الأسود في الطبيعة. الخطأ الذي ارتكبه الرسّامون "البومبييه"، شرح قائلا، كان في رؤية اللون الأبيض فقط، وفي حالته الناصعة. الطبيعة تمقت الألوان "الناصعة".

حين كان يقوم بتدريب الخيول في بوردو وتارب، تعلم أبي، ان الحصان في نظر الفارس الحقيقي، ليس "أسود أو أبيض" أبداً. انهم الجنود المشاة وحدهم الذين كانوا يستخدمون هذه التعابير. الحصان الذي يبدو "أسود" هو كميت بني ؛ والحصان الأبيض هو رمادي فاتح. لون شعر جلودها ممزوج، فهو تركيب من درجات من اللون، تُرى كلون واحد، ويعطي إنطباعا بأن لون جلد الحصان هو أسود. وبين الشعر الذي لا يحصى فيه، حتى الأسود يظهر في صبغ مختلف. (نحن أيضاً يجب أن نستخدم الأسود، لكن في مزيج، كما هو في الطبيعة). في ما بعد، إستخدم رينوار اللون الأسود الصافي، وإن على نحو مقتصد، عارفا بشكل جيد ما يفعل، (لأن المرء يتعلم كل يوم).

أثناء أعوام التجربة هذه، فعل مونيه كل ما في وسعه لتشجيع الآخرين في

Twitter: @ketab_n

المجموعة، وعلى الأخص أبي. فتح عيونهم على ضرورة تبني مناهج جديدة، صانت في ما بعد حرفة الفن في عصرنا. وهنا جوهر حجته، كما فهمتها من أبي: نحن نعرف أن السكك الحديد حلت محل مركبات الجياد كوسيلة للسفر. لا أحد في الوقت الحاضر سيفكر بالذهاب إلى ليون في مركبة جياد، لأنه ليس هناك مركبات جياد. لمَ إذاً يتوجب على الرسامين البحث عن سبل عيشهم بمحاولة إكتساب هذا النصير السخي للفن أو ذاك، في حين لم يبق من نصير واحد؟ ما الذي حصلنا عليه من حماتنا ؟ عمل بورتريه بين الوقت والآخر، وبعد العيش بالعائدات لأسبوع واحد، نغدو معسّرين كما لم نكن من قبل أبداً. تماماً كما لو كنا نسافر بالقطار، مستخدمين المقاعد الموّسدة والمحطات الفخمة، التي دُفع ثمنها من قبل العدد الضخم من المسافرين، فإننا يجب أن نبيع عملنا للتجار في محالهم، الذي سيدفع ثمنه من قبل العدد الضخم من المشترين. زمن التجارة الفردية والمقايضة الشخصية ولّى. دخلنا عصر الأعمال الكبيرة. وبينما ينشغل تجارنا بجذب المشترين، سيكون بوسعنا إنجاز رسومنا بعيدا عن باريس، في الصين أو أفريقيا، أو في أي مكان نجد فيه المواضيع التي تلهمنا وترضينا.

كان الإنطباعيون يعرفون جيدا ان التاجر المؤهل الوحيد لإستمالة الجمهور، كان بول دوران - رول، الرجل العملي على الدوام. أشار أبي إلى أن دوران- رول كان الشخص الوحيد الذي تهمه أعمالهم حقا. لكن ورطتهم كانت تتلخص بكلمات قليلة: إما أن يمنحوا بطلهم احتكار عملهم، وإما يواصلون السعي وراء التكليفات الصغيرة مع كل خيبات الأمل العالقة بمهنة الوسيط. تكهن رينوار بأن الحل الأول الذي هو بأي حال من الأحوال حتمي، يمكن أن يفتح الباب أمام المضاربة. تاجر بمثل جرأة دوران- رول، كان ملزماً أن يكون مضارباً بسبب شجاعته الفائقة. فهو الشخص الوحيد الذي حاول، قبل عشر سنوات من ذلك، ان يمتلك كل لوحات تيودور روسو. في ظل النظام

Twitter: @ketab_n

الجديد، يمكن للتجار الذين يمتلكون إحتكارا ان يجعلوا من قيمة سلعهم ترتفع أو تهبط حسب اختيارهم. للتأثير على السوق، كل ما عليهم هو إغراقه بالبضائع أو إفراغه منها. وحينذاك، ربما، يبدأ هواة الفن والجامعون بشراء اللوحات من أجل المال، لا من أجل المتعة أو تعليقها في صالات إستقبال منازلهم. (وبعد...!)، رد مونيه. (الشيء المهم، هو أن نكون قادرين على المضي في تجاربنا). على أي حال، كانت الحجج المؤيدة والمعارضة مضيعة للجهد، فالنظام كان أصلا دخل حيز التطبيق، وبول دوران- رول أمدّه بحيوية غير متوقعة، فقد إبتكر مهنة جديدة بالكامل. فطنته في مجال الأعمال وُضعت في خدمة العبقرية المبدعة للرسامين، والإئتلاف بين الإثنين منح باريس مجدا لا مثيل له منذ النهضة الايطالية.

علّق الإنطباعيون أهمية كبيرة على التطورات الأخيرة في التصوير الفوتوغرافي. صديقهم شارل كرو، رأى فيه وسيلة لدراسة مسائل تحليل الضوء، ومن ثم إجراء تجارب إضافية مع الانطباعية. سورا، الذي كان أبي يعرفه معرفة سطحية، إعتقد أن بالإمكان دراسة الحركة من خلال الفوتوغراف. كان شديد الاهتمام بـ "البندقية الفوتوغرافية" التي إخترعها ماريي[٥٤]. أما رينوار، فنظر إلى الفوتوغراف بوصفه خيرا عظيما وشرا عظيما معا. (مثل كل الإختراعات منذ بدء العالم). كان يقدّر نيبس ودراغو لأنهما (حررا الرسم من كثير من الأعمال الروتينية المملة، بادئين ببورتريهات العائلة. الآن صار بمقدور صاحب الحانوت الذي يرغب بصورة شخصية أن يذهب فقط إلى المصوّر الفوتوغرافي. سيئ بالنسبة لنا، جيد بالنسبة لفن الرسم). من جانب آخر، شكل الفوتوغراف، حسب رأي أبي، تهديدا

---

(٥٤) ايتيان جول ماريي (١٨٣٠- ١٩٠٤)، طبيب ومحلل نفسي ؛ إخترع الكرونوفوتوغراف، الذي أستخدم لدراسة حركات الحيوانات، والذي قاد إلى السينماتوغراف، أو كاميرا الصور المتحركة.

Twitter: @ketab_n

للرسامين الهواة، (كل تلك الفتيات الصغيرات اللائي يرسمن بأصباغ مائية رخيصة، لديهن على الأقل فكرة ما عن طبيعة الرسم. لتقدير موزارت حق قدره، لا يضير أن تعرف كيف تعزف على البيانو. ولتقدير الأب كورو حق قدره فمن المفيد ان تحاول تمرين يدك على بضعة مناظر طبيعية. الفوتوغراف سيقضي على الرسام الهاوي، وعلى عاشق الفن، بصورة غير مباشرة. وربما سيقضي حتى على الرسم، بما ان عاشق الفن هو مصدر رزقه). بهذا الشأن كان أبي قد (أخطأ بأميال)، كما كان سيقول هو نفسه، فلو كان هنا، لأمكنه أن يرى الإزدهار الذي لا يصدَق لفن الفرشاة.

قبل أن أختم هذا الحديث، أود أن أقتبس مقطعاً صغيراً من التلاعب بالألفاظ، نسبه رينوار إلى ديغا. لا بد من انه كان الذروة في حوار بين المصور الفوتوغرافي المعروف نادار وبين الرسام. كان الأول يحاول أن يثبت بأن الفوتوغراف تفوّق على الرسم من جهة الشبه، وبأمل أن يفحم خصمه، قال نادار، (لا تنسى انه أنا أيضاً رسام)، فأجاب ديغا، وهو يحاكي لهجة شخص فظ، أضفت تباينا هزليا على مظهره البرجوازي،

(Va donc, faux artiste, faux peintre, faux tographe!)(٥٥)

معرض ١٨٧٤، لم يكن هو الوحيد. ما كان رينوار يشير، في محادثاتنا، إلى هذه المغامرات الا كي يؤرخ صداقاته المبكرة. العديد من هؤلاء الأصدقاء كانوا موظفين حكوميين. يبدو أن التفرعات المختلفة للخدمات الحكومية أثبتت انها أرض خصبة لتطور الأذواق الفنية والأدبية. كان أبي غالباً ما يذكر اسم صديقه لوسترنغي، وأنا نفسي، حين كنت صغيراً، عرفته. كانت ابنته

---

(٥٥) صوت الكلمة الفرنسية "faux"، التي تعني "زائف"، هو نفس مقطع "فو" في كلمة "فوتوغراف"، لكن التلاعب اللفظي سيفقد مضمونه لو ترجمت حرفيا. المعنى العام هو: ((هيا إذاً، ايها الفنان الزائف، ايها الرسام الزائف، ايها المصور الزائف!)).

Twitter: @ketab_n

ماري واحدة من أعّز أصدقائي، وابنه بيار، قدّم لي دعماً شهماً في عدد من مغامراتي مع الصور المتحركة. كنا غالباً ما نذهب للغداء في منزل لوسترنفي في نويي. كانوا يعيشون في بيت كبير، مرتب على الدوام ويعبق برائحة الأرضية الخشبية المشمعة والجلد الملمع. في خيالي الصبياني، كان ذلك آخر صيحة في الأناقة. وكيف يمكن مقارنته بشقتنا، التي تفوح منها، بشكل رئيسي، رائحة دهان التربنتين، والتي لم تشمع أرضيتها أبداً، لأن أبي كان يخشى أن (يتزحلق الأولاد عليها وتُكسر ركبهم). كنت معجبا بلحية مسيو لوسترنفي الحمراء، وبعينيه الذكيتين جداً، وبالتقوّس الطفيف لظهره. لكن كان أكثر ما يؤثر بي هو مخاطبة الأولاد أبيهم رسمياً بكلمة "أنتم"، كما لم يكونوا يتكلمون أبداً أثناء تناول وجباتهم، ولا كانت مدام لوسترنفي تقاطع زوجها أبدا. كانت عادة هذه السيدة في خلط الأسماء تثير فينا المرح. (أقدم لك مستر بايك). الرجل المشار اليه، كان يحاول أن يصحح لها: (عفوا، مدام، لكن إسمي هو هيك). لكنها تواصل على نحو رائق وتقول عن الضيف الذي قدمته قبل قليل، (أجل، أنت تعرف، ان مستر هاووك وصل لتوّه من رحلة طويلة)، إلى آخره. مثل هذه المزحات، كانت تتداول بأسلوب مرتجل، مألوف وسط الأثرياء الباريسيين.

كل شيء في منزل لوسترنفي في نويي، كان يسوّغ ملاحظة الإعجاب التي تبديها غابريال. (كانوا مفعمين بالحيوية، انهم كذلك حقاً!) أحببتهم كثيرا، مع اني كنت أعتقد انهم متكلفون وشكليون. وفوجئت، في ما بعد، حين ذكر أبي ان مسيو لوسترنفي، كان غريب الأطوار قليلاً في شبابه. إن شغفه الكبير، أيام الانطباعيين، هو العلوم الغامضة أو الماورائيات. كانت معرفته في هذا المجال هائلة. اشترك مع فييه دو ليل- آدام في تجارب خطرة جدّاً رفض رينوار دائماً أن يشاركهم فيها. الحياة بعد الموت هو ما كانت تهمه كثيراً. (سنرى ما يحدث في ما بعد. كشخص ميت، قد أستمتع بالموت. وطالما ما زلت حياً، فأنا

Twitter: @ketab_n

أنوي أن أستمتع بالحياة). بالمقابل، كانت تسلّيه للغاية براهين صديقه حول التنويم المغناطيسي. (كان يقدر على جعلك تنام خلال لحظة. ذات ليلة، قام بتنويم فرانك لامي، وجعله يخلع ملابسه، وأرسله خارجاً بملابسه الداخلية). كان يعمل في وزارة الداخلية، ويزعم أن بإمكانه أن يطيح بالجمهورية فقط بالتنويم المغناطيسي لكل الرتب العليا في الحكومة. (السبب الوحيد الذي يمنعني من ذلك حتى الآن)، يدّعي لوسترنغي، (هو أني لا أعرف أحداً يحل محل ماكماهون. الحاكم الوحيد الذي يثير اهتمامي هو شارل التاسع، وهو الآن ميت). إيثاره لشارل التاسع، نابع من دوره في مذبحة سان- بارتيلومي، التي كانت مسعى، حقيقياً وجدياً، لإيقاف زيادة السكان. الخطر العظيم الثاني على حضارتنا إلى جانب زيادة السكان، هو استخدام اللون الحُمَري في الرسم.

كان لوسترنغي، عادة، يحضر معه صديقه المؤلف الموسيقي شابرييه، لزيارة أبي. حدثتني أمي عنه مرارا، لأنه كان المسؤول عن قرارها بالتخلي نهائيا عن العزف على البيانو. كانت في السابق تمارس العزف مثل فتيات كثيرات. (كان الأصدقاء يثنون على عزفي، وجعلني رينوار أقرأ نوطات ألحان شومان. كان له معرفة جيدة بمدام شومان، قبل حرب ١٨٧٠. في أحد الأيام، جاء شابرييه، وعزف لي مقطوعته "اسبانيا". كان الأمر وكأن إعصارا إنطلق، وهو يطرق بعنف على المفاتيح. كان الوقت صيفا، والنافذة مفتوحة. عندما كان يعزف، حدث أن نظرت عبر النافذة إلى الشارع، فرأيت ناسا وقفوا يستمعون وقد تملكهم الإعجاب. حين بلغ شابرييه المقطع الأخير انقطع الوتر، وأقسمت مع نفسي على أن لا ألمس البيانو مرة أخرى. عازف هاو، هو حقاً مثير للسخرية. مثل اولئك الذين لأنهم فقط يعرفون رينوار، يظنون انهم يجب أن يحترفوا الرسم. كيف يمكنهم ذلك ؟). (علاوة على ذلك)، أضافت، (كان شابرييه، أثناء عزفه، قطع أوتاراً عدة، وتعطّل البيانو).

Twitter: @ketab_n

كان رينوار يكنّ إحتراما عظيما لشابرييه كإنسان، بغض النظر عن إحترامه له كموسيقي. (كان طيبا، كريما، ووسيما بشكل إستثنائي. وكان هذا سبب خرابه، إذ كان مولعا ولعا شديدا بنجوم الاوبرا، وليس فقط من أجل أصواتهم).

بعد بضع سنوات، إلتقى رينوار الموسيقار ثانية، في واحد من عروض الموشحات الدينية. كان الرجلان في العمر نفسه تقريباً. كان أبي نحيفا كقصبة لكنه رشيق دائماً، وكان بإمكانه إرتقاء السلالم كل أربع درجات. أما شابرييه فقد شاخ وأصبح بدينا، ولا يمكنه المشي من دون ألم، متكئا على عصا. (تعرّف علي، فطفق يبكي من الفرح. لكنه لم يتعرف على موسيقاه. حتى انه سأل، (لمن هذه الموسيقى؟).(اولئك المنهوكون)، تنهد وهو ينهي حديثه، (لا يصلحون الا للرسم)).

لنعد إلى أصدقاء رينوار الذين كانوا يجتمعون حوله أيام كان عازباً. كانوا يلتقون في مرسمه، في ٣٥ رو سان- جورج، الذي إستقر فيه في عام ١٨٧٣، وكان يقع في الطابق الأخير من المبنى، فوق الشقة التي يسكنها عمي ادمون، الذي غدا البطل الرسمي للإنطباعية. برغم جو الريبة العام فقد نجح بالعثور على سوق لكتاباته. (عقل نيّر وخبير في مجاله)، بهذا لخصه رينوار. القصة التالية تبين الفرق بين شخصيتي الأخوين. صادف ان وقع حادث في بروميناد ديز آنغليه، في نيس، ربما قليلاً بعد عام ١٩٠٠، حيث إندلع حريق في كازينو جيتي، وتجمع حشد كبير من الناس يراقبون. كان أبي قد خرج لتوه من فندق قريب، بعد أن قام بزيارة قصيرة لصديقه كوماندو[٥٦]. وجد صعوبة كبيرة وهو يشق طريقه بين الجمع الكبير من الناس. فجأة، تناهى إلى سمعه

---

(٥٦) ايساك دو كوماندو، جامع فني شهير.

Twitter: @ketab_n

صوت يعرفه، أمكنه أن يسمعه جلياً، من خلال الضجة العامة والاضطراب. كان هذا الصوت يوجه بسرعة حدّة أوامر حساسة وواضحة. (يبدو لي هذا الصوت مألوفاً)، قال رينوار لنفسه، بينما كان يسير بين الجمهور المحتشد. استمرت الأوامر وأطاع العامة بسهولة، مشكلين صفوفا على طول الشارع كي يتيحوا لفرقة المطافئ أن تمر. لمح أبي الرجل الذي كان يوجه العملية، فعرف فيه أخاه. كان ادمون جاثما على سطح عربة أجرة، وكما لو ان الأمر طبيعي، كان الإطفائي المسؤول والعمدة ورجال الشرطة يتبعون توجيهاته، التي كان يعطيها بأعظم حماسة وثقة بالنفس. صار لدى رينوار رغبة بأن ينضم اليه، لكنه لم يستطع لأن الحشد تزحزح كي يفسح الطريق لمركبات الإسعاف التي وصلت إلى مسرح الحدث. قبل أن يدرك ما فعله، كان يندفع بخفة للوصول إلى أخيه.

بين عامي ١٨٧٤ و ١٨٩٠، كان جورج ريفييه من أقرب أصدقاء رينوار. كانت واجباته في وزارة المالية تتيح له وقت فراغ كبيراً، قضى معظمه تقريبا برفقة أبي. في آخر الأمر، رُقي إلى منصب رئيس مكتب، ثم سكرتيرا للوزير. تزوج، وصارت لديه عائلة أبقته مشغولا جداً، إلى الحد الذي قلّت فيه زياراته إلى مونمارتر، مرتع شبابه. عاد إلى الظهور ثانية في ما بعد، كما سنرى لاحقا. في كتابه "رينوار وأصدقاؤه" نسخ من صور رسمت بريشة أبي لمرتادي مرسم رو سان- جورج في عام ١٨٧٦. تظهر هذه الصور لوسترنفي، كابانيه، بيسارو، ريفييه نفسه، وكوردي. وهذا الأخير كان رساماً ومن الأصدقاء المقربين، وأعتقد انه درس لبعض الوقت في اتيليه غلير، وعرف بازيل. كان أبي معجباً به، لأنه كان يرسم بشكل جيد. كان كوردي يقارن الرسم بألعاب الجمناستك. (ينبغي أن يحافظ الرسامون على صحة بدنية قوية، تماماً كما يفعل لاعبو القوى. يجب أن يكون بصرهم واضحاً وحركاتهم دقيقة، وأرجلهم قوية، كي يتمكنوا من الذهاب إلى الريف ورسم لطبيعة).

Twitter: @ketab_n

بيسارو الذي بقي (عقل حركة الرسامين الشباب) توصل إلى إستنتاجات صحيحة من معرض ١٨٧٤. أولاً، إنّه من العبث تقديم تنازلات. لوحة رينوار "لالوج" التي تبدو كأنها رُسمت بريشة فنان كلاسيكي، عوملت بإزدراء، إلى الحد الذي تمّ تجاهلها تقريباً. ثانياً، إن الجمهور الذي آمن الانطباعيون به إيماناً مطلقاً، قبل المعرض، لم يكن حكماً عادلاً كما يُفتَرض أن يكون. ثالثاً، إن "الطيور على أشكالها تقع": الواقع ان بعض المتعاطفين الفاتري الهمّة، الذين انضموا إلى "المتصلبين"، لم يكسبوا مشترياً جديداً واحداً.

إتفق رينوار بالكامل مع بيسارو، الذي كان يكنّ لـ(تقويمه المثالي) احتراماً عظيماً. مع هذا، كانت لديه رؤيته الخاصة. هناك حقائق عامة، لكن هناك أيضاً حاجة فردية لتكييف النفس مع الظروف، (وبخاصة هناك معرفة ما يمكن للمرء عمله وما لا يمكن). ينبغي على المرء أن لا يستغفل نفسه. هنا، تتجلى ربما آثار "الفلينة"، وهو ما نوهت به إلى رينوار، الذي أجاب على نحو مقتضب، (حسناً، ولم لا ؟)، ثم واصل حديثه: (بضع رفسات لا تؤذي بالمرة. المضحك في الأمر، هو انها لا تُوجَه اليك لسبب حقيقي أبدا. لكنها توقظك، وهذا هو المهم). اولئك الذين إنتقدوا لوحة "لالوج" كانوا غير منصفين، وكان رينوار يعرف ذلك. (ربما أكون مغرورا)، قال، (لكني أعتقد انها رسمت بشكل جيد). برغم كل شيء، قادت الصدمة التي تلقاها رينوار إلى التفكير مليا مرة أخرى بالحيرة البادية بين العمل في المرسم والعمل في الطبيعة. في نهاية المطاف، الغاية من لوحة ما، هي أن يُنظَر إليها داخل البيت، حيث المكان مضاء بنور زائف. إذاً، لا بد من إنجاز عمل صغير في المرسم زيادة على ما تم إنجازه خارج الأبواب. (عليك أن تبتعد عن سكرة الضوء الطبيعي وتتمثل إنطباعك في ضوء غرفة مخفف، عندئذ يمكنك أن تسكر على أشعة الشمس ثانية. انك تذهب خارج البيت وترسم، وتعود إلى البيت وترسم ؛ في النهاية، تبدأ لوحتك تأخذ شكلا ما). كنتيجة لنكسته في المعرض الأول، قرر رينوار

Twitter: @ketab_n

الدراسة في المتحف ثانية. في ما بعد، زار ايطاليا، اسبانيا، وبلاد الفلاندر، كي يعمّق فهمه للأساتذة الأقدمين.

الشخص الآخر، الذي كان يحضر تجمعات رو سان- جورج، هو لوت. كان موظفا في مكتب هافاس نيوز، ويتردد على رينوار لأنه يحب الرسم. مع هذا، فهو لم يشترِ أي لوحة، لأنّه كان لا يعرف أين يضعها، إذ كان مثل بدوي هائم على وجهه. طاف على قدميه في كل أرجاء أوروبا، وكان ضابطاً في البحرية التجارية أيضاً، واضطر أن يعيش حياة شاقة في أميركا الجنوبية وآسيا. كان بإمكانه أن يقدّم إلى رينوار، الذي لم يكن قد سافر خارج فرنسا أبداً بعد، أوصافاً مفصّلة عن فيلاسكيز في متحف البرادو، وجوتو في فلورنسا. بدلاً من جمع اللوحات، كان يجمع مغامرات مع النساء. كان أبي يحب لوت الذي كان مختلفاً عنه تماماً. لوت من جهته أثبت أنّه صديق مخلص جداً. في ما بعد، قام الإثنان برحلات عديدة، بما فيها واحدة إلى جيرسي، حيث قضيا بضعة أسابيع معاً، رينوار يرسم، بينما صديقه يراقبه أو يلاحق الصبايا في المدينة الصغيرة. أقاما في منزل قس انكليزي، وكان لوت حسير البصر، ذات يوم كان يغازل إبنة القس، وهي فتاة جميلة في الثامنة عشرة، وحدث أن دفعته الفتاة اللعوب دفعة صغيرة فسقطت نظارته. بعد أن تلمّس المكان بحثا عنها ولم يجدها، ذهب إلى الغرفة المجاورة ليطلب مساعدة أبي، الذي كان يشرب القهوة مع مضيفه. كان المكان معتماً قليلاً، والمسكين لوت بالكاد يرى شيئاً. وقف القس لينضم إليهما في البحث، فركض لوت اليه، ظنا منه أنه ابنة العائلة، وطوّقه بذراعيه وبدأ يقبله. ذهل الآخر ولم يمكنه سوى الاعتراض، (أرجوك، مستر لوت ! أنت تعرف، في انكلترا، الرجال لا يقبّلون بعضهم البعض).

في الصباح التالي، حين كان رينوار في طريقه إلى مكانه وسط الصخور، حيث كان يرسم، صادف زوجا في وضع حميم جلي. أحسّ بالخجل، فانسحب

Twitter: @ketab_n

بقدر ما يمكنه من الهدوء. أما الإثنان فلم يلحظاه واستمرا بما هما فيه. كان يمكنه أن يسمع الفتاة الشابة تهمهم منتشية، (أوه، مستر لوت، ماذا سيقول بابا لو عرف انك تغازلني!).

Twitter: @ketab_n

١٦

(أنت تعرف أن من الجميل أن يحّن المرء إلى الماضي. من دون شك، أنا أتحسّر على تلك الصحون المزخرفة، والأثاث المصنوع بيد نجّار القرية، وعلى الأيام التي كان فيها الحرفي يستخدم خياله ويخلق قطعة من ذاته في أقل أداة للإستخدام العادي. كي تحوز تلك المتعة، هذه الأيام، عليك أن تكون فنانا وتوقّع على عملك، وهو شيء أمقته. من جهة أخرى، كان الرسام في ظل حكم لويس الخامس عشر مجبرا على أن لا يرسم سوى مواضيع بعينها. وما يبدو لي أكثر أهمية في حركتنا، هو أننا حررنا الرسم من سطوة الموضوع. أنا حر في أن أرسم زهوراً، وأدعوها ببساطة "زهوراً"، من دون الحاجة إلى رواية قصة).

الأمر نفسه مع الموسيقى، فقد أحَبّ رينوار باخ لأن موسيقاه لا تروي قصة. انها محض موسيقى، مثل الرسم الذي يود إنجازه (ومن ثم، نحن لا نتغير. أنا ابن زمني، وردود أفعالي هي لرجل من زمني. أتعرف ما الذي جعلني أدرك ذلك ؟ الكنيف!) هذا هو الاسم الذي كان أبي ومعظم الفرنسيين، في الماضي، يسمون به المكان الذي ندعوه اليوم بإحتشام مفرط "دورة المياه". برغم اعتيادي على مقارنات أبي غير المتوقعة، فإن إستخدام هذا المثال للرمز إلى مضي الزمن فاجأني قليلاً. مع هذا، فقد جاء من ملاحظة دقيقة لتغير الآداب الذي رافق العصر الصناعي. لم يكن عسيرا على رينوار العثور على

Twitter: @ketab_n

أمثلة. واحد منها، على سبيل المثال، عن لويس الرابع عشر. كان يستقبل رجال حاشيته وهو يجلس على chaise percée (مقعد بيت الخلاء)، من دون أن يشعر بأي حرج. أكثر ما اثر في أبي، بشأن هذه الطريقة القديمة للقيام بوظيفة الطبيعة، هو انه لم يكن أحد يشعر بالقرف منها. مثال آخر، في القرن الثامن عشر، المكان الذي يؤدي وظيفة المرحاض في كل حانات أوروبا، لم يكن أكثر من ثقب في الأرض وضعت عليه ألواح خشبية عدة، وبالنتيجة كان على الشخص الذي يستخدمه أن ينتبه على توازنه. وبدلاً من المناديل الناعمة، هناك حبل من خيوط القنب معلق في السقف، (لا شيء غير ذلك)، قال رينوار، (يمكنه أن يوازن قبح دار الاوبرا لغارنييه!...والرائحة؟ ماذا عن الرائحة؟ هل كانت أنوف الناس وقتئذ هي نفسها الآن؟). هذا التعليل لم يرضه. بالعكس، إذ اعتقد ان التقدم جعلنا نفقد الحاجة إلى حواسنا، تماماً مثلما جعل حلول الاتوموبيل الناس يفقدون الحاجة لأرجلهم. (نحن نعيش وسط روائح مقيتة، لكننا نتقدم إلى حد بعيد، بالرغم من ذلك. الروائح الكريهة للسيارات تسممنا) ـ ماذا كان سيقول عنها الآن؟ ـ (إنها مثل رائحة الغاز التي نتنشقها في كل سلالم مباني باريس. لكن كل ذلك لا يعَد شيئاً مقارنة بعطر البتشول).

هذه الكلمة الغريبة، هي اسم عطر كانت النساء تضعنه في نهاية القرن الأخير. ولا حاجة للقول ان رينوار كان يكن كرها له. (يكفي الأمر سوءا حين لا تستحم الشقراء ؛ وحين تضع البتشول فوق ذلك فإن هذا يصيبك بالإغماء). أنف رينوار، مثل عينيه وحواسه الأخرى، يمكنه أن يكشف كل شيء. (جان، إفتح النافذة ! ثمة رائحة لدهن محروق هنا!) لم ألحظ شيئاً، لكني عندما ذهبت إلى المطبخ اكتشفت ان لابولانجير تقلي شحم خنزير لإعداد الفاصوليا الخضراء.

اسم آخر، إرتبط بفترة رو سان- جورج، وهو اسم لاسكو، (قاضٍ، أخذ

Twitter: @ketab_n

على نفسه عهدا بأن يجعلني مثل فاغنر. ونجح، تقريبا، في بادئ الأمر). والحال أن الوجدان الوطني الفرنسي كان ضد فاغنر، ما دفع والدي إلى التعاطف معه. ذات مرة، وهو هادئ جدّاً كعادته، تبادل الإهانات وحتى الضربات مع خصوم الموسيقي الألماني. (كانت حماقة، لكنها صائبة. من الجيد أن تتحمس، بين الحين والآخر، لشيء آخر غير فكرتك الراسخة). لا أعرف في أي مسرح حصلت هذه المشادة، لكن لا بد ان رينوار إستمتع بها كثيرا. (قبعات عالية، كما هي ضخمة، تحولت لتصبح وقاء مدهشا ضد ضربات العصي. كان البهو يفص بها). في ما بعد، قدم لاسكو أبي إلى فاغنر. لقاؤهم أسفر عن البورتريه المعروف للموسيقي العظيم، الذي أنجزه رينوار بناء على تخطيطين أو ثلاث تخطيطات، خلال ثلاثة أرباع الساعة، وهو كل الوقت الذي أمكن للموسيقار أن يتيحه له. أعتقد انها رُسمت في باليرمو، نحو نهاية فترة رو سان- جورج. أثناء جلسة الرسم، عبّر فاغنر عن آرائه في فن الرسم. (أغضبتني افكاره. في الوقت الذي إنتهيت فيه، رأيت ان لديه موهبة أقل مما ظننت في البداية. علاوة على ذلك، كان فاغنر يكره الفرنسيين، بسبب عدائهم لموسيقاه. عندما كنت أرسمه، كان يردد أكثر من مرّة بأن الفرنسيين يحبون فقط موسيقى اليهود الألمان!) أما رينوار، المزعوج، فقد ردّ عليه بمديح اوفنباخ، (الذي كنت أعشقه ! كما ان فاغنر بدأ يثير اعصابي!)، ولدهشة أبي الكبيرة، أومأ فاغنر برأسه موافقا. (موسيقاه صغيرة، لكن لا بأس بها. لو لم يكن يهوديا لأصبح موزارت. حين تكلمت عن اليهود الألمان، فأنا عنيت موسيقاركم مايربير)[٥٧].

في ما بعد حضر رينوار عرضا لأوبرا "الفالكيري" على مسرح بايروث. (ليس لهم الحق في أن يغلقوا عليّ وسط الظلام لمدة ثلاث ساعات متواصلة.

---

(٥٧) جاكومو مايربير (١٧٩١- ١٨٦٤)، موسيقار الماني، اسمه الأصلي يكوب ليبرمان بير. إستقر في باريس، له أعمال كبيرة في الأوبرا الفرنسية، منها "الهوغونيون" (١٨٣٦)

Twitter: @ketab_n

إنه إستغلال للنفوذ). كان ضد إظلام المسرح. (أنت مجبر على أن تركز نظرك على المكان الوحيد، حيث الضوء، وهو خشبة المسرح. انه إستبداد مطلق. ربما رغبت بالنظر إلى امرأة جميلة تجلس في إحدى المقصورات. ثم، لنكن صريحين، موسيقى فاغنر مملة). بالرغم من تغيّر موقفه من فاغنر فإنه ظل يلتقي بلاسكو. (كان يدهشني. فكر بالأمر: قاضٍ في محكمة الجنايات، يسافر إلى كل أنحاء أوربا مع آلة البيانو الخاصة به في مقطورة عربته، مثلما يأخذ الآخرون ملابسهم).

غالبا ما يكرر أبي مسألة إطفاء الأضواء في المسرح. (بالنسبة لي، كما أن هناك عرضا على خشبة المسرح، فهناك أيضاً عرض بالقدر نفسه بين المتفرجين، فالجمهور مهم مثله مثل الممثلين. روى لي، كيف ان القرن الثامن عشر في ايطاليا، حيث كانت شرفات المسرح مصممة بالكامل على شكل صناديق، كان الناس يعتبرون المسرح كمكان للقاءات. فالمرء لا يذهب إلى هناك لمشاهدة مسرحية فحسب، بل للقاء أصدقائه أيضاً. كان الوصول إلى كل صندوق يتم عبْر مجاز مصغر يمكنك فيه تناول الشاي والتدخين، والإنهماك في القيل والقال. عندما كان التينور والكونترالتو يتقدمان صادحين بالغناء في ثنائي رائع، كان الصمت يغمر المتفرجين ويصغون بخشوع. لكن لم تكن هناك حيلة إعتام الضوء لإجبارك على الإستماع. (أكثر ما يزعجني في المسارح الحديثة، هو انها أصبحت مقدسة جداً. فأنت تظن نفسك في قداس. إذا رغبتُ في سماع قداس، أذهب إلى كنيسة). كمؤلف ومنتج مسرحيات وأفلام، لا يمكنني أن أشاطر أبي حماسته لعادات الناس بتبادل الحديث أثناء العرض. لا يعجبني أبداً أن يرافق عرض أحد أفلامي ضجة النظارة وهم يقشرون الفستق.

في شبابه لم يفوّت رينوار أبداً أوبريتا واحدا لأوفنباخ. كان مخلصاً

Twitter: @ketab_n

أيضاً لإيرفي[٥٨]. ما كان يسرّه بشكل أساس، هو الإحساس بحالة معينة من الجمال، الذي يبدأ حال دخوله أبواب المسرح. انه الجانب "البهيج" الذي كان مهما بالنسبة إليه. نحن نذهب إلى المسرح بسبب اهتمامنا بحبكة المسرحية، أو الشخصيات المصورة، التي لا تعنيه مطلقاً، فهو كان يذهب إلى المسرح مثلما يذهب الآخرون للنزهة في الريف يوم الأحد: للتمتع بالهواء النقي، او الأزهار، أو لمتعة أن يكون مع آخرين.

ممثلته المفضلة كانت جين غارنييه. كانت تملك (صوتا خافتا، لكنه صاف جداً، دقيق جداً، ومفعم بالمشاعر جداً). لم يكن أمير ويلز، الذي سيغدو ادوارد السادس ملك انكلترا، يفوّت عرضا لجين غارنييه على مسرح الفاريتي، عندما يكون في باريس. إشتبه الناس بأن إعجابه بالنجمة لم يقتصر على موهبتها الفنية فقط. في كل مرة كانت تنهي فيها أغنية من أغانيها، كان المتفرجون يستديرون نحو مقصورته وينطلقون بتصفيق مدوٍ، كما لو كانوا يهنئونه على ذوقه الرفيع. وكان الملك المقبل لانكلترا ينحني لهم بلطف، غير آبه بالتلميح. بالعكس، كان راضيا تماماً بهذه اللفتة الدافئة، النموذجية جدّاً عند أهل باريس.

كان أوفنباخ يقيم في مسكن أنيق في أسفل شارع لاروشفوكو. كان أبي، بين الحين والآخر، بعد أن ينهي عمله يجوب متمهلاً هضبة مونمارتر في نهاية الظهيرة، ثم يعرّج على الموسيقار ليدخّن سيجارة معه. كان يجد أهل منزله قد استيقظوا لتوهم. كان مسيو أوفنباخ بدأ بتناول كوب من القهوة وفطيرة كرواسان ؛ وجبته المنتظمة الأولى كانت في عشاء منتصف الليل. كان رينوار يرافقه أحياناً إلى الفاريتي. (أكثر المسارح جمالا في باريس. تحس بالإثارة

---

(٥٨) الاسم الفني لفلوريمون رونجيه (١٨٢٥ - ١٨٩٢)، مؤلف أوبريتات شهيرة.

Twitter: @ketab_n

فيه حتى قبل أن ترتفع الستارة. من جهة أخرى، لا يكون المسرح حقيقيا ما لم يكن كله باللون الحمر والأبيض والذهبي). كانت هورتنس شنايدر ملكة المكان المتوّجة. (كم كانت رائعة...!).

ذات يوم، في غرفة ملابسها، كان زولا وعمي ادمون يتناقشان حول "الفكرة الرئيسية في الرسم". بدأ أبي يحس بالتململ، فاستدار نحو هورتنس شنايدر التي كانت من جهتها بالكاد تخفي تثاؤبها، وقال: (كل هذا مثير للاهتمام، لكن دعونا نتحدث عن أمور أكثر جدية. كيف حال صدرك هذه الأيام؟). (أي سؤال هذا!)، أجابت المغنية الماهرة، مبتسمة، ثم فتحت صدارها وأظهرت له برهانا ساطعا على الحالة الجيدة لمفاتنها الجسدية، فأطلق أبي وأخيه وأوفنباخ قهقهة مدوية، أما زولا فتحول لونه إلى (الأحمر، مثل زهرة الفوانيا)، وتمتم بشيء ما لا يُسمَع، وفرّ من المكان بأسرع ما يمكن. (انه ريفي عادي)، كان يقول عنه رينوار. كان معجبا به على نحو كبير، لكنه لم يسامحه على عدم فهمه لسيزان (ثم، أي فكرة غريبة، بالإعتقاد ان كل العمال يتفوهون دائماً بكلمة" mèrde خرا"!).

أنتقل الآن إلى ممثلة مبهجة أخرى، وهي جين ساماري. لدي نسخة طبق الأصل من بورتريه رسمه أبي لها. كم أشعر بالأسف لأنه لم يتح لي التعرّف عليها. هي المسرح كله ؛ انك تحس فيها مزيجا مدهشا من العظمة الملوكية والتواضع الفطري أمام الجمهور. بوسع المرء تخيلها وهي تقوم بجولتها الصباحية للتسوق في شارع لوبيك، سلتها ملأى بالخضار الطازجة. لا بد لها أن تتحسس بعناية البطيخ لترى إن كان طريا، وتنظر بعين ناقدة إلى السمك لتتأكد انه طازج. في المساء، حين كانت ترتدي ثوبها الأبيض الجميل، وتضع ماكياجها لتظهر على خشبة المسرح، تتحول إلى ملكة، ملكة بقوام ذي إنحناءات متناغمة، جسدها يغري بأرق المداعبات، وفوق كل شيء، كانت "رينوار" حقيقية. كانت تنتمي إلى أسرة كبيرة تضم أمي ونيني، بنت بيرار

Twitter: @ketab_n

الصغيرة، وغابريال، وسوزان فالادون، ونحن أولاد رينوار. كنا جميعا يشابه أحدنا الآخر. ما زلت أتطلع إلى صورة بورتريه ساماري كما لو كنت أنظر إلى صورة أخت متوفية.

التقى بها رينوار في منزل شاربنتييه، لكن والداها كانا قد بحثا عنه أولا: (إذا إحتجت إلى موديل... فإن جين معجبة جدّاً بك). كيف لك أن تقاوم عرضا مثل هذا، خصوصاً في الوقت الذي كان تجار اللوحات أنفسهم يرتابون فيك؟ واحد منهم أراد أن يجس نبض رينوار ليرى إن كان سينسخ البعض من لوحات روسو، (مع براعتك، سوف لا يعرف الناس بالأمر). هذا التاجر "الشريف"، كان قد أعجب بعدد من المناظر الطبيعية بريشة رينوار قبل ١٨٧٠، يظهر فيها التأثر الواضح بدياز ومدرسة فونتانبلو. بهذا الخصوص أود الإستطراد قليلاً مرة أخرى.

في الوقت الذي أصاب نجاحاً تجارياً، زار أبي خبير تحف في لندن. قاده الانكليزي في صالة استقبال صغيرة، حيث عرض على رينوار بفخر لوحة لروسو الجليل مبرزة بإضاءة خاصة. (هنا)، قال، (تحفة مجموعتي كلها: روسو، التي لا يعرفها الا القلّة من الناس). (أنا أعرفها جيداً جداً)، أجاب أبي، وقد تعرّف على واحد من مناظره الطبيعية في اللوحة التي أنجزها أيام شبابه. لكن أحداً ما غيّر التوقيع. حرص على أن لا ينوّر الجامع، خشية إفساد متعته: (كان سيمرض، لوعرف بالأمر). كان رينوار لا يفكر أبداً بإزالة الغشاوة عن أعين مالكي الأعمال المزورة. (فهم إما إشتروها للمضاربة، وفي هذه الحالة سيكون الأمر وبالاً عليهم، وإما أن اللوحة أعجبتهم حقا، فإذاً، لِمَ نخيب أملهم؟).

كانت عائلة ساماري تسكن في شارع فروشو. أنا نفسي، أسكن في جادة فروشو، لحظة كتابة هذه السطور. من إحدى نوافذ بيتي، يمكنني رؤية خلفية

Twitter: @ketab_n

المبنى، حيث كانت شقتهم، لا أعرف في أي طابق كانت. ربما الثاني، حيث يعّد الآن رجل وإمرأته العشاء، الزوج يحدّ سكين لحم بينما الزوجة تهيئ المائدة. لا يدور بخلدهم ان واحدة من أكثر النساء فتنة في القرن الماضي كانت، في ما مضى، تتكئ على تلك النافذة، حيث وضع قدر الجيرانيوم الآن. أو ربما أقامت عائلة ساماري في الطابق العلوي، حيث يدخن سيد عجوز غليونه، مراقبا الحمامات. لا بد انه يعرف. ففي عزلته، لديه كل الوقت بأن يكون فضوليا بشأن الماضي.

مونمارتر، هذا الحي الذي كان في يوم مملكة أبي وأصدقائه، تغيّر الآن. لكن بضعة أشباح هائمة، مثل شبح جين ساماري ذاك، تنتشل الحي إلى حد ما من الوقار الزائف الذي يضفي على الجانب الغربي من باريس مظهرا متجهما. هنا في مونمارتر، يمكن أن تصادف في الشارع صبايا قادمات من دروسهن وهن يرددن لأنفسهن مقاطع من موليير. من يعلم، قد تصبح واحدة منهن، في يوم ما، جين ساماري أخرى.

من أجل الذهاب لرؤيتها، كان رينوار يصعد شارع هنري- مونييه، عابرا شارع فكتور- ماسي، وبعد أن يصبّح على البواب، يتحمل الطوابق صاعدا إلى الشقة ثم يقرع الباب. قال الممثل دوريفال، الذي سمع من مونيه- سيلي، وهذا بدوره سمع من آل ساماري أنفسهم، قال بأن رينوار غالبا ما كان في عجلة كي يبدأ العمل على صورتها، إلى الحد الذي ينسى فيه أن يقول طاب يومكم. كان الضوء ملائما فقط بين الساعة الواحدة والساعة الثالثة بعد الظهر. كانت الشقة تشرف على الشرق والغرب معا. لكن الغرفة التي في الجانب الشرقي صغيرة جداً. غرفة الإستقبال تغدو غير عملية للرسم بعد الساعة الثالثة، بسبب تساقط الأشعة المباشرة للشمس الغاربة. لماذا كان يعاند بالرسم في مثل هذه الإضاءة الرديئة؟ بلا شك بسبب حالة الصراع بين العمل في المرسم والعمل في الطبيعة، وبسبب الحاجة إلى تصوير موديله في

Twitter: @ketab_n

فوضى حياتها الخاصة، كما كان يحب أن يراقبها في براعة مهنتها. إعتاد أن يذهب إلى عروضها في الكوميدي فرانسيز: (هذا يدل على رغبتي الشديدة في رؤيتها ؛ إذ ان مكاناً واحداً فقط لا يمتع حقاً. لحسن الحظ، كانت غالباً ما تؤدّي موسيه).

أنجز رينوار عدة تخطيطات لجين ساماري في منزل والديها. من المحتمل أنه رسم هناك البورتريه الصغير لها، والذي هو الآن من مقتنيات الكوميدي فرانسيز. ومن أجل البورتريه الكبير، الذي هو الآن في روسيا، كانت تأتي إلى مرسمه في رو سان- جورج. (كنت أُحاط بعناية شديدة حين أذهب إلى بيتها. كان لأمّها هوس بتقديم كعكات صغيرة، وكان عليّ أن أحشي بطني بعد جلسة الرسم، وأنا أصغي إلى جين. كانت لها موهبة رائعة بسرد الأقاويل. صوت المرأة، هو مبعث سرور فائق، حين لا يكون متصنعاً). لم تصل علاقتهما إلى التفكير بمشروع زواج. (رينوار ليس من النوع الذي يتزوج)، قالت ساماري، (إنه يتزوج من كل النساء اللائي يرسمهن، لكن بفرشاته).

واحد من الأصدقاء الكبار لأبي في أيام رو سان- جورج، كان "الأب" شوكيه. وصفه رينوار بأنه (أعظم جامع تحف فرنسي منذ زمن الملوك، أو ربما عالمي، منذ زمن البابوات). عنى أبي بكلمة "البابوات" جوليس الثاني، (الذي كان يجعل ميكيل آنجلو ورفايل يرسمان، ويدعهما بسلام).

مسيو شوكيه كان موظفا في مكتب الجمارك، ومعاشه ضئيل جداً، فكان يوفر من نقود مأكله وملبسه كي يتمكن من شراء الأنتيكات وحتى التحف الصغيرة، ولاسيما الفرنسية من القرن الثامن عشر. كان يسكن في العلّية ويمشي في أسمال بالية، ومع هذا، كان يملك ساعات مصمّمة بيَد بول. أوشك تقريبا أن يُصرَف من الخدمة، لأن رؤساءه فكّروا بأنه أمر غير مشرّف لموظف حكومي يرتدي قمصانا ممزقة الاكمام. لكن واحدا من المحسنين الذي لم

Twitter: @ketab_n

يكشف أبي النقاب عن هويته كان يتدخل كلما واجه مسيو شوكيه خطر فقدان وظيفته. (لحسن الحظ، كان يوجد مثل هؤلاء المحسنين، والا لكانت الحياة غير عادلة بالمرة). ورث شوكيه، في النهاية قليلاً من المال. حينئذ وافق على إرتداء ملابس لائقة، وانتقل للعيش في شقة أنيقة مع كل كنوزه الفنية. كان من أوائل الذين لاحظوا أن رينوار وسيزان ومجموعتهما، هم الوريثون المباشرون للتقاليد العظيمة للفن الفرنسي التي خانها مسيو جيروم والأكاديميون، الذين كانوا يؤكدون انهم حافظوا عليها. (إنهم تماماً مثل السياسيين)، قال شوكيه، (يرفعون اليافطات نفسها ويزورون الحقائق). كان يقارن احبار الفن هؤلاء بأنظمة ديمقراطية معينة، تطلق النار على العمّال بذريعة الدفاع عن قضية الشعب. كان مسيو شوكيه رجلاً حاد الطبع، ولا بد أن محسنه سعى جاهداً مع رسميي الجمارك لإقناعهم الإبقاء على هذا الموظف الصعب المراس.

لم يمضِ وقت طويل حتى بدأ الناس في باريس ينتبهون إلى مسيو شوكيه. عزا رينوار سبب شعبيته المفاجئة إلى إرتفاع أسعار لوحات واتو، وشوكيه كان يملك لوحات عدة له، دفع مقابلها مئات عدة من الفرنكات فقط، عندما لم تكن على الموضة. تحدث الناس أيضاً عن خزاناته، ومرايا الحائط، والثريات من طراز لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر. تجار الأنتيكات بدأوا يغدون مهمّين في العالم. أراد النفاجون، وقد ضجروا من الفن القوطي على طريقة فكتور هيجو، أن (يلهوا في الترياتو[٥٩] على طريقة مدام دي باري وماري انطوانيت)، فصارت الأسعار ترتفع أعلى فأعلى. لو أراد مسيو شوكيه البيع، لكان بإمكانه أن يجني ثروة. الموظف الحكومي السابق الذي نظر اليه بإزدراء شديد أضحى فجأة حكيما، يبحث عنه الجميع. كان يُعَد شرفا كبيراً

(٥٩) واحد من القصرين الصغيرين في الحديقة الكبرى لفرساي، في باريس، بناه لويس الخامس عشر، وشغلته عشيقته مدام دي باري، ومن بعدها ماري انطوانيت.

Twitter: @ketab_n

تلقي دعوة لزيارة بيته. الفضول المتصاعد حوله، منحه الفرصة في أن يعرض لوحات رينوار التي يحتفظ بها في أطر أصيلة من عهد لويس الخامس عشر. أما سيزان فكان يعتقد ان أطر لويس الرابع ملائمة أكثر للوحاته.

روى لي أبي حكاية معروفة عن شوكيه وديما الإبن. كان الكاتب قد رغب في أن (يبقى على إطلاع دائم)، متلهفا لرؤية مجموعة شوكيه. كانت مسرحيته "غادة الكاميليا" حصدت نجاحا عظيما. ولأنه كان واثقا من انه سيكون محل ترحيب في أي مكان، ذهب إلى منزل شوكيه من دون موعد سابق. طلبت منه الخادمة البريتانية الشابة أن ينتظر في الرواق، وأخذت بطاقته إلى سيدها. والحالة هذه كان شوكيه يعرف ديما الأب "ديما الحقيقي"، مؤلف "الفرسان الثلاثة"، لكنه لم يستطع مسامحة الإبن على رفضه الوراثة بعد موت أبيه، لأنه لم يشأ أن يدفع ديونه الباقية. يفترض ان شوكيه قال، (كان الأب هو الطفل، والإبن هو الشيخ. العذر الوحيد لـ "غادة الكاميليا" كان يجب أن يكون دفعها ديون "سيدة مونسور"). ظهر شوكيه في البهو، حيث كان ديما الإبن ينتظر ونظرة قلقة تبدو على وجهه، وأشار بيده إلى بطاقة الزيارة:

(أنا أرى اسم صديقي القديم الكسندر ديما على هذه البطاقة. لكنه مات. أنت محتال.

ـ لكن أنا ابنه.

ـ ها ؟ لديه ابن إذاً؟).

رينوار، سمع رواية أخرى عن ديما من شوكيه. ذات مرة، في الأيام التي كان فيها لا يزال شاباً، دخل الابن إلى غرفة الاستقبال، فوجد والده يقبل امرأة شابة جالسة على ركبتيه. (أبي!)، قال الإبن، (هذا شيء يثير الإشمئزاز!). فأشار ديما الأب إلى الباب، بحركة مسرحية: (ولدي، عليك، أن تحترم شيبي). هذا الحادث وقع في بيتي في افنيو فروشو. بعض الناس،

Twitter: @ketab_n

المولعين بحكايات باريس القديمة، زعموا انه بُني من قبل الكسندر ديما الأب، في زمن نجاحاته الأولى. جدران حصون باريس فصلت هذه المجموعة من البيوت - كانت نوعا من مستعمرة فنانين - عن قصر بيغال الحالي، الذي كان في ما مضى مجرد ساحة قروية. حصل ديما وأصدقاؤه على إذن من السلطات العسكرية ببناء مدخل خلفي على هذا الجزء من الجدار، كي يستخدموه في الخروج إلى الصيد في الغابات الصغيرة على رابية مونمارتر. لو صحّت هذه الفرضيات، فلا بد أن حجرة عمل ديما كانت في الطابق نفسه الذي عاش فيه أخي بيار حتى مماته.

كان رينوار يحس بالندم لأنه لم يعرف ديما الأب على نحو أفضل. (أي حياة عاش! أن تكون إبنا لرجل هو زنجي وجنرال في جيش نابوليون في الوقت نفسه... فهذا أمر يدعو للتأمل!). كان أبي معجبا بالتأثير الجليل للعرق الأسود. (انهم محظوظون، لأنهم يعرفون حقاً كيف يسيرون. هم الناس الوحيدون الذين يبدون رائعين في الزي النظامي. لا بد ان عطيل كان مهيباً. أما ديما العجوز، فكان رجلا طيبا ! يقال انه بكى بدموع صادقة، حين توجب عليه أن يقتل بروتوس).

ذكر لي أبي، مرة أو مرتين، عن شقة الطابق الأرضي التي عاش فيها زمنا في شارع مونسي. هل كان ذلك قبل أو أثناء رو سان- جورج ؟ أعتقد انه الاحتمال الثاني. في تلك الفترة، كانت الشقة البسيطة تؤجر مقابل مبلغ زهيد. حين كان موضوع ما يثير شغفه، أحب أن يعيش "مستغرقاً فيه". وهكذا إنتقل إلى شارع كورتو، من أجل أن يرسم "مولان دو لاغاليت"، بالإضافة إلى لوحات عدة عن "الهضبة". كان كل متاعه عبارة عن فراش (يوضع على الأرض)، طاولة، جزء من خزانة، وموقد - من أجل دفء الموديل. كان كلّما إنتقل من مكان إلى آخر، يترك هذه الممتلكات وراءه. مرسمه في رو سان- جورج، كان سكنه الدائم، حيث يحتفظ بلوحاته وأمتعته الأخرى. السبب

Twitter: @ketab_n

الآخر وراء إنتقاله إلى رو مونسي، هو أخاه ادمون، الذي غدا صحفيا ناشطا جداً، وغالبا ما كان يصطحب معه عددا من الناس لرؤيته. لم يكن رينوار يحب ان يقاطع حتى نهاية جلسة الرسم. وكان، ربما، يعاني من واحدة من نوباته حين قال، (لم أطق أن أرى قميصا منشّى آخر. رؤية شخص إمّعة كان يثير فيّ الغثيان). الفرار، الاختفاء، كانا الطريقتين العمليتين بالنسبة له كي (لا يدع نفسه تبتلع).

كان لمحيط شارع مونسي سمعة سيئة. مدخل حي الكليشي كان مرتعا للهنود الآباش. في النقطة التي يتفرع منها الكليشي وسان- اون افنيو، كان هناك، سابقا، مساحة كبيرة من الأكواخ يسكنها بشكل رئيسي جامعو الخرق، وشخصيات غير مرغوب بها. القوّادون في ذلك الجزء كانوا يرتدون كاسكيتات مخروطية، وبناطيل ضيقة، واحذية ناعمة النعل، لهم شوارب خدية قصيرة. أما الفتيات فيطفن في تنانير قصيرة ضيقة من حرير لامع، ويخفين نقودهن في قمة جواربهن. (تظن نفسك كما لو كنت في واحدة من أغاني برون الشعبية).

موديل رينوار اسمها آنجيل، دلته على بيت للإيجار، صغير ورخيص وله حديقة يمكنه الرسم فيها. فذهب رينوار لرؤيته. وجد هناك شجرة تفاح علقت عليها إرجوحة أطفال، ملكت قلبه، فاستأجر المكان من دون أن يفكر بطبيعة الجوار. ذات ليلة، وكان عائدا إلى المنزل هاجمه رجال بعنف. حاول الهرب، لكنهم أمسكوه وثبتوه على السور. فجأة، تعرف واحد من الأوباش عليه، فصاح، (لكن هذا مسيو رينوار!). تنفس أبي الصعداء، وأحس بالرضا لأنه شهير جداً. (لقد رأيتك مع آنجيل. نحن لا نضرب صديقا لآنجيل. في هذه الأنحاء، ليس هناك أمان. سنعمل على أن تصل بيتك سالماً).

آنجيل، الفتاة العذبة في لوحة الفتاة والقطة ـ كانت "تبوّز" أمام الرسام

Twitter: @ketab_n

وكأنها آلهة ـ كانت تنتمي، إلى حد كبير، إلى هذه البيئة. حبها الشديد لرينوار كان مؤثرا بحق. ذات مرة، وقد أدركت بأنه لا يملك المال لدفع أجرة البيت عرضت عليه (أن تقوم بجولة في واحدة من الأحياء الخارجية). إنعقد لسان أبي، فلم يجد طريقة لرفض هذا الكرم غير المتوقع. أثناء عمله على لوحة "غداء المراكبية"، إلتقطت هي شاباً صغيراً من عائلة طيبة، تزوجها في ما بعد. بعد سنوات عدّة، عادت مع زوجها لرؤية "المعلم". كانا زوجين حقيقيين من البرجوازيين الريفيين يلبسان ملابس داكنة وسلوكهما متصنع، ولسانهما مهذب. بعد دقائق قليلة، تخلت آنجيل عن تحفظها بعض الشيء، (ارمان يعرف بأني كنت أقف أمامك عارية لترسمني)، اعترفت قائلة، وقد تورّد وجهها، (إنه يعرف أيضاً بأنني رافقت أناساً سيئين). وبينما كان أرمان في الجانب الآخر من الغرفة يتفرّس في لوحة، همست في أذن رينوار، (لكنه لا يعرف بأني كنت أتفوّه بكلمة merde !).

بعد أن أنجز لوحة "مولان دو لاغاليت"، انتقل رينوار إلى بيت خرب في شارع كورتو. (كان يتملّكني تماماً جنون رسم التخطيطات من الطبيعة، فكنت مثل زولا، وهو يقود عربته عبر حقول القمح في بوس، قبل بداية الكتابة في "الأرض"). أنا أجهل إلى أي حد كان زولا قريباً من الفلاحين، لكنني أعرف أن أبي، كما هي عادته أينما ذهب، غمر نفسه كلياً في جو قرية مونمارتر، (التي لم تنحط إلى موقع سياحي بعد). كان أغلب سكانها من الطبقة الوسطى الدنيا الذين جذبهم إليها هواؤها النقي والإيجارات الواطئة، وأسواق الخضار، كما قطنها عدد كبير من عائلات العمال الذين كان أبناؤهم وبناتهم يخرجون كل فجر إلى الجانب الشمالي من التل، ليتلفوا رئاتهم في المصانع القريبة من سا- اون.

كانت تضم، أصلاً، العديد من الحانات، لكن كانت هناك بوجه خاص حانة مولان دو لاغاليت، التي كان يرتادها للرقص، كل ليلة سبت، البائعات

Twitter: @ketab_n

والموظفون من الجانب الشمالي من باريس. المبنى الحالي لمولان، لم يكن موجودا آنذاك، بالطبع، إذ كان مكانها مجرد سقيفة بنيت حول طاحونتين، أنهيتا لتوهما مهنة طويلة ومحترمة في إنتاج الدقيق. حين بدأت المصانع تحل محل حقول القمح في السهل الذي يحيط سان- دني، تضاءل تجهيز الحبوب إلى طواحين مونمارتر إلى درجة كبيرة. لحسن الحظ، ظهرت مقاهي الهواء الطلق في الوقت المناسب لإنقاذ آثار الماضي الفاتنة هذه. عشق رينوار هذا المكان، الذي يمثل، على نحو نموذجي، الجانب الطيب من الباريسيين في طريقة لهوهم، (تلك الحرية لم تكن فاجرة أبداً... هذا الانغماس في اللهو لم يكن سافلاً أبداً).

في البدء، كان الأولاد في الشارع يتطلعون بفضول إلى هذا الغريب الذي كان يمشي دائماً بسرعة على طول الطريق غير الممهد، ثم يقف فجأة لينظر إلى نبات الفرجينيا المعرّش، النامي على إمتداد حائط قديم، أو على صبية عاملة، التي كانت تتخذ موقفا من اللامبالاة المصطنعة، مثل كل النساء حين يكنّ محط أنظار. أول فتاة شابة تحدث إليها ردت عليه برد تقليدي، (أنا لا أميل إلى هذا النوع من الأشياء، مسيو). كانت فاتنة جداً، لها يدان جميلتان، أطراف أصابعها منتفخة قليلاً، من وخز الأبر. سألها رينوار إن كانت خياطة. (أجل)، قالت، (لكني أعيش مع أمي، وأنا أذهب إلى البيت كل ليلة). في آخر الأمر، أُعجبت الشابة المونمارترية برينوار، وكانت تلقي عليه نظراتها من تحت رموشها الطويلة، بمظهر من التواضع الخادع. كان حائرا: (كيف أجعلها تفهم بأني أريد أن أرسمها، ولا شيء آخر). خطرت له فكرة، (قدميني إلى أمك). كان قد توصل إلى طريقة للحصول على أي موديل يرغب، (من دون أن يُحسب شهوانيا).

أُشبع غرور والدة جين، وهو اسم الفتاة، بزيارة هذا الشاب اللطيف جداً، المال الذي عرضه مقابل أن تقف ابنتها أمامه للرسم (سيضيف اللحم

Twitter: @ketab_n

إلى المائدة). إقترحت عليه أن يستخدم أيضاً إبنتها الأخرى، ايستيل، كموديل، وكانت فتاة سمراء صغيرة، بأذنين جميلتين. (صرفت وقتي معها، أقنعتها أن ترفع شعرها إلى فوق). كانت الأم تعمل غسالة ملابس: (عمل مضن لا يدر الكثير. كانت الإبنتان تعملان في الخياطة من وقت لآخر. أما الأب، فبناء، كان يعاني من فتق، أبقاه ضمن حدود بيسترو في ركن شارع ديه سول. بعد بضعة أقداح من البيكولو، ونبيذ من التلال الباريسية، تم الإتفاق مع رينوار.

سرعان ما تبنى أهل مونمارتر هذا الشاب الذي كان (حيويا مثل الزئبق)، كما تقول واحدة من موديلاته. بدلته الرمادية المخططة، وربطة عنقه البيضاء المنقطة المتدلية، وقبعته اللباد المدورة، صارت منظرا مألوفا في الحي. كانت الأمهات يأتين إليه في حشود، يطرين محاسن بناتهن ومؤهلاتهن. واحدة منهن، كي تحرج رينوار، قالت ان ابنتها فازت بجائزة في علم الحساب، وهي لم تتعد العاشرة بعد، (الطفلة المعجزة، تحولت إلى فتاة خرقاء كبيرة، مسطحة مثل فطيرة محلاة، وعيناها حولاوان). أعجب رينوار بالأمثلة الكثيرة التي قدمتها عن مختلف المسائل الحسابية، وتظاهر بالاهتمام الشديد بالأعداد المضاعفة المعقدة، وطريقتها في تحقيق الأجوبة. وعد بتقديم الفتاة المسكينة، (التي كان نجاحها كعالمة يفسد فرصتها في الحياة)، إلى لوت، آملا أن يجد لها عملاً كسكرتيرة في مكتب هافاس. انقلب الأمر، فلوت (الحسير البصر مثل خُلد)، ما أن رأى المخلوق القبيح، حتى اجتاح قلبه حب جارف. حصل لها على وظيفة في مكتبه، واتخذها عشيقة. أما هي، فغلبها الكبرياء كونها استحوذت على جنتلمان طيب مثل هذا، فصارت معتدة بنفسها، بحيث أخذت تلعب دور "la femme fatale" (المرأة المغوية)، وعاجلاً خضع لها كل مكتب هافاس. قال عنها لوت، (إنها حصيرة حقيقية). بعد بضع سنوات أتت أمها لرؤية رينوار. لم يرتح من الزيارة في البدء، لكنه إطمئن حين علم انها جاءت لتشكره. (إبنتي، هي الآن مع شاعر رمزي. انها

Twitter: @ketab_n

ترافق المثقفين فقط. لولاك لكانت لا تزال تصاحب شبابا لا يعرفون حتى كيف يتهجوا).

بفضل الأمهات، كان بإمكان رينوار الحصول على الموديلات اللواتي إحتاجهن في لوحته "مولان دو لاغاليت". الذكور في اللوحة كانوا من رفقته المعتادة: عمي ادمون، ريفييه، لوت، لوسترنغي، لامي وكوردي.

البيت الذي في شارع كورتو أصبح خربا، لكن رينوار لم يبال مطلقا، لأنه كان يضم بالمقابل حديقة كبيرة، تشرف، بطريقة رائعة، على سهل سان-دني. (حديقة غامضة، فخمة، مثل برادو[٦٠] زولا، حيث كانت جزءا من مسكن جميل). في هذه الواحة الصغيرة رسم لوحات عديدة، لأنه لم يعمل على موضوع واحد في الوقت نفسه. (يجب أن تعرف متى تضع لوحة ما جانبا، وتدعها ترتاح). وكان غالباً ما يردد: يجب أن تعرف (التسكّع)، ويعني به التوقف طويلاً أمام الجوانب الجوهرية لمسألة ما، من أجل تحديد أهميتها. هذه الحياة، التي كان رينوار يلاحظها بهوى متأجج، قدمت نفسها اليه، كما تقدم لوحاته نفسها إلى عيون الفضوليين حين يراقبونه وهو يرسمها: سديم لا يصفو المعنى فيه الا تدريجيا. (يُسرّ المرء كثيراً، لو أمكنه أن يحزر ما سيظهر من اللوحة). كان يقول: (للتنبّؤ بكل شيء، لا بد من ان تكون الله نفسه. محاولة الذهاب إلى الآفاق الصغيرة لا تأخذك بعيداً. حتى الأفق الصغير الواحد مؤلف من عناصر لا حصر لها). كان رينوار سيفرح كثيرا، لو عرف ان الذرة يمكن أن تُفلق، وكان سيؤكد إيمانه بإمكانية تقسيم كل ذرة جديدة ناشئة عن هذا الانفلاق. وبشأن الأهمية النسبية لهذه التقسيمات، فإن إحساسه بالمساواة سيوحي له ببعض الأفكار المسلية. كان سيتخيل ان

---

(٦٠) في رواية "غلطة القس موريو".

Twitter: @ketab_n

مكروبات الزكام الذي يصيبه، على سبيل المثال، لها نظامها الشمسي الخاص، والجزء الداخلي من أنفه مركز العالم. وفوق ذلك سيوحي له بأننا نحن البشر أنفسنا، بلا شك، مكروبات لجسم ما كبير، جوهره يفوق إدراكنا. وسينتهي بأن يهنئ نفسه بكونه كائنا بشريا بسيطا. (لم يكن الأمر مسليا كثيراً لو رسمت مكروبا أنثويا).

بطؤه في الإدراك كان يزعجه أحياناً. (في البداية أرى موضوعي كما لو اني ارى من خلال ضباب. أنا أعرف تماماً ان ما سوف أراه فيه لاحقا موجود طوال الوقت، لكنه لا يصبح واضحا الا بعد فترة. في غالب الأحيان، الأشياء الأكثر أهمية هي التي تبرز في النهاية). في أوقات أخرى، كان يعتقد ان هذا البطء له منفعة. يجب أن أذكر، ان بطء رينوار كان نسبياً فحسب، فهو يعمل بسرعة لا تصدق. مع هذا، كان متناقضا، إذ كان ينصحني أن لا أكون متعجلا أبدا، مهما كانت المهنة التي سأتخذها بعد أن تنتهي هذه (الحرب البلهاء)، وأشفى من جروحي. حذرني من أن أكون حريصاً، وأن لا آخذ قرارا قبل أن أزن كل العوامل بعناية.

كان يكفي للمرء أن يراقبه يرسم ليرى طريقته في ملاحظة الأشياء، وكيف ينغمس في الفكرة. كان بعض الرسّامين، مثل فالاتون، يبدأون لوحاتهم من جانب واحد من قماشة اللوحة، متقدّمين في كل التفاصيل، كل نسب الضوء والظل، من الضربة الأولى للفرشاة. حين يصلون إلى الجانب الآخر تكون اللوحة كاملة من كل الوجوه. (أنا أحسد فالاتون)، قال أبي، (كيف أمكنه أن يكون صافي الذهن هكذا؟). مع رينوار تبدأ اللوحة فعلاً بلمسات صغيرة مبهمة على خلفية بيضاء، من دون أن توحي حتى بأشكال. أحياناً كانت الصبغة، المخففة بزيت بزر الكتان والتربنتاين، مائعة جداً، بحيث تسيح على القماشة. كان رينوار يدعوها بـ "العصير". بفضل هذا العصير، أمكنه ببضع ضربات فرشاة أن ينشئ نسقاً لونياً عاماً. كان يغطي تقريباً كل

Twitter: @ketab_n

سطح قماش اللوحة، لأن رينوار غالباً ما كان يترك جزءاً من الخلفية أبيض. هذه البقع المفتوحة تمثل نسب ضوء لا غنى عنها. كان لا بد للخلفية أن تكون صافية جدّاً وناعمة. في أكثر الأحيان، كنت أحضّر قماش لوحات أبي، بدهنها بقشرة بيضاء فضية ممزوجة ثلثها بزيت الكتان وثلثيها الباقيين بالتربانتين، ثم تترك أيام عدة لتجف. نعود للحديث عن الإنجاز الفعلي للوحة. كان أبي يبدأ بضربات صغيرة من اللون الوردي أو الأزرق التي تكون متمازجة مع صبغة بنية، ومتوازنة كلها بوجه عام. كقاعدة، كان الأصفر النابولي والأحمر المعتدل يستعملان في المراحل اللاحقة، ثم يأتي الأسود العاجي في المرحلة الأخيرة. كان لا ينفذ أبداً زوايا أو خطوطاً. أسلوبه مدور، إذا جاز القول، ومنحنٍ، كما لو كان يتبع محيط أثداء امرأة شابة. (ليس ثمة شي في الطبيعة بخطوط مستقيمة). لا توجد في أي لحظة من تنفيذ اللوحة أدنى إشارة إلى إختلال في التوازن. منذ أول ضربة فرشاة، تبقى اللوحة في توازن تام. المشكلة، ربما كانت بالنسبة لرينوار التعمق في الموضوع من دون فقدان طراوة الدهشة الأولى. في النهاية، ومن الضباب الذي ينبجس من جسد الموديل أو المنظر الطبيعي، سيبزغ موضوعه رويداً رويدا، مثلما تظهر الصور على صفيحة فوتوغرافية في حوض التحميض. أشكال، كانت مهملة كليّاً في البداية، ستتخذ أهميتها الملائمة.

كان لا ينجح تماماً بالاستحواذ على موضوعه من دون صراع. حين يرسم يجعلك تظن أنه يخوض مبارزة. كان يبدو كأنه يعاين حركات خصمه، ويراقب أقل بادرة ضعف في دفاعه. كان يضايق موضوعه على نحو متواصل، كما يضايق عاشق فتاة تبدي مقاومة قبل أن تستسلم له. كان في سلوكه شيء من مطاردة صيد. ضربات فرشاته العجلى والمتلهفة، لجوجة، دقيقة، ساطعة من رؤيته الثاقبة، تذكرني بالطيران المتعرج للسنونو وهو يطارد حشرة. استعرت عمداً هذه المقارنة من علم الطيور. كانت فرشاة رينوار مربوطة

Twitter: @ketab_n

بإدراكه البصري على نحو مباشر، بالقدر الذي يكون فيه منقار السنونو مربوطاً إلى عينيه. محاولتي في هذا الوصف سوف لا تكون مكتملة لو أغفلت الإشارة إلى الجانب الوحشي عند رينوار الرسام، والذي كثيراً ما أثّر بي حين كنت صغيراً.

الأشكال والألوان، تظل أحياناً، غير محددة في نهاية الجلسة الأولى. في اليوم التالي، فقط، كان يمكن تبين ما يظهر. كان الانطباع الذي يغمر المراقب، ان الموضوع، المهزوم، يختفي، وتبرز الصورة من رينوار نفسه. كان رينوار قد اتقن منهجه إلى الحد الذي كان فيه يهمل التفاصيل الصغيرة، ويركز على الجوهري. لكنه، حتى يوم وفاته، واصل "المداعبة"، والضرب على الفكرة الرئيسية، بالطريقة نفسها التي يداعب فيها الرجل المرأة ويضربها كي يعبر عن حبه. هذا ما كان رينوار بحاجة إليه، هذا التخلّي عن الموديل يتيح له ملامسة أعماق الطبيعة البشرية، متحرراً من الهموم والآراء المسبقة السائدة. كان رينوار يرسم أجساداً بلا ملابس، ومناظر طبيعية خالية من الفتنة. روح الفتيات والفتيان، الأطفال والأشجار، التي تملأ العالم الذي خلقه، هي صافية بقدر ما هو جسد غابريال العاري. وفي النهاية، في هذا العري يفصح رينوار عن ذاته الخاصة.

في كل صباح، كان أبي، بمساعدة صديق، يحمل قماشة اللوحة الكبيرة إلى حانة موى دو لاغاليت، ويبدأ الرسم. وحين لا يكون موديله موجوداً، كما كان يحدث غالباً، يعمل على شيء آخر. عندئذ، كان له، أيضاً، لحظته من التسكع، التي ذكرتها سابقاً. اللوحات التي أنجزها أثناء فترة مونمارتر هذه لا تعدّ.

كنت أذهب بين الحين والآخر للشرب في مطعم يقع عند ناصية شارع ديه سول، حيث رسم أبي "الإرجوحة". للأسف، الحديقة الجميلة هي الآن شرفة

Twitter: @ketab_n

مغطاة بالزجاج. مونمارتر، دفعت بثمنٍ غالٍ جدّاً مجد إحتضانها لسنوات عديدة، هؤلاء الذين أثروا الحركة الفنية في نهاية القرن الأخير. السياح ـ حتى أولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن رينوار أو تولوز لوتريك ـ يتدفقون على هذه الأمكنة المعبودة، لأن عباقرة مرّوا بها في الماضي. بملابسهم المبهرجة، وطقطقة كاميراتهم، حوّل هؤلاء الزوار الجهلة الحي إلى مكان لا يحتمل. مع ذلك، فإن حضورهم الضاج لم يطرد أشباح آنجيل، أو جين، أو ايستيل أو أي من الأخريات. بوسعك أن تلتقي مصادفة بحفيدات حفيداتهن، يتعثرن بسلالم الهضبة، وعلى وجوههن مساحيق تجميل أثر قليل من أسلافهن في اللوحات الشهيرة، وبأقل ثقة بأنهن سيلتقين يوماً بأمير أحلامهن، مروضات أنفسهن على الإلتزام بمواعيد عمل في مكتب ما، وقضاء وقت لانهائي في المترو. لقد فقدن اللامبالاة الطائشة لأسلافهن، لكنهن بائسات جداً. مع حياة مريحة بعض الشيء، جلبت لهن العصور الحديثة القلق من المستقبل. مع هذا، فإن بسماتهن والومضات اللعوب في عيونهن، حرية بأن تجعل من قلب رينوار يخفق سريعاً، إن حالفنا الحظ بأن يعود واحد آخر مثله إلى الهضبة ثانية.

Twitter: @ketab_n

١٧

كان رينوار يكتشف، ويعيد اكتشاف العالم في كل لحظة من حياته، مع كل نسمة هواء يتنفسها، سواء كان يرسم الفتاة نفسها أو غصن الكرمة نفسه مئات المرات. كل حدث هو كشف باهر بالنسبة إليه. هناك القلّة من البالغين الذين اكتشفوا العالم حقاً، يعتقدون أنهم يعرفونه، وهم راضون بالمظاهر السطحية منه فقط. لكن المظاهر السطحية سرعان ما تُسبَر. من هنا بلوى المجتمع الحديث: الضجر. دائماً ما يكون الطفل مدهوشاً بالأشياء. تعبير ما، غير متوقع، على وجه أمه، يمكن أن يجعله يعي غموض الأفكار والمشاعر، المتعذر تحديدها. رينوار، تقاسم مع الأطفال هذا الاستعداد الطبيعي للفضول التوّاق، لهذا أحبهم كثيراً. المشاعر التي تتنامى فيه عند رؤية جسد امرأة، ربما لها صلة بفكرة الأمومة. كانت هذه عاطفة نقية لديه. مع هذا، لا أصدق بأنه في الحقيقة فكر بالأم المرضعة حين كان يرى ثدي امرأة، أو بالحامل حين يشاهد بطناً كامل الاستدارة. لقد ترك هذه التفسيرات الطبيعية لـ"المثقفين". أنا على يقين من أنه كان يهب ملكة التعبير كل عواطفه من خلال وسيلة الرسم. البهجة التي نالها من الحياة كرجل، توافقت مع البهجة التي أحسّها كرسام. ذات مرة، في أواخر حياته، سمعته يأتي بهذا الرد على صحفي، كانت تبدو عليه الدهشة من يديه المشلولتين: (مع مثل هاتين اليدين،

Twitter: @ketab_n

كيف ترسم؟)، سأل الرجل بقساوة. (بعضوي)، أجاب رينوار، وكان سوقيا حقاً في تلك المرة. وقعت هذه الحادثة في صالة الإستقبال في ليه كوليت. كان هناك نصف دزينة من الضيوف. لا أحد ضحك على هذه المزحة، لأن ما قاله كان تعبيراً لافتاً عن الحقيقة، تعبير نادر الحدوث في تاريخ العالم؛ وتعبيراً عن معجزة تحوّل المادة إلى روح.

الفتيات اللائي وقفن أمام رينوار لم يكنّ جميعا مثالا للفضيلة. أخلاقيات الحي، لم تكن صارمة حقا، والأولاد الذين ولدوا من آباء مجهولين كانوا يتكاثرون هناك. وبينما الأمهات خارج البيت يعملن أو يقمن (بشيء آخر)، كانت الجدات تأخذن على عاتقهن مسؤولية صغار العائلة. والنساء الأخريات أيضاً، عليهن الخروج للعمل في البيوت أو غسل الملابس. كان الأطفال يجولون في الشوارع، وأنوفهم تسيل، وجوعى أحياناً. كان أبي يقضي وقته في توزيع الحليب والبسكويت عليهم، (وحتى المناديل التي كانت تأخذ طريقها بلا إنقطاع إلى جيوب الكبار. في اليوم التالي كنت ألتقي الطفل ثانية، فأجد أنفه يقطر على نحو أسوأ من قبل). كان قلقا، بوجه خاص على الأطفال الرضع، المتروكين داخل البيوت في مهودهم. (ماذا لو شبّ حريق في البيت!). وكانت ترعبه فكرة أن تقبع قطة على صدر طفل صغير فتخنقه. كانت المنطقة كلها مبتلاة بالقطط. جال في خاطره إنشاء منظمة تدعو النساء غير العاملات إلى الإعتناء بأطفال الأمهات اللائي يخرجن إلى العمل أثناء النهار. ونوى أن يطلق على المنظمة اسم "لو بوبونا"[٦١]. وبدأ حملة لجمع التبرعات، وأقنع مالك حانة مولان دو لاغاليت بإقامة حفل راقص بالملابس التنكرية لصالح هذا المشروع. مسيو دبراي كان رجلاً طيباً على نحو غير عادي، (كريم بالشراب والطعام للفتيات الصغيرات الجائعات). وتقرر

---

(٦١) كلمة ابتكرها رينوار من «بوبون» وتعني «طفل صغير».

Twitter: @ketab_n

إقامة فقرات خاصة أثناء الأمسية، ووعد بعض المغنين بالمشاركة، توزع فيه قبعات قش، مزينة بشرائط حمر من القطيفة، كهدايا. وبمساعدة من كل فتيات الحي، قضى أبي بضعة أيام بإعداد هذه القبعات.

حقق الحفل الراقص نجاحاً باهراً. ولم تسع المولان دو لاغاليت كل أعداد الراقصين. الأيدي المتطوعة، كانت رائعة، و"الفقرات" المختلفة حازت إعجاباً كبيراً، والمرح دام طوال الليل. في الصباح، حين احصيت الإيرادات من قبل ريفييه ولوت والبقية من أصدقائهم، اكتشفوا أن المال يكفي فقط للعناية الطبية لفتاة مسكينة، كانت تعاني من إلتهاب الوريد بعد الإجهاض. كانوا مجبرين على مصادرة مبلغ من المال لشراء ملابس أطفال وأغطية لبعض المولودين الجدد، الذين هم بحاجة ملحة اليها. كان تفسير هذا الإخفاق المالي، هو أن المنظمين، برغم عدم إفتقارهم للحماس، كانوا مؤلفين بشكل خاص من شباب بإمكانيات متواضعة. علاوة على ذلك، أغلب الذين حضروا، دخلوا مجانا بواسطة أصدقائهم من بائعي البطاقات. كان على رينوار أن يتخلى عن أعماله الخيرية، مع هذا، بعد فترة، تحدث مع مدام شاربنتييه عن الأمر، فقامت هذه بجمع الأموال الضرورية لإنشاء دار حضانة نهارية في مونمارتر، تم إفتتاحها بينما كان رينوار في أول رحلة له إلى ايطاليا، كما أعتقد، وقد فرح كثيراً حين سمع بالأخبار. (الأطفال الرضع يبللون الحضائن، كما تعرف، وهم معرضون للإصابة بذات الرئة كما حدث لك. لكنك كنت تحت رعاية أمك وغابريال).

مثل مونمارتر، كانت ضفاف نهر السين بين شاتو وبوغيفال، ملائمة لإلهام رينوار، بالدرجة نفسها، خصوصاً في السنوات التي سبقت زواجه. كانت اللوحة الكبيرة "غداء المراكبية" التي هي الآن في غاليري ميموريال في واشنطن، هي قمة إنجازه من سلسلة طويلة من الرسوم والدراسات والتخطيطات في مطعم غرينوييه في شاتو. خط السكك الحديد إلى سان-

Twitter: @ketab_n

جرمان، أسهم في إزدهار المكان. كانت المحطة التي على جسر شاتو تبعد بالقطار عشرين دقيقة عن باريس، والمطعم الذي يقع على جزيرة شاتو لا يبعد عن المحطة سوى دقائق قليلة مشيا على الأقدام. كان بيبسكو إصطحب أبي إلى هناك قبل حرب ١٨٧٠. اكتشف المكان عاشق شاب أحب التجول تحت أشجار الحور العملاقة. عندما صارت الرياضة في الطبيعة شائعة، فكر صاحب نزل بعيد النظر من بوغيفال، يدعى فورنيس، أن يبني كوخاً على الجزيرة يبيع فيه عصير الليمون لمتنزهي يوم الأحد، وبنى رصيفاً على النهر. هو نفسه، كان مجذفاً، وإشترى بعض القوارب الممتازة، وصار يؤجرها لزبائنه الباريسيين. وكانت لديه حتى قوارب شراعية صغيرة، رفيعة مثل الأبرة وسريعة جدّاً ؛ لكن هذه، لم يكن يؤجرها الا إلى المجربين. لم يمضِ وقت طويل حتى تطور مطعم فورنيس إلى نوع من نادٍ للقوارب. يتلوى نهر السين حول المطعم في انحناء متناسق.

اسم "غرينوييه"[٦٢] الذي عرف به المطعم، لم يكن مشتقا من برمائيات عديدة تعج بها الحقول المحيطة، بل من نوع مختلف تماماً من أنواع الضفادع. انه مصطلح مخصص أيضاً للنساء الأقل فضيلة: لسن بالضبط بغايا، بالأحرى هن فئة من النساء الصغيرات العازبات، تميّز بهن المشهد الباريسي قبل الإمبراطورية وبعدها، وكنّ يغيرن عشاقهن بسهولة، مشبعات نزواتهن، ينتقلن من شقة في الشانزليزيه إلى علّية في باتينيول. لهن، نحن ندين بذاكرة عن باريس، زاهية، لطيفة، مسلية. من بين تلك المجموعة، حصل رينوار على عدد كبير من الموديلات المتطوعات، حسب ما قال، (الغرينويات، أو "الضفدعات" كن عادة من النوع الطيب جداً).

---

(٦٢) ضفدع البركة.

Twitter: @ketab_n

بدافع الميل إلى الإختلاط الذي كان سمة مميزة للمجتمع الفرنسي، فإن ممثلات، نساء مجتمع، وبرجوازيين محترمين، كانوا يترددون أيضاً على مطعم فورنيس. الجو العام فيه، كان مميزا برياضيين شباب بقمصان حريرية مخططة، ينافس أحدهم الآخر ليكون المراكبي البارع. حين أخذ بيبسكو رينوار أول مرة إلى الغرينوبيه، قدم له نقيبا من وحدته، البارون باربيه. كان رجلا جذابا، وجاهلا تماماً في الرسم، وكان يهتم بالخيول والنساء والقوارب فقط. بدأ، هو وأبي، صداقة عظيمة.

بمعزل عن جمال المكان، والخزين الوافر من الموديلات، فإن ميزة واحدة هي التي جذبت رينوار بوجه خاص: قربه من لوفيسيان. بالرغم من مشاغل حياته، فلم ينس أمه أبدا. كان يحبها ويعجب بها أكثر من أي وقت آخر. (حين تقدمتْ في العمر غدت صلبة مثل الفولاذ). أغلب سكان لوفيسيان كانوا مؤلفين من مزارعي الخضار المزدهرين. أجاصهم ما زال شهيرا، يزيّن موائد الكثير من الباريسيين الذوّاقة. كان هناك أيضاً مستعمرة كاملة من الكلوشار (المتشردين) الذين بقوا أحياء بقيامهم بأعمال غريبة في بساتين الفاكهة، لكن أغلبهم كان يعيش على الإحسان. تنتصب أكواخهم على أطراف غابة مارلي، ليس بعيداً عن بيت جديّ. كانت مرغريت ميرليه تذهب إليهم يومياً، متكئة على عصاها، توزع، وبطريقتها العدوانية الفظة، قطعا من الخبز ولحم الخنزير وأحياناً الفطائر. في المقابل، كانت تصر على إستحمام الصغار. لم يكونوا يبالون بذلك، بالطبع، لكن السيدة العجوز كانت ترعبهم. لم تكن تغادر قبل أن تفحص آذانهم وأظافرهم. هوسها بالنظافة، كان وسيلتها لإظهار حبها للأطفال؛ عاطفة أورثتها لإبنها. (سيقتلونك في يوم ما!)، كان جدّي يقول لها محذرا. ذات يوم اقترب منها نزيل أحد هذه الأكواخ لم يكن يرغب في أن يغتسل أطفاله. هو نفسه، كان يعيش في الوساخة، وراضٍ عنها تماماً. (عندما تكونين فقيرة، فإن الوسخ يمنحك الدفء)، قال

Twitter: @ketab_n

لها، رافعاً قبضته في وجه جدتي مهدداً، لكنها لوحت أمامه بعصاها فانسحب الأبله، وبعدها بدأ فوج الأطفال بخلع ملابسهم صاغرين، وانزلقوا في حوض الإستحمام.

توقفت مرغريت ميرليه منذ وقت طويل عن متابعة إبنها. في البداية، كانت مسرورة بصوره التي كان يرسمها قبل أن تحل الإنطباعية. لكنه بعد أن (صار يضع اللون الأزرق في كل مكان) لم تحتمل الأمر (ستمضي خمسون عاماً قبل أن يفهمك الناس، وبحلول ذلك الوقت، ستكون ميتاً!)، كانت تقول، (الناس الآخرون ليسوا أكثر ذكاء مني، وأنا لا أفهم منه شيئاً)، وأضافت، (أنا أنتمي لجيل قديم، لكنك من الجيل الجديد. أنا توقفت عند واتو وصحونك المزينة بماري انطوانيت). مع هذا، كانت تشجعه على الاستمرار. (إذا ما حكك جلدك فعليك حكه. وفي آخر الأمر، إذا مت من الجوع، فهذا قدرك!).

المسافة من لوفيسيان إلى الفرينوييه هي مسيرة ساعة واحدة فقط. أقام رينوار علاقة صداقة مع أسرة فورنيس. صارت مدام ومدموزيل فورنيس إثنتان من شخصيات عدد من لوحاته. كما رسم أيضاً بورتريهاً لمسيو فورنيس. كانوا نادراً ما يدفعون لرينوار. (هلا تركت لنا هذا المنظر الطبيعي...)، كانوا يقولون له. فكان أبي يصر على ان رسومه لا قيمة لها: (أعطيكم نصيحة، لا أحد يرغب بها)، فكانوا يردون عليه، (وماذا يهم؟ انها جميلة، اليست كذلك؟ سنضعها على أحد الجدران، لنغطي بها رقعة من الرطوبة). كان أبي يبتسم، حين يتذكر هذا الصنف من الناس، (يا ليت كل عشاق الفن كانوا مثلهم!).

كان يمنحهم عددا من لوحاته التي أصبحت، في ما بعد، تعادل ثروة. ولم يكن آل فورنيس الوحيدين. بوسعي أن أذكر عددا من العوائل، وبينها عوائل مهمة، بفضل هدايا رينوار التذكارية، أنقذت نفسها من صعوبات مالية

Twitter: @ketab_n

ومن الإفلاس التام. (أنا بلا شك رجل محظوظ، إذ كنت قادرا على مساعدة أصدقائي، ولم يكلفني ذلك شيئاً).

كان أبي أحياناً يلتقي مصادفة بموباسان في بيت فورنيس. كانا أصدقاء، لكنهما يعترفان بصراحة بأنه لا جامع بينهما. كان رينوار يقول عن الكاتب، (كان ينظر دائماً إلى الجانب المظلم من الأمور)، بينما يقول موباسان عن الرسام، (كان ينظر دائماً إلى الجانب المشرق من الأمور). مع هذا، كانا يتفقان على نقطة واحدة: (موباسان مجنون)، يجزم رينوار. (رينوار مجنون)، يؤكد موباسان.

ذات يوم، إذ كان يرسم فتاة جالسة في قارب، قدم شخص من وراء أبي على رؤوس أصابعه وسد عينيه بيده مازحا. كان ذاك البارون باربيه الذي عاد لتوه من الهند الصينية. (خالي الجيوب من آخر فلس تماماً)، كما عبّر هو قائلا. كانت حكومة الجمهورية عينته عمدة لمدينة سايغون. كانت هناك أوامر باستمالة الموظفين الكبار في البلاط الصيني، وكان هؤلاء يحبون الشمبانيا، فعمد القنصل الانكليزي إلى إغراق المدينة بها. صارت هيبة الفرنسيين معلقة في كفة ميزان، فأنفق باربيه كل ثروته لإنقاذ شرف وطنه. حين نفدت آخر قنينة من الشمبانيا، قدم باربيه إستقالته، وعاد إلى فرنسا. من حسن الحظ، كان يمتلك معاشا تقاعديا عن جروح أصيب بها في الجزائر، وفي معركة رايشهوفن، وفي شبه جزيرة القرم. فرح أبي برؤية صديقه ثانية، واخبره عن عزمه رسم لوحة كبيرة عن عداء المراكبية مع الأصدقاء على شرفة مطعم فورنيس. عرض باربيه أن يكون مديرا للمشروع، والحصول على قوارب لخلفية اللوحة وجمع الموديلات. (أنا لا أعرف شيئاً عن الرسم، وما زلت لا أعرف أكثر عنكم، لكن يسرني أن أؤدي معروفا لك).

استغرق الأمر من رينوار سنوات عدة كي (ينضج) مشروعه. أنجز

Twitter: @ketab_n

لوحات عدة، في هذه الأثناء، وخططه عن الموضوع، لم ترضه تماماً. في النهاية، حسم أمره في صيف عام ١٨٨١. (سأبدأ بالغداء)، قال لباربيه. وفي الحال، أظهر صديقه وفاءه. لست متأكدا من هوية كل الشخصيات في اللوحة. هناك لوت، في الخلفية، مرتديا قبعة عالية سوداء ؛ يُرى لوسترنفي يتكئ على صديق، الذي ربما يكون ريفييه. المرأة التي تسند كوعها على الدرابزين هي الفونسين فورنيس، (الفونسين الفاتنة)، كما كان يدعوها مرتادو مطعم أبيها. ماتت معدمة في عام ١٩٣٥، عن عمر الثانية والتسعين، بعد أن إستثمرت كل أموالها في صكوك تأمين روسية. الشاب الذي يشرب هو "انريو الصغير"، المرأة التي تنظر إلى لوسترنفي لا بد أن تكون ايلين اندريه. أما الشخصية التي تربت على كلب صغير، في مقدمة اللوحة، فهي أمي.

قمت في العام الماضي بزيارة المكان. كم كان كئيبا ! لا شيء هناك سوى المصانع، وركام الفحم، وجدران مسوّدة وماء قذر. جذام الصناعة الحديثة التهم الغابات الصغيرة والعشب الوافر النماء. عمال من شمال أفريقيا، مثقلون بأعباء عملهم الحقير، كانوا يفرغون، على نحو يائس، صفائح معدنية كبيرة من مركب كبير مغطى بالشحم. البارون باربيه، المراكبية، والصبايا السعيدات، إختفوا كلهم من هذا الجانب من النهر. وهم يعيشون الآن، مخلدين، في مخيلة اولئك الذين يحبون الرسم ويحلمون بالأيام الخوالي، كلما حدقوا بـ "غداء المراكبية".

نحن نعرف أنه حتى ذلك الوقت كان رينوار تدبر أن يقلص حاجاته اليومية إلى أدنى حد. (عليك أن تكون دائماً مهيأ للبدء في البحث عن موضوع جديد، لا أمتعة، فقط قطعة صابون وفرشاة أسنان). أطلق لحيته، ليس لأنها أعجبته، بل لأنه أراد أن يوفر وقت حلاقتها. بدلاته كانت مفصلة حسب مقاسه، ومن خامة انكليزية جيدة، لكنها ليست عديدة. مبدئيا، كان لديه ثلاث بدلات فقط، إثنتان كانتا، تقريبا دائماً، رماديتان مخططتان،

Twitter: @ketab_n

الأقدم يلبسها حين يرسم في الريف. والثالثة بدلة سهرة كاملة. لم يرتد أبداً السموكنغ، ولا ردنكوت (الملائم للجنازة فقط)، ولا سترة، (التي تجعلك تبدو مثل موظف مصرف)، لكنه كان ينتقل مباشرة من ثياب العمل إلى ثياب السهرة. حتى في أوقات فقره الشديد لم يرتد أبداً قمصانا قطنية، (كنت أفضل أن ألبس قميصا مهترئاً من الكتان على واحد قطني جديد). في ما يخص الطعام، تحدثت آنفا كيف كان يعيش على البازلاء، حين كان يقاسم محترف الرسم مع مونيه. عادة ما كان يتناول وجبته في الكريميري. عندما كان يرسم خارج باريس، كان يقيم في فنادق صغيرة، مثل نزل الأم انتوني في مارلوت، التي كانت لا تزال فاتنة. في باريس كان يرتب فراشه كل صباح، ويوقد النار، ويكنس المرسم. حين يغدو المكان قذرا جداً، كان يستعين بواحدة من موديلاته، أو على الأغلب بواحدة من أمهاتهن، فكان يغيب يوماً كاملا كي تتمكن من تنظيفه (تنظيفاً شاملاً). لم يكن يحتفظ أبداً بشيء قديم أو بال. حين كانت واحدة من بدلتيه تبلى أو يصبح حذاؤه رثاً، يهبها لآخرين. والشيء نفسه يفعله بأثاثه. كان يحيا حياته بإحساس سار من التحرر من كل ملكية. (ليس في جيبي غير يدي الإثنتين)، كما يعبر عن ذلك. حتى لوحاته، تخلص منها، وكان يذكي نار موقده برسومه المائية وتخطيطاته. والحالة هذه، خلال شتاء ٨١، بدأت تساوره الشكوك حول جدوى مثل هذه الحياة اللامبالية.

(نظريا، يبدو الأمر ظريفا، بدون رباط، لكن هذا لا يمكن. فرباطي كان يذهب للعشاء، بين الحين والآخر، مع الناس. هذا قليل، لكن حين تكون وحيدا، فأمسياتك تكون بائسة).

الكريميري الذي إعتاد أبي الذهاب اليه، كان في الجهة المقابلة تماماً لمرسمه في سان جورج. لكني أريد أن أشرح أولا ماذا يعني هذا التعبير، الكريميري (crémerie). كانت عبارة عن محال صغيرة تدار عادة من قبل امرأة، يباع فيها القشدة والحليب والزبد، بالإضافة إلى ذلك، توجد ثلاث أو

Twitter: @ketab_n

أربع طاولات في غرفة متاخمة، يمكن للزبائن الجلوس فيها وتناول البلات دي جور (طبق اليوم). وكان هناك دائماً موقد صغير في إحدى الزوايا، وهو لا يدفئ المكان فحسب، بل يسخن عليه لحم العجل ويخنة لحم الضأن أو البوتوفو (طعام مركب من لحم مسلوق وخضَر). كان صحن لحم البقر فيه متوافرا في أغلب الأحيان، لأنه لا يتطلب الكثير لإعداده. طبق التحلية، بعد الأكل، كان دائماً قطعة من الجبن. واولئك الذين يرغبون بتناول النبيذ مع الطعام، كان يمكنهم الحصول عليه من التاجر في المحل المجاور. الزبائن المنتظمون، كانوا يتجمعون حول المائدة في وقت واحد، مثل أعضاء العائلة تماماً. حالتهم الإجتماعية متواضعة، مثل أسعار وجباتهم.

صاحبة الكريميري في رو سان- جورج، مدام كاميل، كانت أرملة في الخمسين من العمر ولديها إبنتان، واحدة منهما تعمل خياطة، والأخرى بائعة في محل أحذية. كان أقصى طموحها أن تزوج واحدة من البنتين لرينوار. كانت تفعل كل شيء من أجله ؛ تضع له جانبا أفضل قطعة من جبن البْري، (لا تكون راشحة، لكن طرية كفاية). كان لا يصمد أمام البري، فهو، حسب رأيه، (ملك الأجبان. لكن لا يمكنك أكله الا في باريس. ما أن يتعدى حدود المدينة، حتى يصبح سيئاً). البنتان كانتا فخورتين حقاً بإبن بلدتهما الموهوب، فكانا يدسّان في جيوبه طعاماً شهياً، طُبِخ بحرص حنون، أو يرتقان بعناية مناديله. أمهما، في خططها لتزويجه، يشغلها أبي أكثر من بنتيها، (إنه مهذب جداً، ولا عون له. وهو نحيف كثيراً إلى الحد الذي يوجع قلبك. لا ينبغي أن ندعه يعيش لوحده، يجب أن تكون له زوجة !). لم تشتبه أبداً بأنه وجد مسبقاً هذه الزوجة بين مرتادي مطعمها الصغير. وإن لم يكن تقدم بعد للزواج من هذه السيدة الصغيرة، فذلك لأنه لم يكن متيقناً من قدرته على إعالتها وإعالة أطفالهما. الفكرة نفسها بإمتلاك زوجة (تعمل خارج البيت)، وهو تقليد لا يحبذه، كانت فكرة بغيضة بالنسبة له. في الواقع، غالباً ما كان يقول لي: (لو تزوجتَ يوما،

Twitter: @ketab_n

اجعل زوجتك تبقى في البيت. عملها الحقيقي هو الإعتناء بك وبأولادك، في حال كان لك أولاد).

كانت مدام كاميل تنحدر من الجزء نفسه من مقاطعة الأوب، الذي يقع بين إقليمي شمبانيا وبورغونيا. السكان هناك، معروفون بلهجتهم البورغونية القوية، ولهم طريقة واضحة في تدوير حرف "الراء". تخيل مقدار فرحها، حين اكتشفت أن امرأة أخرى من الأوب تسكن قريبة منها في رو سان- جورج، و"راء" جبرانها يرنّ مثلما يرنّ "راء"ها هي.

كانت هذه الجارة، مدام شاريغو، واسمها الأول ميلاني، هجرها زوجها فأعالت نفسها بالقيام بأعمال الخياطة للسيدات. لديها ابنة، آلين، كانت ماهرة على حد سواء في الخياطة... أثيرت مشاعري كثيراً، وأنا أكتب هذه السطور، لأن التي أتحدث عنها الآن، هي أمي. انها المرأة التي تُشاهَد، وهي تضع رجلها في قارب، في لوحة صغيرة رسمت قبل "الغداء" ببعض الوقت. عرفها رينوار لسنوات عديدة، إذ كانت تقف أمامه للرسم، كلما توفر لها الوقت للخروج، وبلا شك أيام العطل. لكونها عاملة حية الضمير، كانت تكسب جيدا من عملها في خيّاطة الملابس النسائية، وكان مشغلها يقع في شقة صغيرة، في الدور المسروق[٦٣] من مبنى على الجزء السفلي من الهضبة. كانت توظف في المشغل ثلاث فتيات لأعمال الخياطة، وصنع نسخ من أزياء المحلات الكبيرة في شارع دو لابي في حي نوتردام دو لوريت، وكانت أيضاً تخيط ملابس للشواذ في حي بيغال، لكن على كره منها، (لأنهم)، كما كانت تقول، (يبعدون الزبائن المحترمين). كانت صاحبة العمل من بلدة ديجون، وتتكلم بلهجة تلفت النظر، مثل أمي، التي كانت تتنبأ لها هذه المرأة بمستقبل

(٦٣) دور منخفض في بناية يقع بين الدور الأرضي والدور الأول.

Twitter: @ketab_n

باهر. (لو واصلت العمل على هذا النحو فستنالين ما تبغين. حين نزلت إلى باريس، أول مرة، كنت مفلسة مثلك). لكن الزواج، في رأي المرأة الطيبة، هو الطريق الأمثل للنجاح. زوجها، الذي كان وكيل لشركة حرير، هو من ساعدها في مشروعها. نصيحتها لآلين، كانت: (احصلي لنفسك على رجل ثري، بشرط أن لا يكون شاباً جداً. مع مثل هذا الوجه الصغير الجميل، من السهل العثور على هذا الرجل). لكن آلين شاريغو كانت تفكر فقط بالرسام من رو سان- جورج. ليس شابا، ومن الوضح انه لا يملك فلسا واحدا. (وما أن يتوفر لديه بعض المال، حتى يهبه كله). كان في الأربعين من العمر، وهي لم تتعد التاسعة عشرة. كانت تتمنى أن يطلب منها أن تقف أمامه للرسم في كل الأوقات. (لم أكن أفهم أي شيء عن الرسم ؛ لكني كنت أحب أن أراقبه وهو يرسم).

حدست مدام كاميل وابنتاها أخيراً ما الذي يحدث، فتخلين بلطف عن آمالهن، وعملن ما بوسعهن لمساعدة هذا الحب الناشئ. الباريسيون لهم ولع بالعلاقات الغرامية ـ أعني، كمشاهدين، وبالأخص، كمؤتمنين على الأسرار. وحين تكون العلاقة الغرامية سرية، فإنها تغدو متعة حقيقية. كل السيدات المهتمات، لا يتوقفن أبداً عن طرح الأسئلة على صديقتهن الشابة حول العلاقة، أو يسدين لها النصائح: (ألم يطلبك للزواج بعد؟ أطلبي منه أن يأخذك إلى المسرح. عليك أن ترتقي جواربه، وتنظفي البيت وتطبخي له. يجب أن تجعليه يسمن. عليك أن تقنعيه بأن يتوقف عن العيش عيشة البوهيمي. في هذا العمر، لا بد له من الزواج، وإلا سيكتشف عاجلاً أنه تأخر كثيرا. لا تخبري أمك، مهما حدث، فإنها ستفسد كل شيء).

جدتي، من جهة أمي، كانت، في الواقع، لا تطاق. متحصنة بقوة خلف كرامتها ومطوّقة على نحو تام بمسؤولياتها ومزاياها المنزلية، لم تحجم عن الإنقضاض على أقل بادرة ضعف عند الآخرين. (كانت لها ابتسامة ذات

Twitter: @ketab_n

مغزى، تجعلك تتمنى لو تقتلها). ذات يوم، وعلى غير عادتها، دخلت برفقة إبنتها إلى مرسم رينوار، من أجل وضع اللمسات الأخيرة على لوحة رسمها على ضفة السين. تسمرت أمام اللوحة، وسألت بسخرية، هازة رأسها: (وهل تكسب عيشك من مثل هذه الأشياء؟ حسنا، أنت سعيد الحظ!). آلين لم تكن من النوع الذي يمكن إرهابه. أمرتها أن تنصرف، وقالت لها، إن لم تطع فإنها ستحتفظ بكل المال الذي تكسبه لنفسها. في مواجهة مثل هذا التهديد، أحنت مدام شاريغو رأسها وخرجت من المرسم، وهي تردد التفجع المألوف عند العجائز البورغونيات، (أوه، لا لا، ربي الرحيم، أي ورطة أوقعت نفسي بها!).

قال لي أبي: (ليس هناك من شيء زائف في أمك. لم تغلبها العاطفة المفرطة أبدا). اكتشف فيها الرفعة نفسها، التي كان يجلها في أمه، (مع فارق، ان أمك مولعة بالطعام الطيب). هذا الضعف كان يبهجه. رجل غير مسرف مثله، يكره الحمية، ويعتبر مثل هذه التضحية المفروضة على النفس دليلا على الأنانية، كان في الوقت نفسه لا يأبه بالحرمان من الأشياء الجيدة، لكنه كان يقدرها. كان يحب أن يرى الناس الحسني التغذية حوله. كانت صاحبة الكريميري تدعو أصدقاءها، مرة في الأسبوع، لمأدبة من البازلاء ولحم الخنزير، لذة بورغونية عظيمة. كانت توصي على الطعام من ديجون: بازلاء حقيقية، ناضجة مثل كرمة في تربة صخرية، ليست من النوع الذي ينمو في حقول الحنطة أو البرسيم. (كان شيئاً ممتعاً أن ترى أمك وهي تأكل. مختلفة عن نساء المجتمع اللائي يجلبن لأنفسهن آلام المعدة كي يبقين نحيفات وشاحبات).

ذكرياتي المبكرة جداً عن والدتي تمثلها وهي ممتلئة الجسم أصلا. بوسعي أن اتخيلها في العشرين، بإنحناءات جميلة وخصر "نحلة"، والصور التي تظهر فيها تعطي، إلى حد ما، فكرة أوضح عن هيئتها. ذكرت سابقا كيف كان رينوار يميل إلى الإعجاب بصنف "القطة" في المرأة. آلين شاريغو، كانت

Twitter: @ketab_n

مثالا كاملا لهذا الصنف. (تتمنى لو تدغدغ أسفل حنكها). ذخيرة أبي من ذكريات تلك الفترة من حياته، قادتني إلى الإفتراض أن حبا عظيما كان بين الإثنين. حسب ريفييه: (كان، في بعض الاوقات يضع ملونه جانبا ويظل يحدق بها بدلاً من الرسم، سائلا نفسه "لم العناء؟"، ما دام الذي أحاول الوصول اليه موجود أصلا). لكن هذه "الأزمة الأدبية" الصغيرة كانت سرعان ما تنقضي. لذلك صارت أمي تشاهد في الكثير من لوحاته.

يبدو ان العاشقين كانا يقضيان جل وقتيهما على مقاعد ضفة السين. كان مطعم فورنيس مكان لقائهما المفضل. كان من السهل الوصول اليه، عبْر شارع سان- لازار، فالأمر يستغرق من شارع سان- جورج بضع دقائق مشيا إلى المحطة. كان هناك قطار محلي من سان- جرمان، كل نصف ساعة، ويتوقف في محطة جسر شاتو. في فورنيس، وجد الإثنان مجموعة من الأصدقاء، رعوا قصة حبهما بحنان. إهتم الرسام كايبوت بآلين شاريغو مثل أخت صغيرة. ايلين اندريه ومدموزيل انريو قررتا تبنيها، وعزمتا على (صقل هذه الفتاة الريفية الحلوة). كانت آلين متأثرة بصداقتيهما: تستمع اليهما، وتواصل فعل ما يرضيها. (لم أشأ أن أفقد لهجتي، وأقلد الباريسيات).

كان المكان مبهجا، عيد دائم. أعجب رينوار بمهارتها. (كانت لها يدان تفعلان كل شيء). علمها السباحة، بادئا بوضعها على طوف. كان حريصا على أن يبقى قريبا منها، ويمسك بحبل مربوط على جسمها. (لا تدري أبدا، إذا ما أصابها تشنج، بإمكاني أن أسحبها بسرعة). لكن لم يمضِ وقت طويل حتى راحت تسبح من دون الحبل، لأنها (كانت تسبح مثل سمكة).

في الليل، كان هناك دائماً من يتطوع للعزف على البيانو للرقص. كانت الطاولة التي في الشرفة تقع إلى الخلف نحو الركن، بينما البيانو في الصالة الصغيرة، والموسيقى تتردد عبر النافذة المفتوحة. (كانت أمك ترقص

Twitter: @ketab_n

الفالس على نحو سماوي. للأسف كنت أدوس على قدميها. نجم الرقص كان باربيه. حين يبدأ بتدوير أمك حوله، كان الكل يتوقف، متطلعاً إليهما). كان لوت، ترافقه مدموزيل فورنيس، يقاطع الرقص أحياناً بلازمته المفضّلة، أغنية الجندي البطل في "مامزيل نيتوش": (لأنه كان، لأنه كان، لأنه كان مجبولا من رصاص...)، وكان الجميع يشاركون بالكورس.

سأحاول أن أقدم فكرة عن الملاءمة الجسدية التي اعتبرها رينوار مثالا في وجه الإنسان: العينان يجب أن تكونا في المنتصف، بين قمة الرأس وقمة الذقن. إذا كان النصف الأعلى من الرأس كبيراً جدّاً فهذا يدل، في رأيه، على عقل كبير - (عقل المصاب بجنون العظمة، أو، ببساطة أكثر، عقل المثقف، ناهيك عن المصاب باستسقاء الرأس) - أما إذا كان النصف الأعلى من الرأس صغيراً جداً، فهذا يعبر عن بلاهة طيبة ونزاهة. إذا كان الجزء الأسفل بارزاً جدّاً فهذا يعني العناد، (لا تتزوج أبداً من امرأة بذقن كبيرة. فإنها تفضل أن تتمزق إلى قطع على الاعتراف بأنها مخطئة).

كان يحب النساء اللائي لهن ميل للبدانة، بينما الرجال، كما إعتقدّ، يجب أن يكونوا نحيلين. أحَبَ الأنوف الصغيرة أكثر من الكبيرة، ولم يكن يخفي سرا بتفضيله الأفواه الواسعة، والشعر الاشقر، (الشفاه المبوّزة تشير إلى التصنع ؛ والشفاه الرفيعة إلى الإرتياب). بعد أن ذكر هذه القواعد، مشددا على تقسيم الوجه على خط العينين، أضاف أبي: (هذا يعني عليك أن تتبع غريزتك. مع القواعد، تكون، في بعض الأحيان، عرضة للخطأ. كنت أعرف فتاة ساحرة الجمال بذقن طويلة معقوفة، وصبايا لا يمكن احتمالهن ذوات سمات في غاية التناسق). حصل أن آلين شاريغولم تكن صبية لا تحتمل، ذلك ان شكلها وجسدها مطابقان للقوانين التي صاغها رينوار، فعيناها اللوزيتان كانتا تفصحان عن عقل متوازن، وكانت لها خطوة خفيفة - (يمكنها أن تمشي على العشب من دون أن تجعده)، وإكتسبت قوة الرياح الصغيرة الحادة التي

Twitter: @ketab_n

تعصف على تلال بلدتها، وتعرف كيف ترفع خصل شعرها الجامح، تضمها، بلا إتقان، على شكل كعكة الشينون، من دون تباه، وبحركة، كان يحلو لرينوار أن يراقبها، لأنها (كانت تصبح دائرية حقا).

حين يدع نفسه تُجرَف مع الذكريات، كان أبي، الذي شوهه الروماتزم، يحدق إلى الكرسي المنجد بالقطيفة الوردي، حيث إعتادت فقيدته الحبيبة أن تجلس وتراقبه. ما زال هذا الكرسي موجودا، في بيتي، بجانب الأريكة التي إحتلت غرف الإستقبال للشقق المختلفة التي سكنّاها، بدءا من شقة شاتو ديه برويار، إلى تلك التي في بولفار روشوشار. قفازاه، ولعبة البيلبوكيه، وبضعة مناديل، كل هذه، هي البساط السحري الذي يرحل بي عائدا إلى السنوات التي أحاول أن أعيشها ثانية!

أصل الآن إلى مسألة أكثر أهمية حول هذين الإنسانين: الغموض الذي يستعصي على التفسير لأكثر العقول العلمية صفاءً، لكنه واضح وضوح النهار لأولئك الذين يحملون أثرا من التصوّف. أعني بالقول، انه منذ أول لحظة تناول فيها الفرشاة ليرسم، وربما أبكر من هذا، ربما حتى في أحلام الطفولة، ثلاثون عاما قبل أن يعرفها، كان رينوار يرسم بورتريه آلين شاريغو. شكل فينوس، على آنية الفخار التي إختفت من منزلي أثناء الإحتلال النازي، هي تجسيد لأمي قبل عشر سنوات من ولادتها. والبروفيل لشهير لماري انطوانيت، الذي رسمه أبي مرات عديدة في مشغل مصنع البورسلين، كان بأنف قصيرا مرة، قال له معلّمه: (إنتبه. الزبائن لا يتعرفون إلى معبوداتهم. عليك أن تجعل الأنف أطول قليلاً). بالتأكيد، أنجز رينوار بورتريهات لنساء، كانت الواحدة منهن تختلف، بوجه خاص، عن الأخرى. اهتمامه بكل كائن بشري دفعه إلى أن يجعل من بورتريهاته متشابهة، لكن، متى ما رسم مواضيع من اختياره هو، كان يعود إلى الصفات الجسدية المميزة، التي لزوجته المستقبلية. لا احد يعرف إن كان يختار موديلاته عن تعمد، أو أن مخيلته هي التي كانت

Twitter: @ketab_n

تقوده. أوسكار وايلد الذي تعرف عليه في سنواته الأخيرة، قدم تفسيرا أكثر بساطة، عندما روى نكتة عن ترنر: (قبل ترنر، لم يكن هناك ضباب لندن). إن النظرية التي تفيد بأن الرسامين (خلقوا العالم) تصح، على نحو لافت، على رينوار. ليست أمي فقط من ولد في لوحات رينوار، بل نحن أيضاً أطفاله. فقد صورنا حتى قبل أن نأتي إلى الدنيا، حتى قبل أن نكون أجنة في بطن أمنا. مثلنا مئات المرات، فعل مع كل الأطفال، كل الفتيات الصغيرات اللواتي كان يؤهلهن، بلا وعي، ليصبحن أولاده هو. عالم رينوار، عالم لا يقبل الشك. يوقفني بإستمرار آباء يروونني أولادهم وهم يقولون: (ألا تعتقد انهم رينواريون صغار تماماً؟). والعجيب، انهم كذلك فعلا ! عالمنا الذي قبله، كان مليئا باناس وجوههم مستطيلة شاحبة، والآن، صار يُشاهَد فيه مخلوقات ذات وجوه صغيرة مدوّرة، بخدود حمر جميلة. وكان الشبه يكتمل بالميل إلى اختيار ملابسهم، وعن هذا، كان هو المسؤول أيضاً.

كان معاصروه يتهكمون كثيراً على (الملابس المبهرجة التي كسا بها الطباخات والخادمات اللائي وقفن موديلات أمامه). هذا النقد الذي كتبه صحفي منسي، أعاده أبي نفسه على مسامعي. تركهم رينوار يقولون ما يشاؤون. كل شخص قادر على خلق عالم مليء بالصحة واللون، هو فوق النقد. (تركت حشد الأدباء لولعهم بفقر الدم والشاحبين)، ثم، لكي يوضح رأيه، أضاف، (عليهم ان يدفعوا لي مقابل أن أنام مع غادة الكاميليا !). كان سيمتعض لو أن أحداً ما كشف له الطبيعة الصحيحة للعمل الذي كان أنجزه بتواضع شديد. إن خلق، حتى الجزء الصغير من الكون، هو عمل من أعمال الله، وليس عمل حرفي كفء في البورسلين، أصبح مهنيا جيدا في الرسم. كان، بالعكس، مقتنعا بأن العالم هو الذي خلقه، وهو لم يفعل سوى إستنساخ هذا العالم، الذي أذهله إلى أقصى حد، مثل سيمفونية عظيمة. (الفلينة في مجرى التيار). كانت رغبته الوحيدة أن يكون وسيطا أمينا بين العجائب، التي

Twitter: @ketab_n

كان يدركها بوضوح كبير، وبين البشر، الذين كانوا يحتاجون إلى دليل، كي يكتشفوها. كان سيحس بسخط شديد لو أن أحداً ما جرؤ على القول، ان الحياة التي ملأ بها لوحاته بإسراف، نبعت من ذاته. وكان سيشعر بالإهانة، بالقدر نفسه، لو أن أحداً ما وصفه بالمثقف.. انه لم يكن يسعى سوى أن يكون آلة للأخذ والعطاء، ولبلوغ هذه الغاية حرص على أن لا يبدد قواه، ويحتفظ ببصيرته واضحة وبيديه ثابتتين. (لو تعلق الأمر بي وحدي، فسيكون مجرد عملية خلق لعقلي. وأمر شنيع، أن يكون العقل أجرد تماماً! انه بلا قيمة، عدا ما تضع انت فيه).

هنا بعض من أفكاره حول الموضوع نفسه: (للتعبير عن نفسه بوضوح، يجب على الفنان أن يكون خفيا. خذ، على سبيل المثال، الممثلين في العصور الأغريقية القديمة مع أقنعتهم). ورأي آخر: (الفنان المجهول، الذي أبدع "العذراء" في القرن الثاني عشر، الموجودة في متحف كلوني، لم يوقع على عمله. مع هذا، أنا اعرفه أفضل مما لو كان في الواقع تحدث الي).

ذات يوم، كنت أحاول أن أعزف على البيانو سوناتة لموزارت. ومثل كل العازفين القليلي البراعة، شددت على "العاطفة" في عزفي. فجأة قاطعني أبي: (لمن هذه الموسيقى؟)، (لموزارت)، أجبت. (شكرا لله. خشيت للحظة أنها لذلك المعتوه بتهوفن). وعندما أبديت دهشتي، قال: (بتهوفن فاضح حقاً في الطريقة التي يكشف بها عن نفسه. انه لا يوفر علينا حتى آلام قلبه أو معدته. أحياناً أتمنى لو قلت له: "ما خصني لو كنت أطرشاً؟" على كل حال، من الخير للموسيقي أن يكون أصماً. فهذا سيكون عوناً له، مثل أي عائق. ديغا، رسم أفضل لوحاته حين كان بصره يشح. موزارت، الأكثر شقاءً من بتهوفن، كان محتشماً بإخفاء همومه. كان يحاول أن يمتعني ويؤثر فيّ بألحان يؤمن بأنها منفصلة عنه. وكان يقدر على أن يروي لي عن نفسه أكثر بكثير من بتهوفن بنحيبه الهادر. موزارت يجعلني أرغب في أن أضع ذراعي على

Twitter: @ketab_n

كتفه لأواسيه، وبعد دقائق من سماعي موسيقاه، أحس أنه صديقي المقرّب، وحوارنا يغدو حميماً). كان رينوار يعتقد بأن هناك، لحسن الحظ، تناقضاً دائماً في العلاقات الإنسانية، وكان في النهاية يوازن بلاهة المتعجرفين المدمرة. (الفنان الذي يسعى إلى تقديم نفسه عاريا تماماً أمام الملأ، يكشف في النهاية عن شخصية مبتذلة، هي ليست ذاته حتى. وهذه هي الرومانتيكية، باعترافاتها، ودموعها، وكربها، وهي في الواقع تشبه أداء متكلفاً لممثل من الدرجة الثالثة ! في المقابل، حدث أن رافايل، الذي لم يكن يفعل غير رسم فتيات طيبات مع أطفال صغار - اللائي مُنحن اسم "العذراء" - كشف لنا عن ذاته بألفة مؤثرة).

أثناء حديثنا، كان رينوار يعبّر عن هذه المبادئ الجوهرية بثقة أكيدة. في الكشف عن الكذبة الأبدية التي تحجب عنا واقع الأشياء، اتكأ على حياة طويلة من تجارب من كل الأنواع. من جهة أخرى، لم يأل جهداً في الإشارة إلى أن حقيقته هو بعيدة عن أن تكون حقيقة مطلقة. (قضيت حياتي أرتكب أخطاء فاضحة. فائدة التقدم بالعمر هي أنك تصبح واعياً بأخطائك بسرعة أكبر). كان يقول أيضاً، (ما من إنسان، منظر طبيعي، أو موضوع لا يمتلك، على الأقل، شيئاً من التشويق - برغم انه يكون أحياناً مطمورا. حين يكتشف الفنان هذا الكنز، فإن الآخرين سيهتفون في الحال بجماله. الأب كورو، فتح أعيننا على جمال اللوانغ، وهو نهر مثل أي نهر آخر، وأنا على يقين بأن المناظر الطبيعية اليابانية هي الأخرى ليست أكثر جمالا من غيرها، لكن الأمر المهم، هو أن الرسامين اليابانيين عرفوا كيف يستخرجون الكنز المطمور).

ملاحظاته هذه جعلتني أفكر بالغرب الأمريكي، الذي يحسبه كثير من الناس الحسني النية انه "صورة بطاقة بريدية"، تاركين عامة السيّاح ليعجبوا بمنظر شجر الصنوبر الكاليفورني العملاق، أو الغراند كانيون. أنا نفسي أعتقد أن غرب أمريكا جميل جداً، لا يعوزه سوى مجموعة من الرسّامين

Twitter: @ketab_n

أساتذة الفن من أيطاليي الكواتروتشنتو أو الفرنسيين الإنطباعيين، من أجل إكتشاف عناصر الخلود، خلف البطاقة البريدية.

أي منظر أكثر حزنا من ضواحي باريس الحديثة؟ مع هذا، منذ ايتريو[٦٤] ورسامي الأحد الملهمين، نحن نعرف بأن هذه الشوارع الكئيبة توحي بشاعرية لا تنكر. من الواضح ان هناك مجالا قليلاً للتقليد في التنظيم الحالي للحياة الأمريكية، وهذا يمكن ان يعوق ظهور مجموعة من الرسامين يكونون أحرارا تماماً بتكريس أنفسهم لدراسة غيرعلمية للطبيعة.

في الوقت الذي التقى فيها والدتي، كان رينوار يمر بأزمة حقيقية. (كنت بالكاد أعرف أين أنا ؛ كنت ضائعا). بعد صراع طويل دام عشر سنوات، وبعد أن صار مشوشا بالتجارب التي ما فتئت تبدو متناقضة، بدأت تنتابه الشكوك حول الإنطباعية. آلين شاريغو كانت لها طريقة أبسط للنظر إلى الأمور. بحكمتها الفلاحية، ادركت ان رينوار ولد كي يرسم، تماماً مثل كرمة العنب المقدّر لها أن تنتج الخمر. لذلك، يجب أن يرسم - على نحو جيد أو رديء، سواء نجح أو لا، ينبغي أن لا يتوقف عن الرسم أبدا. ما الذي يحزن أكثر من خسارة كرمة، وكم تكدح الطبيعة لتنتجها. من المحتمل انهما فكرا بأن من الأفضل الذهاب إلى بلدتها في قرية ايسوي، التي كانت تقريباً لا تكلف شيئاً في العيش. وهناك يمكن لرينوار أن يكرّس كل وقته لتجاربه، من دون أن يضايقه مزارعو النبيذ، المشغولون بهموم أخرى غير مستقبل الرسم. كانت تقف في طريقهما عقبتان جديتان: الأولى، مدام شاريغو التي تعيش هناك، والتي منعت إبنتها من الإرتباط (بحبيبها المبتلى بالفقر)، والثانية، رينوار نفسه، الذي كان بحاجة للبقاء في جو باريس، جو المعركة. (كي تعزل نفسك، لا بد لك من أن تكون قويا على نحو إستثنائي!).

---

(٦٤) موريس ايتريو (١٨٨٣- ١٩٥٥)، رسام فرنسي اشتهر بشكل خاص بتصويره مشاهد من شوارع باريس.

Twitter: @ketab_n

أخيرا، رجعت آلين شاريغو، يائسة إلى صاحبة عملها، وحاولت قدر ما أمكنها أن تتجنب رؤية رينوار. ورحل أبي، حينئذ، إلى الجزائر، حيث اكتشف عالما رائعا. بعد ذلك، قضى الصيف مع آل بيرار في وارجيمون. لكن لا بهاء الشرق ولا بساتين التفاح في النورماندي أنسياه أمي، التي سيراها ثانية، في أيلول من تلك السنة.

حين سألتها عن تلك الفترة من حياتها كانت أجوبتها غائمة. ليس لأنها أرادت أن تخفي عني شيئاً، بل لأنها كانت، مثل كل الناس ذوي الشخصية القوية، تعيش بالكامل في الحاضر. كان نوع السماد الذي تحتاجه أشجار البرتقال في ليه كوليت يهمها أكثر بكثير من الماضي.

بعد موتها جنحت العزلة بأبي إلى الإنكفاء على ذاته. لكن عبّر أحاديث تمكنت بوساطتها من إعادة إحياء ما حدث وقتذاك. آلين شاريغو لم تكن تعتبر الزواج سوى إنجاب الأطفال، وتولي المسؤولية الكاملة عنهم. هذا يعني، بالطبع، شعور دائم بالقلق، وأطفال يبكون، وضجيج، وحضائن مبللة، وأرق وكل ما إلى ذلك. ولا أي شيء من هذا كله يلائم متطلبات رجل كرّس نفسه للرسم بتعصب ناسك مسيحي، منقذا روحه بالجلوس على قمة عمود.

قررا أن يبقيا (صديقين جيدين). كانت قد عزمت على نسيانه، وحاولت إقناعه بالسفر ثانية. من جهته، أحسّ بحاجة لا سبيل إلى تجاهلها إلى الإطلاع على لوحات أساتذة الرسم العظام في مواطنهم. فيلاسكيز، في مدريد، وتيتيان في فينيسيا. وبقي على إيمانه الراسخ بأن تلك اللوحات (لا يمكن أن تنقل من مكان لآخر)، ويجب أن تشاهَد تحت سماوات أوطان الفنانين الذين رسموها. في عام ١٨٨١، بدأ رينوار فترة شغفه بالسفر التي تمخضت عن قرارات حيوية في حياته الشخصية والمهنية.

Twitter: @ketab_n

١٨

كان رينوار يسافر في الدرجة الثالثة مضطرا، وحتى لو توفرت له الوسائل، كان يتجنب السفر في الدرجة الأولى. الراحة الإضافية للظهر لا تستحق الاختلاف في السعر. في نهاية حياته، أجبرته صحته الضعيفة على السفر المترف ؛ لم يعجبه الأمر، أو بالأحرى، كان المسافرون هم الذين أزعجوه. (ما أن يجلسوا على مقاعدهم، حتى يبدأون بقراءة صحيفة الشؤون المالية. ومن ثم، يرمقون جانبا الشخص الجالس إلى جوارهم، يتفحصونه ويصنفونه إجتماعيا ! أكثر الناس إدعاءً حقاً هم اولئك الذين يسافرون مجانا. كان يتسلى، بشكل خفي، بمراقبة الجهود التي يبذلها مسافرون معينون للظهور بمظهر الأهمية، بانتحالهم الوقار، وتعبير من الملل يكسو وجوههم. البعض منهم، كانوا يبدون كأنهم من أصحاب الملايين، منهمكين بإدارة ثروة كبيرة جدّاً ؛ أو رجال أعمال مسؤولين عن صفقات كبيرة ؛ أو دبلوماسيين يحملون أسرارا غامضة وخطيرة. (كنت أشعر كأني متطفل في عربة الدرجة الأولى، مع علبة ألواني والقبعة الشمسية الواسعة ـ نوعا من حمّال فحم دخل إلى عرض أزياء بالخطأ).

الدرجة الثانية، كانت تبدو لرينوار حتى أسوأ، (تحفظ) مسافروها يزدادون، بسبب عدم قدرتهم على الدفع في الدرجة الأولى. (أيضاً، ما

Twitter: @ketab_n

الفرق!). وحين يلاحظ، مصادفة، أحد المسافرين (الفنانين) عدة رسمه، يحوّل المحادثة إلى الرسم، وهذا، حقاً شيء لطيف ! كان أبي دمث جدّاً عادة و(عذب الحديث)، إلا أنه كان يصبح، أحياناً، فظا، إن رأى ان الأمر لا يعجبه. عندما كان يتضايق كثيرا، يمكن لسخريته أن تكون كاوية جداً. ذات مرة جلس في المقعد المقابل له رجل أثار غضبه الشديد بتعليقاته حول ميسونييه. كانت أمي حينئذ حاملاً بطفلها الأول أخي بيار، لذلك ركب رينوار في عربة الدرجة الأولى. كان النصير المتحمس لرسام المشاهد العسكرية يلقي خطبة مطولة جداً، وأشار إلى الأسعار الهائلة التي دفعها الأمريكان لهذا النوع من الرسم. رد رينوار، غاضباً، انه هو نفسه لا يعرف شيئاً عن الرسم العظيم، لأنه تخصص في الرسم الأباحي، فهو يقوم بعمله، في الأغلب، في المواخير، وبنجاح ساحق، لأنه يستطيع أن يصوّر عضو الذكر على نحو جيد. بالطبع، كانت أمي محرجة كثيراً، فهي لا تحبذ هذا النوع من الفكاهة.

كان رينوار يسافر، تقريبا دائماً، على مراحل. لم يكن يفهم العجلة المسعورة لمعاصريه. (كما يبدو لي، كلما وفرنا المزيد من الوقت، قلّ ما ننجزه من عمل. سمعت عن مؤلف، لأنه امتلك آلة طابعة، كان قادرا على إتمام كتاب في ثلاث سنوات. كان موليير أو شكسبير ينتهيان من مسرحية خلال أسبوع واحد، وبقلم ريشة فقط، وهي تحفة فنية).

بالنسبة لرينوار، كانت القطارات المحلية توفر له فائدة أن يكون وسط ناس حقيقيين أكثر. (زوجة المزارع، الذاهبة إلى أقرب سوق لبيع أجبانها، تكون على طبيعتها فعلا. لكنها متى ما استقلت القطار السريع، فإنها تفقد شخصيتها ؛ تصبح شخصا مجهولا، يدعى مسافر). كان قليلاً ما يتحدث عن الفطر الذي ينمو في المواقع التاريخية، والمعروف باسم "السيّاح" في أيامه، كانوا لا يزالون ظاهرة نادرة، وكانوا، لحسن الحظ، تقريباً على الدوام، من الانكليز ـ هذا يعني، انهم متحفظون بعض الشيء.

Twitter: @ketab_n

لم يكن رينوار يسافر وحيداً. أعرف أن لوت ذهب معه في واحدة من رحلاته إلى ايطاليا. توقفوا في ديجون لبضعة أيام، وطافوا في شوارعها القديمة. (أكثر ما أحبه في بورغونيا، هو سطوح بيوتها. فيها شيء من الطراز الصيني، تنحدر قليلاً عند أطرافها). كان معجبا جدّاً بشارل الجسور. (الزوايا في كنائسه متكلّفة قليلاً، لكنه تكلُّف سأكون مسروراً لو ملكته. كان يأسف على انقضاء التمازج الحضاري بين فرنسا والمانيا، الذي امتد إلى البلدان الفلمنكية. (أمر سيئ أنّه أخفق. لعب علينا السويسريون هناك حيلة غريبة)[٦٥].

بين الحين والآخر، كان يترجل من القطار لأكثر من سبب غير متوقع: رفاق سفر مزعجون، أو أمنية بالحصول على مشهد أقرب لكنيسة قرية، أغراه برجها. لم يكن يمتع عينيه بمعجزات الريف فحسب، بل تعلم الكثير أيضاً عن الطبخ المحلي. كان الناس الذين يسافرون في عربات الدرجة الثالثة عادة كرماء، فكانوا يدعون رينوار لمشاركتهم ما في سلالهم من مؤن. مع نظرة مشفقة إلى الشطيرة التي يخرجها من جيبه، كانت امرأة طيبة تقول له: (هل هذا كل غداءك؟ لا عجب أنك نحيف جداً). بعض منهم يحمل معه طعاماً يكفيه لرحلة حول العالم. وحيث تمر الأميال سراعا، كان أبي يتحول من "الفوجير" البورغوني ـ عجينة فطائرية محشوة بالجبن ـ إلى الدوب البروفنسالي ـ لحم مطهو مع النبيذ، من الخمر المعتق لمدة سنة من الكوت دور - إلى شراب "روسي" الجديد من إقليم الرون، وكلها تستنفد وسط أحاديث عن موسم الحصاد وما سيغله من ربح، والمشاكل العائلية، والضرائب، والحرب في تونكان، والعذاب الذي يسبِّبه ارتداء المشد ـ (حين لاتكون معتاداً على المشد). كان يحدث أحياناً، وبعد إزدراد اللقمة الأولى،

---

(٦٥) إشارة إلى انتصار السويسريين على البورغونيين في عام ١٤٧٦.

Twitter: @ketab_n

أن زوجة فلاح بدينة، كانت تعجز عن كبح نفسها وقتا أطول، فتسأل الآخرين العذر، وتفك أزرار بلوزتها، وتطلب من المرأة الجالسة إلى جوارها أن تحل لها مشدها من الخلف. وحالما تتحرر لفات شحمها من قيودها، حتى تسترخي وتشرع في أكل الأرنب الباتيه بتلذذ.

كانت اللهجات واللغات تتغير مع المناطق. التشدق في الكلام لأهل "الغون" من منطقة ليون، يحل محل الراء المشددة لأهل بورغونيا، وهذه تفسح بدورها المجال للهجة البروفنسالية لمزارعي الخضر على نهر دورانس. كان الجليد سرعان ما يتكسر، والباريسي الودود، ببدلته الغريبة، ما يلبث أن يحس انه في بيته. كانت القصص تتوارد بكثرة. حاول أبي تذكر بعضاً منها. إنه يذكر جندياً من سلاح الفرسان، دخل إلى العربة مثقلا بسيف وخوذة وعلبة كبيرة تحوي ثوب زفاف، هدية من زوجة النقيب إلى خطيبته. كان مربكا بالعلبة، لأنه، في تلك الأيام، كان يحظر على الفرسان في البزات الرسمية أن يحملوا رزما أمام الناس. كان النقيب أخذ منه وعدا بأن يرسلها عبر البريد، لكن الجندي، لأنه فلاح مقتصد، فضل أن يواجه خطر القبض عليه على إنفاق نقود على الطوابع. (إذا ما ظهر الضابط من الباب، يمكنك القول ان العلبة تعود لك)، قال للمرأة الشابة التي كانت ترضع طفلها. كان في طريقه إلى بليسي- با، قرية لا تبعد كثيراً عن ديجون، ولفظها "بيبا" بمقطع واحد. بورغوني آخر في المقطورة، سأل إن كانت بليسي- با (بليسي السفلى) هي جزء من بليسي- او (بليسي العليا)، فأكد له جندي الفرسان انها كذلك. وحين توضحت هذه المسألة الجغرافية، سألت المرأة أن يريهم فستان الزفاف. لكن صاحبنا رفض أن يفتح العلبة، (انها مرزومة على نحو جمييل)، قال بلهجته، (والذي فيها جمييل أكثر!)، وكي يواسي المرأة المخيبة، روى لهم قصة، وجد أبي صعوبة في فهمها بسبب اللهجة، لكن لا بد انها كانت مضحكة، لأن الجميع إهتز بالضحك. ضحك رينوار أيضاً، فقط

Twitter: @ketab_n

لأنه سُرّ أن يراهم يضحكون، ولأن المرح يعدي. كانت القصة عن حفلة زفاف، واحدة من الحفلات البورغونية، التي تدوم أياماً وليال. أنا نفسي، شهدت واحدة من حفلات اللهو الرائعة تلك: ثلاثة أيام وليال على المائدة. لا أحد من الضيوف يترك المائدة، إلا إذا توجب عليه ذلك، أو لا يتوقف عن الأكل والشرب حتى تخمد همته بسبب التخمة. ساعات قليلة من النوم الهانئ في مخزن التبن، ثم العودة إلى الحفل.

الحفل الذي وصفه الجندي حدث في زفاف أخته. أمه، التي كانت نحيلة، حاولت أن تستغل المناسبة، فقدمت ديكاً عجوزاً مع الدجاج المشوي، لكن لا أحد تناوله، وصاروا يمررونه من واحد لآخر، وهم يتحدثون عن العلاقات الغرامية للبطريرك. في النهاية، اضطرت المضيفة نفسها أن تأكل لحم الطير العجوز القاسي.

واحدة أخرى من ذكرياته عن السفر: ذهب مع لوت إلى بورغ - آن - بروس، لرؤية الكنيسة الشهيرة لقرية برو القريبة منها. كان رأي رينوار فيها: (إنحطاط مسبق، لكن بأي جمال! لا يمكن للمرء الا أن يقع في حب مرغريت النمساوية ! شعارها "حظ طيب ـ حظ عاثر"، كان يتكرر في أرجاء الكنيسة، مثل هاجس يبعدنا عن عصر تجارنا البقالين).

كان القطار متراصاً بالأمتعة، وكي يمكنهما الصعود اليه، عليهما أن يتخليا عن فكرة الركوب في عربات الدرجة الثالثة، وأن يجربا حظهما في مقصورات الدرجة الثانية التي كان فيها نصف دزينة من السادة، جميعهم يقرأون الجرائد. حالما وضع رينوار عدة الرسم على حامل الأمتعة بأفضل ما استطاع، تدبر الصديقان أمر حصر نفسيهما في مقعد بين إثنين من المسافرين، اللذين استمرا، على نحو متعمد، بالقراءة. تبادل القادمان الجدد النظرات، كما لو كان الواحد منهما يقول للآخر: (سوف لن يكون الأمر ممتعاً

Twitter: @ketab_n

حقاً!). كي يجعل الحياة تدب في المكان، قرر لوت أن يواصل مزحة بدأها في ذلك الصباح في مطعم المحطة، حيث أكل رينوار، شارد الذهن، آخر قطعة من خبز البريوش، من دون أن يترك شيئاً للوت الذي كان في هذه الاثناء يغازل النادلة. في تلك الأيام، كانت العادة الجارية أن يُنعَت الشخص الذي يشرب وحده، ويذهب للنزهة وحده بـ "السويسري": باختصار، الشخص الكاره للمشاركة في أي شيء، ولا يخفى إنها إشارة إلى الحياد السويسري. ولأنه حُرم من طعام فطوره، دعى لوت رينوار بـ (سويسري قذر). وبأمل تبديد الوجوم في المقصورة، قال لوت لرينوار ثانية، (مرحى ايها السويسري القذر)، باردو الدم الجالسون خلف صحفهم، رمقوا لوت المسكين كما لو انه حشرة. عندئذ، لاحظ أبي أن الصحف التي يقرأها السادة، كانت لاغازيت دو لوزان، وحيث ان لوت، بسبب ضعف بصره، لم ينتبه إلى هذه التفصيلة الصغيرة، نخزه رينوار بلطف في ساقه للتنبيه. لكنه، وقد ظن أن صديقه يحثه على المثابرة، هتف ثانية، (ايها السويسري القذر!)، وعندما أصبح نخز رينوار أكثر عنفا، لوى فمه إزدراء. أخيرا، قال واحد من السادة لرينوار، (لا داعي للقلق فنحن لسنا سويسريين). كانوا جميعهم ساعاتية من منطقة مجاورة لبيسانسون. (من المحتمل، انها صناعة الساعات هي التي تجعلنا نبدو من جنيف)، قال رجل آخر. بهذا، تواصل الحديث، وصار يخص بكامله الساعات المسطحة والسميكة، وحركات الحجر، وميزان الساعة وهلم جرّا. قبل إنقضاء اليوم، عرف رينوار كل شيء وجب معرفته عن كيفية صناعة الساعات اليدوية وساعات الحائط. (سادة لطفاء جداً)، إختتم قائلا. (برجوازيون حقيقيون من القرن الثامن عشر).

كان رينوار غالباً ما يقطع حكايته ويغرق في الصمت. يجتاح الظلام مرسمه، في بولفار روشوشو، فيساعده على الانسياق في الماضي، فآخذ أنا عونا من هذه الفسحة كي أرفعه من كرسيه، ممسكاً به بإحكام، بينما تقوم

Twitter: @ketab_n

غران لويز بملء وسادته المطاطية بالهواء، ثم، وبأكبر قدر ممكن من الحيطة، نضعه على كرسيه، ونجعله يستقر بأفضل وضع. (كم هو شيء قذر، هذا المطاط!... هلا أعطيتني سيجارة؟). يسحب من سيجارته أنفاسا قليلة ثم يطفئها. لم يكن مدخنا حقيقيا. لم يبتلع الدخان أبدا، ولم يكن يحب السجائر الغالية، (التي تحترق لحالها. تدعها تسقط، وتنساها، وأول شيء تنتبه اليه انها أحدثت ثقبا في السجادة البخارية). لو إفترضنا ان السجادة المتخيلة كانت مصنوعة من المخمل الصناعي، فسيكون أقل ضيقا من الحادث. مع هذا، فإن إحترامه للأشياء، حتى القبيحة منها، كان يماثل الإحترام الذي يكنه للكائنات الحية، (حتى الدميمة منها).

ذات مساء، كان ينعم النظر إلى علبة من البسكويت وضعت مفتوحة على الطاولة. كان على علامتها التجارية صورة المصنع الذي أنتجت فيه. (الطبقة البرجوازية مسؤولة عن بشاعة المدن الحديثة. وجشعهم للمال دمّر كل شيء. بفضلهم، لدينا الآن غابات من المداخن، وأميال من أحياء الفقراء. لكن، ربما، هو رجل بعينه، وليست فقط طبقة واحدة، من إجتاز فترة كدرة. على كل حال، الجمع الكبير من البرجوازيين هم من مُحْدَثي النعمة. لو لم يكونوا أكثر مكرا من الآخرين، كانوا سيبقون فقراء. انه المال فحسب، الذي يمكّن الناس من بناء أشياء رهيبة الحجم، مثل دار الأوبرا، أو من شراء جان بول لورنس)[٦٦].

روى لي حديثاً جرى على مأدبة مع كليمنسو، وجيفروي، وبعض "الأدبيين". كان الجميع يستخف بالطبقة البرجوازية. قال لهم أبي:(نحن لسنا ارستقراطيين، لأننا لا نملك ألقاباً موروثة. ونحن لا ننتمي إلى الطبقة

---

(٦٦) (١٨٣٨- ١٩٢١)، رسام مواضيع تاريخية، لوحاته ذات أسلوب أكاديمي.

Twitter: @ketab_n

العاملة، لأننا لا نعمل بأيدينا. إن لم نكن برجوازيين، ماذا نكون إذاً؟). (نحن مثقفون)، أجاب جيفروي. صُدم رينوار بإجابته. فهذا المصطلح الذي يؤكد، بوقاحة، تفوّق الـ " homo sapiens" على الـ "homo faber "[٦٧] لم تكن أذن رينوار تطيق سماعه. (أنا أفضل أكثر أن نكون برجوازيين)، أعلن قائلا، مثيرا ذعر الضيوف الآخرين. (لكن)، أضاف، (في آخر الأمر، أنا أعمل بيدي، وهذا يجعل مني عاملا ـ عامل رسم).

سيجارته، ذكرته، فجأة، بدعابة في واحدة من رحلاته: (كنت في اسبانيا، وكنت ما أزال منتشيا برؤية فيلاسكيز. ذهبت إلى محل لبيع التبغ لشراء بعض السجائر. وجدت هناك نبيلا من النبلاء الاسبان، جميل المظهر، إختار سيجارا. وحيث أني لم أكن أجيد الاسبانية، فهمت فقط كلمتين مما كان يقوله للبائع. هاتان الكلمتان كانتا (colorado) و (claro)، وأعادهما مرات عدة. كانتا كشفاً بالنسبة لي. (ملون) و(واضح)، لقد عثرت على سر فيلاسكيز!).

حاولت أن أعيد حديثنا إلى موضوع الفن بوجه عام. لم يتح لي، حينها، أن أزور ايطاليا بنفسي، الا في ما بعد، لكني، بلا شك، كنت أعرف عنها من خلال الرسوم المستنسخة. مع هذا، فإن أبي ظل لا يستجيب إلى إشاراتي. (انت لا تتحدث عن اللوحات، أنت تنظر اليها. سوف لا ينفعك لو قلت لك ان محظيات تيتيان يفرين بالتربيت عليهن. يوماً ما سترى لوحات تيتيان بنفسك، وإن لم يكن لها تأثير عليك فأنت لا تفهم المبادئ الأساسية للرسم. وانا لست قادرا على مساعدتك). مع هذا، من الواضح انه كان يناقض ما قاله لي سابقا: (نحن لا ننظر إلى اللوحة، نحن نعيش معها. لديك، على سبيل المثال،

---

(٦٧) تفوق «الإنسان المفكر» على «الانسان العامل»

Twitter: @ketab_n

صورة صغيرة في بيتك، بالكاد تعيرها اهتماماً، واذا فعلت، فأنت بالتأكيد لا تحللها. انها تصبح جزءا من حياتك، انها تفعل مفعول الطلسم. المتاحف هي السبيل الوحيد الباقي. كيف لك أن تتمتع بصورة، ودزينة من الناس حولك يتهامسون بملاحظات حمارية ؟ لو ذهبت هناك مبكرا، في الصباح، فلديك حظ أفضل).

نادراً ما كان مزاجه يدفعه إلى إبداء نقد ما، ولو فعل، فإنه لا يعبر عن نفسه بتعابير ملتبسة. (ليوناردو دافنتشي يضجرني. كان حريا به أن يواصل العمل على آلاته الطائرة فقط. حواريه ومسيحه، هم جميعا مفرطو العاطفة. أنا على يقين، بأن صيادي السمك اليهود الطيبين اولئك، كان يمكنهم أن يخاطروا بحياتهم في سبيل إيمانهم، دونما حاجة إلى أن يبدوا مثل بط يرتعد في عاصفة رعدية). في المقابل، عندما سأله فرانز جوردان، المعماري الذي صمم الساماريتان، إن كان يعجب برامبرانت أكثر من روبنز، أجاب رينوار، (أنا لا أمنح جوائز).

عديد من المؤلفات كتبت حول أسفار رينوار في ايطاليا، البعض منها موثق بشكل جيد. الإنطباع الذي أخذته من أحاديثي مع أبي، إن حماسه المبكر لفن عصر النهضة الايطالي تناقص قليلاً، بينما تصاعد إعجابه بالشعب الايطالي في زمنه، حين صار يعرفهم أفضل (النبل وسط الفقر، ناس يعملون في الحقول، بسلوك امبراطور). وعن طريق هؤلاء (الأباطرة) كان قادرا على فهم الفن الذي يعبر عنهم بشكل تام، ذلك هو الفن الفطري. (لوحة فريسكو[٦٨] في كنيسة قرية، بيد فنان مجهول، مبشرة بتشيمابو أو جوتو ؛ صف من الأعمدة من القرن الثاني عشر، سقف متواضع من دير، ربما آوى

---

(٦٨) لوحات جدارية، جبسية أو جصية.

Twitter: @ketab_n

بعض حواريي القديس فرانسيس. بالنسبة لي، ايطاليا، هي باقة "Fioretti" (الأزهار الصغيرة)، وليست المبالغات المسرحية ! ليست أكثر من أباطرة رومانيين بلهاء!).

كان يحب، بوجه خاص، أناس الجنوب الايطالي: (ربما، بسبب انني، وقت وصولي إلى نابولي، بدأت أفهم بضع كلمات). في تلك المدينة، تملك الإلهام الفني، (الذي سوّغ الرحلة كلها): لوحات الفريسكو البومبية، في متحف نابولي. (تعبت من أعمال ميكيل آنجلو وبرنيني: أشكال عديدة جداً، بثنيات عديدة جداً، وعضلات عديدة جدّاً ! أحب الرسم أكثر، حين يبدو خالدا، من دون مظاهر التفاخر فيه. أبدية يومية، ملهمة، من زاوية شارع: خادمة تستريح برهة، وهي تفرك قدرا صغيرة، فتغدو جونو في جبل الأولمب).

في الشخصيات التي على الفريسكو، والتي بقيت على نحو معجز، عثر رينوار على صيادي السمك وبائعات السمك في سورينتو. (لم يكن للايطاليين أي فضل على إنجاز الرسم العظيم، إذ لم يكن عليهم سوى النظر حولهم. الشوارع الايطالية مكتظة بالآلهة الوثنيين وشخصيات الإنجيل. كل امرأة ترضع طفلاً هي مادونا رافايل !). غالباً ما عاد إلى إنطباعه الأخير هذا، ممعناً النظر في إنحناءة الثدي الأسمر، واليد الريانة القابضة عليه. لوحات الفريسكو البومبية تثير مشاعره لأسباب أخرى كثيرة. (كانوا لا يبالون بالنظريات، ولا بالبحث عن الحجوم، ومع هذا، فالحجوم موجودة، وكانوا يتوصلون إلى تأثيرات غنية من القليل منها!) كان يندهش لبساطة ملون اولئك الرسامين القدماء: ألوان التربة، صباغ الخضروات، وهي تبدو باهتة حين تستخدم على إنفراد، لكنها تخلب اللب عندما تتباين في ما بينها، وتحسّ انها لم تكلف ذلك الجهد الكبير الذي ينجم عن التحف الفنية. تاجر ما، أو محظية ما، أرادا بيتاً مزيناً، والرسام حاول أن يضفي بهجة قليلة على الجدار، وهذا كل شيء. لا عبقرية، لا بحث روحياً!).

Twitter: @ketab_n

نحن نعرف انه حين تقدم في العمر واكتسب معرفة، صار رينوار يبسّط مجموعة الألوان التي يضعها على ملونه. وهذه النزعة، بدأت بعد رؤية نابولي والرسوم البومبية. (مشكلة ايطاليا)، قال لي، ذات يوم، (هي انها جميلة جداً. لماذا تكلف نفسك عناء الرسم، بينما يمكنك أن تنعم بمتعة عظيمة بمجرد النظر حولك؟). وبعد لحظة تأمل، واصل قائلاً: (إنه أمر سيئ جدّاً أن أكون عجوزاً ومريضاً. إذ لا يمكنني الآن أن أرسم في ايطاليا أو اليونان أو الجزائر، بعد ان عرفت ما يكفي كيف أقوم بذلك. كي تقاوم الجمال ولا تكون فريسة له، عليك أن تعرف حرفتك).

تابعت أفكاره وأنا أراقب وجهه الهزيل الذي مال بغرابة إلى الجانب، تاركا تغضنا في لحيته. يمكن للمرء أن يلمح ومضة من اللهو في عينيه، عندما كان يعلن عن رأي ما، ثم ما يلبث أن يناقضه بآخر، (من جهة أخرى، تفاحة على طاولة، هو كل ما تحتاج. إنظر إلى التحف الفنية التي أنجزها سيزان مع تفاحة، أو مع موديل، أنا لا أسمح لها حتى بتنظيف بيتي). وواصل اللعب على هذه الأفكار، (مع هذا، فالناس في ايطاليا، رسموا أفضل من أي مكان آخر. سبب ذلك، ربما، شيء ما في هوائهم)، ثم، كما لو كان يكنس الفكرة بعيدا بموجة من يده المعوّجة: (كلا. عشاق الفن، هم الذين يصنعون اللوحة. الرسم الفرنسي، هو من عمل مسيو شوكيه. والرسم الايطالي، هو من عمل بضعة بورجيين ومديتشيين وطفاة آخرين، وهبهم الله نعمة تذوّق الفن).

حين كان في نابولي، سكن رينوار في نزل صغير، يديره رجال دين. (عندما كنا نجلس إلى المائدة لتناول السباغيتي مع صلصة الطماطم، كنت أنا الوحيد بينهم الذي لا يرتدي السواد)، خاض مناقشات مهمة حول اللاهوت مع الرجل الجالس قربه، راهب نحيف بأنف ضخم. طبقا للتقليد الفرنسي لباسكال والجانستيين، دافع أبي عن مفهوم الرحمة المطلقة: (من أجل رسم "عرس قانا"، كانت الرحمة ضرورية، كما كانت كذلك في رسم

Twitter: @ketab_n

لوحات الفريسكو التي حفظت بفضل الله تحت الرماد البركاني)، أجاب الراهب، بأن الفنانين الذين رسموا لوحات الفريسكو في بومبي، لا يمكن أن يكونوا مباركين بالرحمة الإلهية، لأنهم كانوا وثنيين. لإثبات ان تلك النعمة الإلهية هي، حقا، من عمل الإنسان، حكى الايطالي الروحي لأبي قصة سان جينايو والجنرال شامبيونيه. لإيجازها في بضع كلمات: سان جينايو هو ليس فقط القديس الراعي والحامي لنابولي، بل كان أيضاً يظهِر مرتين في السنة، وبشكل واضح، إستحسانه أو استهجانه للأحداث المهمة التي تمر بها المدينة. بضع قطرات دم تراق على رأسه المقطوع، تحفظ في قارورتين في واحدة من الكاتدرائيات. لو أريق الدم، وكان سائلا، فهذا يعني ان القديس ينظر إلى الحدث بعين الرضا، أما لو بقى متخثرا، فإنه يستنكره.

حدث أن قام الجنرال شامبيونيه بفتح نابولي عام ١٧٩٩، بضعة أيام قبل حدوث المعجزة المألوفة. إشتبه الجنرال بأن رجال الدين إستعانوا بالقديس ضد الثوريين الفرنسيين الكفرة. في اليوم الموعود، تجمع حشد هائل أمام الكاتدرائية، ليتأكدوا من أن دم القديس الشهيد ما زال صلبا. بدا الغوغاء يصبحون عدائيين، وراحوا يطلقون عبارات التهديد بالموت، وبدت في الجو علائم الثورة. بعث شامبيونيه بكلمة إلى الأسقف، يحذره فيها، إن لم تظهر المعجزة، فإنه سيكون مضطرا إلى رميه بالرصاص. فسال دم القديس في الحال، وأخذت الجماهير النابوليتانية تهتف للغزاة الفرنسيين.

الراهب الذي روى هذا الحكاية كان من كالابريا. وصفه لهذا الجزء من بلده، شوّق أبي لزيارته، فبدأ رحلته، مع رسالة توصية من الأسقف التي تدبرها له صديقه الراهب. في تلك الأيام، كان هناك القليل من القطارات، وحتى من الطرق في كالابريا، فاضطر للقيام بجزء من رحلته في قارب صيد، متنقلا من ميناء لآخر، وما تبقى منها مشيا على الأقدام. رسالة الأسقف فتحت أمامه أبواب بيوت رعاة الكنائس، وغالبا ما يكون لدى كاهن الرعية

Twitter: @ketab_n

فراش واحد فقط للنوم، يعطيه له، ويذهب للنوم في الإصطبل مع الحمار. الفقر الذي كان يخيم على المنطقة لا يُعقل تقريبا. مع ذلك، كان الجميع يبادر إلى إستقباله. وجبات طعامهم كانت أكثر من بسيطة. في بعض القرى، كان السكان بالكامل يعيشون على البازلاء، ونادرا ما ذاقوا السباغيتي أو المكروني التي يظن أغلب الأجانب انها وافرة في الجنوب الايطالي.

بسبب الإفتقار إلى الجسور، واجه رينوار، مرات كثيرة، مشاقا في عبور تيارات الأنهر التي كانت تعلو بفعل الأمطار. في واحدة من المناسبات، بدا انه ما من حل. رأته إحدى الفلاحات، فنادت على دزينة أو ما يقارب من الرجال الذين يعملون في الحقل، لمساعدة الغريب، فهبوا جميعا لإنقاذه، وهم يضحكون ويرطنون بلهجتهم التي لم يفهم كلمة واحدة منها. إلتقطوا أبي وأمتعته، وهو يخوض في النهر، وشكلوا صفا عبْر النهر، يمررونه من واحد لآخر مثل كرة الركبي. حاول أن يظهر عرفانه لطيبتهم، لم يكن يملك نقوداً كافية، لكن هذا غير مهم؛ فهؤلاء القرويون يعيشون على المقايضة، ونادراً ما استخدموا النقود، وبالكاد رأى أحدهم قطعة نقد. أكثر ما كانوا يرغبون فيه، هو أن يرسم لهم صوراً لـ "البامبينو" (اطفالهم).

في كنيسة القرية رسم رينوار لوحات فريسكو، أتلفتها الرطوبة. (لا أعرف الكثير عن رسم اللوحات الجدارية الجصية. عثرت على بضعة أصباغ على شكل مسحوق في بيت بنّاء القرية. لا أدري إن كان ما رسمته سيدوم طويلاً).

سألته إن كان واجه أي من العصابات الشهيرة. (فاتني ذلك)، أجاب. رفض أن يصدق انهم متوحشون، كما كانت الشائعات التي تروج عنهم. (جميع الكالابريون الذين التقيتهم كانوا سمحين، ذوي نفوس مرحة، برغم فقرهم. انهم يجعلونك تتساءل، إن كان قضاء الوقت في جني المال أمر يستأهل).

Twitter: @ketab_n

قال أبي انه اكتشف قيمة اللون الأبيض في الجزائر. وجعلني أرى كم هو ممتع للعين هذا اللون، وهو أمر ادركته حين ذهبت إلى شمال أفريقيا. (كل شيء هناك أبيض: البرانس التي يرتدونها، جدران البيوت، المآذن، الطرق... وبالضد منه، خضرة أشجار البرتقال ورمادية أشجار التين). الطريقة التي كانت النسوة العربيات يمشين بها كانت تملؤه إعجابا، أسلوبهن في اللبس كذلك. (ذكيات، بما يكفي لمعرفة قيمة الغموض. عين نصف ظاهرة، عبّر خمار يدعو للإغراء حقا). إتضح لي شيئاً فشيئاً، أن مثال رينوار كان يميل نحو عالم من الارستقراطيين، وإنه لم يحظ الا بأقل الفرص بالعثور على هذا النوع من الارستقراطية في العالم الغربي. (انها بهجة حقيقية، رؤية امرأة عربية تمشي، حاملة إبريقا من الماء على رأسها! انها روث، خارجة من نبع).

أنجز القليل جداً من الرسوم في الجزائر، لأنه كان مشغولا بدراسة عالم، كان من يدعون أنفسهم متحضرين يفعلون ما بوسعهم لتدميره. (لو لم يكن هناك الا المصانع، والسكك الحديد، والمكاتب، فهذا سيكون محتملا، فهو لازم. وما زال، على كل حال، الرعاة في الجبال، الذين يشبهون الأمراء في "ألف ليلة وليلة". لكن الأسوأ، انهم صاروا يعلمونهم الفن العربي، وجاؤوا لهم بإختصاصيين في صناعة السجاد ومنظرين في السيراميك).

كان رينوار يحلم دائماً بعالم لا يتعرض فيه لا الحيوانات ولا النباتات للأذى بسبب حاجات الإنسان، ولا يهان الإنسان نفسه بواسطة أعمال تحط من قدره أو تقاليده. (ليس عارا أن تكون شحاذا، لكن شراء أسهم شركة سوز هو العار). في نظره، لا شيء أكثر تشويها من الملابس التي يرتديها الغربيون. الياقة الصلبة، التي يلبسها الرجال، كانت هدفاً لسخريته. لم يمكنه تخيل كيف لأحد أن يضع بملء إرادته رقبته داخل اسطوانة منشاة. كان يرى أن هذا رمز لغرور (الناس المحترمين). كان يربط بين الميزة في اللبس والمجتمع الحديث. كان يسائل نفسه، إن لم يكن نبل العرب ناشئاً من عدم اكتراثهم

Twitter: @ketab_n

بالغد. تفسير آخر، يكمن ربما في الإحساس بالمساواة بين المسلمين، مساواة من الصعب شرحها، لأنه ليس لها أي علاقة بالوضع الاجتماعي أو المالي. إنه مستمد أكثر من الرضى بإنتمائهم إلى دين متميز. في أكثر من مناسبة لاحظ أبي مسلماً ثرياً يتجاذب الحديث مع شخص رثّ الملابس. (هارون الرشيد يتحاور مع متسول: عارفاً،أنه عند الله، ليس هو أرفع منزلة). تثبت، في ما بعد من صحة انطباعاته، ووصلت إلى استنتاج ممائل، فاللّقب لا يدل بالضرورة على جوهر المرء. مساواتنا المزعومة تخفي تبايناً فاضحاً؛ والتباين الظاهري بين العرب، يحجب أحياناً شعوراً حقيقياً بالإخاء.

لا أعرف بالضبط أين كان رينوار في رحلاته، عندما بدأت ذكرى آلين شاريغو (تضايق) ذهنه ثانية. في كل يوم،كان يزداد يقينا بأن حياته من دونها ناقصة. كتب اليها، وعاد إلى باريس. كانت تنتظره في المحطة. ومنذ تلك اللحظة لم يفترقا حتى آخر حياتهما.

أمي، أضافت أشياء كثيرة إلى حياة أبي: راحة البال؛ أطفال يمكنه رسمهم، عذر مقبول كي لا يخرج في الأماسي. (أتاحت لي التأمل. وعرفت كيف تخلق جوا من نشاط دائر حولي، ملائم بالضبط لحاجاتي وهمومي). هذه الهموم كانت كثيرة بحق. كانت الإنطباعية بمجملها محل إرتياب. كانت محاولات من دوائر دقيقة بقلم رصاص رفيع، محددة للأشكال، (مثل مسيو انغريه)، تتناوب مع الاستخدامات الكثيفة للأصباغ، والرسم بالشفرة؛ ثم فجأة ـ ربما في اليوم نفسه ـ تغطي قماشة اللوحة صورة مائية ناعمة على طريقة الألوان المائية.

في البداية، استقر الزوجان في مرسم رو سان- جورج. عرضت مدام شاريغو أن تساعدهما في أمور المنزل، فوافقت إبنتها، لأنها خشيت أن لا يمكنها تدبر الأمر بنفسها. عملها في الخياطة لم يتح لها وقتا لتعلم الطبخ. جدتي كانت خبيرة في جميع (الأطباق المثيرة للإعجاب). في البدء، سار كل

Twitter: @ketab_n

شيء على نحو حسن. كان رينوار يولم على سوفليه، وصلصة لحم العجل، وحلوى قشدة الكراميل. كان يحب أكثر نوع الطعام "الفلاحي" مقدرا دماثة السيدة العجوز الطيبة. لكن للأسف، كانت مواهبها الطهوية ملازمة لنقائص معينة، إذ انها لم تكن تقاوم نفسها بإبداء ملاحظات غير ضرورية في كل مناسبة: (إذاً أنت لا ترغب بالمزيد من لحم العجل؟ ربما ترغب بالقليل من الكبدية؟...)، تكرار، بقصد التجريح، والتلميح بالصعوبات المالية لحميها. (ميت من الجوع، ويريد كبدا دسما!). في بعض الاوقات، عندما تخطر له فكرة ما، كان ينهض من المائدة ويدونها بقلم فحمي. (هكذا)، كانت مدام شاريغو تعلق، (بهذه الطريقة يتصرف السادة!)، وكانت إبنتها تكبح نفسها، لكنها تشير، على نحو مهدد، إلى باب المطبخ، عندئذٍ تأخذ السيدة العجوز صحنها، وتنهي طعامها وحيدة عند الموقد. كان رينوار يبقى غير واعٍ تماماً بهذا المشهد الصغير ؛ وكانت آلين شاريغو تسترضي أمها في ما بعد، إذ تشتري لها مارون غلاسيه، حلواها المفضلة. في الواقع، جدتي نفسها، هي التي روت لي عن الأمر بعد سنوات قائلة بثقة، (لو أني كنت حقاً مجردة من المبادئ الأخلاقية، لأمكنني الحصول على المارون غلاسيه كل يوم).

كان أبي متلهفاً لمشاركة زوجته حماسه لايطاليا، فبدأ رحلة إلى صقلية. عندما وصلوا إلى هناك، شاء سوء الحظ أن يفقد رينوار محفظة جيبه. وبينما كانوا بانتظار وصول نقود من دوران- رول، أقاما عند فلاحين قرب اغرجنتو. وصارت أمي تساعدهم في أعمال الحقل. حين استلما النقود أخيرا، حاولت أن تقنعهم بقبول نوع من التعويض، لكنهم رفضوا، واعتبروا الأمر إهانة. لم يكن لدى رينوار وزوجته موهبة في اللغات، وحيث لا يمكنهم التكلم مع الصقليين الودودين، كان عليهما التواصل بالإشارات وحدها. حينها خطر لأمي أن تعطي لزوجة الفلاح ميدالية كانت تعلقها في عنقها. في النهاية، ودع بعضهم البعض، وسط بحر من الدموع.

Twitter: @ketab_n

قبل وقت قصير من ولادة أخي بيير، نصحت أمي رينوار أن يستأجر شقة بعيدا عن مرسمه. (وقتذاك)، قالت، (سيكون بمقدور الطفل أن يبكي ما شاء له البكاء). عثرت على شقة بأربع غرف ومطبخ كبير في شارع اودون، وعلى استوديو قرب شارع دو ليليزيه ديه بوز آرت، وعلى بعض الغرف لأمها في الهضبة، في مونمارتر. (مسافة قريبة تبعد مشيا عنهم). انها الإبنة الكبرى لمدام كاميل، صاحبة الكريميري في رو سان- جورج، وهي التي كانت صاحبة الفكرة في (العثور) على هذا السكن. كي تواسي هذه الإبنة نفسها عن فقدان رينوار، وقع اختيارها على تاجر أحذية في شارع لوبيك، وتربعت في محل جميل. أختها تزوجت من ساعاتي، الذي أتذكره، أنا نفسي، جيدا، وما زال بإمكاني تخيل مسيو ماوون في محله قريبا من الإليزيه، ينحني على منضدة عمله، وعدسته المكبرة مثبتة على عينه مثل ملحق غريب. كان لدينا، لسنوات، ساعات موقع عليها اسم مارون.

لم ترغب أمي أن تدع مدام شاريغو (تدلع الطفل وتفسده حتى الموت). كانت تخشى، بوجه خاص، أن تعمد إلى هز المهد في اللحظة التي يبدأ فيها بالبكاء. كانت تعتقد انه من الخطأ أن نستسلم للأطفال، فهذا ليس من صالحهم. (إنه أمر سهل كثيراً أن ندعهم يفعلون ما يريدون، لكن هذا سيجعل من حياتهم صعبة في ما بعد). إعتقد رينوار انه من السيئ جدّاً أن لا يمكن وضعهم في حقل للترويض، مثل الخيول الصغيرة، وأن يتركوا ليكبروا بأنفسهم. مع ذلك أدرك عاجلا ان إقتراحه هذا يوتوبي قليلاً، لأنه (مع جنوحنا إلى الإصابة بالروماتزم، والإلتهاب الشعبي، وفقر الدم والإمساك، فإننا سنموت لو تركنا على حالنا في الطبيعة. يجب أن تكون لنا أغطية تقينا البرد، وأن نطعم في أوقات منتظمة). تذكر كيف أصيب بذات الرئة، وشارف على الموت عام ١٨٨٢ ؛ وكيف أُنقذ على يد الدكتور غاشيه، جامع التحف من اوفي- سور- واس، وبالرعاية الحنونة التي شملته بها زوجته في المستقبل ومدام كاميل وإبنتاها.

Twitter: @ketab_n

أود الآن أن أنقل بضع ملاحظات وجدتها وسط أوراق أبي. إنها تعبر بقوة عن إيمانه الذي لا يتزعزع بضرورة (الرصد المحب للطبيعة). وهي أيضاً تعبر، ربما، عن ولائه الأخير للإنطباعية. هذه الملاحظات، كانت مرصودة لإعداد (القواعد المخصصة للمعماريين الشباب). نحن نعرف انه في رأي رينوار، ان بشاعة المباني في نهاية القرن التاسع عشر، وعامية التصاميم في الأشياء الشائعة الإستخدام، كانت خطرا أعظم بكثير من الحروب. (نحن نعتاد سريعا على هذه الأشياء، إلى الحد الذي لا ندرك فيه كم هي قبيحة. واذا جاء اليوم الذي نصبح فيه معتادين بالكامل عليها، فهذا سيكون نهاية حضارة وهبتنا البارتينون وكاتدرائية رون. سينتحر البشر من الضجر، أو يقتلون بعضهم البعض الآخر، من أجل المتعة فقط!).

Twitter: @ketab_n

مفكرة أوغست رينوار

ـ كل شيء أدعوه قواعد عن الأفكار الأساسية للفن، يمكن إيجازه بكلمة واحدة: الشذوذية.

ـ الأرض ليست كروية. البرتقالة ليست كروية. ولا أي جزء منها له نفس شكل وحجم الجزء الآخر. إذا ما قسمتها إلى أرباع، فإنك لن تجد في الربع الواحد عدد البذور نفسها التي في الارباع الثلاثة الأخرى ؛ ولا أي من البذور تشبه الأخرى بالضبط.

ـ خذ ورقة من شجرة ما... خذ مئة ألف ورقة أخرى من نوع الشجرة نفسها، فلا واحدة منها تشبه الأخرى.

ـ خذ عملا. اذا ما ضبّطته بالفرجار، فإنه سيفقد مبدأه الأساسي.

ـ فسّر الشذوذ في التناسق. قيمة التناسق هي في العين فقط... لا قيمة التناسق في الفرجار.

ـ من المتفق عليه أن يجد المرء الجمال (الجلي) في الفن الاغريقي. ما تبقى، ليس له قيمة. أي هذر ! كما لو أنك تقول إن الشقراء أكثر جمالا من السمراء، وبالعكس.

ـ لا ترمم، فقط أعد عمل الأجزاء التالفة.

Twitter: @ketab_n

- لا تتوهم ان بإمكانك أن تستعيد عهدا آخر.

- الفنان الذي يستخدم أقل، مما يدعي بالمخيلة، سيكون الأعظم.

- كي تكون فنانا عظيما عليك أن تتعلم قوانين الطبيعة.

- المكافأة الوحيدة التي تقدمها لفنان هي أن تشتري عمله.

- الفنان ينبغي أن يأكل قليلاً، ويتخلى عن طريقة الحياة التي يعيشها الآخرون.

- دولاكروا، لم ينل أبداً أي جائزة.

- كيف نتفق انه في ما يدعى بالعصور البربرية كان الفن مفهوما، بينما في عصرنا المتقدم، العكس هو الصحيح بالضبط.

- حين يغدو الفن شيئاً لا نفع منه، فتلك بداية النهاية... الناس لا يفقدون نصف، أو حتى جزءاً، من قيمتهم. كل شي يصل إلى النهاية في الوقت نفسه.

- اذا كان الفن شيئاً زائداً، لماذا نقلده ونتظاهر به... أنا لا أبغي سوى الراحة. إذاً أصنع لنفسي أثاثاً من خشب خشن، بيت من دون زينة... كل ما هو ضروري تماماً... اذا ما تمكنت من الوصول إلى هذه النتيجة، سأصبح رَجلاً ذوّاقاً. لكن هذا الحلم بالبساطة هو تقريباً مستحيل التحقيق.

- سبب هذا الإنحطاط، هو أن العين فقدت عادة الرؤية.

- الفنانون موجودون، لكن المرء لا يعرف أين يجدهم. لا يمكن للفنان فعل شيء اذا كان الشخص الذي يسأله أن ينتج عملاً هو أعمى. الساعي إلى اللذة هو من أتمنى أن أجده.

- لا يصبح المرء ساعياً إلى اللذة فقط لأنه يتمنى ذلك.

- هناك البعض من الناس لن يصبحوا ساعين إلى اللذة أبداً مهما حاولوا جهدهم.

Twitter: @ketab_n

ـ اعطى أحدهم لوحة بريشة واحد من الأساتذة العظام إلى واحد من أصدقائي، الذي أحس بالزهو لحيازته شيئاً ذا قيمة لا تدحض في صالة إستقبال بيته. كان يريها لكل شخص. ذات يوم، دخل علي مندفعا، وقد غلبه الفرح. أخبرني بسذاجة انه لم يكن يفهم أبدا، حتى ذلك الصباح، لماذا اللوحة جميلة. فهو إلى تلك اللحظة كان يتبع الحشد بأن يكون فخورا فقط بالتوقيع. صديقي، أصبح لتوه ساعيا للذة.

ـ من المحال أن تعيد ما تم إنجازه في عهد آخر. وجهة النظر ليست نفسها، كما الأدوات والأفكار والحاجات وتقنية الرسامين.

ـ سيد، أثرى حديثاً، أراد أن يبني قصرا. يستعلم عن الأسلوب الأكثر شيوعا. فيقر عزمه على طراز لويس الثالث عشر ! بالطبع، يجد معماريا يبني له تقليدا للويس الثالث عشر. من الملام؟

ـ كي تملك قصرا جميلا، عليك أن تكون جديرا به.

ـ عاشق الفن، هو الشخص الذي يجب أن نتعلم منه... انه الشخص الذي ينبغي أن تمنح له الجوائز ـ لا الفنان، الذي لا يأبه لها.

ـ رسامو البورسلين، ينسخون فقط أعمال الآخرين. لا أحد منهم فكر أن ينظر إلى عصفور الكناري، الذي يحتفظ به في قفص، ليرى كيف هو شكل قدمه.

ـ وجب أن تكون هناك فنادق رخيصة في المناطق المترفة من أجل فناني الزخرفة. أقول فنادق، لكن، إذا شئت، مدارس من دون معلّمين. أنا لا أرغب في أن يكون تلاميذي مهذّبين أكثر ممّا أرغب أن تكون حديقتي مرتبة.

ـ على الشباب أن يتعلموا رؤية الأشياء بأنفسهم، ولا يطلبوا النصح.

ـ أنظر إلى الأسلوب الذي يرسم به اليابانيون الطيور والسمك. طريقتهم

Twitter: @ketab_n

بسيطة تماماً. يجلسون في الريف ويراقبون طيران الطيور. بالمراقبة الدقيقة، يتوصلون في النهاية إلى فهم الحركة ؛ والشيء نفسه يفعلونه مع السمك.

- لا تخشَ النظر إلى أعمال الأساتذة العظام في أفضل العصور. لقد أبدعوا الشذوذية داخل القياسية. كاتدرائية سان ماركو في فينيسيا: متناسقة، ككل، لكن ما من تفصيل فيها يشبه الآخر.

- فنان، في وضع مغمور، يجب أن يتحلى بثقة النفس، ويصغي فقط للأستاذ الحقيقي الوحيد: الطبيعة.

- كلما إعتمدت على أدوات جيدة، كان نحتك مضجراً.

- ما زال لدى اليابانيين حس ببساطة الحياة التي تمنحهم وقتا للطواف والتأمل، ما زالوا ينظرون، مدهوشين، إلى ورقة عشب، أو طيران سنونو، أو الحركات الرائعة لسمكة، فيذهبون إلى بيوتهم، وأذهانهم ملأى بالأفكار الجميلة، التي لا يجدون صعوبة في وضعها على المادة التي يزينونها.

- كي تأخذ فكرة واضحة عن ماهية الإنحطاط، ما عليك سوى الذهاب إلى حانة وارتشاف بضعة أقداح من البيرة، وراقب الناس العابرين. ليس هناك شيء أكثر هزلاً! والحكام الذين بلحى جانبية ! كيف يمكن لشخص ينظر إلى سيد "موشوم" بهذه الطريقة، ولا يموت من الضحك؟

- الكاثوليكيون الذين هم مثل الآخرين جميعا، أعجبوا بسقط المتاع المبهرج والتماثيل الجصية التي تباع في شارع بونابارت، سيقولون لك، ليس هناك خلاص خارج الدين الكاثوليكي. لا تصدق حرفا من ذلك. الدين، في كل مكان. هو في العقل، في القلب، في الحب الذي تظهره بما تقوم به.

- لا تحاول أن تجمع ثروة، مهما كنت تعمل. فحالما تجمع ثروتك، ستموت من الضجر.

Twitter: @ketab_n

- أؤمن بأني أقرب إلى الله، بتصاغري أمام هذا الإشراق (من الطبيعة)، وقبولي الدور الذي منح لي لألعبه في الحياة، وتبجيلي هذه العظمة من دون مصلحة شخصية، والأهم من ذلك، من دون أن أطلب شيئاً، مقتنعا بأن الذي خلق كل شيء لم ينس شيئاً.

- أنا أؤمن، إذاً، من دون الرغبة بالفهم. أنا لا أريد أن أمنح أي اسم، وبخاصة، اسم الله، لتماثيل أو رسوم، لأنه فوق كل شيء معروف. كل ما يصب في هذا المعنى في رأيي المتواضع، هو إحتيال.

- المريض والعاجز، يجب أن يطعما، من دون أن يتوسلا ذلك في بلد مثل فرنسا.

- إذهب وعاين ما أنتجه الآخرون، لكن لا تنسخ أبداً أي شيء عدا الطبيعة. ستحاول أن تتلبس مزاجا، هو ليس لك، ولا شيء ستقوم بعمله له سمات شخصية.

- العدو الأكبر للعامل والحر في الفنان، هو بلا شك الآلة.

- المعماري الحديث، هو، بشكل عام، العدو الأكبر للفن.

- نحن فخورون بشهرة أساتذتنا الأقدمين، والأعمال المنتجة التي لا تحصى من فن هذا البلد الرائع. لكن لا ينبغي أن نتصرف مثل اولئك النبلاء الذين يدينون بألقابهم إلى أسلافهم، وينفقون آخر قطعة سو ليسمعوا نادلي المقاهي ينادونهم ((سيدي البارون))، والذي يكلفهم ذلك في كل مرة عشرين فرنكا.

- بما انكم تحبون الجمهورية إلى هذا الحد، لماذا لا يوجد نصب للجمهورية بجمال تماثيل أثينا الإغريقية ؟ هل حبكم للجمهورية أقل من حب الإغريق لآلهتهم ؟

Twitter: @ketab_n

ـ ثمة ناس يتخيلون ان بوسعهم إعادة أعمال العصور الوسطى وعصر النهضة، ويفلتون من العاقبة. يمكن فقط للمرء أن ينسخ: هذه هي كلمة السر. وبعد أن تستمر مثل هذه الحماقة طويلاً، إرجع إلى الينابيع، وسترى كم نحن بعيدون عنهم.

ـ الله، ملك الفنانين، لم يكن بارعا.

ـ أنا لا أتمنى أن أرى صف الأعمدة يشابه أحدها الآخر فحسب، بل لا أتمنى أن أراها تشابه نفسها ؛ أو أن تكون متسقة، أكثر مما هي الرؤوس، الأقدام، والأيدي التي خلقها الله. أنا لا أتمنى عمودا مدورا بشكل تام، أكثر ما هي الشجرة.

ـ أنا أقول للشباب، إذاً، إرموا بوصلاتكم بعيدا، والا ليس ثمة فناً.

ـ فكر بأساتذة الماضي العظام. كان يدركون انه توجد قياسيتين إثنتين: قياسية العين، وقياسية البوصلة. نبذ الأساتذة الأخيرة.

ـ أقترح إنشاء مجتمع سيكون اسمه "مجتمع الشذوذيين"، على أعضائه معرفة أن الدائرة لا يجب أن تكون مدورة أبداً.

المبادئ المعلن عنها في هذه الملاحظات، تعبر عن حقائق خالدة، وقد صيغت في تعابير منطقية بسيطة، بوسع أي شخص فهمها. لكن المشكلة، هي في معرفة كيفية تطبيقها. تعلمت من والدي، في ما بعد، انه في الفن، كما في السياسة، غالبا ما يتفق على النظريات الخصوم الأشد ضراوة. فقط، حين يجب وضع المبادئ حيز التطبيق، تنشأ المعركة.

رينوار هنا، يمجد التعلم من الفنانين العظام الأقدمين، لكنه لا ينصح بإستنساخهم. الطبيعة، وحدها، يجب أن تستنسخ. وهذه هي الإنطباعية. لكنه حالا سيعود إلى الموقف الأكثر تواضعاً، الذي اتخذه في شبابه، وهو، من

Twitter: @ketab_n

أجل أن يتشرب بما علموه الأساتذة القدامى، عليه أن ينسخهم. إدراك حسي مباشر مقابل التقاليد، وهذه مسألة منهج لا مسألة مبدأ، والتي انضافت إليها مسألة العمل في الطبيعة مقابل العمل في الإستوديو. هذا قادنا في النهاية إلى مسألة كبيرة، وخطيرة جداً، وهي وجود شخصية الفنان في العمل الفني. عذرا، فأنا أعرف أني اعيد نفسي، لكن هذه كانت المعضلات التي عذبت أبي، وستعذب الكثير من المبدعين. مع ذلك، كان هذا العذاب يتوقف عند رينوار في اللحظة التي يقف فيها أمام حامل لوحته. كان مونيه يقارنه بالمبارز الجبان الذي ينسى خوفه حالما يواجه الخصم، وبيده سيف.

في ما يخص نسخ أعمال الأساتذة الآخرون، أمامي منظر طبيعي صغير لكورو ـ نسخ بريشة رينوار. انه قطعة تبهج العين، وأعتقد أنها تفتح آفاقاً جديدة على مسألة تقليد الفنانين الكبار. الواقع أن ما يمكن رؤيته من خلال أشجار رمادية وسماء شاحبة، هو بحق "بورتريه" لكورو بريشة معجبه المتواضع. في هذا التمرين، أثبت أبي، من من دون إدعاء، الحقيقة العظيمة التي كان أكثر تواضعاً من الاعتراف بها في ملاحظاته، أعني، أن العمل الفني هو تعبير صريح عن شخصية الفنان الذي أبدعه. في نهاية حياة رينوار، قمنا، أنا وأخي، بعمل بعض الفخار تحت إشرافه. حكى لنا كيف أن أصحاب المهن للفن الحديث مخطئون في محاولتهم نسخ الطبيعة قبل فهمها. أعطى لنا كمثال، المظهر الأخرق لمدخل محطة مترو باريس، المستوحى بشكل مباشر من كرمة متعرّشة أو أزهار ومثال الخزف المصقول، المقلد للخزف الصيني. ذكَرنا أن سيزان كان يرسم باقات أزهاره بناءً على أزهار إصطناعية، ولا بد من الاعتراف بأن العبقرية موجودة. (هناك أفراد أو مجموعات، لديهم تلك الشرارة النيرة، وهم ينقلون وهجها الينا، ولا تهم الوسيلة). ظل مستغرقا في التفكير للحظات، وهو يطالع طبق اوربينو الكبير المعلق على الجدار، وقال أخيرا: (المشكلة هي، إذا عرف الفنان انه عبقري، فقد إنتهى أمره. الخلاص

Twitter: @ketab_n

الوحيد هو أن يعمل بكد، وأن لا يملك أوهاما بالعظمة).

بوسعي مواصلة الإستشهاد بأقوال رينوار بلا نهاية، تلك التي يؤكد فيها الخضوع إلى الإنطباعات المباشرة أو إحترام القواعد الكلاسيكية والعمل داخل الإستوديو. توكيد، يظهره، في لحظة، كإنطباعي سادر، عقد العزم على إتباع الخط نفسه، مثل صديقه كلود مونيه، وفي لحظة أخرى، كلاسيكي متصلب، مريد عنيد لمسيو إنغريه. مشروع تأسيس "مجتمع الشذوذيين" الذي أشار اليه مرات عدة، يعبر بصدق عن المبادئ العامة لعقيدة رينوار. عمليا هو يمثل الإتجاه الأول: إتجاه الإنطباعية. الإتجاه الثاني ـ إتجاه الكلاسيكية ـ مصرّح عنه في المقدمة التي كتبها أبي، ولو بقناعة أقل، في السنوات الأخيرة من حياته، لترجمة موتي لكتاب تشينينو تشينيني[٦٩]. بعد أن عاد رينوار من ايطاليا، وبعد أن تزوج واستقر في الحياة العائلية، بدا الإتجاه الثاني هو السائد على اقواله وعمله. امر واحد مؤكد: أثناء أكثر الفترات تنوعا في مسيرته الفنية، مارس العالم الخارجي، مقترنا بالوسائل التقنية التي كان فضوله المستمر يجذبه اليها، دورا هائلا في تطوره الإبداعي.

---

(٦٩) أول من كتب، حوالى العام ١٣٩٠، حول الأبحاث التقنية عن فن الرسم في كتابه Il Libero dell`arte (حرية الفن)، الذي يعَد مصدراً لأغلب موسوعات الفن.

Twitter: @ketab_n

كان رينوار يرى انه يجب أن يكون العمل مقسما بين المختصين في كل حقل، لكنه لم يقبل بأي حكم مثل هذا على نفسه. إن شعرنا بألم في قدمنا، فإننا نذهب إلى طبيب العظام، وإن احسسنا بوجع الأسنان، نذهب إلى طبيب الأسنان، ولو اصبنا بالكآبة، فإننا نفرّغ همومنا عند محلل نفسي. في المصانع، عامل يشد المسامير الملولبة، بينما الآخر يثبتها في المكربن. في الخارج، في الريف، مزارع يزرع التفاح، ولا شيء غير التفاح، والآخر يزرع القمح. النتيجة رائعة ؛ ملايين المكربنات، أطنان من القمح، تفاح بحجم البطيخ. القيمة الغذائية التي تتلف في الفواكه والخضروات، يعوض عنها بالفيتامينات الملائمة. وكل شيء يسير على أحسن ما يرام. الناس، يأكلون أكثر، ويذهبون إلى دور السينما أكثر، وفي الغالب يسكرون أكثر. متوسط عمر الإنسان يزداد، والنساء يلدن من دون ألم. مجموع عمل رينوار، الغني بالفيتامينات الطبيعية، هو صرخة إحتجاج ضد هذا النظام، كما كانت حياته أيضاً.

عالم رينوار هو كينونة واحدة. لون نبات الخشخاش الأحمر يقرر وقفة الفتاة التي تحمل مظلة. لون السماء الأزرق ينسجم مع وبر الغنم الذي يرتديه الراعي. لوحاته براهين على وحدة شاملة، وخلفياته مهمة، كما المناظر الأمامية. انها ليست مجرد أزهار، ليست وجوها، جبالا، وضعت الواحدة جنب الأخرى ؛ انها مجموعة من العناصر تشكل موضوعاً مركزياً واحداً،

Twitter: @ketab_n

وهي متحدة بأواصر حب أكثر بكثير من إختلافها. حين نستحضر رينوار فإننا نعود دائماً إلى هناك. في عالمه، الذهن متحرر من المادة، لا بتجاهلها، بل بالتوغل فيها. أزهار شجرة الزيزفون، والنحل يرتشف الرحيق منها، يتبعان الإيقاع نفسه الذي يتبع الدم، دائراً تحت جلد فتاة صغيرة تجلس على العشب. هذا هو، أيضاً، التيار الذي يحمل "الفلينة" الرمزية. العالم هو واحد. الزيزفون، النحل، الفتاة الصغيرة، الضوء، ورينوار، هم جميعا جزء من الشيء نفسه، ويحظى بالأهمية نفسها. والأمر عينه يصدق على البحار، المدن، النسر المحلق فوق هامات الجبال، المعدّن في المناجم، وآلين شاريغو ترضع بيير الصغير من صدرها. في هذا الحلف الوطيد، كل إيماءة من إيماءاتنا، كل فكر من أفكارنا، له صداه. شجرة تتحول إلى ورق، ومن ثم إلى كلمات، يمكن أن تقود البشر إلى حرب، أو تفتح أعينهم على ما هو جميل وعظيم.

أعود الآن للحديث عن نظرياته. تشكل هذه النظريات، مع تجاربه التقنية، منصة الإنطلاق. كان يحاول إيجاد خاصية معينة للون الأحمر بتجريب التباينات اللونية. بنبذه، مؤقتا، الأسود العاجي، كان يبين ظلاله مع الأزرق الكوبالتي. وهذه الظلال الزرق تقرر بنية اللوحة بمجملها، وحتى الموضوع. كان يختار هذه البقعة أو تلك من الريف، لأن الظل هناك أزرق، والفكرة التي نستلهمها من اللوحة، في النهاية، لا تبرز من الدافع الأصلي للعمل، بل من الأزرق الكوبالتي.

كي نفهم على نحو أفضل عملية رينوار الإبداعية، لا بد من أن أستشهد بواحدة من ملاحظاته الموجزة، (أنا لست الرب. هو خلق العالم، وأنا أريد أن أنسخه). ومن أجل أن يبين لنا انه لا يقصد بكلمة النسخ معناها الحرفي، يروي لنا الحكاية الكلاسيكية عن الرسام الإغريقي القديم ابيليس. في مباراة، حدثت على الإكروبولس، قدّم فنان منافس للأستاذ الأثيني لوحة،

Twitter: @ketab_n

كانت تبدو انها فاقت كل الأعمال المعروضة. موضوع اللوحة كان كرمة عنب، صوّرت بواقعية مذهلة، بحيث جاءت الطيور وحطت على اللوحة. عندئذ تقدم ابيليس، وعلى وجهه إبتسامة ذات مغزى، كما لو كان يقول، (الآن، سترى شيئاً خطيرا !) وعرض تحفته، وقال، (انها مخفية خلف الستارة) فحاول الحكام أن يرفعوا الستارة، لكنهم لم يقدروا ـ لأنها كانت هي اللوحة.

للأسف، لا يمكنني تقليد ضحكة رينوار، عندما إنتهى من حكايته. الحكاية التي تلت، والتي تخص ابيليس أيضاً، عن صانع أحذية، لاحظ بأن هناك شيئاً غير مضبوط في صندل واحدة من الشخصيات المرسومة. عندها، ظهر ابيليس من خلف لوحته، شكر صانع الأحذية وأصلح الخطأ. في اليوم التالي، وجد صاحبنا نفسه ان الساق نحيفة جداً. (أيها الإسكافي حدك عند الحذاء). أضاف رينوار، بشكل عابر، ان الإغريق، ربما، لم يعرفوا أي رسم آخر عدا الفن الجداري وفن التماثيل المزخرفة، وتلك القصص كانت مجرد إختراعات أدبية محضة. علاوة على ذلك إذا ما جاء اليوم الذي ينجح فيه الرسام بإعطاء وهم غابة، بكل ما فيها من رائحة طحالب رطبة، وخرير جدول، فإن الرسم سينتهي كليا والى الأبد. لأن عاشق الفن، بدلاً من أن يشتري لوحة، سيذهب إلى الغابات يتمشى فيها.

تأكيدي على أهمية الظروف الخارجية في رسم رينوار، تسري على كل الفنانين العظام، بما فيهم بيكاسو، براك، وكْلي. يبدو هذا مناقضاً لما كان يقوله عن تولوز- لوتريك. لكني أؤيد ان الحادث الذي تعرض له الاخير في طفولته، لم يلعب إلا دوراً ثانوياً في حياته، أو ربما لم يكن له أي دور أبدا، بشأن مسألة التعبير في رسمه. كان أولاً، وقبل كل شيء، مثاراً بالشخصيات المذهلة لموديلاته، فضلا عن شخصيته هو، بدرجة مدهشة. وحتى لو لم يكن تعرض للحادث، كان سيبحث دائماً، وسيعثر، على نوع من الموديل الضروري لفنه، في مقاهي تولوز أو حتى في المولان روج في باريس، التي، كما يبدو، قاده مصيره

Twitter: @ketab_n

اليها، أكثر مما كانت مكانا للهرب ونسيان عوقه البدني. ما أعنيه، انه لوكان حُرم من تلك الوجوه الحزينة لمخلوقاته التي رسمها، كان سيواجه وقتا أصعب بالعثور على نفسه.

الشيء الأكثر أهمية من النظريات، عند أبي، كان في رأيي التحول من أعزب إلى رجل متزوج مفعم بالقلق على نحو دائم، عاجزٍ عن البقاء طويلاً في مكان واحد، قافز من قطارٍ إلى آخر مع نية غامضة بالتمتع بالضوء المضبب لغورنيسي، أو ليعمّد نفسه في الظلال الوردية لمدينة بليدا، كان رينوار قد فقد، منذ مغادرته شارع ديه غرافييه، معنى كلمة بيت. وها هو الآن، يستقر في بيت مع زوجة، يتناول وجباته في ساعات منتظمة، وفراشه يُرتب بعناية كل يوم، وجواربه مرتقة. إلى كل هذه المزايا، أضيفت لاحقاً واحدة أخرى، بمجيء طفله الأول. ولادة أخي بيير أحدثت تغيرا جذريا في حياة رينوار. نظريات "النوفيل آتين"، أضحت مبتذلة أمام غمازة في مفصل فخذ طفل وليد. عندما كان يخطط بلهفة رسوم ابنه، وكي يبقى وفيا لنفسه، منتقلا من هم ظاهري في ترجمة نعومة لحم الطفل، إلى ألم كامل، كان رينوار يعيد بناء عالمه الداخلي.

Twitter: @ketab_n

١٩

سحب رينوار انفاساً عدة من سيجارته، وكان يحاول أن يجد وضعا في الجلوس أقل إزعاجا، لأن وجعه عاوده. ثم، وقد شعر قليلاً بالراحة، تاه في أفكاره، فلم أجرؤ على مقاطعته. فجأة، وبلا تمهيد، إلتفت إليّ قائلاً: (دوران- رول، كان مبشرا، ومن حسن حظنا، كان دينه هو الرسم). وإذ خشي أن يكون قوله سطحيا في تعميمه إستدرك: (كانت تنتابه أحياناً لحظات من الشك. في كل مرة حاولت فيها أن أجرّب شيئاً جديدا، كان يشعر بالأسف لأني لم أحافظ على أسلوبي القديم، الذي كان أكثر أمانا، وغدا مقبولا لدى هواة الفن. لكن ضع نفسك مكانه. في عام ١٨٨٥، كان على وشك الهلاك، وكنا سنهلك معه).

وفقاً لرينوار، كان خطأ دورا- رول الوحيد رغبته بالإحتكار. (كان يريد أن يسيطر على فن الرسم الجديد كلّه. الناس الوديعون يمكن أن يكونوا كذلك). ولاحظ أكثر، انه بالرغم من أن بول دوران- رول كان (رجلا برجوازياً رصيناً، وزوجاً طيباً، وملكياً متحمساً، وكاثوليكياً متديناً، كان أيضاً مقامراً عظيماً. كان يقامر من أجل قضية جيدة فقط. اسمه سوف يدوم. من المحزن عدم وجود سياسيين مثله. كان مقدرا له أن يكون رئيس جمهورية مثالياً. ولم لا ملك فرنسا؟ بالرغم من ان بلاطه، بالنظر إلى حياته الصارمة، سيكون مضجرا)، قارنه بكليمنسو، (وهو شخصية قوية جداً، لكنه سياسي

Twitter: @ketab_n

دائماً، ومؤمن كبير بالكلمات). صديق له، روى لأبي قصة رولان غارو، الربان الرائع، الذي إخترع طريقة لإطلاق الرصاص من رشاشة مثبتة فوق مروحة طائرة حربية. في الحرب العالمية الأولى أسقطت طائرته من قبل الألمان، وأُخذ أسيرا، لكنه أفلح، في ما بعد بالهرب. كضابط، كان معروفا بنجاحه في تدريب الطيارين الجدد. (في المانيا، أرادوه أن يكون مسؤولا عن مدرسة تدريب الطيارين الذين كانت الجيوش الحديثة بحاجة ماسة اليهم. بينما كليمنسو، المغرم بالعبارات الطنانة، قال لغارو: "أنت بطل. أمنحك الموافقة على الرجوع إلى الجبهة". رجع بطلنا إلى المعركة وأسقط مرة ثانية، وهذه المرة إلى الأبد، ودفن بكل مظاهر الشرف العسكرية. هذا الحدث إستغلته الصحف المختصة بالوطنية الإستعراضية. ما كان لدوران- رول أن يقدم مديحا مثل هذا لي أو لكلود مونيه. كان يلائمه أن يرانا ننتج اعمالنا الفنية أكثر من أن يقرأ عنا رثاءً في الصحف - حتى لو أسهم موتنا في إرتفاع أسعار اللوحات التي بعناها له).

العهد العظيم للفن لا ينتج فنانين عظام فقط، بل وجامعي اعمال فنية عظام أيضاً، ومنذ أن فاق التجاريون الطبقات الحاكمة دهاءً، ينتج تجار عظام كذلك. الربع الأخير من القرن التاسع عشر في فرنسا الذي يصنَف مثل عصر النهضة الايطالية، يدين بإزدهاره الإستثنائي في الفن إلى واقع انه أنجب "شوكيه واحداً" و"سيزان واحداً"، و"كايبوت واحداً" و"رينوار واحداً"، وكلهم في الوقت نفسه. علاوة على ذلك كان مدينا للبصيرة الثاقبة لرجال مثل دوران- رول، وفي ما بعد لفولار وللزوجين بيرنهايم. تجدر الإشارة إلى ان دوران- رول كان رحالة كبيرا، ورقمه القياسي في هذا المجال لم يكسره سوى رينوار. أقل عذر يدفعه للرحيل إلى لندن، بروكسل أو المانيا، ذاهبا حيثما كان له أمل بالتحريض على الاهتمام بالرسم الذي شغف به، وكرس حياته من أجل رفعته.

غالبا ما حدثني أبي عن الرحلة التي قام بها مع دوران- رول إلى

Twitter: @ketab_n

نيويورك. المعرض الذي أقامه التاجر الشهير هناك، شكّل نقطة تحول في مسيرة الإنطباعيين. (ربما ندين للأمريكان بأننا لم نمت من الجوع). كان هناك معرضان في السنة نفسها، ١٨٨٥، أو كما كان أبي يقول دائماً، ١٨٨٦: معرض في غاليري جورج بتي في باريس، والآخر في نيويورك. المعرضان تضمنا اللوحات التي أنجزتها المجموعة نفسها من الفنانين، وأعني بهم، مانيه، مونيه، رينوار، بيسارو، سيسلي، ماري كاسات، بيرث موريسو، وسورا. أكد ليونيلو فينتوري، الخبير الفني الايطالي البارز، بأن المعرض أقيم في الجمعية الامريكية للفنون. لكن أبي يؤكد، من جهته، انه كان في ماديسون سكوير غاردن القديمة. كان يضحك حين يخطر هذا المكان في باله، (ربما كان الناس يذهبون لرؤية المعرض بين مباراتي ملاكمة)، قال، وأضاف، (بينما نحن الفرنسيون جمهور خامل، نخاف من أقل شيء جديد. قد لا يكون الجمهور الامريكي أقل حذرا من الفرنسيين، لكنهم لا يرون ان من الضروري الهزء بالأشياء التي لا يفهمونها). كان رينوار يحاول تخيل الفتيات الامريكيات الشقراوات، ببشرتهن اللامعة وسيقانهن القوية، مرتديات أحذية كبيرة لا تفسد أقدامهن (ذلك النوع من الفتيات اللواتي أحب أن أرسمهن). وكان يقوم بمحاكاة، ما يفترض، لهجهتهن الامريكية، وهن يهتفن معلقات على اللوحات في المعرض: (أوو ! يا له من أحمر صغير فاتن! أوو! يا له من أخضر صغير محبوب!). كان يعتقد بأن فكرة المعرض تعود إلى ماري كاسات. كان يحبها كثيرا، برغم انه، مبدئيا، لم يكن يهتم بالرسامات النساء (عدا بيرث موريسو التي كانت مفعمة بالإنوثة، إلى الحد الذي يجعل من عذراوات رافايل غيورات). التقى ماري كاسات أول مرة في واحدة من رحلاته إلى بريتاني، (كانت تحمل حامل اللوحة مثل الرجال). ذات يوم قالت له، (أنا أعشق درجات اللون البني في لوحاتك. قل لي ما هو سرك؟)، (سأخبرك عندما تلفظين الراء)، أجاب. أتذكره كان يتحدث مراراً عن لفظ حرف الراء في اللغات المختلفة: (لا بدّ من أن أشعة الشمس لها صلة بالأمر. في إيطاليا

Twitter: @ketab_n

وتولوز يلفظ الناس حرف الراء مثل قرع الطبول. في باريس لفظه أقل من أن يلاحظ. ثم تعبر القنال، وأنت واقف ترتعش في ضباب ترنر، سيختفي، فجأة، الراء). ذكّرته ان الذين كانوا يدعون "انكروبابل"[٧٠] تأثروا باللهجة الزنجية، كانوا يسقطون حرف الراء في كلامهم، كما في اوبريت شارل ليكوك "إبنة مدام آنغو": (Il faut avoi` pe`uqe blonde et collet noi) (حسنا، هذا يريك فقط بأن كل النظريات فاشلة)، أجابني.

أقام هو وماري كاسات في النزل نفسه، وفي الأمسيات، يدور النقاش بينهما حول تقنية الرسم، مع إبريق من عصير التفاح. قالت له مرة، (هناك أمر واحد ضدك وهو أن تقنيتك بسيطة جداً. الجمهور لا يحب ذلك). أشبعت ملاحظتها هذه غروره. بوسعي تخيله، وهو يتنشق قليلاً، يحك أرنبة أنفه ويلمس بعصبية طية صداره، مبتسما لماري كاسات بمكر. (لا تقلقي)، قال لها، (بإمكان النظريات المعقدة أن تأتي دائماً في ما بعد!).

ثمة حادثة (ربما كانت محرّفة) كان رينوار يستمتع بروايتها بوجه خاص، تدور حول الطريقة التي تمكن بها (الأب) دوران من تهدئة شكوك سلطات الجمارك عند وصوله إلى امريكا. كان دوران يخشى إحتمال أن بعضاً من المفتشين سيصدمون برؤية عاريات رينوار، وحاول أن يبتكر حجة ما يمكن أن تقنعهم بأن لوحات الفتيات العاريات هذه هي فن وليست صورا أباحية. كانت مسألة دقيقة، بسبب صعوبة تقرير أين يقع الحد الفاصل. أبي كان سيقرر ذلك، بالطبع، فما هو جميل نقي، وما هو قبيح لا أخلاقي. لوحة "فينوس" لبوتتشيلي هي أخلاقية، في حين بورتريهات ونترهاوز، برغم الملابس الشبيهة بالدروع التي ترتديها شخصياتها الأنثوية، هي أباحية. بمعنى آخر، الأمر كله يعتمد على الروح التي يحملها الجسد، سواء كانت طاهرة أو قذرة، مزيفة

---

(٧٠) اسم أطلق في زمن الديركتوار (حكومة المديرين) على مجموعة من الشباب المتآمرين، الذين تأثروا بأسلوب مبالغ فيه في اللبس.

Twitter: @ketab_n

أو ملهمة. لكن رينوار لم يكن في نيويورك ليساعد تاجر الفن بالدفاع عن قضيته. لحسن الحظ، فكّر دوران- رول بخطة رائعة، فبعد أن عرف أن الموظف المسؤول لمكتب الجمارك كاثوليكي، قام بزيارة لذلك السيد الجليل في صبيحة الأحد، حاضرا القداس معه، ووضع، على نحو متفاخر، كمية كبيرة من النقود في طبق عطاء الكنيسة. في اليوم التالي، سُمح للوحاته بالدخول من دون أي عائق.

في تلك الأثناء، كان المعرض الذي أقيم في غاليري جورج بتي، في باريس، قد أثبت انه عقبة جدية في طريق الإنطباعيين. برغم أن العداء الذي ظهر في السابق ضدهم كان قد تلاشى، لكن الغضب عليهم عاد وانفجر ثانية، وعلى نحو أقسى من قبل. حسب نظرية رينوار، هذه الموجة الجديدة من الكراهية لها صلة بالروح الإنتقامية التي خلفتها هزيمة حرب ١٨٧٠. الجميع كان مثاراً بسبب المكيدة السياسية التي استهدفت الجنرال بولانجيه. كانت مدموزيل أمياتي، نجمة مسرح لاسكالا ومسرح إلدورادو، حققت نجاحا هائلا بأغنيتها "بولانجيه، معلم مدرسة في الالزاس"التي غنتها مرتدية الوشاح الثلاثي الألوان. وكان مونيه- سيلي ألقى قصيدة "حلم الجنرال" على حشد مسعور من الناس. وكان يُنظَر إلى ديوليد بوصفه شاعرا وطنيا:

L`air est pur, la rout est large
Le clairon sonne la charge
Les zouaves vont chantant
Et là-haut sur la colline
Dans la forêt qui domine
Le Prussien les attend [٧١]

(٧١) الهواء صاف، والدرب رحب / البوق يعلن النفير / الزواويون ساروا ينشدون / وفي الأعالي فوق الرابية / يتربص البروسي بهم.

Twitter: @ketab_n

بعملية تفكير يصعب تحليلها، كان أي شيء غير واضح في التقاليد الفرنسية هو مشبوه تلقائيا. وهذا يتبع، بالتالي، بأن كل هؤلاء الإنطباعيين الذين رسموا على نحو مختلف عن فناني "الصالون"، والذين تجرأوا على رسم الأزهار والأنهر والفتيات الراقدات، بدلاً من تصوير هجمات المدرعين أو سيدات بوجوه مشدودة مرتديات رداء إغريقيا طويلاً وملوحات بالبيارق، هم بالتأكيد عملاء سريون لبلدان أجنبية - وربما حتى ألمان متنكرون. ومن حسن الحظ، موجة العداء للسامية لم تكن متفشيّة بعد، والا كان العداء تصاعد نحو المجموعة الجديدة من الفنانين، لأن بيسارو اليهودي هو واحد من أعضائها، ورينوار كان صديقا لكاتول منديز، الكاتب، ولآل كاهين دنفير، المصرفيين الذين رسم لهم بورتريهات. (الشيء الغريب هو أن تلك اللوحات ذات المواضيع البطولية، في "الصالون"، ليس لها أي صلة بالتقاليد الفنية الفرنسية. أي رابط يجمع بين ميسونييه وكلويه، أو بين كورمون[٧٢] وواتو؟).

في السياسة، لعل لأصدقاء رينوار ميولاً معينة، مختلفة في ما بينهم، لكنهم كانوا جميعا أكثر انشغالاً بالرسم من الاهتمام بالسياسة. مانيه كان على نحو ما مثالاً لليبرالي البورجوازي. بيسارو كان مناصراً للكومونة. ديغا كان سيغدو ملكيا لو توفر له الوقت. رينوار الذي أحَب البشر كثيرا، كان لا يوافق على الأحزاب جميعا على إختلاف ألوانها. أحب الكومونة بسبب إرتباط كوربيه بها، والكنيسة الكاثوليكية بسبب البابا يوليوس الثاني لرافايل.

ما دمنا في الحديث عن السياسة، ومن أجل الإنتهاء من هذه المسألة التي كانت في عين رينوار جد ثانوية، أنتقل إلى قضية دريفوس. نحن نعلم أن الإدانة الباطلة بالتجسس لضابط يهودي في سلاح المدفعية قسّمت فرنسا

---

(٧٢) رسام فرنسي رسمي، حائز على وسام جوقة الشرف.

Twitter: @ketab_n

مرة أخرى إلى معسكرين، (المعسكرات الأزلية نفسها)، قال رينوار، (لكن بأسماء مختلفة لكل قرن. بروتستانت ضد كاثوليك، جمهوريون ضد ملكيون، كومونيون ضد عصبة فرساي. النزاع القديم أعيد إحياؤه ثانية. الناس، إما مع دريفوس وإما ضده. كنت أرغب في محاولة أن أكون فرنسيا ببساطة. ولهذا السبب، أنا مع واتو وضد مسيو بوغورو). في هذه الأثناء، بات الانقسام على أوسع نطاق، والدمل تضخم وتوجب عاجلا أم آجلا أن يبضع. الواحد أو الآخر من الطبيبين المسؤولين عن العملية الجراحية، سيصرّ على طريقته في المعالجة، شريطة أن لا يكون هذا على حساب حياة المريض.

كان رينوار يعرف كم كان السؤال خطيرا، لكنه أدرك أيضاً أن ساعة الحسم قريبة، ولن يمضي وقت حتى يأتي الجواب. كان يخشى أن يأخذ الجواب شكل معاداة السامية وسط البورجوازية الصغيرة. كان بوسعه تخيل جيوش البقالين وأشباه التجار، مرتدين الطراطير، ويعاملون اليهود بالطريقة التي يعامل بها الكوكلوكس كلان الزنوج. كان ينصح بالحفاظ على الهدوء وإنتظار زوال العاصفة. (ذلك الأحمق ديروليد سبّبَ الكثير جدّاً من الأذى). كان بيسارو يؤيد كل التأييد إتخاذ نوع من الإجراءات ؛ ديغا، كان يريد إجراء أيضاً، لكن من نوع معاكس. كان رينوار معجبا بديغا على نحو كبير، وكان يكنّ مودة حقيقية لبيسارو. حاول جهده أن يتفادى توريط نفسه مع أي منهما، برغم انه مع ديغا كان قاب قوسين أو أدنى من التخلي عن حياده، وذلك عندما سأله ديغا بدهشة، (كيف يمكنك أن تتحمل صحبة هذا اليهودي؟).

في زيارة غير متوقعة لمرسم رينوار ذات يوم، أطرى ديغا على منظر طبيعي صغير له عن محطة مياه في مارلي من القرن السابع عشر. أهدى أبي اللوحة اليه، وفي المقابل أعطاه ديغا رسما بالباستيل لخيول. في الوقت

Twitter: @ketab_n

نفسه تقريبا، طلب بيسارو من أبي أن ينضم اليه، مع غياومان[٧٣] وغوغان، في معرض صغير، كان ينظمه. حين سمع ديغا بالأمر، سأل رينوار بنبرة من القلق، (بالطبع، سوف لا تقوم بشيء مثل هذا، أليس كذلك؟)، (من؟ أنا؟)، أجاب رينوار متصنعا الدهشة، وراغبا قليلاً بتضليل ديغا، (أنا أعرض مع عصابة من اليهود والاشتراكيين؟ هل جننت؟). أحس ديغا ان مشاعره جرحت، فأعاد في اليوم التالي لوحة رينوار مع رسول خاص، وبدوره أعطى رينوار بقشيشا للرجل وأرجع معه "الخيول". في النهاية، لم يشارك في المعرض المقترح. السبب الحقيقي لهذا القرار أنه لم يكن يتحمل رسم غوغان. (نساؤه البريتانيات كأنهن مصابات بفقر دم حاد).

أواصل الحديث في السياسة. كان رينوار ينتقد بحدة الغربيين لنفاقهم تجاه الأعراف. كان يرى، على سبيل المثال، أن على المرء قبول نظام طائفة الهندوس الذي مارسه الهندوس لأربعة آلاف عام. وهو على أي حال يشبع الكبرياء الصغيرة للأفراد، بما ان هناك دائماً طبقة أدنى منهم، والضعفاء محميون بكل القواعد التي تحدد مزاولة كل مهنة. من الممكن أن ندعوها نقابة وراثية، التي لها، في نهاية المطاف، فوائدها. وهناك بدائل، أن يكون المرء مسيحيا ومؤمنا بالديمقراطية. كل البشر ولدوا متساوين. لو أن الأمر كذلك، ليس على الزنجي أن يوقد مرجل السفين، بينما الأبيض يتنعم بالراحة في كرسيه في مقصورته فوق. كانت تشغله، أيضاً، مسألة شرعية ضريبة الدخل. كان صديقه ريفيير ساعد وزير المالية، كايّوو، على صياغة مشروع بهذا الشأن، وحاول أن يبرهن لأبي أن من الإنصاف دفع الضريبة بموجب رواتب ودخول الأفراد، على أن تؤدى بموجب عدد أبواب ونوافذ منازلهم. (الرجل الذي يحب الهواء، والنوافذ الكبيرة في منزله، هو الشخص الذي يتأذي أكثر)،

---

(٧٣) (١٨٤١- ١٩٢٧)، رسام فرنسي تأثر بالإنطباعيين.

Twitter: @ketab_n

قال ريفيير، (أفضل أن أتأذى من أن أكون عرضة للتجسس)، أجاب رينوار.

أحد الأشياء البغيضة الأخرى عنده كانت صحيفة السوابق التي تحتفظ بها الشرطة. كان يستاء من فكرة أنه يمكن للشرطي السري أن يظل يتعقب نشاط شخص ما. (انها النهاية لكل الحريات)، قال، (ذلك يجعل من المستحيل على القاتل أن ينصلح يوما، لأنه وسم بشكل دائم بأنه قاتل). كان يريد للعقاب أن يمحو الذنب، (لأننا لا نعرف ما معنى ذنب). كان يؤمن بعدالة الطبيعة، ولا عقاب (بالكيد المرتد). كان يبدو له ان (الجحيم يبدأ، بوقت طويل قبل موتنا). كان معارضا لعقوبة الإعدام، وراسخ الإيمان بعقوبة الجلد. كانت العبارة الشهيرة، (إذا ألغيت عقوبة الموت سيشرع القتلة بالقتل)، تبدو له بلهاء، (المقصلة لا تعيد الضحية إلى الحياة، في حين ان الجلد الشديد لا يقتل، ويدفع الإنسان إلى التفكير).

أثناء الحرب العالمية الأولى، طرح رينوار بعض الإقتراحات الساخرة لتهدئة النزاع: (تخلصوا من الأسلحة النارية، واستبدلوها بأكياس من الفلفل. ترمون الفلفل في عيون الأعداء. انه يؤذي مثل النار، لكنه ليس خطرا، ويكلف دافعي الضرائب أقل مما تكلفه المدفعية الثقيلة، وسيضع حداً للقتال، لأن المقاتلين سينشغلون بفرك أعينهم). إقترح أيضاً إلغاء الطائرات، واستبدالها بمناطيد الهواء الساخن التي يمكن الآن صنع مناطيد من مادة صامدة للنار، لذلك ستكون أمينة تماماً. لم نكن نعرف إن كان جاداً، أو انه يمزح فقط. ربما، كان قليلاً من الإثنين معاً. لم يكن استبدادياً في عواطفه أكثر مما كان في رسمه.

قبل وقت قصير من موته، قال أبي: (ما الذي سترثه مني، ويجعلك تشعر بأنك حر في قبوله من دون تحفظ. أنا لم أكسب أبداً قرشاً واحداً في العمل لدى آخرين. لم أملك أبداً أسهما في مصنع. ولم أكن أبداً، حتى بشكل

Twitter: @ketab_n

غير مباشر، مسؤولا عن موت عامل منجم، بإنفجار تحت الأرض بمئات الأقدام). كان سوق الأسهم لا يبدو له أكثر من وحش. في العصور الوسطى، كانت الكنيسة تحرم الربا. (هؤلاء المصرفيون، كانوا في السابق يذهبون إلى الجحيم. الآن، يذهبون إلى الجنة، بأجنحة صغيرة جميلة على ظهورهم وهالات تؤطر رؤوسهم). كان يرى، بأن إقرار الكنيسة للربا الفاحش، وضع العالم على طريق السوقية. (انه التحول من الرومانيسك إلى القوطي، ثم إلى القوطي المتموج[٧٤] الذي يبدو فاتناً، بيد أن فيه شيئاً من العهر).

عودة للحديث عن الوضع المالي لمجموعة الرسامين الشباب. إخفاق معرض غاليري جورج بتي، كان كأس المر الذي تجرعه رينوار واصدقاؤه. تنسى الضربات بسهولة حين يكون المرء قد بدأ تواً. لكن عندما لا يكون قادرا، بعد عشرين عاما من الكدح والحرمان، على إستمالة الجمهور الذي يرى انه الحكم الأعلى لعمله، فله الحق في أن يسأل نفسه، إن كان من الأفضل أن يستسلم. (ومع هذا، ما الذي كان علي فعله ؟ لم أعرف القيام بعمل واحد غير الرسم). بالرغم من إحباطه، لم يبتعد رينوار عن حامل لوحته. (لم أكن أبداً ادع اليوم يمر من دون أن أرسم، أو من دون أن أخطط، مهما كانت الظروف). لم يكن بالشخص الذي يذعن لليأس الرومانسي، أو ينكفئ عن عالم عاجز عن تقدير (فنان عظيم). (سلكت طريقي البسيط. زد على هذا، ماذا يمكن أن تفعل غير ذلك في الحياة ؟ كنت مقادا بقوة لا تقاوم. أتذكر "الفلينة"؟ بالرغم من هذا، حين تتقدم في العمر، فأنت تعرف أشياء كثيرة، ومن الصعب أن تدرك التيار. ساعدتني أمك كثيرا، من دون أن تقول أي شيء. لم تكن تهمها النظريات).

---

(٧٤) أسلوب في العمارة القوطية تميز بتموج خطوطه وزخارفه.

Twitter: @ketab_n

زوجته الحبيبة ذات البشرة الناعمة مثل بشرة دوقة، لها ذوق بورغوني في النبيذ الفاخر والطبخ على حد سواء، مع هذا، اذا اضطرت، فإن (بإمكانها أن تعيش على كسرة من الخبز اليابس. كانت قادرة على ترتيب منزلها، بين جلستي رسم، حتى من دون أن ألاحظ ذلك!). كانت حذرة من القيام بأمور البيت التي كانت تعرف انها تضايق زوجها. حالما كان يغادر المنزل، ويستدير عند زاوية البلاس بيفال، في طريقه إلى بيت دورا- رول، ليرى إن كان هناك من تطورات، تفتح نوافذ الشقة كلها، ويبدأ التنظيف. في دقيقتين، تكون الأغطية موضوعة في الخارج للتهوية، والمناديل معلقة بصف في المطبخ. عندما يعود كان يجد زوجته مشغولة بتحضير وجبة الغداء. وهذا الجزء من العمل المنزلي، كان يطيب له. إطعام البشر، هو عمل جدير بالثناء. كنس الغبار، مضر بالرئتين. كان يجلس إلى جانبها ويساعدها بتقشير الجزر، فكانت تحس بالسعادة عندئذ، فتبدأ بغناء أغنية قصيرة، بالرغم من انها تنشز قليلاً، كما روت لي في ما بعد. ثم كان يضع سكينه جانباً، ويلتقط حزمة الأوراق والقلم الرصاص، ويبدأ بتخطيط صورتها.

قبل ان اختتم هذه التفاصيل - السريعة جداً لسوء لحظ - المرتبطة بفترة قصيرة قبل مجيئي للحياة، عليّ العودة إلى موضوع معرض دوران- رول في نيويورك. فشراء الأمريكيين لعدد من أعمال رينوار، من بينها "غداء المراكبية" الموجودة الآن في واشنطن، كان له قيمة، بالنسبة اليه، أعظم بكثير من الثمن الذي إستلمه عنها، لأنه أعاد اليه الثقة بالنفس التي كانت وقتذاك في حالة إنحطاط. (منحني الأمر شعورا بأني عبرت الحدود). لم يكن بحاجة له كحافز للإستمرار، لكنه أعطاه دفعة إضافية وهدّأ من قلقه. (انا لا أرسم لو لم يكن الرسم يسليني. وكيف يمكن لك أن تتسلى عندما تفكر بأن ما تفعله يجعل أسنان الآخرين تصّر؟). هذا النجاح، دفع أمي إلى إحاطة زوجها بأكثر ما يمكن من الهدوء، وكان ذلك سيكون هدفها في الحياة.

Twitter: @ketab_n

بالرغم من صداقاتهما الحميمة مع كثير من الناس، وبرغم الدعوات العديدة الملحة التي كانت توجه لهما، لم تكن أمي تملك أدنى رغبة بأن تصبح سيدة مجتمع. ومن أجل هذا تستحق أعظم الثناء. مرحها المليء بالفتوة، وهبها ولعا بالحفلات الإجتماعية. كتبت، في صفحات سابقة، كيف كانت تحب الرقص، لكنها كانت تعرف ان زوجها بحاجة إلى السكون، وإنه كان يحب ضوء الصباح المبكر.

لا تظنوا أن أمي كانت من تلك النساء المنظمات للغاية اللائي يفعلن كل شيء من أجل زيادة انتاج الزوج. كانت ستحس بسعادة لو أن رينوار لا يقوم بأي عمل على الإطلاق ؛ ربما، حتى بسعادة أكبر، لأنه عندئذ سيصبح ملكها وحدها. لكن بما أن سعادة الرجل الذي تحب تتوقف على الرسم، أدركت ان عليها أن تدعه يرسم بسلام. وعبّر النظر إلى رسومه بإستمرار، تعلمت أن تحبها وتفهمها. كانت تعبر عن رأيها في لوحة ما بكلمات بسيطة قليلة. وكانت حريصة على تجنب (لعب دور زوجة الفنان). كانت ترغب في أن تبقى كما هي، إبنة مزارع الكروم، الخبيرة بلي عنق دجاجة أو تنظيف مؤخرة طفل أو تقليم كرمة عنب. حين كنا أنا وأخي صغيران، كانت تأخذنا إلى ايسوي في موسم قطف العنب. كنا نمتلك سلتي جني ملائمتين نحملهما على ظهرينا، مثل الرجال، ونملؤهما بعناقيد العنب التي نقطعها بمنجلي التقليم الخاصين بنا. كنا نفرّغ حمولتنا في "الحوض"، ثم نراقب عمليات العصر المختلفة، وفي النهاية نتذوّق العصير الحلو قبل أن يسكب في وعاء التخمير الكبير. كان للعصير مفعول المسهل، بحيث كنا عاجلا نركض خلف الأحراش لنريح نفسينا. لم تعد أسرة شاريغو تملك كروما، لذلك كنا نذهب إلى حقول ابن عم لنا للمساعدة في جني العنب. هذه الترافقات، سوية مع وجهها (الشبيه بالقطة)، هي التي جعلت رينوار يولع بآلين شاريغو. إن بنيته النحيلة، وطاقته التي لا تعرف الراحة، والعاطفة التي تشع منه، ورسمه في المقابل، هي التي جعلتها مفتونة به. كان زواجا رائعا.

Twitter: @ketab_n

رويت كيف أن أمي قررت أن تهجر العزف على البيانو بعد سماعها أداء شابرييه. العشاءات الحميمة مع المحدثين الرائعين، أمثال لوسترنغي، مالارميه، تيودور دو وزيفا، زولا، الفونس دوديه، كاتول منديز، اوديلون ديدون، كلود مونيه، فيرلين، رامبو، فييه دو ليل- ادام، فرانز جوردان، أدمون رينوار، ورفاق زوجها الآخرين دائمين أو عابرين، كانت تميل فيها إلى الصمت. ولأن معرفتها بالكروم لا تجاري المفارقات الفكهة لضيوفها، قررت ان تظهر موهبتها على أحسن وجه في الطعام الذي تقدمه لهم. حلت دروس الطبخ الآن محل دروس البيانو. معلماها، في هذا المجال، كانا، بالدرجة الاولى، حماتها مرغريت ميرليه، التي كانت تزورها في لوفيسيان كلما أتيح لها الوقت، والمعلم الثاني، الذي لا يقل شأنا، هو رينوار! بعد ذلك، ودائماً بتأييد من زوجها، اعتمدت على مصادر أخرى للمعلومات المطبخية. كان اهتمام أبي بالأكل (النهم)، الذي هو نفسه كان يأكل قليلاً، كان يثير الدهشة.

عاجلاً، أصبحت وجبات عشاء مدام رينوار جديرة بالتعظيم. حتى يومنا هذا، لا يزال الأصدقاء المقربون من العائلة، مثل آل سيزان أو أحفاد مانيه – موريسو، يذكرون طبقها من "البوياباس"[٧٥]. متى ما شحت النقود، كان يستبدل الدجاج المقلي مع الفطر بوجبة بسيطة من البوتويوف. ومهما كان الظرف عصيبا، كانت أمي، بطريقة ما، تدبر أمرها بخدمة أصدقاء زوجها على أحسن ما يكون.

بتحديد نفسها في المجال الذي تعرفه أفضل، كسبت إعجاب وإحترام كل الذين عرفوها. مرحها، وبراعتها في الأمور المنزلية، جعلا منها سيدة عظيمة. ديغا، الذي لا يسلم من عينه الناقدة أحد، كان يكن لها أعظم إعتبار.

---

(٧٥) حساء السمك، يتكون من سمك مُتبّل بالبهار والثوم والنبيذ والزيت.

Twitter: @ketab_n

ذات مرة، أثناء إفتتاح أحد المعارض في غاليري دوران- رول، لفت نظره الفستان البسيط الذي كانت ترتديه أمي، وقارنه بالثياب المفصلة الفاخرة للنساء الأخريات الموجودات، فقال لأبي، (زوجتك تبدو مثل ملكة محاطة بمشعوذين). وتعليقا على صوتها الهادئ، الذي يلاحَظ تباينه مع الأصوات الثرثارة الضاجة للآخرين، أضاف، (أكثر ما يخيفني في العالم هو تناول الشاي في غرفة إستقبال على الموضة. فأنت تظن نفسك في قن دجاج. لماذا يجب على النساء أن يتجشمن كل هذا العناء ليبدون قبيحات جدّاً وعاميات جداً). لم يحر رينوار جوابا. نحن نتذكر، ربما، بأنه كان يفضل (الأيدي التي تفعل كل شيء). لكنه كان يحب كثيراً ان لا نرى في النساء والناس عامة جانبهم المستحب اولا، كي يمكنهم الضحك من بعد على أخطائهم وسخفهم. الناس طيبون لأنهم بلهاء. أبي كان طيبا لأنه كان ذكيا. ديغا أيضاً كان ذكياً. فتحت هيئة القنفذ المنتصب الشعر، كان هناك أثر من طيبة حقيقية. أليس ردنغوته الأسود، وياقته المنشاة جيداً، وقبعته الطويلة السوداء أخفت على نحو أصيل الفنان الأكثر ثورية بين الرسامين الشباب؟

لست متأكداً إن كان ذلك في المعرض نفسه عندما سمع رينوار، حديثاً بين ديغا وفوران[٧٦] على نحو عرضي. كان الأخير فخوراً جدّاً بكونه واحداً من اوائل الناس في باريس الذين يملكون جهاز هاتف.

ديغا: (هل يعمل جيداً؟).

فوران: (جيد جداً. تدير المقبض الصغير، فيرن الجرس في الطرف الآخر من السلك، في شقة الشخص الذي تتصل به، وعندما يرفع السماعة، تتكلم معه بسهولة كما لو كان في الغرفة نفسها).

---

(٧٦) جان لوي فوران (١٨٥٢- ١٩٣١)، رسام فرنسي، نقاش وطبّاع على الحجر، اشتهر برسومه الكرتونية السياسية وهجائه الاجتماعي.

Twitter: @ketab_n

بعد أن تأمل لحظة، قال ديغا: (وهل يعمل بالجودة نفسها في الجهة الأخرى؟ يمكن للشخص الآخر، أيضاً، أن يدير المقبض ويرن عليك؟).

(بالطبع)، أجاب فوران مبتسما.

(وحين يرن الجرس، تنتصب واقفا للإجابة عليه؟).

(لكن... بلى).

(مثل خادم). إختتم ديغا قائلا.

ما أدهش أبي حول القصة أن فوران، الكاركتيري العظيم وصاحب الفطنة والموهبة، أخذ، في الواقع، على حين غرّة، من دون أن يرتاب بما كان ديغا يحاول أن يوقعه فيه.

أحب أن أشير إلى واحدة من أطباع أبويّ الغريبة، التي حكت لي أمي عنها. كانا، يحبان الذهاب إلى المسرح من وقت لآخر. وتماماً مثل ما يحدث اليوم، يطلبان من فتاة صغيرة، تعيش في الجوار ومؤتمنة، أن تبقى في البيت أثناء غيابهما لتعنى ببيير الصغير. مع هذا، عندما كانا يذهبان إلى المسرح، كانا يغادران أثناء فترات الإستراحة، ويقفزان في عربة أجرة ويعودان إلى البيت لبضع دقائق ليريا إن كان الطفل ما زال نائما. لم تكن هذه عاطفة مفرطة منهما، كل ما في الأمر كانا قلقين. (قد يشب حريق)، قال رينوار، (أو أكون نسيت إطفاء الغاز). في ما بعد، وحين ولدت، كان يفعلان الشيء نفسه، برغم وجود غابريال في البيت للعناية بي.

في حديثه عن الزمن الذي عاش فيه في شارع اودون، صادف أن ابي أشار إلى موت فان كوخ: (لم يكن حدثا جللا حقا. حتى دوران- ورل، لم يدرك ما تعنيه رسوم فان كوخ. هذه اللامبالاة تجاه فنان، كانت عبقريته جلية، هي، في رأيه، إدانة لكل (قرن الثرثارين الحمقى هذا). سألته إن كان

Twitter: @ketab_n

يعتقد بأن فان كوخ كان مخبولا. أجاب، أن تكون رساماً عليك أن تكون مجنونا صغيرا، (إذا كان فان كوخ مجنونا، فأنا أيضاً مجنون. أما سيزان فهو شخص غريب الأطوار بجاكيتة ضيقة)، وأضاف، (لا بد ان البابا يوليوس الثاني كان مخبولا. لهذا فهم الرسم على نحو جيد جداً).

الرجل الذي إختاره رينوار عرّابا لأخي بيير، كان واحدا من أخلص أصدقائه. كان غوستاف كايّبوت ينتمي إلى عائلة من المصرفيين. أخوه مارتيال، تبع مهنة والده، لكن غوستاف كان يرغب في أن يصبح رساما. ورسم بنفس القدر من الشغف الذي كان لدى أي عضو من جماعة الإنطباعيين. تعارفا، هو وأبي، أول مرة، في عام ١٨٧٤. كان يعرض لوحاته سوية مع رينوار، وكان له نصيبه من النقد والتجريح. اللوحات التي عرضها في معرض دوران-رول لعام ١٨٧٦، وصوّر فيها بيوت الرسامين، أنجزت بأسلوب واقعي جداً. أثنى عليها رينوار، فتورّد كايبوت خجلا، إذ كان متواضعا إلى حد بعيد. كان يعرف بالضبط حدوده الخاصة: (انا أحاول أن أرسم بصدق، عسى ان يكون عملي في يوم ما جيدا بما يكفي لتعليقه في حجرة الإنتظار أو غرفة الإستقبال، حيث تعلق أعمال رينوار وسيزان).

زوجته شارلوت، كانت مولعة بالرسم على حد سواء. ربما، هذا ما جذبها لأمي التي كانت تكن لها مودة صادقة. (أنا أعرف ان لديك ما هو أفضل من الثرثرة معي، وأنا لا أستطيع مساعدتك في كي ملابس الصغير بيير، ربما أحرقتها، لو فعلت). كانت تسلي أمي بطريقتها الضجرة التي كانت تعبر بها عن خيباتها بنبرة من إستسلام هزلي: (كان لدينا مقاعد هزيلة جداً، في إفتتاح "قوة الظلام"، من حسن الحظ، ان المسرحية أضجرتنا لحد الموت). حكت لكل اصدقائها عن بوياباس آل رينوار. (عندي طباخ كان في السابق طباخا لأمير ويلز. يعرف كل كتب الطبخ عن ظهر قلب. كانت مدام رينوار تعطي توجيهات سريعة لموديل زوجها، التي تقوم بالطبخ. وماذا حدث ؟ طبقي من البوياباس لا يؤكل، أما طبقها فكان رائعا).

Twitter: @ketab_n

جمع كايبوت أعمال أصدقائه الأكثر أهمية. شراؤه المتحمس، كان غالبا ما يحدث في أوانه، والعديد من الفنانين الذين كانوا في ضائقة مالية، أُنقذوا بفضل كرمه وحكمته. (كان عنده هدفه الصغير الخاص به... فهو نوع من جان دارك الرسم). توفي كايبوت في عام ١٨٩٤، بعد أن إتخذ من رينوار منفذا لوصيته. كانت مفاوضات التصرف في تركته معقدة جداً، إذ انه أوصى بمجموعته لمتحف اللوفر، بأمل أن لا تجرؤ الحكومة على رفضها. وبهذه الطريقة، كان سيتم التغلب على النبذ الرسمي الذي كانت المدارس الفرنسية الحديثة لا تزال تعاني منه. ذلك هو (الهدف الصغير) الذي أشار اليه رينوار.

لتنفيذ واجباته القانونية، كان على أبي، قبل كل شيء، التعامل مع شخص يدعى "ر" الذي كان مسؤولا كبيراً في معهد الفنون الجميلة (البوز آرت). (من النوع الطيب، لكنه مزعج جدّاً في إتخاذ قرار). كان هذا السيد يذرع مكتبه في اللوفر جيئة وذهابا، بينما كان رينوار يتفحص الأبواب المنحوته، بتمرير راحة يده على الحلي المعمارية البارزة، قائلا بصوت مسموع، (باب جميل!) لكن مسيو "ر" سأله بصراحة وبصوت حزين: (لماذا، بحق الشيطان، قرر صديقك أن يترك لنا مقتنياته التي لا نفع منها؟ حاول أن تضع نفسك مكاني. اذا قبلناها سينقلب المعهد كله ضدنا. واذا رفضنا سنثير علينا نقمة كل الناس في الحركة الجديدة. أرجوك، لا تفهمني خطأ، مسيو رينوار، أنا لست ضد الرسم الحديث. أنا أؤمن بالتقدم. أنا حتى إشتراكي، وأنت تعرف ما يعني هذا...) طلب منه رينوار، بتهذيب، أن يضع النظريات جانبا، ويركز التفكير على الحقائق، بإلقاء نظرة على اللوحات. بإستثناء إثنتين أو ثلاث، كان على مسيو "ر" الاعتراف بأن لوحات مانيه وديغا تبدو مقبولة. ووافق على أخذ "مولان دو لاغاليت"، لأنها تمثل الطبقة العاملة. (أنا أحب الطبقة العاملة)، قال. لكنه حالما وصل إلى لوحات سيزان، حتى بدأ يعصر يديه. (لا

Twitter: @ketab_n

تحاول أن تخبرني بأن سيزان هذا، رسام !)، قال محتجا. (لديه المال ؛ أبوه كان مصرفيا. إتخذ الرسم لتمضية وقت الفراغ. ليس من الغريب، انه أنجز رسومه لمجرد أن يستهزئ بنا).

الجميع يعرف التتمة. فثلثا هذه المجموعة الفريدة على الاقل، وواحدة من أعظم المجموعات في العالم، تم رفضها. أما الثلث الباقي، فلم يعبر أبواب اللوفر، بل تم خزنه في متحف اللوكسمبور. عند وفاة شارلوت كايبوت، إنتقلت ملكية هذه الأعمال المرفوضة إلى ورثة مختلفين، تخلصوا منها بأسرع ما أمكنهم. لقد أُزدريت في فرنسا، لتستقبل بحفاوة في البلدان الأجنبية. الجزء الأعظم منها، بيع في الولايات المتحدة. أنا أروي هذه القصة لكل صديق فرنسي يتهم الأمريكان بتفريغ فرنسا من تحفها الفنية بواسطة الكلي القدرة، الدولار.

ذات يوم، في عام ١٨٨٩، وإذ كان يمر بشارع اودون، خطر ببال دكتور غاشيه أن يعرّج على بيت رينوار. كان في ايكس، في ذلك الوقت، في زيارة لسيزان ولرسم جبل سان فكتور. وجد دكتور غاشيه بيير الصغير يبدو شاحبا قليلاً، فعزا هذا إلى هواء المدينة. فدعا أمي إلى جلب الطفل إلى أوفير، حيث يقضي عطلاته دائماً، لكنها رفضت بسبب النهر. (إذا عرف رينوار أن إبنه بقرب نهر الواز، وهو غير موجود لمراقبته، فسوف لا يُغمَض له جفن). غادر غاشيه، لكنه أخبرها أن الدعوة مفتوحة في حال قررت أن تغير رأيها.

في أحد الأيام ذهبت أمي لرؤية إبنة مدام كاميل التي كانت تزوجت من تاجر الأحذية في شارع لوبيك، القريب من البلاس دي تيرتر. كانت صديقتها حدثتها منذ وقت قريب عن منزل خال في جزء من مونمارتر، ما زال يشبه تقريبا الريف. حين علم رينوار بذلك، عاد إلى باريس، وقرر انها فكرة ممتازة. وهكذا، أتيح لأسرتي الانتقال إلى شاتو ديه برويار، في الرقم ١٣، رو جيراردون.

Twitter: @ketab_n

٢٠

انها ليست مسافة طويلة من شارع اودون إلى شارع جيراردون. تذهب عبر البلاس ديز آبيس، تنعطف نحو اليمين، ثم تصعد الدرجات الحجرية لشارع رافينيان، وتنزل إلى شارع نورفان حتى تصل إلى المولان دو لاغاليت، ثم تستدير يمينا ثانية. في الطرف البعيد من شارع جيراردون، قبل أن تصل السلم تماماً، تبلغ مكانا يدعى شاتو ديه برويار.

هذا الجزء من الهضبة ينحدر قليلاً لمسافة قصيرة ثم ينخفض بحدة. عندما كنت صغيراً لم يكن هناك سلم. كان دربا ضيقا يهبط منحدرا حتى البلاس دو لافونتان دي بوت، وفي الأيام الممطرة تواجه فيه خطر السقوط على ظهرك. كان الناس الكبار في السن يدورون حوله ذاهبين إلى شارع ديه سول، مشيا على الأقدام، حيث كانت درجات حجرية معتدلة الإنخفاض، وهو المكان الذي يقع فيه، الآن، اللابان آجيل. البلاس دو لافونتان دي بوت، هو الآن معروف بالبلاس كونستنان بيكور. (فكرة غريبة)، كان سيعلق أبي على هذا الاسم.

الشاتو ديه برويار، الذي كان يقع في نهاية رو جيراردون، يتوازن بصعوبة على تربة طينية ورملية من السهل. في الجانب الشمالي، عند قاعدة جرف عال، كان يبدأ قطاع الكولانكور. ولم يكن بعد يهيمن عليه الفنانون والحانات،

Twitter: @ketab_n

إذ كان ملكية خاصة للعاملين في منطقة سان- اون. لكن شركات البناء وضعت مسبقا عينها عليه، وكانت تنتظر الفرصة لتتملكه.

كان سياج من الشجيرات يحيط بالملك الذي كان يشتمل على مبانٍ عدة وحديقة. ما أن تدخل البوابة، من الحديد المطاوع، حتى تجد نفسك في زقاق ضيق جداً، من الصعب مرور عربة فيه. في اليسار، كان هناك بضعة مباني إضافية ـ هي كل ما تبقى من قصر بني في القرن الثامن عشر، "folie" (غباوة)[٧٧]، كما كانوا يدعونه حينئذ. جانب واحد من هذه المنازل الواطئة كانت تشغله مدام بريبان، سيدة عجوز تشبه واحدة من شخصيات الحكايات الخرافية لبيرّو. كان إبنها، الذي يعيش معها، بنى جدارا داخلياً فاصلاً في وسط المنزل، كي يهرب من طغيانها. ولأن الجناح الذي يشغلانه له باب واحد فقط، وكانت مدام بريبان هي التي تستخدمه، فكان هو يدخل ويخرج من النافذة. أصحاب المكان مسيو ومدام غيرار، سكنا في الجناح الآخر، ولديهما مدخل على شارع جيراردون. مجموعة المباني كانت محاطة بأشجار جميلة، تنمو في المكان السابق لحديقة خاصة. المبنى الضخم (الفولي) تم تدميره أثناء الثورة. كان موقعه مكسوا بصف من النباتات، وبقايا حجر، الذي أخذ منه، ربما، لبناء مساكن عادية في الجوار. قرب المدخل، كان يسكن البواب، وفي الخارج، قريبا من المبنى، المضخة القديمة، التي كنا نستخدمها للحصول على الماء. على يمين المجاز يوجد بناء مستطيل الشكل مقسم إلى مساكن عدة. ويشرف على كل قطاع الكولانكور. لماذا فقط تلك الكتلة الغريبة، التي تجثم فوق ضباب باريس، كانت تدعى شاتو ديه بريار؟ لا يبدو ان أحداً يعرف. ثمة تفسيرات كثيرة محتملة، لكن أكثرها إقناعاً، هي، ببساطة، أن الاسم أطلق للتندر، فهذا الشاتو (قصر)، ليس له أي صلة بالقصور. مهما يكن التفسير،

---

(٧٧) تعبير يطلق على المبنى لضخم قليل الفائدة.

Twitter: @ketab_n

فإن السكان المحصورين داخل سياج لشجيرات، والمحصنين بخصوصية معينة خلف أسوار حدائقهم الصغيرة الخاصة، يعيشون في عالم مستقل، يخفي أهواءً جامحة تحت المظهر الخارجي البروفينسالي. هذا "الفولي" الذي لم تترك فيه كسرة من جدار يثير مخيلتهم. كان يحلو لبعض الناس أن يصدقوا أن أشباحا لفاسقين بشعور مستعارة، مع عشيقاتهم المرتديات ثياباً من الساتان الثقيل، ما زالوا يسكنون الأيكة الخشبية التي كانت، في ما مضى، مرتع مغازلاتهم. أفكار مثل هذه، كانت تمنح بوهيميي برجوازية القرن الثامن عشر شعوراً بالإختلاف الإجتماعي، في عاداتهم وسلوكهم الأخلاقي، عن الباريسيين الآخرين. كيف يمكن للمرء أن يتوقع من اناس سكنوا على موقع الإبحار إلى جزيرة سيثيرا، أن يعيشوا طريقة الحياة نفسها، التي يعيشها بائع الألبان في ركن شارع لوبيك !

على إمتداد سياجنا هناك أجمة ورود، إرتدت إلى حالتها البرية. في الخلف، بستان الأب غريي، واحد من البساتين الأخيرة على مرتفعات مونمارتر. ما زلت احس بطعم خوخه في فمي - برقوق صغير مدوّر، صلب جدّاً ومذاقه حاد، لا يشبه ذاك الذي يباع في أكشاك الفواكه. كان له تأثير لاذع على اللسان. أتذكر ان أبي وغابريال، كانا يقولان بأن شجرة البرقوق مطعمة بالسفرجل.

بيتنا الأخير في الصف المستطيل للبيوت، له في جانبه الغربي نوافذ كلاسيكية، يمكننا منها رؤية مون فاليريان وتلال مودون، وارجنتوي وسان كلود وسهل جونفييه. سهل سان- دني، كان يُرى من النوافذ الشمالية، كذلك غابات مونمورنسي. في ايام الصحو، يمكننا حتى رؤية كنيسة سان- دني عن بعد. تشعر كأنك في السماء تماماً. في الجانب الجنوبي، ليس بعيدا عن منزلي عائلة بريبان وعائلة البواب، هناك حديقة أزهار تعود ملكيتها إلى شخص غامض، كنا نلمحه بشكل مبهم من خلال أوراق النباتات، يحفر

Twitter: @ketab_n

الأرض ويسمدها ويقلم الأشجار. هناك، أيضاً، حقل ترعى فيه الأبقار، كانت غابريال تأخذني لنشتري الحليب من بيت صغير يقع على طرفه. كنت أخاف خوفا شديدا من تلك الأبقار. في مكان أبعد، تقف الأشرعة الخشبية لطاحونة مولان دو لاغاليت صلبة شامخة بإتجاه السماء.

لمعظم الباريسيين، هذه الجنة الصغيرة من أزهار الليلك والورود، تبدو مثل نهاية العالم. كان سائقو عربات الأجرة يرفضون الذهاب صعودا نحو التل فكانوا يوقفون عرباتهم عند البلاس دو لافونتان دي بوت، بعدها، كان يتوجب علينا تسلق المنحدر لنصل إلى البيت، أو للذهاب إلى شارع ديز آبيس، في الجانب الآخر من الهضبة، حيث يتقاطع مع شارع لوبيك، وهي بقعة مزدحمة بحشد من مدربي الصقور، الذين يقفون في الشارع يزعقون لترويج سلعهم، سادين الطريق بعرباتهم. لهذا الممر الأخير، كان علينا قطع طريق مختصر عبر شارع تولوزي، الذي يرتفع بشكل حاد في سلسلة من الدرجات تبلغ الجزء الأعلى من شارع لوبيك، قريبا تماماً من مدخل المولان دو لاغاليت. صعوبة بلوغ المكان، كان معوضا عنها بشكل كبير بالإيجارات الواطئة للبيوت، والهواء النقي، والأبقار، والليلك والورود.

كانت علية بيتنا لها جدار فاصل، حصل رينوار على الأذن بإزالته، كي يمكنه تحويل المكان إلى مرسم. من أجل أعماله الكبيرة الحجم، مثل "المستحمون"، التي انجزها للدكتور بلانش، استأجر مرسما في شارع تورلاك، دلّه عليه الرسام الايطالي زاندومينيغي، الذي تعرف عليه أيام النوفيل آتين. كان أبي يود هذا الجندي المسكيتي الغليظ البنية، الذي كان مشوه الخلقة قليلاً. كانت صحبته من أفضل ما يكون، طالما لم يُمَس كبرياؤه القومي بأذى. من أقل شعور بالغضب، كان يقف على رؤوس أصابعه ويعلن، مشددا على حرف الراء، (نحن نرريد أن نسيطررر على البحررر المتوسط!) عندئذ، كان أبي يسترضيه قائلا، (أنا، بكامل إرادتي، أمنحك إياه). وفي

Twitter: @ketab_n

مقابل هذا التنازل الصادق وغير المكلف كثيرا، كان زاندومينيغي يعود، مرة أخرى، الرجل الأكثر ودا ولطفا بين الجيران.

مرسما رينوار الإثنان، كان يتم تدفئتهما بفرن الفحم، أما غرف الشقة فبموقد. كانت النيران تبقى موقدة طوال الشتاء لتفادي الموت بردا. ذات يوم، وكان يزوره غيرار، ابن مالك المكان، طلب منه رينوار أن يقلد له بعصاه مبارزة بالسيف. فطعن الشاب الجدار، ولدهشتهما إخترقت العصا الجدار حتى القبضة. نظرا إلى الخارج، فاكتشفا خلف الجدار عارضة، مثل حاجز تعلق عليه لافتة. (اهمم)، همهم الشاب بإيماءة فلسفية، (نستطيع إصلاحه ببضع طبقات من ورق الجدران).

من الخطأ الإفتراض أن رينوار تقيد بالحياة الزوجية بعد الزواج. الفرق، انه بدلاً من ان بيته كان في كل مكان ولا في أي مكان، صار لديه، الآن، مكان يتعلق فيه، وهذا المكان، حيث كانت أمي. منذ الآن، عليه أن يغادر هذه الجنة لغيابات قصيرة فقط ؛ تماماً مثل طير يغادر عشه بحثا عن حشرة، ليعود إلى رفاهته بأسرع ما يمكن. فكرة ضم زوجته بين ذراعيه وتنشق عطر جسدها الفتي، وممارسة الحب معها، تعود به إلى المنزل. يمكننا القول، انه قبيل نهاية حياته، بلغ نقطة اكتشاف العالم في نطاق البيئة المحيطة به مباشرة. قبل ولادتي، كان حقل نشاطه يغطي إقليما واسعا، عاصمته، الشاتو ديه برويار، لكنه يضم كل بروفانس فراغونار ومنطقة السين، ايسوي البورغونية، والمرافئ الصغيرة لبريتانيي، ونورماندي جامعي المحار، والسانتونغ. عجّل رينوار برسم ميناء لاروشيل، لأن كورو رسمه. لا لكي يقلد كورو، بل كي يتقاسم السر الذي كشفته الأبراج المحصنة هناك للأستاذ. كان يهرع إلى جاس دو بوفان مع سيزان، والى ميزي مع بيرث موريسو، ويطوف اسبانيا مع غاليمار، ويقضي الشتاء في بوليو، في الميدي، والصيف بونت آفين، في بريتاني. كانت أمي ستسافر معه، لولا انها كانت تشعر أن السفر يتعب

Twitter: @ketab_n

الصغير بيير كثيرا. كانت ترفض بشكل تام مرافقته إلى اسبانيا. وزياراته هناك، كانت، في الواقع، قصيرة نوعاً، لأنه حين (ترى فيلاسكيز، ستفقد كل رغبة بالرسم. ستدرك انه لم يعد هناك ما يقال).

لأن أمي كانت تكره الفنادق، فكانا يستأجران بيتاً صغيراً، يتحول في الحال إلى (ملكية رينوارية). كان لأبويّ موهبة جعل أي مكان يقيمان فيه بيتهما الخاص، باختيارهما أغرب أنواع المساكن (بشرط أن تكون بيوت فلاحين). مرأى الأثاث من خشب الورد وتحف الزينة البورجوازية، يبعد رينوار عن الرسم. الأصدقاء، الذين زاروهم في بريتاني، وفي البروفانس، أو في مزرعة في النورماندي، التي كان يشغلها اوسكار وايلد في الشتاء، امتلكوا إحساساً أن رينوار عاش طوال عمره في تلك الأمكنة. هذا الشعور مستمد من بضعة أشياء بسيطة هنا وهناك، مثل زهرية كانت أمي إلتقطتها بقطعتي سو من السوق، قطعة من قماش كاليكو زاهية اللون، معلقة على النافذة، واللوحات بوجه خاص التي كانت سرعان ما تتكدس في كل مكان في البيت من دون أطر، بالطبع، لأنه كان لا يسمح الا بالأطر المحفورة من الخشب الصلب، (التي تكشف عن مهارة الحرفي). ذوق رينوار في إطارات اللوحات، كما في كل شيء، كان يدهش الناس الذين يفخرون بإمتلاك (ذوق جيد). كان هذا التعبير يزعجه، وعلى سبيل التحدي، كان يقول انه يمتلك (ذوقاً سيئاً). الألوان الزاهية، صارت الآن مقبولة في ملابس النساء، ربما جزئيا، بفضل رينوار، لكن، في أيامه، كان الريفيون فقط هم الذين يلبسونها، فالناس (الأنيقون) كانوا يرتدون ملابس قاتمة. الموقف نفسه كان يجري على إطارات اللوحات والأثاث الأنتيكة، إذ كان يتم الإعجاب بها لسماتها المميزة، لكن ألوانها، والألوان الذهبية، بوجه خاص تلاشت. أشار أبي إلى أن الإطارات كانت في الأصل جديدة، وكان القصد منها أن تكون لامعة (مثل الذهب). مرات عدة، كان يدعو نفسه لمتعة امتلاك إطار فاخر، مطلي بصفحة رقيقة من الذهب،

Twitter: @ketab_n

على سبيل المثال، إطار البورتريه، الذي رسمه لي في ملابس صياد، وما زال يدهش الناس ذوي (الذوق الجيد). انه إطار ايطالي من نهاية القرن السابع عشر اختاره رينوار بنفسه من محل أنتيكات في نيس. كان يرى، إن الإطار الضخم، هو ضروري لإبراز الصورة على نحو ملائم، (ولا سيما في غرفة استقبال في الميدي، حيث توجد أشياء كثيرة تغري العين).

قبل سطور أشرت إلى أوسكار وايلد. في ما بعد، وأنا في المدرسة الثانوية، أخبرني أبي، بأني نمت، أثناء فصل الصيف، في السرير نفسه الذي نام عليه وايلد في الشتاء. (لحسن الحظ لم يكن هذا في الفصل نفسه!). لم أفهم تلميحه الفكه، وسألته، ماذا يعني بذلك - وهكذا اكتشفت اللواط. ذكر لي عدداً من الأمثلة الشهيرة - هنري الثالث، الأخير من سلالة الفالوا، وبلا شك، رجل استثنائي، سقراط، يوليوس قيصر، فيرلين، رامبو. (كان يؤخذ عليهم أنهم يملكون إما ذوقاً استثنائياً، بشكل مذهل، وإما شخصية مزيفة، بشكل لا يصدق. الحقيقة، إنّهم كانوا تعساء، وعداء العالم قادهم إلى بلوغ أشياء عظيمة، في الأدب أو في السياسة). لم يمكنه تخيل رسام لواطي. (في الرسم توجد أصول في الصنعة لا تتفق مع اللواط، الذي هو حقاً أكثر من هواية بورجوازية لقتل الوقت). روى له لوسترنغي عن غارة للشرطة على مكان قرب البلاس دو لاباستيل، اعتقل فيها مجموعة من العاملين الشباب الشاذين. ذهل رينوار من الخبر، لكنه ما لبث أن وجد تفسيرا. (كل الأمر، هو خطأ باستور. مع لقاحه، وكل الأطفال الذين أنقذوا بواسطته، صار هذا الكوكب متضخما بالسكان على نحو خطير. ربما أرسل الله لنا اللواط كي يحافظ على توازن الأمور).

للعودة إلى الحديث عن أسفاره، أريد أن أروي قصة صغيرة أخرى. كان رينوار يرسم في يوليو تحت شجرة زيتون. كان الجو جميلا، وكان هو وزوجته تناولا غداءً شهيا في واحد من الفنادق، وشعرا بإسترخاء شديد. (ممتلئين

Twitter: @ketab_n

بالسعادة)، كما كانت أمي، بعد كل وجبة وبمزاج حسن، تعبر قائلة. كان أبي يحرز تقدما في المنظر الطبيعي الذي كان يرسمه. وكان يحس بأنه نجح في نقل القليل من الضوء الحي الذي كان يغمرهما، على قماشة اللوحة. فجأة، قدم حشد مرح، صاخب، من الباريسيين من محطة القطار القريبة، فوضع هذا نهاية لكل شيء. قبعاتهم القشية المثيرة للسخرية، وبلوزاتهم المبهرجة، وقوقأتهم وثرثرتهم، ومزحات الشباب السخيفة، كل هذا، كسر السحر. (الرجل العصري، سوقي. هكذا كان الرجال في الزمن الماضي، لكن الأمر كان مقصورا، في الأغلب، على النبلاء، وعلى البورجوازيين، الذين كانوا يقلدونهم ؛ البقية لم تتوفر لهم لذلك الوسائل). أتساءل، أحياناً، إن لم تكن مثل هذه الملاحظات تدل على شيء من مبغض البشر داخل رينوار، لكن فكرة مثل هذه سرعان ما كانت تدحض من خلال سلوكه العام، وعلى الأخص، من خلال رسمه. في الواقع، أنا الآن على يقين بأن العكس هو الصحيح. لم يكن يراوده أدنى شك بقيمة الجنس البشري، لكنه كان، على حد سواء، متأكدا من ان التقدم يحط من قدر البشر، عندما يحررهم من الأعمال المادية الضرورية للعقل أكثر من ضرورتها للجسم.

تجمعت زمرة الشباب حول رينوار، ظنا منهم، خطأ، انه رسام من أهل المنطقة، وسألوه لماذا لا يذهب للدراسة في باريس. كان أبي وأمي متعودان على هذا النوع من الأمور، ولأنهما لم يحريان جواباً، ما لبث الشباب الأدعياء أن كفوا عن إسداء النصيحة. عندئذ لمحت واحدة من الفتيات حقلا للخرشوف ليس بعيدا.

(أوه ! خرشوف بري !)، هتفت تخاطب الآخرين، مشيرة إلى الحقل، المحروث بعناية بيد فلاح مجتهد. إندفع الحشد كله بجنون نحو المكان. النباتات التي لن يجتثوها سحقوها بأقدامهم. أغاظ هذا التخريب أبي، وجعل دم أمي الفلاحة يفور، فحاولا إيقاف الهجوم، لكنهما قوبلا بقصف من الخرشوف، فقررا الفرار.

Twitter: @ketab_n

ولدت في الشاتو ديه برويار، في الخامس عشر من أيلول، ١٨٩٤، بعد منتصف الليل بقليل. حين رفعتني القابلة، صرخت أمي، (يا إلهي، كم هو قبيح ! خذيه بعيدا !) أبي، قال، (يا له من فم ! انه فرن، تماماً ! سيكون شرها). وآسفاه، نبوءته تحققت. صديق أبي، الرسام الكاريكاتيري آبل فافر، الذي كان يقضي الليلة في منزلنا، قال، بأني أصلح موديلا مثاليا له. إكتسب هذا الرجل، تدريجيا، ولعا حد العبادة لأبي، وبمعزل عن رسومه الكاريكتيرية، حاول أن يرسم بدرجات اللون الواضحة نفسها. صنوه، الرسام الكاريكتيري فوران، أطلق عليه لقب "الرينوار والعنب"(٧٨).

شاهد آخر على مجيئي للدنيا، كان ابن عمي يوجين، وهو ابن العم فكتور، وكان رقيبا في جيش المستعمرات. دكتور بوف دو سان بلاس قال إن أمي إجتازت المحنة على نحو باهر، وتنبأ بأنه ستكون لي بنية من حديد، وارتشف كأسا صغيراً من كونياك ايسوي، وذهب إلى بيته.

غابريال، كانت تراقب عملية الولادة، لكن لم يُسمح لها بالمساعدة بأي طريقة. قالت، (أنا أعتقد انه جميل). فضحك الجميع. كانت في الخامسة عشرة فقط، في ذلك الوقت. انها إبنة عم أمي، كانت جاءت من ايسوي قبل ذلك ببضعة أشهر لمساعدة أمي الحامل بي. بعد ذلك بسنوات، حين كنا، أنا وهي نلعب لعبتنا الصغيرة بالترحال في الماضي، أخبرتني، مرة أخرى، بأني كنت طفلا رائعا، وأضافت، (لسوء الحظ، أنك تغيرت). قالت أيضاً، (كان لا يسمع سواك في البيت. ومن هذا الجانب، لا تزال دائماً نفسك). ثم تحولت إلى زوجتي: (حصلت على زوج بلسان ذرب !).

عند معظم الفرنسيين كانت فكرة أن ترقد المرأة في المستشفى لإنجاب

---

(٧٨) إشارة إلى الحكاية الخرافية لفونتين. اسم رينوار، هو تحريف لكلمة رينار، وتعني ثعلب.

Twitter: @ketab_n

طفلها تبدو همجية. إذ ينبغي للوليد أن يجيء إلى العالم وسط بيئة مألوفة. من لحظة ولادته، يجب أن ينفتح عقله على عادات، وحتى المعتقدات الخرافية لأهله. طفل، يبدأ أول إتصاله بالحياة وسط الواقع البارد لمستشفى، يمكن أن يصبح نوعا من كائن غير ذي شخصية، لا يرث أوجاع رأس ماما، أو ولوع بابا بالسفر. أبي كان يفضل أن يولد الطفل في البيت، لأنه كان يعتقد ان المستشفى قبيحة جداً. (كم هو أمر مشؤوم أن تفتح عيناك على جدران مطلية بالريبولان "الطلاء الخزفي" !).

بغض النظر عن جاذبيتي التي كانت واضحة فقط لها، كانت ذكرى غابريال الأساسية عن يوم مولدي، هي ان أمي طلبت من مدام ماتيو، طباختنا وغسالتنا، أن تحضّر بعض الطماطم المحمصة، طبقا لوصفة كان سيزان أعطاها إياها. (فقط كوني أقل بخلا بزيت الزيتون)، نصحتها قائلة. فافر، لم يسبق له أبداً أن ذاق هذا الطبق. فكان مسرورا جدّاً به، حتى انه أتى على القدر كلّه، وكان على مدام ماتيو أن تقوم بتحضير حصة أخرى من الطعام على المائدة. لم يكن يحس بالجوع، إذ كان قلقا على نحو مروّع لا على طفله، بل على زوجته. بعد أن ولدت بيير، وقبل أن تلدني، تعرضت أمي إلى حالة إجهاض. أمام فافر وغابريال، أخذ أبي يتهم نفسه بالانانية. (لا أصدق أني وضعت آلين في تلك الحالة، ومن أجل ماذا؟ بضع دقائق فقط من المتعة). فأجاب فافر وفمه ملآن بالطعام، (لا تقلق يامعلم، ستفعلها ثانية)، هز ابن عمي يوجين كتفيه إستهجانا، لأنه كان نفورا من أي جهد جسماني، وأنهى صحنه من الطماطم الذي أكله بحذر شديد. بعد أن رطب فمه بنصف قدح من النبيذ الممزوج بالماء، بسط رجليه، ومال إلى الخلف على كرسيه، وأغمض عينيه. كان رجلاً وسيما، على جانب من الطول، وتقاسيم وجهه منتظمة يزينها شارب مشذب، على الأسلوب العسكري، وخصلة صغيرة من الشعر تقع تحت شفته السفلى.

Twitter: @ketab_n

عُمّدت في كنيسة سان بيير دو مونمارتر. وكان عرّابي جورج دوران – رول، وعرّابتي جين بادو، التي كانت تبلغ، وقتذاك، السادسة عشرة فقط. هي إبنة لرئيس الأطباء في شركة السكك الحديد الغربية، ولدهشة والديها العظيمة، إذ أحسّا انها دجاجة فقست عن فرخ بط، إتخذت الرسم مهنة لها، وأعجبت رينوار.

بيتنا، في الشاتو ديه بريوبار، كان يحمل الرقم ٦، في صف من المساكن، في ١٣ رو جيراردون. كان يتألف من طابقين علويين، إضافة إلى العلّية، التي تحولت إلى مرسم. الحديقة، وهي بعرض خمسين قدما طولا وخمسة وسبعين قدما عرضا، تحتوي على أجمة ورود وشجرة فاكهة واحدة. المجاز الرئيسي، الذي يقود إلى البيت، فيه درج بأربع أو خمس درجات حجرية. الدرابزين صُبغ باللون الأسود. الرواق الأمامي، ينتهي بسلم يفضي على اليسار إلى غرفة الإستقبال، وعلى اليمين إلى حجرة الطعام. في الخلف، كان المطبخ، و حجرة حفظ الأطعمة. السلم، الذي كان دائريا، كما في برج، يعطي المطبخ، الذي خلفه، شكلا غير مألوف. كانت الدرجات عريضة، بشكل مريح، لكنها تضيق عندما تنزل إلى القبو. صبغ أبي جدران الغرف باللون الأبيض، والأبواب بلون تريانون الرمادي، كما كان يفعل في أي مكان سكنه. كان يتملكه هاجس بشأن تحضير لون تريانون الرمادي، مصرّا على انه يجب أن يحتوي على أفضل نوعية من زيت بذر الكتان، والأبيض يجب أن يكون ممزوجا مع الأسود الحيواني والأسود القرنفلي. النقيصة الأساسية، التي وجدها في الأسود القرنفلي، انه يجعل الرمادي يبدو مفرط العاطفة، بإعطائه درجة لون ضاربة للزرقة.

الغرفة الأكبر، كانت بحدود إثنا عشر قدما بخمسة عشر. في حجرة الطعام، رسم رينوار أشكالا من الأساطير على بعض الألواح الزجاجية للنوافذ، بألوان نصف شفافة. لا أعرف أين صارت هذه الألواح. الطابقان

Twitter: @ketab_n

العلويان، مقسمان بمخطط الطابق السفلي نفسه. كانت أمي تنام في الطابق العلوي، فوق حجرة الطعام ؛ أخي بيير، عندما كان يأتي من المدرسة أيام السبت، ينام فوق غرفة الإستقبال؛ غابريال، فوق المطبخ. كان هناك نوع بدائي من الحمام، فوق حجرة حفظ الأطعمة. كان عبارة عن غرفة عادية، جهزت بمصرّف للمياه، ولتفريغ الماء القذر. كنا نغسل وجوهنا في حوض موضوع على طاولة من الرخام. كانت الحمامات الإعتيادية تشتمل على أحواض مدورة من الزنك، عمقها حوالى قدم واحد. كنا نغسل أجسامنا بإسفنجات كبيرة. وكما قلت في السابق، كان علينا جلب الماء من المضخة المقامة على مدخل الطريق الرئيسية. كان رينوار ينام في الطابق الثاني، بجوار غرفة الضيوف. في الخلف، فوق غرفة غابريال، بقيت غرفة أخرى لخادم، متى ما إستدعت الحاجة لمساعدة إضافية.

البعض من جيراننا ما زالوا عالقين في ذاكرتي بشكل واضح، أما البعض الآخر، فأتذكر منهم وقع صوت، أو بعض الإيماءات. أكثر ذكرياتي الحية عن الشاتو ديه بروبار لها صلة بزيارة قمنا بها إلى هناك، بعد أن تركنا المكان، وكنت كبيراً بما يكفي لإدراك ما يدور حولي. أتذكر كم كنت برما بالترحيبات الضاجة التي إستقبلنا بها جيراننا السابقون. (انه ولد كبير الآن. أنا متأكدة انه لم يعد يبلل فراشه !). حاولت الإبتعاد عن ملاطفات الكبار هذه، والإنسحاب إلى الركن المنعزل الذي كنا نلعب فيه نحن الأطفال. كان لدي إحساس دائم أن البيت ما زال ملكنا، وذهابنا بعيداً إلى شارع روشفوكو كان في زيارة فقط. أتذكر أني أجهشت بالبكاء عندما رأيت رجلاً غريباً يصل، ويخرج مفتاحا من جيبه، ويدخل البيت، كما لو كان منزله هو. كي تواسيني أعطتني مدام بريبان صحنا صغيراً رسم عليه تخطيط ما. كان هدية، أثرت بي بعمق، لأني كنت أعرف أن أبي،، كان يرسم على الصحون. الأمر الذي سأتحدث عنه، كان قبيحا جداً، لكني أعرف ان الأطفال، حتى اولئك الذين ترعرعوا في لوحات رينوار، ليس من السهل صدمهم بالقباحة.

Twitter: @ketab_n

أتذكر بوضوح شديد، ان مدام بريبان، عندما أعطتني الطبق كانت، ربما، فوق الستين من العمر قليلاً، مع ذلك، كانت تبدو لي عجوزا على نحو خارق. كانت ملابسها على الموضة القديمة للإمبراطورية الثانية، قبل أن تحل التنورات المنتفخة، المثبتة بأسلاك. ما زال بوسعي رؤية عصابة رأسها، في كتلة من الكشكش الأسود، في حديقتها، قادمة نحوي ببطء، حاملة الصحن في يد، ومظلة خفيفة في اليد الأخرى. تثب امامها كلبتان رماديتان صغيرتان، فينيت وفالا، تنبحان نباحا عاليا. حين سمع أبي الصوت الحاد الصادر عنهما، قال انه يستحسن العادة الصينية بأكل الكلاب. كان الإبن، موريس بريبان، يتخلف وراءها، لكنه أومأ بيده نحوي، وفهمت انه سيأتي في ما بعد ويتحدث معي، حالما تغادر أمه. كان في الأربعين من العمر حينذاك، بدين، أصلع، ودمث جداً. عندما لمحت إبنها، أشارت له مدام بريبان أن يقترب، فجاء على مضض. (يجب أن تعطي جان الصغير حقنة شرجية كل يوم)، نصحت مدام بريبان أمي. (الأطفال يصابون بالإمساك. هكذا، كان صغيري موريس)، كشّر (صغيرها موريس) ومشى منصرفا إلى طرف الحديقة. صادف أن مرّت إبنة الجيران، من أسرة فاري، فاقترب منها، وكي يظهر كم هو مستقل في سلوكه، أخذ يهمس في أذنها، وجعلها تضحك.

بنات آل فاري، كنّ يعشن مع والديهن في واحدة من البيوت الصغيرة في أسفل المنحدر، في البلاس دو لافونتان دي بوت. كنّ جميلات، وكثيرات جداً، يعجز المرء عن عدّهن. إحداهن، وكانت في مثل عمري، كانت تأتي، لتلعب معي. عائلة فاري، الأبوان والبنات، كانوا كلهم موديلات للرسم. وقف عدد منهم أمام أبي لرسمهم. إبتسمت مدام بريبان بسيماء العارفة. (موريس يفعل بالضبط ما يحلو له)، قالت. (هاهو يتحدث مع واحدة من تلك البنات. كما لو كان هذا يؤثر فيّ!) في السنوات الأخيرة، كنت غالبا ما أتساءل، كيف كان موريس شجاعا بما يكفي لبناء جدار آجري، فاصلا غرفته عن غرفة

Twitter: @ketab_n

أمه. لا بد انه تظاهر بأن الدافع وراء بناء الجدار هو الحب البنوي، لأنه يثير الكثير من الضوضاء، عندما كان يفط في النوم، والجميع يعرف ان نوم مدام بريبان كان خفيفا.

بالإضافة إلى الكلبتين، كان لدى مدام بريبان طيور أثيرة. ذات يوم، جاءت إلى البيت، وأخذت غابريال جانبا، تهمس في أذنها: (لقد ماتت فيفي للتو. لا تخبري مدام رينوار، قد يكون هذا صدمة محزنة لها). فيفي كانت واحدة من طيور الكناري. كانت مدام بريبان ثرية جداً، حصلت على كل الملكية التي تحيط برو سان فنسان. الأرض، التي على الجانب الآخر من الشاتو ديه بروبار، تعود إلى الأب غريي. كانت مدام بريبان خسرت كل شيء في دعوى قضائية غبية. طبيعتها المستبدة جرّت عليها المتاعب، لكنها لم تبال، لأنها، بالأحرى، إستمتعت بالتعقيدات القانونية. من ناحية أخرى كانت تمتلك ما يعرف، بقلب من ذهب، وهي واحدة من آخر العينات من طبقة بورجوازية، كانت في ما مضى عظيمة.

بوابة المبنى، كانت تدعى "الماركيزة" دو بيّبري. كان زوجها يتحدر من عائلة نبيلة. واحد من أسلافه كان قد تضرر كثيرا، سوية مع مسيو دو بومارشيه، مؤلف "زواج فيغارو" في قضية تورّط فيها بتجهيز أسلحة إلى المستوطنين الأمريكيين في زمن الثورة الامريكية. السيد نفسه صار موضع شبهة، في ما بعد، بسبب أفكاره الثورية المغالية، وأيضاً، بسبب صداقته مع بروسبير ومارا. قيل انه كان مسؤولاً، جزئياً، عن فقدان عدد من أبناء طبقته الارستقراطية لرؤوسهم تحت الشفرة. هو نفسه، أُعدم، في ما بعد، بالمقصلة، بعد سقوط " المونتانيا ". بعد عودة الملك لويس الثامن عشر إلى السلطة، قرر بأن تصرّف هذا النبيل كان سببا جيدا وكافيا لعدم مساعدة أرملته وأطفاله. كانوا تدبروا الإحتفاظ بأملاكهم في عهد نابوليون، لكنهم أرغموا، شيئاً فشيئاً، على بيعها لضمان عيشهم. آخر فرد من آل بيّبري هو

Twitter: @ketab_n

رجل رائع، شغف به أبي جداً. كان يعمل موزعاً للبضائع لمحل ديفال[٧٩]، وكان راضياً تماماً بنصيبه في الحياة. كان، عندما ينهي عمله، يحب تدخين غليونه في حديقتنا، ويراقب رينوار وهو يرسم. لم يكن يعلق أبداً على اللوحة، لكنه يتحدث، طوعا، عن جولاته اليومية، واصفا الزبائن، الذين سلّم اليهم بوفيه من عهد هنري الثاني، أو واحد من الفوانيس، من الحديد المطاوع المقلد والزجاج الملون، الذي كان الكاتب المسرحي كورتولين مولعا به جداً. هذا النوع من الأحاديث، كان يوافق رينوار تماماً، لأنه كان يحس بالراحة بالرسم وسط الناس الذين لايعنون الا بشؤونهم ولا يحاولون التدخل في شؤونه. كل فترة إقامة أبي في الشاتو ديه برويار كانت مثمرة. قال لي رينوار نفسه ذلك. إذاً، لو تذكرنا إنتاجه الوافر المألوف، يمكننا أن نتخيل الكمية غير العادية للرسوم التي أنجزها في هذه الفترة. كان المكان يلائمه.

كان مسيو دو بيّبري ينظر إلى لقبه بشيء من البغض. كان دائماً يهز كتفيه بلامبالاة، عندما يشير اليه أحد ما أمامه. (دعنا لا نتحدث عن هذا الأمر). زوجته البوابة، من جهة أخرى، كانت غير هيّابة نوعا ما من هذا الأمر. لأنها تنحدر من بيئة عادية جداً، فكانت تميل إلى تأكيد نفسها. كانت، بعد أن تفرّغ النفاية، تضع على كتفيها عباءة تتدلى حتى الأرض، كانت شائعة وقتذاك، وتمشي ببطء نازلة الدرب، تهوي نفسها بغير قصد. ذات يوم، إلتقتها مدام بريبان، فقالت لها مؤنبة، (مدام لا ماركيز، أنت تكنسين قذارة كلبي، بهذه التنورة الطويلة، التي ترتدين)، فما كان من مدام دو بيّبري، وقد نست نفسها، الا وأنفجرت بضحكة صاخبة. الصحفي والشاعر بول الكسي، (كان مفعما بالحياة، شهما، ومرحا دائماً وحماسيا)، وكان صديقا كبيراً

(٧٩) متجر شهير وقديم، ذو أقسام متنوعة، وهو الأول من نوعه في فرنسا، الذي كان يستخدم نظام الدفع بالتقسيط.

Twitter: @ketab_n

لزولا الذي كان يجيء كثيراً لرؤية ابي، في تلك الفترة. لم ينس رينوار موقف الروائي تجاه سيزان، لكنه كان يفعل ما وسعه لإخفاء مشاعره. كان يخشى الإساءة إلى الكسي، لأن زولا بالنسبة اليه، إله حقيقي. بعض من أعداء الكسي روجوا إشاعة عنه كونه تعرّف على زوجته في بيت دعارة. لم يصدق رينوار حرفا منها. كان يكن إحتراما عظيما لمدام الكسي، (امرأة ذات رفعة نادرة)، وكان دائماً يرد على الألسنة الحقودة بالقول، اذا كانت الإشاعة حقيقية، فإنها تزيد زوجها شرفا. كان للزوجين الكسي إبنة صغيرة جميلة جداً، وقفت كثيراً أمام أبي ليرسمها. بنات مسيو لفيفر، جار لنا، كان عازف فلوت في دار الأوبرا، يمكن رؤيتهن في اللوحة التي تحمل عنوان "فتيات صغيرات يلعبن الكروكيه". جارة أخرى، فتاة صغيرة، كان رينوار يحب رسمها، هي ماري ايسمبار. كان والدها معلما في واحدة من المدارس الثانوية الباريسية.

أبعد من شارع جيراردون، هناك عائلة كنا نلتقي بها كثيراً: عائلة كلوفيس هيوز (جنوبيون مثاليون)، الزوج، كان كاتباً ونائباً في البرلمان عن مونمارتر. كان أبي يراه (رجلا إستثنائياً، وفصيحاً جداً)، وقال انه لو كان أقل بوهيمية، لأصبح رئيسا للجمهورية. (لكن تفضل: في السياسة، عليك أن تكون منافقا، بلا شخصية، وتتكلم بنبرة وقورة. فقط الشخص المعتدل هو الذي لا يرهب الناس). قبل نحو عشر سنوات، تورط آل هيوز بفضيحة شائنة. كانت مدام هيوز أطلقت عيارات نارية عدة، من مسدس، على رجل، كان يضايقها بالإبتزاز. حوكمت، وبعد حملة كبيرة من الدعاية السيئة، برئت من التهمة. لكن القضية سرعان ما طواها النسيان، ولم يعد أحد يتحدث عنها في الشاتو ديه برويار.

في ذلك الوقت كان كلوفيس هيوز يزوّد رينوار بكل الأقاويل التي تدور حول الجيران. المعادون لرجال الدين، أثاروا نزاعا حول كنيسة ساكري كور التي بنيت لتوها. كانوا إقترحوا، كتعبير عن الاحتجاج، تسمية الشارع

Twitter: @ketab_n

المؤدي إلى الكنيسة باسم شافالييه دو لابار الذي عُذب وأُعدم في ابيفيي قبل خمسة وعشرين عاما من الثورة الفرنسية، لأنه لم يحَيي موكبا دينيا، وغنى أغنية فاحشة عن مريم المجدلية. إعتقد كلوفيس أن الكثير من الأهمية أسبغ على ذلك (الشاب الطيب). (اسم ضعيف العقل أمام كنيستهم! كان يجب أن يطالبوا بتسمية الشارع على اسم فاتح. لم لا يكون بروسبير؟ فهوعلى الأقل أخرج المسيح من نوتردام بفتاة جميلة ترتدي لباس آلهة الحكمة. اسم بروسبير ما زال يثير الفزع في الاكليروس).

الجزء الذي أمتع أبي في قصة كلوفيس، كان في الطريقة التي يطلق فيها اسم بروسبير من حنجرة ابن البلدة المتوسطية هذا. (كان الاسم يتردد مثل قرع الطبول، كما لو كان هناك عشرة راءات، بدلاً من إثنتين). مدام هيوز، كانت نحاتة هاوية، وتصبغ شعرها بالأحمر. ميراي هيوز،، عمرها إثنا عشرة عاماً، تبدو في لوحة " فتيات صغيرات يلعبن الكروكيه " سوية مع بنات لفيفر. ذات يوم جاءت لرؤية أمي، وجانب من شعرها مصبوغ بالأحمر الفاقع، والجانب الآخر كان في لونه البني الطبيعي. كانت تحاول أن تصبغ شعرها بالأحمر، لكن لم يعد الصبغ يكفي. برغم أن هذه الصبية ولدت في باريس، لكنها حافظت على لهجتها الجنوبية، لهجة أهل الميدي. كانت مفعمة بالحياة، وتلعب مثل المجانين، تسقط، ثم تنهض مغطاة بالخدوش والكدمات. ذات يوم، وكانت تراقب جنازة مارة في الشارع، إتكأت على النافذة في الطابق الثالث، وانحنت أكثر مما يجب، ففقدت توازنها وسقطت على الأرض. أنهضت نفسها، وهي تضحك، بالطبع آذاها الحادث، لكن كبرياءها منعها من الاعتراف بذلك. (انها هرّ)، قالت عنها أمي. (إنها قطة)، رد أبي، (هذا الوصف، يلائم الفتاة أكثر). أثناء الحرب العالمية الأولى قامت بأعمال بطولية، فاستحقت وساما. كنا نرى ماريان، الإبنة الأخرى من آل هيوز. كانت بالغة، تقريبا، واعتادت أن تزورنا، حين يسمح مزاجها بذلك. كان العاطلون في الشارع ينظرون شزرا إلى ثوبها المخملي السماوي الذي كان

Twitter: @ketab_n

يتباين تباينا غريبا مع جورابها المثقوبة. الإبنة الثالثة، بلانشيت، كانت تهتم فقط بالموسيقى. كان يشاع ان لها علاقة مع مغني تينور في الأوبرا كوميك. الأخت الرابعة تدعى مرغريت. السيماء "الفنية" التي قامت فتيات هيوز بإضفائها على أنفسهن، أثارت الكثير من النقد في الحي، لكن رينوار كان له رأي حسن فيهن، وحتى بعد سنوات، كانت إبتسامة حزينة تطوف على وجهه، متى ما تذكّر تلك الجيرة الفاتنة. (كن جميعاً فتيات صغيرات طيبات، يعشقن الفرح، ويذهبن للرقص في المولان دو لاغاليت). متذكرا مودة أبي لهذه العائلة، عدت، متلهفاً، بعد ربع قرن، إلى لقاء ماريان، وكانت تدير مطعماً في بولفار كليشي.

ذات صباح، حدثت مأساة في منزل هيوز. عندما كان الأب يرتدي ملابسه للذهاب إلى مجلس النواب، لم يتمكن كلوفيس من العثور على فردة حذائه الجلدي اللماع. فخرج مندفعاً من البيت في الجوارب، وركض في أرجاء الحي، وهو يومئ بفردة الحذاء، صارخاً في مناداة الفردة الأخرى. كان سبب المأساة مشاجرة حدثت بين بناته، فأخذن يرمين بعضهن بأشياء البيت، بما فيها فردة الحذاء موضوع الحادثة التي وثبت من النافذة. في النهاية، اكتشفت مطروحة في كومة من أوراق الشجر اليابسة، أمام باب بيت مدام بريبان.

ساكن آخر من شارع جيراردون، هو العالم بالآثار المصرية فوردون. كان يأتي لاستنشاق الهواء النقي تحت أشجار الشاتو ديه برويار. يقال عنه انه رجل مهذب ولطيف المعشر، لكن كانت له طريقة في التربيت على خدي بإيماءة مودة، تجعلني أفور غضبا.

بين الشخصيات المألوفة الأخرى، كان هناك امرأة تبيع الصحف. لها أخت ضعيفة العقل، في الأربعين من العمر، تدعى بلانشيت، إعتادت أن تلعب لعبة عصا العمى، مع كل الفتيات الصغيرات. كان هناك، أيضاً، مسيو

Twitter: @ketab_n

لوبوف، منجد الأثاث الذي تزوج من مدموزيل تدعى لوفو [٨٠]. المصبغي، كان سكرانا على الدوام.

كان مفضلا جدّاً عند أمي وغابريال، لأنه يتكلم بلهجة نييفر، القريبة من لهجة ايسوي. لكن ذات يوم، عندما أوقع الغسيل في البالوعة، قررت أمي، انه حان الوقت للإفتراق. صرفته من العمل، وجلبت عائلة ماتيو إلى منزلنا.

في الهضبة كان الناس لا يدعو أحدهم الآخر إلى الغداء أو العشاء ابدا، لكنهم كانوا يقولون، (طبخت اليوم صلصة لحم البقر. أيثير هذا شهيتك؟). إذا كان الجواب نعم، كانوا يضعون، ببساطة، صحنا إضافيا على المائدة. هذه الأيام، تقام التحضيرات للدعوة مقدما، فالناس يتصلون هاتفيا، ويدعون الأصدقاء، الذين هم، على الأرجح، منسجمون معهم، وهكذا، يتم تفادي الإرباك. ان الأمر يعادل، تقريبا، مناورة دبلوماسية.

السيدات اللواتي كن يسكنّ في الشاتو ديه برويار، لم يكن يملن إلى اللقاءات الإجتماعية. لكن في المناسبات، كانت الواحدة منهن تثب إلى مطبخ جارتها، وتطلب غصينا من البقدونس الإفرنجي، أو تجلب هدية من النبيذ، كان زوجها عبأها بالقناني للتو. كانت الجماعة حرّة تماماً من الإستبداد الرتيب، الذي كان منتشرا في أغلب التجمعات الإجتماعية. إمالة القبعة الذي يقوم به السادة إحتراما للسيدات، وإنحناءات التبجيل التي تقوم بها الفتيات الصغيرات للكبار، كانت الطريقة الباريسية للقول، مثل ماولي: (نحن من دم واحد، أنا وأنت).

---

(٨٠) كلمة لويوف، في الفرنسية، تشابه كلمة le bœuf (الثور)، وفي كلمة لوفو، مقطع فو (veau)، يعني عجل.

Twitter: @ketab_n

٢١

لنعد الآن إلى الفترة التي كانت والدتي فيها حاملا بي، قبل وقت قصير من ولادتي. كانت قد راودتها، فجأة، فكرة جلب إبنة عمها إلى باريس لمساعدتها في أمور المنزل. كانت إبنة العم هذه، غابريال رينار، في الخامسة عشرة من العمر، في ذلك الحين. لم تكن وضعت قدماها أبداً خارج بلدتها. تلقت تعليما جيدا على يد الراهبات، وكانت تعرف كيف تخيط وتكوي الملابس. كان أبوها وراء تعليمها الديني، لأنه أراد أن يغيظ المعلم العلماني في البلدة الذي كان، حسب رأيه، مدّعيا كثيرا.

التعليم الذي تقدمه الراهبات كان، ببساطة، مكملا للدروس التي تعلمتها الصغيرة غابريال في وسط العائلة. في سن العاشرة كان بإمكانها أن تحدد سنة إنتاج أي نبيذ، وتمسك سمكة السلمون بيديها، من دون أن تدع حارس الصيد يقبض عليها، وترعى الأبقار، وتساعد في فصد دم الخنزير، وتجني الخضار للأرانب، وتجمع الروث الذي تطرحه الخيول القادمة من الحقول،والتي عندما كانت تسقطه على الدرب الأبيض، يندفع اليه حشد من المتنافسين يجرفونه ويجمعونه في دلاء. كان كل فتى في ايسوي يفخر بكوم السماد الذي يملكه أهله، والذي يحتل الفناء، ويتلهف لجلب مؤونة طازجة منه. كان ينجم من منافساتهم معارك ملحمية، وكان لغابريال فيها سبق

Twitter: @ketab_n

النصر، لكن بعد أن تغدو ملابسها خرقا ممزقة. كانت امها التي لا تقدر القيمة الجمالية للغنيمة، تنهي الحدث بصفعات على أذنيها. أيدي الوالدان كانت دائماً جاهزة للأداء في ايسوي. كان الصغار غالبا ما يُصرَفون وهم يعوون، لكنها، مع ذلك، كانت صحية لهم. كانت غابريال لا ترتدي حذاء ابدا، عدا في الصباح، حين تذهب إلى مدرسة الراهبات، وتخلعه حالما تغادرها في الظهيرة. عندما كانت الراهبات يلتقينها في الشارع، كن يقلن لها ان الفتاة الصغيرة التي تسير بأقدام عارية لن تكبر أبدا، لتصبح مثل مدموزيل لومرسييه، وهي فخر القرية، التي كانت ترتدي "فواليت" (غلالة وجه)، والتي أكملت تعليمها، وستتزوج من كولونيل. كانت غابريال ترد عليهن، بأنها لا تملك أدنى رغبة بأن تصبح مثل مدموزيل لومرسييه. من المعتاد ان الراهبات كن ينجحن، إلى حد ما، بإعطاء تلميذاتهن مظهرا براقا من حسن السلوك والهيئة، لكنهن، مع غابريال، فشلن تماماً.

كان والد غابريال صياداً عظيماً. في الشتاء، غالباً ما كانوا في بيت رينار يأكلون الخنزير البري. كان الأولاد يتنازعون حول من يملك أولاً الخطم، بإعتباره الجزء المرغوب أكثر. لتهدئة النزاع كان مسيو رينار، في النهاية، يحتفظ به لنفسه؟ ذات يوم، جلب حلّوفا بريا صغيرا، ولم يمض وقت طويل حتى صار رفيق غابريال المفضل. وعندما كبر كانت تأخذه بجولة ممتطية ظهره. كان المخلوق يعدو، نازلا الدرب، مارا بالكنيسة، وفي الأخير يرمي فارسه أرضا، فتسقط غابريال في الطين. فكانت، بالطبع، تتلقى صفعات محترمة، عندما تعود إلى المنزل. لكن العقاب لم يكن يؤثر بها أبدا. كان للأطفال، في ايسوي، حيلة يستخدمونها متى ما تلقوا عقابا بهذه الطريقة. كان الواحد منهم يميل برأسه إلى الخلف، في اللحظة المناسبة تماماً، وبهذا، تكون قوة الضربة أقل إيلاما، وبالوقت نفسه يطلق صرخة ألم قطة محروقة. كانت الأم، عندئذ، تعود، وهي راضية، إلى مشاغلها، الأكثر سرورا، مثل سرد

Twitter: @ketab_n

القصص للجيران عن الحوادث والأمراض، مع تفاصيل شنيعة عن ولادة طفل، أو عمال كروم سحقوا تحت عجلات عربة ثقيلة، أو صبيان غرقوا في المياه السوداء لقناة الطاحونة، وهلم جرًا. كلما كانت القصة مرعبة، أصاب الراوي نجاحا كبيرا.

رفيق غابريال المدلل غدا، أخيرا، خنزيرا ضخما، وذات مرة مُنع في الوقت المناسب من نزع أحشاء بقرة، لم تعجبه. فصار من الضروري قتله وتحويله إلى لحم ومقانق.

في يوم من أيام الآحاد، ذهبت غابريال مع امها إلى القداس. شاعرة بشيء من الحرج بثوبها الضيق، دعيت إلى توزيع خبز القربان مع القس. لكن هذا لم يمنعها، في ما بعد، من الإلتحاق بالصغار الآخرين الذين تبعوا القس إلى الشارع، ساخرين منه، بتقليدهم نعيب الغربان. كانت ايسوي تفخر بتقاليدها القديمة في معاداة الاكليركية. كانت النساء تذهبن إلى الكنيسة، لكن الرجال نادرا ما وضعوا قدما فيها. في الواقع، كانت ايسوي واحدة من القرى القليلة التي ما زال الرجال فيها يؤدون طقس التجمع في الساحة، امام الكنيسة، في الجمعة العظيمة، وهم يتناولون شرائح اللحم والمقانق، كي يظهروا بأنهم تجاوزوا المعتقدات الخرافية للقرون الوسطى.

وصلت غابريال إلى باريس في ليلة صيف في ١٨٩٤. جلبتها أمي من المحطة، غار دو ليست. كانت غابريال تعرف أبي، قبل ذلك، إذ رأته مرارا في ايسوي. حين شاهدت الشاتو ديه برويار هتفت، (عندكم حديقة جميلة ! لكن لا يوجد كوم روث!). في الصباح التالي، ولأنها لم تحضر على الفطور، طرقت أمي بابها، لكنها لم تكن هناك. كانت غابريال في الخارج، منذ وقت طويل، تلعب مع الأطفال في الشارع. رأت أمي أن هذا يعني فألا سيئا. لأنها اعتمدت على غابريال في اللعب معي بعد مجيئي إلى الدنيا، إذ لم تكن لها ثقة بأحد للعناية بأولادها وتحضير طعامهم.

Twitter: @ketab_n

بعد بضعة شهور، في بداية ١٨٩٥، أصبت بالإلتهاب الشعبي. كان الجو شديد البرودة، وجدران الشاتو ديه برويار لا تقي الا قليلاً من ريح الشتاء. لأسبوع كامل لم تذق غابريال ولا أمي للنوم طعما. في حين، كانت الواحدة منهما تجلب الحطب، كانت الأخرى تعد القماط، كي تحفظني دافئاً. كنت أُحمَل بإستمرار على ذارعيهما، لأني ما أن أمدد على الفراش، حتى أختنق. في النهاية، قررا أن يعلما أبي الذي كان، وقتذاك، يرسم في لاكورون، قرب مرسيليا، مع جين بودو ووالديها. عندما علم أبي ترك لوحته وفراشيه، وهرع إلى المحطة، من دون أن يأخذ حتى حقيبته، وقفز إلى أول قطار مغادر إلى باريس. وصل إلى البيت في الوقت المناسب، ليريح المرأتين المنهكتين. بفضل حب أولئك الأشخاص المخلصين الثلاثة، تجاوزت أزمة، كادت أن تودي بحياتي. مع هذا، حالما مرّ الخطر، لم يحدّثني أحد منهم، في ما بعد، عن المحنة. ولولا غابريال، لما عرفت أبداً شيئاً عنها.

واحدة من أكثر صفات أبي وأهل بيته تأثيراً في النفس كانت تحفظهم. كانوا ينفرون من أي إظهار واضح للعواطف الشخصية. كان رينوار على إستعداد، ومن دون تردد، للتضحية بحياته، من أجل أولاده، لكنه كتوم، على نحو مبالغ فيه، في كشف مشاعره الخاصة إلى أي كان وحتى إلى نفسه، ربما.

أما عندما كان أبي يجلس أمام حامل لوحته فتلك مسألة أخرى. عند ذاك لا يشعر بأي تقييد. باللمسات الحادة، لكن الرقيقة، لفرشاته، كان يداعب بفرح عظيم غمازتا الخد، أو الغضون الصغيرة لخصر طفله، ويصرخ بأعلى الصوت بحبه في وجه الكون. كان جلّ ما يخشاه أن يرى الناس مشاعره وقد بلغت حد الذعر، وكان هذا يحدث عندما ينتابه القلق على أطفاله. كل شيء مسّ أعماقه يحتفظ به داخل نفسه. حين جلب الشاعر والسياسي ديرولييه معه، في عودته إلى فرنسا، حفنة من تراب الالزاس قال رينوار: (أنا لا أحب هذا النوع من الأشياء. إذا ما وجب على وطنيتنا أن تجنح إلى الدعاية، فكل شيء في حكم الفاسد).

Twitter: @ketab_n

نتيجة لأحاديثي العديدة مع غابريال حول الشاتو ديه برويار، حيث عشت حتى الثالثة من العمر، من الصعب معرفة أي من الذكريات الخاصة بي، وأي الخاصة بها. كانت تؤكد لي أنه لا يمكنها النسيان أبدا. قالت لي، (أنا أتذكر عرس اوغست فيليب، في ايسوي، عندما تزوج من فرجيني مانجيه، ولم أكد أبلغ السنتين ونصف السنة من العمر. بالطبع، لا يمكن أن تكون أبلها جداً. هناك بعض الناس، مثل الخراف، لا يمكنهم الرؤية أبعد من أرنبة أنوفهم). (لكنني)، أجبتها، (أصبت بالإلتهاب الشعبي وأنا في عمر الست شهور فقط. ألا تظنين بأني كنت صغيراً جدّاً ؟). (ربما تكون نسيت إلتهابك الشعبي هذا، لكن من المؤكد انك لم تنس الشاتو ديه برويار. ألا تتذكر المطبخ الذي كان مدورا، وكأنه برج؟ وكيف كنت طفلا مشاكسا، حين كنت أطوف بك، أحملك على ذراعي؟ والبنت في البيت المجاور لنا، التي كانت تلثغ في الكلام، وتدعوك "دان الصغير الجميل"؟ وكيف كنت تبتسم لها، وتقدم لها ذراعيك...).

كانت تشير إلى ابنة ايتييه الصغيرة التي كانت، حينها، في الثالثة من العمر. ابواها، اللذان عاشا في رو جيراردون، كانا من الشمال. مسيو ايتييه كان يعمل في واحدة من الوزارات. كان ذلك في الأيام التي بدأ فيه رواج الدرجات الهوائية، واكتشف الفرنسيون لتوهم "الملكة الصغيرة"، كما كانت تدعى الدراجة في سنوات التسعينيات البهيجة، وكل فرد، كان يندفع خارجاً لركوبها على الدروب المغبرّة. مسيو ومدام ايتييه، شاركا في هذا الهوى الوطني. كلما أتيح لهما الوقت، كانا يمتطيان درّاجتهما، ذات المقعدين، ويسابقان بها الريح بحثا عن آفاق جديدة. كان هو يرتدي النّكرّز[٨١] وجوارب تصل للركبة، على الأسلوب الانكليزي، وهي ترتدي البلمر[٨٢] المصنوع خصيصاً للدراجات

---

(٨١) بنطال قصير واسع مزموم عند الركبة.

(٨٢) ثوب نسائي، مؤلف من تنورة قصيرة وسروال طويل فضفاض، مزرر حول الكاحل.

Twitter: @ketab_n

والذي كان، في ذلك الحين، آخر صيحة للنساء الرياضيات. كانا يضعان إبنتهما الصغيرة على مقود الدراجة. كان أبي، الذي قضى كل حياته قلقا على الأطفال، يرتعش من سماع هذه الفكرة. ثم، ذات يوم، إنزلقت دراجة آل ايتييه، ورمت ركابها الثلاثة، وتدحرجوا على طول الجسر الشديد الإنحدار. حين نهض الأبوان، اكتشفا انهما مغطيان بالخدوش، أما البنت الصغيرة، فانفلق رأسها وقتلت في الحال. ما زال التأثر يغمر غابريال عندما تتذكر المأساة، برغم مضي أكثر من ستين عاماً.

(كانت حلوة جداً، في الطريقة التي تقدم إليّ فيها، على أطراف أصابعها، خشية إيقاظك من النوم، وتهمس لي، "أرجوك، دعيني أنظر إلى صغيرك الجميل دان").

كنت طفلاً مفسداً جدّاً بالدلال. برغم استهجان أمي كانت غابريال تحملني في كل مكان تقريباً. مشهد رؤيتنا، نحن الإثنان معاً، في شوارع مونمارتر، كان مألوفاً، حتى إن فافر استخدمنا كموضوع في العديد من رسوماته في مجلة "لورير" التي هو واحد من نجومها الفنيين. كانت غابريال تريها لي، وتقول، (هذا ليس أنت حقاً. أنت أجمل بكثير!).

بعد موت بنت ايتييه الصغيرة، بدأت أتصرّف على نحو سيئ تجاه أي شخص يقترب مني. كنت أتسامح مع الأطفال الآخرين إلى حدٍّ ما، لكن في اللحظة التي يقترب فيها الكبار مني، كنت أصرخ. (أه توو دان!). والتي تعني، (انه يلمس دان!).

بعد مساعٍ عدة، غير مجدية، للفظ اسم غابريال، قررت، بعد أن حاولت "غا- بي – بون" أن أدعوها "بيبون" فقط. وهذا ما صرنا نسميها به حتى بعد سنوات من ذلك، عندما عمّدها أخي الأصغر كلود باسم "غا" الذي بقي عالقاً بها حتى آخر حياتها.

Twitter: @ketab_n

للذهاب من الشاتو ديه برويار إلى شارع تورلاك والعودة، إعتاد أبي أن يمر بمنطقة الماكي أربع مرّات في اليوم. كنا، أنا وأمي وغابريال، في السابق، نتجول في تلك الاراضي الخلاء الغريبة لصيد القواقع. كانت مطاردة تنطوي على مخاطر، لأن الأرض كانت مغطاة بالعلّيق. أكواخ الناس الذين يعيشون هناك كانت مسيجة بدغل كثيف من الزعرور. كانت منطقة الماكي تبدأ، مباشرة، من خلف حقول "الأب غريبي"، وتستمر نازلة حتى شارع كولنكور. ما هو افينيو جونو الآن، كان اختلاطاً مشوشاً من إجمات ورود. الأكواخ التي بناها شاغلوها بأنفسهم، من دون الأخذ بنظر الإعتبار قواعد الأمان أو حماية الصحة العامة، كانت حرّة من كل الضرائب أو الضوابط القانونية الأخرى. لقد ادينوا لبقائهم هناك إلى واقع أن التربة كانت رخوة جدّاً ورملية، لا تصلح لبناء شقق سكنية عليها. كان مالكو الأرض سعداء بالنقود القليلة التي يحصلون عليها من أرض لا يمكن استغلالها بأي طريقة أخرى. كان من صالح المستأجرين أن تكون عقود الإيجار طويلة الأمد من أجل أن يتاح لهم الوقت لتشييد مساكنهم، التي كانت مركبة من الواح خشب، جمعت من مواد فضلة، مخلفة من مباني قيد الإنشاء في الجوار. ذوق المعماريين الهواة مصنف وفق أسلوب الأكواخ، التي تكون سقوفها منحدرة ونوافذها مزينة بنبات الفرجينيا المتعرّش، والحجرات المتداعية مغطاة بقطعة من اللباد المقيّر. كان المكان كله يعج بالقطط والكلاب وحيوانات أخرى. كان هناك سيد عجوز يرتدي، صيفا وشتاءً معطف فراك [redacted]نا، مزينا بأوسمة أكاديمية، وكان مشغولا، منذ عشرين عاما أو أكثر، بإعداد مشهد من مسرحية تعرض على خشبة متنقلة، تعبر عن مركبة سباق من العصر الروماني، خيولها جرذان وسائق المركبة فأر. بمعنى آخر كان العرض نسخة طبق الأصل من "بن هور" قبل عصر السينما بوقت طويل. لكن الشيطان غرس في الرجل هوس الكمال، لذا لم يصبح العرض أبداً جاهزا للإنتاج. كان الرجل محترما، على أي حال، لأنه كان يحصل على تقاعد من الحكومة.

Twitter: @ketab_n

كانت الشرطة تتجاهل، عن عمد، حي الماكي، فكانوا نادرا ما يدخلونه، وفقط لأسباب قاهرة. ذات مرة، كلفوا بإعتقال مزورين سكنا في المنطقة. المزوران كان شابين حسني الطلعة، نقاشين محترفين، يعيشان في واحد من أكثر البيوت أناقة في الحي، نوع من شاليه سويسري، مبني من الخشب، بالطبع، غرسا في واجهته أعشابا، وزرعا شجرة تنوب، وأقاما حديقة حجرية من الإسمنت. وبفضل التربة الراشحة، بقي هذا المنظر الريفي الصغير أخضر، ويمكن أن يوحي، للمخيلة الواسعة، بنوع من المرج السويسري. ذات يوم، قال أبي للشابين، إن عليهما أن يجلبا بقرة للرعي فيه، فأجابا بأنهما سيفكران بالأمر. بيتهما، أثث على النمط السويسري بعوارض خشبية مصبوغة بالبني الغامق، وأثاث ذي نقش شبكي، وساعة وقواق على الحائط. كان لدى المالكين فكرة غريبة بتزيين الحديقة بأجراس بقرة التي كانت معلقة في كل مكان، حول الأبواب، وعلى طول السياج، وحتى على أغصان شجرة التنوب. كان الزوار يرحَبون بصلصلة حقيقية. كانت فكرة بارعة. كان هناك، أيضاً، كلب كبير الحجم، لكن لا يُنصح بالتربيت عليه. كان الشابان غالبا ما يحضران لرؤية رينوار، معجبين برسومه. رجال الشرطة، في طريقهم عبر الحديقة وسط الرنين الفضي للأجراس، وجدوا المنزل خاليا. كان الشابان فرّا عبر النافذة الخلفية التي تؤدي إلى شارع لوبيك، أسفل المولان دو لاغاليت. كاد الكلب أن يلتهم واحداً من رجال الشرطة لولا ان جوزفين، بائعة السمك، جاءت وهدأته. ولأنها جارتهما، ترك الشابان الكلب عندها، قبل أيام قليلة، عندما كانا يحضران لرحيلهما المفاجئ، الذي كانا يتوقعانه. اكتشفت في بيتهم معدات كاملة لطبع أوراق بنكنوت نقدية. وقيل إن المتهمين وضعا أكثر من خمسمئة ألف فرنك قيد التداول، وبأنهما إشتريا قصراً في سويسرا. هناك اناس إشتبهوا بأنه كان لهما نوازع جنسية مثلية، لكن الشاعر جان لوران الذي كان يعرفهما اعتبر الفكرة سخيفة. كانت الرابطة بينهما، كما قال مدافعا، حرفية محضة.

Twitter: @ketab_n

جارتهما جوزفين كانت في نحو الخمسين من العمر. كانت كل صباح، قبل الفجر، تذهب إلى سوق الهال، وترجع منه بسلتين كبيرتين من السمك. كانت ضئيلة ونحيلة، لكنها قوية وسريعة الحركات. كانت تنادي على بضاعتها بصوت حاد كان يخترق جدران الشاتو ديه برويار ـ ليس عملا بطوليا، في رأي أبي. كانت تعرفه جيدا، لأنه كان يتوقف أحياناً، ويستمع إلى لغوها، في طريقه إلى البيت عائدا من مرسمه في شارع تورلاك. في الصباح كان جدول مواعيدهما يتزامنان على نحو غريب: في الوقت الذي يتهيأ فيه للنزول إلى الماكي، تكون هي خارجة إلى الشارع لتبيع سمكها.

كانت أمي توصي على السمك الذي تعتقد انه يرضي رينوار. سمك الرنكة كان متعة عظيمة، لكن فقط، حين يكون رخيصا جداً. ذلك كان برهانا على ان القطعان المائية من السمك التي تنحدر من بحر الشمال، كانت وافرة، على طول السواحل الفرنسية. عندما كانت الأسعار ترتفع، فهذا يدل على أن سمك الرنكة تم إصطياده في مناطق بعيدة، وشحن من مسافات بعيدة إلى أسواق باريس. في بيتنا كان هذا السمك يشوى على الفحم النباتي ويقدم مع صلصة الخردل. ما زال طعم الصلصة في فمي.

كانت جوزفين تعيش في الماكي، في بيت متداعٍ. كانت الثقوب في السقف مسدودة بقطع من قماش مزيت. وقطعتها الصغيرة من الأرض أوسع من قطع الآخرين. كانت تربي الدجاج والأرانب، كوسيلة لكسب العيش إضافة إلى بيع السمك. كان لها، أيضاً، بعض الماعز، التي كانت تقتات على الأعشاب الشائكة على المنحدر، وكان هذا يثير عجبنا. كانت غابريال تحب الذهاب اليها، وأنا بصحبتها، بسبب كوم السماد أمام باحة بيتها الذي يذكرها بايسوي. كانت جوزفين تنهي عملها قبل الغداء. في الظهيرة، فترة راحتها، كانت تلعب دور السيدة العظيمة التي تسلي أصدقائها، وتعرض عليهم آراءها السياسية. كانت تلقي خطبة بجوار كوم السماد، جالسة على كرسي ذي

Twitter: @ketab_n

مسندين، واحدة من ابنتيها جلبته لها. لم تكن تخفي إحتقارها للجمهورية والوزراء الذين (أتوا، يعلم الله من أين). كانت تأمل بعودة الملك في يوم ما، محاطا بحاشيته، وهم بلباسهم الملكي الخاص، وشعورهم البيضاء المستعارة، وكل ذلك لأن (أولئك الرجال كانوا يعرفون كيف تخاطب النساء!). كانت تتنهد، جين تهمهم بأسماء ديان بواتييه، مدام دو بومبادور، ودي باري. (هذه الأيام، يقمن بالتسوق بأنفسهن ويساومن على سعر سمك القد).

بيت جوزفين كان مكتظا بأدلة مادية عن حب فتاتيها (الصغيرتان). علب فضية منقوشة، وسلات عمل مغطاة بصباغ، تتنافس مع كراسي مخلعة الأوصال، متباينة على نحو غريب مع الحافات الخشنة للجدران الفاصلة. واحدة من الفتاتين كانت راقصة في دار الأوبرا. لها عشيق، جرّاح معروف، وكانت مولعة بنوع متحفظ من الأناقة، وتحب أن تهدي أمها أشياء نافعة، مثل بلوزات صوفية سميكة، وأحدث نوع من المواقد، ومجمد آيس كريم، والى آخره. الإبنة الأخرى، كانت أخلاقها سيئة تماماً. تجيء إلى بيت أمها في فكتورية (عربة مكشوفة)، يجرها حصانان، ويقودها سائق ببزة رسمية. انها الإبنة صاحبة الكرسي الذهبي، والخاتم الضخم، الذي لا يفارق إصبع جوزفين أبداً. كانت الأختان تتفاديان اللقاء وجها لوجه، لكن يصادف أحياناً أن تلتقيا عندما تذهبان في زيارة أمهما. كانت محادثتهما مبطنة بالمرارة. الإبنة التي تملك العربة تصر على أن صديق الأخرى، الجرّاح، كان نسى عويناته في جوف واحد من مرضاه، اثناء العملية الجراحية. أما الراقصة، فترد بالتلميح إلى فراش معين، كل باريس تأتي لتتقلب عليه. وفي اللحظة التي تصل فيها الإهانات إلى حد جرّ الشعر، تدعو جوزفين إبنتيها إلى النظام بسوط أخضر. كانت، وسلاحها بيدها، تطاردهما خلال البيت، خارجة إلى الفناء، ثم إلى مرعى الدجاج، مثيرة تنافر نغمات وحشية من كل الطيور والحيوانات المرعوبة. كان الجيران جميعا يتنبهون إلى الصخب، ويقف سائق

Twitter: @ketab_n

العربة موقف المتفرج ويتظاهر بأنه يعدّل لجام حصانيه. كانت القضية تنتهي عادة وسط الدموع والعناق، وكانت المحظية تعرض على الراقصة أن توصلها للبيت في عربتها، فكان السائق يفتح، على نحو طقوسي، باب العربة للسيدتين.

كانت غابريال تحب الخوض في الذكريات، عائدة إلى أيام الشاتو ديه برويار، وبوجه خاص، في نهاية حياتها، بعد أن غادرت إلى كاليفورنيا. (هل تذكر عندما وطأت إبنة جوزفين على قذارة كلب، وكيف إشمأز سائق العربة؟ "السجادة، مدام!" وكيف ردت عليه الإبنة بعجرفة، "اذا كان لا يعجبك، عزيزي، عليك أن تنظر إلى الناحية الأخرى". ثم، لا بد انك تذكر التعبير الذي ظهر على وجه الخادم). (كلا)، أجبتها، (أقسم بأني لا أذكر). الآن، إذ رحلت غابريال، لم يعد هناك من يهيم في الذكريات عن جوزفين وإبنتيها، أو يفتح نافذة على ماضٍ، كان يبدو لي مثل جنة عدن، التي لا بد من انها بدت لآدم بعد أن ذاق فاكهة شجرة المعرفة.

في تلك الأيام، عندما كانت غابريال تفتح عينيّ على عالم ما زال بريئا نسبيا، كانت أمي مشغولة. وكان أبي بدأ يكسب ما يكفي من المال لتوفير سبل الرفاهية لنا. وبالرغم من ذلك، لم تكن أمي تحس بأمان كافٍ. واصل تجار اللوحات تعذيب رينوار للعودة إلى أسلوبه السابق الذي غدا رائجا. حجة مثل هذه، كانت تثير فيه أشد الغضب، وكانت زوجته تصاب بالذعر من فكرة أن الحاجة إلى المال ستبعده عن بحثه عن هدف، كانت هي نفسها، لا تستطيع تحديده، والذي، ربما، لا تستطيع أن تتخيله، مع هذا، كانت تؤمن به بكل جوارحها.

كانت معتادة أن تخيّط في الحديقة. وهناك تنضم إليها مدام لوفيفر، الأنيقة دوما، والتي كانت تروي لها آخر ميلودراما عرضت على مسرح مونمارتر الذي تقاسمت مقصورة فيه مع آل كلوفيس هيوز. وفي كل يوم

Twitter: @ketab_n

جمعة، كانت تخرج، لا أحد يعرف لماذا، كل مخرماتها وتنضم إلى المجموعة مدام بريبان ومدام ايسمبار، مرتدية ثوبا بذيل، فينيت وفالا، تقبعان عند قدمي سيدتهما متحفزتين للنباح على أي وجه جديد. كانت مدام ألكسي تقرأ بصوت عالٍ قصص رحلات، وصوت فلوت مدام لوفيفر يضيف نغمة ملائمة على هذا المشهد الرعوي. ذات يوم أحد، وكان أخي بيير في البيت، قادما من مدرسة سانت- كروا، يقوم بأداء مشاهد مسرحية للهواة مع بنات آل كلوفيس هيوز، فراحوا يكسون أنفسهم بستائر قديمة، ويقلدون الممثلين، الذين شاهدهم الكبار في مسرح مونمارتر. (سيصبح بيير ممثلاً يوماً ما)، قالت أمي، من دون أن تعرف كم كانت كلماتها نبوئية.

في الجانب الآخر من الماكي، حيث كانت غابريال تصطحبني غالبا، هناك مرسم لرسام بدين جداً، نست غابريال، في وقت أحاديثنا الكاليفورنية، اسمه. زوجته كانت بدينة ايضا. كانا يمضغان، على نحو متواصل، حلوى النوغة بصوت طاحن. كان يرسم دائماً اللوحة نفسها: فرسان بدروع يرتاحون مع خيولهم تحت شجرة بلوط. شرح لبيبون، بأنه، بعمله الموضوع بالطريقة التي يريدها، وبإلغائه كل الأخطاء، كان في وضع يمكنه فيه أن يقدم لزبائنه شيئاً، بفضل التخصص صار متقنا. (لو عملت على موضوع آخر)، قال، (لكان علي أن أبدأ من البداية)، على سبيل المثال الصليب الذي على درع الفارس في وسط المجموعة، بلون أسود، كان باللون الأبيض، لوقت طويل، حتى اكتشف أن هذه مفارقة تاريخية. كل يوم سبت كان يبدأ رحلة على الأقدام، متأبطا لوحته، ذاهبا إلى تجار فن مختلفين يعرضها عليهم. إن لم يكن أصاب نجاحا، كان يجرّب حظه مع مزخرفي المنازل، أصحاب المقاهي، بيوت الدعارة، أو حتى مع فرقة للممثلين الجوالين. كان بائعا ممتازا، ويفلح في بيع واحدة من هذه اللوحات كل أسبوع تقريبا، ويقوم بعمل نسخة أخرى، في الصباح التالي، في ساعات قليلة.

Twitter: @ketab_n

شخصية أخرى من الماكي، تتذكرها غابريال جيداً، رجل اسمه بيبي لابوري. شاعر جائع، كان يأتي إلى بيتنا، ويلقي قصائده على أمي، فكانت تكافئه بشرائح من اللحم البارد مع المخلل. كان لا يتوانى أبداً في إفراغ وعاء المخلل كله، بالإضافة إلى قنينة النبيذ. كان أبي دائماً في مرسمه، عندما كان بيبي يقوم بزياراته السريعة، لكن في أحد الأيام إلتقاه مصادفة في الماكي. (طاب يومك مسيو رينوار)، قال، (أنا بيبي لابوري، الشاعر. ربة بيتك تعرفني جيدا). (أوه، إذاً هو أنت من يفرغ أوعيتي من المخلل). (أجل، وأود أن أسألك معروفا. هل لك أن تخبر مدام رينوار، بأن المخلل مالح جداً. فأنا نفسي أعتقد ذلك. فالناس المبدعون يمكن أن يكونوا شديدي الحساسية). (شكرا لك)، أجاب أبي، (سأعمل على نقل رسالتك).

غالباً ما كانت غابريال تعود للحديث عن الشتاء العظيم الذي مرضت فيه مرضا شديدا بذات الرئة، وكيف عاد أبي، على عجل، من الميدي. (كان الماء في الينبوع، قرب بيت البوابة، متجمدا بصلابة. كنت أضطر إلى إستخدام الينبوع الذي يقع عند تقاطع شارعي لوبيك وتولوزي. انه يذكرني بايسوي، حين كنت، في السابق، أذهب إلى البئر، في البلاس دو ليكليز). هكذا، تعرفت على تولوز- لوتريك. (كنت أعرفه جيداً بالنظر. إذ أتى مرات عديدة لرؤية المعلم، وكان يتوقف للشرب عند حانة البونيا[٨٢]، في الزاوية).

في ذلك اليوم كانت صديقتا لوتريك، كودوجا وآليدا، المومستان الشرقيتان المزيفتان، من بولفار دو كليشي، جالستين في الحانة، تحاولان الحصول على الدفء ببضعة أكواز من النبيذ الحار. لم تكن لهما رغبة بالعودة إلى غرفتيهما في شارع كونستانس، حيث تحول الماء في الأباريق إلى

---

(٨٢) bougnat، الفحّام، أو بائع الفحم، في العامية الفرنسية. كان، في الغالب، يفتح حانة صغيرة في محله.

Twitter: @ketab_n

جليد. كان تولوز- لوتريك يحس بإسترخاء وراحة بال. خرج ونادى على غابريال، فدخلت البونيا مع دورق الماء. قدم لها بعضاً من النبيذ الحار، وبدأ الحديث عن والده الذي كان بوهيميا، حتى أكثر منه هو نفسه. كان السيد العجوز قدم إلى باريس من قلعته المتقوّضة التي تبعد ستمئة وخمسون كيلومترا عن العاصمة، ممتطيا فرسه، ولا يملك في جيبه قرشا واحدا. في الليل كان ينام على القش إلى جانب فرسه، ويشرب من حليبها، عندما يكون لديها بعضاً منه. حين روت لي غابريال هذه الحكاية، شرحت قائلة، (في تلك الأيام كان لدى الناس الكثير من وقت الفراغ... أما المعلم، فلا. فهو لم يتوقف أبداً عن الرسم)، أضافت، (كان تولوز- لوتريك مهذبا دائماً. يخلع قبعته لزوجة البونيا. وكان نظيفا جداً، يرتدي قميصا أبيض ضيقا، ولا يضع ربطة عنق، واذا وضع واحدة، فإنها كانت دائماً سوداء. كان مرحا ولطيفا. في البدء كان الناس يضحكون على هيئته، ويدعونه "الإست القصير". لم يكن يبالي بهم، فأخذ الناس يعتادون عليه، فالمرء يعتاد على كل شيء، كما كان المعلم يقول، "نحن لا نرى أنفسنا").

أي رواية عن محيط رينوار، في وقت ولادتي لن تكون كاملة من دون الإشارة إلى عائلة ماتيو. من الصعب تصنيفهم. يمكن أن أصفهم كأشخاص من ارستقراطيي بروليتاريا باريس. كان مسيو ماتيو يشتغل حفارا ؛ زوجته غسالة، لكنها أيضاً تقوم بكل أنواع الأمور المنزلية لعوائل الجوار. كان هو رجلا قوي البنية، في حوالى الخمسين من العمر، طويلاً وبدينا قليلاً، يزين وجهه شاربان رائعان. كان يبدو حسن الطلعة في ملابس العمل التي تتألف من بنطال قطني متين فضفاض، معلق بنطاق أحمر من الفانيلة. مدام ماتيو، أو إيفون، كما كانت تدعى عادة، كانت هي الأخرى غليظة. ما زلت أذكر التعبير القاسي على وجهها، مؤكدا بأنفها المستدق وعينيها السوداوين الحادتين اللتين تحدقان من تحت شعر بني، مقصوص على جبينها. كان لهما عدة

Twitter: @ketab_n

بنات وابن واحد. أذكر إبنتيهما، أوديت، في وقت زواجها. كانت جميلة جدّاً لكن لم يسألها أبي أبداً أن تقف أمامه للرسم، لأنها كانت ميالة للجدال. (بعد جلستي رسم تبدأ بإعطائي دروسا في الرسم). إستخدمها فولار، لتنظف له البيت، (لكن لا تقتربي أبداً من اللوحات). أذكر أيضاً الإبنة الأخرى، ريموند، لأنها كانت ضمن مدبرات منزلنا. كنا نادرا ما نرى الأخت الأخرى، ايفون، التي كانت تعمل في محل. أما الولد، فرنان، فكان في البحرية في تولون، وكان قلما يأتي للبيت في إجازة. لم اكن أحب بزته النظامية: قبعة البحار التي كان يرتديه، والياقة المفتوحة العنق تجعل، في نظري، من كل البحارة يبدون كأولاد صغار. مع ذلك، صرت، في ما بعد، أكن إحتراما عظيما له، عندما حدثتني أخته اوديت عن اعماله الاكروباتية البطولية. كانت العائلة، قبل قدومها إلى رو جيراردون، تسكن في أحد المباني الجديدة، ذات الستة طوابق، في شارع رافينيان. على جانب المنحدر، كان بعض هذه المباني يصل إلى عشرة طوابق، وكان مسكنهم تحت السقف. ذات مرة، اخذ فرنان يؤرجح نفسه، من نافذة إلى أخرى، ماسكا بالميزاب، ثم يتعلق به، مثيرا الرعب في الناس، تحته في الشارع، حتى تدخل شرطي. سأله، (ما القصد من هذا؟)، (تمرين فقط)، أجابه، (أريد أن أصبح بهلوانا).

كان مسيو ماتيو، في الغالب، لا يعمل. لم يستطع أن يقبل بالأمر الواقع، لا مع العمال، ولا مع النقابات. قبل أن يقبل الوظيفة، كان يلتقط حفنة من التراب، يتفحصها، يتلمسها، ثم يشمها، ويختتم قائلا، (آسف، مسيو، أنا لا أعمل في مثل هذا النوع من التربة). حين كان يصدف أن يوافق على عمل، كانت زوجته تتلقى الأخبار كما لو كانت كارثة. عليك أن تراها حينئذ، في ساعة إستراحته للغداء، وظهرها محني تحت ثقل سلة هائلة مليئة بالفطائر المحشوة، واللحم البارد، وزجاجات الخمر، ومنها قارورة كونياك كي تساعده على الهضم. كان مسيو ماتيو يؤكد، دائماً، بان الواجب الأساسي للرجل

Twitter: @ketab_n

العامل هو المحافظة على لياقته البدنية. بساطته المهيبة كانت تبهج رينوار، فكان يحب ان يتسقط أحاديثه من أمي التي تجري في المطبخ. وبرغم انه لا يظهر ذلك، لكنه يترك باب مرسمه مفتوحا، فيسمع كل كلمة. كان العجوز ماتيو يتفوق، على نحو خاص، بإعطاء أوصاف ناقمة عن اللهو المعربد الذي كانت تنغمس فيه الراهبات في دير معين للراهبات، برفقة رهبان من دير للرهبان قريب، إذ كانوا يتزاورون عبْر نفق تحت الأرض. كان يتكلم ببطء، بلهجة متسمة بالأبهة، تضفي على قصصه، على نحو غير مقصود، نكهة كوميدية. كان عنده جواب عن كل شيء. حين لامته زوجته لوما قاسيا عندما فتح ثقبا في الجدار الفاصل بين شقتهم وشقة آل فاري وأخفاه بطبق، بحيث يمكنه تحريكه ليسترق النظر إلى بنات فاري وهن يغيرن ملابسهن رد عليها بعظمة، (مدام، أنا أقوم ببحث). ولما كانت ابنته تتلقى دروسا في العزف على البيانو، وبدأت بتعلم فاغنر، كانت نصيحته لها، (الأفضل أن تبقي مع غودون، عزيزتي).

الأبنة الصغرى، ريموند، وهي باريسية صغيرة حقيقية، ورثت عن أبيها وقاره. راحت، في ما بعد، تتبعنا إلى أي مكان عشنا فيه. كانت طريقتها في اللفظ المشدد للكلمات، لكن العادي، ونطقها كل كلمة بعناية، تجعل من أبوايّ يغرقان في الضحك، لكنها لم تكن تفهم ردة الفعل هذه، مقتنعة بأن تعليقاتها هي تعبير عن حكمة صرف. ذات مرة قدم لها شاب سيجارة غالية، قائلا، انه لا يدخن أبداً سوى سجائر فرجينيا، فقالت له، (الأفضل ان تغسل قدميك). وفي حديثها مع خادمة دعّية، من نيس، كانت تفاخر بحِميتها في الطعام، قالت لها، (قد تأكلين مثل عصفور، لكنك تتبرزين مثل جمل). ومرة رفضت عروضا من رجل أصلع، بقولها، (أنا لا ألعب البليارد). كانت تصر على ان والدها (فنان عظيم، عازف كمان من الطراز الأول، لكنه، لسوء الحظ، غير قادر على مسك القوس، لأنه فقد إصبعا).

Twitter: @ketab_n

فقدان مسيو ماتيو لإصبعه، منحه الاحساس بالأهمية. (أصبح فولتير عظيما حقا، فقط حين صار عنينا)، أعلن قائلا، وانتظر بثقة أن تصبح يده كلها مشلولة، كي يضارع فولتير. كان معاديا للعسكر والألمان معا، وحذر أبي قائلا له، (إن فاغنرك هذا سيلعب معك حيلة قذرة). كان يؤمن بأن الألمان كلهم لواطيون. (اذا كان على بناتي الذهاب إلى المانيا، فيجب أن يحصلن على موافقة والديهن ـ لكن إبني فرنان، أبداً!). كان تفسيره لشذوذ الألمان هو ان الملك فردريك الثاني فرض اللواطة على البروسيين. في حال حدوث حرب، إقترح مسيو ماتيو طريقة لوقف "قبائل التويتون" على الحدود: (سنجابهم بشرف رجولتنا). بلا شك كان أبي يحب آل ماتيو، لأنهم يمثلون عامة الناس الباريسيين، الذين تكيفوا على إخفاء فقرهم المادي خلف المفردات الفنية. كان رينوار يؤمن أن (كبرياءهم غير مصطنع، لو ارادوا إحناء رقابهم، لأمكنهم أن يصبحوا أغنى).

في بداية عام ١٨٩٥، ذهب رينوار مع سيزان إلى الميدي ليرسم. وهناك علم بموت بيرث موريسو. كان للخبر وقع الكارثة عليه. لأنها، من بين كل أصدقائه ورفاقه، الذين كان معهم في صراعهم لإثبات الذات، كانت الوحيدة الذي ظل على إتصال حميم معها. يبحث المرء عن اللحظات العظيمة، التي كانت جوهرية في حياة المبدعين العظام. واحدة من هذه اللحظات في حياة رينوار كانت فقدان هذه الصديقة. (كنا كلنا مجموعة واحدة حين بدأنا أول مرة. وقفنا جنبا إلى جنب وشجع واحدنا الآخر. ثم، في يوم، لم يعد هناك من أحد، رحلوا. وهذا أمر يبعث على الذهول). في الواقع، لم يكن الموت وحده من فرّق الإنطباعيين. لكن شيئاً فشيئاً، قللت أذواقهم المتباينة من لقاءاتهم. البحر المتوسط سحر رينوار وجذبه أكثر فأكثر. واستقر مونيه، على نحو دائم، في النورماندي. وصار بيسارو يذهب كثيراً إلى ايرانيي، في الواس، حيث كان يقوم بنقوشه مع إبنه لوسيان. عندما كان يأتي إلى باريس،

Twitter: @ketab_n

تمنعه مشاغله الكثيرة من الصعود إلى الشاتو ديه برويار. جاء مرة واحدة، قبل أن أولد، وقضى جزءاً من اليوم مع أمي. كان يواجه أوقاتا عصيبة، لكنه لم يتحدث عنها. (إنه حقاً سيد مهذب)، قالت عنه أمي. تحدث معها طويلاً حول أبحاثه التقنية، وعن سورا والأسلوب التنقيطي. أما سيسلي، فبقي وفيا للغابة التي رسموا فيها جميعا أيام شبابهم، واستقر في موريه التي تبعد عشرة كيلومترات عن فونتانبلو. وكان المرض نال منه. ديغا، كان غاضباً من رينوار، بسبب تلميحاته المازحة عن معاداته للسامية. في ما يخص سيزان، لم يكن فنه حقاً واحدا من جماعة المتصلبين. صداقته مع رينوار، إنبنت على عوامل أخرى.

في الوقت الذي استلم رينوار فيه برقية والدتي حول وفاة بيرث موريسو، كان هو وسيزان خارجين إلى الريف للعمل على الفكرة نفسها. طوى حامل اللوحة فجأة، وأسرع إلى المحطة، من دون أن يتوقف حتى في جاس دو بوفان. (إنتابني إحساس بأني صرت وحيدا تماماً، في صحراء مقفرة. حالما صعدت إلى القطار إستعدت هدوئي من خلال التفكير بكم انتم الثلاثة، أمك وبيير وأنت. في حدث مثل هذا، تدرك كم هو رائع أن يكون لك زوجة وأطفال). قبل وفاتها، طلبت بيرث موريسو من أبي أن يرعى إبنتها جولي التي كانت في السابعة من العمر، وبنات أختها، جيني وبول غوبيار. ولأن بول كانت اكبر بين الفتيات الثلاث، صارت هي المسؤولة عن "بيت مانيه"، كما كان أبواي يدعوان المنزل الكائن في الرقم ١٤ رودو فيوجوست. تزوجت جاني، بعد ذلك، من الشاعر بول فاليري الذي صار الشارع، في ما بعد، يسمى باسمه. إنهمكت بول في لعب دور الأخت الكبرى، ولم تتزوج أبدا. جولي، وكانت رسامة هي الأخرى، تزوجت، لاحقا، من الفنان روّر. في ايام بيرث موريسو، كانت حلقة مانيه واحدة من أكثر المراكز أصالة في الحياة الحضارية الباريسية. بالرغم من ان أبي حين تقدم به العمر كان يتجنب المواقع الفنية والأدبية

Twitter: @ketab_n

مثل تجنبه الطاعون، لكنه كان يحب قضاء ساعة أو ساعتين في البيت الذي يقع في رودو فيوجوست. لم يكن المثقفون هم الذين يلتقون في منزل بيرث موريسو، بل، ببساطة، اناس ذوي رفقة طيبة. مالارميه، كان واحدا من الزوار المنتظمين. كانت بيرث موريسو بمثابة مغناطيس من نوع خاص، يجذب فقط الأصيلين. كانت لها موهبة الحد من الخلافات. (حتى ديغا يغدو أكثر تحضرا حين يكون معها).

"فتيات مانيه الصغيرات"، حافظن على تقاليد العائلة. وحين صاهر فاليري وروّر العائلة، فإنها إغتنت أكثر. كلما توفرت لي الفرصة، وزرت أصدقائي القدماء هؤلاء، أشعر كما لو أني أتنفس هواء عذبا أكثر من أي مكان آخر، بقية من نسيم يداعب الوجوه بلطف عبّر غرفة إستقبال مانيه، نسمة من الريح البرناسية التي جعلت أغورا مثارة جداً.

خطرت لأمي فكرة جمع فتيات ماني الصغيرات مع جين بودو. وهكذا بدأت صداقة خالدة. بالنظر إلى إيمانهم بالحياة الآخرة، فإن كلمة الخلود، بالتأكيد، لم تكن في غير موضعها. بول غوبيار، قضت نحبها ؛ عرّابتي، جين بودو، توفيت قبل وقت ليس بالطويل، في لوفيسيان، في البيت، الذي أقنع أبي والديها بشرائه. حتى آخر لحظاتها كانت عيناها تحدقان في لوحة رسمها أبي لي، عندما كنت في السادسة من العمر. كل رسم، رسمته بنفسها، كان تقديرا محبا لرينوار الذي بقي الحب الوحيد في حياتها. علاقة أبي بعرّابتي، كانت روحية، مبنية على أساس نقي، كما كانت، على حد سواء، علاقته ببيرث موريسو. عندما تقدم به العمر، هذه الهبة في علاقته مع النساء، تطورت أكثر فأكثر. كان يسافر مع جين بودو، ويقيمان في خانات القرى، يحتميان من المطر في بعض المزارع، يضحكان، يرسمان، ويأكلان طعاماً ريفياً بسيطاً. متى ما تمكنت أمي من توفير الوقت ـ لأني كنت طفلاً نكداً، متطلباً ـ كانت تنضم إليهما. أخذت أمي فتيات مانيه إلى ايسوي، بعد وفاة بيرث موريسو.

Twitter: @ketab_n

حين كنت في الثانية، رحلنا جميعاً إلى تريبول، قرب تورنينز، في بريتانيي، واستأجرت أمي هناك بيتاً بريتانيا صغيراً كانت فيه بركة صغيرة وسط المطبخ، (من أجل البط في الشتاء). كانت توجد فتحة في الجدار تسمح للبط بالخروج والدخول متى ما شاء. كنا جميعا نغتسل في البئر، في الباحة، وكان الطعام يطبخ على موقد كبير مفتوح، بجوار البركة.

روت لي غابريال كيف ان الجميع، ذات صبيحة عاصفة، استيقظوا على ضجة مروّعة. كانت نساء بريبول تجمعن على الدرب المشرف على البحر الهائج. كانت أصواتهن اعلى من هدير الموج، يطلقن صرخات وحشية، بلغة غامضة، لا بد انها تعود إلى زمن الدرويد. في العشية كان رجالهن أبحروا إلى العالم الجديد، يترنحون من السكر، عاجزين عن جرّ أنفسهم حتى وصلوا المركب. حكاية أخرى لغابريال: (كانت الفتيات البريتانيات يذهبن و يصلين لتمثال القديس بيير، الحامل لمفتاح كبير بيده. كن يتضرعن اليه أن يمنحهن أزواجا. اذا عجز عن الإستجابة لصلواتهن، كن يرجعن، حاملات مفاتيحهن الخاصة بهن، ويقذفنه به. كان التمثال مشوها بشكل مروع).

جولي روّر وجيني فاليري كانتا غالباً ما تحدثاني عن أبي. تصفانه بأنه مرح، وكم كان مرحه معدياً. تكلمتا عن الهوى المطلق الذي يكنه للرسم، وكم كان رسمه خاليا من "التعقيدات" أو "حالات الروح" الأقل وضوحا. هذا الأمر، كان نفسه مع بازيل، مونيه، بيرث موريسو، بيسارو، سيسلي، ورفاقه الأولين. كان الواحد منهم تستثيره فكرة ما، فينتصب حاملاً لوحته، وكان الآخر يحذو حذوه فوراً. كان المارّة يتوقفون مندهشين لرؤية هؤلاء الشباب الملتحي، وعيونهم مركزة على عملهم، وأذهانهم شاردة بعيدا عن مشاغل الحياة، يضعون بعناية لطخات صغيرة من الألوان على قماش لوحاتهم. وكي تكتمل غرابة المشهد، كان بينهم امرأة في ثوب صيفي خفيف، بريث موريسو. قبل وقت ليس بعيدا، أخذتني عرابتي، جين بودو، إلى أرض مقطوعة الشجر

Twitter: @ketab_n

في غابة مارلي، حيث كانت هي ورينوار يرسمان. (كان يتوقف، كما لو بالمصادفة، ثم يتطلع امامه، فإذا بدأ بالهمهمة مع نفسه عرفت أن الفكرة أعجبته. كان يفتح حامل لوحته، وكنت أفعل الشيء نفسه، وخلال دقائق، نبدأ معا بالرسم على نحو مهتاج).

سمة أخرى للعلاقة بين رينوار وأصدقائه، هي تقاسمهم بيت أحدهم الآخر. إذا ما شعر رينوار بضرورة الذهاب والرسم في الريف، فمن الطبيعي أن يذهب، من دون إعلان، إلى بيت غاليمار في النورماندي، او إلى بيت بيرث موريسو في ميزي، أو إلى بيت سيزان في جاس دو بوفان، ويبدأ العمل فورا. كان دائماً يترك مرسمه لجين بودو، كلما كنا نذهب في رحلة، كما كان يدع أصدقاءه يستفيدون من شقته.

تركت بيرث موريسو بعد وفاتها، هدية لأبي في شخص امبرواز فولار. كان لها بصيرة نافذة، إذ رأت ان هذا المخلوق الغريب، كان عبقريا، على طريقته. حكت لرينوار عنه، وكان ذلك في بداية عام ١٨٩٥، مباشرة قبل مغادرة رينوار إلى ايكس، وبسبب موت بيرث لم يأتِ فولار لرؤية رينوار إلّا في الخريف. في كتابه للسيرة، " حياة وأعمال بيير- أوغست رينوار"، وصف زيارته في العبارات التالية: (كنت أريد ان أعرف من الذي يظهر في لوحة لمانيه كانت عندي. تمثّل اللوحة رجلاً جالساً على مقعد خفيف قابل للطي، في درب بغابة بولونيا... قيل لي ان رينوار يعرف من هو هذا الشخص، فبدأت رحلة للبحث عنه. وجدته يعيش في بيت قديم، في مونمارتر، يدعى شاتو ديه برويار. في الحديقة، إلتقيت بخادمة بدت لي غجرية. من دون أن تطلب مني الإنتظار، دلتني على رواق المنزل، حيث ظهرت امرأة شابة، مليئة بالصحة وودودة، مثل واحدة من رسوم الباستيل، بريشة بيرونو، أو سيدة طيبة من زمن لويس الخامس عشر. كانت مدام رينوار).

Twitter: @ketab_n

هنا، الرواية نفسها، على لسان غابريال. أنا بحاجة لأبين بأنها هي المقصودة بـ (الفجرية). (كنت في الخارج، في الحديقة معك. كنت تلعب بجر شعري. نادى علي من فوق السور شاب طويل، هزيل قليلاً، بلحية صغيرة، قال انه يرغب بالتحدث مع المعلم. كانت ملابسه رثة بعض الشيء،. بشرته الداكنة، والطريقة التي ظهر بها بياض عينيه، جعلاه أشبه بالفجري، أو، بأي حال، وحشي. خلته واحداً من بائعي البسط، فقلت له لسنا بحاجة لأي شيء يبيعه. في تلك اللحظة، ظهرت أمك، وطلبت منه الدخول. قال انه آت من عند بيرث موريسو. كان يبدو مثيراً للشفقة جداً، إلى حد أن أمك أعطته قطعة من الكعك وكوبا من الشاي. نزل المعلم، بعد ذلك، من فوق. كان يعمل على صورة لواحدة من فتيات لوفيفر الصغيرات، في مرسمه في العلّية).

كان أبي متأثراً، برضى، بالتراخي في أسلوب زائره. (كان له المظهر المرهق لجنرال قرطاجي). وتأثر رينوار، حتى أكثر، بسلوك ضيفه أمام بضع لوحات. (بعض الناس يفكرون، يعقدون مقارنات، يعرضون كل تاريخ الفن، قبل ان يطلقوا رأياً ما. لكن هذا الشاب، كان أمام الرسومات، مثل كلب صيد أمام طريدة). كان ابي سيدعه، طوعا، ينال بضع لوحات، حتى بعد أن يعترف له فولار، بمظهر من البراءة الخادعة التي يشتهر بها، بأنه لا يستطيع دفع ثمنها، لكن رينوار كان يخشى من غضب دروان- رول، بأن يظهر له منافس.

كان فولار يوحي للآخرين بأنه نعس طوال الوقت، لكن في الواقع، كانت عيناه تطوقان كل شيء، من خلف جفنيه المغلقين. أحياناً كان يغط بالنوم فعلا، أثناء أداء في مسرح، أو في حفلة عشاء، أو خلال محادثة عن مواضيع إجتماعية أو جمالية. لغرض ما، لا يُفسَر أبدا، كان لا يتوانى عن فتح عينيه على وسعهما ويقرب أذنيه، في اللحظة التي يبدو فيها شيئاً يهمه حقا، يجري حوله. كانت له موهبة تضليل خصمه، من خلال طرحه أسئلة غبية، نصف ساذجة، نصف مختلقة، على نحو خاص. كانت مراوغته، أحياناً، لا تجدي

Twitter: @ketab_n

نفعا، كما، على سبيل المثال، عندما سأل أبي، (قل لي مسيو رينوار، ما فائدة ثياب البلمر؟). كان يقصد البدعة الجديدة في ملابس النساء التي كانت موضوع الحديث المفضل بين الموديلات في ذلك الوقت. (لركوب الخيل)، أجاب رينوار بنفاد صبر. ظل فولار صامتا لعشر دقائق على الأقل. كان يبدأ كل جملة بعبارة (قل لي). كان يجلس دائماً على الكرسي نفسه، يتحاشى النظر إلى اللوحة التي يطمع بها. كان هذا هو التكتيك المفضل عند كل تجار اللوحات. (قل لي مسيو رينوار، لماذا برج ايفل مشيد من الحديد بدلاً من الحجر، كما برج بيزا؟). عن هذا السؤال لم يعط رينوار جوابا. وكان النعاس يغلب فولار، ثانية، لكنه يستيقظ، فجأة، ويطرح سؤالا آخر: (قل لي مسيو رينوار، لماذا لا يوجد مصارعة ثيران في سويسرا؟ مع كل تلك الأبقار، كما تعرف...).

عودة إلى الحديث عن هذا اللقاء الأول. خطرت لأبي فكرة جهنمية بجمع فولار مع سيزان الذي، وقد أصبح قرفا من باريس، ناهيك عن المعارض والنقاد، صار الآن نادرا ما يغادر بلدته ايكس. (لديّ ما يكفي من الطعام)، قال سيزان، (شبعت منهم، وسئمتهم). كان رينوار لمّاحا بما يكفي ليدرك ان عطيل هذا سيعجل بالإنتصار المحتوم لذلك الفنان العظيم، خلال عشرين سنة. كان فولار، بالطبع، على معرفة جيدة برسم سيزان. لكن من الممكن جدّاً ان رينوار كان مفيدا جدّاً في إقناعه بقيمته.

في مساء السبت، كان أخي بيير يأتي إلى البيت، من مدرسة سانت – كروا، مرتديا بدلته النظامية، والتي لم تدهشني، لحد الآن. بعد أن يحيي الجميع على عجل يذهب لرؤية بنات الكسي، وكلوفيس هيوز، ولوفيفر، أو آل ايسمبار. أحياناً، في يوم الأحد، كنا نذهب إلى لوفيسيان. بعد وفاة جدّي عاشت جدتي مع إبنتها ليزا وحميها ليراي في بيته، على طريق سان-جرمان. كنا جميعا، نتمشى في الشارع، بينما كان أبي يتوقف للنظر، عند كل

Twitter: @ketab_n

واجهة محل، مستغرقا في تأمل البضاعة النفاية المعروضة فيها، أو محدقا إلى المنتوجات المتنوعة المعلن عنها في واجهات محال الحلاقة. العروض الوافرة تثير اغراء الناس البلهاء ؛ معاجين أسنان مضمونة تحوّل الأسنان إلى لآلئ، صبغ شعر يعيد إحياء الشباب لشعرهم، كل هذه، كانت تدفعه للضحك بخفوت. كان عندئذ، يلحق بأمي، ويروي لها ما رآه. كانت هي وبيبون تستغلان الفرصة لوضعي على الأرض، ويقولان لي، (لديك سيقان من الافضل أن تستخدمهما)، لكني كنت أصرخ منتحبا، متخلفا عن الآخرين، اجرجر خطاي بتباطؤ، حتى تقوم إحداهن بحملي من جديد. بيير كان يمشي الهوينى، متجاهلا هذه التوافه العائلية، يتلو مقطعا من راسين على إبنة أحد الجيران التي إصطحبتها أمي معنا. برغم أن عمره كان إثنا عشرة عاما، لكنه بدأ منذ الآن، يلفت إنتباه الفتيات بجاذبية أسلوبه الذي هو، ربما، أساس موهبته كممثل، في سنوات حياته التالية.

حين كنا نذهب إلى لوفيسيان، كان علينا ان نصل إلى المحطة، غار سان لازار، فنمر بحي الماكي، نزولا من شارع كولانكور، نحو شارع امستردام. كنا نشتري دائماً جبنا من محل غرانجيه، وفطائر من بوربونو، وبعضا من سمك الانكليس المدخن، من شاتريو. حالما نصل بيت العمة ليزا كنت أسألها أن تأخذني لأرى الأرانب. كان رينوار يذهب إلى الطابق العلوي لقضاء ساعات في الحديث مع أمه. كان يحكي لها عن أسفاره، وكانت تشعر بالندم لأنها لم تحظ بفرصة زيارة ايطاليا، واسبانيا، والجزائر وأقطار جنوبية أخرى. انكلترا لم تكن تجذبها، (فيها الكثير من الفحم). عندما تشعر انها إنتظرت ما يكفي، كانت تنبه إلى ساعة الغداء بالطرق بعصاها على أرضية الغرفة. ما زلت أسمع تلك الطرقات التي قارنتها، في ما بعد، بالضربات الثلاث في المسرح الفرنسي، قبل رفع الستار ؛ كما تستحضر في ذهني عينا جدتي مرغريت ميرليه الغامقتا الزرقة.

Twitter: @ketab_n

في المساء كنا نرجع إلى البيت محملين بالخضروات والفواكه، من حديقة العمة ليزا، والتي كانت مصدر فخرها. في رحلة العودة نأخذ قطارا من مارلي، لأن أمي تتقطع أنفاسها بسهولة شديدة، والطريق كان شديد الإنحدار. كان الجزء الأول من سفر العودة يجري بيسر، لكن حالما نصل باريس، صاعدين شارع امستردام، على أقدامنا، تغدو الرحلة اكثر مشقة. خلال الأمتار المئة الأخيرة على المنحدر الشديد لهضبة مونمارتر، كانوا أمي وغابريال وبيير، مستعدين لرمي هدايا العمة ليزا في مجرى تصريف المياه. في الغالب، كان رينوار يأخذني من غابريال، وبعد أن يسندني على كتفه، يعجل بالمسير نحو المنزل. وكان الآخرون يصلون بعدنا، ليجدوني ألعب في الحديقة مع ابن الجيران. كان أبي يختفي في مرسمه، ليقارن تخطيطات له للوفيسيان، قديمة، مع إنطباعات ذلك اليوم.

في يوم ربيعي لطيف، جاءت ليزا بخبر وفاة جدتي. كان أبواي، كلاهما، خارج المنزل. الخبر لم يعن لي شيئاً، فكنت أضحك، لأني سررت برؤية عمتي، فالتفتت إلى غابريال، وقالت، (انه لا يفهم. انه صغير جداً). ساءها أن تراني فرحا، حتى انها تفوهت بكلمة "يتيم". هدأت غابريال من روعها، وذكرتها بأني، في آخر الأمر، حفيدها. ثم قدمت لها قطعة من كعكة الفراولة التي اخرجتها ايفون ماتيو لتوها من الفرن. أكلناها الثلاثة بتلذذ عظيم، وليرطبن أفواههن جاءت غابريال بزجاجة من نبيذ ايسوي من القبو. جلبت ليزا لأخيها شالا موّردا كانت ترتديه مرغريت ميرليه. في ذلك الوقت كان رينوار في بايروت يعض نواجذه غضبا من الـ"نيبلونجين"[٨٤] كما قال في ما بعد، (لا أحد له الحق بأن يضجر الناس إلى هذا الحد. أحسست وكأني اريد أن أصرخ "كفانا عباقرة"!).

---

(٨٤) اوبرا لفاغنر

Twitter: @ketab_n

كنت أمي في ايسوي لترى إمكانية شراء بيت مجاور للبيت الذي نملكه هناك. كان إمتلاك هذا البيت سيمكنها من تحويل غرفتي الطابق الأرضي مرسما، لأنها كانت تأمل بإقناع زوجها البقاء في ايسوي كل صيف. لم يكن الأمر له صلة بعواطفها تجاه مسقط رأسها، بل لأن طعام الفنادق لم يعد يلائم رينوار. وربما أيضاً، احست بأن أيام ترحاله صارت معدودة. السكون الصافي الذي بدأ يبرز، أكثر فأكثر، في لوحاته، كان دليلا لها بأن حياته يجب أن تكون من الآن فصاعدا، خالية من الجهد البدني الشاق أو الإثارة من أي نوع.

الشيء الوحيد الذي كان يخيف رينوار من ايسوي، هو وجود حماته "طاعون". بينما كان راضيا تماماً عن حميه، الذي يمكن إيجاز قصته بهذه السطور. هذا ما حدث، حوالى العام ١٨٦٥. كان مسيو شاريغو صانع خمر، ويملك واحدا من أفضل بساتين الكروم في الناحية. لم يكن يواجه أي مشكلة في بيع نبيذه، وكان يعمل بجهد، وله بيت جميل، وسعيد مع زوجته الشابة. كانت هذه جميلة، وطباخة ماهرة، تحافظ دائماً على نظافة بيتها الذي كان بناءً صلبا، مبنيا بالحجر الأملس، وأرضيته من خشب البلوط، وتلمع كمرآة.

حقا، كانت هذه الأرضية فخر مدام شاريغو، لكنها كانت أيضاً خرابها. كانت تقضي الساعات تشمعها. حين كان زوجها يعود، في المساء، إلى المنزل، كان يترك قطعا من الطين على سطحها النظيف، فكان ذلك يجعلها تستشيط غضبا. ذات ليلة، وقبل أن يدخل، نبهته بالأمر، ولو بطريقة لبقة جداً. فكشط حذاءه على الرصيف ودخل البيت. في اليوم التالي تكلمت بالأمر، مرة ثانية، وفي اليوم الذي تلاه أيضاً. إستمر الأمر بعض الوقت فكان هو يصبر كرمى لإبنته الصغيرة، آلين، التي لم تكن تفهم، بالطبع. ذات يوم، قدم إلى البيت، وحذاءه مغطى بالطين أكثر من المعتاد، لكنه بدلاً من إنتظار النكد، تحجج بأنه نسي شراء تبغ من القرية، فاستدار راجعا ورحل. ولم يتوقف عن الرحيل،

Twitter: @ketab_n

حتى وضع المحيط الأطلسي بينه وبين زوجته. أبناء عمومتي الأمريكان هم أولاد أحفاده.

مهّد مسيو شاريفو بعض الأرض في أمريكا، وحوّلها إلى واحدة من المزارع الأولى في ريد ريفر فالي، في نورث داكوتا. كان السكان، في تلك الأنحاء من الهنود الحمر، ما عداه هو وقس جيزوتي. في عام ١٨٧٠، عاد إلى فرنسا لقتال البروسيين، وأصيب بجراح، ثم رجع إلى البلاد التي إستحق أن يكون واحدا من روادها. جدتي باعت منزلها الكبير في ايسوي، وانتقلت إلى باريس مع طفلتها. وجدي تزوج ثانية، وهذه المرة من فتاة كندية.

ذات يوم، كان ابن عمي يوجين يقضي الصيف في ايسوي. في واحدة من نوبات لطفه البالغ، عرض أن يرتب كوم الحطب الذي كان قاطعو الخشب قد سلموه لتوهم إلى جدتي ميلي. من المدهش أن ترى هذا الرجل الذي لم يكلف نفسه يوماً في حمل أكثر من حزمة حطب، يبدأ بتقطيع زنود الخشب أمام العين الناقدة للسيدة العجوز. بدأ ينزعج من عمله الرتيب، عندما قالت: (أنت لا تعمل بالطريقة الصحيحة. يجب أن لا تضع الزنود الصغيرة مع الكبيرة). (أنت محقة تماماً)، أجاب يوجين بهدوء، ثم فتح ذراعيه وترك كومة الخشب التي يحملها تقع على الأرض، ودخل المنزل ليأخذ قيلولته. لا بد ان رينوار كان معجبا، إلى حد ما، بهدوء أبن أخيه. أعتقد أن علي أن أعطي تفاصيل أكثر عن ابن عمي يوجين.

ربما تذكرون أن عمي فكتور الذي يكبر أبي بخمس سنوات، كان اصبح خياطا. دوق روسي، كان مسرورا جدّاً من البدلات التي خاطها له، فأخذ عمي معه عندما عاد إلى روسيا. تزوج هناك، وصار له ولد يدعى يوجين الذي راح يؤكد أنه روسي أكثر من الروسيين. غدا فكتور خياطا للموضة في سانت بيترسبرغ، جمع مالا، واشترى لنفسه فكتورية بحصانين لفصل الصيف،

Twitter: @ketab_n

وعربة جليد للشتاء، وبيتا ريفيا. غطى زوجته بالمجوهرات، وكانت هذه مثالا للكسل، لأنها كانت نادرا ما تنهض من كرسيها الشيزلنغ، وتتغدى بالكامل على سائل الشوكولاتة. الصغير يوجين، كان يقضي معظم وقته مع الخدم والمعلم الخصوصي الذي جعله يحفظ كل روايات يوجين سو[٨٥] عن ظهر قلب. كي اعطي فكرة عن الجو غير المتكلف الذي تربى فيه، أروي القصة التالية التي رواها له سائق عربتهم، حين كان صغيراً:

أمير ما، كان صديقاً للقيصر، وظف ذات يوم طباخا فرنسيا، اسمه برتران. كان طباخاً ماهراً، ولأن الصلصات التي يحضرها كانت طيبة جداً، بحيث ان كل الذين كانوا يذوقونها يأكلونها حتى يغصوا بها، أطلق عليه هذا الأمير لقب " الصلصة أغصتني ". كان الأمير يعيش في بيت ريفي كبير، قرب سانت بيترسبرغ. ذات ليلة أصاب الرعب إبنته، الشقراء الفاتنة ذات الإثنا عشر عاماً، لرؤيتها الطباخ يقتحم غرفتها. حاولت أن تصرخ، طلبا للمساعدة، لكنه غطى رأسها بالوسادة. ثم صعد إلى فراشها، وحاول إغتصابها. في هذه الأثناء، إستطاعت أن توقع الوسادة عنها، وصرخت، (الصلصة أغصتني ! الصلصة أغصتني !)، سمعها والدها من غرفته التي كانت في الجناح الآخر من المنزل، فرد عليها، وهو نصف نائم، (ما كان عليك أن تأكلي الكثير منها !).

خراب عمي بدأ عندما إشتغل في خياطة البدلات النسائية، إذ جلب له هذا العمل عددا لا يحصى من الزبائن الأناث، اللواتي كان سحرهن لا يقاوم. كلما قلّ وفاؤه لزوجته، صارت هذه ميالة أكثر إلى الرقود في شيزلنغها وأكل الشوكولاتة. في النهاية ماتت من آثار هذا كله. بدد فكتور ثروته على زبوناته

---

(٨٥) الاسم المهني لماري جوزيف (١٨٠٤- ١٨٥٢)، روائية فرنسية، مؤلفة "اليهودي التائه" و"الخطايا السبع المهلكة".

Twitter: @ketab_n

الفاتنات، وأضطر أخيراً إلى بيع بيته والعودة إلى فرنسا مع إبنه يوجين. في ذلك الوقت كانت صحته، هو نفسه، متردية. الكافيار والفودكا، فعلا به ما فعلته أمطار آذار الثلجية وأمطار الخريف لأخيه الأصغر، في ما بعد. أسكنته أمي مع بعض الفلاحين في ايسوي، حيث عاش بسعادة تامة لبضع سنوات. أحب جدّاً البقاء في الفراش، بحيث لم يغادره أبدا.

أذكره جيداً: شبيه لأبي، واللحاف الأحمر الهائل، المحشو بالريش، يغطي سريره. لا بد من الاعتراف، بأني أذكر أيضاً رائحة البول في الغرفة. لأنه لم يكن يرغب بترك فراشه للذهاب إلى المرحاض، كان يستخدم مبولة، موضوعة أسفل الطاولة التي بجوار السرير. كان إستخدام المبولات شائعا في تلك الأيام، لكن ابي وأمي لم يكونا يحبذانها. في رأيهما لا بد للمرء من أن يكون مريضا جدّاً بحيث يعجز عن النهوض في الليل. لهذا كان يُنظَر لهما بإعتبارهما غريبي الأطوار. في واقع الأمر، عندما أسترجع الروابط الشمية في ايام صباي، تعودني الرائحة القوية اللاذعة، المنتشرة في كل غرف الفنادق، وحتى في الغرف الخاصة للبيوت المترفة.

فارق عمي فكتور الحياة، من دون معاناة كبيرة، وافتقده بصدق الناس الطيبون الذين عاش معهم، لأنهم اصبحوا على صلة وثيقة بهذا السيد، صاحب المغامرات. أما ابن العم يوجين، فأخذته أمي وبدأت تبحث له عن وظيفة ما. حصلت له على عمل عند تاجر أقمشة القنب، كان رينوار يشتري منه معدّاته، لكن في نهاية الأسبوع صرف من العمل. ولاقى المصير نفسه تباعاً، بعد العمل عند صانع أطر لوحات، وخياط، وبقال. حذر يوجين أبي بأن الأمر سيكون هو نفسه أينما حلّ. بالرغم من أنه كان لا يزال فتياً، فقد أقسم، بعد رؤية رقاد أمّه على أريكتها، يوماً بعد آخر، بأن لا يرفع يده أبداً للقيام بأقل عمل. حاولت أمي أن تشعره بالخزي، وذكرته بأنه فتى في الثامنة عشرة، وبصحة جيدة وتعليم جيد، وعليه أن يكسب عيشه بيده. لكن دفعه إلى

Twitter: @ketab_n

إحترام نفسه لم يجد نفعا. عندئذ حاولت أن ترهبه بشبح الفقر، لكنه هز رأسه مبتسما، مع تعبير من عناد، وقال بتشدق، وبصوت حاد قليلاً، (أيتها العمة العزيزة، أقسمت أن لا أعمل أبداً، وليس في نيتي، في يوم من الأيام، أن أحنث بقسمي !)، وأضاف، أن الخوف من أن يكون صعلوكاً متشرداً لا يؤثر فيه إطلاقا. حين رأت ان جدالها معه عقيم، طرأت لأمي فكرة بارعة: إرساله إلى الجيش. لم تنتظر ردة فعله على هذا القرار، بل ساقته إلى ثكنات بيبينيه، وجعلته يوقع على خمس سنوات خدمة. عُيّن، في الحال، ضابطاً غير مكلف، لكنه رفض أن يحضر دروس تدريب الضباط، لأنها ضد مبادئه، مبادئ الكسل المحترف. نقل إلى جيش المستعمرات، وبعد إعادة تجنيده مرات عدة، وصل إلى العمر الذي يسمح له فيه بالتقاعد. فعاش على راتب تقاعدي، كان متواضعا لكنه مضمون. عدا بضع مناوشات، ومعارك صغيرة، وإنزالات عسكرية، التي كانت، بالأحرى، تسليه، قضى يوجين الجزء الأعظم من خدمته في الجيش في تحسين شبكة الطرق في الغابات. كان يرقد، طوال الوقت، في أرجوحته الشبكية، لا يُزعَج بالمرة بأصوات المعاول أو صراخ العاملين تحت إمرته، يشجع، على نحو متراخي، كتائب الفرق الملونة على بذل العرق في سبيل مجد الحضارة الغربية. كان تابعوه يعبدونه، لأنه لم يرفع صوته أبدا، عند إعطاء الأوامر. لم يتزوج يوجين ابدا، لأن هذا متعلق بمبلغ معين من النفقات، ولتحمله عليه أن يعمل. مع هذا، فإنه، ذات يوم، كاد أن يستسلم لهذا الإغراء. كان موضع هواه أرملة تنتمي إلى قبيلة من وسط أفريقيا، ولم تكن فقط سوداء كالفحم، بل جميلة مثل قطعة من الأبنوس. لسوء الحظ كانت ديانة قبيلتها تحرم زواج الأرملة الا بعد خمس سنوات من وفاة الزوج. أرسل يوجين، في هذه الأثناء، بواجب عسكري إلى الهند الصينية، فنسى تدريجيا فينوسه الكونغولية.

كان شجاعا جداً، الأمر الذي يعدّ مفارقة، بسبب كسله. ذات مرة،

Twitter: @ketab_n

سكن في البراري، في كوخ، وكانت أفعى كوبرا تسكن فيه أيضاً. أقام يوجين في الجزء الأسفل من الكوخ، بينما أقامت الأفعى بيتها في الأعلى تحت سقف سعف النخيل مباشرة. (كرفيق سكن، لم تسبب أي إزعاج، بالعكس، بفضلها، لم يكن هناك جرذ في المكان. كنت أسمع خطاهم السريعة، فارين من المكان، حين تدخل هي في المساء. كانت تنتقل إلى العوارض التي فوق سريري. كنا، قبل النوم، ننظر إلى عيني واحدنا الآخر لدقيقة، ثم انفخ على المصباح. في الصباح، عندما تخرج من الكوخ، ثانية كانت حركاتها بمثابة ساعة منبهة، أستيقظ عليها).

كان يتقن، بالإضافة إلى اللغتين الروسية والفرنسية، اللغة الصينية للماندرين، كما يتحدث الكانتونية، والاناميت، ولهجات عدة هند- صينية. حين ترك الجيش، عينه واحد من أصدقائه وكيل مبيعات، في كل منطقة سيبيريا، لصنف معروف من الشمبانيا. كان يحب السفر متنقلا بعربة جليد. (لو كنت متدثرا جيدا بالفراء، فإنك قد تحس بالبرد، لكن يمكنك النوم). لكنه كان يتوجب بيع منتوجه للناس، و (هذا يعني، عملاً)، لذا تخلى عن هذه الوظيفة المربحة. في عام ١٩١٤، عندما تجاوز الخمسين من العمر، أعيد تجنيده في جيش المستعمرات، وقاتل تحت إمرة الجنرال مانجان. شارك في عدد من المعارك بالسلاح الأبيض، وجرح في فيردان. ما زال عندي وسامه العسكري الرفيع بين الأوسمة الفرنسية ـ أو، على أي حال، الوسام الوحيد الذي بلغ به شيئاً.

هنا، رسالتان كتبتهما أمي إلى أبي. في الأولى تشير إلى كلبنا "كيكي". لا أذكره، لكنهما كان يتحدثان عنه كثيرا. كان، كما يبدو، كلب صيد مهجناً، ووحشياً تماماً. بالتأكيد، لم يكن الكلب البيكيني الصغير في لوحة "غداء المراكبية".

Twitter: @ketab_n

صديقي العزيز

كيكي توفي توا. أصابه تشنج. لن يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة. أنا حقاً حزينة عليه. أظن أني اجلب النحس للحيوانات. أرغب أن أحتفظ به محنطا. سأسأل رأي لوسترنفي في الأمر. سيكلف ذلك خمسة وثلاثين فرنكا.

مع كل حبي

آلين

صديقي العزيز

ليلة الأربعاء

نضحت المياه من سقف مرسمك، لم يصلح بعد. الشغيلة الذين يفترض أن يأتوا يوم الإثنين لرتقه لديهم حفلة زفاف. الثلاثاء يوم عطلة. واليوم أمطرت طوال اليوم، وقالوا إن عليهم الانتظار حتى يصفو الجو. على أي حال أرجو أن ينتهي الأمر قبل عودتك. أطلعت مسيو شارل على رسم السرير، الذي ترغبه، وسينجزه حالما ترجع. انه يريد التحدث معك بشأنه. أنت تعرف، كم هو عنيد. يفكر بأنه عالٍ جدّاً عليه. يمكن أن تناقشا الأمر.

لا أعرف، إن كان المال سيكفيني حتى نهاية الشهر، لأنه يجب علي شراء بعض الأشياء. ليس لدينا ما يكفي من النقود لستائر كبيرة، لتعليقها على النافذة الكبيرة، التي يدخل منها جزء كبير من أشعة الشمس، انها على الجانب الغربي. مسيو شارل لا يفهم لماذا نرغب بتعليق ستائر كبيرة هناك. هل هذا ما شرحته له أنت؟ الستائر من قماش الكاليكو بجانب العارضة، والتي من الكتان في الجانب الآخر.

لن يكون بإمكاني سوى شراء بضع ياردات من التي نحتاجها. وجدت محلا يبيعون فيه بالقطعة. لكن بما اني صرفت أربعين فرنكا لك، اخشى

Twitter: @ketab_n

انه لم يتبق لدي ما يكفي لشراء المواد. إذا لم تكن لك نية بالرجوع قبل نهاية الشهر، رجاء، أرسل لي بعض النقود. إخبرني، عزيزي المسكين، هل تشعر بالبرد هناك فوق، في الديب؟ نحن نتجمد هنا، في باريس.

هل تجهد نفسك بالعمل؟ وبورتريهاتك، هل ستنتهي منها قريبا ؟ شهر واحد، يبدو لي طويلاً جداً. رحلتنا هذه الشتاء، بدت لي أقصر بكثير من الأسبوعين الماضيين بدونك. أكتب لي، بين الحين والآخر، وأخبرني عن صحتك.

مع كل حبي

آلين

(رحلة هذه الشتاء) لا بد أن تكون الرحلة التي قاما بها إلى بوليو-سور- ميز، حيث وقعت حادثة الخرشوف.

Twitter: @ketab_n

٢٢

كان رينوار يعارض كل الجهود لتوجيه الأطفال الصغار. كان يريد لهم أن يقيموا بأنفسهم اولى علاقاتهم بالعالم. عند الإقتضاء، توضع عصّارة مرّة على ابهام الطفل، برغم انه يعتقد إن ذلك هو تجاوز للسلطة. مع هذا، سيناقض نفسه، عندما يصرّ على إمتلاك الطفل للنوع الصحيح من الألوان والأشياء في البيئة المحيطة به. نصائحه هذه لم تكن نظرية. كان يعرض بيئة "فنية". رغبته الرئيسية هي ان تكون حولنا أشياء بسيطة ولائقة، وبقدر الإمكان، ليست مصنعة بآلات. هذه الأيام أسعار مثل هذه الأشياء المصنوعة باليد فاحشة. كان يطيب له التفكير بعيني طفل تحدقان إلى الصدارات الزاهية الألوان للنساء ؛ إلى جدران مصبوغة بألوان مشرقة ؛ إلى أزهار، فواكه، وجه أم مفعم بالصحة. من جهة أخرى، كان يستهجن العادة التي كانت سائدة في الجنوب، بتعليق أشياء برّاقة على جانب مهد الطفل. لأنه كان يعتقد انها تؤدي إلى أن يصبح الطفل أحولا. كان ضد الإستخدام المفرط للأشياء، مثل ترك ضوء مصطنع ساطع يضيء في عيني طفل، أو وضعه في الظلام التام. في طفولتنا كنا ننام ومصباح ليلي ينير غرفتنا. كان حساساً جدّاً من الضجة غير العادية أو الصاخبة، وبخاصة، صوت إطلاق النار، مؤكدا ان هذا يؤذي حاسة السمع الرقيقة للطفل. لكن في رأي رينوار، إن الغذاء

Twitter: @ketab_n

المصنّع هو الجريمة التي لا تفوقها جريمة أخرى (ليس فقط لأن حليب الأم موجود، لكن لا بد للطفل من أن يدفن أنفه في صدر أمه، يمرّغه فيه، يعجنه بيده اللحيمة)، حسب تفكيره، اطفال قنينة الرضاعة يغدون بشرا (يفتقرون إلى المشاعر الأكثر حنانا، كائنات لا إجتماعية، قد يدمنون المخدرات لتهدئة أعصابهم ؛ أو، وهذا أسوأ، حيوانات متوحشة، خائفين دوما من أن يكونوا عرضة للهجوم). كان يصرّ على حاجة الأطفال إلى حماية حيوانية، إلى الحرارة الواردة من جسد حي، (بتجريدهم من هذه الإمتيازات، فإننا نمهد السبيل لجيل فاقد العقل). كان يرى ان الأم التي لا تطعم طفلها من صدرها، تستحق أسوأ العقاب. ذات مرّة، وصف واحدة من تلك النساء بأنها (ليست أفضل من عاهرة)، لكنه سرعان ما استدرك مصححا، عندما تذكر انه عرف عاهرات كن يحملن، بعمق، مشاعر أمومة، ومحبات لأطفالهن.

قاعدة اخرى لرينوار، خاصة بتربية الأطفال الأكبر سنا: يجب أن لا يوجد في البيت اثاث بحافات حادة، يمكن أن يصدموا رؤوسهم به. أول اجراء كان يتخذه عندما ينتقل إلى مسكن جديد، هو تطريق زوايا البلاطات الرخامية لرفوف المواقد، ليجعلها مدورة وينعمها بكاغد الرمل. كان يفعل ذلك بدقة شديدة. زوايا الطاولات تعالج بالطريقة نفسها، لكن بمنشار. كان يمنع الجميع من تشميع الأرضيات، ويطلب منهم أن يغسلوها بالكثير من الماء. كان يخاف من الحمامات ذات البورسلين المصقول بوجه خاص. (انها، كما لو كنت تمشي على قشرة موز، معرّضا نفسك لخطر إنفلاق رأسك). كان يختار بنفسه فراشي أسناننا، مفضلاً ذات الشعر الناعم، كي لا تضر بطلاء الأسنان. كان يعتقد، ان أي جرح أو أذى يقلل من قيمة الجسم، وكذلك العقل، بالقدر نفسه، لأن الجسدي والعقلي مرتبطان بإحكام ببعضهما البعض. كان صارما جدّاً إزاء السماح للأطفال باللعب بالأبر أو السكاكين وعلب الثقاب والزجاج. وكان يحرص على أن تكون الألواح في الجزء السفلي من الأبواب

Twitter: @ketab_n

مغطاة بلوح من الكرتون. كان يمنع حتى الماء القاصر في البيت. من أجل شرح هذه القواعد لمدام ماتيو، التي كانت تعتقد انها قواعد متخلفة، روت لها غابريال قصة، جعلتاني اعاني كوابيس رهيبة. عامل في منشرة، في ايسوي، جاء إلى البيت ذات ليلة، بعد أن إحتسى الكثير من الخمرة، ولأنه أحس بالحاجة إلى المزيد منها، شرب من أول قنينة وقعت في يده. ثبت، في النهاية، ان الشراب كان ماءً قاصرا، فمات الرجل وهو يعاني آلاما مبرّحة. (تقيأ أحشاءه في كل أرجاء البيت).

كانت كل المطهرات والمواد الملمعة، بالإضافة إلى الأدوية، تحفظ بعيدا عن المطبخ. لتلميع النحاس نصح رينوار بإستخدام الرماد، من الموقد، حيث يحرق الخشب فقط. مدام ماتيو وغابريال تمردتا على هذه الفقرة، إذ قالتا ان رماد الخشب لا يلمع جيدا. لم يكن يطبخ شيئاً في أوعية مطلية بالمينا. كمثال عن خطورتها، روى أبي حادثا، وقع ذات مرة، عندما كان يتغدى مع غاليمار في فندق فخم، في نيس. كان يتناول البيض المقلي، فشعر بشيء صلب بين أسنانه، كانت قطعة من المينا، بحجم قطعة النقد، رفيعة مثل موسى الحلاقة. (لو ان طفلا، وهو أقل حرصا من بالغ، تناولها، فإنه سيبتلعها، معرضاً نفسه لخطر تمزق داخلي). عرض الرقاقة على كبير السقاة في الفندق، فأخذها هذا بعناية بين أصابعه، وقال، (يحدث هذا كثيراً هذه الأيام. المينا، في اواني مطبخنا، هشة جداً. لا بد ان الوجبة الأخيرة منها فيها خلل).

لم يسمح أبي لي، حتى بلغت الثالثة من العمر، برؤية عرض للدمى المتحركة مع غابريال في الغينيول (مسرح الدمى). كان رينوار لا ينصح بالذهاب إلى العروض التي كانت تقام في الشانزليزيه، لأن الشخصيات فيها ترتدي ملابس خليعة، وأزياء حريرية تلمع أكثر مما يجب. لكنه أرسلنا، بدلاً من ذلك، إلى "غينيول" التويلّري الذي كان يلتزم بأفضل تقاليد مدينة

Twitter: @ketab_n

ليون. أول أداء شاهدته، كان بالنسبة لي، تجربة لا تنسى أبدا. في البدء، كنت مبهورا تماماً بالستار المسدل، الرسوم المقلدة لستائر الجوخ الحمراء والذهبية. أي غوامض مروّعة تقبع خلفها؟ كانت "الاوركسترا" تتألف من أكورديون وحيد، صوته الأجش، جعلني أتحرّق شوقا لبدء العرض. عندما إرتفع الستار، أخيرا، عن ديكور ساحة عامة، تملكتني الإثارة، فبللت بنطالي. وأعترف، ان رد الفعل هذا، كان مفيدا لي، حتى هذه اللحظة، لأنه، بالنسبة لي، بارومتر لتقويم جدارة أي مسرحية جديدة. لا أعني بأني كنت أذهب إلى ذلك الحد، لكن رغبة معينة، قابلة للتحكم، لحسن الحظ، كانت تحذرني، مثل صوت داخلي، (إنتبه، قد يكون هذا العرض مهما، فإمسك نفسك !). ذات مرة، أفضيت بدخيلة نفسي إلى أبي، والمدهش، انه أجاب، (أنا أيضاً!). جرّبت هذا الإحساس الممتع عندما حضرت أداءً لباليه "بتروشكا".

كان رينوار مولعا بالفينيول الليوني، لأنه بقي وفيا لأصوله. نحن نعرف انه لم يكن يؤمن بالتقاليد التي تعلّم في المدارس، لأنها تقاليد بالاسم فقط. لكنه كان يقدر الأصالة في العادات المحلية. ستارة المسرح الخلفية، في النوع الليوني في مسرح الدمى، تمثل أرصفة الميناء بمحاذاة نهر ساون، ببيوتها الكامدة التي تبدو نوافذها وكأنها ثقوب، رتيبة بلا نحت أو أطر. الشخصيات فيه ترتدي أزياء رمادية غامقة، أو ضاربة إلى اللون البني، مثل لون سماوات ليون. غينيول بقبعته المقرّنة وهراواته ومعطفه الفرو، كان يبدو لرينوار تسلية جديرة بكل طفل ـ تثمين كهذا، يصدر عنه، له أهمية كبيرة.

كان يحدث غالبا ان الأصدقاء الذي كنت أفصح لهم عن ذكريات كهذه، يقولون لي، بصراحة، ان تربية من هذا النوع ليس من المحتمل أن تعد طفلا لخوض معركة الحياة. انهم محقون تماماً، لكن أبي، لم يكن مهتما، بتدريبنا كي نصبح مقاتلين. كان أبواي يأملان أن يسلحونا ضد العدو بتعليمنا أن نعمل من دون رفاهيات، وحتى وسائل الراحة المادية. (السر هو الحصول

Twitter: @ketab_n

على حاجات قليلة). اذا ما تحتم علينا، أنا وأخوتي، أن نعيش في كوخ، وأن لا نأكل شيئاً سوى الخبز اليابس، فلن نكون الا سعداء تماماً. كان يمنعنا أن ننفر من هذا النوع من الطعام أو ذاك. اذا ما رفض الواحد منا طبقاً من البازلاء، يدعه يعرف بأنه لن يحصل على شيء آخر سوى البازلاء، حتى يذعن، في النهاية، ويأكلها. صرامة كهذه، ليس دافعها الرغبة بجعل حياتنا أسهل، بل، أيضاً، انه، في ميزان رينوار للقيم، الطفل صعب الارضاء هو دليل على التنشئة السيِّئة. ربما كان يكيِّف نفسه على أننا قد نصبح متسوّلين، لكن لصوصاً؟ أبداً!

كنا نستخدم مصابيح زيتية من النوع الذي إذا قلبه طفل لا يتسبّب بحريق. كانت مصابيح معقدة جداً، بمضخّة صغيرة، تحافظ على الشعلة متقدة. كانت تشع ضوءاً ناعماً جداً، ميزة، كان رينوار يفضلها على نحو خاص، بما أنه كان قد تحدث مراراً عن حماية بصر أولاده، بالإضافة إلى بصره هو. لم نستخدم مصابيح الكيروسين الا بعد فترة طويلة، حين بلغت سن الرشد، وحين بلغ أخي كلود المرحلة العابثة، صار عندنا الكهرباء. (مع مظلة مناسبة لحماية العينين من ضياء المصابيح الكهربائية المتوهجة، فليس هناك ما هو أكثر امانا).

كنت رويت كيف كان والديّ يعودان مسرعين من المسرح ليطمئنا على أخي بيير الذي كان طفلا صغيرا. بعد إنتقالهما إلى شارع لاروشفوكو، وجدا حلا لهذه المشكلة، بعدم الخروج أبداً في الأمسيات، حتى صرنا كبيرين كفاية للخروج معهما.

لم تستخدم أمي العطر أبدا. في المقام الأول، هي لم تكن مهتمة به، ومن ثم كانت تعتبره يضعف حاسة الشم، مثل أدخنة الفحم الناعم أو الغاز المتسرب الذي كان الجميع، حين يشتبهون برائحته، يهرعون إلى فتح

Twitter: @ketab_n

النوافذ. من جهة أخرى كانت تسمح بماء الكولونيا، وتستحسنه أيضاً. في فرنسا، لم يكن يعد عطرا، بل كمنعش، يستعمل بعد الإستحمام. كانت أمي بعد أن أستحم في الصباح، تفرك به جسمي حتى يصبح أحمرا لامعا. مادة أخرى، كان والدي لا يسمح بها في البيت، هي شمع الودك، لأنه يعطي ضوءا (مبتذلا). كل الشموع، التي كنا نستخدمها، كانت من شمع اللك.

كانت هناك أشياء أخرى يحذرنا رينوار منها، مثل الثقاب الذي يمكن أن يشعل على أي سطح خشن، لأن الدخان المشبع بالكبريت في المصانع يضر بصحة العامل. كان يصر على الثقاب الأمين، الذي هو أقل خطرا على العاملين.

كما أشرت في صفحات سابقة، كان يعتبر أي جرح أو خدش يصاب به الجسم بوصفه إنتهاكا للحرمات. ولأن هناك دائماً خطرا بأن يجرح المرء نفسه بموسى الحلاقة، فإن إستخدامه يرعبه. كان لا يسمح لأمي بحلاقة ساقيها، ولا يحب أن يرى أخي بيير بذقن محلوقة.

كان لا يدعنا نخرج في الشمس من دون قبعة. لم يكن خائفا من ضربة الشمس بقدر خوفه من تأثير أشعتها على مؤخر المخ (بوجه خاص، هذه الأيام، لأن العادة الغبية للشعر القصير، صارت سائدة). كان يؤمن بأن خلفية الجمجمة هي مركز الإدراك الحسي، وتمييز الفوارق الدقيقة. بتعريض هذه الجزء الرقيق من الدماغ للأشعة فوق البنفسجية، يتعرض إلى خطر ليس فقط القدرة على تكديس المعارف، بل أيضاً القدرة، الأكثر أهمية، بتمييز الألوان والأصوات. (لا بأس على من يريد أن يكون مثل ميشيليه أو باستور أن يمشي حاسر الرأس، لكن إن أردت أن تكون ملهما مثل روبنز، فالأفضل أن تضع قبعة على رأسك). كان لا يحب النظارات الملونة، لأنها تشوه قيمة الألوان في الطبيعة. وكان يغيظه التفكير بالناس الذين ينظرون إلى اللوحات من خلالها.

Twitter: @ketab_n

بالطبع كان يمنع المواقد المشتعلة ببطء، والتي تبقى طوال الليل، وأكثر تشددا من أي شي آخر حولها، لأن حادثين مهلكين وقعا لأشخاص يعرفهم: مدام زولا، وعمتي ميلاني، زوجة ادمون رينوار. حكت غابريال كيف أن عمتي ميلاني (وُجدت، ذات صباح، ميتة في فراشها، وجسمها مزرق كله).

لا انتهي من الإسترسال في الحديث حول موضوع ميل ونفور أبي. إن لم أفعل هذا، من الذي سيفعله ؟ وربما الناس، في المستقبل، سيهتمون أكثر بهذه التفاصيل، وتعتبرها مهمة للغاية. سأكون مسروراً جداً، لو أن أحداً ما أسهب لي في وصف قائمة طعام مؤلف "الناسخ المقرفص" لما كانت لدي أي رغبة في معرفة لائحة إنتصارات رمسيس الثاني.

شقتنا في شارع لاروشفوكو كانت تقع في الطابق الخامس، في تقاطع شارع لابرير. كلما كنت في باريس، أمرّ من هناك، تقريباً، كل يوم. أنظر إلى الاعلى، فأرى، ثانية، الشرفة الكبيرة التي تطل على شارعين، وأعود بالزمن الذي كانت فيه هذه الشرفة ملكيتي الخاصة. كان أبيس، خوفاً من أن أتسلق فوقها وأسقط، وضع شباكاً على سياجها. كنت مهووساً بالتسلق. لم يتوفر له الوقت لطلاء الحيطان بالرمادي، وكما أذكر، بقي خشب الجدران داكنا، لكن فوقها، كانت اللوحات معلقة بشكل متقارب، تكاد تتلامس. كان يراود الزائر إنطباع بالدخول إلى حديقة زاهية الألوان، مليئة بنباتات من وجوه وأصابع. بالنسبة لي، كانت شقتنا عالما طبيعيا، وفقط حين أرى بيوت الناس الآخرين، كنت أشعر بأني في عالم غير واقعي.

أي رحلة قصيرة كنا نقوم بها في ما وراء حدود منزلنا، كانت تتم تحت إدراة أمي. أبي كان على الدوام في مرسمه، الذي يبعد مسافة قصيرة عن المنزل. وحيث ان غابريال صارت عنصرا دائماً في حياتنا، كانت هي المسؤولة عن أمور المنزل. بقيت أناديها بيبون. لم تكن، وقتذاك، بدأت بالوقوف عارية

Twitter: @ketab_n

للرسم، وكانت تذهب إلى المرسم فقط لمرافقتي، عندما كان رينوار يرغب برسمي، أو عندما نذهب اليه في المساء لنعود منه ماشين نحو البيت، كنا نرجع سوية عبّر شارع لاروشفوكو، وكنت أتوسل إلى رفيقيّ للتوقف لحظة أمام مركز الشرطة. كنت مأخوذا بالبزات النظامية لرجال الشرطة، وعزمت أمري على أن أصبح شرطيا، حين أكبر. حالما نصل إلى البيت، كان رينوار يذهب ليرى كيف تسير الأمور في المطبخ الذي كان كبيراً ومشمساً، ويطل على الجنوب، على شارع لابرير. كان لا يقبل أبداً أن يسكن في بيوت ليس لها مطبخ (مفرح). أثناء اليوم، كان الخدم أوالموديلات يحتلّون كل الغرف الأخرى. كانت أمي تشرف على عمل البيت ممتعضة، لأنها لا تستطيع القيام به بنفسها، بسبب التعب الذي يصيبها بسرعة. عرفنا، في ما بعد، مصدر تعبها ؛ انه داء السكري. علاجه الانسولين، ولم يكن قد اكتشف بعد. كان وقت فراغي المفضل عندما لا أكون خارجا للعب في ساحة دو لاترينيتي، تحت مراقبة بيبون، هو التعثّر بأرجل كل من في البيت. فكانت مدام ماتيو، طباختنا الدائمة، لا تتعب من تكرار قولها، بأن ابنها فرنان عندما كان في مثل عمري، كان في المدرسة منذ وقت طويل، يا للأسف. هذه المدرسة، كانت معهداً يديره الأخوة الرهبان، حيث كانوا وحدهم، بين المدارس العامة، الذين يقبلون الأطفال الصغار جداً. عندما كان يأتي إلى البيت، في المساء، كان أبوه لا يمل من تحذيره من الأكاذيب التي قد يسمعها من الاكليركيين. (إذا قالوا لك أن الأرض منبسطة، إفعل، كما فعل غاليليو: إبق هادئا واستمع لما يقوله عقلك). برغم إشارات مدام ماتيو حول موضوع المدرسة، كان أبي يرفض دخولي المدرسة مطلقا، (ليس قبل أن يبلغ العاشرة)، كان يقول.

(سيكون قادرا على اللحاق بهم في بضعة شهور)، ولسبب خاص، وهو ولادة أخي الأصغر كلود، الذي سمح بتخفيض هذا الحد من العمر إلى السابعة. زد على ذلك، وسّع نظريته حول التعليم لتشمل ليس الأفراد، بل

Twitter: @ketab_n

أيضاً الأمم والأجيال وحتى القرون. كان ينسب إزدهار امريكا إلى واقع أن الأمريكيين كانوا أبناء مهاجرين فقراء، جيل تحدّر من أسلاف أميين. (الآن، وقد فتحوا بلاداً بكراً، اقاموا مدارس، وكانت النتيجة مدهشة. لكن أحفادهم، بعد جيلين من الآباء المتعلمين، سيكونون أغبياء ومتبلدي الذهن، مثلنا نحن).

عندما كنت صغيراً، لم يكن أبي يرضى أن يكون شعري قصيراً. بعض كتّاب سيرة رينوار أكدوا ان السبب وراء إصراره على إبقاء شعري الأحمر طويلاً لأنه كان يحب رسمه. هذا صحيح تماماً، لكن كانت هناك أسباب أخرى، لها الثقل نفسه. رأس بشعر كث يوفر حماية معتبرة ضد السقوط أو الضربات، كما ضد خطر أشعة الشمس. (إن لم ندع الأطفال يتمتعون بالحماية التي توفرها لهم الطبيعة، علينا،إذاً، أن نقول لهم أن يحترسوا، وهذا سيء لعقولهم الفتية، بقدر سوء التعليم المتيسر).

كان يشفق، إلى حد ما، على الصبيان الذين يظهرون مهارات فائقة في سن مبكرة. (المخلوقات الصغيرة المسكينة). كان يؤيد واحدا فقط ذلك هو موزارت. (كان يتحلى بالعبقرية، وهذا يشكل فرقا كبيرا). كانت أمي تتفق معه بالكامل حول مسألة الصحة والوظائف الجسدية، حتى انها كانت تسمح لي بالتبول متى ما دعت الحاجة إلى ذلك، بصرف النظر عن أي شيء. وبما أني لم كن متزمتا بالتمسك باللياقة، كنت أصرخ: (ماما ! بيون ! بيبي) كانت سيدات المجتمع يبتسمن إزدراءً، لكن أمي لم تكن تبالي مطلقا. وكان دكتور بودو، والد عزّابتي، يستحسن ذلك. من جهة أخرى، كانت أمي تمتعض من تصرف معين لي، على سبيل المثال عندما كان فولار يطرق على بابنا، وأفتح له الباب، وأركض صائحاً: (ماما، انه القرد!)، أو (انه الزنجي، ماما !). لا بد اني سمعت ديغا يشير اليه بهذه الصفات، لأنه كان يكره الـ"

Twitter: @ketab_n

métèques"[٨٦]، وكانت شكوك لديه حول أصول فولار. لكن أبي كان يرد على أمي، حين تؤنبني، (إذا منعت جان من التفوه بكلمة زنجي، فسيأخذ فكرة أن الزنجي كائن وضيع، وسيكون هذا غبياً). كان يخشى، دائماً، من أن التقديرات الإعتباطية، من هذا النوع، قد تدفعني إلى تبني قيم خاطئة. أما رأي أمي، فكان بأن صفعة محترمة ستعالج أي سلوك خاطئ. لكني كنت مولعاً حقاً بفولار. أذكر، عندما رأيته مرّة ثانية، بعد أن دعوته بالقرد. وقف أمام أمي، مرتبكاً تماماً، وقال، (قولي لي مدام رينوار، هل أنا بهذا القبح حقا؟). تلك كانت مأساة فولار في السر، يتوق أن يكون وسيماً، وكان كذلك فعلاً. لكن هذا، كان ظاهرا لرينوار وسيزان فقط. للناس العاديين كان مخلوقاً غريباً. عطيل في بزة رجل أعمال سيدهش أي شخص تقليدي. توصل فولار في النهاية إلى إدراك بأن مودتي له، كانت صادقة، وبأني لا أقصد إهانة مشاعره.

موضات معينة كانت تروّع أبي. نحن نعرف نفوره من المشدات والكعوب العالية. وصفه لمساوئها كان مذهلا جداً، بحيث أني كنت، لفترة طويلة، أعتقد ان اللواتي يعتلين الكعوب العالية لا يمشين الا وهن يعانين ألما مرعبا. (رحم ساقط، هو أمر محتوم)، قال لي، ناسيا بأني كنت في السادسة من العمر فقط، وهذه الفكرة، عن رحم يسقط، سببت لي كوابيس.

إقاماتنا القصيرة في جنوب فرنسا (الميدي)، كانت تغدو أطول، كل عام، وبدأت تدوم في فصل الشتاء كله. راح رينوار يشعر أنه بحاجة إلى أشجار الزيتون الفضية، في البروفانس، تماماً، مثلما إنجذب قبلها، بخمسة وثلاثين عاما، إلى البساتين الخضراء المزرقة، في غابة فونتانبلو. تكفلت أمي بأن تجعل هذا التغير في حياتنا ناعما جداً، وبالتالي، إنتهى الأمر بي بأن

---

(٨٦) المستأمن (الأجنبي المقيم أو المستوطن في غير بلده) أو الدخيل.

Twitter: @ketab_n

أصبحت، أنا المولود في باريس، جنوبيا متأقلما، في سنوات صباي المبكرة. أما بيير فظل في مدرسته الداخلية في نويي، مدرسة سانت- كروا، وكان سعيدا تماماً، يشجعه معلموه على المضي قدما في طموحه المسرحي.

من بدء الفترة التي عشنا فيها في رو لاروشفوكو، فصاعداً، صارت لي ذكرياتي الخاصة بي عن رينوار. فلا أزال بوسعي رؤيته في ذهني، وهو يأتي، كل مساء، ليقبلني في فراشي قبل أن أنام. اكثر ما يؤثر، حين أعود في الزمن، الذي بدأت فيه أول مرة أعي حقاً العالم الذي يدور حولي، هو اليقين الراسخ بصلابة رينوار. كل شيء يفعله بدا لي محتوما. يعتقد الطفل، عادة، أن أبيه مركز الكون. أنا لم أكن أعتقد هذا. كان أبي يؤمن ان كل كائن بشري له وظيفة خاصة على الأرض، ليست أكثر أو أقل أهمية من وظيفة البشر الآخرين، من أجل أن لا يؤثر على حياتنا. لكني كنت واعيا بأن ما فعله في الحياة، كان هو بالضبط المقدّر له أن يفعله، وأن دوره هو بالضبط ما خلق من أجله. غريزتي كطفل متشيطن كانت تقول لي، أن أبي كان لا يراوده الشك أبدا. وهذه حقيقة. (لم اكن أعرف، إن كان ما أعمله جيدا أو سيئا، لكني بلغت المرحلة التي بها لم أعد أبالي بأي شيء). "الفلينة" وجدت التيار الذي كتب القدر عليه أن يتبعه. حتى ذلك الحين، كان يتظاهر بأنه كان يقبل نصائح الناس، وأنه متأثر بها. لكنه عاجلا، عاد إلى طريقة التعبير الخاصة به. اعتقد انني أوضحت، كيف كان تردده ظاهريا، وكيف كانت، تحت سطح هذا التردد، تكمن إرادة قوية عمياء، يمكنني ان أدعوها، أيضاً، إرادة لاواعية. (لكن هذا، جعلني أخسر وقتاً).

بعد مرحلة شاتو ديه بروبار، توقف عن الإستماع إلى الآخرين. حتى انه توقف عن زيارة المتاحف. بالرغم من تأكيداته وأقواله التي عبّر عنها في مقدمة كتاب تشينينو تشينيني، فإنه لم يعد ينظر إلى أعمال الأساتذة القدماء. تقنيته أخذت شكلها النهائي، وعلى نحو فريد. وكان كلما يتقدم به

Twitter: @ketab_n

العمر يعزل نفسه عن كل المنجز الذي قبله. اذا كان رسمه، ولاسيما في نهاية حياته، بلغ مستوى الفنانين الكلاسيكيين العظام، والذي إنضم به إلى جماعة تيتيان وروبنز وفيلاسكيز، فذلك لأنه، ببساطة، انتمى إلى العائلة نفسها. كان رينوار سيكره سماع ما أقوله هنا، لكن أنقضى زمن كافٍ على موته، يسمح لي أن أكون في حل من إلتزام التواضع الكاذب، الذي يتظاهر به الناس عندما يتحدثون عن الأعزاء والقريبين لهم.

إذاً، رينوار، الذي كنت أسرع بفتح الباب له في اللحظة التي أسمع بها وقع خطاه على الدرج، كان هو رينوار الذي إستدل تماماً على طريقه، ومشى فيه واثق الخطى. كان في صحة تامة، ودفء الميدي، بدد الإلتهاب الشعبي الذي كان عرضة له. وصار ذهنه متحفزاً، أكثر مما كان من قبل. كان هادئاً في طبعه، يذهب إلى النوم مبكراً، سعيداً مع زوجته وأولاده وأصدقائه، وكان قادراً على تكريس مقدار لا يصدق من الوقت على ملاحقة السر الذي كان يشغله أكثر. لقد انقشع الآن جُل الضباب الذي كان يعيقه منذ وقت طويل، وانكشفت الكثير من الحجب. إكتشاف واحد قاد إلى آخر، وكان قاب قوسين أو أدنى من بلوغ النقطة، التي يمكن أن يقول فيها، (أعتقد أنني حققت ما أريد !).

قبل أن أبدأ بهذه الفترة الأخيرة، أود أن أسترسل ثانية بالحديث عن الفنى الروحي والمادي، اللذين مهدا لها. من جديد، سأستحضر آراء، وجهات نظر، وتفاصيل لا أهمية لها في الظاهر. وسأحاول أيضاً أن أعيد الحياة للزوار الرئيسيين لشارع لاروشفوكو، في الوقت، الذي كان رينوار في كامل عافيته البدنية. أبدأ مع بول دوران- رول، أو " العجوز دوران "، كما كان الجميع يدعونه. كان هذا النعت يطلق عليه تحبباً، لكن لا أنا ولا بيبون كنا نجرؤ على إستخدامه بحضوره. أصفه، كما كان في ذاكرتي، برجل صغير مقارنة بفافر، الذي كان يبدو لي ضخماً، بديناً إلى حد ما، ببشرة "رينوارية وردية"، وأنيقا،

Twitter: @ketab_n

برائحة طيبة تفوح من شخصه. كنت، لوقت طويل، كلما أقرأ رواية عن ناس "طيبين"، يحضر في ذهني، كشخصية رئيسية، مسيو دوران- رول. كان شاربه الأبيض الصغير دقيقا مثل إيماءاته. كان دائم الإبتسام، ولا أذكر يوماً سمعته يرفع صوته. كان يرهبني كثيراً بحيث عندما كان يدخل من الباب، كنت لا أحجم عن الصياح، (بيبون ! ماما ! انه العجوز دوران!)، برغم أني أهابه لكني كنت أثق فيه، فكنت أبوح له بأسراري، مثل ذلك السر عن صبي الجزار، الذي أتى، ذات يوم، إلى بيتنا ليسلم اللحم، فوجد إبنة مدام ناتيو، ريموند، وحدها في المطبخ، فبدأ يغني لها الاغنية الآتية، والتي تبدو أغنية فاحشة:

C`est un p`tit bou-bou

C`est un p`tit boucher

Qui vend d`la bibi

Qui vend d`la bidoche[٨٧]

وأنهى أغنيته بمحاولة خلع بنطاله، لكن ريموند أوقفت العرض بضربه بعصا المكنسة. طلبت منا أن لا نخبر أحداً بالحادث، لأنه قد يجلب لها سمعة سيئة. (قضية شرف).

جوزيف دوران- رول، الإبن، كان يعجب رينوار، بسبب دقته. كان ابيه حوّل تجارة اللوحات من مجال التزيين إلى مجال المضاربة. جوزيف وجورج، عرّابي، وسعّا، في ما بعد، مع بضعة تجار كبار آخرين، تجارة اللوحات إلى الحد الذي أصبحت فيه نوعا من سوق أسهم. إذا ما عدت اللوحة، هذه الأيام، أسهما خاضعة لتقلبات العرض والطلب، بغض النظر عن أذواق الجمهور، فإن

---

(٨٧) هذا بويو صغير / هذا جزار صغير / يبيع البيبي / يبيع اللحم.

Twitter: @ketab_n

آل دوران- رول هم المسؤولون، جزئيا عن ذلك. إما أن يكون هذا الأمر سيئا أو جيدا فتلك مسألة أخرى. أبي كان ضد هذا النوع من المضاربة، حتى مع اعترافه، في ما بعد، بأنها في الأمد الطويل، تنفع الفنان. عدم ثقته بالأعمال الكبيرة لم تؤثر على صداقته المخلصة لـ (أولاد دوران). كان يدرك أن هذين الشابين الماهرين كان عليهما أن يماشيا العصر، فهذا قدرهما. لكنه، برغم قبوله الأساليب العصرية لتجارة الفن، لم يكف عن الأسف على غياب أمثال ميديتشي. (انها ليست لوحة تلك التي تعلقها على جدارك، هذه الأيام، بل هي إستثمار. إذاً، لم لا نؤطر أوراق الأسهم المالية لشركة سوز كنال؟)، ثم، يضيف مباشرة، قائلا، (عندما أكون في رحلة، وعندما أطلب مقدما سلفة من العجوز دوران، فهذا ملائم جداً)، ثم قال مختتما: (المصرف ليس مؤسسة مبهجة، لكن الحياة العصرية رتبت بطريقة، بحيث لا يمكن الإستغناء عنه. انه طريقة تتجانس مع السكك الحديد والمجاري والغاز وعمليات الزائدة الدودية).

كان يطيب لأمي ان تفكر بالقيام بدور الخاطبة بين جين بودو وجورج دوران- رول، وفي سبيل هذا طلبت منهما أن يكونا عرابيّ. دعونا نرجع إلى الوقت الذي عمّدت فيه في كنيسة سان بيير دو مونمارتر. في ذلك اليوم إنتعشت آمالها بعض الشيء بإنفاذ مخططها. كان الجو جميلا، والملابس الزاهية الألوان التي ارتدتها أمي وصديقاتها تتباين بحدة مع الجاكيتات السود، والأردية المخرّمة تتمايل وسط القبعات السوداء العالية، ويتنافر الصداران المخططان الرائعان، من قماش الطرطان، مع القبعات التي تتوج رؤوس بنات هيوز، وهي عبارة عن سلال ضخمة مغطاة بطيور محنطة وأزهار بتويجاتها. كان محط أنظار المدعوين ابن العم يوجين، في بدلة المشاة الكولونيالية، المزينة بأوسمة، نالها في بلاد بعيدة. جوزفين، بائعة السمك، قالت، انه أجمل حفل تعميد رأته في حياتها في مونمارتر. رميا، جين بودو وجورج دوران- رول، الكثير من اللوز المحلى التقليدي، بحيث أن الأطفال أتخموا به، ولم يحتاجوا

Twitter: @ketab_n

للعراك من أجل المزيد. كان لأبي برميل خشبي من نبيذ فرونتنيان، أرسله له أصدقاؤه من الجنوب، فقدمته غابريال لكل الضيوف خارجا في الحديقة. وكان أبي إشترى أيضاً، فولوفان (فطائر باللحم أو السمك)، من محل بوربونو نفسه، وإختار البريوش من محل مانغان (البريوش الوحيد المحترم في باريس).

أولئك المدعوون كانوا الحلقة المألوفة من الأصدقاء: آل كاييوت، بما فيهم الأخ الأصغر، القس، فافر، لسترونغي، ابن العم يوجين، وجيران مختلفين. في البداية كاد حضور القس كاييوت أن يثبط من عزيمة الجماعة. لكن عندما روى قصة المرأة التي جاءت إلى الكنيسة للاعتراف، طالبة منه السماح لها بالإستحمام عارية تماماً، تنفس الجميع الصعداء وأخذوا راحتهم أكثر. طلب فافر أن يتبادل الملابس مع القس. أخي بيير، كان، كالعادة، صامتا، لكن بعد بضعة كؤوس من خمر ايسوي بدأ يتلو قصائد من مشهد المعركة في مسرحية " السِيّد"، على صبايا البيت المجاور. أثناء تناول الحلوى أخذ فافر يسرد قصة محفوفة بالمخاطر، فنخسه أبي من تحت الطاولة، ليذكره بان جين بودو جالسة معهم. كان لا يسمح بترديد أي شيء منحرف امام الفتيات الصغيرات. مع ان مؤلفيه المفضلين كانوا يشتملون على لافونتين، وبكاشيو، والملكة نافار، لكنه كان يعتقد بأن تترك بنات أصدقائه يكتشفن هؤلاء المؤلفين بأنفسهن بعد فترة مناسبة. وللدقة، كان يخشى من اللهجة الداعرة التي يستخدمها بعض الناس في روايتهم للقصص البذيئة، والتي قد تعطي المستمعات الشابات فكرة حمقاء عن الأشياء الطبيعية جداً. كان يحترم كثيراً آراء الناس الآخرين وقواعد السلوك. وحيث ان هذا الصنف من الفكاهة، كان يغضب أغلب الآباء، فلم يكن من واجبه أن يخبر الأطفال أن هذه الآراء خاطئة. في يوم ما ستتحرر النفوس من الإحتشام المفرط، ورينوار أسهم في ذلك، برسمه العاريات بصفاء قلّ مثيله في تاريخ الفن. مهما يكن

Twitter: @ketab_n

أمر موقفه المليء بالإحترام من النساء، كان غالباً ما يذكره لي أصدقاؤه، الذين يعرّفونه بالفروسية. (رينوار)، قال ريفيير، (كان يمكنه أن يعيش في "بلاط الحب"[٨٨]!).

بعد مأدبة التعميد، نهض الجميع من المائدة، وأخذوا يتمشون في أفياء الشاتو ديه برويار. بعض الضيوف، ذهبوا لرؤية الماعز التي اشتراها مسيو غريس لتوه. وكان هذا، بالرغم من حرارة الجو، يرتدي، كما هي عادته، قلنسوة من جلد الأرنب. عندما تهيأ عرّابي للانصراف، قبّل عرّابتي، جين بودو، قبلة الوداع. فأومأت أمي إلى أبي، وكانا مسرورين. بعد بضعة أيام، دعا جورج دوران- رول والديّ على العشاء، للتعرّف على سيدة قدمها لهم بكونها رفيقته. كانت امريكية إلتقاها في الولايات المتحدة، حيث كان يذهب في رحلات عمل. آل دوران- رول، كانوا ينوون تشييد بناء في شارع فيفتي سفنث، لغرض إستخدامه غاليرياً لهم. أمي وأبي وجدا في صديقة جورج الامريكية (امرأة مثالية)، فوضعا خطتهما الزواجية جانباً.

كان عرّابي يدللني كثيراً. ذات يوم، حين قدم إلى شارع لاروشفوكو، جلب لي معه بوليشينيل - دمية كبيرة بحجمي، حالما رأيتها صرخت من الرعب. لا أعرف لماذا كرهت هذه الشخصية، في شكلها الانكليزي كمستر بنتش. كنت أحب دمية النابوليتاني، المرتدي ثياباً بيضاء، واسعة جداً عليه. كان لي هوى، أيضاً، في لعبة "جنود نابوليون"، فكان عندي عدد كبير منها. أحبهم أبي كذلك، وكان شغوفا بالمصنوعين منهم في نورمبرغ. عندما قال له صديق إن ميلي لمثل هذه الألعاب قد يجعل مني عسكرياً، في المستقبل، رد عليه، (في هذه الحالة علينا أن نبعده عن لعب المباني، فقد يجعله هذا معماريا). ربما

---

(٨٨) عنوان أوبرا للموسيقار كارل زف

Twitter: @ketab_n

تذكرون كيف كان رأيه سيئاً في المعماريين. الصديق نفسه، إعترض، حتى أكثر، عندما رأى أخي بيير مع لعبة على شكل مذبح كنيسة مصغر، مجهز بكل اللوازم الضرورية للقداس. (ماذا ستصبح، حين تكبر؟)، سأل أبي بيير، (ممثل)، أجاب بيير بصراحة. تمهل رينوار مفكرا للحظة، ثم إلتفت لصديقه، (ربما أنت محق ؛ ممثل وقس، هما شيء واحد).

أدين لعرّابي، جورج، بإكتشافات عظيمة. بفضل كرمه إمتلكت أول جهاز غرامفون خاص بي، نموذج قديم، مع شريط تسجيل موضوع على إسطوانات دوّارة، بالضغط على زر، يمكن للأبر أن تستبدل بنصل رفيع، حيث يمكن تسجيل الأصوات المنطوقة داخل البوق المتصل بالجهاز. مع الهدية، كان يوجد تسجيل لصوته هو، يهنئني بسنة جديدة سعيدة. عندما سمعت صوته يخرج من الآلة، صرخت من الفرح وأيقظت البيت كله. قمت، بعد ذلك، بتسجيل صوت بيبون. كان ابن العم يوجين موجودا، فأعلن، وهو يهز رأسه، بأن (خنة الآلة ما زالت بعيدة عن الكمال). أما أبي فرأى ان الغرامفون يمثل خطرا آخر على حضارتنا. (مع الضجة الجهنمية لمحركات السيارات، هذه الآلة، قد تلعب دورا في تدمير واحدة من أعظم نعمنا: الصمت). في ما بعد، وبفضل عرّابي أيضاً، الذي يملك بيتا ريفيا في البريفور، تعرّفت لأول مرة على نبات الكمأ، بهيئته الكاملة، كالبطاطا، وليس بالشكل البائس للشرائح الصغيرة في أكلة الكبدية. إضافة إلى كل هذه الأعاجيب، سمعت من عرّابي للمرة الأولى عن أمريكا. كنت أطلب منه أن يصف لي سيارات البولمان، مرة تلو الأخرى. كنت مشبعا بالفخر تماماً، وكان كلما يجيء إلى منزلنا، أصرخ للجميع بلا إستثناء، (بيبون! ماما! بابا! انه عرّابي!).

دكتور بودو بقي واحدا من أكثر الأشخاص الذين لهم صلة قريبة بذكرياتي عن رينوار. كان يرتدي سترة فراك، وظل على القبعة العالية، التي تعرف بالمدخنة لسنوات عديدة، ولم يتخل عنها سوى للقبعة الهامبورغية،

Twitter: @ketab_n

وكانت آنئذ حلا وسطا بين القبعة العالية وتلك المستديرة السوداء التي تدعى البولر. هذه الأخيرة تبدو تافهة جداً بالنسبة له. كانت له بشرة مرقشة، ولحية جانبية لونها رمادي حديدي. شفته السفلى ناتئة قليلاً، تميل إلى اللون الإرجواني. نظاراته معلقة برقبته بشريط أسود، ويرفعها بإستمرار ليتفحص أي شخص يلتقيه. كان خبيرا من الطراز الأول بتشخيص الأمراض، وكان يستعلم دائماً وعلى نحو مهذب، عن صحة الجميع. كنت ما إن أدخل بيته حتى يرفعني ويضعني على خزانة خشبية كبيرة في المدخل، مثل الدكة، حيث كان الضوء الذي يدخل من النافذة قويا. يتفحص عيناي، ويجس نبضي، ويجعلني أخرج لساني، وقراره، كان دائماً نفسه، (عشرون غراما من كبريتات المغنيسيوم). للبالغين كان يصف حوالى ثلاثين غراما. مثل هذا العلاج البسيط كان يثير الكثير من الجدال بينه وبين عاملي السكك الحديد الغربية، الذين كان يراقب صحتهم بعين أبوية. كانوا يناشدونه أن يصف لهم دواء غاليا، بعلامات لافتة على العلب، وأسماء سحرية. كانت كبريتات المغنيسيوم لا تكلف أكثر من قطعتي سو. كيف يمكن لأحد أن تكون له ثقة ولو قليلة في علاج رخيص مثل هذا ؟ لكن دكتور بودو كان عنيدا. وكما كان يقول لأبي، (انهم ليسوا مرضى. الشعب الفرنسي، بوجه عام، ينعم بصحة جيدة. كل مشكلتهم هي انهم يأكلون كثيراً جداً. طعام جيد، وشراب الابيرتيف المشهي قبل الوجبة، وكأس من الكونياك بعدها، لمساعدة المعدة: ليس لدي إعتراض على ذلك، لكن لم تحرم نفسك، عندما يكون بإمكانك التخلص من سموم جسمك، من بضعة غرامات غير مؤذية من المغنيسيوم؟). كانت عيادته ضخمة، بنوافذ كبيرة تطل على الرصيف الزجاجي لغار سان- لازار- المحطة التي رسمها مونيه قبل ذلك بثلاثين عاما. كان يدخل اليه سادة بأزرار ذهبية على معاطفهم، وقلنسوات مضفورة، كل بضع دقائق، ويتحدثون على نحو متسم بالإحترام مع الدكتور بودو. وأنا جالس في الزاوية لا أنبس ببنت شفة.

Twitter: @ketab_n

في أعياد الميلاد حين أكون أفرطت في أكل المارون غلاسيه، كنت أُجبر على تناول جرعة من الدواء المفضل لصديقنا، في قدح من الماء الفاتر. كان مريعا. بعدها، كانوا يعطوني قدحا من الليمونادة، حار أيضاً، من أجل التخلص من المغنيسيوم. تخيلت أني مريض جداً، وأقسمت لنفسي أن لا ألمس المارون غلاسيه ثانية أبداً. وصنت قسمي لأسابيع عدة. دكتور بودو، كان ليس فقط طبيباً جيداً، بل عالماً نفسيّاً أيضاً. كان أبي معارضاً للنظرية التي تقول أن يتخم المرء نفسه، ثم يأخذ بعدها دواءً مسهلا. كان مع الإعتدال، من دون الحاجة إلى كبريتات المغنيسيوم. مع هذا، وكي لا يجرح مشاعر الدكتور بودو، كان يتظاهر بتناول مسهل كل شهر.

شخص واحد كان وصوله يجعل رينوار، دائماً، في مزاج طيب، هو صديقه غاليمار. (فرنسي حقيقي، من القرن الثامن عشر). لا اعتقد أنني مخطئ إن قلت إن ثراءه كان ناشئاً عن أرض تملكها عائلته في نويي. واحد من أجداده كان صاحب مشتل، الذي كان يحضر في مخيلة أبي على شكل حقول واسعة، محددة بفواصل بسقائف زجاجية، (والشمس التي تنعكس عليها تسطع في عينيك). لم يكن ضد هذا المنظر الطبيعي البغيض، الذي تحوّل إلى سلسلة من (قصور تريانون مصغرة) للعشيقات السريات، لكن لديه تحفظ واحد: (أنت لا ترى شيئاً سوى الجدران، والشوارع تبدو مشؤومة). كان يحب الشوارع أن تكون مزدحمة بالمحال والناس. (مشغولون بأعمالهم الصغيرة الخاصة). وقال أكثر عن نويي، (مقبرة جميلة جداً، لكني أفضل بير لاشيز[٨٩]).

هجر غاليمار نويي إلى الغران بولفار. كان دائماً يحمل معه الجو

(٨٩) المقبرة المعروفة على الجانب الشرقي من باريس حيث دُفن العديد من المشاهير.

Twitter: @ketab_n

الساحر للحياة الباريسية، كان يعكس ألق الأداءات الرائعة التي كانت تعرض في مسرحه، الفاريتي. كان أبي يتلو علينا، أحياناً، مقاطع من "اورفيوس في الجحيم"، ويطلب من فافر أن يعزف على البيانو بعضاً من ألحان أوفنباخ التي كان يحبها بوجه خاص. وهكذا، نما عندي أعظم الإعجاب بهذا الزائر الذي كانت له علاقة حميمة بجوبيتير وكيوبيد، وحتى بهيلين. الشخصية الأخيرة جسدتها الممثلة دييترل. هذا الممثلة كانت حتى وراء الكواليس، تحتفظ بكل فتنة آلهات أوفنباخ. كانت شقراء آسرة، لها بشرة حليبية اللون منمشة. كانت تسرّ بالوقوف أمام رينوار للرسم، حيث نفذ لها بورتريهات عدة، واحد منها في فيلتها في شاتو. أبوها نقيب متقاعد في الجيش، موسوس جدّاً وشديد التمسك بالأتيكيت، ويبهجه كثيراً عندما تقف غابريال امامه في حالة إستعداد، وتخاطبه بـ (سيدي النقيب).

وجه آخر، مألوف في بيتنا، رجل يدعى موريز، صاحب محل معجنات، ورسام هاو. كان صديقا حميما للدكتور غاشيه، وكان يزوره، أحياناً، في اوفير. اسم غاشيه إرتبط في ذهني بمارغو، الفتاة الصغيرة التي لم أرها أبدا. كانت عائلتها تدعى لفران، كما أعتقد. حدثني أبي عنها مرّات عديدة. كانت مارغو مريضة جداً. فسأل أبي دكتور غاشيه أن يعالجها. بذل الطبيب ما وسعه من أجلها، لكن من غير طائل. محنة مارغو، جمعت الرجلان معا، فكانا يقضيان الساعات بجانب سرير مرضها. لا بد انها كانت جميلة جداً، وشجاعة، والبسمة دائماً تغطي وجهها، بالرغم من الآلام التي كانت تعذبها. بول غاشيه، ابن الطبيب، نشر الرسائل التي تبادلها والده مع أبي حول هذه الفتاة، تحدث فيها رينوار عن بثرات الجدري. وعندما صار غاشيه، فجأة، مقيدا إلى سريره بسبب آلام القطن كان على رينوار السهر على مارغو بنفسه، ومن كربه، كان يتمنى للموت أن يحررها من عذابها. إستدعى صديقه القديم الدكتور بليو، فرأى هذا في الحال ان لا أمل في خلاص الطفلة. برغم ذلك

Twitter: @ketab_n

طلب أبي منه أن يصف لها بعض الأدوية، كي تصدق أن بإمكانها الشفاء. لكن في ٢٥ شباط، ١٨٧٩، أعلم أبي غاشيه بأن مارغو ماتت.

هذه الصفيرة الغامضة أثرت في نفسي إلى أبعد الحدود. من كانت؟ ولماذا إهتم رينوار بها إلى هذا الحد؟ من كان والداها؟ وأين كانا أثناء مرضها؟ هذه الأسئلة كانت أحجية لبول غاشيه أيضاً الذي كتب عنها. إذاً، يمكنني فقط أن أتخيل الرأس الأشقر على الوسادة، والوجه الذي غطته البثور، والإبتسامة الشاحبة، عندما كانت تحدق إلى صديقها المخلص، وهو يميل بقلق عليها.

الرسام ديكوشي، بلحيته الكثة وعيناه المتباعدتان وقبعته اللباد المدورة، لعب دورا في حياة أسرتي. كان هو حقا، أول من نصح رينوار بالذهاب للرسم في كانيي. إذ كان هو نفسه، بسبب ضعف صحته، يذهب إلى هناك كل شتاء، قبل أن يغزوها السياح. كان يذهب إليها قلة من الانكليز الهادئين، بحثا عن الدفء، ويقيمون في فندق سافورنان. وقع ديكوشي في حب مدموزيل سافورنان، إبنة صاحب الفندق، وتزوجها، وفي ما بعد، جاء بها لرؤية والديّ في رو دو لاروشفوكو. هي وأمي انسجمتا في الحال، وصداقتهما كانت عاملا مساعدا في قرار أبواي بالذهاب إلى كانيي، قرار كانت له نتائج بعيدة الأثر، إذ أسرت هذه البلدة، في النهاية، رينوار وعائلته، مثلما فعلت بديكوشي من قبل.

Twitter: @ketab_n

٢٣

أدركت أمي ان الحياة المادية لرينوار يجب أن تكون أصيلة مثل رسمه. لها نحن ندين أنا وأخوتي بالقدر السعيد، بنشوئنا في محيط بسيط، الأشياء التافهة غير مباحة فيه. كان الأثاث الخشبي غير المصبوغ يتفق تماماً مع ذوق رينوار، فهو لا يطيق الأثاث العصري المبهرج الذي لم تمسه يد بشرية. وكان يكن كرها لأنتيكات معينة. أذكر، على سبيل المثال، كم كان يشعر بالقرف من الأواني الخزفية لبرنار باليسي. (لقد أحرق أثاث عصر النهضة الأصيل، ليطبخ هذه الفواكه التي تبدو مصنوعة من صابون). كنت أشرت في ما سبق إلى إحتقاره لمنتجات ميسن وسيفر، وكيف كانت بسط غوبيلان تزعجه إلى حد بعيد. كان معجبا فقط بتلك البسط ذات الخيوط الأفقية، لأن (الخطوط العمودية لا تسمح الا بالنسخ الحرفي للوحات لا تلائم البسط، أو، وهذا أسوأ، تقلد الطبيعة!). كان يضع على أسفل السلم أمشاطا من السليلويد وأقمشة مشمعة، عوضا عن أغطية الخوان، ويفضل أن تسكب الأملاح في دوارق، وتقدم الزبدة في مربعات صغيرة أو صديفات.

بخلاف هذه المزايا الصغيرة، وجد رينوار إن إبراز الزجاجيات وادوات المائدة هو من باب الإدعّاء. (سكاكين وأشواك وأقداح من كل شكل وحجم، فقط لأكل بيضة مسلوقة وشرب قطرات من نبيذ رخيص). ولا بد أن أضيف

Twitter: @ketab_n

بأن وجباتنا كانت تشتمل على طبق رئيسي واحد، وعادة نوع واحد من نبيذ قبونا. وكان هذا النبيذ يُشحن الينا في صناديق خشبية من قبل زارعي العنب من صناع الخمر. عندما كنا نسكن في الشاتوديه بروبار، كان البونيا (الفحّام) في شارع لوبيك يأتي إلى البيت ويعبئه لنا في قناني. كنا سنشعر بالإبتذال، لو ذهبنا لشرائه من البقال. كان رينوار يرتاب بالخمرة المعتقة. (انها ثقيلة جداً، ولا يمكنك شربها. عليك أن ترتشفها ببطء. تحول شربها إلى نوع من الطقوس، حتى لتظن نفسك حاضرا في قداس). كان يهزأ بـ"الخبراء" الذين يتذوقون النبيذ، فيدورونه بافواههم كما لو كانوا يستخدمون غسيل فم، ثم يرفعون أعينهم بنشوة إلى السماء. (انهم لا يعرفون عنه أكثر مما أعرف أنا).

ثابرت أمي على تقليد دعوة الأصدقاء، كل ليلة سبت، وحافظت على تقديم طبقها من البوتوبوف. هذا لا يعني، بالطبع، اننا لم نكن نستقبل الأصدقاء في يوم آخر، عدا السبت، إذ كانوا يجدون دائماً مائدة طيبة. كانت غابريال تسرع إلى القصاب لشراء شريحة من اللحم، بينما تحضر ريموند السلطة. كان لدى أمي العديد ممن يخدمون في البيت، فهي بسبب ضيق تنفسها، تخلت منذ فترة طويلة عن الطبخ. لكن السماء أنعمت عليها موهبة إدارة الآخرين، والوجبات، التي كنا نستمتع بها، كانت شهية، ومن صنع يدها حقا. كانت تجمع وصفات طعام من هنا وهناك، بما فيها تلك التي أخذتها من ماري كورو، لكنها كيفتها لإستخدامها الخاص، أو بالأحرى، لتلائم ذوق زوجها.

عندما لا يكون لدينا ضيوف، كنا عادة نأكل لحما مشويا أو طعاما مسلوقا. كنا نتجنب، قدر المستطاع، الطعام المقلي أو المغلي. كانت البوياباس تقدم فقط في المناسبات الخاصة، كما الدجاج المقلي بالزبدة، الذي كانت أمي تعتبره واحدا من إنتصاراتها. كان تحضيره يتم بتقطيع الدجاج قطعا

Twitter: @ketab_n

صغيرة، وتحمص في قدر ثقيلة،مع قليل من زيت الزيتون. عندما تصبح القطع جاهزة، نضعها جانبا، في صحن مدفأ. بعدئذ كانت تضع زيتا، وتعيد وضع الدجاج في القدر، مع كتلة صغيرة من الزبدة. بعدها تضيف قطعا رفيعة من البصل، وحبتي طماطم مقشرة متوسطة الحجم، وبعض الفصينات من البقدونس والزعتر، وورقة غار، وفص ثوم، وملح وفلفل، والقليل من الماء الحار. كان المزيج يحرّك من وقت لآخر لتفادي الحرق وللسماح بالغلي البطيء على نار هادئة. وكانت ترمي في القدر بضع قطع من الفطر قبل نصف ساعة من تقديم الطعام، وتنثر البقدونس والثوم المقطع على الطبق.

متعتنا المفضلة كانت البطاطا المحمصة على الجمر في الشتاء، كذلك الكستناء المعمولة بنفس الطريقة. طبخ أمي، كان يشبهها، فهو سريع، غير معقد، محدد ومرتب. لا رائحة لشحم محروق، أو فضلات متروكة حول المكان ؛ الزيت والزبدة، دائماً طازجان ؛ وأوني الطبخ تغسل بعد ذلك. كانت منسجمة مع مبدأ رينوار بعمل الكثير من القليل المتاح. إستخدمْ الأفضل فقط لكن على نحو مقتصد. كان يرتاب بعض الشيء بالناس الذين لا يشربون الخمرة. (إنهم شاربون سريون)، قال. وعن أولئك الذين لا يدخنون، قال، (لا بد ان لديهم عيباً خفياً). كانت أمي صاحبة شهية قوية، (شهية قطة). لاحظ رينوار بأن هذه هي طريقتها بالتعبير عن التقدير والإجلال للإلهين سيرس وباخوس. كان لا يريد أن يصدق ان آلهة الإغريق قد تخلوا بالكامل عن اللعبة.

في أيام لاروشفوكو، كنا أحياناً نذهب مشيا على الأقدام إلى الغران بولفار، لأن أبي أحب الحياة والحركة هناك. ذات يوم حار قالت والدتي انها ترغب بقدح من البيرة في واحدة من المقاهي. حين جلسنا إلى طاولة على الشرفة، اكتشف أبي أن سجائره نفدت، فاقترحت أمي عليه أن يبعثني لشراء بعض منها.

Twitter: @ketab_n

(ماذا!)، صرخ أبي، (أدعه يذهب بمفرده في هذه الجادة المزدحمة؟)، (لم لا؟)، أجابت أمي.

(سيكون عليه التعود على هذا يوماً ما). كنت أعرف محل التبغ جيدا، حيث كان في بداية شارع لافيت، بجوار غاليري فولار. كنت مسرورا كثيراً بفكرة السماح لي الذهاب بنفسي في مهمة، مثل أخي بيير. وافق رينوار، فانطلقت، عندئذ، مرددا أكثر من مرة العبارة نفسها التي سأقولها لبائعة التبغ.

بفضل الإقامات الطويلة في قرية أمي، إكتسبت لهجة بورغونية لا لبس فيها. كان بإمكاني تدوير الراء، مثلما تفعل كوليت ويلي نفسها، لكن كان يزعجني انها تجعل الناس يضحكون. لذا قررت، في طريقي إلى المحل، أن أتمرّن مع نفسي على جملة لا تتضمن هذا الحرف الغادر: (مدام، إعطيني علبة دخان). وبالتالي أتفادى عبارة (سجائر ماريلاند). فجأة، اكتشفت اني ذهبت إلى ابعد من محل التبغ ووصلت إلى كنيسة نوتردام دو لوريت. فزعا من التفكير بأن أبويّ قد يقلقان علي، إستدرت عائداً وركضت بأسرع ما أمكنني، فوجدت أبي بدا وجهه شاحبا من الهلع. (ظننت أنك دهست)، ثم، وبدافع رد الفعل، تحوّل فجأة إلى الغضب. (هل رأيتم في حياتكم مخبولا مثله ! سوف لا تصلح لشيء أبدا)، فأخذت أجهش بالبكاء، ولم أستطع أن أتناول الآيس كريم الذي طلبوه لي. عبس أبي لمدة ساعة أو نحوها، لكنه نسي الأمر كله فور رجوعنا إلى البيت، وبدأ يرسم بعض أسماك الانكليس، بالرغم من إحتجاج أمي التي أرادت أن تطبخها مع النبيذ والبصل. عندما سمعته يهمهم لنفسه، نسيت مشاعري المجروحة وذهبت خارجاً لقيادة جنودي واللعب معهم. (هل تعلم)، قال لي، (انا لست خائفا فقط من أن تدهسك العربات السائرة في الطريق. بل هناك أيضاً الخاطفون، الذين يمكن أن يسرقونك، أو أصحاب جيش الخلاص الذين يأخذونك معهم، ويجعلونك تغني بلهجة انكليزية).

Twitter: @ketab_n

٢٤

الحدث الذي غيّر مجرى حياة أبي، وحوّلها إلى عذاب متطاول، كان سقوطه من الدراجة الهوائية، في عام ١٨٩٧، في ايسوي.

ايسوي، حيث ولدت أمي وغابريال، بقيت تقريباً غير مفسدة. ليس ثمة مكاناً مثلها في أرجاء العالم الواسع. هناك قضيت أجمل سنوات صباي. كان إفتتاني يبدأ حالما أصل إلى حدود خمسة عشر كيلومترا من القرية، حين يمر القطار القادم من باريس بالسهل الواسع لشمبانيا، ويدخل المنطقة شديدة الإنحدار، المغطاة بالكروم، قرب القرية الصغيرة بورغينيون. لا يزال بوسع المرء أن يرى موقع الصخرة الكبيرة، التي أقامها الملوك للإشارة إلى خط الحدود بين شامبانيا وبورغونيا. والريف، له الدالة نفسها، كما في كل المناطق التي تنتج خمرا طيبا: نهر في عمق الوادي. وهنا، هو نهر السين. نزولا إلى تحت، توجد مروج ترعى فيها الأبقار، بينما على إمتداد المنحدر، غابات أو كروم. في القمة، تتسطح الأرض فتغدو سهولا واسعة مرتفعة، تقريبا، قاحلة. في ايسوي، ندعوها الأراضي الجدباء، فهي مغطاة بصخور منبسطة، وهي فردوس دائم للأفاعي السامة. كانت هذه الصخور تستخدم لبناء أكواخ بجدران سميكة وسقوف من الحجر، تحفظ باردة جدّاً في الصيف، بحيث إن عاملي الكروم، كانوا يطلبون منا أن نضع معاطف علينا، حين نريد الدخول إليها للراحة.

Twitter: @ketab_n

رافد السين الذي يجري عبْر الوادي، يُعرَف بالأورس. ضفتاه مظللتان بأشجار جميلة، ونباتات مائية طويلة، ومتموجة تغطي قاعه. يقطع الأورس طريقا متعرجا، وهذا بلا شك واحد من الأسباب التي جعلت رينوار يحب رسمه. في مكان أبعد، إلى الأمام، يغدو التيار بطيئا، ويتحول الماء إلى اللون الضارب للخضرة، ويغمر ما كان يبدو لنا أعماقا لا يسبر غورها. سكان ايسوي يدعون هذه الأمكنة بـ "الثقوب". كان يوجد، على سبيل المثال، "ثقب الحور"، "ثقب البقرة"، لأن بقرة غرقت هناك. كان الآباء يحظرون على أبنائهم الذهاب قرب هذه الثقوب، محذرينهم من أن الوقوع فيها سيجعلهم عاجزين مثل ذبابة في قمع، حين يُسكب النبيذ في وعاء. الأمكنة التي كان رينوار يهواها أكثر كانت تلك التي تصبح فيها مياه الأورس ضحلة وتجري فوق حصى. (يبدو مثل فضة مصهورة)، قال. هذه الإنعكاسات الفضية ستشاهد في الكثير من لوحاته. كان أبي يحس بالراحة متى ما كان في ايسوي، وحين يكسو قماش لوحاته بالألوان، كان يمتعه أن نكون كلنا حوله، بالاضافة إلى القرويين. ايسوي كانت بعيدة نحو الشرق، بما يكفي لأن تفلت من تأثيرات المناخ في باريس. جوها يمكن أن يوصف بـ "القارّي"، والهواء الذي يكتسح النجود القاحلة، يكون لاذعا، كما في اللورين. لهجة السكان تنسجم مع جوهم. لسوء الحظ، تأثير الراديو الآن جعل كل الفرنسيين يتكلمون لهجة واحدة. أنا متأكد بأنه فقط الناس الكبار في السن، في ايسوي، يفهمون اللهجة المحلية التي عرفتها حين كنت صبيا.

غابريال لم تنس المرة الأولى التي ظهر فيها المعلم في ايسوي. كانت أمي ذهبت إلى هناك قبله، واستأجرت بيتا في تخوم "الريف"، على الروت دو لوش، قبالة بيت بول سيمون تماماً الذي كان يملك حقلا للحنطة، من هنا نظر اليه صانعو الخمور بإزدراء. بجواره كان يسكن روير، قاطع الأحجار، الذي كان ينقش شواهد القبور. كان الباب الخلفي لبيتنا يفتح على طريق بتي

Twitter: @ketab_n

كلامار. وهذا الاسم يشير إلى مجموعة من أشجار كبيرة، محاطة بسور عالٍ، تتصب وسط السهل، وتمتد من النهر حتى منحدر ترّ- آ- بوت. المنحدر، في ايسوي، يعني في الحقيقة تلا. "كلامار" هي كلمة قديمة لمقبرة. يقال إن راهبا يعقوبيا، في ١٧٩٢، كان دفن في البتي كلامار. وكان هذا الراهب سببا لإعدام العديد من الرهبان بالمقصلة، بحيث انه عندما مات، فإن قس ايسوي، وقد شعر بالأمان بعد وصول نابوليون للسلطة، رفض أن يقيم له مراسيم دفن مسيحية. لهذا السبب أنشأ هذا المدفن الخاص.

اعتادت غابريال التي كانت آنذاك في الثامنة من العمر، أن تلعب مع ثلاثة من أبناء عمها، في باحة المنزل. في ايسوي، كان كل منزل له باحة فيها ممر يفضي إلى الحظائر. وفي هذه الأبنية الحجرية الواسعة والخالية من النوافذ وذات الأبواب الضخمة، تتصب الرواقد الضخمة التي يوضع فيها العنب ليخمر، بعد موسم قطف العنب. إسطوانات هائلة من الخشب، تذكرني بأبراج حصون ميروفينيان. وكم كانت باردة، هذه الحظائر، بالرغم من الشمس البورغونية التي أذكر أنها كانت في الصيف تتهمر على رؤوسنا بلا رحمة. كانت أصواتنا يترجع صداها من جدران حجر الكلس والروافد الخشبية، مضيفة رهبة على جو الغموض الذي يلف المكان.

في ذلك الوقت كانت أمي تبلغ الواحدة والثلاثين من العمر. (صارت ممتلئة الجسم، لكنها ليست بدينة، وكانت نشطة جداً)، هذا ما وصفتها به غابريال. (كنا في المطبخ، وكانت تقدم لنا خبزاً طازجاً وقالباً من الشوكولاتة. كان بيير طفلاً في الثانية، أسمر، بشعر أجعد جميل. ثم ظهر أبوك، متأبطاً علبة الألوان وحامل اللوحة. أنا وأبناء عمي، اعتقدنا أنه رجل نحيف جداً، ومسكين). كانت غابريال تأتي إلى البيت، غالبا، لرؤية بيير، وأيضاً بسبب الشوكولاتة. (كنا لا نرى المعلم كثيرا. كان يذهب للحقول وحده كي يرسم. قال الناس انه حاول بيع أعماله في باريس. كما قالوا، انه لم يكن مثل الناس

Twitter: @ketab_n

الآخرين). حين يعود من الحقول، كان يحب الوقوف معطيا ظهره للموقد الكبير المفتوح ليدفئ نفسه. في تلك الأيام، كان الناس الذين يعيشون في الريف، يفعلون كل شيء حول الموقد، عدا إعداد الخبز الذي كان يتم في الفرن الكبير، في حجرة الفرن. (فكرة مضحكة أن تحب موقد الخشب، بينما لديك في باريس مواقد جميلة من الحديد المسبوك بزركشة من النيكل).

غابريال، تتمتع بذاكرة فيل، إذ يمكنها، بعد خمس وسبعين سنة، تذكر كلمة كلمة ما قاله أبناء بلدتها حول الزائر الغريب، القادم من المدينة. (ليس بالضبط، انه كان يخيف الناس، لكنهم كانوا يرونه مختلفا عن الآخرين، واعتقدوا انه سقيم. فمن المألوف انهم كانوا يفضلون الناس السمان. برغم أن أمك ممتلئة الجسم، لكنهم كانوا يعتبرونها ناعمة. أما جدتك فكانت جميلة، لأن بنيتها مثل "دولاب". الجزء الغريب هو ان والدك لم يكن نحيفا حقا. قالت لي أمك هذا عنه، وأنا رأيته جيدا، بما أني كنت متلبدة في داركم طوال الوقت. لكن هكذا كان الأمر: هيأته لم تكن تبدو موضع فخر. لم يكن يشرب الخمر، وهذا جعل الناس يظنونه مريضا. لم يكن يتحدث في السياسة أبدا، وكان يرتدي ربطات عنق على الموضة القديمة. لكن الجميع أحبه، بالرغم من كل هذا. حتى الأم باتايي التي كانت متوحدة، سمحت له أن يرسم بناتها. لا أحد غيره كان سيمنّ له الذهاب إلى ناس فقراء، مثل آل باتايي، ويحس بالراحة هناك، ويقول انه أعجب ببيتهم. واحدة من الصبايا، التي كان يحب رسمها، أصبحت جدة فيلكس سيريو، الرجل الذي تزوج إبنة عمك "بيلالا هم هم". اسم بيلالا الحقيقي هو مادلين مينييه. الاسم الآخر أطلق عليها بسبب طريقة لفظها في الكلام وهي طفلة، وبقي ملاصقا لها).

(كانوا يحترمون صمته). هذا التوكيد من جانب غابريال أثر فيّ كثيرا. على أحد طرفي الموقد، كان هناك قدر يخنة تغلي ببطء، وعلى الطرف الآخر، كانت إبنة المنزل تحمّي مكواتها، وفي الوسط، فوق النيران، حساء مطهو، في

Twitter: @ketab_n

إناء حديدي كبير معلق بخطاف. كان، تقريبا دائماً، هو نفسه، حساء البازلاء الحمراء مع شحم الخنزير. كلمة "فاصوليا"، لم تكن معروفة في ايسوي، وهذه "البازلا" كانت حمراء، أو نوع من اللوبياء، التي تنمو وسط الكروم. أبناء عمنا كانوا لا يأكلون أبداً فاصوليا الحقل. كانت مناسبة للفلاحين والخنازير فقط. البطاطا كان ينظر إليها بنفس الإحتقار - (ملائمة للخنانيص فقط) - والشيء نفسه ينطبق على الخوخ الأحمر المدعو "الخوخ الكبير". كان رينوار يحب، أيضاً، رؤية العجينة المجبولة في فرن العجين الكبير المحفور من خشب البلوط. ثم كان يراقب الفرن، كيف يُسّخَن بقطع خشب صغيرة، وليس بزنود خشب كبيرة أبدا. عندما كان الحجر في داخله يغدو أحمر ساخناً، كان يدفع إلى الخلف، بعصا تشبه مدمك جمع العشب، لكن من غير أسنان. ثم كان يوضع فيه أي شيء وكل شيء يمكن أن يخبز. أرغفة من الخبز الأسمر، كبيرة مثل ردف امرأة جميلة، لحم طازج صلب من خنزير مذبوح للتو، صوانٍ كبيرة مدوّرة من كعكات فواكه، في موسمها - الكرز، الخوخ، البرقوق الأخضر، الكشمش الأسود، العنب، وفي ما بعد، التفاح. كان رينوار يفضل الفاكهة المقطوفة من تلك الأشجار الملوية والضامرة، مثل ثمار العنب التي تحيط بالمنتجات الرائعة المعروضة في المحلات الكبيرة للفواكه في باريس.

مع انه لم يكن يشرب كثيرا، لكنه كان يحب نبيذ ايسوي أكثر من أي نبيذ آخر. نبيذ من دون أي أثر من السكّر فيه، حاد مثل الرياح الشرقية التي تهب على حقول الكروم المنحدرة، منتج من تربة تشتمل على صخور كثيرة والقليل جدّاً من التراب. بعد الأمطار العاصفة، يرفع مزارعو الخمر هذه التربة في سلال من الخيزران على ظهورهم. الغلة من هذه التربة الفقيرة، كانت خير مثال على فلسفة رينوار: (حاول أن تخلق الكثير من القليل المتاح). أحَبّ رينوار نبيذ ايسوي، لأنه لم يكن مخففا بالماء أو ممزوجا أبدا. فهناك لم يفكر أي زارع خمر بتحسين نبيذه، بتقويته بآخر منتج من كرمة مكشوفة

Twitter: @ketab_n

بشكل أفضل. بإختبار النبيذ في طاس تذوق الخمر يمكن لأي من أهل ايسوي ان يعرف مصدره: (هذا نبيذ من كولا كون، من فوق الكوت او بيك ؛ أو هذا بينو[٩٠] من كرمات لاربان). كروم لاربان، المزروعة بالكامل بكرمات بينو، والمكشوفة بشكل جيد، في وسط منحدرات ماليه كانت تعّد الأفضل في المنطقة. إحترام أصول النبيذ، كان لا يزال سائدا في فرنسا، في حقول الكروم الشهيرة، التي كان كل برميل نبيذ فيها ينتج من بضعة مئات من الياردات المربعة من الأرض كثيرة الحصى. هناك تربة معينة تعطي النبيذ مذاق حجر الصوّان الذي يسود تلك الأجزاء. تربة أخرى، ربما تكون طينية أكثر، تعطي مذاق كثافة أكثر. وهناك تربة أخرى تعطي عبيرا أكثر. كان رينوار يقول، ان ظهور النصّابين، هو المسؤول عن المذاق الجديد للنبيذ "المحسّن" بالمزيج. (الواحد مثال للآخر دائماً. وهذا يجعل الحياة رتيبة). تذوقه للخمر كان نفس ذوقه في الفن. فالمزيج المنتج من قبل تجار الخمر الكبار في باريس كان يبدو له مؤسفا، مثله مثل صنع الأثاث بطريقة الإنتاج الكبير. وراء كل نوع من الخمر، كان يسعى لإكتشاف زارع الخمر، الذي أنتجه، وكرمه، تماماً مثلما كان يسعى في المنظر الطبيعي لتبين يد الرسام والمشهد الذي ألهمه. (أحب أن أكون مع زارعي الخمر، لأنهم أسخياء جداً). وهم، في الغالب، مبذرون أيضاً، لا يملكهم هوس الفلاحين بالتوفير. يعملون بكد طوال العام، في الصيف يخرجون للعمل في كرومهم منذ الفجر، وغالبا ما تكون مساكنهم بعيدة. حقول ترّ- آ- بوت، تبعد على الأقل خمسة كيلومترات عن القرية. حقول كوت- او- بيك، تبدأ تماماً من خلف مركز الشرطة في القرية، لكنها تمتد على الهضبة حتى فونتيت، وهي القرية التي عرفت بأجبانها الطيبة، وبالكونتيسة الشهيرة دو لاموت، الشخصية الرئيسية في قضية نيكلاس

---

(٩٠) مزارع كروم تنتج خمرا شهيرا: بورغونيا، لوار، شمبانيا، الخ.

Twitter: @ketab_n

الشائنة، قبل الثورة الفرنسية مباشرة. ما زال قصرها هناك. هناك أيضاً قرية "آن سارمان" مع نبع سارمان الذي لا يجف أبدا، وقرية "آن شارميرون" التي يمكنك فيها الإطلال على مشهد بانورامي لوادي السين، والتمثال الكبير للعذراء التي تحمي موسم الحصاد لفلاحي غيي. في المساء، حين يعود عمال الكروم، كانوا يستمتعون بعشاء طيب في بيوتهم الجميلة. عندما كانوا يجنون المال، كانوا ينفقونه بإسراف؛ يشترون الملابس المصنوعة من أفضل الأقمشة، ويوصون على شواهد قبور فاخرة من الأب رويز. وبالرغم من ضعف إيمانهم، كانوا يشيدون كنائس من الحجر المنحوت، مدهشة، لكنها، من جانب آخر، قبيحة بعض الشيء. كان رينوار يحب الكنيسة الصغيرة في فيربيير التي تبعد خمسة كيلومترات عن ايسوي. انها مكوّمة تماماً تحت سقفها، الذي يتموج مثل جلد حيوان. نوافذها الرومانسكية، وجدرانها العارية، لها هيبة عظيمة. وهناك شجرة دردار ضخمة تنتصب أمام بابها. يقال، انها زرعت، حين مرّت جان دارك في المكان، في طريقها من اللورين إلى بورج، لرؤية الملك بهدف إقناعه بطرد الانكليز من فرنسا. وقضت ليلتها في دير فال- ديه- دام. شجرة الدردار قطعت، وذاكرة الدير ضاعت في غياهب الزمن. لكن لا يزال هناك "الينبوع". مياه تخرج من الأرض، من داخل نوع من الكهف المعقود، وهي جد نقيه، جد صافية، بالكاد تراها. الغرباء الذين يقفون عندها لإرواء عطشهم، كانوا يجدون الماء وقد غمر أقدامهم فجأة. في زمن أبي، كان هناك ثلاثة تماثيل حامية، واحد لمريم العذراء، واحد للقديس جوزيف، وواحد للقديس جينيس. كان يحلو للسكان القدامى تناقل حكاية عن نزاع يتم أحياناً بين القديسين الثلاثة، والذي يؤدي إلى جدال مثل هذا: (أني أسمع ريحا، أني أسمع ريحا)، تقول العذراء. (من فعلها؟ من فعلها؟)، يسأل القديس جوزيف. (واحد منا، نحن الثلاثة. واحد منا، نحن الثلاثة)، يجيب القديس جينيس.

Twitter: @ketab_n

روت لي غابريال أيضاً. (كان هو[٩١] يذهب لرؤية أم جدتي، ساندرين. كان يدع الآخرين يتحدثون، لكنه كان يستمع، وكان الأمر يمتعه كثيرا. كان البعض يقول عنه، انه لا يتكلم، لأنه لا يملك ما يقوله). لم استطع أن اكتشف أبدا، إن كان اسم"ساندرين" هو كناية عن اسم ساندريون (سندريلا)، ربما اطلق عليها لأنها كانت تقضي معظم وقتها حول الموقد، أو ربما، كان تصغيرا لاسم الكساندرين. على العشاء كانت كل ليلة تشرّب قطعا من الخبز المحمص في طاس من النبيذ الحار والسكّر. ذات ليلة، بينما كان الجميع يصغون إلى ابن العم لوكساندر، ابن ساندرين، إستغل أخي بيير ذلك وانسلّ خفية مع القدر الصغيرة التي كانت ساندرين تحمّي فيها المزيج، وشربه كله. إنتاب ساندرين الغضب لفقدان عشائها، لكن أمي كانت خائفة أن يموت بيير من تأثير الخمرة. لا أحد فهم سبب رعبها، لأنه في ايسوي، كان النبيذ يعطى حتى للأطفال الرضع، فاعتقد الجميع انها جُنّت، وأن العيش في باريس يولّد أفكاراً غريبة.

كان لوكساندر يُضحك رينوار. كان معروفا بكونه شهوانياً، عن حق أو لا، لكنه فخور بهذا. عندما كان يصادف وجوده في حقول الكرم، كانت الفتيات، اللائي يملأن دلاءهن من النبع، يطلقن سيقانهن للريح. (عدا العجائز منهن)، كان يوضح بمرح. كي لا يخسر سمعته كفحل بين مواطنيه، يطارد لوكساندر، بين الحين والآخر، "دجاجات" عجائز صعبة المضغ.

بالرغم من قلة كلامه، تبنى القرويون أبي على نحو صادق. أخبره لوكساندر سراً: (كان هنا رجل زنجي تزوج من ابنة أسرة جينيلو. كان عامل كروم مجتهدا) حين كانت الفتيات يصادفن رينوار في الحقول، كن

---

(٩١) في كل أحاديثي مع غابريال، لم تكن تسميه أبدا، «رينوار»، بل كانت تشير له دائماً بـ «المعلم» أو «هو».

Twitter: @ketab_n

يتهامسن بينهن، ويقتربن ببطء، خافضات الرؤوس، يبرمن طرف مآزرهن. (انه يستطيع أن يقبل معزاة بين قرونها)، كن يقلن، عندما يتطلعن إلى وجهه النحيف.

مثل جميع الناس، كان أهل البلدة مولعين بإستخدام التعابير المكررة. يلتقي الواحد منهم الآخر في الشارع، فيقول له، (إذاً، إستيقظتَ؟) أو (إذاً، أنت مستيقظ)، حتى لو كان يعرف ان الآخر إستيقظ، وهو خارج الفراش، لكن بتبادلهم هذه التحيات الصغيرة، كانوا يشعرون بأنهم ليسوا وحيدين في هذا العالم الواسع. كان رينوار يقول، (طاب يومك)، لا أكثر، فأدرك أبناء البلدة، بفطنة، بأنه لا يملك ما يقوله، (والتي كانوا يلمحون بها إلى أن افكاره من العمق، بحيث لا يمكن وضعها في كلمات).

لم يرجع أبي وأمي إلى ايسوي لسنوات عدة. ولو لم تغادر غابريال إلى بيتنا في باريس، بسبب ولادتي، لكانت ذهبت للعيش مع أقربائها في فيربيير، ولما رأت رينوار ثانية. (لكني ما كنت سأنسى ذلك الرجل، الذي كان يلطخ بالألوان).

أصل الآن إلى الحدث الذي أشرت له في بداية الفصل. ابن عمنا بول باريسو كان يملك محلا في باريس، قرب البورت ديه تيرن، يبيع فيه الدراجات الهوائية مصلّحة، أو حتى مصنّعة. عندما كان يأتي لزيارتنا، كنا نتيه إعجابا بدراجته الجميلة، وكانت تلمع ولا تصدر ضجيجا أبداً. كان يرفعها بيد واحدة، ليرينا كم هي خفيفة، وباليد الأخرى يدير الدواسة، ليجعل العجلة الخلفية تدور، حتى تومض مثل الألعاب النارية. عند ذاك كان أبي يحجزني بقربه، بعيدا عن الدراجة، خشية أن أحاول لمس العجلة السحرية، (يمكن أن تقطع أصابعك).

معظم الرسامين الشباب، الذين كانوا يأتون لرؤية رينوار في ايسوي

Twitter: @ketab_n

تقريبا، كانوا يركبون دراجات. بين الاصدقاء الباريسيين، كان البير اندريه وزوجته ماليك، ديسبانيا[٩٢]، ماتيس، وروسيل. وكان آبل فافر راكب دراجة متمرّساً، ومسيو ومدام فالتا، كانا يقودان دراجة بمقعدين. أتذكر إحدى اللوحات، من المؤكد أنها رسمت في ايسوي، يظهر فالتا مرتدياً النكرز، جالساً على العشب قرب امرأة شابة، ربما هي جورجيت بيجيو، خياطة باريسية. كانت تقف، أحياناً، امام رينوار لرسمها. كان الفتيان، في ايسوي أيضاً، يخرجون جميعا بالدراجات عندما يذهبون إلى حقول الكروم. حين يبدأون العمل، في الصباح، يوثقون عدتهم على هيكل الدراجة، ويدفعون الآلة قدما. كانت القرية تقع في منخفض تلال، والطريق يمتد صاعدا نحو القمة، حيث كروم العنب.

في النهاية، قرر أبي أن يحذو حذو الآخرين، فأرسل له ابن العم، باريسو، دراجة هوائية. وعلّمه أبل فافر كيف يقودها. لم يعتد عليها أبداً، حين كان يخرج للرسم، لأن معداته، كانت ثقيلة جداً، لكنها كانت نافعة في الخروج للبحث عن مواضيع كان يخططها على عجل بقلم الرصاص.

في العام ١٨٩٧، جعلتنا أمي نستقر في جزء من بيتنا في ايسوي. المرسم الذي أشرت له في صفحات سابقة، لم يكن بني إلا لاحقاً، بعد أن حصلنا على البيت المجاور، وليس قبل عام ١٩٠٥، عندما خططت لبناء مرسم آخر، رآه رينوار مثاليا، يقع على الطرف البعيد من الحديقة، قرب منشرة الخشب التي تعود لمسيو ديسيس. هناك انما حاول أن يمارس القليل من النحت ـ (فكرة متسلطة كنت أقلبها في رأسي) مع النحات موريل، أحد أبناء ايسوي، الذي كان شابا صغيرا. كانت الحديقة تضم كرمة عنب وأشجار فاكهة، جعلت منها مبهجة.

---

(٩٢) رسام فرنسي كان متأثراً برينوار.

Twitter: @ketab_n

قبل أن يبني مرسمه الأول، لم يكن لدى رينوار حجرة خاصة للعمل. مع ذلك، رضي بالقليل. على الجهة الجنوبية من المنزل، شجرة كستناء جميلة، لم يسمح بقطعها أبدا، كانت تلقي إنعكاسات من الضوء. في الجهة المقابلة كان يزعجه ضوء الشمال، الذي يفضله معظم الرسامين. كان هذا الضوء ساعده في باريس فقط، حيث الأشجار عنصر غير ذي أهمية. الإفتقار إلى مرسم خاص به، كان مشكلة في كل الأماكن الريفية التي عاش فيها. في الأيام الماطرة، كان ينجز رسومه في المرسم، لكن في بيتنا في ايسوي الذي لم يكن توسع بعد، لا توجد غرفة ملائمة للموديلات. غابريال لم تكن بدأت بعد بالوقوف كموديل أمام أبي.

في ذلك اليوم الخاص، ولدهشة كل العائلة، لم يقم رينوار بأي عمل. كان المطر توقف، والعربات في طريق عودتها من الحقول. إستحوذت على أبي فكرة أن يخرج على دراجته، حتى حدود سرفينيي لرؤية (كيف تبدو قمم أشجار الحور تحت السماء العاصفة). سرفينيي واحدة من الأمكنة التي سحرت رينوار. أنا أستخدم هنا كلمة "سحر" بمعناها الحرفي، والتي تعني سبي العقل. في سرفينيي كان يردد بينه وبين نفسه باسم واتو، ويدندن بلحن من ألحان موزارت. هذا المكان كان إقطاعية لواحد من النبلاء. كان القصر سوّي بالأرض أثناء الثورة، والاجزاء الباقية من السور دفنت بدغل كثيف من النباتات. تأمل رينوار بإعجاب هذا المشهد من الإنجاز البشري العائد للطبيعة. رأى فيه اتحادا وثيق العرى وحاذقا، إئتلافا بين الطبيعة والفن، مماثلا لما كان، هو نفسه، يبحث عنه بعمق في رسومه. أحياناً كنت أسمعه يعبر عن أسفه لأنه لم يتسّن له زيارة آنكور لرؤية تماثيل الآلهة، وسط الكتلة المتشابكة من الأدغال النامية. يجري نهر الأورس عبّر أراضي سرفينيي، حيث يبدأ من جسر اللوش. تتدفق المياه تحت الجسر بسرعة، على عمق ضحل من الصخور، وتعكس عددا لا يحصى من اشعاعات الضوء المتلألأة

Twitter: @ketab_n

التي سحرت أبي. ثم يغدو التيار هادئا وناعما ثانية، حين يشق طريقه بجوار مرج مليء بأشجار الحور الساحرة. كان رينوار يدعنا نلعب الكرة على العشب المائل للون الزهري أكثر من الأخضر، فكانت البقع المتعددة الألوان لملابسنا تكمل هارمونية المنظر الطبيعي.

تدين سرفينيي بغناها بالخضرة للينابيع العديدة في المنطقة. هذه الينابيع هي الآن مصادرة من قبل مدينة تروي، لمنفعة سكانها. ومن سوء الحظ، واحد من الموظفين الحكوميين الحمقى، أمر بقطع أشجار الحور، اعتقاداً منه إنه يقوم بعمل نافع.

عندما كان رينوار يقود دراجته في ذلك اليوم الماطر من العام ١٨٩٧، انزلق وسقط في حفرة مليئة بالصخور. حين نهض، أحسّ بألم في ذراعه اليمنى، فهنأ نفسه لأن يديه سالمتان. ترك دراجته في الحفرة، وعاد إلى البيت على قدميه. حيّاه عمال الكروم الذين التقاهم في دربه، بعبارة (عمت مساءً، مسيو رينوار، هل أنت على ما يرام؟)، فأجابهم، (أنا بخير)، مفكراً ان ذراعه الجريحة لا تهم أحداً. لكن، في الواقع، لم تجر الأمور على خير، إذ كانت حالته أسوأ مما إفترض، وذراعه كسرت.

الدكتور بورد، وهو من سكان الجنوب و يمارس الطب في ايسوي، كان معتادا على الكسور، وضع يد رينوار في قالب من الجبس، ونصحه بعدم ركوب الدراجة بعد الآن. عليه، كان على أبي أن يرسم بيده اليسرى، ومجبرا على أن يطلب من أمي أن تحضر له ملونه، وأن تطمس من اللوحة تلك الأجزاء التي لم يكن راضيا عنها، بقطعة من القماش، مبللة بالتربانتين. كانت المرة الأولى في حياته التي يسأل فيها أحداً أن يساعده في عمله. في نهاية الصيف، عاد إلى باريس، وذراعه ما زالت مجبسة. بعد نهاية الستة أسابيع التي حددها الطبيب، جاء اليه الدكتور جورنياك، طبيبنا في مونمارتر، وأزال القالب، ثم

Twitter: @ketab_n

قال ان العظام إلتحمت بالكامل. عند ذاك، بدأ رينوار بالرسم بكلتا يديه، كما كان يلائمه، معتقدا ان الحادث قد طوي.

في ليلة الميلاد، بدا يحس بآلام في كتفه اليمنى. مع هذا، إصطحبنا إلى بيت آل مانيه في شارع فييجوست، حيث نظم بول غوبيار حفلة أعياد الميلاد. كان ديغا حاضرا، وروى لرينوار، بمرح شديد، كل أنواع حالات الروماتزم العضلي المرعب، الناتجة عن الكسور. بدت للجميع انها مضحكة حقا، ولرينوار في المقام الأول. مع ذلك، ذهب لإستشارة الدكتور جورنياك، فأبلغه ان علم الطب غير قادر على حل غموض إلتهاب المفاصل، كل ما كان يعرف عنه، انه يمكن أن يصبح خطيرا جداً. ووصف له مسكّن الإنتيبيرين. كان حتى الدكتور بودو أقل تطمينا، ونصح بتناول الكبريتات بإنتظام.

إتبع رينوار أوامر الرجلين، وبمبادرة منه، بدأ يقوم بالتمارين البدنية. لم تكن له ثقة كبيرة بفائدة المشي، الذي يحرك فقط عضلات معينة. كان يميل إلى ألعاب الكرة، وكان دائماً يحب، للتسلية، قذف الكرة في الهواء على طريقة البهلوان. أخذ يمارس هذه اللعبة لمدة عشر دقائق، كل صباح قبل ذهابه إلى المرسم.

(كلما كنت غير بارع فيها، أفادتك أكثر. لأنك عندما تخطئ تنحني لإلتقاط الكرة، وتقوم بعدد أكبر من الحركات للوصول إليها لو تدحرجت تحت الأثاث). كان يتقاذف ثلاث كرات جلدية، سُمكُ الواحدة منها إنشين ونصف، من النوع الذي كان الأطفال يستخدمونها في الأيام الغابرة في ألعاب مثل الكرة والدف، والكرة والترس، والكرة والصياد، الخ. حين تتاح له المناسبة، كان يلعب ايضا، كرة الريشة. لعبة التنس، كانت تبدو له معقدة جداً. (عليك الذهاب إلى مكان خاص للعب، وفي وقت محدد. أنا أفضل كراتي الثلاث غير المكلفة التي يمكنني اللعب بها متى شئت). كان يحب البليارد، لأنه (يجعلك

Twitter: @ketab_n

تتكيف مع كل أنواع الوقفات المربكة). مع الإضافات التي قامت بها أمي على البيت في ايسوي، وضعت طاولة بليارد، وهي نفسها، أصبحت خبيرة باللعبة، إذ كانت رغم بدانتها، تهزم أبي بإنتظام. حتى انها تحدت بعضاً من لاعبي البلدة، وصارت نوعا من البطلة فيها.

نحو نهاية شهر أيار من السنة نفسها، أخذنا أبي لزيارة آل بيرار، في بيرنوفال. استأجرنا البيت الذي كان يشغله اوسكار وايلد في الشتاء. كنا، قبل ذلك، أقمنا فيه أثناء فصل الربيع، قبل حادثة الدراجة. بعد أن حلّت شهور الحر، ذهبنا إلى ايسوي، وكنا نتمشى بجانب النهر ونقطف ثمر البندق. في أيلول، رجعنا إلى بيتنا في لاروشفوكو، إذ بدأ موسم دراسة بيير، في سانت - كروا. في كانون الأول، عاش رينوار فصلاً جديداً من الآلام الرهيبة حقاً هذه المرة. كان لا يستطيع تحريك ذراعه اليمنى، ويعجز عن لمس الفرشاة لأيام عدة.

قصته، مذ ذاك هي قصة صراعه مع المرض. لم يكن هناك ما يشير إلى إمكانية شفائه. لكنه لم يبال، ومن هذا أنا على يقين. لم يكن مهما، بالنسبة اليه، إيجاد علاج، لم تهمه صحته كثيراً لكن المهم هو التواصل مع الرسم. في مناطق معينة، كان الصيادون ينصبون شبكات ضخمة في طريق الطيور المهاجرة. المرض، كان فخ القدر، الذي نصب في طريق رينوار. لم يكن لديه خيار: إما التحرّر من الشبكة ومواصلة طريقه، بالرغم من بلواه، أو أن يغمض عينيه ويموت. وثمة الجانب العملي من المأزق، إذ أفصح لأمي عن مخاوفه بأن لا يكون قادرا على ضمان الحاجات المادية لأسرته. كان نتاجه، آنئذ، وافراً، وكان يبيع، مباشرة، تقريباً كل شيء يرسمه. المال الذي كان يكسبه، كان كافياً لتوفير الأساسي لحياتنا، لا أكثر. مع هذا، لم تقلق أمي على الإطلاق. كانت تحب البيوت الجميلة، والموائد العامرة المحاطة بالأصدقاء، لكنها ستجد السعادة أيضاً في كوخ مسقف بالقش، طالما زوجها وأولادها معها.

Twitter: @ketab_n

تفاقم مرض رينوار لم يكن منتظماً. يمكنني القول ان حالته تغيرت بشكل جذري، بعد ولادة أخي كلود، في عام ١٩٠١. الضمور الجزئي لعصب عينه اليسرى صار أكثر وضوحا. حدث هذا بعد إصابته بزكام حاد، قبل بضع سنوات، عندما كان يرسم منظرا طبيعيا في الخارج. والروماتزم الذي كان يعاني منه، فاقم من شبه الشلل هذا. خلال شهور قليلة، إكتسب وجهه تعبيرا جامدا، كان يجفل الناس الذين يروه أول مرة. مع ذلك ما لبثنا جميعنا نحن عائلته، أن تعودنا على تغيرات مظهره، وعدا نوبات الألم، التي باتت أسوأ، نسينا انه كان مريضا جداً.

كل سنة، كان وجهه يصبح أكثر نحولا، ويداه أكثر إلتواءً. ذات صباح، قرّر أن يتخلى عن تقاذف الكرات الثلاث التي امسى بها ماهرا جداً، إذ لم يعد يقوى على إلتقاطها من الأرض. رماها أبعد ما أمكنه، قائلا بتأفف، (الى الشيطان بها، أنا في سبيلي للخرف !). اضطر للرجوع إلى لعبة البلبوكيه التي تلعب مع كرة ووتد، (تماماً مثل تلك التي كان يستخدمها هنري الثالث، في الكسندر ديما!). حاول أيضاً أن يتقاذف زندا من الخشب، فطلب من موزع الفحم والخشب الذي يزوّد بيتنا، أن يقطع له خشبة مستوية جداً، طولها ثمانية إنشات وسمكها إنشين، وقام بحكها بنفسه بسكين وكاغد رمل حتى أصبحت ناعمة تماماً. كان يقذفها في الهواء، يجعلها تدور ثم يمسكها بشكل بارع. وكان يحوّلها من يد إلى أخرى. (المرء يرسم بيد واحدة)، كان يقول. وبهذه الطريقة خاض صراعه لإنقاذ يديه. بدأ بعد ذاك يواجه صعوبة في المشي. كنت ما ازال صغيراً حين قرر أن يستخدم عصا تساعده في المشي. ولأنه صار يتكئ عليها أكثر فأكثر، كانت العصا تتزلق أحياناً، فأضطر إلى وضع قطعة مطاط على طرفها، (مثل معوّق تماماً). غدا أكثر حساسية لبرودة الجو، وعرضة للزكام بسهولة، عندما يعمل خارج البيت.

كنا نذهب إلى ايسوي كل صيف. بيتنا هناك صار مكتملا. كانت أمي

Twitter: @ketab_n

تدعو الأصدقاء باستمرار، كي توفر لرينوار حياة إجتماعية مولع بها، ولا يمكنه أن يسعى إليها خارج المنزل.

واظبنا على الذهاب إلى ايسوي، لمدة خمسة عشر عاماً، في بداية كل شهر تموز. كوكو الحصان، وفليتو، وإبن عمنا كليمانت وإبنه لوي، كانوا يستقبلوننا في المحطة. في الشتاء كان كوكو يُربَط إلى العربة، التي يخرج به كليمانت إلى البرية لصيد الخنازير البرية، لكن في الصيف كان كوكو يُستخدم في أعمال أقل اثارة، في تنقلات أبي. كان سائق العربة، فليتو صاحب الخان، و ابنه يصنعان شمبانيا بالإسم نفسه. (في بورغونيا، كانت كل الخيول تدعى كوكو. وهي أيضاً الكنية التي أطلقت على أخي كلود، تصغيرا لاسمه، لكن الأمر كان محض مصادفة).

في أوقات الغداء، حين لا يكون كوكو مربوطاً بالعربة، كان يُسمح له بالتجوّل طليقاً في الباحة، أمام المنزل، وكان يحلو له أن يجذب الأغصان الواطئة لشجرة الكستناء. وعندما كان بيير يصرخ باكياً، يبرز كوكو رأسه من النافذة كما لو كان يستطلع سبب هذه الجلبة، فكان رينوار يضحك من المظهر البريء لهذا المخلوق، ويطلب من غابريال أن تعطيه شراباً، فكانت تملأ مغرفة بالنبيذ والسكّر وتقدمها له، فيرتشفها كوكو بتلذذ، وأحياناً، بعد هذه الجرعات كان يترنّح من السكر. في النهاية، أصيب بروماتزم عضال، فأصرّ أبي على تركه يموت في راحة، لذلك بقي وقتاً طويلاً في الإسطبل، لا يفعل شيئاً، يعاني من آلام رهيبة حقاً، حين يمشي. ذات شتاء، استفحل داؤه كثيرا، فتقرر أن يوضع حد لآلامه رحمة به. عرض مارشان القصاب أن يأخذ الأمر على عاتقه، وأكد لنا بأن ذلك سيتم من دون ألم.

حين لا نكون في ايسوي، كان ابن عمنا كليمانت مينييه وزوجته ميلينا يعتنيان بالبيت. عندما أذهب الآن إلى هناك، يستقبلني أولاد أحفادهم.

Twitter: @ketab_n

كليمانت، كان شخصاً متجانساً، روحاً وطبعاً. لعب في حياة رينوار الدور نفسه الذي لعبه، في ما بعد، المصرفيان إدوار في باريس، وفردينان ايسنار في كانيي. هؤلاء الأصدقاء يشتركون بثلاث سمات: كانوا بدينين، ناجحين في مهنهم المحترمة، وجاهلين تماماً بالرسم. كان الثلاثة مرحين، شهوانيين، عشاقا للعام الجيد، ومخلصين إلى رينوار.

بعد كل وجبة عشاء، كنا نجلس على الدكة، خارج نافذة غرفة المعيشة، ونراقب الناس النازلين من الدرب، عائدين من أعمالهم في الحقول. عند رؤية سيلستين النشيطة تمر، محنية تحت ثقل السلة التي تحملها، كان كليمانت يعلق متفلسفاً: (هل ترى هذه المرأة؟ بإمكاني إعتلائها لو أردت)، فكانت أمي، التي لا تحب هذا النوع من الكلام، ترد: (هذه ملاحظة ذكية. الا يمكنك التفكير بشيء آخر تقوله؟)، فكان كليمانت يرد عليها بالمقابل: (في الحقيقة أنت الذكية. عشت في المدينة، أليس كذلك؟). برغم أن جوابه لا يحمل أي معنى، كان رينوار يهتز ضحكا. كان يطلق على مثل هذه اللغة المبطنة، "لغة مالارميه الريفية"، وكنا نعرف ما يعنيه. فكلنا يتذكر كيف كتب الشاعر مالارميه رسائل عدة إلى رينوار على شكل توريات. على سبيل المثال:

A celui qui de couleur vit
au trent-cinq de la rue du vainqueur
du dragon,porte ce pli , facteur [٩٣]

في عام ١٨٩٧، بعد فترة فاصلة تقارب العشرين عاما، ظهر جورج ريفيير ثانية في حياة أبي. وكان آنذاك يحتل منصبا رفيعا في وزارة المالية، ويسكن بيتا صغيراً في مونرويسو- بوا. كان قد إنزوى في ضاحية قرب غابة

(٩٣) (الى ذاك الذي يبيع اللون / القاطن في الرقم ٣٥ شارع قاهر التنين/ حمل الساعي هذه الرسالة.) مركز البريد، في حينه، بعث الرسالة للشخص المعني، على الرقم ٣٥، رو سان- جورج.

Twitter: @ketab_n

فانسان، من أجل صحة زوجته. كانت ذات جمال بولوني يسلب اللب. وبالرغم من كل جهود زوجها لإنقاذها ماتت بمرض السل. جلب ريفيير معه ابنتيه، ايلين ورنييه، لرؤيتنا، فملكتا قلوبنا في الحال. وصار من عادة الثلاثة زيارتنا كل صيف في ايسوي. اصبحت الفتاتان وأمي صديقات مقربات ـ إلى حد أنها تبنتهما.

كان شباب وشابات غالبا ما يأتون إلى بيتنا. وكنا نذهب جميعا للنزهة خارجا، بمحاذاة النهر أو عبّر الغابات. كنا أحياناً نخرج بعربة كبيرة، أو فكتورية، فكان رينوار يرافقنا. وتأتي أمي ومسيو ريفيير معه، وأحياناً بعض الضيوف الخاصين، مثل فولار أو عزّابي، جورج دوران- رول، أو النحات مايول، وكان الشباب يتبعونهم على دراجاتهم.

ذات يوم، خرجنا جميعا في موكب إلى قرى ريسي، على نهر اينيي. كانت تبعد نحو اربعين كيلومترا عن ايسوي. نذهب أولا صعودا نحو تل كورتيرون، عبر الغابات، ثم نمر، في القمة، بكرم آن شارميرون، وننزل نحو السين الذي نعبره عند غيي. وبعد صعود سلسلة من التلال نصل إلى ريسي العليا، التي تشرف على ريسي السفلى، ثم ريسي أخرى، بنيت من صف من المنازل بمحاذاة الطريق إلى شابلي. النبيذ الزهري لمنطقة ريسي، كان دائماً الشراب المفضل لمواطني تروي. ويعود تاريخ إزدهار المنطقة إلى العصور الوسطى، ويتبدى هذا في البيوت القديمة والكنائس، والقصر الذي يتوسد النهر. النزل، كان قديما جداً، غرفة لها سقوف من روافد خشبية ثقيلة، والمطبخ مرصوف بحجر لوحي وفيه موقد كبير مفتوح.

كان الجو حارا في ذلك اليوم. أحسّ رينوار بالجوع. كانت تيجان الأعمدة الفخمة على البيوت جعلت مزاجه طيبا. تناول طعاما شهيا من دجاج في القدر وبازلاء مطهية بقشورها مع لحم الخنزير. شرب أكثر من قنينة من نبيذ بينو

Twitter: @ketab_n

الزهري. في طريق العودة، بدأ الجميع بالغناء. الأغنية التي كنا نحبها أكثر، كانت " غاستيبلزا، الرجل الذي يحمل قربينة[٩٤]"، كلمات وموسيقى فكتور هيجو. (هذا أفضل عمل قام به ذلك الشاعر الهدّام)، على حد تعبير رينوار. فكرة الأغنية، تدور حول اسباني رومانسي تخونه محبوبته. لم يتردد بإعطائها وصف "جميلة مثل يمامة":

Pour l`anneau d`or de comte de Cerdagne

Pour un bijou

Le vent qui souffle à travers la montagne

...Me rendra fou[٩٥]

انفجر دولاب دراجتي، عندما إرتطمت بعجلة العربة الكبيرة، وعدت إلى البيت أوازن خطواتي على وقع عجلات العربة. واحد من الشباب غرق في النوم، ولم نره ثانية في ذلك اليوم. كنا جميعا نترقب التأثير الذي تركته نزهتنا على رينوار. لكن سيره لم يكن أحسن ولا أسوأ، ولم يبد عليه انه عانى من آلام أكثر أو أقل من المعتاد. وهذا فاقم من شكوكه حول الفائدة المرتجاة من إتباع نظام الحمية.

كان العام ١٩٠٢، ربما عاما نموذجيا لعطلاتنا في ايسوي. كان أخي كلود بلغ لتوه سنة واحدة، وعند حلول الموسم الدراسي، كنت أنا نفسي في الثامنة. في السادسة صباحا، كنت أستيقظ على صوت غابريال، تتحرك في المكان، حيث تضع روباً على منامتها وتنزل إلى الطابق السفلي لتفتح الباب لماري كورو، أو لبعض نساء القرية، اللائي يأتين للمساعدة. حين يكون أخي بيير

---

(٩٤) بندقية صغيرة.

(٩٥) لأجل الخاتم الذهبي لكونت سردينيا / لأجل جوهرة. / الريح التي تهب عبر الجبال / ستصيبني بالجنون...

Twitter: @ketab_n

في مدرسته الداخلية، كنت أنام في غرفته في الطابق الثاني، بجوار الغرفة التي تتقاسمها غابريال مع واحدة من الموديلات التي جيء بها من باريس. كانت جورجيت بيجيو، أو ادريان، أو أخريات من موديلات رينوار، وأيضاً لابولانجير، يحتلن الغرفة على التعاقب. الباقي من الطابق كان علّية المنزل. العوارض الثقيلة والروافد الخشبية، المنشورة بخشونة على يد نجار القرية، تركت مكشوفة في هذا الجزء من البيت. كنت أنا مدهوشا بها. عبر ضوء النهار كنت أرى الدرب في اللحظة التي تشرق فيها الشمس، كخيط أبيض باهر. خلفه الحديقة التي كان كليمانت يزرع لنا الخضروات فيها، عندما لم يكن يعمل في كرمه. كان يسلي نفسه بعزق الأرض، وزرع البازلاء والفجل، قبل بدء الحر. خلف ملكيتنا كانت هناك حقول، وأبعد منها غابات، وما وراء الغابات كروم. بإنحنائي قليلاً، كان بوسعي أن أميز الكروم على المنحدرات التي تشرف على سرفينيي.

ما ان ينقضي النهار ببطء، حتى يتلظى الريف بحر الصيف. حين تخرج من برودة البيت، تشعر كما لو أنك تخطو داخل فرن، وأي أسراب من الحشرات في المكان: بعوض لا يطاق، نحل، فراشات! وعلى حد النهر، يعاسيب وردية، مثل ضباب من ماء صافٍ. هذه الأحاسيس الصباحية الذي تستهل نهارا ثقيلا من الكدح، تغمرني بسعادة جسدية، ما زال بوسعي تخيلها عندما أغمض عينيّ.

كنت أرتدي بنطالي وقميصي، وأنزل إلى الطابق التالي لألقي تحية الصباح على أبي. لم يكن يسمح لأحد أن يدخل عليه، ما لم يكن لبس ملابسه كلها. كان عليه أن يغير طريقته، لما بدأت ساقاه تخونانه، ورضي أن تساعده أمي أو غابريال أو غران لويز في حمامه. عري النساء، كان يبدو له طبيعيا، في حين كان يُحرَج من جسد ذكري عار. عندما شرع في رسم "قيامة باريس" إتخذ أولا من الممثل بيير دالتور موديلاً لراعٍ شاب. لكن بالرغم من الجسم

Twitter: @ketab_n

الرياضي لدالتور، فإنه أنهى الصورة بإستخدام غابريال، ولابولانجير، وبيجيو على التوالي كموديلات للراعي، لأنه كان يشعر بالراحة أكثر معهن.

كان يدع دائماً نوافذ غرفته مفتوحة على سعتها. كنت أقبله قبلة الصباح، وأسرع نازلا بقية الدرج إلى المطبخ، حيث كانت ماري كورو تقدم طعام الإفطار. كانت أمي تستيقظ لاحقا، إذ كان أخي كلود، الذي أخذنا ندعوه كوكو، ينام في غرفتها، وهذا يعني، انها كانت تنهض في الليل لتعنى به، لذلك تبقى في الفراش مدة أطول قليلاً في الصباح. كان رينوار يفطر في غرفة الطعام. كان يتناول عادة كوبا من القهوة مع الحليب، خبزاً محمصاً، وزبدة. وكان يحب أن يدهن بالزبدة قطعة الخبز بنفسه، ثم يغمسها في الكوب.

من طباع أسرة رينوار انهم لا يلحون على ضيوفهم أبداً أن يأكلوا ما يقدم لهم، أو ما تمرره الخادمة. أمي، مثلا، لم تكن تستخدم عبارات تهذيب مثل، (أنت لم تأكل ما يكفي)، أو (تناول قطعة صغيرة أخرى، فقط لترضيني). كانت تحاول أن تجعل ضيوفها يتصرفون على راحتهم، ويخدمون أنفسهم بما يرغبون. (لو واصلت الإلحاح سأبدو كما لو أني أذكرهم بأنهم ليسوا منا). كان رينوار يسخر من عبارة (فقط لترضيني). (لا يمكنني أن أرى أي رضى يمكن أن يناله مضيفي لو أصيب بعسر الهضم) عندما تنزل أمي إلى الأسفل، كان أبي يحييها بطقوسية بعض الشيء. في صغري أدركت أن الحياة الحميمة لأبويّ، كانت شأنهما الشخصي وحدهما. أنا لم أر أبداً والدي يقبل زوجته في العلن، أو حتى أمامنا، نحن أولاده، عدا قبلة الوداع التقليدية عندما يسافر. كان مشهد زوجين أو عاشقين يظهران مشاعرهما على الملأ يربك رينوار (علاقة سوف لا تدوم طويلاً)، كان يقول. (انهما يلوّحان بها أكثر مما ينبغي).

بالرغم من تحفظه حول إظهار المشاعر، (التي لا تكون حقيقية الا اذا

Twitter: @ketab_n

كانت مخفية)، فإنه كان يستخدم ضمير "tu" (أنت)، حين يخاطب زوجته وأولاده، ويجيبونه بنفس الطريقة. كما كان يستخدمه أيضاً مع جورج ريفيير وبنتيه، وكلود مونيه ورفاق شبابه الأحياء. لكنه كان يقول "vous" (أنتم) مع حماته، وغابريال، وموديلاته، وكل أطفال الآخرين، عدا أطفاله. كان لا يحب أبداً كلمة (أنت) تلفظ تعطفا. حين كان يسمع "سيد" ما، على سبيل المثال، يخاطب بألفة عامله أو خادمه، (Dis donc ,mon brave!)، كان لا ينظر اليه بعين الإرتياح. في عبارة مثل هذه، كان يرى التأثير الضار للرومانتيكية وبقايا نوع من خطاب، كان ملازما للتمثيليات الميلودرامية.

حين أعود بالزمن إلى الوراء أذكر أن ابويّ كانا ينامان، دائماً، منفردين. كان لهما تقريبا على الدوام، غرفتان منفصلتان، لكنهما متجاورتان. (لا بد أن تكون شابا جداً، كي يكون لك صلات وثيقة بامرأة، من دون أن تتضايقا وتضجرا من واحدكما الآخر). من جهة أخرى كان رينوار يعارض الإنفصال الطويل. أنا تقريبا على يقين انه لم يخن زوجته أبداً. (في المقام الأول، هذه تفاهة. بوجه عام كل امرأة تشبه الأخرى، الا اذا كنت منقادا لنزواتك). كان يؤكد، انه بصرف النظر عن أشخاص معينين غريبي الأطوار، إبتلوا بتركيبة جسدية وعقلية خاصة، مثل صديقه لوت، الذي كان يضطر أحياناً إلى الذهاب إلى أقرب ماخور لإرواء رغبته الشديدة بالشرب. معظم الرجال يتبعون تصورهم الوحيد عن المرأة، والذي لا يتغير. مغامراتهم المختلفة، هي فقط إنعكاس لهذا التصور. لهذا السبب تتشابه الزوجات الشرعيات والعشيقات. في شبابه، إقترف، مرة واحدة، خطأ رهيباً. كان احد أصدقائه لديه عشيقة، يصطحبها غالباً إلى المولان دو لاغاليت، عرّفها على رينوار. ذات يوم، إلتقى أبي في الشارع بالمرأة نفسها - أو ظن إنها هي - فأطرى بلباقة على رقصها في ذلك اليوم في المولان. كانت هذه المرأة هي زوجة صديقه.

أثناء السنة الأخيرة من حياة غابريال، وكانت قبلا تعاني من المرض

Twitter: @ketab_n

الذي سيؤدي إلى موتها، كنا أنا وهي، وصلنا إلى طريقة نناقش كل شيء فيها بصراحة تامة. كنا، أحياناً، نتطرق إلى العلاقة الجنسية بين أبي وأمي. وإعتقدنا، نحن الإثنين، أن حياتهما العاطفية ظلت متقدة وحنونة، وأن علاقتهما الجسدية إنتهت فقط حين قيّد المرض رينوار على كرسي المعاقين، مرة والى الأبد. اتمنى أن يسامحني والداي على عدم إحترامي حميمية علاقتهما التي كانت تعني الشيء الكثير لهما. لكني أعتقد أن من المهم أن أبرر حريتي في الحديث بهذا الشأن، في الأقل لأثبت كم كان رينوار إنسانا عاديا في كل شيء، بما في ذلك الجنس.

بينما كان أبي يستمتع بتناول خبزه الأسمر، محمصا في الموقد، فارشا عليه الزبدة، (في باريس يضعون فيها الزعفران، لأنهم يعتقدون ان الزبدة الصفراء أكثر اناقة). كان الرسام بريميو، وهو رسام شاب قضى الصيف معنا، يثير دويا في الحديقة بالضرب على طبل. كان ينتظر إستيقاظ أمي من نومها، ليبدأ اليوم الجديد بهذه الطريقة المسرحية. كان فارع الطول ذو لحية كثة، وعينان مفعمتان بالعاطفة. كان زارعو الكروم من اجل الخمر كلهم بشوارب فقط، واللحى التي يولع بها الرجال في بيت رينوار كانت تسليهم بقدر ما تفعل لهجتهم. (الباريسيون الثرثارون)، كانوا يسمونهم، ويحاولون تقليد طريقة ريموند ماتيو في النطق. مشهد ذلك العملاق، الطلق المحيّا، الذي يؤشر إلى وقت النهوض في شوارع ايسوي على نداء الطبل، مثل بائع المدينة الجوّال، يثير الكثير من اللغط. حضورنا في القرية، كان تحوّلا لا يمكن للمواطنين الطيبين لوش، وفونتيت أو غرانسي أن يفخروا به. في بار- سور- سين، والتي كانت مقاطعة فرعية، كانت تتميز بأعمال الزجاج، التي يغدو الشبان بسببها مسلولين، من جرّاء النفخ في أنابيب طويلة ؛ لكن ايسوي، كانت مشهورة برسامها الملتح، وعصبته من المتشردين الذين لهم أيضاً لحى كثة، والذين ما ينفكون يخترعون طرقا جديدة تجعل الناس يضحكون. كان بريميو

Twitter: @ketab_n

يختال في الشارع بطبله، يخاطب الشابات بقرع خفيف لعوب، والنساء الأكبر سنا بإيقاع مهيب، محدقا بهن بنظرة مستعطفة، كما لو كان يقول، (أليس هذا جميلا؟). ذهبت جدتي ميلي إلى دار البلدية لتشكو هذا الموكب العسكري، فهو وان لم يكن يقلق راحتها لأنها تنهض منذ الفجر، ترى أنه أداء غير لائق. ليس ثمة قانوناً بلدياً يمنع قرع الطبول، وليس هناك طريقة لوضع حد له، ما لم يقدم الاخرون المزيد من الشكاوى، حتى يقوم رجال الشرطة بإجراء ما. لكن سكان ايسوي لم يشتكوا. بالعكس، كانوا يستمتعون بهذا الإهتياج. لذلك، حين يمرّ بريميو ببيت ميلي، كان يوجه لها إبتسامة مغوية وينقر بلطف على طبله، وألف قصيدة غزلية عنها، أصابت جدتي بنوبة من الجنون.

قبل أن ينهي رينوار سيجارته الأولى، كان يبدأ توافد الضيوف إلى البيت، ويجتمعون حوله على مائدة الإفطار. كان فولار الذي لا يزال نصف نائم، يطلب برتقالة، فيذكره أبي ان البرتقال لا ينمو في ايسوي. (أنت تفكر في الميدي. الأفضل أن تأخذ بعض الخوخ). (قل لي مسيو رينوار، لماذا لا ينمو البرتقال في ايسوي؟). (لأنه لا توجد أشجار برتقال). كانت روني ريفيير تنزل من الطابق الأعلى وسط عاصفة من التحايا وصرخات الترحيب، تقبل غابريال وجورجيت، وتحيي ماري كورو تحية الصباح، التي لا يؤثر فيها الصخب الذي يثيره هؤلاء الباريسيون. كان لماري كورو وقار امرأة، خبزت كعكة غوجير وطبخت أطعمة شهية لرسام عظيم، وأظهرت لزوجة رسام عظيم آخر كيف يمكنها تكثيف الصلصة من دون طحين. كانت امرأة صغيرة البنية، مكتنزة، تجاوزت الستين من العمر، ترتدي صداراً رمادياً مسحوباً بشدة على صدرها، مع ياقة رفيعة من الدانتيلا وتنورة من نفس اللون. تنقل عنها غابريال، انها كانت ترتدي على الأقل ثلاثة أثواب تحت تنورتها، ولم تكن تضع عليها مئزراً أبداً، وكانت دائماً نظيفة.

روني ريفيير، كانت سمراء بطبع مشرق، (وبنيّة مليحة)، وفقا لكليمانت

Twitter: @ketab_n

الذي يفخر بكونه خبيرا. كانت ستفدو موديلا رائعا لرينوار ـ كانت أمي ترى انها تملك صدرا مثاليا ـ لولا أن أبي كان يعارض حجز مثل هذه الحيوية الفياضة داخل مرسمه. (لا أتخيلها تنال الكثير من المرح في الشتاء، في مونروي لنتركها، هنا في ايسوي، تمرح كثيرا). على أي حال، ما كان أبوها سيوافق على أن تقف عارية للرسم. كان رينوار سعيدا بأن يرسم لها عدة بورتريهات. صوتها الرنان كان مثاليا لكيروبينو في "زواج فيغارو"، ولكيوبيد في "اورفيوس في الجحيم". كل مساء كان واحد أو آخر من ضيوفنا يجلس إلى البيانو للعزف، فيصير لدينا كونشرتو من الطراز الأول. كانت روني ملائمة لموزارت، لكنها كانت بريئة جداً على نقل فحش أوفنباخ كما يجب. كانت ساذجة على نحو مدهش. (أنت بلهاء جداً)، كان رينوار يقول لها. وشرح لوالدها الذي عندما تقدم به العمر راح يتبنى آراء مسبقة معينة، (لو كان في إبنتك قليلاً من العهر لغدت مغنية إستثنائية). لكن ريفيير لم يكن يريد لابنته أن تصبح مغنية محترفة. (وآسفاه)، قال رينوار. (التمثيل مهنة لا تلائم الرجال، لكنه مهنة مثالية للمرأة. أن تمثل دورا، هو جوهر الأنوثة). كان صوت روني جميلا جداً، إلى حد ان الرجال ـ حتى اولئك الذين يأكلون المقانق يوم الجمعة العظيمة ـ كانوا سيذهبون إلى الكنيسة لو غنّت فيها أيام الآحاد.

كنا نلعب بإستمرار حيلا عليها، وكانت تتحملها بمزاج طيب لا ينضب. كنا ندعها تنام نوما عميقا، ثم نحاول إخافتها بأصوات كأنها تنبعث من القبور، متظاهرين أننا أشباح. كانت صديقة مقربة لجارتنا لويز مينييه، التي يملك أبواها قطيعا من الأبقار. واحدة من ألعابنا، كانت أن نعصب عينا روني، موهمين إياها بأننا نلعب لعبة عصا الرجل الأعمى، ونتركها وحيدة وسط القطيع. ذات مرة واجهت عجلا صغيرا، فبدأ يلعقها متودداً، (توقف جان!)، صرخت، (أنت تثير إشمئزازي!)، ثم رفعت العصابة عن عينيها،

Twitter: @ketab_n

فإرتعبت من منظر العجل، وولت هاربة، فسقطت وهي تركض، وخدشت ركبتها. عالجتها أمي وربطت لها الجرح، أما أنا فجعلتني اخلع بنطالي، وضربتني بغصن من شجرة البندق الكبيرة ـ تلك التي تثمر جوزات طويلة. ايلين، أخت روني الكبرى، كانت هادئة وعاقلة، وتدرس لتصبح معلمة. كانت امهما، قبل أن تقع فريسة للمرض، مثل روني بالضبط، لكن معاناتها جعلتها تنطوي على نفسها. كان ريفيير يرى في إبنتيه وجهين مختلفين للمرأة التي أحبها بعمق.

لا أحد منا كان يمكنه تخيل أيام العطلة من دون الأختين الصغيرتين. بعد وصولهما بفترة قصيرة، تبعهما ضيفان آخران: ابن العم ادمون رينوار، وهو ابن عمي ادمون، بول سيزان، ابن الفنان. تزوج ادمون في النهاية من ايلين، وبول من روني. لم تكن أمي هي "الخطّابة"، إذ كانت تخشى أن ترتكب أخطاءً. وبالنسبة لرينوار، كان التاثير على اقدار الناس يبدو له أمراً غير لائق. إلا أن فكرة هذين الزواجين بدت لهما جد ملائمة، وفعلا ما وسعهما لجمع الشباب، وأبديا اهتماماً خاصاً بتشجيع العلاقة بين بول وروني. كانت روني مفعمة بمرح الحياة. (حتى أنها كانت تخطئ في التهجئة)، قال رينوار، (وهذا برأيي جوهري في أي امرأة). رأى أبواي في بول آثار أبيه حتى في صحته، وأكثر من كل شيء، في تحفظه. كان سيزان ورينوار يتبادلان محبة عظيمة، مع هذا، لم يظهرا ما يدل على ذلك. كانا بالكاد يكلفان نفسيهما بمصافحة بعضهما البعض، حين يلتقيان. كانا يستخدمان الـ"أنتم" الرسمية في المخاطبة، وبيقيان معا ساعات من دون تبادل كلمة واحدة، وهما مرتاحان وراضيان تماماً برفقة أحدهما الآخر. بوسعي فهم هذه المشاعر، لأن لي صداقة مماثلة مع ابن سيزان. في الغالب، ينجذب البشر الواحد منهم للآخر، لأسباب محددة. فأنت سعيد برفقة شخص، لأنه مسلٍ وفطن، والآخر لأنه غني، ويعاملك بسخاء، أو كريم ومستعد أن يسديك فضلا. بول، كان له

Twitter: @ketab_n

كل هذه الميزات، برغم انها ليست السبب الوحيد لصداقتنا. ببساطة كنت أحب أن أكون مع بول، بسبب المتعة المادية والروحية التي تجعلني أكون معه، مثلما يحب كلب رفقة كلب آخر. وأعرف انه كان يشعر بالطريقة نفسها ازائي. في الهند تجد هذا التقدير الصامت لوجود الشخص الآخر، لكن في عصر الآلة هذا يصعب تفسير ذلك. لإقناع ريفيير بجدوى زواج بول وروني، ذكر أبي ان طالب القرب هو (رجل طيب، ذكي، وحسير البصر؛ صدقني، لا تجد هذه التوليفة في كل وقت). وكان الشاب، علاوة على ذلك، تعدى الثلاثين، وبدأ يميل إلى البدانة، وشعره يتساقط. لا شيء من الاهتمامات البشرية كان يفلت من عينيه الثقيلتي الجفنين. شفته العليا مزينة بشارب كث، مبروم عند طرفيه، يشبه ضابط انكليزي في الهند تحول إلى الهندوسية. لم يكن يفعل شيئاً في الحياة. كان رينوار يعتقد، ومن خلال الرسائل التي كتبها له بول، بإنه يمكن أن يصبح كاتباً عظيماً. لكن كان عليه الاعتراف بأن ابن العبقري هذا كان مبتلياً بتواضع يذهل. عندما قلت ان بول لم يفعل شيئاً، فأنا عنيت بأنه لم يمارس أي مهنة معروفة. في الحقيقة كانت لديه مهنة، أسمى من تلك التي لدى فنان أو محامي أو صناعي: مهنة العيش ! كان بول سيزان يكن تقديراً شديداً للحياة، لا بد أنه يشبه التقدير الذي شعر به نبلاء عاشوا عصوراً لا تجارية. كان رينوار معجبا بالطريقة الصادقة التي كرس بها نفسه لمهنة العيش. أما أمي، فكانت تتمنى له أن يستقر ويتخلى عن سهراته في المقاهي، مقدما لأصدقائه كؤوس الخمر، وهم يتحدثون بالرياضة. كان لدى بول ضعف إزاء الملاكمة.

ربما كان بول يعتقد انه غير جدير بروني، لأنه كبير في العمر جداً، وأصلع جداً، وحسير جداً. في بعض الاوقات كان يحاول النأي بنفسه عنها. كنا، أنا وهو، نذهب في حملات طويلة على النهر، راغبين، في الظاهر، بنصب سلال لصيد سمك الانكليس. كنا ننزل إلى النهر بمركب مسطح العمق. ليس

Twitter: @ketab_n

هناك ما هو أكثر غموضا من نهر. بعيدا عن البشر، ضائعان وسط أوراق الشجر المتدلية، خائفان أن يقطع هدوءنا صوت الماء الذي يجري بسلاسة على الأعشاب المائية، كنا نشعر كما لو أننا نعيش في حكاية من حكايات فينيمور كوبر الذي كان بول عرفني على كتاباته. كنا ممددين على بطوننا في المركب، ووجهانا قريبين من سطح النهر، نراقب حركات سمكة كبيرة، كانت بالمقابل، تراقب فريستها.

كانت أمي تفضل الصيد بالصنارة. كانت تضع الصغير كلود في حضن بيير، وتذهب مع عدة صيدها، وتعود، في الغالب، بسلة مليئة بالأسماك الصغيرة. فكانت ماري كورو تقليها في زيت من بذور زهور صفراء برية، تنمو في الحقول. كنت شديد الولع بالكعكة التي لها نكهة هذا الزيت، مثلما كنت مولعا بكل شيء يخص ايسوي.

كان ادمون يقرأ بصوت عال لايلين. كان اكتشف لتوه متعة الدراسة التي باتت شغفه العظيم في الحياة. كان إجتاز إمتحاناته بتقدير شرف عال، ويفكر ان يصبح راهبا. تعلم في مدرسة في انكلترا، واكمل بحثه الأول عن الكتّاب الانكليز المعاصرين. لم يكن يتوقف عن الدراسة أبدا، وواصل التشبع بجمال أعظم الآداب العالمية، متنقلا من دون صعوبة من العربية إلى الروسية، ومن الايطالية إلى السكندنافية، متعلما خلالها لغات عدة. ادمون وايلين، كانا من مثقفي مجموعتنا الصغيرة.

حين يكون رينوار داخل البيت يرسم، كنا نذهب جميعا إلى الخارج، نسلي انفسنا مع أصدقائنا في القرية. ما لم يُطلب منا أن نقف أمامه للرسم، لم نكن ندخل مرسمه أبدا. كانت امي، أحياناً، تذهب اليه وتقضي ساعة أو ساعتين، لكن ليس قبل أن تحمم كوكو وتفركه، وتطعمه ـ من صدرها، بالطبع. لدي إحساس بإنها كانت سعيدة تماماً.

Twitter: @ketab_n

واحدة من أقسى الجلدات التي تلقيتها في حياتي، حين كنت صغيرا، كانت بسبب أخي كوكو. أمي هي التي عاقبتني، وبتأييد كامل من أبي. كان بعض العمال الذين يصلحون سقف دارنا، تركوا السلم في البيت. خطر في ذهني أن أحمل أخي الصغير، في السنتين من العمر، وأضعه على سطح البيت كي يتملى بالمنظر الخارجي. وعندما أردت النزول، رفض هو، فتركته على السطح. حين وقعت عينا أمي عليه، في ذلك الوضع الخطر، على علو خمسة وثلاثين قدما، إنتابها الرعب الشديد. عندما كانوا ينزلونه، قال كوكو بمرح، ان أخاه الكبير أراد أن يريه المنظر. وعليه عوقبت! وما زلت حتى اليوم أحس باللسعة!

جاء إلى البيت النحات مايول لقضاء بضعة أسابيع معنا. كان ترك زوجته خلفه في مارلي لتسهر على البيت، لأن بابه من دون قفل. حاول صانع الأقفال أن يبيع له قفلا وفق أحدث طراز، لكنه رفضه رفضا قاطعا. كان يريد قفلا من الطراز القديم، مع مفتاح يمكنه أن يحس بثقله في جيبه، والا كيف تعرف اذا ضاع المفتاح؟ ولأنه لم يجد ضالته، ترك بابه بلا قفل، وعيّن زوجته كلوتيلد حارسا عليه. كانت كلوتيلد تملأ حياة مايول كلها. ذات مرة، قدم شخص من البلدية لإستشارته حول مشروع إقامة تمثال لزولا، فاقترح صنع تمثال لكوتيلد وهي عارية، مضيفاً، بأنه سيكون تشريفا كبيراً لزولا، لأن جسمه أقل جمالا بكثير من جسم كلوتيلد.

كان مايول نحيلا ملتحيا، ويتكلم لهجة أهل الميدي القوية. كان يذكرنا بهنري الرابع. كان يشتغل على تمثال نصفي لأبي في محترفه وهو يرسم. لم يطلب من رينوار أبداً أن يقف أمامه، إذ كان متشربا بموضوع نحته، إلى حد ان الشبه كان يصبح أكثر فأكثر وضحا مع كل لمسة كان يضعها على مادة نحته، حتى أفضل من الشبه الجسدي: ما أنجزه بتلك الحفنات القليلة من الطين، كان الجوهر الحقيقي لشخصية رينوار. كنت، عند ذاك، صغيراً جدّاً

Twitter: @ketab_n

على فهم ذلك، لكن في السنوات اللاحقة، كان أبي غالبا ما يتحدث عن هذه التحفة.

قبل أن يبدأ مايول عمله، أرسلني أبي إلى محل الخردوات للحصول على بعض الأسلاك الثقيلة كي تستخدم كدعامة. لكن النحات رفضها، قائلا انه تبذير لا ضرورة له. نقب في أرجاء حظيرتنا فوجد قطعة من سلك قديم، كانت تستعمل في دعم تعريشة كرمتنا. ذات صباح إستيقظنا جميعا على ضجة رهيبة. كان مايول يدور حول الحديقة مثل مجنون، مرددا بأعلى صوته: (وقع رينوار! وقع رينوار!)، كان السلك القديم الصدأ خانه، فسقط التمثال أرضا، وصار كتلة مشوهة من الطين مطروحة على أرضية المرسم. بعد بضعة أيام، إستجمع مايول شجاعة كافية للبدء بالقطعة مرة ثانية. لكن بحكم ما قاله رينوار وفولار، أحسب انه لم ينجح بإسترداد إلهامه الأول.

عندما يحل موسم البطيخ، كانت ماري كورو، تبعث بي لشراء واحدة ناضجة. الشخص الوحيد الذي كان يزرع البطيخ في ايسوي هو اوبير، البستاني. لم يكن زارع كروم للخمرة، وكان لديه حديقة على حافة النهر في الجزء السفلي من ايسوي. كانت القرية مقسمة إلى قسمين علوي وسفلي، بمجموعتين مختلفتين من البيوت. كان الزراع غالبا ما يسكنون الجزء العلوي. نحن أنفسنا كنا في هذا الجزء. في حديقته، زرع اوبير فواكه وخضروات، لا توجد في مكان آخر في القرية: لوبياء، وبازلاء وبطيخ. كان يبيع غلته إلى الناس الموسرين في المدينة، منهم الصيدلي، وديسيس، وديسيس الآخر، صاحب المنشرة، مارشان القصاب، دكتور بورد، والكاتب العدل ماتيو. اوبيرن كان بستاني شاتو دي كومييني في عهد نابوليون الثالث. كان كل ظهيرة، كما قال، يأخذ البطيخ إلى جلالتها. ذات يوم، أثناء دخوله المطبخ، رأى الإمبراطور نفسه، يخرج أرنبا بريا، قتله في الصيد. (آه،إذاً هو أنت، اوبير، من يجلب هذه البطيخات الرائعة؟). (أجل، مولاي)، أجاب

Twitter: @ketab_n

اوبير، وقد توّرد وجهه. إستدار نابوليون الثالث نحو زوجته التي كانت مشغولة بالفرن، وقال: (اوجيني إشطفي قدحين. أريد أن أشرب مع صاحبنا اوبير الطيب نخب بطيخه الطيب). تظاهر رينوار انه صدّق هذه الحكاية، وشارك الامبراطور متعته في بطيخ اوبير.

أشرت في الصفحات السابقة كيف كان زارعو الخمر في ايسوي يتعطفون تجاه "الفلاحين". كانوا يشعرون بأعظم الازدراء نحو التعساء المساكين الذين يعيشون في النجود، على بعد كيلومترات عن حقول الكرم. فونتيت، كان يحسب على هذه الفئة، وكذلك بتي ماليه وغران ماليه، اللذان تقع مزرعتيهما، بأبنيتها من سقوف القش، حذاء الجدول الذي يحمل الاسم نفسه، ماليه. نوي- ليه – ماليه، كانت تعبيراً ساطعاً عن تخلف القرويين. عندما كانت أمي تويخ، ساخرة، كليمانت حول عجز ايسوي عن اختيار عمدة محترم، كان يجيب، (سأخرج وأجيء بواحد من نوي!). راعٍ من نوي كان له عرّاب يعيش في ايسوي، وهو محام متقاعد، تفرّغ لزراعة نبات السمسم. ذات يوم جلب الإبن بالمعمودية لعرّابه ساعة، هدية في يوم مولده، كان هو نفسه حفرها من جذع شجرة بلوط. كانت شيئاً ضخما، مصنوعة على شكل كرة مركزية كبيرة، تحيط بها كرات صغيرة مصبوغة باللون الأزرق والأبيض والأحمر، إذ كان الراعي وطنيا بعمق، ووضع في داخلها ساعة منبهة، كانت ملائمة جدّاً حتى ليظن المرء انها صنعت خصيصا لهذا الغرض. كان للمحامي إبنة في الخامسة عشرة، جميلة جداً، كانت صديقتنا، وإعتدنا الذهاب لزيارتها، مع صبيان وصبايا البلدة. عندما رأينا ساعة الراعي أخذنا نضحك عليها. إعتقدت إبنة المحامي انها قد تسلي أبي لو رآها، وأيدها الشباب جميعا. لا أحد منهم كان إهتم برسوم رينوار، لكن واقع انها (بيعت في باريس) وضعه في أذهانهم في منزلة أعلى من هذا الريفي الجاهل. ظنوا انه بلا شك سيضحك على هذا الراعي المسكين، الذي تظهر خفة عقله في كل إنش من

Twitter: @ketab_n

آلة الوقت البسيطة هذه، فتأبطتها وانطلقت إلى البيت على دراجتي. كنت أقود الدراجة بسرعة، ضاحكا بصوت عالٍ وأنا افكر كم سيضحك أبي حتى وقعت وكسرت واحدة من الكرات الصغير. لدهشتي الكبيرة أن رينوار اعجب بالساعة ووجدها جميلة جداً، وجعلني أعيد لصق القطعة المكسورة بعناية. ثم شرح لي، ان هذا الشيء الذي صنع بحب بيد الراعي، لا يمكن أن يكون قبيحا. بوسع المرء أن يرى روح صانعها فيها، بينما في الساعات البرونزية المطلية بالذهب التي تزين رفوف المواقد (كما ينبغي)، نحن لا نرى سوى سلع صناعية متكلفة.

ذات مرة، توقف أمام المنزل بودري الشحاذ، يطلب خبزا، فقطع رينوار عمله وطلب أن يراه. بودري، كان رجلا عجوزا نحيلا، تخاصم إلى الأبد مع الحضارة والقانون. كان ينام في كوخ مهجور في الغابة، في مكان ما قرب بيك فيرون. اثناء فصل الشتاء، كان يصنع الثقاب، حيث يتجول في الأرجاء لبيعها، وبهذه الوسيلة كان ينافس إحتكار الحكومة. كانت الشرطة تغض البصر عن نشاطاته، وكانوا يوقفونه عندما يبرد الجو بشدة: بهذه الطريقة، كان ينتفع من الموقد الحديدي في السجن المحلي. كانت أمي تعطيه بعض النقود، وتصرّ عليه: (إحصل لنفسك على شراب. أنا أعرف، ان هذا ما ترغب فيه). كانت تستهين بالموقف المنافق لبعض الناس الذي يرون ان الإحسان يقدم فقط لأغراض عملية وأخلاقية. كان بودري يجيبها، (أنت أكثر جمالا من مدام ايتانغ "سيدة البركات"). لم تكن تعرف من هي هذه السيدة، ذات الاسم الشاعري. كان الرجل العجوز يقول لأمي، (مدام، أنا أعتبرك أما لي).

أحد أبناء عمومتي طلب من أبواي أن يسمحا لي بأن أكون عرّاب إبنته الصغيرة، التي كانت ستعمّد لتوها، برغم انها لم تكد تبلغ السنتين ونصف السنة من العمر. أقيمت مأدبة، وجلس الجميع إلى طاولات منصبية في الحظيرة. كان هناك على الأقل مئة مدعو. مُلأ كأس من النبيذ للمعمّدة

Twitter: @ketab_n

المسيحية الصغيرة الجديدة، فأمر أبي بمزجه بالماء. أذعنت الأم لهذه النزوة الغريبة، لكنها لم تدع الصغيرة تعرف ذلك. حين ذاقت إبنتي بالعماد النبيذ المخفف، كشرت وجهها، وقالت، (أنا لا أحب الماء!).

من ذكرياتي عن ايسوي أيضاً: السراديب المقنطرة، المحفورة في الصخر، حيث كنا نذهب ونأخذ أباريق نبيذ معنا. الآبار التي كانت عميقة جداً، بحيث عندما كنت أميل على حافاتها، كانت دائرة القمر تحت تبدو مثل قمر صغير، صور السدود الخشبية الثقيلة على الدروب الصخرية، المتعة الفائقة أن أكون مع رينوار وهو يرسم في المرج بحذاء النهر، قرب مصنع الورق القديم، البردة الحمراء التي ترتديها أمي وهي جالسة على العشب الطويل ؛ صيحات الصغار، وهم يركضون الواحد وراء الآخر حول أشجار الصفصاف، الألعاب التي كان الشباب، ومعهم الموديلات، يلعبونها في قناة الطاحونة القديمة... وبول سيزان غاطسا فيها بحثا عن نظارته، وفتيات القرية يتجمعن مشدوهات من رؤية هذا الرجل الكبير (الذي يسبح سريعا مثل سمكة)، ثم يبسط يداه عالياً، صائحاً نحوهن، (آه، يا أمي، لماذا جعلت مني جميلا جداً!) واذكر حين كان يحل موسم حرق جذوع العنب الجافة في المواقد، في اماسي ايلول، حيث تغدو النهارات أقصر، ويأزف وقت عودتنا إلى باريس.

يوم رحيلنا، كان دائماً يوماً حزينا. كان كوكو، الحصان، يأخذنا مسافة إثنا عشرة كيلومترا إلى بوليسو لنركب القطار الذي يقطع المسافة من إس - سور - تيل إلى تروي، ويربط بورغونيا بشمبانيا. بعد موت كوكو، صرنا نستخدم الديليجنس (المركبة العمومية). من أجل الحفاظ، بقدر الإمكان، على قطعة من ايسوي معنا، كنا نأخذ تجهيزات كبيرة من الطعام: أرغفة كبيرة من الخبز الأسمر، فخذ خنزير مدخن في الموقد الكبير، وبعض القناني من كونياك العنب القوي. في إحدى السنوات، أعطوني جبنا لأحمله.

Twitter: @ketab_n

في القطار، بدأ المسافرون في مقصورتنا يتنشقون الهواء، فأخذوا يهوون أنفسهم بالصحف. في النهاية، وإذ لم يقووا على التحمل أكثر، قال أحدهم مخاطبا أبي، (ألا تظن أن إبنتك الصغيرة فعلتها في سروالها؟)، وكنت أنا المقصود بالبنت الصغيرة، فقد أخطأوا وظنوني فتاة بسبب شعري الأحمر الطويل. فنهضت وأنا ساخط من الإهانة المضاعفة، وخلعت بنطالي لأثبت براءتي، وكذلك أريهم جنسي. إستمرت الرائحة بنفس الحدة، وعندما وصلنا المحطة التالية هرب المسافرون، وقد نفد صبرهم إلى مقصورة أخرى. كان أبي يتسلى بالأمر إلى أبعد حد. أما أمي، فأرادت أن ترمي الرزمة المزعجة خارج النافذة. توسلنا إليها أنا وغابريال أن تدعنا نحتفظ بالجبن. فوصل الجبن أخيراً إلى باريس سالما، وكان مدعاة لبهجة لوسترنفي وفافر وفرانك لامي. لسنوات عديدة كنت أحتفظ بصورة، إلتقطت بعد وجبة عشاء في غرفة الطعام في لاروشفوكو، نظهر فيها جميعنا مجتمعين حول رينوار، ونهتز من الضحك. ربما كانت تذكارا لليوم الذي أكلنا فيه الجبن الشهير. لكن فرانك لامي بدا في الصورة أقلنا ضحكا. في ذلك الوقت، كانت له عشيقة، موديل شابة، وتوفيت بمرض السل. كانت ضئيلة جدّاً وناعمة، بحيث كان أبي يصفها بـ "الشفافة".

أثناء إجتماعنا في صالة الطعام، كنت لا أستطيع مقاومة الرغبة بلعبة حل التوريات، التي كانت ترافق إجباريا وجبات الطعام. كان رينوار يحب اللعب على الكلمات، (بشرط أن تكون صعبة). إحزر هذه: نصفي الأول معدن نفيس، ونصفي الثاني مادة جميلة، والكل، هو شيء يحفظ الإثنين معا. الجواب: or (ذهب)، و moire (نسيج مُخيّر)، ومعاً، يكونان moire-or، أو armoire (دولاب). وهذه الأخرى: جزئي الأول له أسنان، والثاني أيضاً، والثالث أيضاً، والكل، كذلك. التفسير: chat (قط)، loup (ذئب)، scie (منشار)، تكوّن Ja-lou-sie، كما تلفظ تقريبا من قبل الألمان، وتعني، الغيرة لها أسنان تمزق القلب.

Twitter: @ketab_n

٢٥

صعود الطوابق الأربعة إلى شقتنا في شارع لاروشفوكو أصبح مؤلما جدّاً لرينوار الذي باتت ساقاه أسوأ، على نحو مطرد، لذلك إنتقلنا إلى الشقة رقم ٤٣ في شارع كولانكور. كانت الشقة الجديدة تقع في الطابق الثاني، ولأن المبنى على جانب التل، كانت الغرف الخلفية أعلى بخمسة طوابق. كنا نشرف على سطوح المباني في شارع دامريمون، ونطل تقريبا على المنظر نفسه الذي كان في الشاتو ديه برويار. ولفرحتي الكبيرة، وجدت نفسي وجها لوجه مع صديق قديم: حي الماكي الذي ينتهي عند مدخل بنايتنا. استأجر أبي مرسماً في الرقم ٧٣ من الشارع نفسه، وكان عبارة عن غرفة واسعة على مستوى حديقة صغيرة. وبفضل إنحدار تل مونمارتر ظل لدينا منظر واضح لسهل سان- دني. كان الرسامان ستينلن و فوشيه يسكنان، على التوالي، في القبو وفي الطابق الثاني للمبنى، بهيكله نصف الخشبي على الطراز الانكليزي القديم. إعتقد رينوار الذي كان يكره المصاعد، إنه وجد تركيبة مثالية في هذا المكان، ففي حين لن يجهد نفسه بصعود الدرج، سيكون مضطرا، مع هذا، للسير قليلاً كل يوم. كان المرسم لا يبعد سوى مسافة قصيرة عن الشقة. ما زال المكانان موجودين، لكن على موقع الحديقة الصغيرة في الرقم ٧٣ تنتصب الآن بناية سكنية من ثمانية طوابق.

Twitter: @ketab_n

كان لبواب المرسم إبنة جمالها شهير في المنطقة كلها، اسمها ميراي. كان صبي الجزار غالبا ما يقف عند السور الحديدي، يغنى لها مقطعاً أو مقطعين من الأغاني السائدة في تلك الأيام:

Elle a doux nom Mireille

Sa beaute m`ensoleille![٩٦]

وكان ابن مدام برونيليه، بوابتنا في الرقم ٤٣، كان يعزف على الماندولين بشكل رائع. الصوت الرخيم لآلته، وهو يداعب الأوتار لا زال يرنّ في أذني؟ عزفه لم يمتع أبي مثلما متعني، (انه حري بأن يجعلك تكره الغوغونزولا[٩٧] إلى الأبد!). أخذتني غابريال لزيارة مرتع صبانا في الماكي. قام داليشامب، الحمّال، بإطلاق حماماته على شرف عودتنا. كانت طيوره مدرّبة على الطيران بتشكيل في السماء فوق مونمارتر. كان هناك دزينة منها: أربع مصبوغة باللون الأزرق، وأربع باللون الأحمر، بينما تركت الأربع الباقية باللون الأبيض. كان داليشامب وطنيا غيورا. كتب أشعارا في تمجيد جان دارك، ويرفض نقل الأثاث لأي شخص يشتبه به معاديا للعسكرية. الأم الرئيسة في مدرسة الراهبات سمحت له بحيازة قطعة من الأرض، بنى كوخه عليها. قال أبي عنه، انه يشبه رودان، لكن (بلحية كثة أكثر) ـ أمر، يبدو صعبا.

شخص واحد، يبرز حيا في ذاكرتي في كولانكور، تلك هي لابولانجير. بعد غابريال كانت هي الموديل التي إستخدمها رينوار مرارا، ربما أكثر من أي واحدة أخرى. حبتها السماء بهبتين بارزتين: الوقوف كموديل على نحو مدهش، وقلي البطاطا على نحو مدهش. كانت متوسطة القامة، شاحبة نوعا ما، مع نمش قليل، وأنف معقوف وشفتان ممتلئتان، وقدمان صغيرتان

---

(٩٦) لها اسم عذب ميراي. / حسنها يغمرني بالدفء!

(٩٧) جبن أزرق ايطالي الأصل.

Twitter: @ketab_n

ناعمتان، وجسد مدوّر مكتنز على نحو مقبول. كانت ذات طبيعة لطيفة جداً، مستعدة لتصديق أي كان، وتكن إعجابا غامرا للرجال ؛ ومتواضعة بشكل لا يصدق. بوسعك قول أي شيء لها من دون أن تحس بالضيق. لو لم يكن أبي حاضرا، لعبث بها زوار معينون، كانت أيديهم تشرد أحياناً. فابتسامتها المميزة تدعو لهذ النوع من السلوك. كان لها كتلة كثيفة من الشعر ذات لون بني، دائماً مشعثة. كانت من النوع التي تصرف وقتها في إعداد جدائل طليقة واللهو مع أمشاطها. اسمها الحقيقي ماري ديبوي. دخلت إلى إسرتنا بعد وقت قصير من وصول غابريال. كان رينوار إلتقى بها في بولفار دو كليشي، في أحد الأيام من عام ١٨٩٩. لم تكن تزوجت من ديبوي بعد، وكانت تعيش مع مسيو بيرتوميير، المعروف بتاي- تاي، الذي كان يعمل في مخبز في شارع شوسي دانتان، حيث إعتاد أبي شراء خبز الشيلم. من هنا إكتسبت ماري لقب " لا بولانجيير " (بائعة الخبز)، الذي تعلق بها حتى آخر حياتها. توفي تاي- تاي بمرض السل، فكانت أول مهنة للابولانجيير، بعد ذلك، بائعة زهور إصطناعية، وكانت مهنة تتلف البصر. لهذا السبب قبلت إقتراح رينوار بالعمل كموديل. كان الأمر اقل ضجرا من صنع الزهور، والأجر أفضل. كانت تذهب كل يوم إلى أوتيل- ديو لتضع قطرات على عينيها. كان ديبوي، الذي تزوجته عام ١٩٠٠، صباغ بيوت. شخص دمث، حيوي وفكه. من الواضح انه بحس الفكاهة الذي يتميز به فاز بقلب لابولانجيير. كان له شاربان ولحية صغيرة على الذقن. عندما تقدم به العمر صارت له بطن كبيرة، وأصيب بالروماتزم، فكان عليه أن يتخلى عن العمل على سقالة الصباغ. من حسن حظه، كانت زوجته تكسب ما يكفي كليهما.كان في السابق يأتي لزيارتنا، وعلمني هذه الأغنية:

Pour vingt- cinq francs, pour vingt- cinq francs,

Pour vingt- cinq francs cinquante,

Twitter: @ketab_n

On a un par dessus

Avec du poil dessus![٩٨]

في نهاية حياتها عانت لابولانجيير أيضاً من الروماتزم، وبعد فترة قصيرة من وفاة أبي. بدا أن الكثير من الفرنسيين، في بداية القرن كانوا عرضة لهذا المرض الغامض. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن مرض السل.

مرة واحدة فقط رأيت فيها لابولانجيير غاضبة حقا. كان ذلك في نهاية حرب ١٩١٤. كان أبي آنئذ في جنوب فرنسا، وكنا أنا وأخي بيير نسكن في شقة بولفار روشيشور. كانت لابولانجيير تقوم بأمور منزلنا، إذ تأتي كل صباح وتسألنا عما نرغب على الغداء، وكنا دائماً نقول لها، ونحن شاردو الذهن، (لحم بقر وبطاطا مقلية). بعد شهرين من هذا النظام الغذائي، وإذ لم تعد تحتمل، أصابتها نوبة عصبية وفتحت النافذة ورمت الطعام، بصحونه كلها، إلى الشارع.

ذهبت لابولانجيير معنا مرات عدة إلى جنوب فرنسا، ومرة واحدة إلى ايسوي. لكن كلا هذين المكانين لم يعنيا شيئاً لها. كانت تصاب بالملل متى إبتعدت عن باريس، مع هذا، فهي لم تعش في باريس الا حديثاً، في الواقع، قبل أن يقابلها رينوار في البولفار بوقت قصير تماماً. لها أختان تزوجتا وسكنتا في العاصمة: تزوجت تتانس من رجل شرطة، وجين من ضابط مساعد في الجيش ـ فخر العائلة. كانت تتانس تعمل بوابة في شارع كروا- نيفير، وكتبت لأختها الصغرى التي (أصابها الوهن) في ديجون، تطلب منها القدوم إلى المدينة. لم يكن لدى لابولانجيير مشكلة في إيجاد عمل و (صديق)، استأجرت شقة في شارع ديه تروا فرير، حيث بقيت تقريباً حتى نهاية حياتها. أقامت

---

(٩٨) بخمسة وعشرين فرنكا، بخمسة وعشرين فرنكا / بخمسة وعشرين فرنكا ونصف / إشترينا معطفا / بياقة من وبر!

Twitter: @ketab_n

علاقة صداقة حميمة مع البوابة هناك، وكانت تحل محلها بين الوقت والآخر. توفيت في ضاحية قيلجويف في عام ١٩٤٨. في ذلك الحين كنت أعيش في أمريكا، وكانت آخر مرة رأيتها فيها عام ١٩٣٧.

أود أيضاً الحديث قليلاً عن جورجيت بيجيو التي ما زالت حية. وقفت أمام رينوار كثيراً للرسم. كانت تعمل خياطة، ولأنها ماهرة جداً، كانت تكسب جيداً. أعتقد أنها كانت تقف أمامه كموديل لأنها تحب أن تكون مع "المعلم". كان يبهج أبي كثيراً أن يسمعها تغني طوال الوقت، وكانت تطلعه على كل جديد من الأغاني الأخيرة التي تغنيها فرق المقاهي. كانت شقراء،جميلة ببشرة ناعمة ومظهر باريسي. إلتقيت بها مصادفة في العام الماضي فقط. كانت مفعمة بالحيوية كما في الماضي، وما زالت تروي قصصاً ممتعة. أذكر واحدة من أغانيها التي غنّتها لرينوار، لا شك أنّها هي نفسها نستها:

C'est un rat, c'est un rat

Vilaine bête

Cache ta tête![٩٩]

وظناً منها أن رينوار لم يفهم التلميح، فإنها عقّبت قائلة، (إن لم يكن الشخص غبياً جداً، فإنه سيعرف ما يعني هذا).

أدريان، فينوس شقراء، تمشي مثل الآلهة، ظهرت في العديد من لوحات أبي. الموديل روني جوليفيه، صارت ممثلة، وسافرت كثيراً، وعاشت في مصر سنوات عديدة، وكانت موديلاً رائعاً. سأدهَش لو قيل لي أن تلك الفتيات الجميلات لم يكنّ جزءاً من عائلتنا. أنا لا أحاول اختلاق قرابة، بلا شك لم تكن موجود إلا في ذهني. كان لهنّ ثقة مطلقة بأبي. عرفت، بعد

(٩٩) هذا جرذ، هذا جرذ / حيوان بشع / خبأ رأسك.

Twitter: @ketab_n

مدة طويلة، انه كان يدفع لهن مالا مقابل الإقامة معنا. لكني متأكد بأنهن لم يعتبرن هذا المال الذي كن يتلقينه، هو معاش لهن. في واقع الأمر، حين كن يحتجن أي شيء لا يترددن بطلبه مباشرة، سواء من أبي أو من أمي. في غالب الأحيان، حين لا يقفن للرسم، يسألن إن كان بإمكانهن المساعدة في شؤون البيت. كن، عندئذ، يتنازلن عن دور فينوسات الاولب للقيام بكي بنطالي أو رتق الجوارب. مع هذا، وعدا في الأيام التي نسافر فيها معاً، كان أبي لا يتناول وجباته معهن. في أوقات الغداء كان يحب أن يكون وحده، مستغرقاً في التأمل، وفي العشاء، كنا نادراً ما نجلس إلى المائدة من دون ضيوف. كان يعرف، أيضاً، أن الحمقاوات الصغيرات سيأخذن حريتهن في ما بينهن، وأن لابولانجيير سوف لا تتردد بإفراغ علبة كاملة من الشوكولاتة، وأن ادريان ستلتهم الكثير من حساء الملفوف.

كان هناك الكثير من الفكاهة الفظة في لهجة الأحاديث بين أبي وموديلاته. كان يدعوهن بالمغفلات، الغبيات الأوزات، وكان يتظاهر بتهديدهن بعصاه. كن يغرقن في الضحك، ويلجأن إلى الأريكة، راكضات حولها، كما لو كن يلعبن لعبة الكراسي وكن يجرأن على التندر على عرجه: (نحن لا نخاف منك)، (لا تستطيع الإمساك بنا)، وهكذا. أحياناً كانت إحداهن تصل اليه وتقف أمامه طائعة، (ها أنذا. لكن عليك أن تعاقبني بأكثر من ضربة شديدة)، فكان يوجه لها ضربة رمزية، الأمر الذي يضحك الأخريات. كان يعجبهن أن يقلدن سلوك الخادمات في مسرحيات موليير، لأنهن يعرفن ان هذا سيسر "المعلم". (بدلاً من أن تجعلن أنفسكن أكثر غباءً، بقراءة الروايات السخيفة، حاولن قراءة القليل من موليير). كان يجلّ كثيراً هذا المسرحي العظيم، لأنه لم يكن "مثقفاً". لكن في أحد الأيام نشب شجار حقيقي مع إحدى الموديلات، لأنها كانت تقرأ رواية لهنري بوردو.

أحياناً، كانت غابريال تهمس للابولانجيير، (دعينا نهزل مع المعلم

Twitter: @ketab_n

قليلاً)، فكانت واحدة منهما تسأله فجأة، (يا معلم، لديك عشرون فرنكا، أليس كذلك؟)، فكان من دون أن يتوقف عن الرسم، يجيب، (إبحثي في جيبي الداخلي). وكما قلت سابقا، كان دائماً يحمل نقودا معه، (في حال الضرورة)، وما هي هذه الضرورة؟ لم يعرف أبدا. أفترض، انه كان، على نحو غامض، لا يثق بالمصارف، وكان يحس بالأمان بأن يكون تحت يده بعض النقود، جاهزة في حال الضرورة. (ما الذي يمنع، في آخر الأمر، مدير مصرف فرنسا أو مصرف تشيس مانهاتن من الفرار من البلد، متأبطا صندوق النقود؟). عودة إلى لعبة غابريال. بعد بضع دقائق كانت تمسك بالنقود التي أخذتها من جيب رينوار، وتقول، (ها هي نقودك يا معلم). (أي نقود؟)، يسأل مندهشا. تعلق غابريال، (كان يمكن أن آخذ النقود كلها من دون أن يلاحظ ذلك).

حفظ النقود هذا كان ينفع أيضاً حين يأتي بعض الناس يلتمسون مساعدة. (باريس)، كان رينوار يقول، (مترعة بالفقر. والآن، حيث يمكنني بيع رسومي، ليس لي الحق أن أكون أنانيا). تروي غابريال انه كان، أحياناً، يقرع جرس الباب، فتلبس بردتها وتذهب إلى الباب، فيكون الطارق امرأة في ملابس الحداد، أو فتاة صغيرة، أو أما مع أطفالها الصغار. فكانت غابريال تذهب إلى المرسم لتخبر المعلم، فكان يشير إلى جيبه بحركة من ذقنه، فتخرج منه ورقة نقد واحدة، وإثنتان، ثلاثة، حتى تفهم من تعبير المعلم متى تتوقف. كانت الدهشة تغلب السائل، فيخرج وهو ينتحب.

لكن لم يكن إحسانه هو الذي يكلفه أموالا كثيرة، بل كان أصدقاء بلا ضمير يسلبونه، في مناسبات عديدة، لوحاته.

كان عمري تجاوز السابعة بقليل عندما كنت شاهدا محرجا على نتيجة "خطأ" من هذا النوع. لم يكن أبي يرغب بإستخدام كلمة "سرقة"، خشية أن يفكر الفاعل إنه صُنّف في خانة اللصوص. (علينا الإفتراض ان الأمر كان

Twitter: @ketab_n

حادثا. في نهاية المطاف، يمكن أن يحدث هذا لأي شخص. كل شيء مرهون بالظروف). انها لم تكن كليا مسألة أخلاق هي التي جعلته لا يريد لصديقه أن يعبر الحد الذي يفترض أن يفصل بين الشرفاء واللصوص. كان رينوار يكن كرها للهواة في أي مجال، ثم (ليس كل شخص يمكن أن يكون لصا، فقط لأنه يرغب بذلك). الصديق موضوع المشكلة هنا كان يسكن على بعد بضعة بيوت من المرسم. قبل الرحيل إلى الميدي، ترك أبي معه مفتاح البيت، طالبا منه أن يتأكد بين الحين والآخر من حنفية قد تقطر ماءً، أو غاز يتسرب. عندما رجعنا، كان الصديق وزوجته غادرا باريس على نحو مفاجئ، من دون أن يأتيا لرؤيتنا. وطلبا من ستينلن أن يسلم المفتاح إلى أبي الذي لم يراوده الشك لحظة واحدة. بجانب المطبخ كان هناك مستودع صغير مليء بإقمشة لوحات، بعض منها غير مكتمل، وهناك كانت غابريال تعلق الملابس التي تحتاجها للوقوف كموديل. الباقي من ملابسها كان مرزوماً في أدراج خزانة خشبية كبيرة من طراز لويس الخامس عشر، وهي الآن في بيتي. لاحظت غابريال، عندما كانت تغير ملابسها، ان نحو خمسين قماشة لوحة إختفت. أكثر ما أثار قلق رينوار هو، ربما، أن تنجز اللوحات غير المكتملة على يد مزور ما. كتب أبي إلى الصديق غير الأمين الذي حضر على الفور، خوفا من مواجهة التحقيق.

كنا نقف، أنا وغابريال، أمام أبي للرسم حين طرق هذا الرجل الباب، فطلب منا أبي العودة إلى الشقة، ليظل وحده معه. كنت أعرفه جيدا، لكني لم أجرؤ على تحيته، أحرجتني رؤية وجهه مخضبا بالدموع ومشوها بالإنفعال. كان عاجزا عن التفوه بكلمة واحدة. روت غابريال القصة كلها لأمي التي كانت غاضبة جداً. كان يدور في البيت حديث عن عشيقة لهذا الصديق، ربما لها تأثير عليه للتصرف بحماقة. بعد الإنتظار ساعة من الزمن، أرسلتنا أمي عائدين إلى المرسم. لم تشأ الذهاب بنفسها خشية تعقيد الوضع. المشهد الذي بدأ داخل المرسم، تواصل في الشارع. كان هذا السيد راكعاً على ركبتيه

Twitter: @ketab_n

يقبل يد المعلم الذي أخذته الدهشة فلم يعرف كيف يتصرف. والأمر الغريب أن المارة لم ينتبهوا، إذ كانوا يمرّون مسرعين قاصدين شؤونهم الخاصة، فجعلني هذا أفكر بعبارة قالها أبي قبل بضعة أيام: (في باريس أنت وحيد تماماً. قد تقتَل في الشارع، ولا أحد سيلاحظ ذلك). في النهاية، إنصرف الرجل راكضا، ومشينا إلى المنزل، حيث تنتظرنا وجبة غداء من شرائح اللحم والبطاطا المهروسة. وهو يخبر والدتي عما حصل شرح أبي قائلا، (كنت لا أتوقف عن القول له، "ما حدث قد حدث، واللوحات بيعت، وليس لديك المال لإسترجاعها، وأنا كذلك. لذا دعنا ننسى ما حصل. لكن، حبا بالله، لا تجعل من الأمر مشهدا مؤثرا!" مع هذا، كانت هناك دموع وعبرات وإعتراضات). كان منزعجا من ذلك العرض للعواطف، أكثر من خسارة لوحاته. عندئذ، قالت أمي: (يجب أن لا نخبر احدا. لو سمع حميه بالمشكلة، سيكون الأمر شنيعا). كان والد زوجته قاضيا محليا. قبل أن يعود إلى المرسم، طلب أبي من أمي الذهاب إلى المصرف، إذ أعطى اللص كل المال الذي كان معه. (أنا متأكد انه لا يملك مالا كافيا حتى لشراء طعامه).

أحياناً، في الصباح، كان رينوار يوقف غابريال التي كانت تتهيأ لإشعال النار في الموقد الحديدي، (ماذا تفعلين بالجرائد؟)، (أشعل نارا)، تجيب. (لكني لم أقرأها بعد)، يقول. (أنت لا تقرأ الصحف أبدا). (تمهلي. إفتحي الحقيبة)، وكانت ملأى بصور بالألوان المائية. (من العبث الإحتفاظ بكل هذه الأشياء. قد يعنّ لتاجر ما بيعها)، (أعتقد انها جميلة)، إعترضت غابريال. لكن كان عليها أن تطيعه، فرمت كل المحتويات في الموقد، عدا صورة أو صورتين، تقوم بإخفائها خلف قطعة من الأثاث. (لكنه لم يثق بي، كان ذكيا، فالتفت ليرى ما كنت أفعل).

التضحية بالجملة، لم يكن، بأي طريقة، دافعها اليأس. لم يكن هناك

Twitter: @ketab_n

نوع من الـ"mea culpa"[١٠٠]، ولا "اعتراف" على الطريقة الدستويفسكية في هذا التدمير. كان هناك، فقط، اليقين بأن ابحاث رسام ما، هي شأنه الخاص وحده. (الأمر يشبه كما لو أنك تؤدي مسرحية في مسرح قبل أن تنجز التدريبات النهائية عليها. وعندئذ، تحتاج إلى الكثير من الورق لإذكاء نار الموقد).

ما زالت لدي بعض اللوحات المائية التي أنقذتها غابريال من النار. انها أنقذت، أيضاً، عددا كبيراً من "مدوناته". في هذه الأيام، الكثير من عشاق فن رينوار، يعتبرون إن هذه القصاصات تحتل مكانا مهما في الجزء الأساسي من عمله، وتمثل التعبير المباشر عن همومه، أبحاثه، وشخصيته. الغريب أن هذا ما شعر به رينوار أيضاً، عندما كان يفكر بالفنانين الذين كان يعشقهم. ذات مرة، بينما كان يعمل في ريف ايكس مع سيزان، شعر الاخير بضرورة ملحة لقضاء حاجته، فذهب خلف صخرة، وبيده لوحة مائية، كان أنجزها للتو. إندفع رينوار اليه راكضا وإنتزعها منه، رافضا أن يعيدها اليه، ما لم يعده بأن لا يتلفها. أذعن سيزان، لكنه قال، (سوف لن أريها لفولار، فهو سيحاول إيجاد مشترٍ لها).

ضعف أبي ـ عجزه عن قول لا لأي شخص ـ كان معروفا. بعض المحتالين كانوا يعرفون انهم لو حظوا بفرصة التقرّب منه، ولو بطريقة غير مباشرة، فإنهم سيحصلون منه على لوحة ما، وما عليهم سوى النزول إلى شارع لافيت، ويبيعونها بأربعة أضعاف السعر الذي دفعوه مقابلها. كانت الصعوبة الوحيدة، هي كيف يمكن الوصول اليه. كانت أمي أعطت تعليمات للموديلات أن يكنّ حارسات. عندما يكون منهمكا في عمله، كان لا يجرؤ أحد على مقاطعة المعلم.

---

(١٠٠) باللاتينية في الأصل، وتعني: ندم، اعتراف بالذنب، أو تبكيت الضمير.

Twitter: @ketab_n

في المساء، لم يكن يسمح برؤيته الا للمقربين والأصدقاء الثقاة من تجار الفن، مثل دوران – ورل، فولار، والأخوين بيرنهايم. كان أبي يعتقد ان من العدل ان يكون لتجار الفن نوع من الإحتكار لأعمال الفنانين. (لا بد للتاجر أن يكسب نقودا. ذلك هو الدافع لعمله. وأرباحه تسهم في دعم الرسامين الذين لا يهتم بهم الجمهور. جامع الآثار الفنية الذي يمارس التجارة هو شخص غير أمين. منافسته للتجار، غير عادلة، لأنه لا يدفع مالا من أجل الحصول على ترخيص، ولا يتحمل نفقات تجارية).

كانت أكثر الأوقات المفضلة للوصول إلى رينوار هي عندما يخرج من الشقة قاصدا مرسمه. كانت الموديل التي تصاحبه تتفادى الهجوم بالإسراع نحو المرسم، بحيث انه في الوقت الذي يصل فيه الدخيل إلى الباب، تكون هي خلعت ملابسها وجاهزة للوقوف للرسم. في هذه الحالة، لم يكن مسموحا بالدخول لأي شخص غير معروف، وهكذا كان يجري الأمر. لكن لو ظل "العدو" على إصراره، كما كان يحدث غالبا، كانت الموديل تحتج صائحة، وتهدد بإرتداء ملابسها والتوقف عن العمل. فكان رينوار خشية من إلغاء جلسة الرسم، يدير ظهره بينما تسير الموديل العارية نحو الباب تغلقه بوجه الزائر الثقيل. الأفراد الأكثر حنكة، كانوا يبتكرون حجة أو أخرى. ذات مرة ظهر شخص غريب قائلا انه أب بالتبني لإبنة سيسلي غير الشرعية. هذه القصة، بالطبع، تلفيق محض. بالرغم من ذلك غادر الدجال ظافرا، حاملا واحدة من اللوحات. واحد من اكثر المتطفلين دهاءً، كان مستشاراً بلدياً سابقاً في بلدة صغيرة قرب فونتانبلو، حيث كان أبي واصدقاؤه يرسمون في الأيام الغابرة. ادعى هذا الشخص انه مفوض من البلدية بإقامة متحف للرسامين الذين جعلوا المنطقة شهيرة. كان قد أخبر مونيه، ان رينوار أعطى مسبقا واحدة من لوحاته، وأخبر رينوار ان مونيه فعل الشيء نفسه. أصرّ على الدفع مقابل اللوحة، وعلى تقديم وصل بالدفع، موقعا كما ينبغي. كان الإجراء

Twitter: @ketab_n

قانونيا تماماً. في النهاية، علم والدي، من خلال جوزيف دوران- رول، أن هذا الشخص المتحمس للفن، لم يكن سوى جاسوس لتاجر فن في الطرف البعيد من شارع لافيت، مشهور باللوحات المزيفة، التي لا يتردد بعرضها سوية مع بضع لوحات أصيلة، بهدف إضفاء الأصالة على محله.

كان هناك أيضاً ضابط متقاعد، ظهر مع لوحة مزورة لرينوار، وإبتسامة لطيفة على وجهه: (مسيو رينوار) - كان أنذر مسبقاً، بأن مخاطبة أبي بالأستاذ، تزعجه دائماً - (اشتريت لتوي واحدة من لوحاتك. أنفقت كل مدخراتي عليها، حتى أنني إقترضت برهن معاشي التقاعدي وبيتي الصغير في ايتامب. المشكلة الوحيدة انها لا تحمل توقيعك). كان من الواضح ان اللوحة مزورة. لكن رينوار قال له، (اتركها معي لعمل بعض الرتوش عليها)، فأعاد رسمها بالكامل ووقع عليها، والعجيب أنه لم يشتر إطاراً للمحتال الذي غادر مع ثروة صغيرة.

دجال آخر، فتاة يتيمة، إدّعت أنها ضحية محام مضلل، سرق إرثها الذي تركه لها والدها - طبيب أو ما شاكل، كرّس حياته للّصم والبكم، ولم يبق لها من هذا الإرث سوى لوحة لرينوار. وفي حادثة أخرى، أم موجعة، تحاول بيأس إبعاد ابن لها عن السجن بسبب ديونه في القمار: مسألة شرف وكرامة، وهلم جرّا. من حسن حظها أن زوجها المرحوم ترك لها لوحة رينوار هذه... وفي كل مرة، كان رينوار يبتلع الطعم. عندما كان يقال له، بعد ذلك، انه ضحية إحتيال والناس يستغفلونه، كان يتظاهر بأنه يعرف بالأمر كله. (كنت أدرك حيلهم الصغيرة منذ البداية. كانت واضحة وضوح النهار). وإن قيل له، (لماذا إذاً، أعدت رسم اللوحة؟)، كان يذكر السبب الحقيقي: (بإضافة بضع لمسات من الفرشاة، سيكون الأمر أقل تعبا من أن تدافع عن نفسك). ثم بعد لحظة تأمل، كان يضيف: (بالنسبة للفتاة اليتيمة، لا مجال لأن تعرف إن كانت خدعت من قبل محاميها أم لا).

Twitter: @ketab_n

بالمقارنة مع كرمه الذي لا يصدق، أذكر أن إقتصاد رينوار الغريب في الإنفاق ميزة، أخطأ بعض الناس فحسبوها بخلاً. عندما كان يجلس بجانب الموقد، يطلب من غابريال أن ترمي من كومة الحطب قطعة أو قطعتين من الخشب، والشيء نفسه مع الفحم، في الموقد نفسه الذي أحرق لوحاته المائية فيه. من جهة أخرى، حين تكون معه واحدة من الموديلات واقفة للرسم، كان يملأ الموقد حتى القمة ـ لا بدافع طيبة القلب، بل خشية أن تحس الموديل بالبرد وتتوقف عن العمل.

عندما كان قادرا على المشي لم يكن يصرف نقودا أبداً على عربات الأجرة. كان تقريبا يروّع من فكرة منح البقشيش في المطاعم الأنيقة. كان هذا، برأيه، دلالة على الجبن: الخوف من إزدراء رئيس النّدل. كنت ذكرت في ما سبق، كم كان يرفض الراحة في عربات النوم في القطار، حتى غدت صحته سيئة جدّاً بسبب الجلوس المتواصل، إذ كان يعتقد، ان من الغباء دفع نقود كثيرة مقابل قضاء ليلة في (صندوق نقال)، بالقدر نفسه الذي تدفعه لمدة إسبوع في فندق.

الى جانب ذلك، كان يعاف الأشياء الرخيصة. كان يعتبر، على سبيل المثال، أن الساعات كلها يجب أن تكون مصنوعة من الذهب أو الفضة. النيكل يثير أعصابه. وكان لا يرضى الا بالأقمشة الكتانية. لم يكن أبداً يسمح لأمي بشراء مناشف صحون من القطن، لأنها تخلف فتاتا أبيض على الزجاج. من جهة أخرى، كان يأنف من الكريستال، لأنه خالٍ من العيوب ؛ بل كان يحب النظر إلى القناني الزجاجية المصنعة في بار- سور- سيين، لأنها (لم تكن منتظمة، وغير مصنوعة من تراب، ولون الزجاج فيها ضارب للخضرة، غني، مثل أمواج بريتانيي). كلمة "غني" غالبا ما كانت ترد في أحاديثه، وبالطبع، عكسها، "فقير"، مع انه يفضل كلمة " toc " (شيء مزيف). مع ذلك، فإن الغنى والفقر لم يكونا يعنيان لرينوار ما تعنيهما لأغلب الناس. حسب رأيه،

Twitter: @ketab_n

بيت جميل في سهل مونسو، قد يكون فخرا لبعض المليونيرية، لم يكن سوى toc، بينما كوخ متداعٍ، مبارك بأشعة الشمس المتوسطية، يمثل الفنى. ذات مرة، أثناء حديث مع صديق حول مزايا الرسام رفاييلي، الذي كان آنئذ في قمة مجده، أشار أبي إلى ان لديه تحفظات دائمة على عمل هذا الفنان. (لكن عليك أن تعجب به)، قال له صديقه، (فقد رسم الفقر). أجاب رينوار، (ذلك بالضبط هو ما يثير شكوكي حوله. في الرسم ليس ثمة فقراً).

البعض من الأشياء التي كانت بالنسبة اليه مفسدة بالفقر: الشف[١٠١] الانكليزي، الأخضر الخام والناعم جداً، الخبز الأبيض، الأرضيات المشمعة، الأشياء المصنوعة من المطاط، النصب والأبنية من رخام كارتارا ـ (ملائم فقط للقبور)، اللحم المطبوخ في مقلاة، صلصة اللحم المكثفة بالطحين، الصبغات في الطبيخ، مواقد لا تستخدم أبداً ومطلية بشمع أسود، الخبز المقطع شرائح ـ كان يحب الخبز مقسما باليد، الفواكه المقشرة بشفرات من الفولاذ بدلاً من سكاكين فضية، المرق غير الدسم، النبيذ العادي المعبأ في قناني عليها بطاقات باسم لامع، خدم ينتظرون واقفين عند المائدة، مرتدين قفازات بيضاء كي يخفوا أيديهم القذرة، الغبار الذي يغطي الأثاث، والأدهى من ذلك، الثريات ؛ صينية وفرشاة لإزالة الفتات؛ كتب، تلخص رواية أو مؤلفاً علمياً أو تاريخ الفن في بضعة فصول؛ المجلات والدوريات؛ الأرصفة والبنايات الإسمنتية وشوارع الإسفلت؛ الأشياء المصهورة، ومبدئياً كل مادة اكتسبت تناسقها من مواد متقنة ؛ الحرارة المركزية، أو ما تعرف بـ"الحرارة المتكافئة" التي تمزج عليها الخمور فتعطي مذاقاً متماثلاً؛ السلع المنتجة بالجملة ؛ الملابس الجاهزة الصنع؛ التراب على السقوف؛ التعريشات المعدنية أو النوافذ الشبكية؛ الحيوانات المختبرة بالتغذية العلمية؛ البشر

---

(١٠١) قماش من التيل الخفيف.

Twitter: @ketab_n

المختبرون بالدراسة والتعليم. ذات مرة، أبدى له زائر ملاحظة: (ما يعجبني بهذه العلامة التجارية للكونياك هو ان النوعية دائماً نفسها. ليس ثمة أية مفاجأة سارة). (يا له من تعريف دقيق للعدم)، أجابه رينوار.

الآن، وقد إمتلك القارئ فكرة وافية عما يحب أبي وما يكره، سأضيف بعضاً من الأشياء التي كان يعتبرها "غنية": رخام باريان، (الذي هو وردي اللون ليس طباشيريا أبدا)؛ العاج الأسود؛ السقوف القرميدية البورغونية أو المتوسطية المغطاة بالأشنات؛ بشرة امرأة معافاة، أو بشرة طفل؛ الخبز الأسمر؛ اللحم المشوي على نيران الخشب أو الفحم النباتي؛ السردين الطازج؛ أرصفة من حجر اللوح أو شوارع مبلطة بالحجر الرملي، باللون اللامع قليلاً؛ الرماد المتبقي في الموقد؛ بناطيل الجينز التي يرتديها العاملون، والمغسولة والمرتقة أكثر من مرة.

هو نفسه كان يرتدي الطقم ذاته من الملابس لعشر سنوات. وعندما كان ينهي لوحته، ويبقى قليل من الأصباغ في صحيفة أصباغه، كان يحفظه بعناية. اعتاد أن يكشط جبن الكمبر أو البُري، ولم يكن يقطع أبداً السطح الجاف لقرص الجبن، خشية فقدان الكثير من الجزء الطيب. قبل أن تصبح يداه مشوهتين جداً، كان يقشّر أجاصة، بإمساكها بيده اليسرى بطرف شوكة، وبيده اليمنى يزيل القشرة بسكين، بشرحات رقيقة مثل ورق السجائر. كان يزعجه الناس الذين يضيعون جزءا من الفاكهة عندما يقشرونها.

عدا الافتقار إلى إحترام الناس والاشياء، كان يسمح لي ولأخي، تقريبا، بفعل كل شيء، سواء حصلنا على درجات متدنية في الصف، وتغيبنا عن المدرسة، وأثرنا ضجة أثناء عمله، أو أسقطنا صحنا مليئاً ووسخنا الأرضية، وغنينا أغاني غير لائقة أو مزقنا ملابسنا. أعرف الآن انه كان يطلب من أمي أن تتغاضى عن مزحات معينة لنا، مثل تلك المزحة التي جعلت فيها

Twitter: @ketab_n

غابريال تصدق بأن فضلات الماعز كانت زيتونا. فأرادت أكلها، وما إن بدأت بوضع بعضاً منها في فمها، حتى صرخت بها أمي التي كانت مشمئزة، بلا ريب، وهكذا أنقذت بيبون من تجربة غير سارة. بعد ذلك أخرجت من جيبها سكينا صغيرة، تحملها معها دائماً، وبدأت بقطع غصن من شجيرة. ففعل أبي ما بوسعه لدرء العقاب عني. من جانب آخر وبخني، ذات يوم، عندما قمت بنفسي بقطع جبن البُري من طرفه الناعم، وبالتالي حرمت العائلة من الجزء الأكثر شهية فيه، لأنه الأبعد عن القشرة. نعتني ابي حينها بالوغد، وهو وصف كان في فمه محقرا. النذالة تصنف عنده أقل حتى من أسوأ الأفعال. أن لا تكون صريحا، أن تحوم حول الموضوع، أو أن تكون متصنعا أو فظا، كان يزعج أبي. كان يعتقد ان المبالغة بالتهذيب هي قلة تهذيب، فكانت تدفعه إلى أن يكون فظا. بالنسبة له، هي صورة كاريكاتيرية للكياسة في الزمن القديم التي هي علامة على غرور البورجوازيين الذين يتوهمون انهم يرتقون إلى مصاف الارستقراطيين بنبذهم البساطة.

الوغد واحد من أكثر الشخصيات التي سادت في الكاريكاتير في زمن رينوار. الشخص الوغد، هو الثري الذي يقول ويفكر على هذا النحو: (ما هم لو دست على الورود بما أنني إشتريتها بمالي!). إنه الشخص الفقير الذي يسرق ورق التواليت من المحطات، ويقول، (على الداخل بعدي أن يتدبر أمره).

الوغد، يلتقط عنبه مباشرة من أكبر غصن في صحن الفواكه. رأيت أبي ينهض ويغادر المائدة أمام شخص كان يخدم نفسه بهذه الطريقة. الوغد هو الذي يثير ضجيجا حين يحاول الآخرون النوم، من يدخن برغم انه يجعل الآخرين يسعلون، من يعض اليد التي تقدم له، ويغوي النساء بالرغم من انه يعرف انه مصاب بمرض تناسلي. صاحب المسرح الذي يفسد الجمهور بالإباحية ويحرضه على القتل بمسرحيات عن الجريمة، هو وغد. من وجهة

Twitter: @ketab_n

نظر أبي، المضارب في التجارة، الذي يقطع أشجار الفاكهة على ضفة السين ليبني مكانها مباني ضخمة أو شققاً من الإسمنت المسلح، هو وغد، بالطريقة نفسها التي يفتض بها أحمق بكارة فتاة بريئة. مثال آخر كان يذهل أبي: كان النادل في المقاهي الكبيرة يضع قنينة الابيرتيف المشهي على طاولة الزبون، وهو متأكد من أن الأخير سيخدم نفسه في حدود المعقول. حشد الناس في معرض باريس العالمي عام ١٩٠٠ لم يكن يتألف من الأثرياء فقط، لكن هؤلاء كان لهم الجرأة بأن يسكبوا لأنفسهم كؤوساً مترعة من هذا الشراب، لأنها لا تكلفهم شيئاً. بناء عليه، النادل هذه الأيام، يخدمك ببخل، إذ يترك لك كأساً واحدة ويأخذ القنينة معه، وهذا يعدّ تقريبا إهانة. فعل صغير من الخسّة يقود إلى آخر، وهكذا، ينتشر مثل الوباء.

مملكة الأوغاد تغطي مساحة شاسعة، مطوقة بأكثر الخطايا وقاراً، كما أكثرها تفاهة. وكان رينوار يطلب شيئاً واحدا من أبنائه، أن يبقوا بعيداً عن حدودها. حتى ونحن أطفال كنا نعرف أن علينا التخلي عن مقاعدنا للشخص الأكبر سنا، في عربات النقل العام. عرفنا، أيضاً، أن جميع البشر، أساساً، هم متساوون ؛ وان المرء ينبغي أن يكون مهذبا تجاه صعلوك مثل بودري، وتجاه مسيو جرمان رئيس مصرف ليون. مع ذلك، لم نكن نحتاج إلى خلع قبعاتنا متى ما جاءنا شخص ما. لأن القصد من القبعة حماية الرأس. بعض الناس، لديهم فكرة غريبة بكشف رؤوس أطفالهم للريح المثلجة أو لخطر ضربة شمس، حبا بالمظهر الأنيق. بالنسبة لرينوار النذالة تعني التدمير. لو كان هندوسيا، لما إتبع شيفا ولا آمن بمبدأ التناسخ الناشئ عن التدمير، بل كان سيتبنى تعليم فيشنو، ثاني أقانيم الثالوث الهندوسي، إله الوقاية. كانت تسقمه رؤية شجرة تقطع. ورد فعله نفسه إزاء بتر غصن شجرة ؛ كسر أي شيء؛ إتلاف معدن نفيس، بتنظيفه بعنف؛ طرق كتلة من حجر جميل من أجل نحت تمثال قبيح ؛ تضليل عقل ذهنية طفل؛ إعتبار الصيد رياضة ؛ تبديد

Twitter: @ketab_n

ثروات طبيعية، مثل الخشب، الفحم، البترول، وكذلك الثروات البشرية، مثل الموهبة، الإخلاص، الحب.

تقديم وصف لملونه يغني عن كل شروحاتي. لكن قبل كل شيء، لا بد من أن أصف كيف يرتب الرسام عادة ملونه. أولا تكوّمُ الأصباغ في تلال صغيرة، تتمازج مع بعض، وبكثافة بحيث تغطي السطح الخشبي كله. من هذا المزيج من المستحيل أن نتبين لوناً صافياً وحيداً. فضلاً عن ذلك، يضيف الرسام دائماً محتوى أنبوبة أصباغ التي تتشرب بكومة الأصباغ، منذ أول ضربة فرشاة. تحت تصرفه عدد كبير من الفراشي، التي يختار منها حسب الحاجة. بعد عدة استعمالات، كل فرشاة تتخثر بصبغ متعدد الألوان. عندما تصبح هذه "البهرجة" أكثر مما يجب، فإنه ينظف ملونه بالكشط، ويعصر كمية جديدة من الأصباغ. كان يبقي درجه مليئاً بأنابيب الأصباغ، يأخذ منها متى شاء. هذا الوصف، لم يُقصَد منه النقد، فالعديد من الرسّامين العظام كانوا يتبعون هذه الطريقة، وأحياناً، يبالغون، عندما يعصرون إنبوب الصبغ على قماشة اللوحة مباشرة.

ملون رينوار، كان نظيفاً (مثل قطعة نقد جديدة). كان مربع الشكل، موضوعاً داخل صندوق بغطاء مناسب بالشكل نفسه. في واحد من أوعية الأصباغ، كان يسكب زيت بذور الكتان، وفي الآخر خليط من زيت بذور الكتان والتربانتين، بنسب متساوية. على المنضدة الصغيرة، بجانب حامل اللوحة، كان هناك قدح مليء بالتربانتين، حيث ينظف، على نحو ثابت، فرشاته بعد استعماله لونا ما. كان لديه دائماً عدة فراشي جاهزة في علبة الرسم، وعلى المنضدة بجانبه. لم يكن يستخدم أكثر من إثنتين أو ثلاثة في الوقت الواحد. حالما تبدأ الفرشاة بالتخثر أو بالتقطر، ولسبب ما، يجعل هذا من الدقة الكاملة للمسة الفرشاة مستحيلة، كان يرميها جانبا. كان من عادته أن يتلف الفراشي القديمة كي لا يلتقط واحدة ويستخدمها بالخطأ. على المنضدة

Twitter: @ketab_n

الصغيرة، كان هناك أيضاً عدد من الخرق النظيفة لتنشيف فرشاته بين وقت وآخر. علبة رسمه والمنضدة، كانتا على الدوام مرتبتان تماماً. كان يطوي إنبوبة اللون من طرفها، كي يعصر فقط كمية اللون المطلوبة. في بداية أي جلسة رسم، كان يحرص بأن يكون الملون كان نظّف بعد الجلسة السابقة، في غاية النظافة. عندما ينظفه، يكشطه أولا بشكل كامل، ويمسح المكشطة بقطعة من الورق، ثم يفرك الملون بخرقة مبللة بالتربانتين، حتى يختفي من الخشب كل أثر للصبغ. وكان، ايضا، يرمي الخرقة في النار. كانت الفراشي تغسل بالصابون والماء البارد. كان يعتقد ان من الأفضل فرك شعر الفرشاة بلطف على راحة اليد. كان أحياناً يكلفني بهذه المهمة، وكنت فخورا جدّاً بها.

رينوار نفسه، وصف تركيبة ملونه بالملاحظة التالية ـ من الواضح انها تعود إلى فترته الإنطباعية -:

أبيض فضي، أصفر كرومي، أصفر نابولي، مُغْرَة صفراء، ترسينا (طين) طبيعية، زنجفر، لك وردي، أخضر فيروني، أخضر زبرجدي، أزرق كوبالتي، أزرق لازوردي. شفرة رسم، مكشطة، زيت، تربانتين ـ كل ما هو ضروري للرسم. المغرة الصفراء والأصفر النابولي، الترسينا، هي درجات لونية وسيطة فقط، ويمكن أن يستغنى عنها، بما ان مرادفاتها يمكن أن تستحدث بألوان أخرى. الفراشي، مصنوعة من شعر طائر الخطاف. فراشٍ مسطحة وبرية.

سيكتب في ما بعد أن الأسود "ملك الألوان" كما دعاهم بعد رحلة إلى ايطاليا، كان مفقودا من التركيبة.

في نهاية حياته قام بتبسيط ملونه أكثر. هنا، وكما اتذكر، الطريقة التي رتب فيها الأصباغ على ملونه، عندما رسم "المستحمات" التي هي الآن في اللوفر، في مرسمه في ليه كوليت، في كانيي. بدءا من الجانب الأسفل،

Twitter: @ketab_n

بجانب الثقب الذي يدخل منه إبهامه: أبيض فضي، بسماكة "قطعة سجق" ؛ أصفر نابولي، "كرية" صغيرة ؛ والشيء نفسه للألوان التالية: مغرة صفراء، ترسينا، مغرة حمراء، لك وردي، طين أخضر، أخضر فيروني، أزرق كوبالتي، أسود عاجي. كان اختياره للألوان لا يتغير. رأيت رينوار في مناسبة نادرة يستخدم الزنجفر الصيني الذي وضعه بين اللك الوردي والطين الأخضر. في آخر عمره، أخذ يبسّط طبقة لونه أكثر فأكثر، وفي لوحات معينة، أهمل المغرة الحمراء أو الطين الأخضر. لا أنا ولا غابريال رأيناه أبداً يستخدم الأصفر الكرومي. إقتصاده بالوسائل، كان مثيرا للإنطباع جداً. الأكوام الصغيرة للون بدت تقريبا ضائعة على سطح ملونه. إستخدمها رينوار بشكل مقتصد، وبإحترام. كان سيشعر انه يهين ميلار، تاجر الأصباغ الذي طحن له أصباغه بعناية فائقة، لو حمّل ملونه بإفراط، أو لو لم يستخدم الصبغ لآخر ذرة.

كان دائماً يمزج ألوانه على قماش اللوحة. وحريص جدّاً على الإحتفاظ بإنطباع من الشفافية، عبر مختلف مراحل عمله. وصفت سابقا كيف كان يعمل على مجمل سطح اللوحة، وكيف كانت الفكرة الرئيسية تبزغ تدريجيا من الإرتباك الظاهري، مع كل ضربة فرشاة، كما لو على صحيفة فوتوغرافية أثناء التحميض. وأشرت أيضاً إلى طبقة اللون الأبيض الفضي التي يستعملها على القماشة قبل البدء بإضافة الألوان. كان يسأل المودِيل، أو واحد من أبنائه، الواقف أمامه أن يزيد نسبة زيت بذور الكتان. ونتيجة لذلك، كان اللون الأبيض يستغرق بضعة أيام قبل أن يجف، لكنه يمنح رينوار سطحا أنعم للعمل عليه. لم يكن يحب القماشة الناعمة النسيج التي كانت أنعم من أن يرسم عليها، لأنه كان يعتقد انها أقل مقاومة. بالإضافة إلى هذه الأسباب الخاصة، ربما كان هناك سبب آخر، لاواعي: إعجابه بالفنانين الفيرونيين، وتيتيان وفيلاسكيز، الذين كما يظهر، كانوا يرسمون على قماشة خشنة النسيج قليلاً. لهذه الأسباب، المتممة لبعضها البعض، كان أبي مقتنعا بأن الفنانين العظام، كانوا يسعون لإنتاج أعمال تدوم طويلاً. بالنسبة له، هذا

Twitter: @ketab_n

الهم بالرسوخ، لا علاقة له بغرور الإيمان بأن عمله جدير بالخلود، لكنه كان يعرف أن رسمه سيأخذ خمسين سنة قبل أن (se caser) (يستقر) أو يجد له مكاناً: هذا هو التعبير الذي إستخدمه ليقصد به أن يدع الألوان تجد توازنها. كان يقول: (أتمنى أن احتفظ بلوحاتي لنفسي زمناً طويلاً، كما اتمنى أن يفعل ابنائي الشيء نفسه، قبل ان يدعوا الناس يمتلكونها). كانت له الفرصة لأن يتحقق من خطر (الرسم للحالة الحاضرة)، لأن بعضاً من رسومه المبكرة تحولت مسبقا إلى اللون الأسود. عشاق الفن في وقتنا الحاضر يمكنهم الآن التأكد، بعد أربعين سنة من وفاته، كم كانت (طريقته الطويلة الأمد) ناجحة تماماً.

كل أعمال رينوار تقريباً التي رسمت عندما كان هذا الهم يشغله، بقيت مع الوقت. لا أعني انها تغيرت مادياً. الأمر أننا ربما ننظر إليها الآن بعيون مختلفة. كان رينوار أكثر تواضعاً من أن يعترف بأنه سبق عصره. كل الفنانين العظام سبقوا عصرهم، منذ أن تخطت دائرة جمهورهم (آل ميديتشي وفرانسوا الأول وانصار الفن المحترفين وورثتهم)، هذه هي فدية التعامل مع عامة الناس، الذين هم بطيئون بالسليقة. ان من الطبيعي أن يأخذ ذوق الملايين من الأفراد وقتا أكثر للتطور من ذوق مجموعة صغيرة تهذبت بعادة مناقشة علم الجمال أو ذوق بضعة أثينيين كانوا يتناقشون حول الفن في الأغورا[١٠٢] في أثينا. هذه النخبة، كانت من النوع الذي تسلح بتدريب يقيها من صدمة الحداثة. مهنة الناقد تنشأ من الحاجة إلى شرح غير المألوف للجموع غير المدربة. لكن بتظافر تركيبة غامضة من الظروف، يحدث كثيراً، منذ نشوء النقد وتطوره خاصة في القرن ١٩، بأن نبوءة هؤلاء العرّافين النقاد تثبت في غالب الأحيان خطأها أكثر من صوابها، وبالكاد تكون موثوقة من قبل الأجيال التالية. دولاكروا كان غارقاً بالوحل، والانطباعيون كانوا محتقرين،

(١٠٢) الساحة العامة في أثينا القديمة، كان يجري فيها النقاش حول أمور الفن والفكر.

Twitter: @ketab_n

والتكعيبيون شبهوا بالمهرجين. وحتى ديديرو كان ينطق هراءً، وبعض من آراء الفرد دو موسيه تجعل المرء يهز كتفيه استهجاناً. يبدو أن الحس النقدي، وقتذاك، لم يكن منسجما مع القدرات الإبداعية العظيمة. وفي نهاية المطاف، فإن الناس، بعد فترة طويلة من الاستيعاب، هم الذين يصدرون الحكم النهائي. ومن بين الجموع، كان يظهر بين الحين والآخر عشاق الفن الموثوقون، أمثال شوكيه، الذين ينجحون، في آخر الأمر، في توعية الآخرين. هذا التأخر في اجماع الناس على قبول تطور الفن، الأدب، الموسيقى، وحتى الفكر، كان يرعب رينوار. كان يرى فيه موت الحضارة الغربية. هذا التطور كان أبطأ في وسائل الإعلام الجماهيرية، مثل الصحافة، التي لم تفعل سوى تزويد قرّاءها بغذاء ذهني لا يشدههم. كان الفنان، بالتالي، مجبراً على اللجوء إلى برج عاجي وسط عصبة صغيرة من المعجبين. وهو الأمر الذي استنكره رينوار بشدة. (إنه ينحط بسرعة إلى مجتمع الإعجاب المتبادل، والفنان، ينتهي أمره).

كان أبي يأمل أن يدوم عمله، بما يكفي لأن يقيّم من قبل الناس في اللحظة المؤاتية. وأمله بلا شك تحقق.

تحدثت عن الألوان التي إستخدمها، والتاجر في شارع بيغال الذي كان يحضّرها له. لم يكن لرينوار ثقة كبيرة بالمنتجات الكيماوية الجديدة، التي لم تكن أثبتت بعد متانتها. كان المأخذ الرئيسي عليها، بالنسبة اليه، انها كانت (لامعة) بطبيعتها، بينما كان هو يريد أن يصل إلى هذا اللمعان بالتباين الذي إبتكره بين الألوان. أصباغ ميلار كانت مطحونة باليد. ما زلت أرى في مخيلتي ورشته ذات الواجهة الزجاجية، والمفتوحة على باحة خلفية، ونصف دزينة من الفتيات العاملات اللواتي يرتدين مريلات بيضاء واقفات أمام الهاون والمدقة.

في نهاية حياته، نادرا ما إستخدم أبي قماشة مثبتة على عارضة بقياس

Twitter: @ketab_n

ثابت. واحدة من مزايا نجاحه، وكان سعيدا بها، هي انه كان حرا في رسم أي حجم وافق هواه. كان يشتري لفات كبيرة من الأقمشة، بعرض ياردة واحدة عموما، يقص منها قطعاً بمقص الخياط، وتثبت بمسامير صغيرة عريضة إلى لوح. وكان عنده أيضاً لفات أكثر عرضا لـ "الأعمال الكبيرة". لكنه كان يستخدم للوحات البورتريه، أحياناً، قماشة مركبة أصلا على أطر بقياس ثابت. اعتقد انه كان يخطر في باله الأطر الكلاسيكية التي كان مولعا بها. عندما وبخه صديقه القديم دوران- رول، بسبب رسمه بورتريها لسيدة معينة بسعر أقل من قيمته، رد عليه رينوار، (وعدتني بأنها ستضعه في اطار أصيل من طراز لويس الخامس عشر، كنت رأيته في محل غروسفاليه).

في الوقت الذي كنت أذهب فيه إلى المرسم للوقوف أمام أبي للرسم، وغالبا مثل أي موديل آخر، كنت بالكاد أراه يستخدم طريقة الرسم الاستشفافي[١٠٣]. كان يستخدم هذه الطريقة بالرسم فقط عندما يكون راضيا عن وضعية جسم أو مجموعة، لكنه كان يستاء من الطريقة التي تتوازن بها مع خلفية اللوحة. وكما كان يقول، كان هذا يحدث عندما (لا يصل إلى الشبه!). ولتجنب البدء من جديد ليرى (إن كانت الموديل جالسة كما يجب على خلفيتها)، كان يعمد إلى الرسم الاستشفافي، ثم يضعه جانبا، ويبدأ عملا آخر. لم يكن يخرجه من درج منضدته ليستخدمه على لوحة جديدة، حتى وقت طويل بعد ذلك، قد يمتد أحياناً لشهور أو حتى لسنوات. كما عرفنا، كان يرسم الموضوع نفسه أكثر من مرة. والبعض منها، أعاد عمله بدأب عظيم. لكن في نظره، كل نسخة هي لوحة مختلفة. مسألة الموضوع لم تكن تشغله إطلاقاً. قال لي، ذات يوم، إنه نادم لأنه لم يرسم الصورة نفسها - يعني الموضوع نفسه - طوال حياته. بهذه الطريقة، كان سيقدر على تكريس

---

(١٠٣) النسخ بطريقة استخدام الورق النشاف.

Twitter: @ketab_n

نفسه بالكامل لما يشكّل الإبداع في الرسم: العلاقة بين الشكل واللون التي لها اختلافات غير محدودة في موضوع واحد، والتي قد تكون مفهومة أفضل، عندما تنتفي الحاجة للتركيز على الموضوع. قلت له ان ذلك هو ما فعله مع لوحته "قيامة باريس". تمهل قليلاً قبل أن يسأل نفسه: (ربما رسمت الثلاث أو الأربع لوحات نفسها طوال حياتي، لكن هناك أمراً واحداً مؤكداً، وهو أني، منذ رحلتي إلى إيطاليا، كنت أركز على المسألة عينها). أبدى لي هذه الملاحظة في كانيي، قبل وقت قصير من موته.

في الفترة التي كنا نعيش فيها في شارع كولانكور جعلني والدي أقف أمامه للرسم في احيان كثيرة. بعد سنوات قليلة أخذ أخي كلود مكاني، وكان يصغرني بسبعة أعوام. بلا شك، أثبت كوكو انه واحد من المصادر الخصبة للإلهام في حياة أبي. أعتقد أن غابريال وحدها من بزّه في هذا المجال، وتفوقت عليه بمراحل من ناحية حجم اللوحة. أتذكر العاريات العظيمات اللائي كنت أراهن متفتحات ومشرقات.

لم يكن رينوار قادراً على التعامل مع فكرتين في الوقت نفسه، لكن كان يمكنه الانتقال من موضوع إلى آخر ويذهب عنه الموضوع السابق. كل المشاكل التي واجهته في اللوحة السابقة، كانت واضحة له تماماً، وما تبقى من العالم يتلاشى أمامه كما لو انه لم يكن موجودا البتة. عندما لا يبلغ هذا الإحساس، كان لا يصرّ أبدا. واولئك الذين حوله، كانوا يلاحظون ذلك في الحال، إذ كان يتوقف عن الهمهمة ويفرك بعنف الجانب الأيسر من أنفه بسبابة يده اليسرى، وينهي عمله بقوله لسيدة المجتمع التي يعمل لها بورتريها، أو للموديل التي أوقفت أغنيته: (نحن نتعثر، أرى من الأفضل أن نرجئ الأمر حتى الغد). كان، حينئذ، يبدو على السيدة أو الموديل خيبة الأمل. كان يدخن سيجارته، ويلعب قليلاً بالبيلبوكيه، ومن ثم يقرر، (غابريال، إذهبي وحضري جان مع وشاحه الحريري). أحياناً كان يذهب خارجا لخمس أو عشر دقائق، ويتمشى

Twitter: @ketab_n

حتى يصل محل ماينير ليشتري علبة سجائر ماريلاند. (لا بد لنا، بين الفينة والأخرى، من التوقف عن العمل، ونذهب لنتمشى).

حين كنت صغيراً جدّاً لنقل في عمر الثالثة، الرابعة أو الخامسة، كان بدلاً من أن يقرر الوقفة التي علي أن أتخذها، ينتظر حتى أجد شيئاً ما يشغلني ويبقيني هادئا. على هذا النحو رسم "جان يتناول الحساء"، "جان يلعب لعبة الجنود"، "جان مع صف الأبنية" و "جان ينظر إلى كتاب مصور". أذكر بشكل واضح كل الاستعدادات للوحة التي أظهر فيها وأنا أخيط والموجودة الآن في معهد الفن في شيكاغو. أنجزت في ماغانيوسك، قرب غراس، حيث استأجر أبواي فيلا جميلة على سفح الجبل. لا بد من اني كنت يومذاك في الخامسة من العمر. كنا نمتلك أرنبا أليفا، سميناه جانو، اعتدنا أن نأخذه معنا عندما نخرج للنزهة في البرية، على الجانب الآخر من الطريق. كنا نشكل أنا وأبي وأمي وغابريال ولابولانجيير حلقة حول جانو لمنعه من الركض صعودا نحو الجبل. كان هناك جدول صغير قريب، مليء بالأعشاب الطويلة، فكان يسرنا رؤية هذا المخلوق الصغير، الذي ولد في زريبة صغيرة، يلعب حولنا متوهما انه يحيا في البرية حرا. (تماماً مثل الباريسيين الذين يذهبون للتسلق في جبال الألب)، قالت أمي. (مثل عائلة دونييه روسو)، قال أبي.

في ذلك البيت إنما بدأت غابريال تقف عارية للرسم أول مرة. كانت لابولانجيير مصابة بنزلة برد، وحاول رينوار الحصول على موديل من غراس، لكن من غير طائل. كان الوقت موسم حصاد الورود لصناعة العطور، وكل الشباب الذين في الجوار خرجوا للعمل. في الوقت نفسه، كان توقع الظهور عارية أمام سيد، يرعب الكثير من الفتيات. وجد ابي بغيته في فتاة جميلة سمعتها ملطخة بما يكفي، بحيث ليس لديها ما تخاف منه، فأمل أن توافق. لكنها ردت بغضب بأن نومها مع الرجال لم يكن سببا يجعلها تتعرى أمامهم، وتفاخرت بأنها تقوم بذلك العمل في الحقول، وملابسها كلها عليها. لم يخب

Twitter: @ketab_n

أمل رينوار كثيرا، لأنه بعد ان قابلها، كانت لديه شكوك حول نظافة العاهرة. في النهاية خطرت لأمي فكرة إستخدام غابريال كموديل بديل. كانت عابريال في ريعان الصبا، إذ لم تكد تبلغ العشرين. كان مألوفا لها أن ترى صديقاتها يقفن عاريات للرسم، بحيث انها اخذت الإقتراح كأمر طبيعي. وهي ظهرت، قبل ذلك، في الكثير من اللوحات، لكن دائماً بكامل ملابسها، ودائماً معي.

كنت أنا النجم، وهي لها الدور الثانوي. انها لم تكن في اللوحة التي تظهرني أخيط، لكنها وراء فكرة إبقائي هادئا، بدلاً من الركض إلى الخارج مع الأرنب جانو. كان مسيو رينو، صاحب الفيلا، جلب لي دمية جمل صغير ملوّن، تعلقت به كثيرا. أقنعتني غابريال بأن اخيط معطفا لـ "جملي" من قطعة كانت لها من قماش الساتان. فأثبتت انها مهمة خلابة، بحيث أبقتني من دون حراك كل الوقت تقريبا. كان رينوار سعيدا بأن يراني هادئا جداً، فقط لأن هذا يوافق مزاجي، فهو لم يكن يحب أن يبقى موديله على وضعه خامدا بدافع ارادة الحفاظ على الوقفة (الجسد لا يتحرك، بينما الذهن يعدو بسرعة). بوجه عام كان يسألني ببساطة، مثلما يسأل كل موديلاته، أن ألبث قليلاً في المكان المعين، أمام خلفية مصنوعة من اقمشة قطنية مختلفة الألوان، مثبتة على الجدار بمسامير. لم يكن يدقق حول وضعية الرأس أو الأوصال، ومن أجل التأكد من بعض التفاصيل، كان يقول لي، (هل لك أن تقف ساكنا لدقيقة واحدة؟). وفي الواقع كانت دقيقة واحدة فقط.

كان يحلو له الحديث مع موديلاته، كما يحب أن يتحدثوا اليه. لكنه كان يفضل أن تكون المحادثة مجرد لغو، لهذا السبب كان يستحسن أغاني جورجيت بيجيو. كان يحب ان ينحدر موضوع المحادثة إلى حالة من الغفلة، إلى الغور في الفراغ، إذ أراد أن يكون موديله مسترخي البال والجسد. موهبة النساء والأطفال في الصفاء كانت ربما سبباً آخر يجعله يتمتع كثيراً برسمهم. (الرجال متوترون جداً. انهم يفكرون كثيرا). الهموم الثقيلة، المثيرة أو

Twitter: @ketab_n

العاطفية، كما يعتقد، تمهر الوجه والجسد بخاتم الزائل، في حين ان الفن يعنيه الخلود فقط. البطل المصوَّر في اللحظة التي يصارع فيها عدوه، أو المرأة التي تظهر وهي تكابد الألم المبرّح، ليسا موضوعين ملائمين للرسم العظيم، برغم ان الرجال والنساء، الذين عانوا من المحن وتمجدوا بها، صاروا مواضيع عظيمة في ما بعد، عندما تمكن الفنان من تصويرهم في لحظات استراحتهم وسكونهم. ليست الشخصية الزائلة للفرد هي ما ينبغي تثبيتها في الرخام، بل شخصيته العامة بمجملها، الذروة من حاصل جمع اللحظات الأبدية، جبانة أو بطولية، عادية أو مثيرة. بإختصار، ليست مهمة الفنان التأكيد على هذه اللحظة أو تلك في حياة الإنسان، بل في قيادة الجمهور إلى فهم هذا الإنسان بكليته. "الناسخ المقرفص"، لم يكتب حرفا وهو في حالة إهتياج في ظرف تاريخي معين، بل انه كتب كل الحروف لكل نسّاخ مصر، وكتبها مع خلاصة تجاربه في الحياة بأجمعها، كما مع إرثه، ومع بيئة سواحل النيل، ومع فهمه للإلوهية، كما مع عناصر أخرى كثيرة تتفاعل في كل حياة بشرية. هذه الإرادة للهرب من الزائل، تفسّر إزدراء الفنانين العظام لكل ما هو سائد. كما انها تفسّر أهمية العري في تاريخ الفن، لأنه أكثر خلودا من الجسم البشري. بتصويره لجسد من دون حجاب، يسمح بالإفلات من عنصر مبني على رد فعل هو بالبداهة زائل. الجسد يثير المشاعر، فقط حين يكشف عن عريه شيئاً فشيئاً، بعد أن كان مرئيا أولا بكامل ملابسه. غالبا ما كان رينوار يتحدث عن (حالة العرفان التي تنشأ من تأمل أكثر مخلوقات الله جمالا، الجسم البشري). ويضيف، (... ولذوقي الشخصي، الجسم الأنثوي).

ارجو أن يعذرني القارئ، لو عدت لحظة إلى موضوع كنت قد طرقته سابقا في روايتي عن رسم "مولان دو لاغاليت". ذلك لأننا نقترب من نهاية مغامرة رينوار. ها نحن نهجس بالصفاء المشبوب العاطفة لكل الفترة النهائية. سيكون الأمر ايسر علينا للفهم لو أشرت في السياق إلى خطة معينة (نحو الهدوء). افصح لي أبي عنها أثناء أحاديثنا:

Twitter: @ketab_n

(حين تكون شابا، تظن ان كل شيء يتبدد من بين أصابعك، تركض، لكن القطار يفوتك. حين تتقدم في العمر، تعلم بأنه لديك الوقت، ويمكنك اللحاق بالقطار التالي. لكن هذا لا يعني أن تنام وأنت تنتظره. المسألة ببساطة هي أن تكون حذرا ولا ترتبك). "الصياد" لم يتوان، ولم يختف أبدا. حتى يوم مماته، ظل رينوار (بالمرصاد للفكرة). لكن الطريدة، الآن، اتاحت له أن يقترب بخوف أقل، عارفة ان خرطوش بارودته ما هو الا حب يتجدد بإستمرار. أنا أعرف عما أتحدث، إذ كنت بنفسي طريدة، ووقعت في الفخ في أكثر من مئة لوحة.

يعرف القارئ كم كان أبي يصرّ على إبقاء شعري طويلاً، حماية ضد الضربات والسقطات، ناهيك عن المتعة المتزايدة التي يجدها في رسمه. وبالتالي، كنت ما أزال، وأنا في السابعة من عمري، أتجول بشعري الأحمر الأجعد. مجيء أخي الأصغر غيّر الوضع. قرر أبواي إرسالي إلى مدرسة سانت- كروا، وعليه توجب قصّ شعري. كان كل أهل المنزل حاضرين هذه المناسبة الجليلة. تأسف أبي بشدة لهذه الضرورة، مفكرا، ربما، بكل الصور التي لم يرسمها بعد مع شعري الطويل. أمي، الدقيقة والعملية، كانت توجه الحلاق. غابريال ولابولانجيير، بكتا حزنا. أما أنا نفسي فكنت جذلا. هيّج شعري عواطف مختلفة. برغم انه أكسبني الكثير من المديح، الظاهر في المرسم - (ذهب حقيقي)، كان الجميع يقولون، مرددين كلمات أبي - لكنه، في الشارع، جعل الأولاد ينعتوني تارة بـ "الفتاة"، وأخرى بـ "رأس الذئب". هذه الإهانة الأخيرة أغضبتني بوجه خاص، لأني اعرف كم يكره أبي ممسحة السقوف المعروفة بين الناس بهذا الاسم: فرشاة كبيرة، مثبتة إلى طرف عصا طويلة، تستخدم في تنظيف زوايا السقوف من شبكات العنكبوت. كان رينوار يحب العناكب. (انهم يقتلون الذباب، ويمكن لهم أن يكونوا مخلصين). إعتاد الخدم تخبئة الممسحة في القبو خلف كوم الفحم، ولا يستخدمونها الا عندما لا يكون المعلم في الجوار.

Twitter: @ketab_n

حين كانت تقتضي بعض التفاصيل في اللوحة ان أبقى ساكنا، كانت غابريال تقرأ لي بصوت عال من كتاب "حكايات خرافية" لأندرسون ؛ وكانا، هي وابي، يستمتعان بها كما استمتع أنا. حكايتنا المفضلة، كانت "حساء على السفود" التي كنا نحفظها عن ظهر قلب. حين يحكي الفأر عن الوليمة التي اقيمت في البلاط، ويقول، (كنت جالسا على المقعد العشرين على يسار ملكنا، وذاك كان موقعا شرفيا، كما أعتقد)، كانت غابريال تضمن بعض كلامها لهجة ايسوي، فكنا جميعا نتخيل ان المأدبة الملكية كانت عرسا بورغونياً. في نهاية الحكاية، عندما يشرح الفأر بأن الوصفة تستلزم أن يغمس الملك ذيله ثلاث مرات في حساء مغلي، كي يتفادى الزوج المحنة، كان رينوار يغمز بعينه ويتغضن وجهه بإبتسامة ماكرة مرحة، فيضع فرشاته جانبا ويطلب سيجارة. فكان يغمرنا شعور مستحب بالراحة. بعدها، تستأنف جلسة الرسم، وتبدأ غابريال بحكاية "جندي الصفيح الوفي".

حافظ رينوار على عادته بإستقبال الزوار في مرسمه، بعد نهار عمله. ذات مساء، وكان الشفق الصيفي يتلبث مسترخياً، دخل صديق له، ولم تكن الجلسة إنتهت بعد، فسمع نتفاً من خاتمة حكاية "البطيطة القبيحة". (ماذا؟) قال لرينوار، (أتسمح لأبنك أن يصغي للحكايات الخرافية، لأكاذيب صرفة، من دون أن تعرف إن كان سيصدق ان الحيوانات تتكلم!). (لكنها تتكلم!)، أجاب رينوار.

حين لا تعود حكايات أندرسون حلاً ناجعاً لإبقائي هادئاً، كان أبي يبعث بي إلى البيت، ويتناول عملاً آخر، على قطعة من الزهور أو منظر لحياة ساكنة مع فواكه، أو كتف لابولانجيير، أو بروفيل لغابريال. لم يكن يعاقبني أبداً عندما اتصرف بسوء أثناء الجلسة. والله يشهد أنني كنت أسيء التصرف كثيرا. (هذا سيجعله يكره المكوث في المرسم. لا توجهي له كلمة واحدة!)، كان يقول لغابريال. متى كنت حسن التصرف، وكان رينوار، بالنتيجة، قادرا على

Twitter: @ketab_n

التقدم في لوحته، لم يكن يرغب أبداً في مكافأتي.. كان لا يريد لحياة طفل أن تتحول إلى مباراة من أجل نيل مكافأة على فضائله. كان يحبذ الصفعات المدوّية، (التي هي ملائمة للوالدين، مثلما هي للأطفال)، برغم انه لم يكن يفعل هذا الأمر بنفسه. كان يمنع صفع الطفل على الوجه: (لهذه المهمة، انما وجدت المؤخرات). لم يرغب أن يمنح اطفاله مالا مقابل اداء مهمة ما، أن تقدم خدمة لأحد بهدف الحصول على مال كان يبدو له تصرفا يدل على الخسة. (سيتعلم جميعهم عن المال عاجلا جداً). كان يحرص على أن يغرس في أذهاننا فكرة ان مساعدة الناس والصداقة والحب أمور ليست للبيع.

في ما بعد، وحين كنت في المدرسة، محتذيا بالصبيان الكبار الذين (يزاولون الأعمال)، بعت قلم حبر إلى أحدهم. كنت فخورا تماماً لأني أعتقدت بأني صرت أفهم كيف تدور الأمور في الحياة، وتباهيت أمام أهلي عندما وصلت إلى البيت. لكني دهشت كثيرا، إذ كدت أنال عقوبة الجلد. أكرهت على إرجاع المال إلى الصبي الذي عقدت الصفقة معه، بل حتى أعطيته للترضية مسدس لعبة، كان عرّابي جورج أهداني إياه. خاف أبوانا أن يريا أولادهم وقد أصبحوا تجارا مرتزقين، كما كنا على وعي بسخاء أبينا واقتصاده في الإنفاق، كل هذه مجتمعة غرست فينا، أنا وأخوتي، إدراكا واضحا بأن القيم المبنية على المال هي نسبية. بوسعي تخيل الإنطباع الذي يتركه على وجه أبي رؤية اولاد الأغنياء في أمريكا يكسبون بضعة بنسات من بيعهم شرابا خفيفا، واقفين على جانب الطريق، أو يوزعون الجرائد. حين يعرض هؤلاء الملتزمون بالأعراف الصغار أرباحهم على آبائهم، ويزدهي البابا والماما كبرياءً ويهنّئون ذريتهما على مشاريعهم، كان رينوار يعتبر هذا جزءا من ديانة توشك أن تحل محل المسيحية: عبادة العجل الذهبي.

بعد أربعين سنة من وقوفي للرسم في آخر بورتريه لي، وكنت ما أزال بشعري الطويل، صادف أن رأيت هذه اللوحة في غاليري دوران- رول في

Twitter: @ketab_n

نيويورك. كانت معروضة للبيع فعزمنا أنا وزوجتي على شرائها. كنت أظهر في اللوحة مرتديا بدلة رائعة من القطيفة الزرقاء الناعمة، بياقة انيقة مزينة بشريط من الدانتلا. أصبح، في ما بعد، هذا النوع من اللباس الفاخر شائعا جداً، تحت اسم "لورد فونتلروي الصغير". كان في يدي خاتم، واحملق من اللوحة بوجه مكفهر بعض الشيء. لماذا أراد أبي أن يصورني بهذا المظهر الذي قرفت منه؟ لا أعرف. ربما كان تقديرا منه لفان دايك، أو بدافع أن يرى كم يمكنه أن ينجح بإبراز درجات لون البشرة مقابل الأزرق الكحلي. قبل ان نصل إلى قرار نهائي تشاورنا أنا وزوجتي مع غابريال. (إنك لم تكوني كما يبدو عليه في العادة!). قالت متعجبة، (كان علينا إلباسك البدلة بالإكراه، ورحت ترفسني طوال الوقت)، لكن أبي كان مصمما، وعلي أن أخضع. ذكريات غابريال عن المشهد الرهيب الذي رافق رسم اللوحة منعنا من شرائها. أفترض ان الياقة الدانتلا فاقمت الخزي الذي كنت أشعر به بسبب مناداة الصبيان لي بالفتاة. كرد فعل كنت أميل فقط إلى الأشياء الخشنة، والأحذية الثقيلة، وعلى الأخص الملابس الذكورية ؛ الأهم من كل شيء، كاسكيت أخي بيير، وهو غطاء الرأس النظامي لتلاميذ مدرسة سانت- كروا، وبالنسبة لي كان الرمز الأساسي للأناقة الذكورية. كنت أؤمن انها مثل التاج الملكي في العصور القديمة، تضفي على صاحبها ليس فقط خطورة الشأن، بل أيضاً سمات لا تنكر من الرجولة والبسالة. عندما كان أخي يأتي إلى البيت أيام الآحاد، أراني مقتنعا بأن الاهتمام المفعم بالإعجاب لكل الناس مركز على كاسكيته. بعد ولادة كلود، أرسلت إلى مدرسة سانت- كروا، بغية إفساح المجال للقادم الجديد بالسيطرة على المنزل ؛ لكن في الوقت نفسه، وهم يعرفون بأني سأحظى بفرصة إرتداء قبعة مماثلة، كانوا يأملون بأني سأتوقف عن النحيب الذي لا يتوقف. تروي لي غابريال أني كنت أحياناً أتمدد على الأرض وأردد، (أريد كاسكيت بيير!) لساعات متواصلة. ذات يوم، بينما

Twitter: @ketab_n

نحن في ايسوي، قدمت لي ماري كورو هدية، وهي قبعة تحمل شارة الجمعية الموسيقية المحلية. كان شكلها يشبه كاسكيت بيير، لكن بدون صليب يطرّزها في الوسط، ولا شريط من القطيفة الزرقاء الغامقة حولها. (هاك، أيها الطفل المدلل)، قالت عندما سلمتها لي، (الآن لديك كاسكيت بيير). ساخطاً من تحقير هذا الشيء المقدس، أحكمت قبضتي واندفعت نحوها مهاجماً. ماري كانت طباخة سمينة، بالنسبة لي، فعاقبتني على غضبي بالصفع على المؤخرة.

Twitter: @ketab_n

٢٦

بورتريه رينوار عن فولار، كان قصة طويلة. كانت سنوات طويلة مرّت منذ زيارته الأولى إلى شاتو ديه برويار. تعرّف إلى سيزان، وهذا تعامل معه كتاجر لوحات وحيد (حيث إن تجار اللوحات الآخرين لم يكونوا يقيمون لي وزنا). بدأ فولار، حينئذ، بجمع تلك الثروة، الجدير بها، وأذهلت باريس كلها. كان يعيش في قبو تحت محله في شارع لافيت، وفي ذلك المكان غير اللائق إنما خزن ملكيته من لوحات سيزان واثاثه الأنيق وكتبه النادرة. أمتع الجميع، ممن كانوا يعدّون في باريس من هواة الفن العظام، بمآدب العشاء الباذخة التي كان يقيمها، خصوصا على النمط الكريولي، من الأكلات التي ابتكرها أبناء جزيرته، والتي كانت تقدمها إبنتا ماتيو، اوديت وريموند، اللتان كانتا حينها في خدمته. كانت اوديت جميلة جداً، وخشية من الغواية، كان يرسلها إلى البيت كي تنام عند والديها، حالما كانت تنهي غسيل الصحون، حتى قبل أن يغادر ضيوفه. عادته السيئة الوحيدة، كانت التعاظم، الذي جعله يحصر مغامراته العاطفية بالنساء الأصيلات في المجتمع. حسب قول أبي، سلوكه هذا، ساعده على فهم زبائنه أفضل.

كان قد أصبح طويل القامة ومتين البنية وداكن البشرة، اكثر من قبل. كان ابي يجزم انه حتى صار أكثر وسامة. (قبلاً كان عطيل، وحين تقدم به العمر، اصبح ماسينيسا ملك نوميديا). كان يضيع الوقت بالتكاسل، بقدر

Twitter: @ketab_n

ما كانه سابقاً، ولا سيما عندما يسأله مشترٍ محتمل عن سعر لوحة لسيزان. أذكر محله بوضوح، مصبوغ كله بلون المغرة الصفراء. زد على ذلك، كنت ارى حول فولار كل شيء في هذا اللون نفسه، غامقاً تقريباً، من ملابسه من قماش التويد باللون البني إلى سحنته الجنوبية. كان المرء يتعثر باللوحات ما أن يدخل مكانه. كانت مركونة على الحيطان. عندما كان مشترٍ محتمل يمد يده إلى واحدة من اللوحات ليديرها، كان يوقفه بعبارته الشهيرة: (هذه اللوحة لا تهمك. إنها ليست لك). حين كبرت فقط، صار هذا الرجل الإستثنائي، بالنسبة لي، أكثر من شخصية من حكاية خرافية، وأخذ سمات كائن بشري. أكثر ما تأصل في مخيلتي عنه، عندما كنت صغيرا، كان جو المكان، لونه، اللوحات نصف المخبأة، صوت فولار قائلا، (قل مسيو رينوار...)، وأمي، وهي تتمنى ان تكشف سر وصفة الرز التي كان يقدمها في وجبات عشائه، حيث كانت حبات الرز منفصلة، ولا تشكل كتلة لزجة. شرح لها فولار: (عندنا في رينيو، لا يمتلك السكان ساعة. كانوا، بلا تبصّر، يضعون الرز والماء في ثمرة قرع مجوفة تستعمل كوعاء، وتحمى على نار من أعواد قصب السكر، ثم يذهبون للنوم، وحين يستيقظون، يكون الرز جاهزا وبحالة ممتازة!). هذا المثال، الذي يبين إنتصار الغريزة على العقل، أمتع أبي.

قبل إستئناف الحديث عن موضوع بورتريه فولار، أود أن أعترف بوهم صبياني كان لي، يعطي فكرة عن إعجابي السامي بفولار. كنت أعتقد ان الدولار الامريكي سمي على اسمه. أثناء تلك السنوات، كنت أتحدث عن الـ"فولار" الذي كان يعادل خمسة فرنكات في تلك الأيام، وأستغرب أن لا أرى وجه صديقنا مطبوعا على العملة الفضية. ما زلت، أحياناً وبلحظة من شرود الذهن، أقول: (ميزانية تطوير صواريخ الفضاء تكلف كذا بليون فولار).

كانت مشكلة أبي الكبرى مع البورتريه هي اختيار الملابس التي يجب أن يكسو بها موضوعه. فولار، كان انيقا جداً، وملابسه مصممة عند أفضل

Twitter: @ketab_n

الخياطين. كان رينوار ينظر اليه ويهز رأسه، (أنت تبدو بملابس فاخرة). وأخذ يعتاد، أخيرا، على رداء فولار، فكان يرسمه في البدلة التي يرتديها كل يوم. كان يمكن لسيزان أن ينجز تحفة فنية لفولار في قميصة الأبيض، لكنه، في البورتريه الكبير الذي رسمه له، لم يجرؤ أبداً على إنهاء رسم القميص، إذ ظلت بقع صغيرة لم تلوّن أبداً. (لو كنت ملأت هذه الثقوب الصغيرة)، فسّر سيزان، (ربما كنت أفسدت توازن الصورة كلها، وحينذاك علي أن أبدأ من جديد). فولار، الذي لم يكن يحس بالأمان فوق السقالة غير الثابتة التي وضعه عليها سيزان، ناشد الفنان أن يدع البقع الصغيرة كما هي. كان سقط مرة أو مرتين وآذى ركبته، مع هذا، فإن سيزان أكد له: (لست في خطر، طالما وقفت ساكنا مثل تفاحة. هل التفاحة تتحرك؟).

من أجل هذا البورتريه الإستثنائي، كان أبي يرغب في أن يلبس موديله ملابس حاكم غريب جداً، (فقط لو أمكننا العثور على رداء مرزبان[١٠٤]!). إقترحت لابولانجيير التي كانت مولعة كثيراً بالعسكر إستئجار طقم جنرال نظامي. غابريال كانت مع لباس مروّض أسود. بدا إقتراحها أفضل، لكنه لم يكن (ملوكيا) بما يكفي. خلال تنقيبه في أدراج الخزانة، حيث كان يحتفظ بركام من الملابس الرثة، عثر مصادفة على زي مصارع ثيران، كان إشتراه في اسبانيا أثناء رحلة له مع غاليمار. (لا يبدو فولار كثيراً مثل مصارع ثيران، لكن اللون سيلائمه). أصدقاؤنا حسبوا أن أبي يمزح، لكنه لم يكن كذلك. لم يقصد الهزء بموديله، فرسم الصورة، والتي هي الآن شهيرة جداً. مع ذلك، ما زلت أصادف من يقول لي، (هل كان والدك يريد السخرية بفولار؟)، كما لو انه رسم هذه التحفة الفنية فقط لأجل الضحك!

---

(١٠٤) والي مستبد.

Twitter: @ketab_n

البورتريه الذي رسمه لمدام دو غاليا، أثار دهشتي أكثر، لأن هذه السيدة كانت تتوافق، في تصوّري، مع المظهر الذي لا بد من أن الإمبراطورة جوزفين كانت تبدو عليه. شغفي بدمى جنود الإمبراطور لم يهن. كان عندي الكثير منها، بينها مجموعة خاصة تمثل نابوليون وشخصيات من البلاط. كان هناك، بالطبع، جوزفين، متألقة برداء ابيض وذهبي، وهي محاطة بوصيفاتها. عندما أخبرتني غابريال بأن السيدة التي كانت جالسة للرسم، في هذا البورتريه، هي كريولية، تفاقم إعجابي بها، فجمالها وسموها كانا ساحرين، ومن الواضح ان رينوار كان مسروراً برسمها. قدمني فولار اليها، وكان هو من اهتم بالحصول على الأثاث والملحقات الضرورية للوحة. يبدو أني لم أكن الوحيد الذي لاحظ الصلة بين مدام دو غاليا وجوزفين دو بوارنيه، لأن كل المواد التي جلبت إلى المرسم كانت من الطراز النابوليوني، مع انها كانت جديدة ومطلية باللون الذهبي، جيء بها مباشرة من فابورغ سان – انتوان. أطنبنا أنا وغابريال في المديح عليها، أما أمي، فعضت شفتيها تعبيراً عن خيبة الأمل. كان رد فعل أبي الأول، هو إعادة هذه الأشياء البشعة، لكنه خشي ان يجرح مشاعر فولار الذي كان، في آخر الأمر، يعرف ما يفعل. كان، بلا شك، يأمل بأن هذه الكوم من الذهب والحرير والماهاغوني ستغري رينوار على إنتاج شيء "غني" جداً. قام أبي بتغطية جزء من الحرير على الأريكة بوسادات كبيرة من الساتان، ووضع سجادة قديمة على الأرض، وجعد بعض قطع من القماش القطني ونثرها هنا وهناك. كخلفية رسم نسيجاً مطرزاً خياليا عليه طائر الفرنوق. من بين العباءات التي توفرت لموديله، إختار عباءة متألقة طويلة، تركت الكتفين والصدر ظاهرين. ورأسية، وهي حلية للرأس، مصنوعة من الجواهر، وياقة متلألأة، أعطتا تأثيراً مضاعفاً، ونجحتا بإثارة إنطباع عن (إمبراطور مقبل). كان رينوار جذلا كثيراً. واقع الأمر، لم يكن يطيق الطراز الامبراطوري، عدا عندما يكون (توك)، وكان فولار يعرف ذلك.

Twitter: @ketab_n

موديله الآخر، الذي بقي في مخيلتي، كانت ميسيا غودبسكا. في وقت إنجاز البورتريه، كان اسمها ميسيا ادوادز. زوجها علق في ذهني حتى أكثر. كنت وقتذاك في المدرسة الداخلية، لكن من حسن حظي، وبفضل الإصابة بإلتهاب الحنجرة، بقيت في المنزل، متنفسا جو الإشعاع المفعم بالحياة لهاتين الشخصيتين الطاغيتين. القول إن ميسيا كانت جميلة سيكون تعبيراً ناقصاً. كان أندريه ألبير يعرفها جيدا، وقال عنها إنها عندما كانت تدخل مطعماً، كان الجميع يتوقف عن الأكل. كانت إبنة لأسرة نبيل من بولوني، فقدت ثروتها. نشأت في مكان، برغم ان الخدم فيه كانوا بالكاد يحصلون على معاشهم، كان يتردد عليه الأمراء والفنانون الكبار والأثرياء لسماعها تعزف على واحدة من آلات البيانو، إذ كان عندهم على الأقل نصف دزينة منها في عدد من الغرف. سلف جيرودو زعم في مسرحيته "أوندين" أن كل مسرح ملائم لمسرحية واحدة، وميسيا، كانت مقتنعة بأن كل بيانو مناسب لقطعة موسيقية واحدة فقط، لذلك من المستحيل عزف فيوج من باخ على آلة أثبتت انها ملائمة لميلودي من شوبرت.

كانت فقيرة جداً، إلى حد انها كانت تنام على الدكات في الحدائق العامة. وغنية جداً، إلى حد انها كانت لا تعرف حجم ثروتها. تزوجت مرات عديدة، وكانت صديقة لكل الناس الموهوبين في العالم، في الفن والأدب، في الفترة التي كانت فيها باريس تطفح بالمواهب. كان محيط صداقاتها يمتد من بونار حتى ديبوسي، ومن مالارميه حتى رينوار. كانت تزوجت من المستكشف كاركو، وشاركت في جزء من الأبحاث الكيماوية لبيرتيلو، وساعدت دياغليف الذي إعترف على نحو صريح بأنه لولا ميسيا لما كان لباريس باليه روسي. وبالرغم من ان لها ماضٍ غني، على نحو وافٍ يملأ عشر حيوات حافلة بالأحداث، فإنها كانت لا تزال تبدو مثل فتاة صغيرة. أفترض انها في الوقت الذي وقفت فيه أمام رينوار للرسم، كانت في الواقع، شابة جداً. المشاكل

Twitter: @ketab_n

التي خلقها الدائنون لوالديها، جعلتها تفتح عينيها على واقع الحياة، في عمر تلعب فيه قريناتها الفتيات مع الدمى. معرفتها عن باخ ودانتي، وتعرفها على بروست وسيبليوس كانت بديلا عن التعليم الرسمي. كانت تجيد التكلم بلغات عدة، ولكنتها السلافية التي تدوّر فيها حرف الراء قليلاً أضفت فتنة على كلامها.

كان ادواردز رجل أعمال تركي الأصل، وكان حقاً يمتلك بنية تركي قوية، وبمقدوره تمزيق ربطة ورق لعب، وثني قطعة نقد بيديه العاريتين. كان والده شخصية شهيرة لفترة طويلة في المجتمع الباريسي، وكان يموّل دوران- رول بعد حرب ١٨٧٠. ادواردز نفسه كان يدير مشاريع عدة. كنت معجبا بالاسم العالي لنبرة واحدة من المنظمات التي كان له صلة بها: "L`Aménagement du port de Santander".

(تنظيم ميناء سانتانديه). كان مالكا لصحيفة كبرى - لوماتان إن لم أكن مخطئا - ومناجم فحم، ونحاس، وحديد، ونيكل. وكانت له حصة في مصنع للبوكسيت في البروفانس، من أجل تصنيع معدن، كان غير معروف آنذاك، لكنه يبشر بمستقبل عظيم، وهو الألمنيوم. من أجل تسلية ميسيا إشترى لها مصنعا للاتوموبيل اعتقد انه كان يدعى "مورس". للفوز بقلب امرأة كهذه، وإقناعها بالزواج منه، لجأ ادواردز إلى التدبير الآتي، كان يدعو اصدقاءها إلى العشاء كل ليلة. ولأنها لا تقوى على فراقهم، كانت مجبرة على الإنضمام اليهم. كان ادواردز يجعلها تجلس دائماً إلى يمينه، كل ليلة، لتجد تحت فوطة السفرة أمامها علبة مجوهرات صغيرة، تحتوي ياقوتة غالية. وكما قال أبي، (كيف كان بوسع المرأة ان تقاوم؟). كانت متزوجة أصلاً، من رجل غير عادي، ذي موهبة، هو أول من أسس مجلة نقدية طليعية، وكان يؤمن انه سيصبح رجل أعمال. إشترى ادواردز أعماله التجارية التي كانت في حالة يرثى لها، وأرسله إلى أقاصي الأرض ليدير نوعا من المناجم. كان اسمه تادي ناتانسون، وكان هو الروح المحرك لجماعة الـ"الريفو بلانش". لكن ميسيا

Twitter: @ketab_n

كانت وفية. قاومت عروض ادواردز، حتى اليوم الذي أدرك فيه ناتانسون عبث محاولاته الوقوف بوجه الإعصار، فمنح ميسيا حريتها.

بعض الألسنة الحقودة إتهمت ادواردز بآثام خطيرة لا تحصى. حتى قيل انه كان لا يقيم وزنا لحياة البشر. في ما بعد، وبعد سلطان ميسيا، التي كانت تزوجت من الرسام سير، فقد ادواردز زوجته الجديدة، وهي ممثلة شهيرة، في رحلة على الراين. في نهاية حفلة على ظهر سفينة، صخب فيها الجميع وأفرطوا في الشرب، إنزلقت هذه ووقعت في الماء، ولم يرها أحد بعد ذلك أبداً. الأقاويل في باريس ألمحت إلى أن (سقوطها كان بفعل فاعل)، لكن لا أحد أمكنه تسويغ الإتهام. ذكرت هذا الجزء من الفضيحة فقط، لأوضح كيف أن كل ما يفعله ادواردز كان مثار اهتمام الناس في بداية القرن. مع ذلك، كان ابي يكن له إعجاباً كبيراً، وكان يقابل هذا الإعجاب صداقة مخلصة من جهة ادواردز. والأكثر إثارة في الأمر هو كره ادواردز للرسم الذي يماثل قرف رينوار من التجارة. كلما كانت ميسيا تفلح في جرّ زوجها إلى أحد معارض الرسم، كان يتسلل خفية مع سائقها للشرب في أقرب بيسترو. لكنه لم يكن يفوّت أبداً جلسة رسم واحدة، أثناء رسم بورتريه ميسيا. كان أبي يرسم، وادواردز يستميل غابريال إلى المطبخ للعب الورق معها. في اللحظة التي كان فيها رينوار يضع فرشاته، لاستراحة قصيرة، كان يعود اليهما. كان الرجلان، وواحدهما مسرور بصحبة الآخر، يناقشان أي شيء يخطر ببالهما، عدا الفن والتجارة، وكانا تقريبا يتفقان حول كل موضوع: الطعام، النساء، والمناخ، وحتى انهما كانا يتقاسمان الكراهية نفسها. على سبيل المثال، لا أحد منهما يمكنه أن يطيق الناس الذين يحاولون أن يكونوا نبيهين في الوقت غير المناسب، معتقدين بأنهم يكفرون عن فظاظتهم بـ " نكتة ". اذكر واحدة من نوادر ادواردز عن صحفي (مغالٍ في باريسيته)، وجد نفسه، ذات مرة، متأخرا على عشاء دُعي اليه، وهو يصعد درجات السلم، أرهق

Twitter: @ketab_n

هذا النبيه ذهنه بالتفكير بشيء مضحك يقوله ليسلي الضيوف ويهدئ من مضيفه. قرع على الباب، معتقدا انه عثر على فكرة فريدة، وواثقا بأنه سيثير إهتياجا. فتح الخادم له الباب، ومن المدخل، تبين العدد الكبير من الجالسين حول المائدة، وعلى وشك البدء بتناول أطباق اللحم. وضع قبعته على رأس عصاه، وباعد بين رجليه، وراح يعدو حول الغرفة مقلدا راكب فرس، ويصيح: (هوب، هوب !). نظر الجميع اليه بذهول، فأخذ يبطئ من حركاته، شاعرا بالحرج. الـ "هوب" الأخيرة حشرت في حنجرته، إذ أدرك في الحال انه توهم بطابق البناية، ودخل الشقة الخطأ.

في الوقت الذي بدأ فيه بورتريه ميسيا، أخذ أبي يعاني من أكثر نوبات آلام الروماتزم التي مرّ بها لحد تلك اللحظة. أصبحت يداه أكثر تشويها من قبل. في الواقع، كان عليه، حينذاك، ان يتخلى عن اللعب بالكرات والتحول إلى جذع صغير من الخشب الذي كان يمشي ويرميه في الهواء. وسأل مدام برونيليه، البوابة التي كانت تسكن تحتنا، أن تعذره على كل هذا الضجة التي يثيرها. حتى انه أهداها لوحة صغيرة، من باب العرفان بالشكر على صبرها. عندما يكون في المرسم، يستغل كل توقف عن عمله ليلعب البيلبوكيه، التي صار خبيرا بها. كان يتناول الكثير من مسكنات الألم والأدوية الأخرى، وبالكاد يأكل شيئاً. وبالرغم من كل هذا، لم يكن يشعر بأي تحسن. ذات يوم، صارت مفاصله متصلبة إلى حد اضطره إلى استخدام عصاتين للمشي بضعة ياردات من البيت إلى المرسم. أثارت حالته تعاطف ادواردز، فكان يجلب اليه كل يوم تقريبا، طبيبا جديدا ليراه. كل واحد منهم يفحصه، ويهز رأسه، ويعلق بأن العلم لم يتوصل بعد إلى إكتشاف علاج ناجع لهذا النوع من الروماتزم. فكان ادواردز يغضب ويبدأ بشتمهم. واحد من الأطباء سأل أبي إن كان أصيب يوماً بالسفلس، فقال له لا. أصرّ الطبيب، (أنت تعرف، ان الشخص يمكن أن يصاب بسهولة بالسفلس، من دون أن يعرف ذلك أبدا).

Twitter: @ketab_n

(حقا؟)، أجاب أبي. لسوء الحظ، المرض الفامض، الذي انتشر على نحو عنيد في جسمه كله، كان أسوأ من أخطر الأمراض التناسلية. وحتى حديثاً، عجز أفضل الإختصاصيين، مستخدمين هرمونات إصطناعية، عن إنقاذ رول ديفي، الذي كان هو الآخر يعاني من الروماتزم.

في ما يتعلق بمرض السفلس كان رينوار يكره هذا المصطلح، ويقول ببساطة تامة (الزهري). الرد الشهير الذي أجاب به سان- سيمون على وزير الملك، الذي قدم ليعلن وفاة الملك، ضحية لمرض سفلس صغير: (سيدي كل شيء هو عظيم عند الملوك)، كان يسليه كثيرا. (أناس القرن الثامن عشر اولئك، كانوا يعرفون كيف يتكلمون الفرنسية).

كانت باريس مبهورة بالباليه الروسي. أثناء عمله على بورتريه ميسيا، سألها رينوار أن تحكي له عن سترافنسكي. حاولت ان تعطيه فكرة عن الموسيقي الشاب الذي كان يصاحبها، أحياناً، بالعزف على البيانو.

(هو في الموسيقى، كما أنت في الرسم). ذات أمسية، وإذ بقي آل ادواردز على العشاء - كانت ميسيا تأكل بأناة وبمقادير صغيرة، بينما زوجها يلتهم طبيخ أمي مسرورا - خطرت لهما فجأة فكرة. (سنأخذكم جميعا إلى الباليه). كانت عاودت أبي نوبة شديدة من الألم، ولا يستطيع المشي الا بصعوبة، مع هذا، كان يتمنى أن نقنعه بالموافقة. إرتدت أمي ملابسها بطرفة عين، وركضت غابريال إلى المرسم لتضع عليها عباءة كالو[١٠٥] التي كان رينوار استخدمها مرات عدة في لوحاته. كانت جين بودو، وهي صديقة لآل كالو، حصلت على الملابس منه، (لأنها تنفع في مواضيع معينة). بدت غابريال في الرداء مثل غجرية، الأمر الذي أبهج ادواردز. أما أنا فارتديت البدلة النظامية لسانت- كروا، بصف

(١٠٥) مصمم ازياء معروف.

Twitter: @ketab_n

أزرارها الذهبية الثلاثة. ادواردز وميسيا كانا أصلاً في ملابس السهرة، حيث كانا على موعد عشاء في منتصف الليل مع دياغليف في مطعم ماكسيم. ذهب رينوار بملابس العمل، جاكيت بياقة مثنية، قميص من الفانيلة، وربطة عنق زرقاء منقطة، وقبعته التي ظلت على رأسه خوفا من أن يفاقم البرد آلام أعصاب الرأس. كانت أمي وغابريال ترغبان في أن يلبس بدلته، لكن بدا ان الأمر كان شاقا بالنسبة له، فبقى كما هو.

كان لادواردز مقصورة في المسرح، لذلك لم تكن هناك مشكلة في الحصول على بطاقات. عندما شاهد رينوار السلم الكبير في مدخل المسرح، فكر في العودة، لكن ادواردز رفعه من ذراعيه، ومع ميسيا وأمي كل من جانب، حملوه بمهابة وصعدوا السلم، بينما كان الجميع يتطلعون بدهشة. لا بد من الاعتراف بأننا كنا نشكل مجموعة غريبة المنظر. مدخل المسرح كان رائعا، والجمهور الذي حضر للتصفيق أو للصفير لهذه الباليهات التي ستثوّر المسرح، كان مزينا بأبهة لا تصدق. لست ابالغ إن قلت بأن هذا كان أجمل بكثير من أي أحلام طفولة عن البلاطات الملكية في حكايات أندرسون، أو تلك التي لبيرو. ولا أنا شاهدت، منذئذ، شيئاً يضاهيه أبداً. ملابس الرجال السود، كما هم واقفون خلف النساء، بدت مثل باقة من أكتاف عارية تبرز من اثواب حريرية ملوّنة بالباستيل. البريق الأبيض للماس، والتألق المسرف للياقوت، والوميض البارد للزمرد، ونعومة اللآلئ التي تداعب الصدور، كل هذا اللمعان على البشرة الرقيقة لهاته النساء، خلع عليهن، وعلى نحو غير مباشر على كل الحشد، نوعا من السمو، زائل ربما، لكنه لا ينكر. لم يكونوا مخلوقات من لحم ودم، بل شخوصاً في لوحة ؛ أناس لا تراهم أبداً يمشون في شارع ؛ لا يصيبهم البرد، أو لا يفرزون عرقا حين يتسلقون في الصيف هضبة مونمارتر. كان كل هؤلاء الناس يركزون مناظيرهم المكبرة على أبي، الذي لم يكن حتى واعياً بهم. إعتقدت غابريال انهم تعرفوا عليه، فتأسفت على مظهره: (بجاكيته

Twitter: @ketab_n

الملطخ كله بالأصباغ، وقبعته الرثة، ماذا سيحسبونه؟)، ابتسمت أمي على هذه الثقة بشهرة "المعلم". لكن ميسيا بينت المسألة بوضوح، حين قالت، (إن نصفهم بالكاد يعرفون اسم رينوار، لكن لو كان تيتيان هنا، لما عرفه أحد إطلاقا).

جرفت العاطفة أبي، فكان سعيدا بالأداء، ففرح ادواردز أن يرى صديقه مستمتعا. كانت القطعة الرئيسية في البرنامج "بتروشكا". لم أعد أذكر إن كانت هي تلك الأمسية الأولى التي رأينا فيها باليه

"Le Spectre de la Rose" والذي يثب نيجينسكي فيها على خشبة المسرح، (مثل طير)، قالت غابريال، (مثل نمر)، قال أبي.

Twitter: @ketab_n

٢٧

بعد ان إشتغل عمي هنري في نقش الأواني الفضية لمدة أربعين سنة، وبلغ عمر التقاعد، كان يعيش مع زوجته بلانش في فيلا صغيرة في بواسي. مع الكثير من وقت الفراغ، صار بإمكانه ان يجدد معرفته بأخيه الأصغر، الذي كان منذ زمن طويل يلح على أن يصبح رساما، والذي اصبح الناس، الآن، يتحدثون عنه، البعض منهم إعجابا والكثير غيرهم إستهجانا. بعد عدد من الزيارات إلى شارع كولانكور، توصل هنري وبلانش إلى انهما لم يفهما شيئاً من رسوم أوغست، لكن لا بد انها جميلة جداً، إذ انه يبيع منها ما يكفي إلى الدرجة التي تتيح له إمتلاك مرسم كبير، وبيت في ايسوي، والقيام برحلات إلى جنوب فرنسا.

كان رينوار مسرورا برؤية أخيه من جديد الذي كان يعتبر حياته بمثابة نجاح تام. بعث فيه البيت في بواسي البهجة، لأنه كان يمثل، في نظره، ذروة السعادة البورجوازية. أرضية الخشب المزخرف وأثاث عصر النهضة من ديفايل، كانا مشمعين ومجليين، حتى انهما كانا يلمعان مثل مرآة. كانت ستائر البيت كلها مهدبة، ومليئة تحفا فنية صغيرة رقيقة، وصورا تمثل مشاهد من مسرحيات. كنت أشرت سابقا إلى حيوانيهما الأليفين، كلب التّرّير لوروا، وطير الكناري مايول، المتوّج فوق مجموعة من صناديق الموسيقى وتذكارات

Twitter: @ketab_n

من المعرض العالمي لعام ١٩٠٠. ما زالت عندهم الخادمة الوفية، ماري، التي قضت حياتها تلمع موقد الحطب بملمع تريبولي وتمسح آثار أقدام الزوار بقطع أقمشة صوفية. في المطبخ، أفران قابلة للحمل، كانت تنشر دفئا فاترا في أرجاء هذا العش الناعم. كان الموقد من المعدن الأبيض الرصاصي، وبجانبه جذوع الخشب الموضوعة في سلة من طراز لويس الخامس عشر، مغطاة بزهور إصطناعية. أذكر، أيضاً، مغزلا مزينا بشرائط وردية. طبيخ ماري كان معقدا، لكنه شهي: فطائر محشوة بالدجاج، فول- او- فان (فطائر اللحم)، حساء جراد البحر، وحلوى البروفيتيرول، وكعكة المرنغ. كل هذه كانت تقدم مع قنينة من نبيذ بوردو القديم، مطروحة بعناية في سلة نبيذ. لم أر أبداً نبيذا يقدم على هذا النحو المختلف، فكنت شديد التأثر.

عاودت العائلتان علاقتيهما الحميمة، قبل أن ابدأ بالذهاب إلى سانت- كروا. أبدى عمي وعمتي اهتماماً كبيراً بي. ولم يريا أي غرابة في أن لا أكون بدأت الدراسة بعد. في محل اوديو، حيث كان يعمل، كان زميل لعمي بالكاد يعرف القراءة والكتابة، ومع هذا كان نقاشا ماهرا جداً. لكنهما لم يفهما أبداً لماذا لم يأخذني والديّ أبدا، وهما اللذان يعيشان في باريس، لرؤية المسرح. وبوجه خاص، إلى كونشرتو المقهى. فعرضا علي أن يصطحباني معهما،كل يوم خميس، إلى حفلات نهارية كي يتداركا هذا الخطأ. وافق أبي وأمي بسرور، بالرغم من خشيتهما من ان تلتقط أذناي عبارات غير لائقة، كانت حينذاك من السمات الجوهرية للأغاني الفرنسية. لم يكن رينوار يؤمن بان "الفاكهة المحرّمة" يمكن أن تضر بي. (لو لم تكن محرّمة، لما تجشّم آدم عناء حتى النظر اليها!).

بعد بضعة أيام، وانا منفعل قليلاً، دخلت مقهى لاسكالا ممسكا بيد عمتي بلانش. سمعت بولين تغني، ولم أفهم التلميحات التي كانت تؤدي بالجمهور إلى نوبات من الضحك. تعبير "كونشرتو المقهى"، كان لا يزال له معناه

Twitter: @ketab_n

الحرفي. على مدى المقاعد الخلفية للمقهى يمتد رف ضيق يضع المرتادون عليه شرابهم. أثناء العرض، كان النادل يواصل الدخول والخروج لخدمة الزبائن. (ايها النادل، يانسون... ايها النادل، مازاغران[١٠٦]...)، كان ينادى على الطلبات من كل الإتجاهات بأصوات عالية تحجب مقاطع الأغاني التي تؤديها فرقة الفيلاج انجنيو، أو الكوميك اديو. كبار النجوم فقط، كانوا يحظون بالإنتباه الصامت للجمهور. لا أملك مقاومة الرغبة بتقديم فكرة عن أغاني تلك الفترة، من خلال مثال عن أغنية حول سيد يجلس في المسرح إلى جانب سيدة، خلف عمود يحجبهما عن رؤية العرض. تشكو السيدة من وجود العمود، فيعرض عليها أن يريها عمودا من نوع آخر:

Si vous voulez la voir

Venez chez moi ce soir

J`veux bien vous la prêter

Mais faut pas l`abîmer

طلب عمي قدحاً من البيرة، وأنا وعمتي عصير رمان. كنت في غاية البهجة من تلك السهرة، بحيث ان والداي قررا أن يسمحا لي بالذهاب أيضاً إلى عرض يوم الأحد من كل اسبوع على مسرح مونمارتر بصحبة غابريال. وبفضل قرارهما الحكيم هذا، انما وطدت معرفتي بالمجموعة الفاسقة والسارّة للمغنين في بدايات القرن، ناهيك عن الميلودرامات العظيمة لتلك الفترة، التي كانت تعرض على مسرح مونمارتر.

جاءت وفاة عمي هنري في عام ١٩٠٣ بسيطة، كما حياته. كانا هو وبلانش أنهيا لتوهما تناول الغذاء، جالسين مرتاحين، كي يهضماه، في

(١٠٦) قهوة تقدم في كأس.

Twitter: @ketab_n

كرسييهما المنجدين بالقطيفة، في صالة الإستقبال. كانت تحكي لزوجها عن كلبهما لوروا، وكيف حاول أن يعض ساعي البريد ذلك الصباح. لم يجبها، إذ كان، في الواقع، نائما. (هيا، هيا)، قالت له، (لا تتصرف كما لو كنت خرفا)، لكنه كان ميتا.

كنا نرى عمتي ليزا في مناسبات أقل. تجددت علاقتنا بها في العام ١٩٠٠، حين قضى أبي الصيف في لوفيسيان. وفي تلك السنة، عثرت أمي هناك على بيت ساحر، قابع وسط الخضرة، ولا يبعد كثيراً عن المحطة. كانت حديقته الكبيرة تنحدر بنعومة على جدار قديم، كان بإمكاننا أن نرى من فوقه البيت المهجور المجاور. كنت غالبا ما أتسلقه لألعب في الجانب الآخر لعبة "الغابة". كان المكان مذهلا، فكنت أنسى مرارا وقت الغداء، فتعبر غابريال لتعيدني إلى البيت. أمي كانت قد غدت بدينة جدّاً على تسلق الجدار. شاركني أبي شغفي بهذه الملكية المسوّرة، فنصح الدكتور بودو بشرائها. وهكذا، تعرفت عرّابتي جين بودو على لوفيسيان. وفي ما بعد، توفيت في ذلك المكان نفسه، حيث كل شيء يذكرها برينوار. رحلت قبل ثلاث سنوات بالضبط، لتنضم إلى الرسام الذي وهب حياتها معنى كبيراً جداً. منذ أن كانت صبية، وفي كل يوم، كانت تضع حامل لوحتها إلى جانب حامل لوحته، وبقي رينوار حاضرا في ذاكرتها ؛ وفي كل يوم، ظلت مخلصة لعبادة ذاك الساحر المحب الذي كشف لها أعاجيب الضوء واللون والشكل.

بيت عمتي ليزا، كان على الطرف الآخر من القرية. كان عمي ليراي يأتي أحياناً لزيارتنا. وذات مرة، طلب منا، بلهجة لا تحتمل الرفض، (أريد أن أدعوكم على الغداء يوم غد. لحم عجل مشوي، الساعة الثانية عشرة بالضبط). بيتهم، بدا لي فخما بعض الشيء عندما كنت صغيرا، لكنه أصبح الآن آيلا للسقوط. ربما في عهد جدتي، لم يكن آل ليراي يجرؤون على أن يكونوا مهملين جداً. والآن، تغطي الأثاث طبقات ثابتة من الغبار. قالت ليزا

Twitter: @ketab_n

بصراحة انها تكره القيام بالأعمال المنزلية، وهي بالإضافة إلى ذلك لا تمتلك الوقت. تعطشها لخدمة الناس لم يقل مع السنين ابدا، وقد قضت حياتها وهي إلى جانب سرير مريض ما. كانت مهتمة، بوجه خاص بالنساء اللائي في حالة مخاض، تعمل لأجلهن ما أهملت أن تعمله في بيتها. كانت تزيل بعناية الغبار عن كل قطعة أثاث، تفرّغ الرماد من الموقد، تنشر الغسيل، وتطهو الطعام. كل الخضروات والفواكه، والأرانب، التي تزرعها وتربيها في حديقتها، كانت تهبها للمحتاجين. ومن جهته، كان ليراي يطوف في القرية باحثا عن أحد يكلمه، أو بالأحرى يستمع اليه. عندما كان يجد أذنا صاغية يطنب في الحديث بأمور السياسة، وينتقد بقسوة وزير الحكومة دولكاسي، الذي يسميه بـ"المداهن". واحد من ضحاياه المفضلين كانت كاترين، خادمة بودو.

وصلنا للغداء، فلم نجد أحدا. كان آل ليراي لا يوصدون بابهم ابدا، فدخلنا إلى البيت. عثرت على تسلية كبيرة بالقفز على الأريكة، التي كانت في يوم ما حمراء، فكنت أثير غيوما من الغبار. هتفت بي أمي، (هذا يكفي!) بلهجة توحي بإحتمال أن أصفع. (دعيه يلعب)، قالت ليزا التي وصلت هي وليراي أخيراً إلى المنزل، (فهذا يساعدني في التنظيف)، ثم أرسلت ليراي على وجه السرعة لشراء لحم العجل. كانا كلاهما نسيا دعوتهما لنا على الغداء. ذهب زوج عمتي على الفور، (خمس دقائق وأعود، يمكنك إشعال النار). لسوء الحظ، كان الوقت من أطيب أوقات السنة، ونوافذ البيوت كلها مشرعة. فحين خرج إلى الطريق، كان يرى الناس يرتشفون قهوتهم بعد وجبات الطعام. الكل كان يبدو مسترخياً ومرتاحاً. (هل قرأت الصحف؟)، نادى على أحدهم قائلا. فكان هذا بداية لسيل لا يتوقف. كنا محظوظين لو رجع مع لحم عجله قبل الساعة الرابعة. في مشاوير مثل هذا كان لا يرجع قبل هبوط الليل. في هذه الأثناء أخذنا أبي للغداء في أقرب نزل. فسرّت عمتي ليزا كثيرا. (هذا يريحيني من غسل الصحون)، كما لو أن هذه المشكلة تشغلها

Twitter: @ketab_n

جداً. في العادة، كانت هي وليراي حين يجلسان إلى المائدة يتناول كل منهما اقرب صحن من كومة الصحون القذرة المتروك من الوجبة السابقة ويغسله. (أه، نسيت مرة أخرى أن أغسل الصحون! أصبحت عجوزا وشاردة الذهن). حين أتى في النهاية عمي ليراي مع قطعة اللحم تظاهر بأنه يشعر بالخجل. ذات يوم جلب لهم رينوار قطعة من الخشب منحوتة ومرسوم عليها لتبدو مثل قطعة سجق. كانت مقلدة بإحكام، بحيث ان ليراي كسر سكينه وهو يحاول أن يقطعها، واغضبه هذا كثيرا. كان رجلا طيبا، وأبي يحب التندر معه، فيضايقه ساخرا، (هذا الرجل دولكاسي، بغض النظر عن أسلوبه القاسي، يبدو رجل دولة حقيقيا)، فكان وجه ليراي يصطبغ بالحمرة من الغضب، فيقرع المائدة بعنف. في ما بعد، وفي سبيل ترضيته، كان رينوار يوصي على برميل كبير من نبيذ بوردو، ويبعثه اليه. فكانت ليزا تدعو جيرانها جميعا للشرب، وما يلبث البرميل أن يفرغ.

كانت أمي، عندما يقترب الصيف من نهايته، تبادر إلى جمع أقمشة اللوحات التي رسمها رينوار في الجوار، وتتركها عند أخته، بإنتظار العودة إلى باريس. لكن كان من المستحيل العثور على هذه اللوحات. خطرت لأمي فكرة الصعود إلى العلّية، فاكتشفت ان بعضاً من الرسوم استخدمت لسد ثقوب في السقف. وإذ تفاقم شكها، واصلت البحث، فوجدت لوحات أخرى كان ليراي إستعملها لبناء زريبة لأرانبه، في الطرف البعيد من الحديقة. فذهبت اليه واغلظت له القول لسلوكه هذا. أصغى ليراي إليها بدهشة كبيرة، (ما الفرق الذي يشكله هذا لرينوار... هو يرسم هذه الأشياء للتسلية، انه ليس رسما حقيقيا. على أي حال سيعمل أخرى غيرها في أيام قليلة)، ثم يردف قائلا، بأنه لما كانت أقمشة اللوحات والزيت المستخدم لرسم مثل هذه الهراء هي من أفضل نوعية، فهذا يعني ان أرانبه بمنأى عن خطر البلل في المطر!

لإتمام هذه اللوحة عن العائلة، يجب أن أضيف شيئاً عن القدر السعيد

Twitter: @ketab_n

لعمي ادمون. كان بدأ يفقد تدريجيا الاهتمام بالصحافة والأدب بوجه عام، بسبب ولع آخر. كان اكتشف متعة صيد السمك، فأسلم لها نفسه بالكامل، واصبح بطلا حقيقيا في هذه الرياضة. حتى انه إخترع صنارة صيد، سميت باسمه. في الواقع، ما زالت صنارة رينوار مفضلة في صيد الكثير من سمك أبو الشص. في ما بعد أنهى ادمون رينوار أيامه في نزل صغير مريح على ضفاف الواسي، وهناك، كان يستقبل هواة الصيد الآخرين. وأقنع فتاة جميلة بأن تكون رفيقته خلال المرحلة الأخيرة من شيخوخته النشيطة. كانت تشعر بالغيرة من الصيادات الشابات المتحمسات اللواتي يسعين إلى رفقة بطرياركها القوي، لكن هذا لم يسبغ الا تعقيدات ممتعة على السنوات الغاربة للفيلسوف المحبوب.

ذات مساء، بينما كنا لا نزال نقيم في كولانكور، ولم نكن أنهينا العشاء بعد، سمعنا أصوات صرخات عالية قادمة من الشارع. كان الدخان يتصاعد من شجيرات ورود، وسرعان ما صار اللهب مرئيا، وبدا انه يثب من كوخ إلى آخر. حي الماكي يشتعل، سكانه يركضون مثل المجانين، يحاولون إنقاذ ممتلكاتهم. مناضد، كراسي، فرش، ومرايا، كلها كوّمت بفوضى على الطريق واعاقت رجال الإطفاء. دجاج، أرانب، وماعز، راحت تفرّ مذعورة في كل الإتجاهات. في وقت قصير جداً، تحوّل الماكي إلى أتون ملتهب. جاءت البوابة لتخبرنا أن نغلق مصاريع نوافذنا الحديدية: أوامر رجال الإطفاء. كانت الحرارة شديدة جداً، وصار من المحتمل أن تنتشر النيران إلى المباني المجاورة في شارعنا. أراد أبي أن يأخذنا جميعا إلى مرسمه لقضاء الليلة. لكن الشارع أصبح مغلقا حينها، إذ منعت الشرطة الناس من الخروج من البيوت. من خلال النوافذ وفرقعة مصاريعها، كنا نميز اللهب الأحمر للنيران ونسمع ضجيج الحريق الهائل ممتزجا بالصراخ. حاولت غابريال الذهاب إلى الخارج لمراقبة ما يحدث، لكنها عجزت عن الوصول أبعد من المدخل.

Twitter: @ketab_n

طلبت أمي منا جميعا ان نذهب إلى غرف نومنا، لكننا كنا أكثر قلقا من أن نستطيع النوم. فجلست لتكتب بعض الرسائل. (ستتلفين عينيك)، قال لها رينوار الذي يستنكر إلى حد بالغ عمل أي شيء في ضوء إصطناعي. أما هو، فكان يلعب البيلبوكيه، وسأل في النهاية غابريال أن تروي لنا قصة "المعزاة الثرثارة". إنها حكاية قديمة يعود تاريخها إلى أمسيات الشتاء الطويلة في أكواخ القش في الريف. تدور حول ذئب يموه صوته ويتظاهر بأنه المعزاة الأم. إحدى المعزات تخبر الذئب كيف يفتح الباب: (اسحب المقبض وسيسقط المزلاج)، فيدخل الذئب، ويأكل المعزات الصغيرات جميعاً. أرعبتني القصة كثيرا، بسبب تهديد النيران في الخارج. بدأت أتخيل أن كوخ المعزات كان في الماكي، وانها ستحترق حتى الموت.

في اليوم التالي، لم يعد الماكي وزهوره سوى رماد ودخان. بعد أسابيع قليلة، بدأت آلات حفر تشق الأرض المتفحمة. كان نظام جديد من ركائز الإسمنت دخل لتوه حيز العمل، فصار بالإمكان إقامة أبنية على تربة كانت حتى ذلك الحين غير آمنة للبناء الثقيل. كان لدى سكان الماكي عقود تأجير طويلة الأمد، لكن توجد فيها فقرة واحدة تخص التدمير يمكن أن تحجب حقهم بالبقاء هناك. إختراع ركائز الإسمنت ملأ المضاربين بأكثر الأحلام وحشية. لكن ساكني الماكي الذين قدم لهم كل أنواع التعويضات، من غير طائل، رفضوا الرحيل، إذ أحبوا قريتهم الخشبية وشجيرات ورودهم. هذا الحريق، الذي حدث مصادفة، جاء في الوقت المناسب تماماً للمضاربين.

غادرنا إلى الميدي. وفي الوقت الذي رجعنا فيه، كانت تنتصب في المكان شقق سكنية بعلو ستة طوابق، جاهزة للتأجير. رو كولانكور، مثل شوارع عديدة في باريس، صار يشبه قاع بئر.

تصاعدت احداث الدراما العظيمة في حياة رينوار. مع كل حلقة بات

Twitter: @ketab_n

الوضع أسوأ. شلله تقدم بشكل سريع ومفاجئ. في بحر أيام، صار عليه إستخدام عصاتين بدلاً من واحدة. عندئذ، وقد أصبحت أصابعه مشوهة أكثر، اضطر إلى التخلي عن تمارينه مع البيلبوكيه، وعاجلا حتى مع جذع الخشب الصغير. في عام ١٩٠١، راوده أمل كبير بالمياه الشافية لأيكس – ليه – بان. كان ذلك في السنة التي ولد فيها أخي الأصغر كلود. تمت الولادة في ايسوي، حيث بقيت مع أمي. كانت غابريال كلفت بالذهاب مع المعلم والتأكد من إتباعه العلاج. عاد رينوار، وهو يتكئ على عصاتيه بثقل أكثر حتى من قبل، فرماهما واستبدلهما بعكازين. في عام ١٩٠٤، إنتعشت آماله لفترة وجيزة، عندما بدأ يأخذ علاجا في بوربون – ليه – بان. في ذلك المكان، بدأت رحلتي الأولى على الدراجة وحدي، وكنت في العاشرة من العمر. كنت منتفخا بالكبرياء وأنا راكب فوق دراجتي من النيكل اللامع على الطريق الخالية، وفي الليل يضيء مصباحها بغاز الستيلين. كنت فرحا جدّاً بمصباحي بحيث لم أكن أصبر حتى يهبط الظلام كي أريه لأبي. تظاهر بمشاركتي حماسي له، ودعاه بـ "القنديل الجميل". لكن أمي وغابريال لم يوافقاه الرأي، فقالا بأن الدخان الذي ينبعث منه له رائحة الثوم. برغم ان كلود لم يزل في الثالثة من العمر، فقد حصل على دراجة مصغرة ـ دراجة حقيقية وليست لعبة أطفال ـ أرسلت له من باريس بالقطار. كان بارعا جدّاً فيها، ونال الكثير من التصفيق، (وهو يلعب مثل بهلوان) أمام مرضى المصح، وكانوا كلهم تقريبا من العاجزين. كان بإمكانه أن يقود ويرفع يديه عن مقود الدراجة، ويقف على المنصب، ويرجع الدراجة إلى الخلف، مسببا قلقا شديدا لأبينا الذي كان يخشى دائماً من (الحوادث التي تؤدي إلى العرج، أو قد تسبب جرحا فقط).

إستمتع رينوار في بوربون التي لم تكن البتة منتجعا تقليديا. لم تكن سوى قرية مفرطة في النمو، مع كل السمات المميزة للمراكز الصغيرة لشرق فرنسا بعض الشيء مثل ايسوي، لكنها تميل إلى المدينة أكثر. كانت جدران

Twitter: @ketab_n

بيوتها من الحجر غير المصقول، وسقوفها من القرميد البورغوني. الأبقار، تتجول في الشوارع. فندق الحمامات، بناء قديم جذاب تحوط أراضيه أشجار رائعة. رينوار سر بوجه خاص بأحواض السباحة المبلطة بالرخام، (مادة لا يمكن الإنزلاق عليها)، ويعود تاريخها إلى أيام مدام دو سيفنيي- تلك السيدة الطيبة التي قدمت أيضاً إلى بوربون للشفاء من الروماتزم. كنت أشرت في ما سبق إلى نفور رينوار من أحواض السباحة المصقولة، (المسؤولة عن العديد من الحوادث التي تؤدي إلى فلق الرأس!)، وآسفاه، كل ميزات بوربون هذه أثبتت ان لها فائدة قليلة، إذ ان رينوار أنهى علاجه من دون تحسن ملموس.

هذا التهديد بالشلل التام دفعه إلى مضاعفة نشاطه. أندريه البير، الذي كان رينوار يحبه كما يحب إبنه ـ والذي كان يقابل هذا الحب بالمثل ـ كان يقول إن تفجر هذا النشاط تزامن مع تفاقم مرضه. اولئك الذين عاشوا معه يعرفون ان كل مرحلة من مراحل إنتصار الروح عند رينوار رافقتها هزيمة الجسد، بضمور بعض العضلات وبالألم المضاعف. الآن، وقد صار يمكنها الحركة بالكاد، إستشفت "الفلينة" إتساع المحيط أمامها، وينتظرها في نهايته تيار عاصف من حياة ثرّة. ها هو حرفي وسط عدد لا يحصى من الحرفيين، تمنى أن ينهي المهمة المكلف بها في بناء هذه الكاتدرائية الهائلة التي لا ينتهي بناؤها أبدا، والحياة الممنوحة له تتيح له الفرصة (بأن يضيف تاج عموده الصغير) إلى تيجان صف الأعمدة، وعليه لا مفر من أن يواصل "الطوف" حتى النهاية ؛ لا بد من أن يواصل العيش.

عند أول إشارة إلى فصل الخريف، كنا نغادر جميعا إلى الميدي. كنت انسحبت من سانت- كروا، لأني لم أكن سعيدا فيها. المجد الذي إرتبط بكاسكيت المدرسة الشهير، كان قد خبا ازاء عقبة لم يمكنني التعود عليها. علمني ابواي ان لا اكون متطلبا جداً في ما يتعلق بالماديات. حتى مع سرير المدرسة القاسي والطعام السيء، كنت راضيا تماماً. كان هذا يخالف مواقف

Twitter: @ketab_n

العديد من التلاميذ الآخرين الذين كانوا يعتقدون ان من الفطنة التذمر من هذا الوضع. عندما تحدثت عن هذا الأمر لأبي، قال إن شكوى الصبيان الآخرين، ربما هي رد فعل على فقر الطعام في بيوتهم. (لا تبدأ محاولة تقليدهم، لأن هذا سيعَد نذالة منك). العقبة التي محت كل المزايا الممكنة كانت هي المراحيض، إذ كانت قذرة جداً. مع هذا، كان زملائي، حتى اكثرهم رقة، والذين يضعون دهانا عطريا على شعرهم، يرون انها طبيعية تماماً. كما لو ان من السمات المميزة لمكان كهذا أن يكون قذرا ! لم اكن أطيق حتى الإقتراب من ذاك المكان. كنت أمسك نفسي لأطول فترة ممكنة، وعندما ينفد تحملي، أتسلل في الليل إلى الاحراش كي أريح نفسي. كنت دائماً أرتعب من أن يُكشف أمري، حتى أصابني المرض، حرفيا. في النهاية اخبرت والداي بالأمر كله، فأخذاني معهما إلى البيت. إفتتاني بالكاسكيت تلاشى بسبب قربي.

كان الإختلاف الآخر بيني وبين زملائي التلاميذ هو سلوكهم ازاء الجنس. كانت صور لنساء عاريات تصيبهم بحالة من الإثارة لم تكن مفهومة بالنسبة لي. كانت تمرر من يد لأخرى خلسة بينهم، ويقفلون على انفسهم في المرحاض لتأملها في اوقات فراغهم. بعضهم يستمني بإهتياج من التحديق بهذه الصور. كانت تمثل فردوسا أرضيا بالنسبة لهم، لكنه صعب المنال. كان الأخوة الرهبان الطيبون، يفاقمون أهميتها، عندما يبحثون عنها ويصادرونها ويعاقبون حائزيها. لم أكن أستوعب سلوكهم هذا. منذ طفولتي المبكرة، كنت أرى أبي يرسم نساء عاريات فكان يبدو لي عريهن طبيعيا. إختلاف عنهم، أكسبني سمعة شخص مجرّب لا ابالي، وهي سمعة لا استحقها إطلاقا في الواقع، كل ما في الامر أن الغموض بالنسبة لي ليس له وجود. تعلمت في وقت مبكر جدّاً ان الأطفال لا يولدون تحت نبات الملفوف. كنت بعيدا عن البراءة.

الشخص الوحيد الذي أسفت على فراقه في المدرسة كان صديقي الأول،

Twitter: @ketab_n

جاك مورتييه. لكني عدت فالتقيت به حين رجعت إلى سانت- كروا، بعد أن اصبحت المراحيض نظيفة بشكل ملائم، وبعد أن زار أبي المدرسة، ليتأكد من الأمر.

كانت الردهة هناك كبيرة، وذات مظهر كئيب ومعتمة جداً، بحيث ان الرهبان الذين تزين صورهم جدرانها، يظهرون كأنهم ينبثقون مثل شعاع بأرديتهم السود مع خلفية بلون القطران. في يوم الأحد، كانت تدب الحياة في القاعة بثرثرة التلاميذ وهم يناقشون أخبار الموضة في باريس. عندما أتى أبي لرؤيتي بدا انه في غير موضعه بين الزوّار. جاكيت العمل الذي يرتديه، بياقته المزررة، وشعره، الذي بان طوله تحت قبعته القشية، وملابسه كلها تتباين على نحو لافت مع الياقات المنشاة، وأربطة العنق الحريرية السوداء، والشوارب المدهونة، والبناطيل المكوية بإتقان، لكل الآباء الآخرين. كان هذا الرجل ينأى بنفسه، على نحو غريزي، عن بقية العالم. بينما كنت اقبله، شعرت بالحرج من النظرات المندهشة للتلاميذ الآخرين من حولي.

في يوم الإثنين التالي، بعد نهاية الدرس الأول كنا نأخذ إستراحة قصيرة، فاقترب مني صبي يدعى روجيه. كان اباه رئيسا لمؤسسة بقالة كبيرة في الدائرة القريبة من دار الأوبرا، ويملك فيلا في تروفيي، وكآخر صيحة في "الإختيال"، كانت أمه قد أزالت الزائدة الدودية عند الجراح العظيم دوين. بإختصار، كانوا حقاً اناسا من علية القوم. شكل الصبيان حلقة حولنا، أخرج روجيه قطعتي سو نقديتين وقدمهما لي. (تفضل)، قال، (إعط هذه لأبيك، وقل له أن يقص شعره). كان يجب أن أقبل النقود وأشكره عليها، إذ علمني والداي ان ليس هناك ما يعيب في قبول الإحسان. لكن كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي اسمع فيها أحداً ينتقد أبي. أحسست بالدم يفور في رأسي، وفي جزء من لحظة صارت الأشجار التي في ساحة اللعب والوجوه التي حولي ضبابية، فرميت نفسي بعنف على المجدِّف، فأخذ على حين غرّة، ولم تتح له

Twitter: @ketab_n

الفرصة في الدفاع عن نفسه. سقط على الأرض، لكني واصلت ضربه. أطبقت بيدي على حنجرته، وقارب على الإختناق حتى الموت لو لم يهرع إثنان أو ثلاثة من الأخوة الرهبان للتدخل. وجرّوني إلى مكتب المدير لتفسير تصرفي هذا. لكن المدير لم يفهم شيئاً من هذه القصة حول شعر أبي، فأرسلني إلى البيت لبضعة أيام كي أهدأ. على الأقل خرجت بهذا القدر منها. حين عدت إلى المدرسة، دهشت أن أرى الجميع حذرين مني. أتى روجيه وصافحني. (كان عليك ان تقول ان اباك فنان).

إنفجر رينوار بالضحك عندما رويت له ذلك. أعرف الآن أن ذلك الضحك كان بمثابة تنازل عن حقه. علمته الحياة بأن رغبته كصبي حر في، في رسم البورسلين، في أن يعمل من دون أن يفطن عليه احد، وأن يعمل بهدوء، لم تتحقق ابدا. (الخطر)، كما شرح قائلا في ما بعد، (هو أن تكون قابلا لأن تصاب بالغرور، وتعزل نفسك وتغدو مزهواً). كما لو انه لم يمتلك أفضل ضمان ضد هذه الأخطار، وهو حبّه للبشر والأشياء في هذا العالم. سوء الفهم، لم ينشأ من طريقته في اللبس فحسب، بل مستمد أيضاً من واقع ان رؤيته للحياة لم تكن تشبه تلك التي للناس الآخرين الذين أحسّوا بهوّة بينهم وبينه. ماذا يمكن أن يقول الآباء في سانت - كروا لو اتيح لهم مشاهدة رسومه؟ ما زالت اعماله الأخيرة غير مفهومة الا للقلة القليلة من معاصريه. هذا يبعث فيّ البهجة، ويمنحني الشعور بأنه ما زال هنا، شاباً، حياً، بالرغم من رغبته البقاء (كواحد من عامة الشعب)، فهو لم يكف عن ترويع البورجوازيين.

أمنيته بأن (يفعل كما فعل الجميع)، فرضت عليه أن يسهم بلوحة في معرض باريس العالمي لعام ١٩٠٠. (سوف لن يفطن لها أحد وهي إلى جانب برج ايفل، لكني سوف لا أبدو بمظهر المعتزل). كنت في السادسة في ذلك الوقت، والأمر الوحيد الذي أتذكره بشأن المعرض كان صعودي البرج الشهير مع أخي بيير وغابريال ولابولانجيير. كنا في اعلى البرج نشير إلى

Twitter: @ketab_n

معالم المدينة التي كانت تبدو في البعيد كما لو كانت مقدمة الينا في علبة من القطيفة الخضراء. ما زالت باريس آنذاك تضم عددا كبيراً من الأشجار. تملكنا الإعجاب، وتنفسنا هواء منعشا. كل شيء سار حسنا حتى خطرت لأخي فكرة مشؤومة بأن يخبر لابولانجيير، التي كانت تنظر إلى الناس تحت وتقارنهم بالنمل، بأننا على علو ألف قدم تقريبا. فساورتها نوبة دوار وصرخت، (ألف قدم! هذا كثير جداً... آه، أحس بالدوخة... أحس بالدوخة!) اما أنا فتكون لدي في الحال إنطباع بأن قوة لا سبيل إلى مقاومتها تسحبني إلى الهاوية. قبضت على الدرابزين، أغلقت عيناي، ورفضت التحرك. كان على بيير وغابريال أن يأخذاني بالقوة إلى الأسفل.

في محاولة لأن استعيد شجاعتي إصطحبتني أمي لمشاهدة عرض مسرحي جماعي يدعى " فيرسنغيتوريكس" على الهيبّودروم: خمسمئة شخصية بأزياء الغاليين والرومان، هجومات الفرسان، حصار آليسيا وفيرسنغيتوريكس المقاد بالأصفاد الذي لا يهاب قيصر. خرجت من المسرح، مليئا بالفخر وعلى إستعداد لمقاتلة أول شخص يجرؤ على الهزء بشعري الأحمر الطويل.

في تلك السنة نفسها، عام ١٩٠٠، قررت الحكومة الفرنسية تكريم ابي بوسام جوقة الشرف. هذا الإمتياز، سبب له حرجا كبيرا. بقبوله إياه، سيضع نفسه موضع من يعقد ميثاقا مع العدو، ويعترف بالفن الاكاديمي، الصالون الرسمي، مدرسة الفنون الجميلة، المعهد. اما لو رفضه، فسيكون مدانا بسلوك يمقته أكثر من اي شيء آخر في العالم: القيام بحركة مسرحية. الكاتب آرسين الكساندر، الذي كان زائرا منتظما للمنزل، قال له، ان قبوله وسام جوقة الشرف سوف لا يعني بأي شكل انه أصبح "رسمياً"، ولا حائزي جائزة روما الكبرى سيفتحون له أذرعهم وقلوبهم. كان رينوار لم يتخذ قراراً بعد، وفي ذهنه موقف أصدقائه إزاء التكريم الرسمي. كان قد فقد صديقه سيسلي في

Twitter: @ketab_n

السنة التي قبلها. سيزان كان متأثرا بحصوله على وسام (إبتكره نابوليون، الذي لم يكن، في آخر الأمر، شخصا لا خير فيه)، بيسارو، الذي التقاه رينوار مصادفة في مدخل غار سان- لازار، سخر من الأمر، وقال له إن وسام جوقة الشرف لم يعد دليلا على التميز، لأن الجميع حاز عليه. كان عليه، مع هذا، أن يعرف وجهة نظر مونيه بهذا الشأن. كان مونيه رفيقه المخلص في السنين العجاف، والذي تقاسم معه طعامه من البازلاء والعدس،والذي أزال عنه الشعور بالإحباط في أكثر من مناسبة. في النهاية، قرر أبي أن يقبل الوسام، وكتب إلى مونيه الرسالة التالية:

(صديقي العزيز

سمحت لهم ان يمنحوني وسام جوقة الشرف. صدقني، أنا لا أبلغك كيف أعرف إن كنت مصيبا أو مخطئا، بل فقط لأني لا أتمنى لهذه القطعة الصغيرة من الشريط أن تؤثر على صداقتنا الطويلة بأي شكل...).

بعد بضعة أيام أرسل بضع كلمات أخرى:

(أدركت اليوم، وحتى من قبل، بأني كتبت لك رسالة حمقاء. أتساءل، ما الفرق الذي يمكن أن يشكله لك في ما لو تسلمت الوسام أو لا...).

في بداية حياته، كان رينوار يؤمن بأن الأمور ستتغير، في اليوم الذي تمنح في الجوائز والأوسمة من قبل جيل جديد متشرب بروح العدل والحرية. كان يعرف، آنئذ، ان الفساد ملازم للسلطة، والأسوأ حتى، ملازم للبلاهة! بقدر ما تسعفني الذاكرة، بقي أبي بمعزل عن كل ما هو رسمي، وكل ما يتصل بمنظمة ايضا. انه لم يكافح ضد هذه الأشياء، لكنه فضل أن يدفن رأسه في الرمال، (مثل نعامة، والذي هو طائر أعمق ذكاءً مما تفترض، عندما ترى رقبته الطويلة). كان يسلّم بواقع أن الحكومات، شركات السكك الحديد، الصحف، ومدرسة الفنون الجميلة، كلها موجودة. كما أدرك وجود المطر، لكنه فضّل

Twitter: @ketab_n

أن ينساه، عدا عندما يسقط فوق رأسه، و تماماً مثلما نسي روماتزمه، عدا حين يدفعه للصراخ ألما. كان يعرف ان جمعيات الفن الجديدة، مثل جمعية "Les Indépendants" (الأحرار)، التي كانت فكرة سورا، أو "Le Salon d'Automne" (صالون الخريف) الذي أنشئ تقديراً لموهبته هو نفسه، لم تكن أكثر عونا للرسامين الشباب مما كانت مدرسة الفنون الجميلة والمعهد. لم يكن يولي أهمية كبيرة لمثل هذه المنظمات، التي كانت لجانها مؤلفة من سادة ذوي ياقات عالية، يتناقشون متحلقين حول طاولة بقماش أخضر. (حتى لو خلعوا ياقاتهم العالية ورفعوا أكمام قمصانهم، وتناقشوا، فهم عاجزون تماماً. وما كان سيشغلهم غير التوافه). من وجهة نظره، لم تكن الطريقة الوحيدة للإرتقاء بفن الرسم هي النقاش والتنظيم والجوائز، بل الرسم. كان ينظر بعين الرضا إلى "صالون الخريف"، بسبب العدد الكبير من أصدقائه الذين عرضوا أعمالهم فيه، لكنه فقد الثقة في جمعيات أخرى.

في عام ١٩٠٤، أقامت هذه المنظمة معرضا إستعاديا لأعماله الكاملة حقق نجاحا كبيرا، بحيث أثار مشاعره، ونسي لبضعة أيام خيبته في العلاج في بوربون- ليه - بان.

في العودة إلى البيت من ايسوي في ١٩٠٥، عاودت رينوار نوبة قيدته إلى سريره أياماً عدة. حين نهض ثانية، كان بالكاد يجرّ نفسه إلى المرسم. افتقد دفء الجنوب المريح. مع ذلك، لم يستطع إكراه نفسه على هجر باريس بشكل نهائي. كان عدد أصدقاء شبابه بدأ بالتناقص. توفي بيسارو في ١٩٠٣، وسيزان في ١٩٠٦. لكن كان هناك الأصدقاء الأكثر شباباً: ديسبانيا، فالتا، بونار، فيلار، وبالأخص أندريه البير وزوجته ماليك. أولئك الأصدقاء الرائعون كانوا فرحة رينوار في سنواته الأخيرة. أعتقد، أن البير، حقاً، كان الصديق الوحيد الذي عرف "المعلم" خير معرفة، وفهمه تماماً، أثناء السنوات التي سبقت وتبعت استقرارنا في بولفار روشيشور. كان ذلك في العام

Twitter: @ketab_n

١٩١١، حين قررت والدتي الانتقال إلى هذا البيت. في السنة التي قبله، شعر ابي انه أحسن حالا، فقضينا الصيف جميعا قرب ميونخ مع أصدقاء أسرة تيرنيسن. تحسنه كان كبيراً إلى حد انه استأنف استعمال العصاتين، وكان يأمل أن يتخلى عن العكازين إلى الأبد. للأسف، حالما عاد إلى الميدي، كانت "الانتكاسة" عنيفة جداً، بحيث صار عاجزاً عن المشي. اشترت له أمي كرسياً بعجلات. اخذتني معها إلى نيس حين اوصت عليه. لم تكن أمي من النوع التي تميل لإظهار عواطفها. لكن، ونحن في الترام في ذلك اليوم، هطلت الكثير من الدموع على خديها. رينوار لا يمكنه المشي على رجليه بعد الآن أبداً.

كانت شقتنا في بولفار روشيشور تقع في الطابق الأول. لم يكن السلّم صعبا جداً، وكان يمكن لشخصين أن يحملا أبي إلى فوق، جالسا على شريط جلدي عريض. هذه هي البيئة التي وصفت فيها رينوار في بداية الكتاب. وكما قلت حينئذ، كان مرسمه في الطابق نفسه من المبنى. إستخدم السلّم فقط في يوم وصوله، وفي اليوم الذي غادر فيه. لكن قبل بلوغ الحديث عن السنين التي كان فيها مقيدا إلى كرسي المقعدين، لا بد أن أذكر بضعة تفاصيل عن فترة راحته قبل المحنة النهائية مباشرة.

فترة إقامتنا في بافاريا، كانت رائعة. كنا استأجرنا بيتا صغيراً في وسلينغ، على ضفة البحيرة تماماً. عودة رينوار إلى عصاه بدت لنا إشارة على إسترداد عافيته. كان غالبا ما يذهب معنا في رحلاتنا على القارب، و نزهاتنا في الغابة. جلبت أمي معنا روني ريفيير، التي لم تكن متزوجة بعد، كما كانت دعت بول سيزان، الذي لم يمكنه المجئ، لأنه كان محتجزاً في باريس بسبب مشاكل عاطفية، كان متلهفاً للتحرر منها قبل التقدّم للزواج من روني. كان أخي بيير معنا. بعد أن أنهى دراسته في سانت- كروا، إلتحق في الكونسرفاتوار، وتخرج بدرجة شرف، وكان، في حينها ممثلاً كامل الريش، يمثل في مسرح الاوديون، تحت إدارة انتوان. حاول أبي أن يثنيه عن رأيه ويتخذ مهنة (تجني

Twitter: @ketab_n

من ورائها ربحا ؛ إذ لا شيء يبقى وكل شيء زائل). لكن مهنة إبنه البكر كانت بديهة، فكان عليه أن يخضع للمحتوم. كان إرتدى وسامه حتى ـ بإقتراح من غابريال ـ عند الإجتماع بانتوان، الذي كان هو الآخر موشّحاً بوسام، وربما كان سيفسر غياب الشريط على صدر زائره بمثابة إهانة.

كان أخي كلود في التاسعة من العمر ؛ ابن تيرنيسن، الكساندر في الثانية عشرة؛ وأنا في السادسة عشرة. كانت مجموعتنا تضم فتياناً وفتيات من ميونخ، كانوا أصدقاءً لآل تيرنيسن. كان مويلفلد، الموسيقار الشهير، يعطي دروسا في الغناء لروني، ودروسا في العزف على الترامبيت لي. كان يدعي بأن هذه الآلة البدائية، إن لم تكن ذات نفوذ، فهي أفضل تقديم للتأليف الموسيقي العظيم. كنا نذهب خارجا لجمع ثمار العنبية، نشرب البيرة، وروني تغني، وانا كنت أقلد صدى الغابة البافارية ببوقي النحاسي. رسم رينوار مدام تيرنيسن، التي كانت فاتنة، والكساندر إبنها، كان وسيما مثل راع إغريقي، وبالمصادفة رسم له بورتريها بملابس راعٍ، ومسيو تيرنيسن بدا لأبي جذاباً جداً.

نشب شجار مؤسف بين مويلفلد وروني. كان الموسيقار ساخطاً لأن أي شخص بمثل هذا الصوت عليه أن يظهر رغبة ولو قليلة بتكريس نفسه لعبادة موزارت وباخ. لكن روني كانت تفضل الذهاب معنا في رحلاتنا إلى البحيرة على تلقي دروس عدة من الكابلميستر (قائد الاوركسترا). انقلب وجه مويلفلد إلى اللون القرمزي، فتنبأ رينوار بأنه سينفجر في يوم ما، وبدا هذا أمراً محتملا، بالنظر إلى العدد الذي لا يحصى من أباريق البيرة السوداء التي كان يجرعها في سبيل تهدئة نفسه. في تلك الأيام لم يكن هناك "ماسكروغ" يحمل أقل من لتر واحد. ذات مرة، بعد أن غنت روني نشازا، حاول مويلفلد ان يضربها بقوس الكونترباس، فركضت مثل المجنونة وسقطت في البحيرة. لم تكن تعرف السباحة، فقفز أستاذها إلى الماء بكل ملابسه وأنقذها.

Twitter: @ketab_n

قبل أن يقرر رينوار الإستقرار في كانيي، حيث بنى آل ديكونشي لهم بيتا على الطراز الريفي، وكانوا ينتظرون قدومنا، حاول العيش في أمكنة مختلفة في الميدي. تحدثت سابقا عن الفيلا التي كنا نملكها في ضواحي غراس. عشنا أيضاً لفترة في قرية ماغانيوسك، وكذلك في لوكانيه، وحتى في نيس. أثناء إقامة أبي في هذه الأمكنة، كنت في غالب الأحيان في المدرسة، بعيدا عنهم، لذلك ذكرياتي عنها ضبابية إلى حد ما. هذا لا يعني ان سنوات المدرسة لم تكن موشاة بزيارات مستمرة إلى البيت. كنت، بين الحين والآخر، أحس بالضجر، فأهرب. أصل إلى البيت جائعا ومتسخا، لأني كنت قطعت الطريق كله مشيا على قدمي. كانت أمي تهز كتفيها دهشة، وأبي يتوصل إلى الإستنتاج بأن مصيري هو الأعمال اليدوية أكثر من أعمال الفكر. كان يشغله التفكير بالطريقة التي يمكن لشخص ذي طبيعة مثل طبيعتي أن يكسب عيشه. كان يراني حدادا تارة، وموسيقيا تارة اخرى ـ كانت أمي علمتني العزف على البيانو ـ ومرات طبيب أسنان، نجارا، حارس طرائد، أو ممرضا. كان يعارض ممارستي التجارة (التي تتطلب منك موهبة خاصة)، والسباكة أيضاً، لأنه كان يخشى إحتمال إنفجار مصباح اللحام، بالإضافة إلى ذلك، كانت الشعلة الزرقاء، التي لا ترى تقريبا، تثير قلقه، (أنت شارد الذهن، ستضع قدمك أمامها وتحترق). كان يحلم بعالم يمكن للمرء فيه أن يمتلك الحق بأن يكون شارد الذهن.

ذكرياتي عن تلك الفترة قليلة نسبيا. صار مرض أبي واقعا مسلما به، وروضنا أنفسنا على هذه الظروف التي لا تتغير. لكن، بالنسبة لأبي، لن يقف الأمر عند هذا الحد. بعد ساقيه بدأت يداه تتشوهان، وكان يتكهن بشعور من الرعب باليوم الذي سوف لا يعود فيه قادرا على الإمساك بالفرشاة.

يمكنني أن أرى في مُخيلتي ثانية الحديقة في لوكانيه، النخل وأشجار البرتقال، وتيودور دو وزيفا وإبنته ميمي. وكما لو من خلال ضباب، بوسعي

Twitter: @ketab_n

تبين مدام دو وزيفا، التي نال منها السقم كثيرا. برغم أن أبي كان يستشيط غضبا من "المثقفين"، لكنه كان يكن أكثر المشاعر ودا لهذه العائلة الذين كانوا مثقفين حقيقيين. تيودور دو وزيفا، ولد في بولندا. كان شابا معدما، يكسب عيشه من إعطاء دروس في اللغة الألمانية. لم يكن يتكلم اللغة، فاعتقد انها أفضل طريقة للتعلم. في ما بعد، أصبح سكرتيرا لأسقف، كان شخصية مهمة في السلك الدبلوماسي في الفاتيكان. لأنه كان متدينا جداً، رفض دو وزيفا الإنجرار وراء مكائد رئيسه، الذي لم يكن مسيحيا تماماً. قال له ذات يوم، عندما أراد الأسقف أن يقدم مقترحا، إعتبره العلماني دو وزيفا متطرفا ومضللا، (لكن، مونسينيور، أقول لك، إنّ الله موجود حقاً!). في عام ١٨٨٦، كتب مقالاعن سورا، محذرا إياه من طرح نظريات علمية في حقل الفن. كان رينوار معجبا، بوجه خاص بترجمته لـ " الإسطورة الذهبية " لجاكومو دا فاراجيو، وكان يؤكد، (أنا لا أعرف أحداً كتب بالفرنسية بطريقة آسرة مثلما فعل دو وزيفا). كانت ميمي أكبر مني عمرا، وتركت في نفسي إنطباعا حسنا. كلما ظهرت، كنت أركض لأغسل يداي، وأحياناً كنت ابالغ فأمشط شعري. كنت واقعا سرا في حبها.

ذكرياتي عن ماغانيوسك، محددة بشكل رئيسي بصديقي العظيم اوسل الذي كان يمتلك دراجة ثلاثية العجلات، وبسيجارتي الأولى التي أعطاني اياها صديق آخر، والتي جعلتني اتقيأ. كان الحوار الذي إستهل هذه التجربة ما زال واضحا في ذهني: (هل تدخن؟ ـ فقط سجائر الشوكولا. ـ أنت أبله. سألف لك واحدة حقيقية). هذا المدخن المتمرس كان في الثامنة من العمر.

مناخ منتون كان مفضلا لدى أبي. كانت الجبال التي خلف هذه المدينة تحميها مثل ستار. في هذه الدفيئة الطبيعية تملكه إحساس بأنه (يشوي روماتزمه في الشمس). لكن بسبب هذا الدفء المريح، اكتظ المكان قبل الحرب العالمية الأولى بالانكليز الذين كانوا يعانون من داء السل. كما

Twitter: @ketab_n

نعرف، لم يكن رينوار يحب السياح، والأكثر منهم السياح المرضى. عدا بوربون- ليه – بان، وهي من بقايا القرن السابع عشر، كان مجرد التفكير بأي منتجع مائي يغمره بالحزن. أذكر زيارة تجريبية له إلى فيشي. بينما كان لا يفعل شيئاً سوى التثاؤب، فهو لم يفتح علبة رسمه مرة واحدة. فتدبرت أمي امر مغادرتنا جميعا المكان في اقصر وقت ممكن. كانت معنا سيارة، لذا كان بإمكاننا الوصول إلى مولان وقضاء ليلتنا هناك. (الى أي مكان)، قال رينوار، (طالما لا نضطر إلى مشاهدة تلك المنصات المنصوبة في الهواء الطلق للفرق الموسيقية مرة ثانية). من حسن حظ منتون، كان الأطباء، في ذلك الحين، اكتشفوا الهواء الشافي للجبال، ففقد هذا المركز الصغير كثرة مرضاه، محتفظا بأشعة شمسه اللطيفة، وهو الآن من الأحياء المميزة للمدينة الكبيرة، الذي سيمتد لاحقا من مارسيليا حتى كالابريا.

حين بدأنا بالذهاب بشكل منتظم إلى الميدي، لا أحد راوده الشك بأن أرض الميعاد تلك ستصبح كوني آيلاند الأوربية. في تلك الأيام، كانت مرافئ الصيد لا تزال سليمة، وكان سكانها يمكنهم فعلا العيش من بيع سمك السردين أو سمك البلم. كان رينوار أول من إستشعر الخطر. (الباريسي كائن رائع، طالما هو خلف دكانه في الفابورغ سان انتوان. حالما يخرج من باريس، فإنه يفسد كل شيء). كان يتنبأ بالكارثة. واحدة منها، على سبيل المثال، ستكون في اختفاء الطبيخ المحلي في الفنادق الكبيرة. إن شغف الباريسيين بزيت الزيتون، وبالبوباباس (حساء السمك)، وبالبرناداد (عصيدة سمك القد)، هو حديث نسبياً. حين كنت اصغر عمراً، كنا ندهش من شخص يأكل طعامه، مطبوخاً على طريقة منطقة الميدي. قلت كيف أن رينوار كان يعتقد ان الرسم أكثر جمالاً في الريف، حيث يُرسم. حجته، كانت نفسها في ما يخص طريقة العيش بوجه عام؛ والأكل بوجه خاص. كان يحبذ التقليد الجنوبي بغلق ستائر النافذة في الصيف، بعدم الظهور تحت الشمس ما لم يكن المرء

Twitter: @ketab_n

محميا جيدا بقبعة سميكة أو ببارسول (مظلة)، بوضع الثوم على كل طبخة، (لقتل الديدان). عندما يكون في الميدي كان يتصرف مثلما يتصرف السكان المحليون، ويتصرف مثل باريسي، فقط حين يعود إلى مونمارتر. (لا تضع زيت الزيتون في السلطة)، يقول السائح لنادل المطعم. الآن، بيوت المزرعة الصغيرة، بسقوف القرميد المتوسطية، استبدلت بالمباني السكنية من الإسمنت المسلح، والطاحون القديم صار ناديا ليليا.

Twitter: @ketab_n

٢٨

في عهد أبي كانت كانيي قرية مزدهرة يسكنها فلاحون ناجحون. التلال مزروعة ببساتين الزيتون والبرتقال في صفوف. كانت زهور البرتقال تباع إلى صانعي العطور في غراس. فضلا عن ذلك، كان كل شخص لديه حديقة الخضار الخاصة به، ودجاجاته وأرانبه. آل أزنار، آل بورتانييه، وآل ايستابل، كانوا لا يبخلون على أنفسهم شيئاً. كانت الضرائب غير موجودة تقريبا، وتكاليف المعيشة لم تكن غالية بعد، ومع القليل من الارث العائلي تدبر الناس أمورهم بشكل معقول. لم يكن على سكان كانيي العليا بعد بيع بيوتهم للفنانين، او بيع أملاكهم على سفح التل إلى الأثرياء المتقاعدين. كان واحدهم يذهب إلى الآخر، راكبا حماره الصغير، غير مستعجل. وكانوا لا يرهقون أبداً حيواناتهم وأرضهم وأنفسهم. كان ابي يحس انه في بيته معهم. كانوا لا يُظهرون، أو يُظهرون القليل، من الفضول حول رسمه ؛ وهو، من جهته، كان يسرّه أن يهنئهم حين يكون حصادهم وافرا. كانت المنتجات المحلية متنوعة جداً. النبيذ عندهم، من سفوح جبال معينة، كان له طعم حاد، لكنه فاخر؛ وصيادو السمك النابوليوني في كرو- دو- كانيي، كانوا يجلبون شباكا ملأى بسمك السردين الصغير الفضي، الذي كان يقول عنه أبي انه الأفضل في العالم. كانت زوجاتهم يحملنه في سلال مسطحة، تتوازن على رؤوسهن،

Twitter: @ketab_n

ينادين بصوت أجش، (au pei! au pei) (سمك طازج! سمك طازج) لجذب الزبائن. بعض منهن وقفن امام رينوار للرسم.

أكثر ما كان يبهجه في كانيي، هو (انك لا ترى الجبال أمام انفك مباشرة) كان مولعا بالجبال، لكن عن بعد. (يجب ان تبقى كما أراد لها الله أن تكون: خلفية، كما عند الرسام جورجون). غالبا ما قال لي بأنه لم يعرف ما هو أكثر جمالا من وادي نهر كانيي الصغير، فقط عندما يمكنك تبين جبل البوي- سان- جينيه خلال أدغال القصب التي أعطت النهر اسمه. كانت كانيي تبدو كما لو كانت تنتظر رينوار، مثل عاشق منح قلبه لفتاة حلم بها طوال عمره، ثم اكتشفها على عتبة باب البيت، بعد أن طاف حول العالم. قصة كانيي ورينوار، هي قصة حب، ومثل كل قصص الحب عند رينوار، كنت خالية من أي شيء حسي.

من البيوت المختلفة، التي عشنا فيها هناك، عدا ليه كوليت بالطبع، أذكر بوجه خاص بيت مكتب البريد. كان مكتبا بريديا حقيقيا، والممرات المؤدية اليه، مفعمة بالحياة، بدخول وخروج الناس الراغبين بإرسال برقيات او شراء طابع، والذي كان يتيح المناسبة لتحية أمي أو غابريال بـ (طاب يومك)، أو للإشارة إلى الطقس لأبي، الجالس على الشرفة يرسم، وقبعته، بغطاء الأذنين للوقاية من البرد، منخفضة على رأسه الأصلع، وشاله الصوفي على كتفيه. مكتب البريد كان بناية كبيرة تعانق خاصرة المدينة تماماً، حيث يبدأ الشارع بالصعود بإنحدار، ويغدو نوعا من سلّم مرصوف بالحصى. كانت البغال الصغيرة تضع حوافرها بحرص على درجاته، حاملة الغلة التي جمعت من التلال المحيطة إلى بيوت المدينة. مثل اي مكان في المناطق المتوسطية، تقع الحقول خارج الأسوار الواقية للمدينة، وفي المساء يعود الجميع من عملهم إلى حمى المكان المسوّر. بضعة آثار من هذه الأسوار بقيت في كانيي، لكن الروح المدينية اللاتينية ظلت بكرا. ناس الشمال وأبقارهم بضروعها المنتفخة

Twitter: @ketab_n

بالحليب يعيشون في مزارع مبعثرة في أرجاء الريف. بينما ناس الجنوب وماعزهم النحيل القوي، يعيشون في بيوت مكتظة واحدة تواجه الأخرى. في الأمسيات يجتمع الرجال تحت أشجار الدّلب، ينهمكون في نقاشات طويلة. حافظوا على روح الأغورا الإغريقية. كانوا بشرا متحضرين. في مكتب البريد، كنا داخل أسوار المدينة، لدينا الأغورا الخاصة بنا، أمام البيت مباشرة.

مبنى مكتب البريد مقسم إلى ثلاثة أقسام: مكتب البريد مع شقة جامع الضرائب مسيو رايبو، والشقة التي تعود إلى صاحب الملك مسيو فردينان آزنار، ومسكننا. أقيم القسم الذي نعيش فيه على الطرف البعيد من مدخل البناية، ويطل على بستان كبير من أشجار البرتقال، المزروعة قبالة الشرفات المسوّرة، وتنزل هابطة على طول الطريق إلى فينس. في الخلف، بقايا الأسوار الواقية ما زالت محاذية لأطراف القرية. كانت البيوت تبزغ من حدائق صغيرة، وأسقفها، الواحدة فوق الأخرى، تصعد حتى الكنيسة القديمة، باجراسها المعلقة بقفص حديدي. كان لا يمكننا رؤية القصر من بيتنا. لقد دارت الكثير من الأحاديث حول امرأة روسية غريبة الطباع كانت تقوم بتجديده. لسنوات عديدة، كان القصر يُستخدم كاسطبل ومخزنا للوازم الإطفائيين.

انتقل مكتب بريد كانيي إلى مبنى عصري كبير ملائم للأهمية الجديدة للمدينة. لم يعد ثمة بساتين برتقال. من جهة أخرى، يمكنك أن ترسل بريدك بطوابع تحمل رأس رينوار. غالبا ما كان يقول لي، (عندما تفقد أسنانك، يصير بإمكانك أن تشتري أفضل القطع من اللحم).

حين يغدو الجو دافئا كفاية، كان بابتيستان يشد حصانه الطيّع إلى عربته الفكتورية ويأخذ أبي إلى الريف كي يرسم. في البرد، كانت توقد نار كبيرة في غرفة الإستقبال التي تحولت إلى مرسم. بابتيستان، الذي كان

Twitter: @ketab_n

يشتغل سائق عربة أجرة ـ في الزمن الذي كانت فيه عربات الأجرة فكتوريات مزينة بمظلات مهدبة ـ تخلى طوعا عن فترة الإنتظار المملّة في المحطات، وأصبح مدبر منزلنا. كان يدفع رينوار بكرسيه في أرجاء المكان، يساعده على الصعود والنزول من الفكتورية، يقطع الخشب، ويراقب الحرارة في غرفة الاستقبال. كان يقوم، أيضاً، بالتسوّق وإصلاح الأثاث المكسور. كان دائماً يتكلم عن نفسه بصيغة الشخص الثالث، مشيراً إلى نفسه بعبارة "ذلك الرجل". كان يقول (ذلك الرجل سيذهب إلى السوق... ذلك الرجل سيذهب يسوس حصانه... ذلك الرجل يشعر بالتوعك). في اللغة المحلية، تستخدم صفة "توعك" لأي إنحراف خفيف في الصحة. عندما تكون الحالة خطيرة، فالواحد يكون "متعباً". وحين يكون "متعباً جداً"، فلا يُتوقع أن يعيش حتى الصباح. كان بابتيستان رجلاً وسيماً، قصيراً لكن على نحو متناسق، وبشارب عدواني. كانت له فتوحات كثيرة مع النساء، الأمر الذي كان يريح زوجته، لأنها عانت ما يكفي من إنجاب كل اطفالها. كانت تقول، (أولئك الذين ينجبهم من الأخريات لا ينجبهم مني). مع ذلك، حين بلغ في التعبئة كجندي احتياط للخدمة في المغرب، اقنع زوجته بالحجة بضرورة إضافة ذرية أخرى للعائلة. القادم الجديد، أكمل العدد اللازم لاستثناء "ذلك الرجل" من الخدمة في الجيش، فكان حراً في الاستمرار بعمله عندنا. في ما بعد، حين إشترت أمي سيارة، علمته القيادة، فأصبح سائقنا الخاص. إختار بدلة نظامية جيدة ودافئة من متجر تيري وسيفران في نيس. (للذهاب بها إلى باريس، فبرد باريس لعين!) لم يترك الخدمة عندنا، حتى بدأ يحس بتقدّمه بالعمر، وصار الطريق من منزله إلى ليه كوليت طويلاً جدّاً عليه، وأصبحت ساقاه ثقيلتين (على عبور كل تلك المسافة الطويلة)، كما شرح لأبي، مشيراً إلى شريط النصف كيلومتر من الدرب تحت أشجار الدلب السامقة. إشارة بليغة عبرت عن الإرهاق العميق الذي ينال من اولئك الذن عملوا طوال حياتهم، وبدأوا الآن يدركون ان ذاك طال أكثر مما يلزم.

Twitter: @ketab_n

ذكريات سكننا في مبنى مكتب البريد، ملازمة لتلك التي لفردينان آزنار، صاحب ملكنا. كنا نود كثيراً بابتيستان وآل رايبو، الذين كانوا أفضل جيرة. جار آخر، القنصل، الذي كان صديقاً مقرباً جداً لنا، والذي كان يعرف كيف يحافظ على رفقة أبي من دون أن يزعجه، راويا له كل أنواع القصص عن البرازيل، التي حطّ فيها لزمن طويل. أحياناً، كان آل ديكونشي يأتون إلى منزلنا في مكتب البريد، وكانت رؤيتهم تسرّ رينوار دائماً. عديد من الصدقاء كانوا يجيئون على غير توقع، من نيس أو باريس، فكانوا يكسرون رتابة حياتنا. لكن كانت بهجة رينوار العظيمة، والحق لأمي ولنا أيضاً، حين كان يأتي لرؤيتنا دينان في الصباح، مثل جميع من في القرية الذين يزورون مسكننا.

كان طويل القامة وبدينا، وجهه مدوّر ومليء بالغضون، كما لو كان يضحك طوال الوقت، بشارب طويل. طباخ بالمهنة، تقاعد بعد مسيرة مهنية مجيدة، اختتمها في فندق سافوي في لندن، شراكة مع اسلوفييه. كان قد إدّخر نقوده، وقرر أن يمضي أيامه الباقية بالكسل. مثل كل المتبطلين، كان عنده أشياء لا تحصى يقوم بها. كان يذهب ليتفقد بستانه من أشجار الزيتون على سفح التل ؛ يسقي بقوله ؛ يطعم دجاجاته وأرانبه ؛ وينظف شقته بنفسه. كان والده، الذي يكنى بـ "Pilon" (الرِجْل الخشبية)، يعيش معه. كان العجوز نصف مشلول، ونادرا ما يغادر البيت. من الواضح أن اسم بيلون يعود تاريخه إلى حرب ١٨٧٠، وأطلق عليه بسبب خوفه من أن يدعى للتعبئة. يفترض، انه قال لزوجته، وقتئذ، (انهم يرسلوننا لنحارب البروسيين. لكنهم ليسوا حمقى مثلنا، فهم يكمنون في الغابات، وحين نتجمع في صفوف، يطلقون علينا مدافعهم، وها أنت برجل مقطوعة، وتضع ساقا خشبية لبقية حياتك!). عندما يخرج دينان إلى الحقول، يحمل معه دائماً سلة وبندقية. كان أبي يقول له، (إذاً، انت ذاهب لتصطاد؟). (لا)، كان يجيب، (أنا ذاهب لأجمع بعض العشب لأرانبي). (لكن لماذا البندقية؟). (أوه، من يدري!). بين

Twitter: @ketab_n

الحين والآخر كان يشتري أرنبا أو بعضاً من طيور السمنة من صياد مخالف ما، ويعود بها مزهوا بنفسه. (مسيو رينوار، سأطبخ يخنة أرنب لذيذة)، أو، (هل تحب طيور السمنة مع الأعشاب؟). (هل كنت تصطاد؟) يسأله أبي، واضعا فرشاته للحظة جانبا. عندئذ، كان دينان يعترف من أين حصل على صيده. كان يحب كثيراً أن يكون صياداً، لكن المشكلة أنه عندما يريد أن يطلق النار، كانت المخلوقات الصغيرة تثير شفقته، فيتردد ويخطئ هدفه ! كان يمكن لرينوار أن يغضب لو قوطع من أي شخص آخر، لكنه مع دينان، لم يكن يمانع. (مع بقية الناس كل شيء يخرب. ومعه كل شيء يبقى في رأسي، إلى ان ينبسط). كان يشعر بالأمان معه، مثلما يشعر مع غابريال، وأمي، والبير أندريه، وربما مع لابولانجيير. لكن لا مع أطفاله. اسئلتنا، كانت غير متوقعة وتطرح بنغمة متلهفة، تثير استياءه.

شيئاً فشيئاً، صار دينان، بدلاً من أن يعتني بحقله وبأبيه العجوز، يأتي لقضاء أغلب وقته مع رينوار. كان يسأل غابريال وأمي عن أكثر ما يسرّ أبي: (ألا تعتقدان ان المعلم سيحب طبقا لذيذا من يخنة اللحم؟). عندما يتكلم عنه، كان يدعوه بـ "le patron" (المعلم)، تماماً مثل غابريال والرسامين. حين يخاطبه مباشرة، كان يقول: (مسيو رينوار). وأمي التي ظلت تدعو زوجها بـ "رينوار"، كما كانت تفعل، أيام تعرفت عليه أول مرة في الكريميري في رو سان- جورج، كانت "La patronne" (المعلمة). يخنة دينان كانت تطهى ببطء لمدة يومين، (يجب أن تطبخ بحيث تذوب في فمك، والا لماذا تطبخ!). لم يكن يستخدم أبداً وصفات الطهاة الشهيرين. (إنها ملائمة لضيوف السافوي ! عدا أمير ويلز! فالأمر كان مختلفا معه. ذات يوم طهوت له عصيدة سمك القد!) لم يكن يحيد أبداً عن الوصفات التي تعلمها من

Twitter: @ketab_n

أبيه وأمه، وكان طهوه "كانياني"[١٠٧] على نحو أصيل. تعلمت منه أمي الشيء الكثير، كما إحتفظت زوجتي ببعض من وصفاته. كان في التعليم المطبخي للعائلة هو أستاذ صنوف الطعام الأصلية للميدي. ما كان يمتع رينوار هو ان هذا الرجل، الذي هو اللطف مجسدا، يتحول إلى طاغية حالما يقف أمام الطباخ. كان يحشد الجميع: غابريال لتقشير البطاطا، الطباخة لتنظيف السمك، وأنا أوقد النار. يثير زوبعة دائمة. أوامره سريعة ودقيقة، وتأتي بمفعولها. شاربه، بدلاً من أن يكون متدليا كما هي العادة كان ينتصب عاليا. عندما يصبح كل شيء جاهزا يعود دينان اللطيف ثانية. على المائدة، كان يجلس إلى جوار المعلم، كي يختار له أكثر الاطباق شهية.

حين توفي والده، دعا دينان أقاربه وأصدقائه إلى مأدبة عظيمة على الطراز المحلي. كان الميت مسجى في الغرفة المجاورة لصالة الطعام، وحوله النساء يصلين على ضوء الفتائل. ودينان، الذي كان يتمنى ان يطهو بنفسه لضيوفه الذين تكرموا بالمجيء لوداع أبيه، كان يبدو مقهورا. هطلت دموع غزيرة على وجهه، وشاربه الجميل تهدل على نحو يبعث على الأسى. بين وقت وآخر كان يذهب ويركع إلى جانب بيلون، وجسده كله يهتز بالنحيب. ثم يدفعه ضميره إلى أداء واجبه نحو ضيوفه فيعود إلى صالة الطعام. (أنت لا تأكل شيئاً ! أنت لا تشرب!). كان اصدقاؤه يكيلون له المديح على طعامه، (هذا الدجاج، لا أظنك طبخت أفضل منه من قبل! وهل هذا النبيذ من كرمتك على الروت دو لاكول؟) وإذ يحس بسعادة من رؤيته لضيوفه راضين كثيرا، يجلس ويبدأ بالأكل. (الدجاج لا بأس به...)، قال واحد من أبناء العم، فضحك الجميع، ومنهم دينان. كانت ضحكته منفلتة، كما دموعه. فجأة، تذكر، فحلّ التأوه محل الضحك، وركض ليركع ثانية إلى جانب الفقيد. لم يكن رينوار

---

(١٠٧) نسبة إلى كانيي.

Twitter: @ketab_n

حاضرا هذا السهر على جثة الميت، فصحته لم تتح له ذلك. أما أمي فكانت معوقة في باريس. ذهبت غابريال لتساعد في التحضيرات، ودعيت لحضور المأدبة. وهي التي وصفت للمعلم كرب دينان. روايتها جعلت تقديره وحبه لصديقنا يتعاظمان. (تفجع على أبيه، كما كان يفعل الإغريقي القديم).

كان رينوار يذهب اكثر من مرة للرسم في ملكية تقع على التل، في الضفة الأخرى لنهر كانيي. كان المكان فاتنا، بسبب اشجار الزيتون الجميلة والمزرعة الصغيرة التي أكملت المنظر الطبيعي. المكان يدعى ليه كوليت. كان بيت المزرعة يسكنه فلاح ايطالي اسمه بول كانوفا، وأمه العجوز كاترينا، وبغل صغير يدعى "ليتشو". كان بول أعزبا، وأمه تحبه على نحو غيور، فكانت تهدد أي فتاة ترسم عليه بإنتقام رهيب. كي يواسي نفسه، كان يشرب الخمر مع مواطنيه البيدمونتيين، وينضم اليهم في جوقة الغناء التي كان غناؤها مؤثراً جداً ويبدو مثل ابتهالات حين تسمعه في الليل. عندما كانت "الدمجانة" تفرغ، يسلون أنفسهم بالعراك مع بعضهم البعض. ثم كان باولو يعود مترنحا إلى ليه كوليت حيث تنتظره أمه والعصا في يدها، فتمنحه ضربا محترماً. كان أصدقاؤه يحافظون على مسافة كافية من البيت، لأنهم يهابون عصا السيدة العجوز، كما لعناتها. بول داكن البشرة جداً، قصير، بدين، نظيف، وله شارب. حيث لم يكن هناك ماء وفير في ليه كوليت ينزل إلى النهر للإغتسال. كاترينا لم تكن تستحم أبدا. كانت تعرف كل شيء عن القدرة العلاجية للأعشاب، وتعالج القروح العفنة بشبكات العنكبوت. علمت في ما بعد بأن "أفخاخ الذباب" هذه تحتوي على البنسلين. في تلك الأيام كانت أمي، التي تؤمن بالإغتسال مع الكثير من الماء، تحذرني من ان أدع كاترينا العجوز تعالج لي جرحاً.

ذات صباح أتى بول كانوفا ليرى أبي. إنه سمسار عقارات من نيس ينوي شراء المزرعة، ثم يقطع الأشجار ويعين عالم بستنة مختص بزراعة القرنفل.

Twitter: @ketab_n

العجوز كاترينا عاشت هناك لمدة أربعين سنة، وكانت تحس به منزلها الخاص، وتمنت أن تموت فيه. إقتلاعها من ليه كوليت سيكون كارثة عليها. مهما كان الأمر، أعلنت مسبقا نيتها بالتحصن في الداخل وتحمل الحصار إذا إقتضت الضرورة. ثم ألا يملك باولو بندقية من العيار الكبير؟ هو الذي قاتل في الحرب الأثيوبية سيقتل فردا أو اثنين من الجندرمة، وسوف لا يجرؤ البقية على لمس أمه.

طلب أبي من بابتيستان أن يأخذه إلى ليه كوليت، وعندما كان يستمع إلى هذه الحكاية، يحدق إلى أشجار الزيتون. كانت من أكثر الأشجار جمالا في العالم. إنتصبت هناك لمدة خمسة قرون. الرياح، الجفاف، الصقيع، التقليم والإهمال، كلها إجتمعت لتضفي أغرب الأشكال عليها. جذوع البعض منها تشبه آلهات غريبات، أغصانها مثنية ومجدولة في نماذج لا يمكن لأكثر المصممين جرأة أن يفكر بإبداعها. بخلاف أشجار الزيتون في إقليم ايكس، الصغيرة المهذبة من القمة لتسهيل جمع الزيتون، كانت هذه الأشجار متروكة لتنمو بحرية، وقد رفعت تاجها من الأوراق بشموخ وكبرياء نحو السماء. إنها أشجار كبيرة بعظمة نادرة، مؤتلفة برقة أثيرية، أوراقها الفضية تلقي ظلالا رقيقة، وليس ثمة من تباين حاد بين الضوء والظل. نحن ندين بأشجار الزيتون هذه للملك فرانسيس الأول، الذي أمر جنده بغرسها من أجل إبقاء الرجال مشغولين أثناء هدنة ما بين حروبه ضد الإمبراطور شارل الخامس. واحد من أصدقائنا، الكثير الاهتمام بتاريخ المنطقة، أكد بإيراد الحجة وجود اثنتين أو ثلاث من الأشجار زرعت قبل ذلك الزمن، ويصل عمرها إلى نحو الألف عام.

صعد أبي مسرعا إلى عربة بابتيستان. التفكير برؤية هذه الشجر النبيل متحولا إلى فوَط سفرة، منقوش عليها عبارة "ذكرى من نيس" كان لا يطاق. عند وصوله إلى البيت، قاطع أمي وديدان، اللذين كانا يلعبان الورق، وبعثا بهما في الحال لرؤية مدام ارمان، صاحبة ليه كوليت، لإقناعها بشراء

Twitter: @ketab_n

المزرعة. كانت امرأة فاتنة، عاجزة عن الصراع للتغلب على صعوبات الحياة العصرية. فرحت أن ترى أرضها تنتقل إلى أيدينا. (على الأقل الواحد يعرف من هو!) وهكذا إبتاع آل رينوار ليه كوليت.

لم يفرح لذلك حقا. فقد إنتهى الآن كل ذاك المرح والحيوية حول مكتب البريد، القيل والقال، تحيات اولئك الذين يدخلون لشراء الطوابع، دينان يتجول مرتديا خفين، كل حياة الناس الآخرين هذه، التي يستمتع بها، كانت تذكره بأنه جزء من عالم كان حيا. حتى ذلك الحين كان دائماً ما يضحك عندما يتفاخر أمامه الأصدقاء ببيوتهم المنعزلة. (الشيء الأكثر روعة عن دارتنا)، كما كانوا يزعمون بفرح، (هو أنك لا ترى أبداً أي أحد. فالأشجار حولنا من جميع الجهات، وما من بيت). فكان رينوار يجيبهم، (لماذا لا تعيشون في مقبرة؟ لكن حتى هناك سيأتي زائرون). كان يردد غالبا عبارة مونتيسكيو: (الإنسان حيوان إجتماعي). في نهاية حياته، كان يطلب مني مرات عديدة ان أعيد عليه قراءة حكمه الكاملة، (على هذه الأساس، يبدو لي أن الفرنسي رجل اكثر من أي رجل آخر. انه رجل par excellence (في غاية الجودة)، لأنه يبدو مخلوقا، على نحو فريد، للمجتمع.

تدبرت أمي امر ان لا يحبط حب رينوار للرفقة بإنتقالنا إلى ليه كوليت. كان البيت الذي بنته مقابل المزرعة الصغيرة التي تركت على حالها لم تمس، كبيراً بما يكفي ليسع اصدقاء عديدين. وبدأت بتقديم البوتافو ثانية، كل ليلة سبت، كما في الشاتو ديه برويار. في الواقع، كان كل شيء كما كان في الماضي، فعدا آل ريفيير، فولار، وآل دوران – رول، ظهر اصدقاء جدد مثل، موريس غانيا، وأولاد الاصدقاء الذين رحلوا، مثل ماري وبيير لوسترنغي. الكل كانوا يقطعون خمس عشرة ساعة بالقطار بدلاً من الصعود على أقدامهم هضبة مونمارتر في السابق. لكن ما ساعد أمي بأن تحيط رينوار بالحياة الضرورية جدّاً له، هو أنّها بقيت فلاحة حتى النخاع. إذ تمّ رعاية أشجار الزيتون،

Twitter: @ketab_n

وسقيت، وشذبت، لكن إلى الحد الذي لا يضر بها، ومن دون مبالغة، مخافة تشويهها فيغضب المعلم. شذبت اشجار البرتقال كذلك، وغرست اشجار مندرين، وزرعت كرمتين، وانشأت حديقة خضار، وبنت قن دجاج، وربّت طيوراً.

لكل تلك النشاطات، كان يجب توظيف أيدي عاملة لها. في موسم تفتح زهور البرتقال، كانت تأتي لجمعها فتيات من القرية، فكان هناك ذهاب وإياب متواصلين، ركض على الدروب صعودا وهبوطا، ضحكات واغان. صارت الحياة والحركة عظيمتان، كما في مكتب البريد، فأحب رينوار ذلك كله. في موسم الزيتون، كانت الفتيات انفسهن يأتين مع أعمدة طويلة ويقرعن الشجر، فيسقط الزيتون على قطعة قماش كبيرة من التريولين مبسوطة على الأرض. عندما يتجمع ما يكفي حمولة عربة، كنا نبدأ رحلة مع بول وليتشو. كان الطاحون ينتصب على ضفة البيال، وهو رافد من نهر كانيي. كانت طاحونة ماء قديمة جداً، بحجر رملي ضخم، مقطوع من الحجر المقتلع من الجبال. كانت أشجار الحور، الرمادية كما يحبها رينوار، تحجبها عن أشعة الشمس. وكان الجو باردا هناك، ورائحة الزيتون المهروس له طعم خياشيمي حاد. كنا ننتظر وقتا طويلاً قبل ان يصبح صالحا للأكل، كان زيت الزيتون يمرّ بعمليات مختلفة. في النهاية، كان يتاح لنا الحصول على ملء جرّة. العصرة الأولى للزيت هي الأفضل. كان السكان المحليون يدعونه بـ "الزهرة". ما زلت أذكر اللون القشي للزيت وصفاءه، كما أذكر الجرّة المصنوعة من خزف البيو، المطلية بأكسيد النحاس. كان أبيس يحب رسم هذه الجرار. كنا نعود إلى ليه كوليت مع ليتشو الذي يهرول أمامنا على الدرب، كما لو كان يقدّر توقنا للوصول إلى البيت. في تلك الأثناء، كان أبي أوقد النار، ينتظرنا في صالة الطعام. كنا نحمص على عجل قطعة خبز، ونسكب قليلاً من الزيت عليها وهي لا تزال حارة، ونضيف بعض الملح، ثم نمنح رينوار شرف أول من

Twitter: @ketab_n

يتذوّق الزيت لذاك العام. (وليمة الآلهة)، قال، بينما نحن نأكل، بالمقابل، الخبز الذي يتضوع عطرا.

كان يبدو ان الأمكنة المختلفة التي عاش فيها رينوار منذ طفولته تتطابق مع عبقريته. ليه كوليت، كان موقعا مثاليا في فترته الأخيرة. حتى انه هناك صارت له القوة، برغم ضعف صحته، على ممارسة القليل من النحت. (تحت هذه الشمس تنتابك الرغبة بأن ترى فينوسات من الرخام أو البرونز وسط الخضرة). جاء للعمل معه في النحت، النحات غينو اولا، ثم غيمون.

Twitter: @ketab_n

٢٩

مقتطف من رسالة كتبها رينوار إلى جورج ريفيير، بعد فترة قصيرة من الإستقرار في ليه كوليت:

... استلمت للتو رسالتك، وأنا سعيد بنجاح روني (في مباراة للفناء)... لكنني الآن في حداد على تولستوي. إذاً، في النهاية مات الفتى العجوز. كم عدد الشوارع والساحات التي ستحمل اسمه، والتماثيل التي ستقام له ! يا بخته !

صديقك رينوار

لم يكن أبي يضع اسمه الأول على الرسائل التي يكتبها إلى أصدقائه الحميمين. كانوا يستخدمون بينهم أسماء العائلة. قد تذكرون أن أمي ظلت محافظة على هذا التقليد.

بالمقارنة مع رسالته الشخصية، أرغب في أن أقتبس مقدمة رينوار الشهيرة لكتاب تشنينو تشنيني. كان كتبها بناءً على طلب من صديقه الرسام موتي الذي تعهد بإعادة طبع ترجمة هذا العمل الذي قام به والده، الذي كان رساماً أيضاً، وتلميذا لأنغره. يعود تاريخ تبادل وجهات النظر بين رينوار وموتي بشأن المقدمة إلى العام ١٩١٠.

Twitter: @ketab_n

تشنينو تشنيني، الذي ولد في توسكانيا في عام ١٣٦٠، هو الفنان الوحيد من الكواتروتشنتو (القرن الخامس عشر)، الذي وصل الينا بحثه عن فن الرسم، الذي لم يقدم فيه أفكارا دقيقة عن تقنية الرسم فحسب، بل وعن حياة فناني تلك الفترة ايضا. كان رينوار يشعر بالإحراج، فهو وإن كان معجبا بطرق تشنيني، لكنه كان يعرف جيدا بأن هذه الطرق، لو طبقت في زمننا من قبل فنانين ذوي ذهنية مختلفة، فلا يمكن أن تتمخض عن نتائج حسنة. كان يريد أن يرضي موتي، وفي الوقت نفسه، أن لا يقول شيئاً يتعارض مع أعمق قناعاته الشخصية. سأنقل المقاطع الأكثر تميزا.

"عزيزي مسيو موتي،

عزمك على نشر طبعة جديدة للترجمة التي أنجزها والدك لكتاب تشنينو تشنيني، هي بالطبع تعبير عن البرّ بوالدك، كما هي تقدير جدير للغاية لواحد من أكثر الفنانين أصالة وموهبة في القرن الأخير. هذا في حد ذاته، سيكون كافيا لنشعر بالإمتنان لك. لكن اعادة نشر هذا البحث لها معنى أكبر أهمية، وجاءت في الوقت المناسب، وهو شرط جوهري لنجاحها.

الإكتشافات الكثيرة جدّاً التي حدثت في المئة سنة الأخيرة، جعلت الناس مبهورين، لكنها جعلتهم أيضاً ينسون أن آخرين عاشوا قبلهم. من الضروري، كما أعتقد، أن نذكرهم، أحياناً، بأن لديهم أسلافا لا ينبغي أن يُزدروا. نشر هذا العمل يسهم في هذه المهمة.

... بلا شك، سيكون هناك دائماً فنانون، مثل أنغره وكورو، كما كان هناك رافايل وتيتيان، لكن هؤلاء إستثناءً لأي باحث يتجرأ على الكتابة عن فن الرسم. اولئك الفنانون الشباب الذين يتجشمون عناء قراءة كتاب تشنيني الذي وصف فيه مؤلفه الطريقة التي عاش فيها معاصروه، سيلاحظون ان الأخيرين لم يكونوا كلهم عباقرة، لكنهم كانوا دائماً فنانين مدهشين.

Twitter: @ketab_n

خلق فنان جيد كان هدف تشنيني الوحيد. والدك فهم هذا على نحو تام.

... أتصور، ان الفنان الذي حلم بإعادة الحياة إلى فن الفريسكو، سيحسّ بفرح عظيم بترجمة كتاب تشنيني. فسيجد فيه حقاً التشجيع على مواصلة جهوده بتجديد الفن، بصرف النظر عن الصعوبات التي تنشأ كنتيجة لا بد منها.

والدك، الذي يمكن أن يقال عنه كما قيل عن الشاعر، انه جاء متأخرا جدّاً إلى عالم قديم جداً، كان أسير وهم رائع. آمن بأنه من الممكن إعادة ما أنجزه الآخرون قبلنا بقرون عديدة. إنه لم يكن جاهلا بواقع ان التأليفات الزخرفية لأساتذة الفن الايطاليين ليست عمل رجل واحد بل مجموعة رجال، عمل ورشة، كان فيها أستاذ الفن الروح المحركة. وذلك التعاون هو الذي نأمل أن نراه من جديد، من أجل ولادة تحف فنية جديدة.

البيئة التي عمل فيها والدك، أبقت حلمه حيا. في الواقع، انه كان ينتمي إلى جماعة من الفنانين الشباب الذين عملوا تحت ظل انغره، وهذه الجماعة الأخوية، التي كانت لا تشبه ورشات عصر النهضة الا بالمظهر فقط، لأن هذه لا يمكن ان تعيش الا في زمنها الخاص، وزمننا غير مهيأ لإعادة تشكيل أندية مثيلة.

... هذه الصنعة، لا نعرفها بالكامل أبداً، لأنه لا يمكن لأحد تعليمها لنا، بما أننا انعتقنا من التقاليد...

والحال أن هذا الصنيع لرسامي عصر النهضة الايطاليين كان صنيع أسلافهم في كل العصور نفسه.

لو كان الإغريق خلفوا أبحاثاً عن الرسم، فكن على يقين بأنه كان سيتطابق مع بحث تشنيني.

Twitter: @ketab_n

كل فن الرسم، منذ رسوم بومبي، التي أنجزها الإغريق (ما كان الرومان الثرثارون والنهابون، بلا شك، سيخلفون شيئاً لولا الإغريق، الذين فتحهم الرومان لكنهم عجزوا عن تقليدهم)، حتى رسوم كورو، مروراً ببوسان، كان يبدو ناشئاً من الملون نفسه. في ما مضى، كان جميع التلاميذ تعلموا هذه الطريقة في الرسم على يد أساتذتهم. عباقرتهم، إن وجدوا، وفعلوا الباقي.

... التمهن الصارم، المفروض على الرسامين الشباب، لم يمنعهم أبداً من امتلاك الأصالة. رافايال، كان تلميذاً لبيروجينو، لكنّه غدا في آخر الأمر، رافايال الرباني.

لكن، من أجل تفسير القيمة العامة للفن القديم، يجب التذكير بأنه أكثر من تعاليم الأساتذة المسلّم بها، كان هناك شيء آخر، أفعم روح معاصري تشنيني: الشعور الديني، وهو أكثر مصادر الهامهم خصوبة. وذلك ما أضفى على كل أعمالهم ميزة مضاعفة من النبالة والبراءة، وانقذهم من التفاهة والمبالغة.

مفهوم "المقدس" بين الناس الراقين، تضمن دائماً معنى النظام، والهرمية، والتقاليد. ولو سلّمنا بأن الناس تخيلوا المجتمع الفردوسي بصورة مجتمع أرضي، فإنها حقيقة أيضاً بأن هذا النظام المقدس مارس بدوره تأثيرا لا يستهان به على الأذهان.

... لو كانت المسيحية إنتصرت بشكلها البدائي، لما كان لدينا كاتدرائيات، أو نحت، أو رسم.

من حسن الحظ، لم يكن كل آلهات المصريين والإغريق ميتين، انهم هم الذين أنقذوا الجمال، حين إندسّوا في الدين الجديد.

... لا بد انه لوحظ في هذه الأثناء بأنه مع الشعور الديني، هناك عوامل

Twitter: @ketab_n

أخرى أسهمت بمنح الحرفيين في سالف الزمان الخواص التي جعلت منهم لا يضاهون.

هذه هي، على سبيل المثال، القاعدة في صنع شيء، منذ ابتدائه حتى تمامه، من قبل العامل نفسه.

من هنا، يمكنه إذاً أن يضع جزءا كبيراً من نفسه في عمله، ويهتم به، لأنه ينجزه بنفسه كليا. الصعوبات التي كان عليه التغلب عليها، والذوق الذي كان يريد أن يظهره أبقت ذهنه يقظا، والنجاح ملأه بالفرح.

عامل الاهتمام هذا، وهذا التحريض العقلي اللذان وجدهما الحرفيون في عملهم، لم يعودا موجودين.

الآلة وتقسيم العمل حولا الحرفي إلى مجرد مأجور آلي، وقتلا فرحة العمل.

... مهما كانت الأسباب الثانوية لتدهور مهنتنا، فإن السبب الرئيسي، في رأيي، هو غياب المثال. أغلب اليد الماهرة، لم تكن سوى خادمة للعقل. كذلك، الجهود المبذولة لإعطائنا حرفيين مثل اولئك الذين كانوا في الماضي، ستكون، كما أخشى، عقيمة، حتى لو كانت المدارس المحترفة ستنجح بتخريج حرفيين مهرة تربوا على تقنية حرفهم، فإنه لا شيء سيخرج منهم ما لم يكن لهم مثال.

إذاً، نحن بعيدون جداً، كما يبدو، عن تشنينو تشنيني وعن رسمه. لكن، لا، فالرسم مهنة مثله مثل النجارة والحدادة، وكلها تخضع للقواعد نفسها.

أولئك الذين قرأوا الكتاب بعناية، والذي ترجمه والدك بشكل جيد، سيقتنعون بهذا. علاوة على ذلك، فإنهم سيجدون فيه سبب إعجابه بالأساتذة القدماء، كما سيجدون تفسيرا لعدم وجود ورثة لهم.

Twitter: @ketab_n

"صدقني، عزيزي مسيو موتي".

لا حاجة للقول، انه بعد أن أثنى على العمل المنجز بشكل جماعي، وعلى هذا الذوبان في جمع الحرفيين المجهول، عاد رينوار إلى مرسمه، (للشروع وحده بعمله الخاص، بعيدا عن مصادر الإزعاج). كانت هناك نقطة واحدة في الرسالة غالبا ما أشار إليها في أحاديثه: أن المكافأة الوحيدة للعمل هي العمل نفسه، (لا بد للمرء أن يكون ساذجا حتى يعمل من أجل المال. الإنهاك العصبي ينتشر بين الأغنياء أكثر من الفقراء. من أجل المجد ؟ في سبيل هذا عليك أن تكون مغفلا. الرضى عن الإنجاز؟ حين أنهي لوحة، أتوق إلى البدء بأخرى).

نوع آخر من الإعتقاد، معبر عنه في المقدمة أعلاه، وهو من المستحيل إنتاج أي شيء جيد في ظل تقسيم العمل. لوحة، كرسي، بساط مزدان بالرسوم، لا تهمه الا اذا كانت تعكس شخصية رجل واحد. كان يطيب له أن يردد بأنه اذا كان المرء يدفع ثروة مقابل خزانة من طراز لويس السادس عشر، بينما لا تساوي عنده خزانة جديدة من محل دوفايل سو واحدا، فهذا لأنه، في الأولى، يتعرّف منذ البدء على يد الحرفي في كل ضربة من أزميل الحفر، في حين، في الثانية، لا يرى الا أيدي مجهولة. مهما كانت قدرات الحرفيين الإختصاصيين التي تنتج العمل الواحد، فإن النتيجة هي فقط نسخة من عمل المصمّم. عبقرية الحرفي تختفي لأنه يصنع ما لم تصممه يداه. العنصر الوحيد في اعمال الفن، الذي بدا لرينوار غير مهم، هو الفكرة العامة. (كما كان الحال مع شكسبير، إذ كان يستعير مواضيعه من أي مصدر يلائمه). وفي زمن أقرب، قال جيد: (في الفن، الشكل فقط هو ما يعتد به).

اللوحات التي رسمها رينوار تبعثرت في أرجاء العالم، عبّر تجارة بولدوران- رول وامبريوس فولار، وفي ما بعد آل بيرنهايم. كان "العجوز دوران" ترك إدارة أعماله إلى ولديه، جوزيف وجورج، والأخير، كان وكيل

Twitter: @ketab_n

مبيعات في امريكا. بالنسبة لرينوار، لم يكونا تاجرين بل صديقين، وتقريباً بمنزلة أولاده. أما فولار، فكان تماماً واحداً من العائلة. بالإضافة إلى نجاحه التجاري الكبير، أصبح ناشرا للكتب النادرة، هيأ للحرفيين الموهوبين الوسائل، وفوق كل شيء، الوقت لإتقان فن النسخ الفوتوغرافي للوحات. أمامي نسخة من لوحة لسيزان مصنوعة آليا إلى حد ما، أنجزها كلو، هي بلا شك قريبة للأصل كما لو صنعت بيد بشرية. أنعش فولار الطباعة باليد من اجل طبع أعمالهم، وجمع تجاربه وإنطباعاته في كتب، كان منها أول كتاب قرأه رينوار عن صديقه سيزان.

كان أبي معجبا بالطباعة باليد، وبعملية إحياء طبع الأعمال الكلاسيكية في الرسم. كان يعارض صوراً طبق الأصل من اللوحات: (إذا بدأوا ببيع تقليدات متقنة لفيرنيس مقابل إثنا عشر فرنكا ونصف الفرنك، فكم سيكون سعر الرسامين الشباب!). عن كتب فولار قال: (إنها تصف على نحو يثير الاعجاب رجلا رائعا: شخص اسمه فولار. في ما يخص سيزان، لدينا لوحاته التي تحكي عنه أفضل مما تفعل كل كتب سير الحياة). ربما كان سيقول الكلام نفسه عن هذه الأسطر التي أكتبها عنه الآن. لكن هذا لا يمنعني من المضي قدما. أنا لست الأول أو الأخير الذي يحاول أن يقدم وصفا عنه. مجموع جهودنا، يعَد تكريما اكثر منه تفسيرا لفنه، وهذا التكريم، الصادق، لا يمكن أن يثير إستياءه.

أما آل بيرنهايم، فأحَبهم أبي لنزاهتهم العميقة ـ كانوا اول من أعلمه بإرتفاع أسعار لوحاته ـ وللطفهم، لكن أيضاً، وبصدق، لبذخهم. رأينا كيف كان مأخوذا بالترف الذي كان يظهره الآخرون. أما هو نفسه، فكان يفضل وجبة من البازلاء والبطاطا على مأدبة من الكافيار. كانت قصة طويلة، أن يجعله أحد يغير معطفه القديم المتهرّئ عند المرفقين. لكن مرأى رقبة جميلة بارزة من فراء السمور، تزينها لآلئ وردية، يملؤه بالحبور. لم يكن يعجبه

Twitter: @ketab_n

أصحاب الملايين الذين يركبون الترام أو الباص، لأنه كان يعتقد، ان الواجب الأول للمليونير، هو ان ينفق ملايينه. كان ينفر من مثال ملك بلجيكا، الذي كان يقال عنه، انه يعيش مثل شخص من الطبقة الوسطى الدنيا، يحمل مظلته بيده عندما تمطر، ويراجع شخصيا نفقات طباخه. كان يرى في هذا اشارات منذرة إلى نهاية مجتمع لم يعد له أي فخر، حتى بالمحافظة على المظاهر الكاذبة الخاصة به.(الملك)، قال، (يجب أن يخرج بعربة فخمة، وبتاج على رأسه، ويحاط بمحظيات شابات متألقات)، كان آل بيرنهايم يملكون قصرا رائعا، وحديقة خلابة، ونصف دزينة من السيارات، ومنطادا بمحرك، وأطفالا وسيمين وزوجات جميلات، بشرتهن (تسلب الضوء).

شعر آل بيرنهايم بحزن صادق عندما رأوا حالة رينوار الصحية تدهورت إلى الأسوأ. اثناء إقامتنا في باريس في ١٩١٢، قرروا أن يحاولوا العثور على إختصاصي، قد يكون قادرا على مساعدته. من أجل هذا الغرض، قاموا بتحريات على نطاق واسع في كل أرجاء اوربا، وبعد فرز صارم، إختاروا طبيبا عظيما بحق، كان يمارس الطب في فيينا. إرتاح أبي لهذا الطبيب الذي كان مفعما بالحيوية. كانت له عينان صغيرتان حادتان، ولا يفهم شيئاً في الرسم. وعد ابي بأنه سيعيد إستخدام قدميه خلال أسابيع قليلة. إبتسم رينوار، لا لأنه شكاك، بل لأنه حكيم. كان يعرف انه حلم ان يرى نفسه قادرا على التجول في الريف في البحث عن فكرة، وأن يدور حول قماش لوحته يركزعلى عمله من خلال الحركة. وعد بأن يتبع أوامر الطبيب بأمانة، فبدأ هذا بنظام حمية شديد، وقام بمعجزات. في نهاية الشهر أحس رينوار بحيوية أكثر. ذات صباح، وصل الطبيب، وقال لأبي، إن الوقت قد حان، وأنه سيجعله يمشي.

كان رينوار في مرسمه، جالسا أمام حامل لوحته، جاهزا للرسم. كان ملونه النظيف يستريح على ركبتيه، وعيناه تتبعان الخط المثالي الذي يعين حدود جسد الموديل. دفع بابتيستان الكرسي المتحرك، كي يقف الطبيب أمام

Twitter: @ketab_n

المريض. أمي، و"ذلك الرجل"، والموديل، راقبوا المشهد، كما فعلت عائلة الرجل المشلول في الكتاب المقدس، حين قال له المسيح، انهض وامشِ.

رفع الطبيب أبي من كرسيه، فوقف رينوار لأول مرة منذ سنتين. كان ينظر للأشياء ثانية بنفس مستوى النظر للآخرين. وأخذ يحدق حوله بسعادة عظيمة. رفع الطبيب يداه عنه، وتركه يعتمد على قوته الخاصة، فظل أبي واقفا ولم يسقط. أحست أمي، ومثلها بابتيستان والموديل، أن قلوبهم تخفق بسرعة.ثم طلب الطبيب من أبي أن يمشي، ووقف أمامه وذراعاه مبسوطتان، مهيأ لإمساكه إن تهاوى. سأل أبي الطبيب ان يتراجع قليلاً، وحشد كل ما يملك من قوة في بدنه، وخطا خطوته الأولى. بدا على أمي والإثنين الآخرين انهم نسوا جسدهم الفاني، وأن كيانهم كله موجه نحو تلك القدم، وهي ترتفع بألم من الأرض، التي كانت تجذبها نحوها مثل مغناطيس، خطا أبي خطوة أخرى، وأخرى، وبدا كأنه يقطع خيوط قدره. كان كما الماء يبلغ الصحراء، كما الضوء ينبعث من نجم في الليل. طاف أبي حول حامل اللوحة وعاد إلى كرسيه، كرسي العاجز. وما زال وقفا قال للطبيب: (لم أعد أقوى. أستهلكتُ كل قوة إرادتي، ولم يبق منها شيئاً للرسم. بعد كل حساب)، قال بغمزة ماكرة، (لو خيرت بين المشي والرسم لما ترددت باختيار الثاني). ثم جلس، ولم ينهض ثانية أبدا.

من اللحظة التي إتخذ فيها هذا القرار المهم، باتت حياة رينوار عرضا من عروض الأسهم النارية حتى النهاية. برغم أن ملونه بات أكثر فأكثر قتامة، فإن أكثر الألوان تألقا، أكثر التباينات جرأة نشأت منه. كان الأمر، كما لو ان حب رينوار لجمال هذه الحياة، التي توقف عن الإستمتاع بها جسديا، تدفق من كل كيانه المعذب. كان متوهجا، بالمعنى الحقيقي للكلمة. أقصد، كنا نشعر بأن رعشات تصدر من فرشاته، وهي تداعب قماشة اللوحة. كان حرّا من كل النظريات، من كل المخاوف. أثناء سنواته الأخيرة، شهد مجموعات جديدة

Twitter: @ketab_n

من مدارس الرسم تظهر، كاندنسكي وأتباعه مهدوا الطريق لنوع أصيل في الفن. تعاطف رينوار مع توجهات المدرسة التجريدية، في الوقت الذي كان فيه مدفوعا بقوة لأن يحل نفسه من الموضوع وينكر المظهر إجمالا. تواضعه فقط، هو الذي حال دون ذلك. كان راضيا تماماً بالتعبير عن أعمق مشاعره عبّر الأشكال القابلة للإدراك، مثل منظر طبيعي أو باقة زهور أو صبية. كان هذا ملائما حقاً لقول ما كان يعرفه عن العالم. ورينوار كان يعرف الكثير. كل المعرفة التي إكتسبها في بحثه عن الحقيقة، وفي سعيه المتواصل بإختراق الأقنعة المتراكمة ببلاهة البشر، هي الآن بين يديه مثل كنز نفيس، تركز في جوهرة واحدة، مثل مصباح علاء الدين. لذا سار بخطى عملاقة نحو القمة، حيث يصبح الروح والجسد واحدا، عارفا بوضوح بأنه ما من رجل حي يمكنه بلوغ هذه الذرى. كل ضربة من ضربات فرشاته، هي شاهد على هذه المقاربة الساحرة للرؤيا. عارياته، زهوره أعلنت لناس هذا الزمان، المنهمكين بالتدمير، عن رسوخ التوازن السرمدي لعالمنا.

اناس معينون، كانوا ممتنين جداً منه لهذه الثقة بنفسه، بحيث انهم كانوا يحجون إلى ليه كوليت ليعبروا له عن ذلك. كانوا يأتون من أماكن بعيدة، ولأنهم فقراء، كانوا يقطعون الرحلة في ظروف صعبة. كان نباح زازا، كلبنا الكبير، ينذرنا بأي قدوم غير عادي. كان بيستولفو، السائق الإيطالي الشاب، يفتح الباب، فنجد رجلا إسكندنافيا أشقر بلحية واقفا أمامه، ملابسه كلها مجعدة، أو يابانيا، أنيق الملبس. كانت أمي تطلب منهم الدخول إلى الصالة حيث تقدم غران لويز الطعام والنبيذ. لكنهم لم يكونوا بحاجة إلى الغذاء. كان أبي يدعوهم، بحذر، إلى الدخول إلى المرسم، فيبقون هناك لوقت طويل من دون أن يتفوهوا بحرف واحد، بما أنهم يتكلمون لغة مختلفة.كنت أحضر بعضاً من هذه اللقاءات. كانت لحظات غنية. أذكر رجلا يابانيا، كان أتى ماشيا على قدميه من الحدود الايطالية، وفي جيبه خريطة مليئة بالإشارات، اخذها من حاج سابق، فأرانا إياها. كان مؤشر فيها الطرق التي تؤدي إلى ليه

Twitter: @ketab_n

كوليت، مع أسهم صغيرة تدل على المرسم الصغير، غرفة رينوار، الفرن الذي يصنع فيه الخبز، وإسطبل البغل. واحد من هؤلاء الزوار، أقام لمدة طويلة في كانيي، واصبح صديقا عزيزا جداً لنا. كان هو الرسام الياباني اوميرا.

الرسامون هم من بين الباحثين عن حجر الفلاسفة، هؤلاء الذين إقتربوا من طبيعة سر التوازن الكوني. من هنا نشأت أهميتهم في الحياة العصرية. أنا أعني الرسامين الحقيقيين، العظام. العلماء، مثل الرسامين، يجرون وراء سر الحياة، والحقيقيون، العظام منهم، يخرقون ما وراء المظاهر. وبحثهم نزيه أيضاً، وهو يعني شيئاً بسيطا جداً: إعطاءالبشر الجنة الأرضية ثانية. الفرق بين هذين النوعين من الباحثين، هو أن الرسامين يخطبون ود الطبيعة، بينما العلماء يغتصبونها. الرسامون، يعرفون بأن الحاجات المادية هي نسبية، وبأن حاجات الروح مطلقة. العلماء، يحاولون ان يوازنوا كفتي الميزان، يراكمونهما بالمزيد والمزيد من الحمل، في كفة رغباتنا المادية، وفي الأخرى إشباع رغباتهم. انها عملية لا نهائية، حيث يكون وزن كفة الرغبات دائماً هو الأثقل. من جهة أخرى، مع الرسامين، النتيجة دائماً ثابتة. الإشباع المستمد من "نقوش لاسكو الأثرية"[١٠٨] مساو لذلك المستمد من رسم حياة ساكنة لبراك. إكتشاف مدام كوري، فاقه أعمال تيلر، التي، بالمقابل، تجاوزتها بمراحل أعمال اولئك الذين خلفوه، وتيلر يعرف هذا جيدا. تواضع العلماء الحقيقيين أشبه بتواضع الفنانين الحقيقيين. هذا السعي وراء أسرار الطبيعة يسوّغ وجود كل المختبرات، المتاحف الفاخرة، التجارب المكلفة، ومبيعات اللوحات بأسعار هائلة. معظم جاممي اللوحات لا يعرفون حقاً الإمكانيات الرهيبة المرافقة لإمتلاك عمل من أعمال الفن. رسم عظيم بإمكانه أن يغير كامل رؤية الإنسان عن الحياة. مع ذلك، أغلب الناس سعيدون بالتتبع

---

(١٠٨) لاسكو، موقع كهف في الدوردونيه في فرنسا، جدرانه مزينة برسوم حيوانات يعود تاريخها إلى عهد مريم المجدلية.

Twitter: @ketab_n

الأعمى لخطى القلة الذين يعرفون حقا.. اولئك الذين يمتلكون "الكلمة السحرية"[١٠٩] هم قلة متباعدة، وسيبقون هكذا دائماً. رينوار، ربما، واحد من القلة الذين وضعوا هذه الكلمة السحرية في متناول عدد كبير من الناس. كان يحب بني البشر، والحب يصنع المعجزات.

توجد صور فوتوغرافية مختلفة لرينوار، التقطت له في نهاية حياته، بورتريهات مكدرة بعدسة البيرآندريه، وتمثال نصفي أنجز في يوم وفاته بيد غيمون. كنت قدمت فكرة عن مظهر جسده في هزاله الرهيب. أصبح جسمه أكثر فأكثر تحجرا. يداه، بأصابعها التي انثنت إلى الداخل، لم تعد قادرتين على الإمساك بأي شيء. قيل، وكتب أيضاً، بأنّ فرشاته كانت مثبتة إلى يده، هذا غير دقيق تماماً. الحقيقة، كان جلده أصبح رقيقا جداً، بحيث ان أي اتصال مع المقبض الخشبي للفرشاة كان يجرحه. لتفادي هذا العائق، كان يدس قطعة صغيرة من القماش في باطن كفه. أصابعه الملتوية كانت تقبض على الفرشاة أكثر مما تحملها. لكن حتى آخر نفس له في الحياة، ظلت يداه ثابتتين، كيدي رجل شاب، وبصره حادا، كما كان أبدا. ما زال يمكنني رؤيته يضع نقطة من اللون الأبيض لا تتعدى حجم رأس ريشة قلم حبر على قماشة لوحته، ليبرز إنعكاسا في عين الموديل. كانت الريشة تبدأ على نحو متمهل، مثل رمية رام بارع، مصيبة نقطة الهدف. لم يكن يريح ذراعه أبداً على أي مسند ؛ لم يكن يستخدم أبداً مسطرة للتأكد من نسب خطوطه. كنت أراه يرسم منمنمة، أو بورتريه لأخي كوكو، فكان يتردد للحظة للتأكد من نعومة الفرشاة، ثم يجلس للعمل مثلما كان يرسم أي لوحة أخرى. كنا نحتاج إلى عدسة مكبرة كي نتبين التفاصيل في الشبه المتقن للموديل. كان يرتدي أحياناً نظارات للقراءة، لكنه كان يرتديها لحماية عينيه. عندما يكون على عجل،

---

(١٠٩) إشارة إلى عبارة ماوغلي، ((إننا من دم واحد، أنا وأنت))، التي كانت تمكنه من الإتصال مع كل مخلوقات الغابة.

Twitter: @ketab_n

أو عندما يضيّع نظارته، كان يتدبر أمره جيداً بدونها. كلما سمح الجو، كنا، في المساء، نحب الجلوس على الشرفة ونراقب الصيادين في كرو- دو- كانيي وهم يعودون مبحرين إلى الميناء، وكان أبي، يكتشف دائماً أول قارب يدخل الميناء.

كانت الحياة في ليه كوليت مكيّفة حسب مرض رينوار. كانت غران لويز، طباختنا (قوية مثل حصان)، وهي الوحيدة التي ترفعه من السرير وتجلسه في كرسيه ذي العجلات. بين الحين والآخر، كان يوضع في السيارة، التي بات يقودها بيستولفو الذي أخذ محل بابتيستان. أمي، صارت بدينة جداً، وثقلت حركاتها كثيراً وكانت نادرا ما تلبس غير عباءتها الحمراء المنقطة بالأبيض. فحصها الدكتور برات، وأعلمها بأنها مصابة بداء السكري، وأن أيامها أصبحت معدودة. لم يقلقها الأمر كثيراً، وطلبت ببساطة من الدكتور برات ان لا يخبر أحدا، وبقي رينوار جاهلا بالأمر لوقت طويل. كان أخي كلود يقضي أغلب وقته موديلا لأبي، وغابريال كانت تتهيأ للزواج من الرسام الامريكي كونراد سليد. لم تكن موجودة في كانيي، حين إندلعت حرب ١٩١٤. أكثر زوارنا المخلصين، كانا ألبير آندريه وموريس غانيا. هذا البرجوازي العظيم إستأنف تقاليد العجوز شوكيه. مشاعره عن الرسم كانت مذهلة. كلما دخل إلى المرسم يقع نظره فوراً على اللوحة التي كان رينوار يعتبرها الأفضل. (كانت له بصيرة!) كما يؤكد أبي. قال أبي، أيضاً، إن جامعي اللوحات الذين يفهمون شيئاً عن اللوحات هم أندر من الرسّامين الجيّدين. كان ماتيس يأتي أحياناً لرؤيته. ابن سيزان، بول، تزوج من اندريه واستقر بجوار ليه كوليت. نادراً ما شاركت في كل هذه الأنشطة، إذ كنت منشغلاً بدراستي. بعد أن كنت أنهيت دراسة الفلسفة، بدأت بدراسة الرياضيات لسنة واحدة، وبعدها جُنّدت في سلاح الفرسان. في شهر آب من العام التالي، إندلعت الحرب.

ذهب رينوار في السيارة إلى باريس، وكانت أمي سبقته إلى هناك، بأمل

Twitter: @ketab_n

أن ترى أخي بيير للمرّة الأخيرة قبل أن يذهب إلى الجبهة. لكنها لم تلحق به، ووجدت رفيقته فيرا سيرجن مع طفل رائع، لم يكن سوى كلود ابن أخي. أخذت أمي الإثنين معها إلى ليه كوليت، حيث مكثا حتى أصيب بيير بجروح خطيرة. إذ سرّح من الجيش وهرعت فيرا تلازم سريره. أفلح أبي في العثور على فوج سلاح الفرسان الذي أخدم فيه، في مدينة صغيرة في شرق فرنسا، وكنا ننتظر الرحيل إلى الجبهة. أقام الكولونيل ماير مأدبة غداء على شرفه، وسُمح لي بحضورها. منظر كل أولئك الفتيان في ثياب المعركة أراح رينوار من كربه. قال لي: (نحن كلنا الآن واقعون فيها. سيكون أمراً غير مشرّف أن لا نبقى مع الآخرين). حملته إلى سيارته، وكان ألبير اندريه معه. حين وصلا إلى انحناءة الطريق، طلب رينوار من بيستولفو أن يتوقف، وبمساعدة البير اندريه، تدبر أبي أمره كي يلتفت ولوّح لي عبر زجاج نافذة السيارة بإشارة وداع.

لم يتسنَ لي رؤيته ثانية حتى إصابتي بالجراح التي مكّنتني من الانضمام اليه في بولفار روشيشور، حيث جمعت معظم مادة هذا الكتاب.

حين علمت أمي بأني جرحت، استطاعت الحصول على إذن مرور وجاءت لتراني في مستشفى جيراردمير. ونما إلى علمها أنّهم ينوون بتر ساقي اليسرى التي حوّلتها الغرغرينا إلى اللون الأزرق الكوبالتي. عارضت إجراء العملية بكل قواها، الأمر الذي جعل الطبيب العسكري يتخلّى عن الفكرة. واستبدل هذا الطبيب بالبروفيسور لاروين الذي عالج الغرغرينا باستخدام نظام غريب بنشر الماء المقطّر على رجلي، ولم يُخفِ على أمي بأني قد لا أنجو من البتر. حالما رأت أمي أني تجاوزت مرحلة الخطر، قفلت راجعة إلى كانيي، وعاجلها الموت.

في بداية العام ١٩١٦، كنت طياراً في سرية استطلاع. كانت حظائرنا مقامة في جزء من شمبانيا، يدعى بوبيوز، بسبب العشب الجاف، الذي يسمى

Twitter: @ketab_n

بويي، والذي ينمو في تلك المنطقة شبه الصحراوية. ذكّرني الهواء المنعش هناك بايسوي. فكرت بتلك النزهة التي قمنا بها إلى قرى ريسي، حيث شرب أبي النبيذ الزهري. في ساعة توزيع البريد، إستلمت رسالة عليها دمغة بريد كانيي، وعلى الظرف اسم غران لويز. في داخله كتبت كلمتان بخط مرتعش: (ابوك. رينوار) ومع الكلمتين زهرة بنفسج صغيرة، قطفت من حوض الغسيل، تحت أشجار الزيتون.

بعد الهدنة، حين صار بإمكاني العودة إلى كانيي والعيش مع أبي، وجدت البيت موحشا. أشجار البرتقال والكرمات تحولت تقريبا إلى برية. بدا الأمر، كما لو أن الناس والشجر في حداد على أمي. كانت السيارة مركونة في المرآب، تغطيها طبقات كثيفة من التراب. بيستولفو، أستدعي إلى الجيش في ايطاليا، فكان الفتى المسكين حزينا وهو يغادر البيت. كان لا يني يردد: (أنا لا أعبأ بما يحدث لترنت أو تريست)، ولم نره ثانية أبدا. أصدقاؤنا الباريسيون، لم يفيقوا من خدر سنوات الحرب بعد، ولم يتحركوا من بيوتهم. دينان، كان مريضا جداً، ولم يعد يقوى على صعود الدرب إلى ليه كوليت. لحسن الحظ، كان بعض الأصدقاء يأتون لمساعدة رينوار في نهاية النهار. بنييني والدكتور برات كانا من بين الأكثر حضورا. بنييني، الموظف في الخدمة المدنية، الصديق المرح والحكيم، حاول أن ينظم شؤون منزلنا التي أهملت بعد وفاة أمي. قال أبي عنه للدكتور برات: (رؤية عينيه المتألقتين وحدها تجعلني أشعر بأني أحسن حالاً).

كلّما زادت معاناته رسم رينوار أكثر. كان بعض الأصدقاء عثروا له على موديل شابة، اندريه، التي تزوّجت منها، بعد وفاته. كانت في السادسة عشرة من العمر، حمراء الشعر، ريّانة، وبشرتها (تسلب الضوء) أفضل من أي موديل آخر حصل عليه رينوار في حياته. كانت تغنّي، بنشاز بعض الشيء، الأغاني الشائعة في تلك الأيام، وتروي القصص عن صديقاتها، وكانت مرحة، وبعثت

Twitter: @ketab_n

في أبي دفقاً من الحياة بصباها المتفتّح. مع الورود، التي نمت تقريباً بريّة في ليه كوليت، وأشجار الزيتون العظيمة، بإنعكاساتها الفضية، كانت أندريه واحدة من العناصر المفعمة بالحيوية التي ساعدت رينوار في نهاية حياته على نقل صيحة الحب المدوّية على قماشة لوحته.

لياليه كانت مرعبة. كان من النحول بحيث أنّ أقلّ احتكاك لجسمه بالفراش يسبّب له قروحاً. جلب له الدكتور برات ممرّضة متدرّبة. لم يكن رينوار يحب كلمة "ممرّضة"، فكان يدعوها مازحاً "دكتورة". في المساء، كان يحاول أن يرجئ قدر الإمكان اللحظة التي يقاسي فيها (عذاب السرير). كانت يحتاج إلى تضميد جروحه برش مسحوق الطلق على مواضع الجرح. بإستثناء فرشاته، كان عسيراً عليه إلتقاط الأشياء. (أنا لا أستطيع حتى أن أحك نفسي). كان يحتفظ بمسطرة قريبة منه، ويسأل الممرضة أن تحك له ظهره بها برفق، على طريقة الصينيين. كانت المعضلة الكبرى عنده هي أن يجد وضعاً مريحاً للجلوس. (لماذا كانت العظام في المؤخرة مستدقة جداً؟) كنا نرفعه، وننزل بنطاله، ونرشه بمسحوق الطلق، ثم نزيل وسادة شعر الحصان ونضع أخرى محشوة بألياف الكابوك مكانها، لكن من دون جدوى. (إنها مثل النار)، كان يقول متذمراً، (أنا جالس على فحم ملتهب!). كان يتضايق وتثور ثائرته وينزعج ويشتم، لكنه لم يفكر أبداً بالإنتحار ـ أنا على يقين من ذلك، لأني كنت معه تقريباً طوال الوقت، ولم يكن يُخفي عني أي شيء يدور في ذهنه.

في أسوأ لحظاته، كان يلمح تلميحاً إلى الموت، لكن بأسلوب ساخر دائماً. كان يثني على قبائل زنجية معيّنة تتخلّص من عجائزها بالطلب منهم أن يتسلقوا نخلة جوز الهند، ثم يهزون النخلة بعنف، وإن لم يستطع العجوز التشبث يسقط، فيدق عنقه ويموت. كان يقترح سن قانون يعدل تحديد الخدمة العسكرية حتى عمر الشيخوخة، (عند ذلك، لا تحدث الحروب.

Twitter: @ketab_n

السياسيون الذين يرتعشون كلّهم، سيكونون مجبرين على الخدمة. وإذا ما اندلعت الحرب، ستكون، مع هذا، فرصة للتخلّص من عدد كبير من الأفواه غير النافعة !). كان يغتاظ عندما يسيل أنفه، لأنه لا يستطيع مسحه بيده؛ كان يرغي ويزبد لأن حزام الفتق يجرحه، ويستاء من الأربطة التي تغطي كل جسمه وتجعله يتعرّق. (أنا شيء قذر)، قال. وهذا غير صحيح، إذ كان نظيفاً على نحو موسوس. كل صباح وكل مساء كنا أنا وغران لويز نزيل عنه ملابسه، ونقلبه على سريره، المكسو بقماش زيتي، فكانت الممرضة تفرك جسمه من الرأس حتى القدمين بالكحول. كان لديه بضعة أطقم من الأسنان الاصطناعية، يغيّرها باستمرار؛ وتلك التي كان لا يستخدمها تحفظ في محلول مطهّر. حكى لي، كم كان سعيداً حين فقد آخر سن من أسنانه، قبل ذلك بسنوات، بينما كنت أنا في المدرسة الداخلية، (على الأقل)، قال، (إن الأعداء تخلّوا عن مواقعهم !).

في الصباح، بعد ليلته (المقيتة)، كان يدعنا نغسل جسمه ونلبسه ملابسه، بينما هو لا يزال نصف نائم. كان يصرّ، مع ذلك، على الجلوس إلى المائدة، على كرسي ذي مسندين، لتناول فطوره. كان يحسّ دائماً بالرعب من تناول طعام الإفطار في السرير، بسبب تساقط الفتات، الذي يتجمع تحته. (أعتقد ان الإفطار في السرير هو ترف عظيم لأغلب الفرنسيين! لكنه، بالنسبة لي، كان دائماً شيئاً بغيضاً). كان لا يزال يرغب بالخبز المدهون بالزبدة، و"بالكافيه أو ليه" (القهوة بالحليب)، كما في أيام شبابه. لكن بات هذا زعماً، فالخبز المحمّص يؤذي لثّته، وكان يقضم بضع كسرات فقط. كان يشتهي أكل القليل من قرص رغيف أو كعكة ناعمة، ويتمنى أكل "الكرواسان"، لكن، (لا يمكنك الحصول على الجيّد منه إلا في باريس). بعد أن نفرغ من تنظيفه في غرفة النوم، نجلسه في محفة ـ كرسي بمسندين مصنوع من آماليد مجدولة، مثبت على جانبيه عمودان من الخيزران. عند نزول السلم، كانت غران لويز تحمل المقبض الأمامي، وتحمل الممرضة المقبض الخلفي. في الصعود، كان الوضع

Twitter: @ketab_n

ينعكس. وتبنوا الطريقة نفسها في الأرض المنحدرة في ليه كوليت. حسب حال المناخ، أو حسب توفر الضوء، أو حسب العمل الذي يقوم به، كان رينوار يدعهم يحملونه إلى المرسم، أو يؤخذ في جولة للبحث عن "منظر طبيعي"، أو لإنهاء منظر كان بدأ به. كان تخلى تقريباً عن الرسم داخل المرسم الكبير، بنوافذه الواسعة على الجانب الشمالي. ضوؤه (البارد والكامل) كان يزعجه. بنيت له نوعاً من السقيفة الزجاجية بحجم خمسة أمتار مربعة مع إطارات نوافذ يمكن أن تكون مفتوحة على سعتها، ويدخلها الضوء من جميع الجهات. هذا الملجأ، أقيم وسط أشجار الزيتون والعشب الوافر، تماماً كما لو كان يعمل في الخارج، ويمكنه التحكم بالضوء بواسطة ستائر قطنية، تُسحب ويعدّل وضعها. هذا الإختراع لمرسم خارجي، الذي يمكن فيه ضبط الإضاءة، كان حلاً مثالياً لمسألة قديمة، حول العمل في الطبيعة مقابل العمل في الاستوديو، بما أنّه جمع الإثنين.

اختراع آخر سمح له، بالرغم من صعوبة حركته، بالشروع بمواضيع كبيرة نسبياً. كان هذا الإختراع نوعاً من جرارة، مؤلّفة من لوح مسمّر على طول قطعة من قماش ثقيل، يدور على إسطوانتين أفقيتين طويلتين، عرض كل منهما أكثر بقليل من متر واحد، واحدة قرب الأرض، والأخرى فوق، على علو مترين. كانت قماشة اللوحة مثبتة على لوح خشبي بمسامير صغيرة. بتدوير الإسطوانة السفلى بذراع تدوير، يمكن لقطعة القماش أن تنبسط في كلا الإتجاهين، وهكذا تجعل من أي جزء من الموضوع، الذي يعمل عليه رينوار، في مستوى عينيه وذراعه. أغلب لوحاته الأخيرة رسمت في مرسمه الخارجي وعلى حامل لوحة مزوّد بإسطوانتين.

عندما كان يوضع في كرسيه المتحرّك في مرسمه، كانت الموديل تذهب إلى الخارج، وتأخذ وضعها على العشب المزهر. كانت أوراق شجر الزيتون تنخل إشعاع الضوء وتؤلّف أشكالاً من الأرابيسك على البلوزة الحمراء

Twitter: @ketab_n

للموديل. وبصوت ما زال واهناً من آلام ليلته، يطلب رينوار فتح أو غلق النوافذ المعدلة، كما شاء، والستائر المعلقة تحميه من ثمل الصباح المتوسطي. وبينما أحدنا يتولّى تحضير ملونه، كان لا يمنع نفسه من التأوه مرة أو مرتين. تكييف جسده المبتلى بالألم على المقعد القاسي للكرسي المتحرّك يسبّب له الوجع، لكنه لا يمانع بهذا المقعد (غير الناعم جداً) لأنه يساعده على البقاء منتصباً ويسمح له بالحركة. كنت أجلس على أرضية مرتفعة قليلاً، أمام المرسم، ورأسي داخله، ورجلاي مبسوطتان إلى الخارج على عشب الشوفان. معاناة أبي أهلكتنا جميعاً. الممرّضة وغران لويز والموديل ومادلين برينو، فتاة صغيرة من القرية ـ وأنا، نُحس بغصّة في حلوقنا. مهما حاولنا أن نتكلم بلهجة طلقة، كان يخوننا صوتنا فيبدو مزيفاً.

الواحد منّا كان يضع قطعة من الكتان للحماية في يد رينوار، ويناوله الفرشاة، التي يطلبها مشيراً إليها بغمزة من عينه، (هذه الفرشاة، هناك... لا، الأخرى...). كان الذباب يدور في شعاع ضوء الشمس. عبارة لغابريال خطرت في ذهني: (يداه المستطيلتان بلطف). الآن، وأنا أحاول أن أسجل انطباعاتي هذه، لا يسعني مقاومة فتح الدُّرْج وتلمّس قفازيّ رينوار ـ رماديان باهتان وصغيران جداً. أعيدهما إلى مكانهما في منديلهما الورقي، وأعود إلى المرسم في الحديقة، إلى يدي أبي المعقوفتين، وإلى... الذباب. (آه من هذا الذباب!). كان يقول غاضباً، مبعداً بالفرشاة واحدة عن نهاية أنفه. (إنها تشم رائحة جثة). لم نكن نجد جواباً. بعد أن يصاعد الذباب إزعاجه، كان يغرق في نعسه، منوّماً بفراشة راقصة، أو بصوت الزيزان البعيد. كان المشهد كوناً صغيراً، كناية عن كل الفنى في العالم. عيناه، أنفه، وأذناه تنقض عليها انطباعات متناقضة. (إنها مسكرة)، لا يفتأ يردد ذلك. كان يبسط ذراعه ويغمس فرشاته في التربانتين، لكن الحركة كانت تؤلمه؛ ينتظر بضعة ثوانٍ، كما لو كان يسأل نفسه: (لم لا أستسلم؟ أليس الأمر عسيراً جداً عليّ؟). ثم بنظرة واحدة على موضوعه، يستعيد شجاعته. خطّ على القماشة إشارة،

Twitter: @ketab_n

بلون المغرة الحمراء، وحده كان يفهمها. (جان، افتح الستارة الصفراء أكثر قليلاً). لمسة أخرى من المغرة. ثم، وبصوت قوي، (إنها سماوية!). كنا نراقبه، وكان يبتسم ويغمز بعينه، كما لو كان يدعونا لنشهد المكيدة التي دُبرت بين العشب، وشجر الزيتون، والموديل، وهو نفسه. بعد دقيقة أو دقيقتين، كان يبدأ بالدندنة. ها قد بدأ نهار من السعادة لرينوار، نهار مدهش، مثله مثل الذي سبقه ومثل الذي سيأتي بعده.

وقت الغداء لم يكن فترة انقطاع. إذ كان ذهنه يواصل استكشاف أقانيم الغموض في اللوحة. كانت العملية تستمر حتى المساء، عندما تطأطئ الشمس هامتها، وتغدو الظلال أشد اسوداداً، حينئذٍ كان جسده يغلبه. يصير ألمه أكثر حدّة ـ في البداية، قليلاً فقط ـ ثم يستأنف عملية التعذيب.

في ظل هذه الشروط رسم لوحته "النساء المستحمات" الموجودة الآن في اللوفر. كان يعتبرها ذروة عمل حياته. أحسّ بأن هذه اللوحة لخّصت كل أبحاثه، ومهّدت لنقطة ارتكاز، أمكنه منها أن يغوص في أبحاث أكثر. أنجزها في وقت قصير نسبياً، أسهمت فيه، إلى درجة كبيرة، الطريقة (البسيطة والنبيلة) التي وقفت فيها اندريه أمامه ليرسمها. (لا بد أن روبنز كان سيرضى عنها!). بعد وفاته، قررنا أنا وأخوتي أن نهب هذه اللوحة إلى متحف اللوفر. رأت إدارة المتحف الألوان (صارخة) جداً، فرفضتها. أرسل لي بارنز، جامع اللوحات والناقد الفني برقية يقول فيها إنه يود شراء اللوحة ليضعها في متحف ميريون في بنسلفانيا. كانت ستنضم إلى رفقة جيدة. فهذا المنظّر الفني العظيم، في زمنه، كان يملك حاسة جيدة لجمع الأعمال الرائعة للفنانين الكبار المعاصرين، من أجل منفعة طلابه. "المستحمات" كانت ستعلق إلى جانب لوحة سيزان، "لاعبو الورق"، واللوحة الأخرى لرينوار "العائلة" التي أشرت لها من قبل، عندما تحدثت عن الشاتو ديه برويار. في هذه الأثناء نقض اللوفر قراره وقَبِل هديتنا. الزمن تغير حقاً، منذ أن رفضت الحكومة

Twitter: @ketab_n

ثلثي مجموعة كايبوت، وبالتالي حرمت فرنسا من كنز نفيس جداً. معارضة الجمال استمرت، وستستمر، بنجاح لقرون قادمة. رينوار، كناية عن الحياة، والحياة تغيظ بشدة الجثث. مع هذا، في مواجهة هؤلاء الخصوم، يزداد عدد المتحمسين المخلصين مالئين الشارع. لم يعد رينوار ينتمي اليوم إلى دائرة مغلقة من عشاق الفن. معجبوه، يتدفقون إلى المتاحف، واقفين بالحشود أمام أعماله، ونسخ رسومه تتضاعف. بيده الهشة، خرق القشرة الصلدة لعقول الناس ووصل إلى قلوبهم. إنه صاغ هؤلاء الناس على صورة مثله الأعلى، تماماً كما صوّر زوجته وأطفاله وموديلاته. شوارع مدننا، ملأى الآن: فتيات صغيرات، أطفال بعيون واسعة صريحة وبشرة مشرقة.

في رحلة رينوار الأخيرة إلى باريس، دعاه مدير معهد الفنون الجميلة (البوزار) لزيارة اللوفر، الذي (فُتح من أجله فقط). واكبوه ببطء عبر مختلف القاعات، جالساً في محفته. سألهم أن يتوقف أمام لوحة فيرونيس "عرس قانا"، فقال لألبير آندريه الذي كان يرافقه: (أخيراً أنا قادر على رؤيتها en cimaise)[١١٠]. في ما بعد، شبّه البير أندريه هذه الزيارة الجليلة بالزيارة البابوية لـ (قداسة بابا فن الرسم).

نجح رينوار في تحقيق حلم حياته كلها: (خلق الفنى بوسائل فقيرة) من ملونه، المبسّط إلى أقصى حد، على سطحه بضع "قطرات" لون صغيرة جدّاً بدت ضائعة، نشرت توهجاً من الذهبي والأرجواني، ولمعان اللحم المليء بالدم الفتي والصحي، وسحر الضوء الغالب، وفي القمة من هذه العناصر المادية، صفاء إنسان اقترب من المعرفة السامية. هيمن على الطبيعة التي هام بها طوال حياته. في المقابل علّمته هي في النهاية كيف يرى ما وراء المظاهر الخارجية، وكيف يخلق، مثلها هي نفسها، عالماً من لا شيء تقريباً. من ماء

---

(١١٠) تعبير تقني يعني: «معلقة على نحو ملائم وظاهرة بالعلو الصحيح للشخص الناظر إليها».

Twitter: @ketab_n

قليل وبضعة معادن وإشعاعات لامرئية، خلقت الطبيعة شجرة سنديان، غابة. من عناق تولد الكائنات. تتكاثر الطيور، الأسماك تمخر البحر، وإشعاعات الشمس تضيء وتحيي كل هذا الجمع. (ولم يكلف الأمر شيئاً) لولا الإنسان، (هذا الحيوان المدمِّر). سيكون توازن عالم في حركة دائمة مضموناً؛ الموت سيوازن الحياة؛ المصروفات سوف لن تتجاوز الإيرادات؛ دورة الهلاك والخلق ستكون كاملة.

هذا الإسراف في الفنى الذي وقف خارجاً من ملون رينوار، كان غامراً في آخر لوحة رسمها صبيحة اليوم الذي نام فيه ولم يستيقظ أبداً. كان إلتهاب في الرئة أبقاه في غرفته، فطلب علبة رسمه وفراشيه ورسم شقائق النعمان، التي ذهبت نينيت، خادمتنا الطيبة، إلى الخارج وجمعتها له. لساعات عدة، تماهى مع هذه الزهور، ونسي ألمه، ثم أومأ لأحدهم أن يناوله فرشاته وقال، (أعتقد أني بدأت أفهم شيئاً ما)، هذه هي العبارة التي نقلتها لي غران لويز. أما المرضة فتعتقد انه قال، (اليوم، تعلمت شيئاً ما!).

كنت، يومذاك، مضطراً للذهاب إلى نيس. حين عدت، وجدت أبي في سريره، يتنفّس بصعوبة. كانت الممرّضة بعثت في طلب الدكتور برات الذي وصل بعد وقت وجيز. أخبرني بأن هذه هي النهاية. أحد أوردة الدم حوّلت حشرجته إلى نوع من الهذيان، فمات في الليل.

كان يعبّر، في أكثر من مرة، عن خوفه من أن يدفن حياً. لذا أصررت على أن يفعل برات كل ما هو ضروري. فطلب مني مغادرة الغرفة، حين عاد، أكّد لي أن رينوار مات.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الكتاب، هو ذكريات ابن، ملأى بالحنين، عن أبيه في خريف عمره، دوّنها عندما بلغ هو نفسه هذه المرحلة من العمر. عمراهما المتقدمان أنتجا، بشكل مؤثر، مزيجاً مؤثراً من الحنين للماضي.

غلب على كتاب «أبي رينوار» طابع المرح واتسم أحياناً باللهجة الفظة، التي ميّزت أفلام ما بعد الحرب لجان رينوار، أكثر مما اتسم بالجدّة النقدية لأفلامه العظيمة، مثل «الوهم الكبير» و«قواعد اللعبة» لكن حين يبلغ الكتاب زمن أحداث الحرب الأولى، يأخذ طابعاً أكثر مباشرة. ربما لأن جراح جان التي أصيب بها في رجله، جعلته يتعاطف أكثر مع حالة أبيه الصحية. لا يمكن للمرء أبداً أن ينظر ثانية بلامبالاة إلى رسوم وبورتريهات رينوار، بعد أن يقرأ ذكريات جان عن معاناة أبيه الكارثية من مرض الروماتزم. بالرغم من عجزه، فإن رينوار نادراً ما توقّف عن الرسم.

إنه وصف مثير للمشاعر، ذاك الذي يصف فيه جان محاولات أبيه المبكرة في تفادي مرض الروماتزم، الذي شلّ في النهاية يديه، عندما كان يلعب البيلبوكيه (لعبة كرة القَرْن)، وحين لم يعد هذا ممكناً صار يستخدم جذعاً خشبياً ناعماً.

ISBN 2-84306-181